٥٥

الأعمال

الإسلاميات

قراءة اجتماعية سياسية للسيرة النبوية

المؤلف: **سيد القمني**

الكتاب: **الأعمال: الإسلاميات: قراءة اجتماعية سياسية للسيرة النبوية**

الحـــزب الهاشـــمي – الطبعة الثالثة

حروب دولة الرسول – الطبعة الثالثة

النســـــخ في الوحي – الطبعة الرابعة

الطبعة: (الأعمال: الإسلاميات) الطبعة الأولى ٢٠٠١

الناشر: المركز المصري لبحوث الحضارة (تحت التأسيس)

العنوان: ٣٢ شارع الهرم (مدينة بيتكو) البرج الأول شقة ٢٤

ص.ب: (خاص بالمؤلف) ٢٨ الرماية – الهرم – الجيزة – ج.م.ع

تليفون وفاكس: ٧٤٠٤٨٩٠

البريد الإلكتروني: eccr@link.com.eg

رقم الإيداع: ٢٠٠٠/١٦٤٥٤

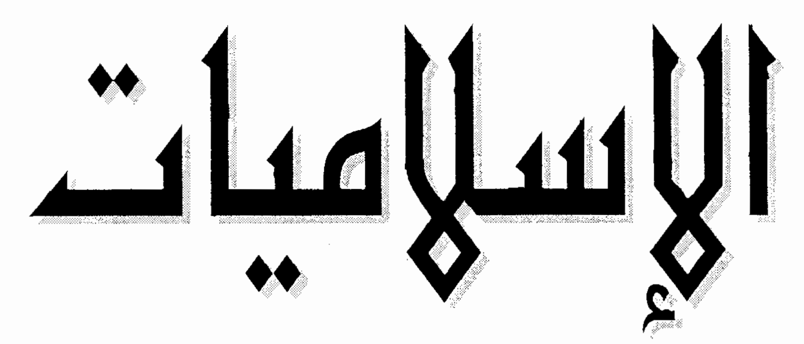
الترقيم الدولي: 8 - 08 - 5931 - 977

الصف والإخراج الفني: م/ سوزان سيد محمود

الطباعة والعمل الفني: **لوجوس سنتر ت: ٢٩٠٦١٦١**

سيد القمنى

الأعمال
(٢)



قراءة اجتماعية سياسية للسيرة النبوية

طبعة منقحة مزيدة زيادات كبيرة

-الحزب الهاشمى

-حروب دولة الرسول (جزآن)

-النسخ فى الوحى



المركز المصرى لبحوث الحضارة
THE EGYPTIAN CENTER
FOR CIVILIZATION RESEARSHES

إهداء

إلى رجال عرفتهم

حمد يوسف العيسى

على الشلقانى

رمزى العدل

حافظوا دوما على إثبات أن زمن النبلاء

وأخلاق الفرسان لم يذهب بعد.

سيد القمنى

القسم الأول

الحزب الهاشمى

دور الحزب الهاشمى والعقيدة الحنفية
فى التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية

مدخل لقراءة الواقع الإجتماعى
لعرب الجاهلية
وإفرازاته الأيديولوجية

تأسيس (١)

«إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء» - قالها (عبدالمطلب بن هاشم) وهو يشير إلى أبنائه وحفدته، فبرغم التفكك القبلى فى بيئة البداوة التى عاشتها جزيرة العرب، فإن هناك من استطاع أن يقرأ الظروف الموضوعية لمدينة مكة بوجه خاص. وأن يخرج من قراءته برؤية واضحة؛ هى إمكان قيام وحدة سياسية بين عرب الجزيرة، تكون نواتها ومركزها (مكة) تحديدا، برغم واقع الجزيرة المتشرذم آنذاك.

وكان هناك من هو على رأى عبدالمطلب من ذوى النظر الثاقب، والفكر المنهجى المخطط الذين استطاعوا أن يصلوا إلى النتيجة نفسها؛ بعد قراءة واعية للخريطة السياسية، والظروف الإجتماعية والإقتصادية. لكن الكثرة الغالبة لم تكن مع هذه الرؤى؛ حتى اليهود الذين كانوا يعيشون بين ظهرانى العرب- كعرب- ما خطر لهم هذا التوقع قط، وإنما كانوا يترفعون على سائر العرب، ويفاخرون بأن لهم من الأنبياء عددا وعُدّة، ومن الأسفار المقدسة كتاب سماوى المصدر. ومن ثم أجاز الأستاذ العقاد لنفسه- وهو رجل متزن ومتوازن- أن يجزم قاطعاً: «بأن شأن اليهودية فى توضيح هذه الحقائق كان أعظم من كل شأن لها فى جزيرة العرب»[(١)]. وهذه الحقائق التى يعنيها الأستاذ العقاد هى أنه برغم عدم قراءتهم الصحيحة لإفرازات الواقع على الأقل بالنسبة لمكة؛ فإن حكاياتهم عن مغامرات أنبيائهم القدامى، وعن دولتهم الغابرة التى أنشأها الملك النبى داود، وما لحقها من تهويلات ومبالغات، كانت وراء الحلم الذى داعب خيال سراة العرب وأشرافهم. حتى بدا لكل منهم طيف زعامته للدولة الموحدة، مشرقا فى الخيال، تدعمه ما بدأت تشهده الجزيرة فى مناطق متعددة من محاولات لتوحيد القبائل سياسيا؛ سواء عن طريق التحالفات الجانبية التى شكلت نويات مرجوة لوحدة أكبر، أو عن طريق إخضاع قبيلة

---

(١) عباس محمود العقاد: طوالع البعثة المحمدية، دار نهضة مصر، القاهدرة، ١٩٧٧، ص٧٣.

لأخرى. أو التحالفات التى تتفق ومنطق البداوة، والتى كانت تتم بين القبائل المنتمية إلى سلف واحد، مما يجعل انتظامها تحت إمرة زعيم واحد أمرا أيسر، خاصة عند حدوث جلل طارئ أو خطر مشترك. ولا ننسى المحاولات الأخرى المباشرة التى اتخذت صيغة الملك وصبغته؛ كمحاولة (زهير الجنابى) زعيم قضاعة تمليك نفسه على بكر وتغلب[٢]. أو الممالك التى قامت فعلا من زمن سابق لكن فى ظروف مختلفة - على حدود الإمبراطوريات الكبرى - مثل مملكة الحيرة، ومملكة الغساسنة.

لكن بقية الناس - حتى داخل مكة - ممن كانوا يعتبرون أنفسهم عقلاء لم يكونوا مع هذا التفاؤل، ولا مع هذا الجموح فى الآمال. فهذا (الأسود بن عبدالعزى) يقدم الاعتراض البدهى والواضح والمباشر؛ قائلا: «ألا إن مكة لقاح لا تدين لملك»[٣]. وهو اعتراض يستند إلى قراءة أخرى؛ فالعرب - أياً كان الظرف الإجتماعى - لا تقبل بفرد يملك عليهم ويسود؛ لأن معنى ذلك سيادة عشيرة على بقية العشائر، وقبيلة على بقية القبائل، وهو ما تأباه أنفة الكبرياء القبلى وتنفر منه. ولعل هذه القراءة تجد حجتها البالغة فى تجربة رجل مثل (النعمان بن المنذر)، الذى ورث الملك أبا عن جد فى مملكة الحيرة، ومع ذلك وقف يلقى خطابه أمام كسرى الفرس، وفى حضرة وفود دول عدة، مدافعا عن عروبته بقوله:

> «فليست أمة من الأمم إلا وجهلت آباءها، وأصولها، وكثيرا من أوائلها، حتى إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دينا، فلا ينسبه ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبا فأبا. حاطوا بذلك أحسابهم، وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل فى غير قومه، ولا ينتسب إلى غير نسبه، ولا يدعى لغير أبيه. . وأما تحاربهم وأكل

---

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ليدن، بريل، ١٨٨٦، ج١، ص٢٠٦.

(٣) عبدالملك بن هشام: السيرة النبوية، تحقيق طه عبدالرءوف سعد ومحمد محيى الدين عبدالحميد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة ١٩٧٤، ج١، ص٢٠٦.

بعضهم بعضا، وتركهم الانقياد إلى رجل يسوسهم ويجمعهم، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم، إذا أنست من نفسها ضعفا، وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف. وإنما يكون فى المملكة العظيمة أهل بيت واحد، يعرف فضلهم على سائر غيرهم، فيلقون إليهم أمورهم، وينقادون لهم بأزّمتهم. وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين»[٤].

والخطاب هنا- سواء صحت نسبته للنعمان بن المنذر أو لم تصح- لصاحب رؤية سياسية فذة؛ حاول أن يوضح- بإيجاز- الظرف الاجتماعى العربى؛ الذى حال حتى هذا الوقت دون قيام وحدة سياسية كبرى لعرب الجزيرة؛ ذلك الظرف المتمثل فى **نظام قبلى. وعصبية عشائرية**، كانت من لزوم ما يلزم عن شكل المجتمع البدوى غير المستقر، للإبقاء على دوام وجود القبيلة؛ باعتبارها وحدة عسكرية مقاتلة يلزمها التماسك اللزج دوما، والذى كانت مادته اللاصقة: رابطة الدم التى اكتسبت قدسية مفرطة، وهو ما يفسر الشكل الديموقراطى البدائى الذى تمتعت به القبيلة؛ بحيث وقف جميع الأفراد داخلها على قدم وساق. بمساواة تامة، وبمعيار الانتساب لأب واحد، وذلك وحده كان كفيلا بإلغاء أى تمايز، إضافة لظرف آخر دعم هذه المساواة، وهو مواجهتهم جميعا لذات المصير دوما، كمقاتلين.

والخطاب يوضح أيضا- بشكل وضاء- الأسباب التى لم تؤد بالنظام البدوى إلى إفراز مؤسسات سياسية (ملكية) متوارثة؛ لأن القبيلة وحدة عسكرية طارئة، **وزعامتها بدورها أمر طارئ** متغير؛ تبعا لمقتضيات الصراع الناشىء وظروفه؛ تلك المقتضيات التى تحدد سمات الزعيم المطلوب آنيا. وعليه فالزعامة كانت تمنح منحا لصاحب القدرات التى

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق د. عبدالمجيد الترحينى، دار الكتب العلمية، بيروت ط٣، ١٩٨٧، ص٢٧٧، ٢٧٨.

تناسب الظرف ومقتضياته، وهى صفات مكتسبة لا تنتقل بالوراثة؛ على حين ينضوى الجميع فى الظروف الاعتيادية تحت لواء الأحكم، الأكبر، الأكثر دراية والأكثر قدرة على المنح والعطاء. وفى كلا الحالين **تظل المساواة حاضرة**؛ مما جعل البدوى واعيا تماما لفرديته، مصرا على الاعتداد بنفسه؛ بإسراف تمثله دواوين العرب فى الحماسة، والفخر، والاعتزاز بالفرد أو بالقبيلة أو بالنسب.

وفى خطاب (النعمان) دعم آخر لوجهة نظر (الأسود بن عبدالعزى)؛ فهو يؤكد أن الأمم إنما تقبل الخضوع لملك فرد فى وحدة سياسية، إذا «تخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف». وقد أثبت الحجاز- ومكة بالذات- أنه بعيد المنال، ولا يتخوف نهوض عدوه إليه. فبينما كانت الممالك العربية قد وقعت تحت الاحتلال أو النفوذ الأجنبى- ففقدت اليمن استقلالها منذ الربع الأول من القرن السادس الميلادى، وسقطت تحت حكم الأحباش ثم الفرس، وفقدت مملكة الحيرة استقلالها وتحولت إلى إمارة يحكمها أمير فارسى، واضطربت أحوال المملكة الغسانية- بعد أن قلب لها الرومان ظهر المجن- فإن منطقة الحجاز بمدينتيها الرائدتين (مكة ويثرب)، كانت تتمتع باستقلال نقى، هيأها له وضعها الجغرافى، ووعورة الطريق إليها: فكانت هى البيئة العربية الخالصة؛ البعيدة عن مجال الصراع الدولى، وعن التأثر بالحضارات الأجنبية؛ بدون أن تفقد التواصل معها. ولم تخضع لحاكم أجنبى، ومع ذلك فلم تكن فيها ممالك بالمعنى الحقيقى، **ولا وحدة سياسية كبيرة تنتظم أمر قبائل الحجاز جميعا**، وهذا كله إنما هو دعم حقيقى لرأى (الأسود ابن عبدالعُزى)!.

وإزاء كل هذه العوائق الواضحة، والمحبطات السافرة للحلم، وللأمل، وللتوقع، لم يجد الآخرون سوى الاهتداء إلى أنه لا حل سوى أن يكون منشىء الدولة المرتقبة نبيا مثل داود، وعندما وصلوا إلى هذا؛ فشا الأمر بسرعة هائلة بين العرب؛ حتى اشتد الإرهاص بالنبى المنتظر خلال فترة وجيزة، وآمن هؤلاء بذلك، وأخذوا يسعون للتوطئة للعظيم

الآتى؛ وإن ظلت المشاعر القبلية داخل النفوس التى تهفو للوحدة؛ وظن كل منهم أن الآتى سيكون منهم؛ مثل (أمية بن عبدالله الثقفى) الذى راودته نفسه بالنبوة والملك؛ فقام ينادى:

ألا نبى منا فيخبرنا ما بعد غايتنا فى رأس محيانا؟

لكن العجيب فعلا ألا يمضى من السنين غير قليل، حتى تقوم فى جزيرة العرب دولة واحدة بل دولة قوية ومقتدرة، تطوى تحت جناحيها - وفى زمن قياسى - ممالك الروم والعجم؛ بعد أن أعلن حفيد عبدالمطلب بن هاشم: محمد بن عبدالله ﷺ أنه النبى المنتظر!

* * *



تأسيس (٢)

يقول الدكتور (أحمد شلبى) فى كتابه (السيرة النبوية العطرة): إن «أهم مصادر الثروة عند العرب، ارتبطت بالتجارة، وقد اشتهر العرب فى الجاهلية بالتجارة شهرة واسعة؛ حتى قيل: **إن كل عربى تاجر**. وكانت الجزيرة العربية تمثل بحرا واسعا تخترقه قوافل الإبل فى شبه مجموعات من السفن؛ تمخر عباب البحر الفسيح، وقد حلّت هذه القوافل محل الملاحة بالبحر الأحمر الذى كانت فيه الملاحة عسيرة.. وكان هناك طريقان رئيسيان للقوافل؛ أحدهما من الشمال إلى الجنوب؛ وغير بعيد عن البحر الأحمر؛ وهو فى الشمال يتفرع إلى الشمال الشرقى تجاه سوريا، وإلى الجنوب الغربى تجاه فلسطين؛ وهو فى الجنوب يسير شوطا مع ساحل حضرموت. أما الطريق الثانى فهو يخترق الجزيرة العربية من البحر الأحمر إلى الخليج العربى ماراً بمكة، ويتفرع فى قلب الجزيرة إلى فرعين: يتجه أحدهما إلى الشمال الشرقى فيصل شط العرب، ويتجه الآخر إلى الجنوب الشرقى ويسير مع الخليج العربى مارا بدبى ومسقط وظفار. ولما وقعت اليمن فريسة الاستعمار الحبشى ثم الفارسى، استطاع المستعمرون أن يسيطروا على النشاط البحرى الذى انكمش انكماشا ظاهرا، أما النشاط البرى داخل الجزيرة، فقد انتقل إلى مكة؛ لأن نفوذ القوى الأجنبية لم يستطع قط أن يمتد إلى قلب الجزيرة»[(١)].

ثم إن الدكتور (شلبى) يعمد إلى إعادة تفصيل هذه المسألة فى موضع آخر من كتابه؛ فيقول: «إن هؤلاء البدو استطاعوا أن يلعبوا دورا مهما فى تجارة العالم، فى تلك الأزمان السحيقة.. ولم تكن سفن ذلك العهد تستطيع استعمال البحر الأحمر المملوء بالجزر، التى تجعل الملاحة خطرا عليها، ومن عيوب الملاحة فى البحر الأحمر أيضا أن شواطئه قليلة الموانئ، وأن به كثيرا من الشطوط الضحلة، التى كان اقتراب السفن منها أمرا محفوفا

---

(١) د. أحمد شلبى: السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٢، ١٩٨٧، ج١، ص١٢٤.

بالخطر . ولم تكن السفن تستطيع استعمال الخليج الفارسى ؛ بسبب وجود الفرس على ساحله الشمالى ، وهم أعداء لسكان حوض البحر المتوسط . وعلى هذا **أصبحت المواصلات البرية هى الطريق المهم للتجارة عبر البادية** ؛ بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب ، وقد حدد البدو أماكن للراحة والاستجمام طوال الطريق فكانت بمثابة محطات يتزودون منها بالماء والزاد ، وكانت أيضا بمثابة مخازن يودعون فيها بعض المتاجر ؛ لتلحق بقافلة أخرى عبر طريق آخر»[(٢)] .

ويضيف هنا الأستاذ (أحمد أمين) قوله : إن «**طريق البحر لم يكن طريقا مأمونا ، فالتجأ التجار إلى البر يسلكونه ،** ولكن طريق البر نفسه كان طويلا وخطرا ؛ لذلك أحاطوه بشيء من العناية ؛ كأن تخرج التجارة فى قوافل ؛ وأن تسير القوافل فى أزمنة محددة ، وطرق محددة» ، ثم يشير إلى تحول هو جد خطير ؛ برغم أنه كان ناتجا طبيعيا من **تحول مكة من مجرد محطة على الطريق ، تأخذ عشورها وضريبتها ؛ إلى حاضرة تجارية تظهر فيها طبقة من التجار تحتكر الأمر لنفسها فيقول :**

« ثم انحط اليمنيون . . وحل محلهم فى القبض على ناصية التجارة عرب الحجاز . وكان ذلك منذ بداية القرن السادس للميلاد ؛ فكان هؤلاء الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ؛ ثم يبيعونها على حسابهم فى أسواق الشام ومصر ، وقليلا ما كانوا يبيعونها فى أسواق فارس ؛ لأن التجارة مع الفرس كانت فى يد عرب الحيرة . وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارتهم ، ووضعوا الطريق تحت حمايتهم»[(٣)] .

ومصداقا لقول الأستاذ (أحمد أمين) نجد الروايات الإخبارية تجمع على قيام (تبع) ملك اليمن فى وقت مبكر بحملة لإخضاع مكة ويثرب ؛ كأهم المحطات التجارية على الطريق .

---

(٢) نفسه : ص ١٥٣ .

(٣) أحمد أمين : فجر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط١٤ , ١٩٨٧ ، ص١٢و١٣ .

ويقـول (المسعـودى) : «وهو الملك السـائر من اليـمن إلى الحـجاز ، وكـانـت له مع الأوس والخزرج حروب ، وأراد هدم الكعبة ؛ فمنعه من كان معه من أحبار يهود»[٤].

كما تجمع هذه الروايات على عدد آخر من محاولات ملوك حمير التبابعة ، لتوسيع نفوذهم وسيطرتهم على الخطوط التجارية فى أماكن مختلفة من الجزيرة ، ومنها قيام (تبع بن ملكى كرب) بتجريد حملتين : الأولى على طريق التجارة مع الفرس ، وقصدت منطقة الحيرة ، والثانية على طريق الشام مصر ، وقصدت الحجاز[٥] ؛ هذا إضافة إلى حملة الفيل المشـهـورة على مكة . ولعل الصـراع الذى نشـأ فى اليـمن بين الديانة اليـهـودية والديانة المسيحية كـان ناتج سعى الرومـان للحد من نفوذ اليمن وسيطرته على الشريان التجارى . وعـادة مـا اتخذ مثل ذلك الصراع أشكالا دينيـة ، وقد بدأ بلا جـدال فى تحالف الحبـشة- كـمنافس لليمن- مع الروم ، واعتناق المسيحية ؛ من أجل دعم سيطرتهم على الطريق التجارى . ثم ظلت اليمن محلا لاصطراع الروم والفرس ، أو اصطراع المسيحية المدعومة من الروم واليهودية المدعومة من الفرس ، **لظروف اقتصادية بحتة** ؛ حتى الفتح الإسلامى سنة ٦٢٨م .

وقد فشلت الحـملات جميعها على الحجاز ولم تحقق أغراضـهـا . ومـا إن أطل القرن السادس على ربعه الأخير حتى بدأت المنافسة بين مكة ويثرب : أهم محطتين فى الحجاز ، تبدو أكثر وضوحا . وكـان ممكنا أن تصبح يثرب صاحبة شأن خطير فى العصر الجاهلى ، بحسبانها محطة مرور ضرورية يمر عليها الطريق التجارى القادم من مكة شمالا ، لولا دخولها مرحلة تمزق ، نتيجة الخلافات الداخلية التى ربما كان سببها تركيبها الهجين . فبرغم تجانس السكان- فسكانها من الأوس والخزرج من اليمن وبطون اليهود يعودون إلى أصول

(٤) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ، المكتبة الإسلامية . بيروت ، د.ت ، ج٢ ، ص٧٦ .
(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج١ ، ص١٠٨ .

يمنية- فإن العامل الدينى ووجود اليهود فيها كان لاشك عاملا مؤججا للصراع الداخلى. حتى أشرفت على هلاك كامل؛ أدى بها إلى محاولة سبق لمكة؛ فكادت تقوم بها مملكة على يد (عبدالله بن أُبَّى بن أبى سلول) قبل الهجرة النبوية إليها[٦].

ولم تكن قريش بريئة كل البراءة مما يحدث فى يثرب، وإنما أسفرت عن توجهها بالتحالف مع الأوس ضد الخزرج يومى معبس ومضرس، وهو مما يلقى الضوء على المستقبل القريب. **عندما يتحالف أهل يثرب وعلى رأسهم الخزرج مع النبى ﷺ ضد قريش،** ويفسر لنا التحالف الذى سبق ذلك بين عبدالمطلب بن هاشم ممثلا لبنى هاشم، وبين الخزرج من أهل يثرب.

ومع نهاية القرن السادس الميلادى نجد مكة تقف على الطريق؛ مالكة لمركز رئاسى لا شك فيه، بعد أن أتاحت لها الظروف الداخلية تجميع التجارة الخارجية فى يدها، وأتاحت لها الظروف الخارجية أن تستغل الأوضاع العالمية لصالحها. خاصة الصراع الدولى الهائل بين الروم والفرس فى الشمال والجنوب، وهو الأمر الذى أعانها على **القيام بأمر تجارة العالم، والنجاح فيه بكفاية، أكسبت أهل مكة ثروة عظيمة،** فحظيت باحترام عربى عام؛ حتى باتت مؤهلة للزعامة. فى وقت أخذ فيه العرب يتطلعون إلى منطقة عربية مستقلة؛ تتولى زعامة النهضة العربية وتقودها. أو كما يقول الدكتور (أحمد الشريف): «أصبحت أهلا لأن تكون موضع النواة فى قيام نهضة قومية عربية، واطمأنت قريش إلى هذا المركز، وعملت على دعمه، وحرصت على دوامه»[٧].

---

(٦) محمود الحوت: فى طريق الميثولوجيا عند العرب، بيروت، دار النهار، ط٢، ١٩٧٩، ص٥٩: ٦٢.

(٧) د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربى، القاهرة، ط٢، ص٢٣٨.

الكعبـــات

هكذا تناثرت- فى الوسط الاجتماعى العربى- جماعات البشر على هيئة قبائل متنافرة؛ لاحكم فيها ولا سلطة إلا للعرف القبلى، الذى يختلف بدوره باختلاف القبائل وظروفها. ومع تعدد القبائل تعددت المشيخات وكثر الشيوخ وأبطال الغزو. أولئك الذين تحولوا بعد موتهم إلى أسلاف مقدسين، وأقام لهم أخلافهم التماثيل والمحاريب، ليلتمسوا عندهم العون كلما حزبهم أمر أو حل بهم جلل. ومن أجل هؤلاء الصالحين السالفين؛ أقيمت بيوت العبادة، وشرعت طرق التقرب إلى الأرباب أو الأسلاف (الرب لغة هو سيد الأسرة أو القبيلة وهو بعلها)؛ ومن ثم تعددت الأرباب بتعدد الأبطال والصالحين الراحلين، **وبتعدد الأرباب تعددت الكعبات؟!** حيث كانت الكعبة (البناء المكعب) هى الصيغة المعمارية المفضلة لبيوت أرباب الجاهلية، وأحيانا أخرى كانت هذه الكعبات تقام تقديسا للأحجار الغريبة والنادرة؛ مثل الأحجار البركانية أو النيزكية، وكلاهما كان يغلب عليه اللون الأسود نتيجة عوامل الاحتراق. ونظن هذا التقديس ناتجا- إضافة لغرابة شكل الحجر- من كونه قادما من عالم غيبى مجهول؛ فالحجر البركانى مقذوف نارى- من باطن الأرض وما صيغ حوله من أساطير قسمته طبقات ودرجات، واحتسبته عالما لأرواح السالفين المقدسين- كذلك الحجر النيزكى، وربما كان أكثر جلالا. لكونه كان يصل الأرض وسط مظاهرة احتفالية سماوية تخلب لب البدوى المبهور؛ فهو يهبط بسرعة فائقة محتكا بغلاف الأرض الغازى؛ فيشتعل مضيئا ومخلفا وراءه ذيلا هائلا، لذلك؛ كان هول رؤيته **فى التصور الجاهلى** دافعا لحسبانه ساقطا من بيوت وعرش الآلهة فى السماء؛ حاملا معه ضياء هذا المكان النورانى؛ ومن ثم كان طبيعيا أن يحاط بالتكريم والتبجيل.

ومع كثرة الأحجار القادمة من عند الأسلاف، أو الهابطة من السماء؛ كثرت أيضا الكعبات. وعن الكعبات ومحجات العرب يقول الباحث (محمود سليم الحوت): «يجب

ألا يخطر على بال أحد أن مكة- وإن ارتفعت مكانتها عن سواها من أماكن العبادة- هى القبلة الوحيدة فى الجزيرة؛ فقد كان للعرب كعبات عديدة أخرى تحج إليها فى مواسم معينة وغير معينة، تعتر (تذبح) عندها، وتقدم لها النذور والهدايا، وتطوف بها، ثم ترحل عنها بعد أن تكون قد قامت بجميع المناسك الدينية المطلوبة»[(١)].

وقد اشتهر من بيوت الآلهة أو الكعبات ما وجدنا ذكره عند الهمدانى (بيت اللات، وكعبة نجران، وكعبة شداد الإيادى، وكعبة غطفان)[(٢)]، وما ذكره الزبيدى (بيت ذى الخلصة المعروف بالكعبة اليمانية)[(٣)]، وما جاء عند ابن الكلبى (بيت ثقيف)[(٤)]، إضافة إلى ما أحصاه (جواد على) (كعبة ذى الشرى، وكعبة ذى غابة الملقب بالقدس)، ومحجات أخرى لآلهة مثل (اللات، ودبان، وصالح، ورضا، ورحيم، **وكعبة مكة**، وبيت العزى قرب عرفات، وبيت مناة)[(٥)]، هذا مع ما جاء فى قول الأستاذ العقاد عن «. . البيوت التى تعرف **ببيوت الله أو البيوت الحرام**، ويقصدها الحجيج فى مواسم معلومة تشترك فيها القبائل. . **وكان منها فى الجزيرة العربية عدة بيوت مشهورة**، وهى بيت الأقيصر، وبيت ذى الخلصة، وبيت رضاء، وبيت نجران، وبيت مكة. . وكان بيت الأقيصر فى مشارف مقصد القبائل؛ من قضاعة ولخم وجذام وعاملة. يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده. . **فالأمر الذى لا يجوز الشك فيه أن البيوت الحرام وجدت فى الجزيرة العربية؛** لأنها كانت لازمة. . وقد اجتمع لبيت مكة من البيوت الحرام مالم يجمع لبيت آخر فى أنحاء الجزيرة؛ لأن مكة كانت ملتقى القوافل؛ بين الجنوب والشمال، وبين

---

(١) محمود الحوت: فى طريق الميثولوجيا عند العرب، ص١٣٣.
(٢) الهمدانى: الإكليل، بغداد، ١٩٣١، ج٨، ص٤٨.
(٣) الزبيدى: تاج العروس، القاهرة، ١٣٠٦هـ، ج٢، ٢٧١.
(٤) الكلبى الأصنام، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٢٤، ص١٦.
(٥) د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمى العراقى، بغداد، د.ت، ج٥، متفرقات صفحات: ١٨٠، ١٥٢، ١٥٣، ٢١٧، ٢٢٤.

الشرق والغرب»[٦]. ويُفهم من العقاد أن هذه البيوت كانت محرمة ولها أيامها الحرام، لكن بيت مكة بالتحديد أخذ فى التمايز؛ لموقع مكة العظيم على طرق القوافل التجارية جميعا؛ حتى جاء وقت- كما قلنا- أصبحت فيه مكة ملتقى تجارة العالم، وأصبح أهلها أهم تجار الدنيا.

ويمكننا هنا التمييز بين مفهوم العربى الجاهلى لمعنى الألوهية ومعنى الربوبية: فالألوهية تعنى إلها غير منظور يسكن السماء، ومن هناك يتساقط ملاط بيته الإلهى من آن لآخر؛ على هيئة أحجار سوداء. فى حين أن الربوبية تشير إلى تقديس للأسلاف يتفق حجمة مع أهمية رابطة الدم عند العربى البدوى. وعلى هذا النحو؛ عبد النبطيون حجرا أسوداً يرمز إلى الشمس كإله للسماء[٧]، وعبد الهذليون حجرا أسوداً يرمز لمناة، وكان ذو الشرى حجرا أسوداً، وكذلك كانت الكعبة المكية إطاراً لحجر أسود[٨]، كما كانت باقى الكعبات تتسم بذات السمة؛ فهى أطر لأحجار سود. وسميت هذه الكعبات بيوت الله. **لأن كل بيت منها فيه حجر من بيت الإله الذى فى السماء؛** تمييزا له عن الأرباب التى لم تكن سوى مجرد تماثيل أو أحجار بركانية توضع فى أفنية الكعبات؛ انتفاعا ببركات الأسلاف الصالحين، وتشفعا بهم عند إله السماء.

وواضح لدى أى باحث **أن هذا التفرق العقائدى، وتعدد العبادات والأرباب؛ قد ساعد بفعالية فى زيادة الفرقة القبلية،** بحيث أصبح عائقا دائما ومستمرا فى سبيل المحاولات التى قامت من أجل خلق كيانات سياسية فى جزيرة العرب. إضافة إلى الطبع القبلى الذى يأنف كبرياؤه وينفر من فكرة سيادة سياسية واحدة- تلك المحاولات التى سبق أن أشرنا إليها- مثل محاولات زهير الكلبى، وعبدالله بن أبى، وكندة، والغساسنة،

---

(٦) العقاد: طوالع البعثة المحمدية، ص١٣٠و١٣١.
(٧) د. خليل أحمد خليل: مضمون الأسطورة فى الفكر العربى، الطليعة، بيروت، ١٩٧٧، ص٤٣.
(٨) الحوت: فى طريق الميثولوجيا عند العرب، ص٥٩: ٦٢.

والمناذرة، وكان الدافع إليها جميعا حلماً وأملاً أججه الشعور الآتى بإمساك عنان تجارة العالم، ووجود هذا العالم مسترخيا ينزف فى حروب طال مداها بين الإمبراطوريات الكبرى.

ولا تفوتنا الإشارة إلى أن مثل هذه المحاولات اتسمت بروح العصبية العربية الخالصة التى تجلت بدءاً فى اعتناق المناطق العربية الواقعة تحت النفوذ الإمبراطورى؛ أيديولوجيات أو مذهبيات دينية تخالف مذاهب الإمبراطوريات؛ حتى بلغ الطموح مداه فى هجمات عربية متفرقة- لكنها شرسة- كرا وفرا؛ على حدود الدول العظمى؛ إلى درجة أن الشعور العربى بلغ أوجه؛ متمثلا فى فرح عام بالجزيرة كلها؛ عندما انكسر الفرس بعظمتهم وجبروتهم أمام حلف عربى صغير لقبائل شيبان وعجل وبكر بن وائل؛ فى وقعة ذى قار(٩). مما دفع بالحلم إلى الخروج من ساحة التمنى إلى ساحة التوقع؛ وربما التحقيق! مرهونا بشرط واحد هو تحالف وتوحد كتوحد العرب فى ذى قار؛ ذلك التحالف الذى بدأت تباشيره فى شعور عام دفع الوفود القبلية من كل صوب وحدب، إلى أن تحث خطاها بين الفيافى والقفار نحو اليمن؛ لتهنىء معد بن يكرب أو سيف بن ذى يزن بطرده الأحباش، وبعودة الحكم العربى إلى اليمن.

* * *

(٩) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١، ص٢٠٠.

مكة حلم السيادة

وقد لعب جدل السياسة الدولية، وما تبعه من تغيرات هائلة على المستوى الاقتصادى؛ دورا خطيرا لصالح عرب الجزيرة؛ وبخاصة فى يثرب ومكة؛ حيث أخذت أوضاع الخط التجارى تضطرب وتتقلب؛ مما أثر على بنية التركيب الاجتماعى فى المدينتين. وبخاصة مكة التى تطورت كمحطة مرور على طريق القوافل التجارية، حتى أضحى أهلها فى حالة تناقض مع الشكل الاجتماعى البدوى المتفكك وغير المستقر. فبدأت تدخل مرحلة تحولات بنيوية واضحة فى تركيبها الاجتماعى، وبدأت تضمحل فى داخلها التركيبة القبلية، مع إفراز جديد لمواقع سلطة ومؤسسات لم تكن موجودة من قبل، وهو إفراز طبيعى للاستقرار والملكية، وما يتبعه بالضرورة من صراع حول امتلاك وسائل الإنتاج، ثم السلطة السياسية. بعد أن اشتدت الحاجة إلى استقرار أمثل، للقيام على شئون هذا العمل التجارى الهائل، وتقسيم الأدوار حول هذا العمل. ثم الحاجة إلى حراسة وحماية قوافل التجارة التى أصبحت تجارة المكيين أنفسهم، وأموالهم هم، وتوفير جو من الأمن العام، وما يترتب على ذلك من ضرورة إنشاء جيش منظم للقيام بالأمر؛ كان أهم عناصره وركائزه طبقة العبيد. **ومن ثم كان حتميا أن يتطور المجتمع المكي من مجتمع يعيش ديموقراطية ومساواة بدائية إلى مجتمع متمايز طبقيا.**

ويشرح لنا الدكتور (أحمد الشريف) ظروف المجتمع المكي من الداخل؛ فيقول: «.. غير أن الثروة لم تكن موزعة توزيعا عادلا؛ فقد كانت الهوة بين الأغنياء والفقراء كبيرة من الناحية الاقتصادية.. وكان التفاوت الطبقى موجودا على الرغم من الإحساس بالقرابة، ووجود علاقات الحلف والولاء. وعلى الرغم من الإحساس النفسى العام بالمساواة- ومتمثلا فى الفروق الواضحة بين طبقة الصرحاء وطبقة الموالي، بالنظر إلى ما كانت تكفله الثروة وشرف البيت لصاحبها؛ من تأهيل للدخول فى مراكز القيادة والزعامة.. وكان العرب يتطلعون إلى مُثل جديدة فى الأخلاق والاجتماع تساير الطبع العربي»[1].

---

(١) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، ص٢٤٢: ٢٤٤.

وعليه فقد تهيأت مكة لإفراز عناصر قيادية عربية، **كما قدرت أحداث الجدل الدائر للكعبة المكية أن تكون الكعبة الأولى والمحج الأقدس؛ دون غيرها من الكعبات،** وساعد على ذلك أسواق مكة المختلفة ومواسمها المتنوعة التي وضعت لجذب التجار؛ ثم انتشرت لغة قريش وعاداتها بين القبائل الحالة والمرتحلة؛ بعد أن حتمت مصالح القرشيين التجارية عليهم اليقظة والاهتمام بما يجري حول جزيرتهم من أحداث، لتأثير هذه الأحداث المباشرة على ما بأيديهم. وكان هذا الوعى دافعا لنزعة قوية من التسامح الديني، ولنضوج ميزهم عمن حولهم من أعراب؛ فاستضافوا فى كعبتهم المكية الأرباب المرتحلة برفقة أصحابها التجار وقاموا بتبني هذه الأرباب تدريجيا، فكان أن تركها أصحابها فى كعبة مكة، ليعودوها فى مواسمها. فكثرت المواسم المكية بالاحتفالات الدينية بالأرباب المختلفة، وكثر أيضا الخير والبركة من التجارة، وكان حتميا أن تهفو قلوب العرب وتجتمع عند كعبة فيها أربابهم ومعاشهم وأمنهم ومرحهم وسمرهم، وأن يضمحل بالتدريج شأن بقية الكعبات التى توارت فى الظل ثم فى الزوال حتى طواها النسيان.

وكان موقع مكة الجغرافي بعيدا عن يد البطش الإمبراطوري (فارسية أو رومانية)، إضافة إلى حالة الضعف والانهيار التى أصابت هذه الامبراطوريات؛ مع الفشل الذريع الذى منيت به المحاولة اليتيمة من روما لضرب مكة كمركز تجارى قوى بواسطة جيش أبرهة الحبشي فى عام الفيل. عوامل مجتمعة ساعدت على صعود النجم المكي واتساع السطوة المكية؛ مما أعطى القرشيين الضوء الأخضر للقيام بالدور التاريخي الذى حتمته الظروف عليهم. خاصة بعد أن تدهورت اليمن مرة أخرى، وأصبحت قاصرة عن القيام بهذا الدور، وانتهت كتابع للدولة الفارسية.

وإن ارتفاع النجم المكي وصعوده بعد حملة الفيل، أمر يحتاج إلى الوقوف معه وقفة سريعة؛ توضح لنا إلى أى مدى بلغ أمر قريش فى نفوس القوم، إلى الحد الذى دفع العرب جميعا إلى رجم قبري أبى رغال؛ دليل الجيش الغازي. وإلى الاعتقاد الواثق برب

الكعبة المكية الذى صد عن بيته جيشا ما كان ممكنا أن يصده العرب؛ تلك الثقة التى تجلت فى الاعتقاد **بأن جيش أبرهة قد تعرض لهجوم جوى فريد فى نوعه**. إذ أرسل الله على الجيش طيورا ترميه بالأحجار، وينقل السهيلى عن النقاش: «أن الطير كانت أنيابها كالسباع، وأكفها كأكف الكلاب، وذكر البرقى أن ابن عباس قال: أصغر الحجارة كرأس الإنسان، وكبارها كالإبل» وهذا الذى ذكره البرقى ذكره ابن إسحق فى رواية يونس عنه، وفى تفسير النقاش أن السيل احتمل جثثهم فألقاها فى البحر[٢]. وبهذا الاعتقاد أرسل (رؤبة بن العجاج) رجزه قائلا:

ومسهم ما مس أصحاب الفيل ترميهم حجارة من سجيل
ولعب بهم طير أبابيل فصيروا مثل عصف مأكول[٣]

ويروى ابن هشام فى متن شرح السهيلى للسيرة: «.. **وكان اسم الفيل محمودا**، فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال: ابرك يا محمود، أو ارجع راشدا من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه؛ فبرك الفيل، وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا فى رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى. فأدخلوا محاجن لهم مراقة فبزغوه بها فأبى، فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول. فأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها؛ حجر فى منقاره وحجران فى رجليه؛ أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحدا إلا هلك»[٤].

وابن نفيل صاحب هذه الكرامة، تمتد كراماته فى التراث لتلحق حفيده (عمر بن زيد بن نفيل) على ما سنرى، وابن نفيل يسجل اعتقاده فيما حدث بقوله:

---

(٢) عبدالرحمن السهيلي: الروض الأنف فى تفسير السهرة النبوية لابن هشام، ضبط طه عبد الرءوف سعد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ج١، ص٧٢.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ج١، ص٤٧: ٥١.
(٤) ابن هشام: فى كتاب الروض للسهيلي، ج١، ص٧١.

حـمـدت الله إذ أبصـرت طيـرا   وخـفـت حـجـارة تلقى علينا[٥]

وذات الحديث هو أيضا ما دفع (عبدالله بن الزبعرى) ليرسل شعره قائلا :

تنكلوا عن بـطن مـكة إنهـا   كـانـت قـديمـا لا يرام حـريمـهـا
لم تخلق الشعـرى ليـالى حـرمت   إذ لا عـزيز من الآنام يرومـهـا
سـائل أمـيـر الجيش عـنهـا ما رأى   ولسوف ينبي الجاهلين عليـمـهـا
سـتـون ألفـاً لم يئـوبوا أرضـهـم   ولـم يعش بعـد الإياب سـقـيـمـهـا [٦]

أما (عبدالمطلب بن هاشم) زعيم قريش آنذاك فقد نصح بعدم التعرض لجيش أبرهة، وبأن يترك مكة أهلها إلى شعاب الجبال. ثم توجه إلى إبرهة مع يعمر بن نفاثة وخويلد بن وائلة، **يعرضون عليه ثلث أموال تهامة** على أن يرجع عنهم فرفض[٧]. فرجع عبدالمطلب يناجى ربه :

الـلـهـم إن العـبـد يمـنـع   حـلـه فـامـنـع حـلالـك
لا يـغـلـبن صليـبـهـم   ومـحـالـهم غـدوا مـحـالـك
إن كـنـت تاركـهـم وقـبـلتنا   فـأمـر مـا بـدالـك[٨]

أما ابن هشام فيتابع سرد الأحداث قائلا : « .. وأصيب أبرهة فى جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة أتبعتها منه مدة تمث قيحا ودما، حتى قدموا به صنعاء، وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون. قال ابن إسحق : حدثنى يعقوب بن عتبة أنه حدث : **إن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى فى أرض**

---

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية، ج١، ص٤٧ : ٥١.
(٦) ابن هشام : فى كتاب الروض للسهيلى، ج١ ص٧٧.
(٧) نفسه : ص٧٠.
(٨) نفسه : ص٧٣.

العرب ذلك العام»[٩] ، **وهو ما يترك فى الجسد مثل الحمص والعدس»**، وأما الأستاذ عباس العقاد فكان يبدو على قناعة تامة بدور الجدرى فى هزيمة جيش الفيل ، فيقول مؤكدا جازما قاطعا : «وقد حدث بعد ذلك ما حدث مما لا شك ، **وهو فتك الجدرى بجنود أبرهة** وانهزامه عن البيت . . إن حديث الجدرى الذى فشا سنة ٥٦٩ مثبت . . فى تاريخ بروكوبProcope الوزير البيزنطى المعروف»[١٠] .

ثم يختتم ابن هشام الأمر بإعلان نتيجة حدث الفيل العظيم بقوله : « . . فلما رد الله الحبشة عن مكة ، وأصابهم ما أصابهم من النقمة . أعظمت العرب قريشا ، وقالوا : هم **أهل الله ، قاتل الله عنهم»**[١١] .

أما كيف دخلت مكة هذا الدور ؛ فهو ما سيعود بنا إلى عهد استفاضت فى ذكره كتب التراث ؛ ذلك العهد الذى استطاعت فيه قريش أن تستولى على مكة قبل زمن الفيل بزمان ، تحت قيادة (قصى بن كلاب) ؛ ذلك القرشى الذى استطاع بعبقرية من نوع نادر أن يكون فى مكة سيدا مطلقا .

* * *

(٩) نفسه : فى كتاب الروض للسهيلي ، ج١ ، ص٧٣ .
(١٠) العقاد : طوالع البعثة المحمدية ، ص١٤٥ و١٤٦ .
(١١) ابن هشام : فى كتاب الروض للسهيلي ، ج١ ، ص٧٧ .

قصي بن كلاب

تنبئنا كتب الأخبار أن محاولات السيطرة على مكة مسألة قديمة. تعود فى قدمها إلى قبيلة جرهم، وهى من أصل يمنى قحطانى. وكيف أنه قد اصطرع حول مكة عرب الجنوب القحطانى وعرب الشمال العدنانى، فتنتقل من سيادة جرهم إلى سيطرة إياد بن نزار، ليغلبه عليها بعد ذلك مضر، ومن مضر تنتزعها خزاعة اليمنية مرة أخرى، لينتهى بها الأمر إلى الاستقرار فى يد قريش؛ فى قبضة قصى بن كلاب.

ومن البداية كان واضحا **مدى دهاء قصى ووعيه السياسي**، وإدراكه لما يحدث على المستوى الاجتماعي من جدل وتغير مطرد؛ إبان سعيه العبقري للاستيلاء على السلطة، وانتزاعها لقريش من خزاعة. فقام يتودد إلى حُليل؛ سيد خزاعة، وأدى الود إلى وداد المصاهرة، فتزوج قصى بنت حُليل. وهنا يروى ابن هشام؛ فيقول: «إنه لما هلك حُليل.. رأى قصى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة.. فكلم رجالا من قريش وبنى كنانة، ودعاهم إلى إخراج خزاعة من مكة، وبخدعة استطاع أن يشترى من أبى غبشان الخزاعى- وكان عجوزا خرفا- مفاتيح الكعبة، مقابل زق من الخمر وقعود، فى ليلة سامرة، ويقول الحافظ ابن كثير: «فاشترى قصى ولاية البيت منه بزق من الخمر وقعود؛ فكان يقال: أخسر من صفقة أبى غبشان». ويزيد ابن هشام بقوله: «فكان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكا؛ أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة، **فحاز شرف مكة كلها**»(1).

ونفهم من كتب التراث أن خزاعة لم تستطع استعادة أمرها على مكة، بعد أن تحالف مع قصى القرشيون والكنانيون وغيرهم، حتى انتهى الأمر بطرد الخزاعيين من مكة، وتولى

---

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص109: 115. انظر أيضا ابن كثير: البداية والنهاية، تدقيق مجموعة من الأساتذة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 1988، ج2، ص194.

قصى أمر الكعبة، وبدأ بفرض الضرائب والعشور على القوافل التجارية المارة بمكة؛ مقابل تأمينهم وتأمين السقاية والرفادة لهم. ويقول (المسعودى): «واستقام أمر قصي، وعشر على من دخل مكة من غير قريش، **وبنى الكعبة،** ورتب قريشا على منازلها فى النسب بمكة»[٢]، وهو قول يشير إلى تطور فى خطط قصى لرفع شأن دولته المكية عن طريق الكعبة واستضافتها أرباب القبائل الأخرى، ثم إن (المسعودي) يربط بين خطط قصى ومعنى التقريش (من قريش) والإيلاف (بمعنى الأمن)؛ وهو أمر يظهر وعياً سياسياً واضحاً تمثل بعد استيلائه على السلطة فى إيفاد الرسل إلى الممالك على أطراف الجزيرة؛ لإقامة علاقات مع هذه الممالك؛ ليعطى مكة بذلك دور الدولة. وبهدف طمأنة هذه الممالك على تجارتها؛ ليستمر النشاط المار بمكة، فيقول المسعودي: «وأخذت قريش الإيلاف من الملوك، وتفسير ذلك الأمن، وتقرشت، والتقريش الجمع»[٣].

فى حين يشير ابن كثير إلى منحى ثان فى معنى التقريش وقريش؛ يظهر بوضوح بداية تكون المجتمع المستقر، مرتبطا بالنشاط الاقتصادى. أو التغير فى بنية المجتمع المكي؛ مع الاستقرار الملازم لتعاظم دورها لتصبح أهم محطة ترانزيت. ثم كان محتما أن تكون أكثر المحطات أمانا؛ قياسا على ما أفرزه الواقع السياسي العالمي، من انهيار تام لأنظمة حفظ الأمن التجارى على الخطوط الدولية، وما نتج عن ذلك من تراكم الثروة اللازمة لتحولات المجتمع المكي، وذلك بربطه بين معنى القرش، ومعنى الكسب والتقرش؛ فيقول: «وأما اشتقاق قريش؛ فقيل من التقرش وهو التجمع بعد التفرق. وذلك فى زمن قصى بن كلاب؛ فإنهم كانوا متفرقين فجمعهم بالحرم، وقد قال حذافة بن غانم العدوي:

أبوكم قصى كان يدعى مجمعا   به جمع الله القبائل من فهر

---

(٢) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص٥٨.
(٣) نفسه: ص٩٥.

. . وقيل سميت قريش من التقرش، وهو التكسب والتجارة، وحكاه ابن هشام رحمه الله. وقال الجوهرى: القرش الكسب والجمع، وقد قرش يقرش. . قال البيهقى. . إن معاوية قال لابن عباس: فلم سميت قريش قريشا؟ فقال: لدابة تكون فى البحر تكون أعظم دوابه يقال لها القرش. لا تمر بشىء من الغث والسمين إلا أكلته. . فأنشده شعر الجمحي إذ يقول:

وقريش هى التى تسكن البحر		بها سميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين ولا		تترك لذى الجناحين ريشا
هكذا فى البلاد هى قريش		يأكلون البلاد أكلا كميشا
ولهم آخر الزمان نبي		**يكثر القتل فيهم والخموشا**[٤]

وكان أبرز مؤسسات قصى السياسية هو دار الندوة التى بناها، والتى ربما كانت ذات الكعبة أو فناءها. فكانوا يجتمعون إليه ليقضي بينهم ويدير أمور دولته الصغيرة، ومن بعده كانت قريش تجتمع فيها لتتشاور فى حربها وسلمها، ومن هناك تعقد ألويتها[٥]. مما يعنى دخول قريش مرحلة متحضرة وشوطاً بعيدا، ابتعد بها عن النظام المشيخى القبلى الذى حلت محله دار الندوة، ومثّل القبائل فيه كبراؤهم أو (الملأ). وهو مما سيفرز- بالضرورة- بداية الصراع حول امتلاك وسائل الإنتاج والسلطة السياسية كما سيأتى بيانه؛ فبالندوة ابتعد قصى بقريش وبمكة عن القبلية باتجاه الحضارة، وحل الملأ محل الشيوخ، وحلت الندوة محل الديموقراطية البدوية.

ثم يقول ابن كثير: « . . فكان قصى أول بنى كعب أصاب ملكا، أطاع له به قومه، وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة، فحاز شرف مكة كله. وقطع مكة أرباعا

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص١٨٧.
(٥) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٦٠

بين قومه؛ فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة . . فكانت لقصى بن كلاب جميع الرئاسة، من حجابة البيت وسدانته، واللواء، وبنى داراً لإزاحة الظلمات وفصل الخصومات سماها دار الندوة»[٦] . ولعله من الواضح أن اللواء أو قيادة الجيش، كان الإفراز الأخطر لجدل الأحداث، لبناء جيش قوى يمكنه الوفاء للملوك بالعهود، وتأمين التجارة التى استبدلت ببحر الرمال فى الجزيرة، بحار الدنيا بحروبها وويلها.

ولا يغيب عن فطن أن امتلاك قصى السيادة على مكة، قد تم وفق خطة مرسومة ومدروسة ومنظمة؛ قامت على وعى سياسى نافذ هادف نحو غاية؛ وسائلها هى : الدين؛ ممثلا فى الكعبة المكية؛ حتى قال ابن الأثير : **«كان أمر قصى فيهم شرعا متبعا،** معرفة منهم لفضله وتيمنا بأمره»[٧]، وقال الطبرى : «فكان أمره فى قومه فى حياته وبعد موته **كالدين المتبع**»[٨].

والمال؛ وقد تيسر من عشور التجارة، وتأليف القلوب حوله؛ بالبذل والعطاء كالملوك؛ من خلال السقاية والرفادة.

وهكذا؛ استطاع أن يجمع بين يديه كل الوظائف الرئيسية والدينية والتشريعية فكان أول سيد مطلق النفوذ فى دولته الصغيرة، مكة.

* * *

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية، ج٢، ص١٩٢ .
(٧) ابن الأثير : الكامل، ج١، ص١٨٣ .
(٨) ابن جرير الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، القاهرة، ط٢، د.ت، ج٢، ص٢٥٩ .

الصراع على السلطة بعد قصي

إيمانا منه بفردية الحكم المطلق، وحتى لا تتفرق مكاسبه وتتناثر؛ ترك قصى بن كلاب كل سلطاته ووظائفه وسنته الزكية، لولده البكر عبد الدار، دون أخيه عبدمناف؛ ورحل إلى عالم الأسلاف، بعد أن أسس لقريش **دولتها الواحدة فى مكة**. ولكن قصى ما كان يعلم أن الحقد سيتملك قلب عبد مناف على ملك عبد الدار وما حظى به من تشريف؛ فكان أن توارث الأبناء أحقاد الآباء. وقام أبناء العمومة يستعدون القبائل على بعضهم وتجمع بنو عبد مناف مع مؤيديهم فى حلف المطيبين؛ فرد عليهم بنو عبد الدار وحزبهم بحلف الأحلاف، وتجمع الفريقان للقتال من أجل السيادة على مكة. ويشرح ابن كثير الأمر فى قوله: «ثم لما كبر قصي؛ فوض أمر هذه الوظائف التى كانت إليه من رئاسات قريش وشرفها؛ من الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة إلى ابنه عبدالدار، وكان أكبر ولده.. فلما انقرضوا تشاجر أبناؤهم فى ذلك وقالوا: إنما خصص عبد الدار بذلك ليلحقه بإخوته؛ فنحن نستحق ما كان آباؤنا يستحقونه، وقال بنو عبد الدار هذا أمر جعله لنا قصى فنحن أحق به، واختلفوا اختلافا كبيرا، وانقسمت بطون قريش فرقتين؛ فرقة بايعت بنى عبد الدار وحالفتهم. وفرقة بايعت بنى عبد مناف وحالفوهم على ذلك»[1].

ولعله واضح لمن أصاب خبرة ودربة مع كتب التراث؛ انحياز هؤلاء الكُتاب وأصحاب السير والأخبار الواضح لحزب عبد مناف، فيما وضعوه من تفاسير للأمر والتسميات؛ كما ورد- كمثال- فى شرح السيرة الحلبية لما حدث: «فلما مات عبد الدار وأخوه عبد مناف؛ أراد بنو عبد مناف وهم هاشم وعبد شمس والمطلب، وهؤلاء إخوة لأب وأم.. ونوفل أخوهم لأبيهم.. أن يأخذوا تلك الوظائف من بنى عمهم عبدالدار، وأجمعوا على المحاربة.. وأخرج بنو عبدمناف جفنة مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص١٩٤.

باب الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها، وتعاقدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم؛ فسموا **المطيبين**. . فتطيب منها بنو زهرة وبنو أسد بن عبدالعزى، وبنو تميم بن مرة، وبنو الحارث بن فهر، فالمطيبون من قريش خمس قبائل، وتعاقد بنو عبدالدار وأحلافهم، وهم بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدى بن كعب، على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا. فسموا الأحلاف لتحالفهم بعد أن أخرجوا جفنة مملوءة دما، من دم جزور نحروها. . وصاروا يضعون أيديهم فيها ويلعقونها فسموا **لعقة الدم**»[٢].

وكان واضحا أنه برغم هذا الاصطراع؛ فإن المصلحة الاقتصادية العامة فرضت نفسها على جميع الأطراف؛ فكان الحرص على المصالح التجارية. وما سبق وحققه قصى من هيبة لقريش؛ عاملا جوهريا فى حقن الدماء وانتهى الأمر بالسلام؛ حيث تقاسم أبناء العمومة ألوية الشرف الموروث. حيث نجد (برهان الدين الحلبى) يتابع فى سيرته القول: «. . ثم اصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة والقيادة لبنى عبد مناف، والحجابة واللواء لبنى عبدالدار، ودار الندوة بينهم بالاشتراك»[٣]، لكن الواضح للمتعامل مع كتبنا الإخبارية أن بنى عبد مناف قد علا نجمهم وفشا أمرهم؛ إلى حد أنهم كانوا هم سفراء الأمان والإيلاف لدول العالم الكبرى حينذاك. وهو ما لاحظه الدكتور (أحمد شلبى) وسجله بقوله: «وكان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون إلى الجهات الرئيسية الأربع التى كانت تتجه إليها قريش، فكان هاشم يتجه إلى الشام، وعبد شمس إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن، ونوفل (أخوهم غير الشقيق) إلى فارس، وكان تجار قريش يذهبون إلى هذه البلاد فى ذمة هؤلاء الإخوة الأربعة، لا يتعرض لهم أحد بسوء»[٤]. أما ابن كثير فقد أكد

(٢) برهان الدين الحلبى: السيرة الحلبية فى سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج١، ص٢١، ٢٢.
(٣) نفسه: ص٢٢.
(٤) أحمد شلبى: السيرة، ج١، ص١٢٧.

أن بنى عبد مناف قد **«صارت إليهم الرياسة،** وكان يقال لهم المجيرون، وذلك لأنهم أخذوا لقومهم قريش الأمان من ملوك الأقاليم، ليدخلوا فى التجارات إلى بلادهم»[٥].

وقد استقرت ألوية الشرف (القيادة والسقاية والرفادة) المنتزعة من بيت عبد الدار لبيت عبد مناف، فى يد هاشم بن عبد مناف بالتحديد دون بقية إخوته. لذا فما إن رحل أخوه عبد شمس عن الدنيا حتى ساورت ولده أمية الأطماع فى أخذ ما بيد عمه من ألوية الشرف بالقوة، ووقف نوفل مؤقتا على الحياد. وكادت الحرب تقطع صلات الرحم، وتهدر الدم الموصول. ومرة أخرى تفادى القوم الكارثة، فرضوا بالاحتكام إلى كاهن خزاعى؛ فقضى الكاهن بنفى أمية بن عبد شمس عشر سنوات إلى منفى اختيارى، ولم يجد أمية بدا من الرضى بحكم ارتضاه؛ فشد رحاله إلى بلاد الشام ليقضى بين أهلها من السنوات عشراً[٦].

وهكذا: دارت العداوات حول هاشم؛ عداوة بنى عبد الدار، وعداوة بنى عبد شمس الذى انضم إلى حزب عبد الدار (ونوفل يقف محايداً): عداوة بنى عبدالدار لاعتبار ما بيد هاشم من ألوية شرف هو حق خصهم به جدهم قصى، وعداوة بنى عبد شمس لاعتبار أنفسهم شركاء فى التشريف الذى ناله هاشم بن عبد مناف.

وكانت السنوات العشر التى قضاها أمية بن عبد شمس فى منفاه الشامى رصيدا لبيته الأموى من بعده؛ فقد ارتبط هناك بأهلها بأواصر السنين والمصاهرة التى كانت لأبنائه ذخرا وعتادا؛ حيث قامت هناك دولة كبرى بعد سنين؛ يرأسها حفيده معاوية؛ تلك التى عرفتها الدنيا باسم الدولة الأموية. وكان حكم الكاهن الخزاعى مدعاة لفرقة وفجوة بين **بيت هاشم وبيت عبد شمس وولده أمية؛ ورثها الأبناء والحفدة؛ حتى فيما بعد قيام الدولة**

---

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢٣٦.
(٦) الطبرى: التاريخ، ج٢، ص١٢٣.

الإسلامية؛ حيث استمر الصراع ممثلا فى الأمويين (نسبة لأمية بن عبد شمس) والعباسيين (نسبة للعباس بن عبد المطلب بن هاشم الذى ظلت بيده ألوية الشرف؛ من سقاية ورفادة بتصريح من النبي ﷺ)، أو بين المذهب الشيعى والمذهب السنى. ورغم محاولات قريش رأب الصدع مبكرا، بعقد حلف الفضول بين الأطراف المتنازعة، فإن الصدع استمر يغور ويتسع- باستمرار وإصرار- بين أبناء العمومة[٧]

* * *

(٧) ابن هشام: السيرة، ج١، ص١٢٣.

بنو هاشم من التكتيك إلى الأيديولوجيا

على الرغم من أن ألوية السيادة المستقرة فى بيت عبدالدار قد كفلت له اختصاصات التحكم والقوة، فإن تكتيك هاشم اتجه منحى آخر تمثل فى اكتساب القلوب؛ فقام يهشم الثريد لقومه بيديه- لذلك لقب هاشما- ومد بسخائه القاصى والدانى، أما اسمه الحقيقى فكان عمرو. يقول ابن كثير: «.. هاشم واسمه عمرو، سمى هاشما لهشمه الثريد مع اللحم لقومه فى سنى المحل، كما قال مطرود بن كعب الخزاعى فى قصيدته، وقيل للزبعرى والد عبدالله:

عمرو الذى هشم الثريد لقومه	ورجال مكة مسنتون عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما	سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وذلك لأنه أول من سن رحلتى الشتاء والصيف[(١)]».

وإذا كان هاشم هو أول من سن رحلتى الشتاء والصيف؛ فلا ريب أنه فعل ذلك فى الوقت الذى بدأت فيه قريش تتحول من مجرد حارس وقابض للعشور، أو مجرد محطة ترانزيت، إلى بلدة تحتكر التجارة لنفسها، وتتاجر فى بضائع الأمم بأموالها. (ولنلحظ أن القرآن الكريم يربط بعد ذلك بين هذا العامل الاقتصادى المتمثل فى التجارة- وأثر ذلك فى التقرش والاستقرار- والعامل الدينى؛ فى قوله «لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت. الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.». وحول الفهم نفسه يكتب الدكتور (أحمد شلبى) قوله: «.. فأصبحت مكة **جمهورية صغيرة تجارية**.. وراجت تجارة مكة، فأخذت قريش توطد مركزها فى البلد الحرام. فسنت.. رحلتى الشتاء والصيف رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام؛ فارتفعت مكانة مكة فى الجزيرة، واعتبرت العاصمة المعترف بها. وسمت منزلة سوق عكاظ؛

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢٣٦.

فأصبح مدار الحظوة وقطب الدائرة الفكرية ... وهاشم أخذ الثاني للرسول ـ كان سفير قريش لدى الملوك، وقد عقد مع الروم معاهدة تجارية؛ لتذهب تجارة قريش إلى الشام في أمان ومنعة(٢).

كان هاشم أعمق الوضع المتأزم بعاد حديدية؛ عندما دعم قوى حزبه العسكرية برجال الحروب والدم والحلقة من بني النجار والخزرج في يثرب؛ فشد الوثاق بهم بأن **تزوج سلمى بنت عمرو** من بني **النجار من الخزرج**(٣). ليكون ذلك ضربة لعبد الدار وعبد شمس إعلانا صريحا عن قيام التحالف بين الحزب الهاشمي وأهل الحرب المتأهبة، ... ولدت له شيبة الحمد وقد بعث المطلب ليحمل وليربيه ويرضعه الفروسية بين أخواله، حيث كان ذلك التاريخ الذي يتواتر هناك في مقدمات الهجرة.

وبموت هاشم تولى أخوه المطلب منصبي السقاية والرفادة والقيادة ... والمطلب كان يقال له القمر لحسنه ... فيما يزعم ابن كثير(٤) ثم إنه اتبع أسلوب أخيه وسياسته في اجتذاب القلوب بالكرم والعطاء والبذل، فنال ألقاب المحبة والتكريم؛ حتى سموه لجوده بالفيض.

ولم يطل العمر بالمطلب كثيرا؛ فقد رحل تاركا استكمال المهمة الجليلة لابن أخيه؛ ذلك العبقري الفذ شيبة بن هاشم المعروف بعبد المطلب، الذي تربى صغيرا في كنف أخواله من أهل الحرب اليثاربة. ثم تزوج بنت جناب بن كليب الخزرجي شدا للأواصر ومدا للوثاق(٥) وكان واضحا من البداية فهمه الثاقب لأبعاد الأوضاع في مكة؛ فحرص على استدامة حلف المطلبيين بالزواج من بني زهرة. ومن المهم هنا أن نذكر أنه عند عودته من

(٢) أحمد شلبي: السيرة، ج١، ص١٤٦ و١٨٣.
(٣) ابن هشام: في كتاب الروض للسهيلي، ج١، ص١٣٠.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢٣٧.
(٥) ابن هشام: في كتاب الروض للسهيلي، ج١، ص١٣١.

المدينة إلى مكة ليتبوأ مكان عمه المطلب ؛ وجد عمه نوفلا قد وضع يده على أملاكه خارجا عن حياده مستهينا بحداثة سنه، إلا أن عبد المطلب كتب من فوره إلى أخواله بنى النجار فى يثرب مستنصرا:

أبلغ بنى النجـار أنى جـئـتـهـم ... أنى منهم وابنهم والخـمـيس
رأيتـهـم قـومـا إذا جـئـتـهـم ... هووا لقـائى وأحـبـوا حـسـيس
فـإن عـمـى نوفـلا قـد أبى ... إلا التى يغض عنهـا الخـسـيس[٦]

وما كاد إبراقه يصل الأخوال، حتى قدحت حوافر خيول ثمانين محاربا يثربيا بالبرق ؛ يحملون السيوف إلى مكة ؛ مما دفع نوفلا إلى التراجع من فوره، ورد أملاك عبدالمطلب إليه، لكنه أعلن خروجه على حياده، وانحيازه لحزب عبدالدار وعبد شمس، ضد عبد المطلب وحزبه الهاشمى. وهذا ما تشرحه لنا السيرة الحلبية عن المطلب وابن أخيه فى قولها: «.. وكان شريفا مطاعا جوادا، وكانت قريش تسميه الفياض لكثرة جوده، فلما كبر عبد المطلب فوض إليه أمر السقاية والرفادة. فلما مات المطلب وثب عليه عمه نوفل بن عبد مناف، وغصبه أركاحا (أى أفنية ودورا).. فكتب إلى أخواله بنى النجار بالمدينة بما فعله معه عمه نوفل، فلما وقف خاله أبو سعد بن عدى بن النجار على كتابه بكى، وسار من المدينة فى ثمانين راكبا حتى قدم مكة، فنزل بالأبطح ؛ فتلقاه عبدالمطلب وقال له: المنزل يا خال؛ فقال: لا والله حتى ألقى نوفلا ؛ فقال: تركته فى الحجر جالسا فى مشايخ قريش ؛ فأقبل أبو سعد حتى وقف عليهم، فقام نوفل قائما وقال: يا أبا سعد أنعم صباحا ؛ فقال له أبو سعد: لا أنعم الله لك صباحا، وسل سيفه، وقال: ورب هذه البنية (الكعبة) ؛ لئن لم ترد على ابن أختى أركاحه، لأملأن منك هذا السيف، فقال: لقد رددتها عليه.. **ولما جرى ذلك حالف نوفل وبنوه بنى أخيه عبد شمس على بنى هاشم**»[٧].

(٦) الطبري: التاريخ، ج٢، ص٢٤٨و ٢٤٩.
(٧) الحلبي: السيرة، ج١، ص٢٢و٢٣.

أما الطبرى فيقول: «فلما رأى ذلك نوفل، حالف بنى شمس كلها على بنى هاشم. قال محمد بن أبى بكر، فحدث بهذا الحديث موسى بن عيسى، فقال:

> يا ابن أبى بكر هذا شىء ترويه الأنصار تقرباً إلينا، إذ صير الله الدولة فينا؛ عبد المطلب كان أعز فى قومه من أن يحتاج إلى أن تركب بنو النجار من المدينة إليه. قلت: أصلح الله الأمير؛ قد احتاج إلى نصرهم من كان خيرا من عبد المطلب، قال: وكان متكئا فجلس مغضبا، وقال: من خير من عبد المطلب؟ قلت: محمد رسول الله ﷺ قال: صدقت، وعاد إلى مكانه وقال لبنيه: اكتبوا هذا الحديث عن ابن أبى بكر»[٨].

ويتضح لنا وعى عبد المطلب بن هاشم السياسى، وبعد نظره، وحسه القومى؛ فى قيادته وفدا إلى اليمن برفقة ابن أخيه أمية (قبل النزاع المشار إليه)، وحلفائه: أبو زمعة؛ جد أمية بن عبدالله بن أبى الصلت- وسيكون لأمية هذا شأن- وخويلد الأسدى بن أسد بن عبدالعزى (ومن الواجب ملاحظة امتداد ذلك التحالف فى زواج حفيد عبدالمطلب، النبى محمد ﷺ، من السيدة خديجة بنت خويلد الأسدى- رضى الله عنها) فى الوقت الذى استمر فيه على التكتيك الهاشمى؛ بأن سار على السنة الكريمة المعطاء بالجود؛ حتى لقبه الناس: شيبة الحمد[٩].

لكن الجديد فى أمره، هو عمله على وضع أيديولوجيا متكاملة لتحقيق أهداف حزبه. فكان إدراكه النفاذ لسنة جده قصى الدينية والسياسية مساعدا على تحديد الداء ووصف الدواء؛ والداء فرقة قبلية عشائرية، والأسباب تعدد الأرباب وتماثل الشفعاء. ومن هنا

---

(٨) الطبرى: التاريخ، ج٢، ص٢٤٩.

(٩) ابن سيد الناس: عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، دار الآفاق الجديدة، بيروت ج١، ص٢٩.

انطلق **عبد المطلب يضع أسس فهم جديد للاعتقاد؛ فهم يجمع القلوب عند إله واحد**، ويتميز بأنه يلغى التماثيل والأصنام وغيرها من الوساطات والشفاعات؛ لأنه لا يقبل من أحد وساطة ولا شفاعة إلا العمل الصالح!!

وتمهيدا لما أزمع؛ أعلن فى الناس: أنه بينما كان نائما فى الحجر بالكعبة **أتاه رئى، وغتّه ثلاث مرات، وأوحى إليه** الأمر بحفر البئر المعروفة باسم زمزم. وتقول كتب الأخبار الإسلامية، أنها كانت بئراً لجرهم بين صنمى إساف ونائلة دفنتها حين تركت مكة [١٠]. نعم لقد تمثل تنافس بنى العمومة من قبل فى احتفار الآبار، جذباً للقبائل وقوافل التجارة، فقديما حفر عبدالدار (أم جراد)، ولما حفر عبد شمس (الطوى)؛ رد عليه هاشم بحفر (بدر)؛ فزاد أمية فى الكرم وحفر (الحضر)؛ فرد عليه عبدالمطلب بحفر (زمزم)[١١]. لكن زمزم ليست ككل الآبار؛ فهى البئر الوحيدة التى قيل فيها إنها حفرت بأمر غيبى- فى حلم عبدالمطلب- إضافة إلى ما شاع يتردد حول أمرها، بحسبانها فعل إلهى لا إنسانى، فجرها الله قديما تحت خد إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام)؛ ليشرب وأمه منها. وفى ذلك يقول ابن هشام فى السيرة: «فضل زمزم على سائر المياه: فعفت زمزم على المياه التى كانت قبلها يسقى عليها الحجاج، وانصرف الناس إليها لمكانها فى المسجد الحرام، ولفضلها عما سواها من المياه، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام..»[١٢].

ويقدم لنا ابن كثير نص هذا الأمر أو الوحى بحفر زمزم؛ وهو:

> أحفر زمزم، إنك إن حفرتها لن تندم، هى تراث من أبيك الأعظم، لا تنزف أبدا ولا تزم، تسقى الحجيج الأعظم، مثل نعام جافل لم يقسم، ينذر فيها ناذر بمنعم، تكون ميراثا وعقدا محكماً، ليست لبعض ما قد تعلم، وهى بين الفرث والدم[١٣].

(١٠) ابن هشام: السيرة، ج١، ص١٠١.
(١١) نفسه: ص١٣٦: ١٣٩.
(١٢) نفسه: ص١٣٩.
(١٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢٢٨.

ثم يعقب بالقول: إن عبدالمطلب «ساد فى قريش سيادة عظيمة، وذهب بشرفهم ورئاستهم؛ فكان جماع أمرهم عليه، وكانت إليه السقاية والرفادة بعد المطلب، وهو الذى جدد حفر زمزم بعدما كانت مطمومة من زمن جرهم، وهو أول من طلى الكعبة بذهب فى أبوابها، من تينك الغزالتين اللتين من ذهب، وجدهما فى زمزم مع تلك الأسياف القلعية»[١٤]. ثم يؤكد أن عبد المطلب **كان مؤسسا لملة واعتقاد،** فيروى عن ابن عباس وابن عمرو ومجاهد والشعبى وقتادة.. (عن ديانة أبى طالب بن عبدالمطلب): «هو على ملة الأشياخ.. هو على ملة عبدالمطلب»[١٥].

ويبدو أن أخطر شأن فى هذه الملة وفى أمر عبدالمطلب جميعه؛ هو إدراكه للنسب وخطورته بين الأعراب؛ بحسبانه العامل الجوهري فى تفككهم السياسى. لاعتزاز كل قبيلة بنسبها القبلى- والذى ظل مستبطنا فى بطن التحول الجديد للبنية الاجتماعية المكية- ومن هنا كان إعلانه أن العرب جميعا وقريش خصوصا، **يعودون بجذورهم إلى نسب واحد. فهم برغم تحزبهم وتفرقهم، أبناء لإسماعيل بن إبراهيم،** لذلك؛ ولأنه ينتمى إلى هذه السلالة الشريفة؛ فقد أعلن فى الناس تبرؤه من أرجاس الجاهلية، وعودته إلى دين جده إبراهيم. ودين إبراهيم هو الفطرة الحنيفية التى ترفض أى توسط بين العبد والرب، فإذا أهل رمضان صعد إلى غار حراء متحنفا، ثم عاد ينادى قومه أنه قد حرم على نفسه الخمر[١٦]، وكل ضروب الفسق؛ حاثا على مكارم الأخلاق؛ داعيا الناس لاتباعه؛ مؤمنا بالبعث والحساب والخلود؛ هاتفا: «والله إن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب فيها المسىء بسيئاته»!! ثم لا يلبث أن **يبشر قومه بقرب قيام الوحدة السياسية،** فيشير إلى أبنائه وحفدته الذين أصبحوا له عزوة وشد أزر، ويقول: «إذا أحب

---

(١٤) نفسه: ص٢٣٦.
(١٥) نفسه: ج٣، ص١٢٢.
(١٦) أبو جعفر محمد بن حبيب: المحبر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت، ص٢٣٧.

الله إنشاء دولة، خلق لها أمثال هؤلاء»[١٧]. أولئك الأبناء الذين كاد يقدم أحدهم ذبيحا (ابنه عبدالله أبو النبى عليه السلام) كما كاد يفعل جده البعيد إبراهيم (عليه السلام) مع ولده إسماعيل (عليه السلام).

وفى أمر عبدالمطلب يقول المسعودى: «تنازع الناس فى عبدالمطلب، فمنهم من رأى أنه كان مؤمناً موحدا، وأنه لم يشرك بالله عز وجل.. وكان عبدالمطلب يوصى بصلة الأرحام وإطعام الطعام ويرغبهم ويرهبهم، **فعل من يراعى فى المتعقب معادا وبعثا ونشورا»**[١٨]. هذا بينما يتحدث الأستاذ العقاد عن صراع الهاشميين وأبناء عمومتهم على الرئاسة، وعن عبدالمطلب بوجه خاص فيقول: «وقد تنافس بنو هاشم وبنو أمية على هذا الشرف، فأسفرت المنافسة بينهم عن فارق ملحوظ فى الطباع؛ ملحوظ الأثر فى خلائق الأسرتين من أيام الجاهلية إلى ما بعد الإسلام بعدة قرون.. لقد كان بنو هاشم، أسرة النبى ﷺ أصحاب رئاسة، وكانت لهم أخلاق رئاسة.. وكان عبدالمطلب متدينا صادق اليقين؛ مؤمنا بمحارم دينه.. وكان فى الحق نمطا فريدا بين أصحاب الطبائع التى فطرت على الاعتقاد ومناقب النبل والإيثار. كانت مناقبه مطلبية تدل عليه ولا تصدر عن غيره، وكانت كلها مزيجا من الأنفة والرصانة والاستقلال.. وأدعياء التاريخ خلقاء أن يسألوا أنفسهم هنا سؤالين، لا يغفلهما أحد يفقه معنى تمحيص الخبر، وأولهما فى هذا السياق: **لماذا يخترع الرواة هذه الأخبار عن عبدالمطلب دون غيره؟** وثانيهما: لماذا لم يخترعوها ولا اخترعوا أمثالها عن حرب بن أمية؟ وكل ما تفرقت فيه الروايات من أمر عبدالمطلب قد استقرت على صفة لا تفترق فيها روايتان، وهى **صدق التدين والإيمان بمحارم الدين»**[١٩].

---

(١٧) أبكار السقاف: نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ج٢، ص١٢٤٤، ١٢٤٥.
(١٨) المسعودى: مروج الذهب، ج١، ص١٣١، ١٣٢.
(١٩) العقاد: طوالع البعثة، ص١٤٠و١٤٢و١٤٤و١٤٨.

هذا بينما يقول الحافظ السيوطى: «. . إن أجداده (عليهم السلام) من آدم إلى مرة بن كعب مصرح بإيمانهم . .» وقد ذكر فى عبدالمطلب «إنه كان على ملة إبراهيم (عليه السلام) أى لم يعبد الأصنام . .»[٢٠]. كما جاء عن ابن عباس (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث جدى عبدالمطلب فى زى الملوك وأبهة الأشراف . .» . . وكان أبو طالب ممن **حرم الخمر على نفسه** فى الجاهلية كأبيه عبدالمطلب[٢١].

وليس أدل على مثل هذه التوجهات بشأن عبدالمطلب **مما زعمه الإخباريون** من اعتقاد العرب فى شأنه، كصاحب ملة، وكرجل له نوع ما من العلاقة بالسماء. وفى أنه ثمة رابط بين ذلك **وعلمه اليقينى المسبق بأن حفيده؛ محمد بن عبدالله ﷺ هو نبى الأمة وموحدها المنتظر**. فتشير كتب التراث إلى أن قريشا استقت به من السماء بعد جدب أشرفت معه على الهلاك؛ فصعد بهم ومعه حفيده إلى جبل أبى قبيس ينادى ربه: «اللهم هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك وإماؤك وبنو إمائك، وقد نزل بهم ما ترى، وتتابعت علينا السنون، فذهبت بالظلف والخف والحافر (أى الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير) فأشفت على الأنفس(أى أشرفت على ذهابها) فأذهبن عنا الجدب وائتنا بالحيا والخصب؛ فما برحوا حتى سالت الأودية». أما الاعتقاد الثابت لدى هؤلاء فقد كان هو: «له فخر يكظم عليه (أى يسكت عنه ولا يظهره- وسنن يهتدى بها/ أى يرشد إليها). وفى الاستسقاء به قالت رقيقة بنت أبى صيفى شعرها:

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا ... وقد عدمنا الحيا واجلوذ المطر[٢٢]

ولا بأس هنا من إيراد نص يحكى عن اعتقاد فى علاقة عبدالمطلب وسننه بالسماء، واستجابة السماء له؛ يقول:

---

(٢٠) الحلبى: السيرة، ج١، ص٧٠.
(٢١) نفسه: ج١، ص١٨٤.
(٢٢) نفسه: ج١، ص١٨١, ١٨٢.

«ولما سقوا لم يصل المطر إلى بلاد قيس ومضر، فاجتمع عظماؤهم (وذهبوا إليه يقولون): قد أصابتنا سنون مجدبات، وقد بان لنا أثرك وصح عندنا خبرك، فاشفع لنا عند من شفعك، وأجرى الغمام لك. فقال عبدالمطلب: سمعا وطاعة . . ثم قال: للهم رب البرق الخاطف، والرعد القاصف، رب الأرباب، وملّين الصعاب، هذه قيس ومضر، من خير البشر، قد شعثت رؤوسها، وحدبت ظهورها، تشكو إليك الهزال، وذهاب الناس والأموال، اللهم فافتح لهم سحابا خوارة، وسماء خرارة، لتضحك أرضهم، ويزول ضرهم. فما استتم كلامه حتى نشأت سحابة سوداء دكناء، لها دوى، وقصدت نحو عبدالمطلب، ثم قصدت نحو بلادهم؛ فقال عبدالمطلب: يا معشر قيس ومضر انصرفوا فقد سُقيتم، فرجعوا وقد سقوا»(٢٣).

أما ما جاء عن فخر له يكظم عليه ولا يظهره؛ فقد كان زعما واضحا فى الحديث المتواتر فى كتب السير والأخبار، عن اللقاء السرى الذى تم بينه وبين سيف بن ذى يزن؛ عندما قاد وفد قريش لتهنئته باستقلال بلاده عن الحبشة. وبهذا الشأن يورد ابن عبدربه مازعم أنه دار فى هذا اللقاء، فى حديث مسجوع الفواصل؛ فقال سيف - فيما يزعمون - لعبدالمطلب:

«إنى مفوض إليك من سر علمى أمرا غيرك كان لم أبح له به، ولكنى رأيتك موضعه فأطلعتك عليه، فليكن مصونا حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره. فإنى أجد فى العلم المخزون، والكتاب المكنون الذى ادخرناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خيرا عظيما، وخطرا جسيما، فيه شرف الحياة، وفضيلة الوفاة، للناس كافة.

(٢٣) نفسه: ج١، ص١٨٢و١٨٣.

ولرهطك عامة، وبنفسك خاصة. . إذا ولد مولود بتهامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، إلى يوم القيامة. . هذا حينه الذى يولد فيه، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، وقد وجدناه مرارا، والله باعثه جهارا، وجاعل له منا أنصارا (المقصود هنا أهل يثرب فهم من أصل يمنى)، يعز بهم أولياءه، ويذل بهم أعداءه، ويفتتح كرائم الأرض، ويضرب بهم الناس عن عرض، يخمد النيران، ويكسر الأوثان، ويعبد الرحمن، قوله حكم وفصل، وأمره حزم وعدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله. . والبيت ذى الطنب، والعلامات والنصب، إنك يا عبدالمطلب، لجده من غير كذب، فخر عبدالمطلب ساجداً. . قال ابن ذى يزن: . . اطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك؛ فإنى لست آمنا أن تدخلهم النفاسة، فى أن تكون لكم الرياسة، فيبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم».

ويردف ابن عبدربه القول: إن ابن ذى يزن «أمر لكل منهم بعشرة أعبد، وعشر إماء سود، وخمسة أرطال فضة، وحلتين من حلل اليمن، وكرش مملوءة عنبرا، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك. فكان عبدالمطلب بن هاشم يقول: يا معشر قريش لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك؛ فإنه إلى نفاذ، **ولكن يغبطنى مما يبقى لى ذكره وفخره لعقبى؛ فإذا قالوا له: وما ذاك؟ قال: سيظهر بعد حين»**[٢٤].

وعن اليقين بعلم عبدالمطلب بأمر حفيده؛ يتحدث كتبة التراث مسلمين بالأمر كما لو كان حقائق صادقة صدقا مطلقا، ثم يقصون أقاصيص تعبر عن هذا التسليم وذاك اليقين؛ فيذكرون عن ولده العباس (رضى الله عنه) قوله: «قال عبدالمطلب: قدمت من اليمن فى

---

(٢٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج١، ص٢٩١: ٢٩٣. وانظر أيضا المسعودى: مروج الذهب، ج٢، ص٨٣و٨٤.

رحلة الشتاء، فنزلنا على حبر من اليهود يقرأ الزبور، فقال: من الرجل؟ قلت: من قريش، قال: من أيهم؟ قلت: من بنى هاشم، قال: أتأذن لى أن أنظر إلى بعضك، قلت نعم مالم يكن عورة. قال: ففتح إحدى منخرى فنظر فيها ثم نظر فى الأخرى، فقال: **أنا أشهد أن فى إحدى يديك ملكا وفى الأخرى نبوة.** وإنما نجد ذلك (أى كلا الملك والنبوة) فى بنى زهرة. فكيف ذاك؟ قلت لا أدرى. . فقال: إذا تزوجت فتزوج منهم. فلما رجع عبدالمطلب إلى مكة تزوج هالة بنت وهيب بن عبدمناف! فولدت له حمزة وصفية. وزوج ابنه عبدالله أمنة بنت وهب أخى وهيب فولدت له رسول الله ﷺ فكانت قريش تقول: فلح عبدالله على أبيه، أى فاز وظفر. . ثم رأيت فى أسد الغابة. . أن عبدالمطلب تزوج هو وعبدالله فى مجلس واحد. . وجاز أن يكون الملك والنبوة اللذان تكلم عنهما الحبر، **هما نبوته وملكه ﷺ لأنه أعطيهما**»[٢٥].

وعليه فإن هذا الخبر- سواء حل محل الصدق من عدمه- يشير إلى أن علم الأخبار يريدون تأكيد علم عبدالمطلب بل سعيه لتحقيقه وإنجاحه. وثمة شاهد آخر يتفق عليه الرواة، ويقول عنه البيهقي: «كان يوضع لعبد المطلب جد رسول الله ﷺ فراش فى ظل الكعبة؛ فكان لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له؛ وكان رسول الله ﷺ يأتى حتى يجلس عليه؛ فيذهب أعمامه يؤخرونه؛ فيقول جده عبدالمطلب: دعوا إبني. فيمسح على ظهره ويقول: إن لبني هذا لشأناً»[٢٦]. أو بتعبير السيرة الحلبية «. . دعوا ابني إنه ليؤنس ملكا»، أو قولها «. . دعوا ابني يجلس عليه فإنه يحس فى نفسه بشرف (أى يتيقن من نفسه شرفا) وأرجو أن يبلغ من الشرف مالم يبلغه عربي قبله ولا بعده»[٢٧]. أو بتعبير ابن كثير «. . دعوا ابني؛ فوالله إن له لشأنا. . دعوا ابني إنه **يؤسس ملكا**»[٢٨]. ثم كان يشتد

(٢٥) الحلبى: السيرة، ج١، ص٧٠و٧٢.
(٢٦) أبو بكر البيهقى: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، توثيق د. عبدالمعطى قلعجي، دار الريان للتراث، القاهرة ط١ ,١٩٨٨، ج٢، ص٢٢.
(٢٧) الحلبي: السيرة، ج١، ص١٧٧.
(٢٨) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١ ، ص٢٦١.

وجد الجد بالحفيد: «. . فقال عبدالمطلب لبنيه: تحفظوا بابن أخيكم»، أو قوله لأم أيمن حاضنته: «يا بركة . . لا تغفلى عن ابني؛ فإن أهل الكتاب- أى ومنهم سيف بن ذى يزن- يزعمون أنه نبي هذه الأمة، وأنا لا آمن عليه منهم»(٢٩)، ويروى البيهقي: «فكان عبدالمطلب فيما يزعمون يوصى أبا طالب برسول الله ﷺ، وذلك أن عبدالله وأبا طالب لأم، فقال عبدالمطلب فيما يزعمون- فيما يوصى به- واسم أبى طالب عبد مناف:

أوصيك يا عبد مناف بعدى ... بموحد بعد أبيه فرد

فارقه وهو ضجيع المهد ... فكنت كالأم له فى الوجد

إن الفتى سيد أهل نجد ... يعلو على ذى البدن الأشد(٣٠)

وبما أن لكل مجتهد نصيبا؛ فقد أتت مساعى عبدالمطلب وجهوده التى لم تكل بثمارها، وأتبعه كثيرون على ملته الإبراهيمية وعقيدته الحنيفية، التى لم يستنكف المؤرخون والباحثون من نعتها بـ «دين عبدالمطلب»(٣١). ومن هؤلاء التابعين (وفيهم السابقون الممهدون): قس بن ساعدة الإيادى، وأمية بن أبى الصلت، وأرباب ابن رئاب، وسويد بن عامر المصطلقى، ووكيع بن سلمة بن زهير الإيادي، وعمير بن جندب الجهني، وأبو قيس صرمة بن أبى أنس، وعامر بن الظرب العدواني، وعلاف بن شهاب التميمى، والمتلمس بن أمية الكناني، وزهير بن أبى سلمى، وخالد ابن سنان بن غيث العبسي، وعبدالله القضاعي، وكعب بن لؤى بن غالب، وعبدلطابخة بن ثعلب، وزيد الفوارس بن حصين، وزيد بن عمرو بن نفيل(٣٢)، وأكثم ابن صيفي، وأبو قيس بن الأسلت، وحنظلة

(٢٩) الحلبى: السيرة، ج١، ص١٨٠.
(٣٠) البيهقى: دلائل النبوة، ج٢، ص٢٢.
(٣١) د. أحمد جمال العمري: الشعراء الحنفاء، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨١، ص١٠٢.
(٣٢) نفسه: ص٨٦.

بن صفوان، وغيرهم كثير . وبانتشار الأيديولوجيا الحنيفية بدأ أتباعها يتنافسون فى التقوى والتسامى الخلقى؛ علَّ أحدهم يكون نبي الأمة وموحد كلمتها، حتى شكلوا «تيارا قويا، خاصة قبل ظهور الإسلام بفترة وجيزة»[٣٣].

* * *

(٣٣) ثريا منقوش: التوحيديمان، التوحيد فى تطوره التاريخى، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧، ص١٥٩.

جذور الأيديولوجيا الحنيفية

يبدو أن التوحيد بمعناه الحنفى يعود إلى زمن بعيد، فحوالى القرن الأول قبل الميلاد كان بعض أهل اليمن يعبدون إلها باسم (ذوى سموي) أو إله السماء، كإله واحد، وقد ذكرت نقوش المسند اليمنية عبادة إله واحد يدعى (رحمن)، ويرى الباحثون أنهما كانا مسميين لواحد. وتؤكد (ثريا منقوش): «أن عباد هذا الإله كانوا يعرفون بالأحناف»[1]. ويذهب الدكتور (جواد على) إلى افتراض أن تكون عقيدة حنفاء مكة التى نادى بها عبدالمطلب بن هاشم، بعد سبعة قرون؛ امتدادا لحنيفية رحمن اليمن؛ رب السماء ذوى سموي. ويلمح إلى ذلك فى قوله عن أحناف مكة: «لا نستطيع أن نقول إنهم نصارى أو يهود، إنما أستطيع أن أشبه دعوة هؤلاء بدعوة الذين دعوا إلى عبادة الإله رب السماء ذوى سموي، أو عبادة الرحمن فى اليمن»[2].

ويذكر الفخر الرازى أن عقيدة أحناف اليمن، كانت أركانا أربعة هى: حج البيت، واتباع الحق، وملة إبراهيم، والإخلاص لله وحده. ثم يضيف قوله: إن عدم معرفة هؤلاء لتاريخ نشوء عقيدتهم؛ **فقد نسبوها إلى إبراهيم النبي العبري!!** (لنا فى جذور هذا الأمر بحث خاص، ألقينا فيه الضوء على مساحات مظلمة فى تاريخ هذه العقيدة. بعنوان: النبي إبراهيم والتاريخ المجهول).

ويذهب الألوسي إلى أن الصابئة هم قوم النبي إبراهيم (عليه السلام) وأهل دعوته[3]؛ مما دفع بعض العلماء إلى حسبان الحنفاء صنفا من الصابئة، -وبالتحديد- الصنف المؤمن أو من بقى على الإيمان منهم[4]. وكان منهم بالجزيرة العربية نفر غير قليل، **وكانوا يقيمون الصلاة عدة مرات فى اليوم كفرض إجبارى للإيمان، يقومون فيها ويركعون، ويتوضأون**

---

(١) ثريا منقوش: التوحيد يمان ص١٥٩.

(٢) د. جواد على: المفصل، ج٥، ص٥٩.

(٣) الألوسي: بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، القاهرة، ١٩٢٤، ج٢، ص٢٢٥.

(٤) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، تصحيح محمد منير الدمشقي، المطبعة المنيرية، ص٧٤.

قبلها، ويغتسلون من الجنابة، ولهم قواعد فى نواقض الوضوء[٥]. (ولعل ذلك يفسر لنا لماذا أطلق أهل مكة على من يتبع دعوة الإسلام ويشاهدونه يؤدى هذا الشكل من الصلوات: أنه قد صبأ)!!

ولا بأس هنا من التعريف السريع بأهم حنفاء الجزيرة، أو من شاء حظهم أن يذكرهم التاريخ ولو بكلمات. ومنهم- كما أشرنا- قس بن ساعدة الإيادي، الذى يكاد يجمع المؤرخون على موته قبل البعثة بقليل، وقد ورد أن **النبى ﷺ كان يسمع إليه فى سوق عكاظ**. ونقل الألوسي بعض ما نسب إلى قس فقال: «ومن خطباء إياد قس بن ساعدة، وهو الذى قال فيه النبى ﷺ لجارود: يا جارود، فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أورق، وهو يتكلم بكلام ما أظن أنى حفظته، فقال أبو بكر: يا رسول الله فإنى أحفظه، كنت حاضرا ذلك اليوم، فقال فى خطبته: أيها الناس؛ اسمعوا وعوا؛ فإذا وعيتم فانتفعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن فى السماء لخبرا، وإن فى الأرض لعبرا، جهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لن تغور، ليل داج، وسماء ذات أبراج، أقسم قس قسما حتما، لئن كان فى الأرض رضى ليكونن بعده سخطا، وإن لله دينا هو أحب إليه من دينكم»[٦]، ثم يعلن توحيده الخالص النقي؛ مناديا «كلا، بل **هو الله المعبود الواحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى، وإليه المآب غداً**[٧]»

ثم يرسل شعره قائلا:

فى الذاهبين الأولين	فى الشعوب لنا بصائر
لما رأيت مواردا	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	تسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجعن قومي إلىَّ	ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة	حيث صار القوم صائر[٨]

(٥) العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧، ص١٤٤.
(٦) الألوسي: بلوغ الأرب، ج٢، ص٢٤٤.
(٧) الشهرستاني: الملل والنحل، المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٩٥١، ج١، ص٩٦.
(٨) عبدالقادر البغدادي: خزانة الأدب، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الكتاب العربى، ١٩٦٧، ج٢، ص٢٦٤.

ويقول أيضا :

يا ناعى الموت والأموات فى جدث   عليهم من بقايا برعم خرق
دعهم فإن لهم يوما يصاح بهم   فهم إذا انتبهوا من نومهم فرقوا
حتى يعودوا لحال غير حالهم   خلقا جديدا كما من قبله خلقوا
فيهم عراة ومنهم فى ثيابهم   منها الجديد ومنها المبهج الخلق

حتى قال رسول الله ﷺ. «والذى بعثنى بالحق، لقد آمن قس بالبعث» (٩).

ومن الحنفاء (سويد بن عامر المصطلقي). ذكرت المصادر أنه كان على دين الحنيفية وملة إبراهيم. وقد جاء فى شعره ذكر المنايا وحتمها، وأن الخير والشر مكتوبان على النواصى، وأنه ليس للمرء يد فيما يصيبه من القدر، فكل شىء محتوم مقدور. قال مسلم الخزاعى المصطلقي : «شهدت رسول الله ﷺ وقد أنشده منشد قول سويد بن عامر المصطلقي :

لا تأمنن وإن أمسيت فى حرم   حتى تلاقي ما يمنى لك المانى
فالخير والشر مقرونان فى قرن   بكل ذلك يأتيك الجديدان
فكل ذى صاحب يوما يفارقه   وكل زاد وإن أبقيته فانٍ

فقال رسول الله ﷺ: لو أدركته لأسلم» (١٠).

ومنهم أيضا- قبل عبدالمطلب- (وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي)، الذى بنى صرحا بأسفل مكة، جعل فيه أمة يقال لها حزورة، وبها سميت حزورة مكة، جعل فيها سلما يرقاه، زاعما أن الله يناجيه فيه، وكان يتكلم بالخير، وزعم العرب أنه صديق من

---

(٩) الجاحظ : البيان والتبيين تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة ١٩٤٨، ج١ ص٣٠٩.
(١٠) الألوسي : بلوغ الأرب، ج٢، ص٢١٩و٢٥٩.

الصديقين[11]. وهو بهذا المعنى رجل متأله مدعى الوحي متنبيء، وذكروا عنه كلمات مسجوعة مثل: «إن ربكم ليجزين بالخير ثوابا، وبالشر عقابا، وإن من فى الأرض عبيد لمن فى السماء، هلكت جرهم وزيلت إياد، وكذلك الصلاح والفساد»، أو مثل «من رشد فاتبعوه، ومن غوى فارفضوه، وكل شاة برجلها معلقة»[12].

▪ ومنهم أيضا (أبو قيس صرمة بن أبى أنيس)، وهو من بنى النجار أهل يثرب؛ أنسباء البيت الهاشمى، . وتقول الأخبار إنه فارق الأوثان واغتسل من الجنابة، وتطهر، ودخل بيتا له اتخذه مسجدا لا تدخله طامث ولا يدخله جنب، وقال أعبد رب إبراهيم، وكان قوالا بالحق، معظما لله. وقال ابن حجر: إنه لما قدم النبي ﷺ إلى يثرب، أسلم وحسن إسلامه، وهو شيخ عجوز، وكان ابن عباس يختلف إليه ويأخذ عنه الشعر[13]، ومن هذا الشعر قوله:

فو الله ما يدرى الفتى كيف يتقى ... إذا هو لم يجعل له الله واقيا
ولا تحفل النخل المعيمة ربها ... إذا أصبحت ريا وأصبح ثاويا

وقوله:

يا بنى الأيام لا تأمنوها واحذروا ... مكرها ومر الليالى
واعلموا أن مرها لنفاذ الخلق ... ما كان من جديد وبالى

وقوله:

سبحوا الله شرق كل صباح ... طلعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان لدينا ... ليس ما قال ربنا بضلال[14]

---

(11) ابن حبيب: المحبر، ص١٣٦.
(12) الألوسي: بلوغ الأرب، ج٢، ص٢٦٠.
(13) ابن هشام: السيرة ج١، ص٥١٠.
(14) ابن حجر العسقلاني: الإصابة فى تمييز الصحابة، مطبعة السعادة، القاهرة١٣٢٣هـ، ج٣، ص٢٦٢.

■ ومنهم أيضا ورقة بن نوفل الذى قال عنه الألوسي أنه ممن وحد الله، وترك الأوثان وسائر أنواع الشرك، واجتهد فى طلب الحنيفية دين إبراهيم، ثم تنصر، لكنه لم يتبع النصارى فى التبديل، وظل موحدا[١٥] . وقد سأل رسول الله ﷺ عن ورقة فقالت له خديجة (رضى الله عنها): إنه كان صدقك وإنه مات قبل أن تظهر؛ فقال رسول الله ﷺ: رأيته فى المنام وعليه ثياب بيض، ولو كان من أهل النار لكان عليه لباس غير ذلك[١٦] .

وقس هو الذى كان ينادى الناس ناصحا:

لا تعبدون إلها غير خالقكم ... فإن دعوكم فقولوا بيننا حدد
سبحان ذى العرش سبحانا نعوذ به ... وقبل قد سبح الجودي والجمد
مسخر كل ما تحت السماء له ... لا ينبغى أن يناوى ملكه أحد
لا شيء مما نرى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودى المال والولد

وهو الذى قال فى (زيد بن عمرو بن نفيل) رفيقه على درب الحنيفية بعد موته

رشدت وأنعمت بن عمرو وإنما ... تجنبت تنورا من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله ... وتركك أوثان الطواغى كما هيا
وإدراكك الدين الذى قد طلبته ... ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت فى دار كريم مقامها ... تعلل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقى خليل الله فيها ولم تكن ... من الناس جبارا إلى النار هاويا
وقد تدرك الإنسان رحمة ربه ولو ... كان تحت الأرض سبعين واديا[١٧]

---

(١٥) ابن هشام: السيرة، ج١، ص٥١١و٥١٢
(١٦) الألوسي: بلوغ الأرب، ج٢، ص٢٧٢.
(١٧) الأب لويس شيخو: شعراء النصرانية فى الجاهلية، مكتبة الآداب، الحلمية الجديدة القاهرة، ١٩٨٢، ج٤، ص٦١٧، ٦١٨.

■ ومنهم (عامر بن الظرب العدوانى)، وكان من حكماء العرب وخطبائهم، وكانت له نظرات وآراء فى العقيدة؛ تتضح فى قوله فى وصية طويلة منها: «إنى ما رأيت شيئا قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا، ولا جائيا إلا ذاهبا، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء.. إنى أرى أموراً شتى وحتى (قيل له: وما حتى؟) قال: حتى يرجع الميت حيا، ويعود اللاشىء شيا..»[١٨]. وقالوا عنه: إن إيمانه بملة إبراهيم، دفعه إلى تحريم الخمر على نفسه[١٩]، وفى ذلك يقول:

ان أشرب الخمر للذتها ... وإن أدعها فإنى ماقت قال
لولا اللذاذة والفتيان لم أرها ... ولا رأتنى إلا من مدى الغال
سئالة للفتى ما ليس يملكه ... ذهابة بعقول القوم والمال
مورثة القوم أضغانا بلا إحن ... مزرية بالفتى ذى النجدة العال
أقسمت بالله أسقيها وأشربها ... حتى يفرق ترب القبرأوصالى[٢٠]

■ ومنهم علاف بن شهاب التميمى الذى آمن بوحدانية الله وبالبعث والنشور والحساب والثواب والعقاب، وهو القائل:

ولقد شهدت الخصم يوم رفاعة ... فأخذت منه خطة المغتال
وعلمت أن الله جاز عبده ... يوم الحساب بأحسن الأعمال[٢١]

■ ومنهم (المتلمس بن أمية الكنانى) الذى كان يخطب فى فناء الكعبة مناديا بنبذ الفرقة القبلية عن سبيل نبذ الأوثان، والاتجاه إلى رب كعبة مكة. وكان يقول لهم: «إنكم تفردتم

---

(١٨) الألوسي: بلوغ الأرب، ج٢، ص٣٧٥.
(١٩) ابن حبيب: المحبر: ٣٢٩.
(٢٠) الألوسي: بلوغ الأرب، ج٢، ص٢٧٦. (القسم هنا بالنفى).
(٢١) نفسه: ص٢٧٧.

بآلهة شتى، وإنى لأعلم ما الله راض به، **وإن الله رب هذه الآلهة، وإنه ليحب أن يعبد وحده»**[22].

■ ومن الحنفاء أيضا من حاز بعض الشهرة، مثل (زهير بن أبى سلمى)، وذكر أنه كان يتأله ويؤمن بالبعث والحساب، ويروى أنه كان يمر بالعضاة قد أورقت بعد يبس فيقول: «لولا أن تسبنى العرب، لآمنت أن الذى أحياك بعد يبس **سيحيى العظام وهى رميم»**. وقد سلكه ابن حبيب ضمن من حرموا على أنفسهم الخمر والسكر والأزلام[23]، وهو القائل مقسما بالكعبة:

أقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجـــال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم الســيدان وجــدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم[24]

وهو القائل:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة ... ولو خالها تخفى على الناس تعلم
ومن هاب أسباب المنية يلقها ... ولو رام أسباب السماء بسلم[25]

ثم هو يحدد موقفه واضحا من لعقة الدم فى حلف الأحلاف المناوئ للمطيبين فى قوله:

ألا أبلغ الأحــلاف عنى رســالة ... وذبيان، هل اقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ... ليخفى، ومهما يكتم الله يعلم[26]

---

(٢٢) الموضع نفسه.
(٢٣) ابن حبيب: المحبر، ص٢٣٨.
(٢٤) د. جمال العمري: الشعراء الحنفاء، ص١٦٤.
(٢٥) ثعلب: شرح ديوان زهير، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤، ص٣٥.
(٢٦) نفسه: ص٢١٩.

ثم يقول مؤمنا :

ألا ليت شعرى هل يرى الناس ما أرى من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا
بدا لى أن الله حق فزادنى إلى الحق تقوى الله ما كان باديا[٢٧]

★ ★ ★

إن الفكر السليم ليعزو انتشار الحنيفية فى الجزيرة والحجاز ؛ إلى تمهيد هؤلاء وتوطئتهم ، حتى تحولت إلى تيار قوى قبل الإسلام . وإن أهم رجالات الحنيفية وأساتذتها - وربما كان أولهم من حيث الأهمية والأثر - هو (عبد المطلب بن هاشم) ، إضافة إلى اثنين من تلامذة الحنيفية الكبار هما : (زيد بن عمرو بن نفيل بن حبيب) ، ذاك الذى استطاع جده إقناع الفيل محمود بالعودة إلى اليمن راشدا ، وكان حليفا لعبد المطلب ، والثانى (أمية بن عبدالله بن أبى الصلت) وكان جده حليفا بدوره لعبد المطلب ، ورفيقه فى رحلته لتهنئة ابن ذى يزن باستقلال اليمن .

ويؤكد الدكتور جواد على أن أهم العلامات الفارقة التى ميزت الحنفاء عن غيرهم ، هى : **الاختتان ، وحج مكة ، والاغتسال من الجنابة ، واعتزال الأوثان ، والإيمان بإله واحد بيده الخير والشر ، وأن كل ما فى الكون محتوم مكتوب**[٢٨] . وفى ملل الشهرستانى نجد أن الحنفاء كانت تقول : «إننا نحتاج فى المعرفة والطاعة إلى متوسط من جنس البشر ؛ تكون درجته فى الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق الروحانية ، ويلقى إلى نوع الإنسان بطرف البشرية»[٢٩] .

إذن هى النبوة؟! ولابد للأحناف من نبى!!

وهنا يقول لنا الدكتور أحمد الشريف : «والدليل على أن الجاهليين كانوا يتطلعون إلى نظام جديد ؛ أنهم كانوا - حسب تفكيرهم - يتحدثون عن علامات ونذر تنبئ عن قرب

(٢٧) نفسه : ص٢٨٤ .
(٢٨) جواد على : المفصل ، ج٥ ، ص٢٩٠ .
(٢٩) الشهرستانى : الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، نشر مصطفى البابى الحلبي ، القاهرة ١٩٦١ ، ج١ ، ص٢٣١ .

ظهور نبي منهم. وقد روى القدماء معجزات ونذراً قالوا إنها وقعت قبل ظهور الإسلام؛ إرهاصاً به ومنبئة بقرب ظهوره، وتلك الروايات - إن صحت - كانت دليلا على أن الجاهليين تطلعوا إلى الإصلاح، وإلى ظهور مصلح من بينهم. **وكان الإصلاح قديما لا يأتي إلا على أيدى الحكماء والأنبياء**. وهذا التطلع الطبيعي في كل جماعة إحساس ضروري يسبق كل حركة إصلاحية ويمهد لها.. وكانت البيئة مستعدة لقبول النظام الجديد؛ لأنها بيئة لها وحدتها المتميزة؛ من الناحية اللغوية، ومن ناحية الجنس.. وكان من المتوقع لو لم يظهر الإسلام أن يدخل العرب في أحد الدينين، لولا أنهم بدأوا نهضة قومية.. لذلك يريدون ديانة خاصة يعتبرونها **رمزا لقوميتهم.. ديانة تعبر عن روح العروبة** وتكون عنوانا لها، لذلك. بحث عقلاؤهم عن الحنيفية دين إبراهيم الذى كانوا يعدونه أباً لهم.. وقد ظهرت حركة التحنف قبل الإسلام مباشرة، وكانت رمزا إلى أن الروح العربى كان يتلمس يومئذ دينا آخر غير الوثنية. والإسلام حين جاء.. كان دليلا على **نضوج ديني فلسفي، استعد له العرب فى القرون المتطاولة السابقة**.. وكذلك كانوا يحسون بأن عدم وجود دولة تجمعهم أمر فيه ذلة وعار.. في هذه الظروف المواتية من الناحية الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية؛ ظهرت النهضة العربية؛ وكانت دينية؛ والدين كان عاملاً من عوامل التطوير والتقدم في العصور القديمة، ولم يتنازل الدين بعض الشيء عن هذه الناحية، إلا بانتشار **العلوم، ووجود العوامل التى تنافسه فى القيام بهذا الدور فى العصر الحديث**»[30].

المهم؛ أنه عندما وصل الحنفاء إلى النتيجة المحتومة، بدأت مباراة تتسم بسمو الروح الرياضية ورقيها؛ فأخذوا يتنافسون في الترفع عن صغائر الأفعال. وهذه الأفعال التى تعففوا عنها هي التى أصبحت فيما بعد أفعالا شريرة، ويجب تجنبها في نظر الناس. أما

---

(٣٠) د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة، ص٢٣٩، ٢٤١و٢٤٥.

عندما جاء الإسلام فقد أوجب تحريمها، ومن هؤلاء الرواد الذين لا ينبغى أن يتخطاهم البحث المحايد، من يصح الوقوف معهم رويدا.

★ **الوقفة الأولى: مع (زيد بن عمرو بن نفيل):** الذى تعود أرومته إلى قصى بن كلاب. وأمه هى أمية بنت عبدالمطلب!! ويعد ثانى الرواد الحنفيين أثرا وأكثرهم خطرا بعد عبد المطلب بن هاشم. وعنه يقول ابن كثير: «إنه اعتزل الأوثان، وفارق الأديان؛ من اليهود والنصارى والملل كلها، إلا دين الحنيفية، دين إبراهيم، يوحد الله ويخلع من دونه.. وذُكر شأنه للنبى ﷺ فقال: **هو أمة وحده يوم القيامة.. يبعث يوم القيامة أمة وحده..** وكان يحيي الموؤدة. يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيك مؤنتها فيأخذها.. وكان يقول: يا معشر قريش إياكم والزنا، فإنه يورث الفقر.. فقال رسول الله ﷺ يحشر ذاك أمة وحده، بينى وبين عيسى ابن مريم- إسناده جيد- وأتى عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد إلى رسول الله ﷺ فسألاه عن زيد بن عمرو بن نفيل؛ فقال غفر الله له ورحمه، فإنه مات على دين إبراهيم.. مات زيد بمكة، ودفن بأصل حراء قال رسول الله ﷺ دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين»[٣١].

ويقول البيهقي فى دلائل النبوة: إنه التقى برجل من أهل الكتاب، فقال له عليك بالدين الحنيف؛ «قال: دين إبراهيم، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما، ومن ثم عاد مؤمنا بدين إبراهيم وحنيفيته الإسلامية»[٣٢]. ولكلام البيهقي هنا مصداقية خاصة يدلل عليها شعر زيد ذاته الذى أفصح فيه عن «إعلان حنيفيته تحت اسم الإسلام». وعندما تنبأ المصطفى محمد ﷺ، كان يترحم على زيد ويقول: «قد رأيته فى الجنة يسحب ذيولا»[٣٣]. وعرف عنه الجاهليون دأبه الذى لا يكل ولا يمل؛ متنقلا دوما،

---

(٣١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢٢١، ٢٢٤.
(٣٢) البيهقي: دلائل النبوة، ج٢، ص١٢٣و١٢٤.
(٣٣) الطبري: التاريخ، ج٢، ص٢٩٦.

يدعو لنبذ الأسلاف المتفرقة فى أرباب شفيعة، والعودة إلى أب واحد يجمع العرب هو إسماعيل بن إبراهيم، وإلى رب واحد هو رب إبراهيم؛ مباشرة ومن دون وسيط. نبذا للفرقة القبلية، وتهيئة للوحدة، ثم لا يأتى شهر رمضان إلا ويصعد إلى غار حراء متحنفا متحنثا معتكفا يتأمل ويتعبد(٣٤).

وفى (البداية والنهاية)، يطالعنا زيد بشعره قائلا:

أسلمت؟!

أسلمت وجهى لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها فلما رآها استوت ... على الماء، أرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذباً زلالا
إذا هى سيقت إلى بلدة ... أطاعت فصبت عليها سجالا(٣٥)

(وليلحظ قارئنا أننا نستند هنا فى أمر هذا الشعر إلى مصادره الأصلية، إضافة إلى العودة إلى حل مسألة الا نتحال فيه، والأخذ بما انتهى الباحثون لتأكيده غير منحول، فهى مهمة لها رجالها المتخصصون، وإليهم مرجعنا فى الأمر، وينسحب ذلك على كل ما أوردناه من أشعار الحنفاء)(٣٦).

وفى (السيرة النبوية) لابن هشام؛ نجد زيدا إذا دخل الكعبة قال: «اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك لعبدتك به، ولكننى لا أعلمه، ثم يسجد على الأرض»(٣٧). ويؤكد

---

(٣٤) المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص٧٠وانظر أيضا بوعلى ياسين: الثالوث المحرم، الطليعة، بيروت، ط٤، ١٩٨٠، ص٧٠و٨٥.
(٣٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢٢٥.
(٣٦) د. جمال العمري: الشعراء الحنفاء. رسالة دكتوراة ناقش فيها صاحبها مسألة الانتحال فى أشعار الحنفاء، وأخذنا منه ما اتفق عليه مع لجنة المناقشة من شعر غير المنحول.
(٣٧) ابن هشام: السيرة، ج١، ص٢٠٨.

(ابن هشام) أنه حرم على نفسه أموراً – نقلها الناس عنه من بعد كتشريعات؛ لانبهارهم بشدة ورعه وعلمه وتقواه – مثل: **تحريم الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله من ذبائح تذبح على النصب**[٣٨]. **نعم؛** لقد أصبحت هذه تشريعات لمجرد امتناع زيد عنها، **وربما كان امتناعه عن بعضها لا لعيب فيها، وإنما لأنه كان لا يسيغها**، ومع ذلك كان لإعجاب الناس به دور كبير في تحولها إلى قوانين متعالية.

ويروي لنا الأخبار أن زيدا قد عاصر النبي محمداً ﷺ، وأنه التقاه. عن عبدالله بن عمر: أن النبي ﷺ لقي زيدا بأسفل بلدح، فدعاه إلى تناول طعام مما يذبح للأرباب، فقال زيد للنبي: «إني لست آكل ما تذبحون على أنصابكم»؟! ويعلل ابن هشام أكل النبي قبل بعثه نبيا، لأضحيات أو قرابين الأصنام بقوله: «إن رسول الله ﷺ كان يأكل مما ذبح على النصب، فإنما فعل أمرا مباحا، وإن كان لا يأكل فلا إشكال»!![٣٩] ويورد لزيد شعره القائل في فراق الوثنية:

أربا واحدا أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور

عزلت اللات والعزى جميعا ... كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني عمرو أزور

ولكن أعبد الرحمن ربي ... ليغفر ذنبي الرب الغفور

فتقوى الله ربكم احفظوها ... متى تحفظوها لا تبوروا

ترى الأبرار دارهم جنان ... وللكفار حامية السعير

وخزي في الحياة وإن يموتوا ... يلاقوا ما تضيق به الصدور[٤٠]

---

(٣٨) نفسه: ص٢٠٦.

(٣٩) نفسه: ص٢٠٧، ٢٠٨ وانظر أيضاً البيهقي، ج٢، ص١٢٤، ١٢٦. وقد ذكر ابن الكلبي في كتاب الأصنام ص١٢ «إن النبي ذكر العزى يوما، فقال: لقد أهديت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومي».

(٤٠) الشهرستاني: الملل والنحل، ج٢، ص٢٤٨. وانظر أيضا ابن هشام السيرة، ج١، ص٢٠٨و٢٠٩.

وقال حجير بن أبى إهاب: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل، وأنا عند صنم بوانة- بعدما رجع من الشام- وهو يراقب الشمس، فإذا زالت استقبل الكعبة، فصلى ركعة وسجدتين ثم يقول: هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل، لا أعبد حجرا ولا أصلى إلا إلى هذا البيت حتى أموت. وكان يحج فيقف بعرفة، وكان يلبى فيقول: لبيك لا شريك لك، ولا ند لك، ثم يدفع من عرفة ماشيا وهو يقول: لبيك متعبدا لك مرقوقاً»[٤١].

وقالت أسماء بنت أبى بكر: «رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما؛ مسندا ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معشر قريش، ما منكم أحد على دين إبراهيم غيرى»، وكان إذا خلص إلى البيت استقبله ثم قال: لبيك حقا حقا، تعبدا ورقا، البر أرجو لا الخال، وهل مهجر كمن قال، ثم قال:

عـذت بما عـاذ به إبراهيم | مستقبل الكعبة وهو قائم
يقول أنفى لك عان راغم | مهما تجشمنى فإنى جاشم[٤٢]

ويقول أيضا:

إلى الله أهدى مدحى وثنائيا | وقولا رصينا لايني الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه | إله ولا رب يكون مدانيا
رضيت بك اللهم ربا فلن أرى | أدين إلها غير الله ثانيا[٤٣]

★ **الوقفة الثانية: مع (أمية بن عبدالله بن أبى الصلت):** الذى تصله أمه رقية بنت عبدشمس بن عبد مناف ببيت عبد مناف بن قصي[٤٤]، وهو صاحب القول المأثور:

---

(٤١) ابن سعد: الطبقات الكبير طبعة لندن، ٩٣٢ هـ، ج٣، ق١، ص٢٧٦.
(٤٢) الأصفهاني: الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت ج٣، ص١٢٣.
(٤٣) ابن هشام: السيرة، ج١، ص٢٢٧.
(٤٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢٠٥.

كل دين يوم القـــيـــامـــة- إلا دين الحنيــفــيـــة- زور!!

وكان يحاور أبا سفيان ويقول له: «. . والله يا أبا سفيان، لنبعثن ثم لنحاسبن، وليدخل فريق الجنة، وفريق النار»[٤٥]، وحول عقيدته في البعث والحساب يقول شعرا:

باتت هـمـومى تسـرى طوراقـهـا أكف عـينى والدمع سـابقـهـا
ممـا أتـانى من اليقـين ولـم أوت بـرأة يقـصى ناطقـهـا
أم من تلظى عـليه واقدة الـنـار مـحيط بهـم سـرادقـهـا
أم أسكن الجنة التى وعـد الأبرار مـصـفـوفـة نمارقـهـا
لا يستوى المنـزلان ولا الأعـمال لا تـسـتـوى طـرائقـهـا
هـما فريقان: فرقة تدخـل الجنة حـفت بهـم حـدائقـهـا
وفـرقـة منـهـم أدخلت النار فـسـاءتهم مـرافـقـهـا[٤٦]

ويقول جواد علي: إن أمية حرم على نفسه الخمر، وتجنب الأصنام، وصام، والتمس الدين، وذكر إبراهيم وإسماعيل، وكان أول من أشاع بين القرشيين افتتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بعبارة: باسمك اللهم (استعملها النبي محمد ﷺ ثم تركها واستعمل بسم الله الرحمن الرحيم). وقد روى الإخباريون قصصا عن التقاء أمية بالرهبان، وتوسمهم فيه أمارات النبوة، **وعن هبوط كائنات مجنحة شقت قلبه ثم نظفته وطهرته تهيئة لمنحه النبوة**[٤٧]. وأمية هو القائل في رب الحنيفية الخلاق:

---

(٤٥) نفسه: ص٢٠٦.

(٤٦) نفسه: ص٢٠٩.

(٤٧) جواد علي: المفصل، ج٥، ص٢٨٠و٢٨١. وانظر ابن هشام: السيرةج١، ص٢٠٨و٢٠٩. وانظر أيضا ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٢٠٦: ٢٠٨.

إله العــــــالمين وكل أرض ورب الراسيــات من الجبــال
بناها وابتنى سبــعا شدادا **بلا عمــد يرين ولا حبــال**
وســواها وزينها بنــور من الشمس المضيئة والهلال
ومن **شهب** تلألأت فى دجاها **مراميها أشد من النصال**
وشق الأرض فأنجبت عيونا وأنهــارا من العــذب الزلال
وبارك فى نواحيهــا وزكى بها ما كان من حرث ومال

ويعتبر أمية أحسن الحنفاء حظا فى بقاء الذكر، فقد بقى كثير من شعره وحفظ قسط لا بأس به من أخباره، وسبب ذلك عند (جواد علي) بقاؤه إلى ما بعد البعثة، واتصاله بتاريخ النبوة والإسلام اتصالا مباشرا، وملاءمة شعره بوجه عام لروح الإسلام. برغم أنه حضر البعثة ولم يسلم، ولم يرض بالدخول فى الإسلام، لأنه كان يأمل أن تكون له النبوة، ويكون مختار الأمة وموحدها. ولذلك، **برز كنموذج للاستقامة والإيمان والتطهر والزهد والتعبد**، وقد مات سنة تسع للهجرة بالطائف **كافرا بالأوثان وبالإسلام**(٤٨)!! ويذكر الإخباريون المسلمون أنه لما سمع بخبر البعثة ذهب ليسلم، لكن بعض أهل مكة علموا بمسيره، فأرادوا رده عن غايته، فالتقوه عند القليب حيث قبر المسلمون سادات قريش فى بدر الكبرى، ولعلم القرشيين بحكمة أمية- التى دعته من قبل إلى تقدير السادات؛ من حكماء مكة وأشرافها- فقد قالوا له: هل تدرى ما فى هذا القليب؟ قال: لا؛ فقالوا له: فيه شيبة وربيعة وفلان وفلان. فجدع أنف ناقته، وشق ثوبه وبكى قائلا: **لو كان نبيا ما قتل ذوى قرابته**، وعاد يرسل نواحه شعرا يرثى قتلى بدر من أهل مكة، فى قصيدته الحائية التى يقول فى بعضها:

---

(٤٨) نفسه: ص٣٧٧و٣٧٨و٣٨٣

ألا بكيت على الكرام بنى ... الكرام أولى الممادح
كبكا الحمام على فروع ... الأيك فى الغصن الصوادح
إن قد تغير بطن مكة ... فهى موحشة الأباطح
من كل بطريق لبطر ... يق نقى اللون واضح
ومن السراطمة الجلا ... جمة الملاوثة المناجح
القائلين الفاعلين ... الآمرين بكل صالح
المطعمين الشحم فوق ... الخبز شحما كالأنافح
خذلتهم فئة وهم ... يحمون عورات الفضائح
ولقد عنانى صوتهم ... من بين مستشق وصابح(٤٩)

وقال الإمام أحمد: «حدثنا إبراهيم بن ميسرة أنه سمع عمرو بن الشريد يقول: قال الشريد: كنت ردفا لرسول الله (أى راكبا معه على بعير واحدة) فقال لى: أمعك من شعر أمية بن أبى الصلت شىء؟ قلت: نعم؛ قال: فأنشدنى بيتا، فلم يزل يقول لى كلما أنشدته بيتا: **إيه**، حتى أنشدته مئة بيت»(٥٠) . ومن هذا الشعر ما يصح الوقوف معه كنموذج- لاشك رائع- لمعتقدات واحد من رجالات الحنيفية (مع ملاحظة أن هذا الشعر قد يختلف الأمر فى نسبته إليه أو إلى زميله فى الحنيفية زيد ابن عمرو بن نفيل، وماعدا ذلك فمتفق عليه)؛ فهو يقول فى إيمانه:

الحمد لله ممسانا ومصبحنا ... بالخير صبحنا ربى ومسانا
رب الحنيفية لم تنفد خزائنها ... مملوءة طبق الآفاق سلطانا

وفى إيمانه – مثل عبدالمطلب وزيد- بيوم بعث ونشور؛ يقول:

(٤٩) لويس شيخو: شعراء النصرانية، ج٢، ص٢٢٣.
(٥٠) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢١٢.

ويوم موعدهم **يحشرون** زمرا **يوم التغابن** إذ لا ينفع الحذر

وأبرزوا بصعيد مستو حرز وأنزل **العرش والميزان والزُّبُرُ**

ويستطرد شارحا مفصلا عن هذا اليوم:

عند ذى العرش يعرضون عليه يعلم الجهر والكلام الخفيا

يوم نأتيه وهو رب رحيم إنه كان وعده مأتيا

رب كُلاً حتمته النار كتابا حتمته مقضيا

ويحذر من عذاب الآخرة فيقول:

وسيق المجرمون وهم عراة **إلى ذات المقامع والنكال**

فنادوا ويلنا ويلا طويلا وعجوا فى سلاسلها الطوال

فليسوا ميتين فيستريحوا وكلهم بحر النار صالى

وحل **المتقون بدار صدق** وعيش ناعم تحت الظلال

لهم ما يشتهون فيها وما تمنوا من الأفراح فيها والكمال

وعن إبراهيم (عليه السلام) وابنه إسماعيل (عليه السلام) اللذين يرجع إليهما الحنفاء عقيدتهم؛ يحكى قصة الذبح والفداء؛ فى حوار طويل ممتع، نجتزئ منه:

ابنى إنى نذرتك لله شحيصا فاصبر فدا لك خالى

فأجاب الغلام أن قال فيه كل شىء لله غير انتحال

فاقض ما قد نذرته لله واكفف عن دمى أن يمسه سربالى

وبينما يخلع السروايل عنه فكه ربه بكبش حلال

وعن يونس يقول:

وأنت بفضل منك أنجبت يونسا وقد بات فى أضعاف حوت لياليا

وعن عيسى وأمه يقول:

وفى دينكم من رب مـــريم آية … منبئـة بالـعبـد عيـسى بن مـريم
تـدلى عليـهـا بعـدمـا نام أهلـهـا … رسـولا فلم يحـصـر ولـم يترمـرم
فـقــال: ألا لا تجـزعى وتكـذبى … مــلائكة من رب عــاد وجــرهـم
أنيـبى وأعطى مـاسئلت فـإننى … رســول من الرحــمن يأتيك بابنم
فــقــالت: أنى يكون **ولــم أكـن** … **بغـيــا ولا حــبلى** ولا ذات قــيم
فــسبح ثم اغـترها فـالتقت بـــه … غـلامـا ســوى الخلقـة ليس بتـوأم
فــقـــال لهــا: إنى من الله آيــة … وعلمنى، والله خـــيــر مــعلم
وأرسلت ولم أرسل غـويا ولم أكن … شـقـيا، ولـم أبعث بفـحش ومـأثم

ويقول جواد على مانصه: «وفى أكثر ما نسب إلى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات، ووصف ليوم القيامة والجنة والنار؛ تشابه كبير وتطابق فى الرأى جملة وتفصيلا، لما ورد عنها فى القرآن الكريم. بل نجد فى شعر أمية استخداما لألفاظ وتراكيب واردة فى كتاب الله والحديث النبوي قبل المبعث، فلا يمكن- بالطبع- أن يكون أمية قد اقتبس من القرآن؛ لأنه لم يكن منزلا يومئذ. وأما بعد السنة التاسعة الهجرية؛ فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضا؛ لأنه لم يكن حيا؛ فلم يشهد بقية الوحى!! ولن يكون هذا الفرض مقبولا فى هذه الحال.. ثم إن أحدا من الرواة لم يذكر أن أمية ينتحل معانى القرآن وينسبها لنفسه. ولو كان قد فعل لما سكت المسلمون عن ذلك، ولكان الرسول أول الفاضحين له»[٥١].

وهذا- بالطبع- مع رفض فكرة أن يكون شعره منحولا أو موضوعا من قبل المسلمين المتأخرين لأن فى ذلك تكريما لأمية وارتفاعا بشأنه. وهو ما لا يقبل مع رجل كان يهجو

(٥١) جواد علي: المفصل، ج٥، ص٣٨٤و٣٨٥.

نبي الإسلام ﷺ بشعره، ولا يبقى سوى أنه كان حنيفيا مجتهدا استطاع أن يجمع من قصص عصره، وما كان عليه الحنفاء من رأى فى شعره؛ خاصة مع ما قاله بشأنه ابن كثير: «وقيل إنه كان مستقيماً وإنه كان أول أمره على الإيمان، ثم زاغ عنه»[٥٢]. ولا ريب أن الاستقامة تفرز الاستقامة وتلتقيها. وربما كتب ما كتب إبان هذه الفترة التى يحددها لنا ابن كثير، ولا ريب أنها كانت قبل البعثة النبوية؛ لأنه بعده- ولاشك- زاغ عن إيمانه واستقامته، إذ رأى الملك والنبوة تخرجان من بين يديه؛ بعد أن أعد نفسه لهما طويلا.

* * *

(٥٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢٠٥.

ظهور النبى المنتظر

يتأكد مما سبق أن قدسية الكعبة، وتحريمها، ثم تحريم شهور محددة لانطلاق قوافل التجارة، وحج العرب إليها، قد جسد- رمزيا- مكانة مكة القيادية بالنسبة إلى القبائل العربية على الجانب السياسى، وكان تحريمها ضمانا آخر لتقديسها. وأمانا من مطامع من يريد السيطرة عليها من القبائل الأخرى، مع ما أضافته بئر زمزم وقصتها مع عبدالمطلب من قدسية أخرى. تضاف إلى لبنات الأيديولوجيا الدينية المتنامية التى بلغت أوجها فى توحيد القبائل على شعائر محددة تقام فى مكة، حددت نوع الولاء، ونوع العبادة؛ مما حمل فى رحمه بذور الوحدة السياسية المقبلة التى ارتهنت بولاء القبائل لسلطان مكة. وعندما جاء دين الإسلام العظيم، لم يلغ شعائر الحج القديمة ولا حرمة مكة، وإنما أخذ على عاتقه محاربة العصبية القبلية وتعدد الآلهة، ثم اعتبر ذاته من جهة أخرى استمراراً لدعوة إبراهيم (عليه السلام). كما كان واضحا أن النبى ﷺ اتخذ خطوات متسارعة لتكوين قوة عسكرية؛ قامت بدورها فى توحيد جزيرة العرب كلها.

ومعلوم أن المصطفى ﷺ- بعد أن طوت راحة الزمن جده عبدالمطلب- شب فى كنف عمه أبى طالب، وببلوغه ﷺ مرحلة الشباب؛ تزوج السيدة خديجة بنت خويلد (رضى الله عنها) التى وصفها ابن إسحق بأنها «كانت امرأة تاجرة؛ ذات شرف ومال»[1]، ووصفها ابن سيد الناس بأنها كانت أكثر نساء العرب مالا[2]، وكانت تكبر النبى ﷺ بنحو خمس عشرة سنة؛ مما وفر له ﷺ الوقت الكافى، والاطمئنان النفسى للانصراف من السعى وراء الرزق إلى التفكير فى شئون قومه السياسية والدينية. وفى ذلك يقول الدكتور أحمد الشريف: «ثم إن النبى وجد بعد زواجه من خديجة بنت خويلد- وهى إحدى النساء الغنيات الشريفات فى مكة- نوعا من الراحة النفسية.. وقد كان فى هذا الزواج من

(١) ابن هشام: فى كتاب الروض للسهيلي، ج١، ص٢١٢.
(٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج١، ص٢٦٢.

العوامل التى جعلته يتخفف من بعض أعباء الحياة، ومن بعض عناء السعى. فخديجة الغنية بمالها التى كانت امرأة نصف؛ قد فارقت عهد الشباب الأول، وكانت لها تجربة فى إدارة أموالها، كانت أقدر على حياة زوجية هادئة رصينة، هيأت لمحمد أن يتخفف من أعباء الحياة لأفكاره الذاتية»[٣].

ومعلوم أيضا أن النبى محمد ﷺ كان الزوج الثالث للسيدة خديجة، بعد عتيق بن عابد الذى أنجبت منه هندا، وأبى هالة الذى أنجبت منه هالة وهندا أيضا[٤]، وقد أوضح القرآن الكريم فضل هذه السيدة فى قوله تعالى: ﴿ووجدك عائلا فأغنى﴾. وكان النبى ﷺ يقول «.. آمنت بى حين كذبنى الناس، **وواستنى بمالها حين حرمنى الناس».**

وعندما تزوج المصطفى ﷺ من السيدة خديجة (رضى الله عنها)؛ أكثر الناس من الكلام فى هذه الزيجة. وهنا يروى لنا ابن كثير «.. أن عمار ابن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله ﷺ خديجة، وما يكثرون فيه؛ يقول: أنا أعلم الناس بتزويجه إياها. إنى كنت له تربا، وكنت له إلفا وخدنا، وإنى خرجت مع رسول الله ﷺ ذات يوم؛ حتى إذا كنا بالحزورة؛ أجزنا على أخت خديجة وهى جالسة على أدم تبيعها فنادتنى؛ فانصرفت إليها. ووقف لى رسول الله ﷺ فقالت: أما بصاحبك هذا من حاجة فى تزويج خديجة؟ قال عمار: فرجعت إليه فأخبرته، فقال: بلى لعمرى؛ فذكرت لها قول رسول الله ﷺ؛ فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا. فغدونا عليهم، فوجدناهم قد ذبحوا بقرة، وألبسوا أبا خديجة حلة، وصفُرت لحيته (أى صبغت بالحناء). وكلمت أخاها؛ فكلم أباه وقد سُقى خمرا، فذكر له رسول الله ﷺ ومكانه، وسأله أن يزوجه؛ فزوجه خديجة. وصنعوا من البقرة طعاما فأكلنا منه، ونام أبوها، ثم استيقظ صاحيا فقال: ما هذه الحلة؟! وما هذا الصفرة؟! وهذا الطعام؟! فقالت له ابنته التى كانت قد

(٣) د. أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٢٥٠, ٢٥١.
(٤) الحلبي: السيرة، ج١، ص٢١٢, ٢٢٩.

كلمت عمار بن ياسر: **هذه حلة كساكها محمد بن عبدالله ختنك، وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجته خديجة؛ فأنكر أن يكون زوجه، وخرج يصيح** حتى جاء الحجر، وخرج بنو هاشم برسول الله ﷺ فكلموه؛ فقال: أين صاحبكم الذى تزعمون أنى زوجته خديجة؟ فبرز له رسول الله ﷺ فلما نظر إليه قال: إن كنت زوجته فسبيل ذاك، وإن لم أكن فعلت فقد زوجته»[٥]!!

أما عمه أبو طالب فألقى فى العرس خطبة؛ منها قوله «.. **فنحن سادة العرب وقادتها،** وأنتم أهل ذلك كله، لا ينكر العرب فضلكم.. ورغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم. وأمرت خديجة جواريها أن **يرقصن ويضربن الدفوف،** وفرح أبو طالب فرحا شديدا»[٦].

وبعدها أخذ محمد ﷺ يتابع خطوات جده عبدالمطلب إلى غار حراء؛ مما حول هذا الكهف إلى مكان مقدس ودخل التاريخ دون ملايين مثله. وبالحنيفية آمن، ولم يكد يبلغ الأربعين من عمره حتى حسم الأمر، بإعلانه أنه نبى الأمة، بعد أن أوحى إليه إله إبراهيم ﴿.. أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾-١٢٣ النحل.

وكما حدث مع أمية بن عبدالله حدث مع محمد بن عبدالله ﷺ؛ فتحدثنا الأخبار أن راهبا مسيحيا يدعى (بحيرا) قد توسم فيه أمارات النبوة، واكتشف خاتمها فى كتفه. ويحدثنا النبى ﷺ عن نفسه فيقول: «أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، رأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لنا خلف بيوتنا نرعى بُهُمًا، إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض؛ بطست من ذهب مملوء ثلجا، فشقا بطنى واستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه»[٧]!!

---

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص٢٧٤.
(٦) الحلبي: السيرة، ج١، ص٢٢٧.
(٧) الطبري: التاريخ، ج٢، ص٢٩٤.

وتقول سيرة ابن هشام: إن محمداً ﷺ لما باداً قومه بالإسلام؛ لم يجدوا فى دعوته غضاضة، ولربما لم يكترثوا لها، ولعل مرجع ذلك إلى حرية الاعتقاد التى كانت عرفا مسنونا. عرفا حتمته المصالح التجارية فى مكة؛ فكان المسيحى فيها يعيش إلى جوار الحنفى إلى جانب اليهودى، مع الصابىء والزرادشتى، وعبدة النجوم، وعبدة الجن، وعبدة الملائكة، وعبدة الأسلاف وتماثيل الشفعاء؛ دونما قهر أو فرض أو إجبار؛ حتى إن العبد كان يظل على دين يخالف دين سيده؛ دون أن يخشى فى ذلك مساءلة أو ملامة. وبرغم أن محمداً ﷺ من الفرع الهاشمى؛ فإن حزب (عبدالدار - عبد شمس- نوفل) لم يهتم كثيرا فى البداية للدعوة الجديدة؛ خاصة أن محمداً ﷺ لم يخرج آنذاك عن أطر عرفهم المسنون فى حرية الاعتقاد؛ فلم يجبر أحدا على اعتناق دعوته، كما لم يحاول فرضها أو اعتبارها الديانة الوحيدة الواجب اعتناقها، وتشهد بذلك الآيات الكريمة:

﴿لكم دينكم ولى دين﴾ -٦ الكافرون.

﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾-٩٩ يونس.

﴿إن أنت إلا نذير﴾-٢٣ فاطر.

﴿وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل﴾-١٠٧ الأنعام.

﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا﴾-١٠ المزمل.

ومع أن المناوشات الكلامية التى دارت بين المكيين ومحمد ﷺ لم تصل بالقوم إلى حافة شفير الحرب مرة أخرى؛ فإنها نبشت الجمر الثاوي فى القلوب؛ بعدما أعلن محمد ﷺ دعوته؛ مطالبا أهل مكة باتباعه. فكان حتما أن يتساءل الناس، لكن تساؤل الوليد بن المغيرة (الملقب بالوحيد لمكانته بين سادات مكة)، والأخنس بن شريق (كبير من رؤوس ثقيف)- كان تساؤلا مهينا لشخص النبي ﷺ؛ فقد قالا: أمفتون محمد أم مجنون؟[٨]

---

(٨) ابن هشام: السيرة، ج١، ص٢٤٣.

فكان أن ردت لهما الآيات الكريمة الصاع صاعين ﴿بأيكم المفتون . . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم﴾-٦ : ١٣ القلم، والزنيم هو ابن الزانية ثم يخاطب الله نبيه فى شأن الوحيد قائلا له : ﴿ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر﴾-١١ : ٢٠ المدثر . وفعلا مات الوليد قتيلا بسهم مسموم، قتله الله فيما تروى كتب السير والأخبار . ثم قامت الآيات تشبه رؤوس القوم الذين لم يدركوا أبعاد تلك الدعوة العظمى ومراميها الكبرى **بالحمير**؛ فتقول : ﴿فمالهم عن التذكرة معرضين كأنهم حُمر مستنفرة . فرت من قسورة﴾-٤٩ : ٥١- المدثر .

حتى ذلك الحين؛ كانت قريش لا تزال فى هدوء وترقب، لكن محمدا ﷺ الذى صمم على إتمام الأمر مهما تكلف من مشقة، قام يؤلب العبيد على أسيادهم، يناديهم : «اتبعونى أجعلكم أنسابا، والذى نفسى بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر» . وهنا بدأ القوم يشعرون بحجم الخطر الآتى؛ فالأرستقراطية القرشية حتمت مصالحها وجود العبيد، بل أن يتكون جيشهم الذى يحمى التجارة من هؤلاء العبيد فى أغلبه . وبات الأمر أمر حياتهم ومعاشهم، ثم إن دعوة النبى ﷺ إلى جعلهم أنسابا التى تمثلت فى عتقه لعبده زيد بن حارثة ثم إعطائه أفضل النسب وأشرفه، بتبنيه إياه؛ كان يعنى لبقية الدهماء من الأعراب أملاً عظيما؛ لما كان للنسب من خطورة وأهمية؛ تعطى صاحبها حماية عشائرية وقبلية . ثم إنه يعدهم بأموال أعظم؛ بأموال كسرى وقيصر؛ إن هم تبعوه . وعندما وصلت قريش إلى ذلك الفهم؛ أصبح النبى ﷺ فى نظرهم، وحسب منطقهم المصلحى؛ **مجرد مغامر طموح يهدف لغرض سياسى يبدأ بضرب قريش فى مقتل؛ فى مصالحها التجارية، حتى إذا تهيأ له الأمر امتلك أمر الحجاز، وزحف على ممالك الروم والعجم**، وما يتبع ذلك بالضرورة فى منطق العشائر من رفع شأن بيت هاشم، وخفض شأن بيت عبد الدار وعبد شمس ونوفل؛ هكذا تصوروا الأمر العظيم!!

ثم ها هو ينزع عنهم صفة أخرى ترتبط تماما بمصالحهم التجارية؛ تلك الصفة التى أكسبها لهم انكسار حملة الفيل على حدود مكة؛ صفة أنهم (أهل الله)، وينادى أهل مكة: ﴿قل يا أيها **الكافرون**. . . . . لكم دينكم ولى دين﴾- سورة الكافرون، نعم مازالت الآيات تبرز التسامح الدينى (لكم دينكم ولى دين)، لكنها نعتت أهل مكة بأنهم الكافرون؛ برغم تأكيدها من قبل أنهم قوم يؤمنون بالله رب العرش خالق السماوات والأرض:

﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر **ليقولن الله** فأنى يؤفكون﴾- ٦١ العنكبوت.

﴿قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم. **سيقولون لله** قل أفلا تتقون. قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون. **سيقولون لله**، قل فأنى تسحرون﴾- ٨٦: ٨٩ المؤمنون.

﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض **ليقولن خلقهن العزيز العليم**﴾- ٩ الزخرف.

وسعيا وراء تعليل؛ اكتشفت قريش أن إيمانها بالشفعاء هو الكفر؛ خاصة عندما بدأ رسول الله ﷺ يعيب أربابهم؛ فاستنتجوا أن محمدا ﷺ قد **جعل شرط الإيمان الصحيح يمر عبر الإيمان به كرسول لإله واحد؛** انطلاقا من قرن الشهادة له مع الشهادة لله؛ فى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فهو فى فهمهم العنيد، إنما يطلب منهم الاعتراف بسيادته عليهم بهذه الشهادة، ويطلب توحدهم جميعا تحت راية قيادته وحده، بسلخ كل الشفاعات إلا شفاعته. ويذكر لنا الطبرى أن النبى ﷺ حينما دعا قومه لما بعثه الله. **لم يبعدوا عنه أول ما دعاهم**، وكادوا يسمعون له حتى ذكر طواغيتهم[(٩)] وهو ذات ما

(٩) الطبري: التاريخ، ج٢، ص٣٢٨.

أوضحته رواية عن لقاء وفد قريش وفيه أبو الحكم، بأبى طالب وابن أخيه ﷺ؛ ليطلب من محمد ﷺ الكف عن سب أربابهم ويتركونه لإلهه. فكان رد رسول الله ﷺ عليهم: «أى عم، أو أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها؟ قال: وإلام تدعوهم؟ قال: أدعوهم أن يتكلموا بكلمة **تدين بها لهم العرب، ويملكون بها العجم!!** فقال أبو جهل (التسمية الإسلامية لأبى الحكم) من بين القوم: ما هى؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها»، وكانت الكلمة هى الشهادة الإسلامية؛ فنفروا منه وتفرقوا[١٠].

وهنا تحول أرق الحزب المناوىء وترقبه، إلى تحفز واستنفار، خاصة عندما أخذت الآيات الكريمة فى فواصل قصيرة مؤثرة، تؤجج الحمية القتالية، وما يحمله ذلك من احتمال وقوع المجابهة العسكرية، وتقول: ﴿والعاديات ضبحا. فالموريات قدحا. فالمغيرات صبحا، فأثرن به نقعا﴾- ١ : ٤ العاديات. هذا مع التحول الذى بدأ يطرأ فى سلوك النبى تجاههم، وتحوله عن الصبر الجميل إلى الهجوم، وما جاء فى رواية عبدالله بن عمرو بن العاص، عندما غمز أشراف قريش من قناة النبي ﷺ وهو يطوف بالكعبة، فكان أن التفت إليهم هاتفا: «أتسمعون يا معشر قريش، أما والذى نفس محمد بيده، **لقد جئتكم بالذبح**»[١١]. **وبر النبي ﷺ بقسمه فى بدر الكبرى!**

☆ ☆ ☆

(١٠) نفسه: ص٢٤١.
(١١) نفسه: ص٣٣٢.



العصبية والسياسة

وعظم الأمر على الحزب المناوئ فذهب رؤوس القوم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب بن أمية، وغيرهم من الأشراف لمقابلة أبى طالب عم محمد ﷺ ليثنيه عما اعتزم، فكان أن ردهم أبو طالب ردا حسنا، ولم يتوقف النبى عما اعتزم؛ فعادوا إلى أبى طالب مرة أخرى؛ فقالوا له:

> يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك عن ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا؛ من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين.. فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم.

ودعا أبو طالب ابن أخيه، وكاشفه بما كان من أمر بنى العمومة فقال: يا ابن أخى، إن قومك قد جاءونى فقالوا: كذا وكذا.. فأبق على وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق: محاولا بذلك وقف أمر قد يجر حربا لا تبقى تجارة ولا نسلا. لكن هذا الاجتماع التاريخى بين العم وابن أخيه، لم ينته كما بدأ، بدليل أن أبا طالب ختمه بقوله: اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشىء أبدا. وكانت النتيجة التى سجلتها كتب التاريخ الإسلامى أن.. حقب الأمر، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، وبادأ بعضهم بعضا. وقام حزب عبد الدار يستجمع حلفاءه لمواجهة ما بدأت نذره فى الأفق[1]، برغم نداء بعض العقلاء، مثل عتبه بن ربيعة الذى التقى النبي، وأدرك الأهداف الكبرى للدعوة؛ فقام يقول لقريش:

> يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه، فو الله **ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ**

---

(١) ابن هشام: السيرة ج١، ص٢٣٨و٢٤١.

عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب **فملكه ملككم**، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به[٢].

وعلى الطرف الآخر؛ أعلن الهاشميون أنهم قد منعوا فتاهم؛ **برغم عدم متابعة دعوته دينيا**؛ اللهم إلا أفراداً فرادى. فكانت عصبيتهم القبلية درعا قويا لدعوة حفيد عبدالمطلب، التى استنفرت الحزب المناوئ الذى أصر على زعمه أنها دعوة لو كتب لها النجاح لصار الأمر كله إلى البيت الهاشمى.

وفى روايتها عن هذه المنعة الهاشمية تقول سيرة ابن هشام: «وقد قام أبو طالب حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون فى بنى هاشم وعبدالمطلب؛ فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه فاجتمعوا إليه وقاموا معه، وأجابوه لما دعاهم إليه، إلا ما كان من أمر أبى لهب»[٣].

وأبو لهب هو عبد العزى بن عبدالمطلب عم النبى ﷺ، ولقب بهذا اللقب لحمرة شديدة فى وجهه وحسن، وهو من تبت الآيات الكريمة يديه؛ لأنه كان حريصا على مسالمة بيت عبد شمس المناوئ؛ لأن امرأته- فى الآيات حمالة الحطب- كانت فى الصدارة من شريفات البيت الأموى، وكانت شقيقة أبى سفيان رأس هذا البيت.

ويتجلى مدى قدرة هذه المنعة الهاشمية وقوتها، وأثرها على نفوس الأطراف المناوئة؛ فى قول نعيم بن عبدالله لعمر بن الخطاب (رضى الله عنه)، وقد التقاه يسعى لقتل محمد ﷺ: «والله لقد غشتك نفسك فى نفسك يا عمر، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا؟» وبهذا يمكن إدراك ما وصل إليه حال بنى العمومة وحزبهم، وأبناء عبد مناف الهاشميين الذين ظهر فيهم نبي الأمة وموحد كلمتها. لكن كان كل الهم لدى الأحلاف أنه يمكنه بدعوته حيازة كل الألوية لبيته وعشيرته.

(٢) نفسه: ص٢٦٢.
(٣) نفسه: ص٢٤٢.

وفى أشعار أبى طالب اعتزاز واضح بأهله وبنيه ورهطه؛ مع عمق غير خاف فى النظرة السياسية للوضع المكي، ومثال لذلك قوله:

إذا اجتمعت يوما قريش لمفخرة ... فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أشراف عبد مناف ... ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت هاشم يوما فإن **محمدا** ... هو المصطفى سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها علينا ... فلم تظفر وطاشت حلومها[(٤)]

نعم؛ ليحلم بنو عبد الدار؛ ليحلم نوفل؛ ليحلم بنو عبد شمس؛ ليحلم الأمويون ما شاءوا فالرؤية التنبؤية لأبى طالب، تتوقع أو تخطط؛ لتطيش هذه الحلوم؛ لأن هاشما ستقف مع محمد ﷺ حتى تنصره وتنتصر به. ويوضح جانب آخر من شعر أبى طالب سر هذا الجهر فى مواجهة حزب عبد الدار بقوله:

ولما رأيت القوم لاود فيهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قوما علينا، وقد أظنهم ... يعضون غيظا خلفنا بالأنامل
أحضرت عند البيت رهطى وإخوتى ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل[(٥)]

ويفهم من أبيات أبى طالب هنا أنه لما رأى العداوة بادية فى الحزب المناوئ، وأنهم برغم عرى القرابة حالفوا ضدهم أحلافا؛ غيظا وكمدا وحسدا، لأن منهم نبيا، جمع رهطه وأهله وتعاهدوا عند الكعبة وهم يمسكون بأرديتها. وعلى الطرف الآخر؛ نجد عمرو بن هشام الملقب بأبى جهل يقول: «ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنى عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا

(٤) الموضع نفسه.
(٥) نفسه: ص٢٤٥.

كفرسى رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحى من السماء!! والله لا نؤمن به ولا نصدقه»[٦].

ثم يرسل شعره قائلا:

أتونا بإفك كى يضلوا عقولنا وليس مضلا إفكهم عقل ذى عقل[٧]

ومن الجدير بالذكر أن عمرو بن هشام لم يكن رجلا أحمق أو أبله؛ بدلالة تحاكم العرب إليه فى النفورة والمشاورة والمخايرة منذ حداثته؛ حتى إنهم أدخلوه دار الندوة صبيا، وقال عنه حكيم فزارة؛ قطبة بن سيار؛ لما تنافر إليه ابن طفيل وعلقمة بن علاثة «عليكم بالحديد الذهن، الحديث السن»[٨].

وعلى ذلك؛ فلم يكن أمام عبد الدار وعبد شمس- منعا للحرب- إلا أن تطبق على بنى هاشم عقوبات التجار؛ بمحاصرتهم اقتصاديا؛ فكان أن جاءهم الرد من أبى طالب بتحد هاشمى سافر فى قوله:

كذبتم ورب البيت نترك مكة ونظعن إلا أمركم فى بلابل

كذبتم وبيت الله نبزى محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه، حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وينهض قوم فى الحديد إليكم نهوض الروايا تحت الصلاصل

وأما لعمر الله أن جد ما أرى لتلتبسن أسيافنا وبالأماثل

فإن يلقيا، أو يمكن الله منهما نكل لهما صاعا بصاع المكايل[٩]

وإلى رؤوس حزب عبد الدار: أبى الوليد، وعتبة وأبى سفيان، يتوجه مستميلا متحببا محذرا:

---

(٦) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج١ ص١٤٠.

(٧)ابن هشام: السيرة، ج٢، ص٢٤٧.

(٨)جواد علي: المفصل، ج٥، ص٢٣٥.

(٩) الشهر ستانى: الملل والنحل، ج٢، ص٢٤٠، وانظر ابن هشام، السيرة ج١، ص٢٤٧.

وسائل أبا الوليد: ماذا حبوتنا بسعيك فينا معرض، كالمخاتل
وكنت امرأ ممن يعاش برأيه ورحمته فينا ولست بجاهل
فعتبة: لا تسمع بنا قول كاشح حسود كذوب مبغض ذى دغاول
وفر أبو سفيان عنى معرضا كما مر قبل من عظام المقاول
يفر إلى نجد ويرد مياهه ويزعم: أنى لست عنكم بغافل
ويخبرنا فعل المناصح أنه: شفيق ويخفى عارمات الدواخل(١٠)

ولما لا يجد ودا؛ يعلن أهداف البيت الهاشمى السياسية، بوضوح جهير ومباشر، فيقول:

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شر عاجلا غير أجل
بميزان قسط لا يخس شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل
فأبلغ قصيا: أن سينشر أمرنا وبشر قصيا بعدنا بالتخاذل
وكان لنا حوض السقاية فيهم ونحن الكدى من غالب والكواهل
شباب من المطيبين وهاشم كبيض السيوف بين أيدى الصياقل
فما أدركوا ذحلا، ولا سفكوا دما وما حالفوا إلا شرار القبائل
بضرب ترى الفتيان فيه كأنهم ضوارى أسود فوق لحم الخرادل(١١)

وعن شدة تعلقه بابن أخيه وكلفه به، وأنه لولا المسبة والعار لآمن بدعوته الدينية، يقول:

لعمرى لقد كلفت وجداً بأحمد وإخوته دأب فى حومة المجد فاصل

(١٠) ابن هشام: السيرة، ج١، ص٢٤٨و٢٤٩.
(١١) نفسه: ج٢٢، ص٢٤٩و٢٥١.

فلا زال فى الدنيا جمال لأهلها ... وزينا لمن والاه رب المشاكل
فمن مثله فى الناس أى مؤمل ... إذا قاسه الحكام عند التفاضل
لكن اتبعناه على كل حالة ... من الدهر، جد غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا، ولا يعنى بقول الأباطل(١٢)
فأصبح أحمد فينا فى أرومة ... تقصر عن سوء المتطاول
حدبت بنفسى وحميته ... ودافعت بالذرا والكلاكل
فأيده رب العباد بنصره ... وأظهر دينا حقه غير باطل(١٣)

☆ ☆ ☆

(١٢) نفسه: ج١، ص٢٥١.
(١٣) البيهقي: دلائل النبوة، ج٢، ص٤٤٤.

الـــدولـة

هذا ما بلغ إليه أمر مكة؛ المحطة الكبرى على طريق ترانزيت العالم؛ تلك التى تحولت إلى حاضرة كبيرة، فى وقت تصاعد فيه الشعور القومى العربى فى بطاح الجزيرة على اختلافها. وبلغ مداه فى تضامن متأجج مع عرب قبائل شيبان وعجل وبكر بن وائل ضد الفرس العجم، والفرح الاحتفالى الهائل الذى امتد شهورا فى بقاع الجزيرة بانتصار هذا الحلف على الفرس أو العجم، والذى ترك أثره فى الفهم العربى الكلاسيكى الذى يقسم الناس إلى عرب وعجم. والفرح الثانى الذى تمثل فى هرع القبائل العربية جميعا إلى الجنوب، تزفها البشرى ويدفعها الإحساس الفخرى لتهنىء سيف بن ذى يزن بالاستقلال عن الأحباش؛ فقد كانت قبائل بكر وشيبان وعجل هى محطة المرور الأخيرة والكبرى على حدود فارس الغربية مع الجزيرة العربية، أما اليمن فكانت منذ القديم أخطر محطة تجارية على خطوط العالم القادمة من الصين والهند وشرقى أفريقيا. لتصب فى بحر رمال الجزيرة؛ لتحملها سفن الصحارى إلى الشمال حيث إمبراطوريات ذلك الزمان. **فالأمر كان نزعة قومية واضحة؛ ترتبط بمصالح اقتصادية أشد وضوحا؛** حتى إن القرآن الكريم نفسه عندما جاء بعد ذلك، أبدى تعاطفه الكريم مع أصحاب الأخدود فى اليمن، وهم مسيحيون اضطهدوا من قبل ذى نواس اليهودى المعضد من عجم فارس. ثم أبدى تعاطفه مع الروم بحسبانهم امتداداً طبيعيا للخط التجارى المكي؛ فإنه من وجهة نظر دينية بحتة؛ إنما عاضد الديانة المفترض أنها الأصح قبل ظهور الإسلام، وبحسبانها الديانة الناسخة للديانة اليهودية. وبرغم ذلك؛ فإن القومية تبرز بوضوح جلى فى موقفه من أصحاب الفيل؛ عندما يصبح الصراع بين المسيحية (برغم كونها كانت الديانة الصادقة فى المنظور الدينى قبل ظهور الإسلام) وبين مكة رمز العروبة والروح القومية (برغم كونها كانت حتى عام الفيل مركزا من أخطر المراكز الوثنية فى العالم) وبالطبع، مع اعتبار العامل الاقتصادى الذى دفع الحبشة لمحاولة احتلال مكة التى لم تعد فى ذلك الوقت مجرد محطة تأخذ

العشور والضرائب، وإنما تحول أهلها إلى امتلاك هذه التجارة، فكانوا يشترون تجارة اليمن والشام بأموالهم ويحققون الفائض الذى يحددونه هم أصلا.

وقد أتاح لمكة هذا الدور المتعاظم عامل آخر؛ هو الضعف الذى طرأ على المدينة المنافسة (يثرب)؛ برغم أنها كانت مهيأة قبل مكة لأخذ هذا الدور، لوجود اليهود كمركز سياسى واقتصادى عريق فيها. لكن هذا الوجود ذاته كان عامل التدهور والضعف، نتيجة عنصر صراع داخلى؛ تمثل فى انقسام طائفى بين الأوس والخزرج من ناحية، واليهود من ناحية أخرى، وقد رأى اليهود من جهتهم أن وجود هذا العنصر العربي يمكن أن يكتسب تعاطف عرب الجزيرة معه. فكان أن حدثت الوقعية بين القبيلتين، وأسهمت قريش بدورها فى إشعال الحرب لضرب يثرب كمركز منافس؛ فوقفت إلى جوار الأوس يومى معبس ومضرس. **لكن توجهات البيت الهاشمى فى مكة رأت من مصلحتها محالفة الخزرج، وتوثيق هذا التحالف بعقد الزيجات** المباركة. لكن يثرب أخذت فى الانهيار السريع أمام القوة المكية الطالعة؛ مما دفع بعقلائها إلى محاولة الإسراع فى رأب الصدع؛ بتوحيد المدينة فى كتلة سياسية متوحدة تحت حكم ملك واحد يرضى عنه الجميع. وفى هذا الوقت؛ كان كل الرجال المفترض فيهم قدرات الرياسة، والأكثر قبولا للترشيح للرياسة، وكانوا موضع التبجيل والاحترام وأصحاب كلمة نافذة، قد مات أكثرهم فى وقعة بعاث بين الأوس والخزرج، ولم يبق سوى الرؤساء الثانويين. ومع ذلك بدأ القوم إنقاذ ما يمكن إنقاذه بالاصطلاح على رجل منهم، هو (عبدالله بن أبى بن سلول) ولكن الخزرج سرعان ما تراجعت إزاء التطورات الجديدة فى مكة وأرسلوا وفودهم إلى ابن أختهم محمد ﷺ فى مكة، وقاموا بمحاولة إقناع الأوس بالأمر لما له من وجاهة من عدة نواحٍ: الأولى أنه نبي مؤيد من الله وفى ذلك كفالة النصرة، والثانية أنه طرف محايد، فلا هو أوسي ولا هو خزرجي، أما الناحية الثالثة والأهم سياسيا واقتصاديا فهى، أنه بخروجه من مكة إليهم يمكنهم بقيادته شن الحرب على أهل مكة بل قطع خطوطها التجارية مع الشام التى تمر على

المدينة وفى ذلك لا لوم ولا تثريب؛ فهم إنما يتبعون أمر السماء؛ ثم إن قائدهم إنما هو فرد مكي ومن أهل مكة أنفسهم. ثم إن اليهود كانوا فى تمام الرضا عن هذا التوجه، حيث الآيات الكريمة تكرم أنبياء بنى إسرائيل وتفضل النسل الإسرائيلى على العالمين، ثم إن هذا النبى الآتى يصلى إلى الشام قبلة اليهود، وأتباعه فى المدينة يصلون إلى الشام، بل ويصومون الغفران، كما أنه يؤكد حرية الاعتقاد تماما. وتؤكد الآيات السماوية التى يحملها ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الأخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾-٦٢ البقرة. وأن الله يقول لنبيه فى آياته الكريمة ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾-٤٣ المائدة و﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾- ٤٤ المائدة. وأن النبي محمد ﷺ هو ﴿الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوارة﴾- ١٥٧ الأعراف، وأنه يخاطبهم بالموحى إليه ﴿. . .إنى رسول إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة. .﴾- ٦الصف. ويلقى الدكتور أحمد الشريف الضوء على الأحداث الآتية بعد سنوات؛ فيقول: «ولقد عالج النبي ﷺ موقف اليهود فى براعة وقدرة. . تغلب عليه حساسية الموقف التى كانت قائمة، بمحالفة اليهود مع بعض بطون الأوس والخزرج، وكانت هذه المحالفات لا يزال لها أثر فى نفوس هذه البطون. فكان لابد أن يعمل النبى حسابا لهذا الشعور فنرى النبي ﷺ **يصانع اليهود مرة،** ويجادلهم مرة أخرى، ويصبر عليهم حتى تحين الفرصة، فيقلم أظفارهم، ثم يرى نفسه آخر الأمر مضطرا إلى **التخلص منهم نهائيا»**[1]. أما الأهم لأهل يثرب جميعا فهو أن الرسول ﷺ اتخذ من يثرب مركزا وعاصمة، وقوى قدرتها على المنافسة مع مكة؛ فساوى بينها وبين مكة من ناحية القدسية، فأعلنها مدينة محرمة حرمة مكة؛ وكما قال: أن لكل نبي حرماً، وإنى حرمت المدينة، كما حرم إبراهيم ﷺ مكة.

---

(١) أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٤١٥.

المهم أن الأحداث تتابعت فى مكة واستمرت المنعة الهاشمية للنبي ﷺ الذى اتبع خطى جده- كما اتبع خطواته إلى حراء من قبل- وأعلن أنه نبي الفطرة الحنفية التى نادى بها الأولون السابقون، ونادى بها عبدالمطلب . ومثلما أتى جده الرئى وغته ثلاثا ليحفر زمزم فقد أتاه جبريل وغته ثلاثا، وكما اهتم عبد المطلب بتأكيد التحالف مع الأخوال من أهل الحرب فى يثرب، اهتم حفيده أيضا بالأمر؛ فكان يلتقى أهل الحرب اليثاربة عند العقبة، إلى أن هيأوا مدينتهم لاستقباله؛ بعد أن مات عمه أبو طالب، واشتد ضغط الأحلاف على الهاشميين . وكان الحل أن يغادر إلى الأخوال ليرفع الضغط عن الأعمام، فى الوقت الذى كان فيه لجده عبد المطلب مكانة خاصة، وأثر لا يمحى من نفسه؛ تبرره حميته القتالية عند المعارك التى كانت تدعوه لأن يهتف: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، كأنى به ينادي طيف جده: أى جدى، هأنذا أحقق حلمك!!

وقد ظل دور بنى هاشم قائما إلى ما بعد خروج النبى ﷺ من مكة إلى يثرب، بل إنهم لم يتركوه يغادر إلا بعد أن استوثقوا لمنعة أخواله اليثاربة واطمأنوا إليها، ويظهر ذلك من ذهاب عمه العباس معه- وهو بعد على دين قومه- للقاء أهل الحرب؛ فى بيعة العقبة الكبرى، ولم يذهب- فيما يقول الطبري- إلا لأنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له ،وكان هو أول المتكلمين فى هذا الاجتماع هائل الخطورة الذى شكل على وجه الزمان منعطفا حادا، غير وجه التاريخ تماما؛ فقال:

> يا معشر الخزرج: إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا؛ ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عزة فى قومه، ومنعة فى بلده، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه؛ فأنتم وما تحملتم ذلك، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم، فمن الآن دعوه فإنه فى عزة فى قومه ومنعة فى بلده»[٢]

(٢) الطبري: التاريخ، ج٢، ص٣٦٥.

ويخبرنا البيهقي أن هذا الوفد العظيم الذى يتكون من سبعين رجلا ؛ ممثلين لأهل المدينة ؛ **لم يكن بينهم سوى ثلاثة نقباء من الأوس** وهم : أسيد بن حضير ، وسعد بن خيثمه ، وأبو الهيثم بن التيهان . وأنه عندما انتهى النبي ﷺ من كلامه ووصل إلى القول : أبايعكم على أن تمنعونى مما منعتم منه أبناءكم ونساءكم ؛ تناول البراء بن معرور- كبير القوم- يده وقال : نعم والذى بعثك بالحق نمنعك مما نمنع منه أزرنا ؛ فبايعنا يا رسول الله ، **فنحن والله أهل الحرب والحلقة ، ورثناها كابرا عن كابر** . وهنا اعترض أبو الهيثم ابن التيهان **الأوسي** الأمر ؛ قائلا : يا رسول الله إن بيننا وبين أقوام حبالا ، وإنا قاطعوها ؛ فهل عسيت إن أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فقال رسول الله ﷺ **بل الدم الدم ، والهدم الهدم ،** أنا منكم وأنتم منى ، أسالم من سالمتم ، وأحارب من حاربتم . . فأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله ﷺ فضرب عليها . وكان أول من بايع ، وتتابع الناس فبايعوا[٣] ، ثم أخذ عليهم العباس بن عبد المطلب المواثيق لرسول الله ﷺ بالوفاء ، وعظم العباس الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ وذكر أن أم عبد المطلب ، سلمى بنت عمر بن زيد بن عدى بن النجار[٤] .

وقبل أن ينصرفوا ، أراد أهل الحرب والحلقة استعراض قدراتهم القتالية وفنونهم الحربية للنبي ﷺ ؛ فقال له ابن عبادة : إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا ، فأجل النبي ﷺ الإمالة بالسيف إلى ما بعد الخروج من مكة بقوله : لم نؤمر بعد[٥] !!

وكانت أهم المهام بعد الهجرة إلى يثرب هى تحريم المدينة ، وعقد المعاهدة مع اليهود ، ثم الخروج إلى طريق التجارة لقطعه تماما على أهل مكة ، حتى إن عبد الله بن جحش استحل فيه الشهر الحرام ؛ إعلانا لمكة بانهيار مقبل فى هيكلها الاقتصادي ، واستولى على تجارة

---

(٣) البيهقي : دلائل النبوة ، ج٢ ، ص٤٤٧و٤٤٨ .
(٤) نفسه : ٤٥٤ .
(٥) الطبري : ج٢ ، ص٣٦٥ .

لها، وأخذ أسيرين، وقتل عمرو بن الحضرمى؛ فقالت قريش: لقد استحل محمد ﷺ وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال، وأكثر الناس فى ذلك، فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه **قل قتال فيه كبير** . . . ﴾- ٢١٧ البقرة.(٦)

أما المهمة الجليلة والعظمى فكانت قيام النبي ﷺ بإنشاء نواة أول دولة عربية إسلامية فى الجزيرة، محققا نبوءة جده: إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء. وبهجرته خفت أثقال الاضطهاد عن كاهل الهاشميين مما سمح لهم بالتظاهر بالحياد، ومجاملة بنى عمومتهم أحيانا، كخروج بعضهم مع قريش إلى بدر، فى الوقت الذى كان فيه العباس يسرب لابن أخيه أخبار مكة أولا بأول. لذلك؛ كان الوفاء النبوي يجلجل فى نداء النبي ﷺ لرجاله، فى غزوة بدر الكبرى، قبل هنيهة من الهجوم على أهل مكة: إنى قد عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم، قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا، **فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله،** ومن لقى أبا البخترى بن هشام فلا يقتله، ومن لقى العباسى بن عبدالمطلب فلا يقتله، فإنه خرج مستكرها- وإنما نهى الرسول ﷺ عن قتل أبى البخترى بن هشام؛ لأنه كان أكف الناس عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة التى كتبت على بني هاشم وبني المطلب- فقال أبو حذيفة أنقتل أباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألحمنه السيف. فبلغت رسول الله ﷺ مقالته فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص: أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟ فقال عمر يا رسول الله دعنى أضرب عنق أبى حذيفة، والله لقد نافق!! فكان أبو حذيفة يقول ما أنا بأمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ(٧).

ويقول الأستاذ أحمد أمين إن النبى ﷺ؛ بعد النصر فى بدر ارتحل حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه وعلى من معه من المسلمين؛ فقال لهم

---

(٦) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص٨

(٧) نفسه: ص٢٢.

سلمة بن سلامة: ما الذى تهنئوننا به؟! فو الله ما لقينا إلا عجائزاً صلعا كالبدن المعقلة، فنحرناها!! فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: يا ابن أخى أولئك الملأ[8].

نعم، هكذا انتهى أمر الملأ، أرستقراطية قريش ورجال الندوة وحملة اللواء!! وتهيأت الدولة لنشر جناحيها على أرض العرب، وعلى مكة ذاتها، الأمر الذى دفع العقاد للقول:

«نكاد نقول: إن العرب أقبلت على الإسلام أفواجا، حين صارت الكعبة إلى يديه وأصبحت عاصمة العروبة، عاصمة الدين الجديد ولو لم تكن للعرب وحدة معروفة بينهم قبل البعثة الإسلامية، لما اعتزوا بالبيت الجامع لهم هذا الاعتزاز»[9].

وهكذا؛ قامت الدولة الإسلامية، بجهود البيت الهاشمى، وفضل لا ينكر لأهل الحرب والحلقة اليثاربة وخئولتهم، لكن ذلك كله لم يفت فى عضد الحزب الأموى، فظل هؤلاء يترقبون الفرص حتى ما بعد اتساع الدولة بالفتوحات. وعندما سنحت الفرصة اقتنصوها، واستولوا على الحكم إستيلاء صريحاً بعد أن كان ضمنياً باستبعاد على بعد وفاة الرسول ﷺ، وساعتها تجلت مشاعرهم تجاه بنى عمومتهم فى المجازر الدموية التى راح ضحيتها كل من أيد البيت الهاشمى؛ حتى امتدت يد الانتقام الحمقاء إلى حفدة المصطفى ﷺ استئصالاً لهذا البيت وأهله، ووصل بهم حد الهوس إلى ضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق؛ مشاعر عبر عنها لسان يزيد بن معاوية الأموى (منسوبا إليه عن قصيدة طويلة لابن الزبعرى):

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحى نزل[10]

أو كما أورده ابن كثير:

لعبت هاشم بالملك فلا ملك جاء ولا وحى نزل[11]

---

(٨) نفسه: ص٢٥.

(٩) العقاد: طوالع البعثة المحمدية، ص٦٥.

(١٠) محمد القزويني: فاجعة الطف، مطبعة الأهرام، كربلاء، ط٩، د.ت، ص٥.

(١١) ابن كثير: البداية والنهاية ج٨، ص٢٢٧.



القسم الثانى

حروب دولة الرسول

صلى الله عليه وسلم

الجزء الأول



التأسيس

التقريش والإيلاف

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾

[٢٤/ المؤمنون]

التقريش

يقول القاموس المحيط، إن الملأهم الأشراف والعلية، وهم القوم ذوو الشارة والمظهر الحسن والشرف[١]، وهم فى المعجم (المنجد) أشراف القوم، الذين يملأون العيون أبهة، والصدور بهجة[٢].

هكذا وصف رجال الحكومة القرشية، فى المرحلة القبل إسلامية، فى معاجمنا اللغوية، تلك الحكومة الابتدائية، التى تشكلت من كبار تجار مكة، أثريائها وعليتها. حيث مثل كل فرد منهم قومه فى تلك الحكومة، بقدر ما يملك من إمكانات المظهر الحسن والشرف والأبهة. أى بقدر ما يملك من إمكانات مادية. وهى الحكومة التى تم تكريسها فى (دار الندوة)، وعرف التاريخ أعضاءها باسم (الملأ).

ويلخص لنا (حسين مروة) أمر ندوة الملأ بإيجاز بليغ يقول:

إن سيطرة أرستقراطية قريش المالية والتجارية، كان لابد لها أن تُنتج بدورها مؤسستها السياسية، المعروفة تاريخياً بدار الندوة. البذرة الأولى للدولة فى مجتمع مكة، والتى كان من شأنها أن تنظم العلاقات السلطوية لهذه

(١) القاموس المحيط: باب الهمزة، فصل الميم.

(٢) المنجد: حرف الميم، مادة إملاء.

السيطرة، مع الفئات الاجتماعية الأخرى، الخاضعة لاستغلالها الاقتصادى. وأن تضفى على هذه العلاقة وجهها الحقوقى، الملائم للوضع التاريخى آنذاك. كما تفرض شرعيتها على تلك الفئات نفسها، التى أصبح عليها أن تخضع سياسياً، كما هى خاضعة اقتصادياً، لأرستقراطية قريش الحاكمة- الملأ- وكانت الندوة مجلساً يمثل الأرستقراطية، وفيها كانت تقضى قريش أمورها[٣].

وحكومة الملأ إذن- كما هو مبين- كانت **مجلساً سلطوياً قام فى مكة، من أجل إحكام سيطرة الأرستقراطية المكية التجارية على مختلف الشئون**، بغرض تناغمها جميعاً مع مصالحهم. بحيث يؤدى كل شأن دوره فى حماية تجارتهم، واستمرار سيولتها، وضمان أمنها، دون أى توقف يمكن أن يهددها.

ولعل أهم **الخطوات** التى تمت بسبيل تأمين تلك المصالح، هى **قيام مجلس الملأ نفسه**. الذى ترافق مع خطوات أخرى، بدأت **بالتقريش**، ليتلوه **الإيلاف**. فكان التقريش خطوة أولى لتوحيد قبائل مكة وجمعها، أى تقريشها. وذلك زمن (قصىّ بن كلاب)، عندما استطاع مع حلفائه إجلاء قبائل (خزاعة) عن مكة، ليتمركز فيها مع أولئك الحلفاء، نتيجة مجموعة متضافرة من الظروف التاريخية، بدأت آنذاك تفعل فعلها فى جعل مكة زمن (قصىّ)، مركزاً كبيراً لاستراحة القوافل التجارية، على طريق الخط التجارى ما بين الشام واليمن. وعليه فإن نظام التقريش جاء كشكل اجتماعى، أكثر تطوراً بدرجة أعلى قليلاً، من الأنظمة القبلية المتشرذمة المتقاتلة بالجزيرة. وكلون من التنظيم الاجتماعى الذى يجمع القبائل الحليفة لقصى فى أضمومة وحزمة مترابطة بالمصلحة، مع استقلال كل قبيلة بشكلها العشائرى المألوف. وهو ما نفهمه من شرح (ابن كثير) لهذا الشكل المجتمعى التقريشى فى قوله:

(٣) د. حسين مروة: النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابى، ط٦، ١٩٨٨، بيروت، ج١، ص٢٣٠.

وأما اشتقاق قريش، فقيل: من التقرّش. وهو التجمّع بعد التفرّق.. وقيل سميت قريش قريشاً من التقرّش، وهو التكسّب والتجارة، حكاه ابن هشام رحمه الله. وقال الجوهري: الكسب والجمع، وقد **قَرَشَ يقرُش** (نظن المقصود هنا القرش أى الهرس بالأضراس، كما تعنى أيضاً جمع القروش أى المال). وقال البيهقي: إن معاوية قال لابن عباس: فلم سميت قريش قريشاً؟ قال: لدابة تكون فى البحر، تكون أعظم دوابه يقال لها: **القرش، لا تمر بشىء من الغث والسمين إلا أكلته**[٤].

وهكذا يأتى هذا التفسير الجامع، معبراً صادقاً عن حال قريش، وحال المرحلة التاريخية متضمناً حال المرحلة المجتمعية، فالتقريش تجمع للقبائل التى حملت اسم قريش بعدما كانت شراذم قبلية متناثرة متصارعة، **وما جمعها إلا المصلحة المادية المشتركة، وهى التكسب المادى**. ذلك التكسب الواضح أنه ناتج التجارة على الخط التجارى، والذى تمثل فى عشور جمركية تقبضها قريش نظير المرور والاستراحة فى مدينتها، للموقع المتميز لمكة على الخط التجارى الدولى. ويحمل التعريف معنى هاماً بربطه المتين والرائع **لجمع الناس وجمع المال بالارتباط المصلحى، فالقرش هو مفرد القروش المجموعة، والقرش هو الكسب المالى، وهو فى الوقت ذاته تجمع الناس فى مجتمع مترابط** (هو الكسب، وهو الجمع بعد التفرق)، ليبلغ التعريف كمال تبليغه البلاغى فى تصوير **حال هذا الجمع المتكسب، واستعداده للدفاع عن مصالحه. وتطور الأمر إلى حدّ النهم، فهو كالقرش السمك المتوحش لا يمر بشىء إلا أكله، مما يشير بالضرورة إلى وجود فئات أخرى، سقطت فى حومة ذلك الحراك الاقتصادى الاجتماعى، وذلك فى قرن الجمع والتجمع بالكسب والتقرش وجمع القروش، مع القرش بالأضراس الذى تمثله دابة البحر.**

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، ط٤، ١٩٨٨، بيروت، ج٢، ص١٨٧

الإيــلاف

أما التأليف بنظام الإيلاف، فكان- في رأينا واستنتاجنا - الخطوة الثانية والضرورية بعد التقريش، وهو ما طبقته أرستقراطية مكة القرشية بنجاح، للتأليف بين قبائل مكة التجارية أو أثرياء مكة تحديداً، وبين القبائل الضارية على الخط التجارى الواصل بين مكة، وبين حدود الامبراطوريتين: الرومانية والفارسية. ثم تأليف ثان بين قريش وبين القبائل الضاربة فى باطن الجزيرة فى خطوط فرعية. ثم تأليفٌ ثالث بين قريش وبين الامبراطوريتين.

وبالإيلاف، وللإيلاف، كان يتم توزيع المكاسب بشكل تناسبى، بما يضمن حماية طريق الإيلاف من إغارة البدو، وتأمينه لمصلحة الجميع، وهو ما يقول فيه (المسعودي) موجزاً: «وأخذت قريش الإيلاف من الملوك، وتفسير ذلك الأمن»[٥].

وعلى الطريق التجاري وفروعه الهامة، ارتبطت قريش بالإيلاف والعهود مع شيوخ قبائل الجزيرة، شيوخ قيس، واليمامة، وتميم، وأقيال اليمن، وملوك غسان والحيرة، كما وكلوا عنهم وكلاء فى جوش ونجران، وغيرها من المواضع الهامة فى شبه الجزيرة[٦]. وقد اتبعت قريش فى تأليفها أساليب منوعة، فهناك من رضى من شيوخ البدو على الطرق التجارية بالهدايا والجعالات، بينما اتفق آخرون على حماية طريق الإيلاف الكبير نظير الاشتراك مع قريش فى تجارتها، وهو ما يتضح من إشارة (الجاحظ) لدور (هاشم بن عبد مناف) فى تأليف قبائل العرب بإشراكهم فى التجارة[٧]، وما رواه (ابن سعد) عن تأليف

---

(٥) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي عبدالحميد، المكتبة الإسلامية، د.ت، بيروت، ج٢ ص٥٩.

(٦) د. سالم عبدالعزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب فى عصر ما قبل الإسلام، دار النهضة، ١٩٨٠، بيروت، ج١، ص٥٠٣، ٥٠٥.

(٧) الجاحظ: الرسائل، جمع ونشر حسن السندوبي، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٣، القاهرة، ص ٧٠.

(هاشم) للقبائل الضاربة على الطريق الشامى بحمل بضائعهم دون أجر[8]. ثم ما ذكره (البلاذرى) عن دور (هاشم) وولده (عبدالمطلب) فى عقد المعاهدات وأخذ الحبال من ملوك روما وحمير، ودور (عبدشمس) فى تألف نجاشى الحبشة، ثم دور أخيه (نوفل) فى تألف أكاسرة فارس وأخذ عهود الأمن منهم[9].

وهكذا، كان نظام الإيلاف، تأميناً للطريق، وطمأنة معلنة للامبراطوريتين المنتظرتين على نهاية خط طريق الإيلاف، للقوافل القادمة من مكة، بحيث ضمنت مكة بإيلافها أمان الرضى الامبراطوري عن دورها، وعن اقتدار ملئها، فى تأمين وصول المواد المطلوبة والسلع الهامة، فى مواقيتها دون تأخير. ولعل ما يعبر عن وعى العرب بهذا المعنى فى نظام الإيلاف، يتضح فى أبيات لمطرود بن كعب وهو ينشد:

يا أيها الرجل المحول رحله	هلا نزلت بآل عبد مناف ؟
هبلتك أمك لو نزلت عليهم	ضمنوك فى جوع ومن إقراف
الآخذون العهود من آفاقها	والراحلون لرحلة الإيلاف[10]

أما القرآن الكريم، فكان بصدق تبليغه، مفصحاً موجزاً، مبلغاً ببلاغته أمر الإيلاف وعلاقته بالآمن، وبالبيت الإلهى المكى، فى قول الآيات - فى سورة تحمل اسم قريش-

﴿ **لإيلاف قريش** * **إيلافهم** رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذى **أطعمهم** من جوع **وآمنهم** من خوف ﴾.

وقد هيأ مكة للقيام بهذا الدور التاريخى، مجموعة متسارعة من الأحداث. وظروف تلاحقت لتتراكم على صفحة المنطقة وتتوزع على خريطتها، حيث كان مركز اليمن الزراعى والتجارى قد تهاوى قبل العصر الجاهلى الأخير بزمان، بينما تضعضعت أحوال الممالك العربية الشمالية (الغساسنة والمناذرة) فى العصر الجاهلى الأخير، قبل الإسلام

(٨) ابن سعد : الطبقات الكبرى، تحقيق أوجين متنوخ، دار صادر، ١٩٥٧، بيروت، ج ١، ص ٤٥.
(٩) البلاذري : أنساب الأشراف، تحقيق د. حميد الله، دار المعارف، ١٩٥٥، القاهرة ج١، ص ٥٩.
(١٠) نفسه : ص ٦٠.

بفترة وجيزة ، ووقعت تحت الاحتلال المباشر من الفرس والروم . وهو ما أحدث - ولا شك - فراغاً سياسياً فى المنطقة الممتدة من سواحل المحيط الهندى جنوباً ، وحتى الخط الفاصل بين الامبراطوريتين فى بادية الشام شمالاً .

وقد ساعد على رسم تلك الخريطة السياسية ، انهيار مجموعة طرق أخرى لم يبق آمناً من بينها سوى الطريق المار بمكة ، قادماً من موانئ اليمن ليتجه شمالاً ، ثم يتفرع إلى فرعين نحو فارس شرقاً وروما شمالاً وغرباً فى داخل الحدود الفلسطينية والمصرية . وكان انهيار مجموعة الطرق التجارية الأخرى راجعاً إلى تلك الحرب الطويلة الضروس، التى دارت بين الفرس والروم، ومطاردة كل منهما الأخرى فى كافة المواضع الممكن الوصول إليها لقطعها . ولم يبق فى المنطقة آنذاك طريق مأمون، سوى الطريق البرى المار بمكة، لمنعته الصحراوية على غير أهله، مما انتهى به إلى طريق أوحد مؤهل للقيام بأمر تجارة العالم . وهو ما أدى إلى تحول مكة عن وضعها زمن (قصىّ بن كلاب) كمحطة ترانزيت كبرى قابضة للعشور، إلى مركز للأرستقراطية المكية التجارية فى العصر الجاهلى الأخير . حيث تمكنت تلك الأرستقراطية بتراكم رأس مال العشور والتجارات الصغيرة، من الانتقال عن قبض العشور إلى شراء البضائع القادمة من المحيط الهندى وموانىء اليمن، والاتجار بها لحساب تلك الأرستقراطية ، **لتمسك عندها بعنان تجارة عالم ذلك الزمان**[11] .

ولنا أن نفترض بدء ذلك التحول عن قبض العشور إلى القبض على تجارة العالم، كانت المرحلة التى عمدت فيها قريش إلى إنشاء نظام الإيلاف بعد التقريش . ففى مرحلة التقريش كانت قريش تقبض عشورها، وما كان يعنيها كثيراً أمان الطريق، فهى تتاجر تجارتها البسيطة مع القادمين والآيبين، وتأخذ العشور من السارق والمسروق، ومن ثم تطور الأمر

(١١) حول العوامل التى أدت إلى أنهيار الأمن على الطرق التجارية القديمة، انظر: د. أحمد شلبي السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، ط١٢, ١٩٨٧، القاهرة، ج١، ص١٢٤, ١٥٣، انظر أيضاً: أحمد أمين: فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط١٤، ١٩٨٧، القاهرة، ص١٢, ١٣ .

عندما أصبحت التجارة ملكاً كاملاً لها. ذلك التطور الذى استدعى السعى الجدى لتأمين تلك التجارة بنظام الإيلاف، وهى ذات المرحلة التاريخية التى نعتقدها مرحلة الفرز للصراع التنافسى التجارى، ومن ثم السيادى، داخل مكة ذاتها. والذى انتهى، كما هو واضح بالمصادر الإسلامية، إلى سيادة مالية شبه كاملة للفرع الأموى، مع خسران واضح لأبناء عمومتهم، الفرع الهاشمى.

ولنا أن نتصور ذلك التراكم المالى وهو ينزع عن الترانزيت إلى المركزية التجارية، ينمو من خلال خبر (الواقدى) وتأكيده أنهم كانوا يربحون فى تجارتهم عن الدينار ديناراً[12]. حتى بلغ رأس مال بعض القوافل مائة ألف دينار للقافلة الواحدة، ويمكن أن نعلم المدى الذى وصل إليه تضخم رأس المال القرشى من خبر سلعة واحدة ترفيهية كمالية، هى الطيوب، والتى كان يطلب منها الروم والفرس فى العام ما تصل قيمته إلى مائة مليون درهم[13].

أما قافلة (أبى سفيان) التى كانت سبباً بعد ذلك فى غزوة بدر الكبرى، فقد أسهم فيها البيت الأموى بأربعة أخماس رأس المال، وكان لأسرة (أبى أحيحة) وحدها ما يصل إلى ثلاثين ألف دينار، وهى أسرة أموية. وذلك من مجموع أموال القافلة البالغ خمسين ألف دينار.

تحريم المواسم

وإضافة إلى الإيلاف بعد التقريش، تمكنت مكة، على المستوى الداخلى للجزيرة، من استقطاب القبائل المتناثرة فى الباطن والأطراف لسوقها المركزى، بتكتيك تدفعه المصلحة يتجاوز المفاهيم الدينية القبلية المتعصبة. فقامت تستضيف فى كعبتها أرباب قبائل الجزيرة على تعددها وتناقضها، تلك الأرباب التى كانت فى نظر أصحابها أسلافاً صالحين. وكان

(١٢) الواقدي: مغازى رسول الله، مطبعة السعادة، ١٩٤٨، القاهرة، ج١ ص١٥٧.

(١٣) أحمد عباس صالح: الصراع بين اليمين واليسار فى الإسلام، مجلة الكاتب عدد ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤، القاهرة، ص٢١، نقلاً عن سعيد الأفغانى. أسواق العرب.

الرب هو جد القبيلة البعيد وسيدها ورمزها، ومعبودها، وضامن وحدتها وتماسكها. فكانت تلك الضيافة لسادة القبائل ورموزها، ضيافة حسنة لكل القبائل، وسبيلاً إلى التقريب بين القبائل **بتجاور الأرباب من الأسلاف**، في فناء معبد واحد، بحيث حاز كل رب نفس القدر من الحرمة. ولم تجد قبائل الجزيرة في تلك الضيافة غضاضة، بل رحبت بدورها بتلك الخطوة وسارعت إليها، وقد بدت تسييداً أوسع، ونشراً لأمر رب كل قبيلة خارج حماه، وخارج دائرة نفوذه القبلي وحدوده الإقليمية. مع الأخذ في الحسبان الاعتبار الأكثر أهمية، وهو انهيار الطرق التجارية الأخرى المارة بمواطن تلك القبائل في بقاع الجزيرة، مما أدى لسقوط معابدها وكعباتها وتدني شأن آلهتها، بفقدها الأساس الاقتصادي مع تحول طرق التجارة عنها، إضافة إلى التنامي الذي حققته الظروف لمكة. وهو ما أضعف شأن الأسواق الأخرى إلى حد التضاؤل والتهميش[١٤].

وعليه؛ فقد كانت ضيافة الكعبة المكية للأرباب القبلية، تأليفاً آخر لقبائل الجزيرة جميعاً، وهو ما ساعد على مزيد من تمركز التجارة بمكة، مع اتصال مكة بفروع للطرق نحو الأسواق الداخلية الضاربة في بطن الجزيرة. وزاد في المركزة التجارية والدينية والقبلية بل واللغوية لمكة ولهجتها القرشية، بعد أن أصبحت لغة قريش ذات السيادة والانتشار، فأصبحت مكة مزاراً لكل العرب، وحاز موسمها التجاري الأكبر (موسم الحج) مكانة لا تضارع، بعد أن أصبح موسماً لكسبهم وعبادتهم وسمرهم ومرحهم، حتى كادت مكة- على المستوى العرفي- أن تكون عاصمة لجزيرة العرب كلها.

وبسبيل مزيد من الحفاظ على المكاسب ودوامها، تمكن الملأ القرشي من تنظيم أسواق بعينها في هيئة مواسم منظمة بمواقيت ومواسم المحاصيل، سواء في الجزيرة أو شرق أفريقيا أو الهند، ووفق خطوط الرياح في المحيط الهندي، وموعد وصول شحنات البحر من الهند وشرق أفريقيا إلى موانىء الساحل اليمني، ووقت الطلب الشمالي لتلك البضائع والسلع

(١٤) سيد محمود القمني: الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، أنظر القسم الأول من هذا المجلد.

بتقدير دقيق، يأخذ فى اعتباره أصغر العوامل. حتى طبيعة المناخ وموجات الحرارة والبرودة، مع تحريم مواقيت تلك الأسواق إيمانياً ومصلحيا، لضمان الموسم الأكبر (موسم الحج)، الذى تجمع فيه مواد بضائع الساحل اليمنى وأسواق الجزيرة الداخلية، لتشق رحلتها الصيفية إلى الشمال، بحيث أصبحت أشهر الحج والسفر الصيفى أشهراً حراماً. ثم كان فى الإمكان- للمصلحة التجارية، وحسب ظروف تطرأ أحياناً، وحسب الطلب، وتغير مواقيت السنة العربية القمرية مع السنة الشمسية الزراعية المحصولية، ولضبط الأشهر الحرام القمرية مع الرحلتين ومواسم الحصاد- تحريك تلك المواقيت، ونقل الأشهر من مواضعها بالإزاحة، فيما يعرف بنظام النسىء[١٥].

ولمزيد من الضمانات، نظم الملأ نواة أولى لقوات مسلحة من العبيد، ومن الأحابيش. كانت مهمتهم الأساسية حماية أصحاب رؤوس الأموال والشخصيات الكبرى، وحراسة بيوت رجال الملأ، ثم المهمة الأساسية، وهى حراسة القوافل التجارية.

وعليه؛ فقد أخذت مكة- بتسارع- تتحول إلى حاضرة تتناقض مع البداوة والقبلية فى داخلها، كما تتناقض مع المحيط المتشرذم حولها فى جزيرة العرب، ومن ثم كان ضرورياً أن تمر مكة بتحولات بنيوية هائلة، فى تركيبتها الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية. التى انتهت بها من قبائل متشرذمة، إلى قبائل متقرشة، خاضعة لرجال الندوة من حكومة الملأ، لتنضج- باشتراك المصالح- تقريشها إيلافاً على محيطها القبلى فى الجزيرة، وبخاصة القبائل التى ألفها طريق الإيلاف الأكبر.

المتغير الاجتماعى

يسوق (ابن سعد) فى طبقاته خبراً، يوافقه عليه جميع رواة السير والأخبار، والخبر يقول: إنه حين تغلبت قريش على خزاعة، وتسلم (قصىّ بن كلاب)- بعد أن كثر ماله

(١٥) المسعودي: سبق ذكره، ج٢، ص٥٧، ٥٨.

وعظم شرفه - زعامه قبائل مكة المتحالفة معه، التى تقرشت. قطع (قصىّ) مكة أرباعاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم[١٦]. وقد ذهب الكاتب (برهان الدين دلو) مذهب الباحث (حسين مروة)، فى تحديد المغزى التاريخى لهذا الحدث، بأنه «كان تصنيفاً اجتماعياً لسكان مكة، بطون قريش وحلفائها، روعى فيه الوضع المالى دون العرف القبلى. إذ جعلهم صنفاً ممتازاً أدنى أسكن فى الظواهر، وهم قريش الظواهر، وكانت قريش الظواهر متبدية أو شبه مستقرة»[١٧]. وقد ركن الكاتب هنا، فى تقديره لسوء أحوال «قريش الظواهر» المادية إلى تقرير الباحث المؤرخ (جواد على) فى مفصله عن تاريخ العرب قبل الإسلام[١٨]. ومن ثم استنتج من التصنيف المشار إليه:

> **إن الوضع المالى والتجارى لأبناء القبيلة، أصبح يحتل المركز الأول من الاعتبار،** فكان أن أصبح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار فى مقدمة قريش البطاح، لأنهم صاروا أوفر مالاً وأعظم تجارة، ثم احتلت أمية فى قريش الجاهلية الأخيرة مكان الصدارة، مذ أصبح فيهم أعظم التجار ثراء، **وبسطت سلطانها المالى والتجارى على كثير من قبائل المنطقة العربية خارج مكة،** وبفضل مركز أمية المالى والتجارى، فإن أمراء القوافل كانوا منهم[١٩].

ونرى من واجبنا هنا التوضيح- حتى لا يختلط الأمر- حيث كان بنو عبد مناف وبنو عبد الدار أبناء لقصىّ سيد مكة- المتقرشة- الأول والمطلق النفوذ- والأكثر مالاً، وكان طبيعياً أن يكون ورثته فى مقدمة قريش البطاح. وليس كما ذهب (دلو) لكون وفرة مالهم الأساسى كانت من التجارة، وإنما لورثتهم ألوية التشريف والسيادة عن سلفهم (قصىّ)،

---

(١٦) ابن سعد: سبق ذكره، ج١، ص٧٠، ٧١.

(١٧) برهان الدين دلو: مساهمة فى إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي، الفارابي، ١٩٨٥، بيروت، ص٥٩.

(١٨) د. جواد علي: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمي العراقي، د. ت، ج٤، ص١٩٥.

(١٩) دلو: مساهمة..، سبق ذكره، ص٦٠.

مما أعطاهم فرصة الحصول على النصيب الكامل من المكوس الجمركية لبضائع الترانزيت المارة بمكة. وهى الألوية التى يشرف كل منها على لون من الخدمات المأجورة، التى كانوا يؤدونها للتجار المارين بمكة بقوافلهم، والتى حملت أسماء ألوية التشريف التى نظمها (قصىّ)، للحصول على النصيب الأعظم من المكوس، وتمثلت فى (السقاية، والرفادة، والحجابة، والسدانة، واللواء والندوة.. الخ).

والاعتراض من جانبنا يقوم على حجة أن تلك المرحلة كانت قبل انتقال قريش إلى مرحلة التجارة لحسابها، إلا أن إشارة الكاتب (دلو)، التى تؤكد أن الوضع المالى لأبناء القبيلة، قد أصبح يحتل الموقع الأول من الاعتبار، فهو الأمر الذى لا يمكن النزاع حوله.

ومع ذلك الثراء الذى أصابت حظوظه أفراداً من عشائر مكية مختلفة، ومع تحول هؤلاء النفر عن قبض العشور إلى التجارة لحسابها، **ومع حجم تلك التجارة الهائل،** كان طبيعياً، بل كان محتماً، أن **تبدأ الانقسامات الطبقية الحادة** فى الظهور بوضوح داخل القبيلة الواحدة. وهو ما انعكس بدوره على الوضع القبلى للقبائل الأخرى بالجزيرة، المرتبطة بحركة مكة التجارية، وهو ما كان العامل الأول فى **تهشيم الأسس القديمة لروابط القبيلة،** وسيولة لزوجتها الجامعة لأفرادها، نتيجة للتطور التجارى، وما صاحبه من تقسيم للعمل، ، وتضخم ملكيات رؤوس الأموال، مقابل فارق طبقى كبير، نتيجة لتفاوت توزيع الثروة، مع اختلاف الأوضاع والأدوار فى العملية التجارية التى تقودها مكة، أو بالتحديد نفر متبعثر فى قبائلها. شكل الأساس الاقتصادى المتين بينهم رابطة قيادية للعملية التجارية، فتوزعت الأدوار ما بين ملاك للمال، إلى أدّلاء للقوافل، وحراس مسلحين، وعمال تشهيلات للشحن والتفريغ، وآخرين يبتهلون الفرص على الطريق لتقديم الخدمات الضرورية للقوافل. فى نقاط محددة ومحطات قاموا بإنشائها على الطريق للترغيب فى الاستراحة وبيع خدمات الراحة. هذا إضافة إلى المتاجرين الصغار، وشيوخ القبائل الذين يتقاضون الإتاوات. ثم الأهم وهو انتشار التعامل النقدى بعملات الفرس والروم، وهو ما

أدى جميعه لفوارق وتفاوت، **فكك بالتدريج روابط النظام القبلى القديم، نتيجة حتمية لوجود العبيد والمعدمين** على الطرف الآخر غير المستفيد من العملية التجارية القائمة داخل ذات القبيلة، ومن ثم بدأت قيم القبيلة القديمة تتراجع.

والمعلوم أن القيم القبلية القديمة، كانت تقوم على المساواة المطلقة والامتلاك الجماعى لوسائل الإنتاج والثروة، ومن ثم توافقت معها علاقات الإنتاج. فكان الولاء الجماعى للقبيلة، وتماسك الكل فى القبيلة مع أى فرد فيها مهما صغر شأنه ضد الكون جميعاً، فهى تأخذ بثأره حتى لو تآكلت جميعاً، ثم هو معها كترس فى آلة عسكرية متحركة دوماً، لا رابط لها سوى تلك اللزوجة الاجتماعية، والسلف المشترك العزيز على جميع نفوس الأفراد. فكانت القبيلة، وكان السلف، هو الوطن، وكان ذلك اللون من العلاقات الاجتماعية هو الضمان الوحيد لسلامتها كوحدة محاربة متنقلة.

ولكن بعد التطور السريع، واستقرار أكثر القبائل، خاصة القوية، على الطريق التجارى الرئيسى، أو الطرق الفرعية، وظهور الفوارق الطبقية الحادة داخل القبيلة. لم تعد القبيلة مسئولة كل المسئولية عن الفرد فيها، **وبدأت تظهر حالات خلع الأفراد الذين يمكن بحمقهم جلب الضرر للقبيلة** التى شرعت فى الاستقرار، فظهرت **طائفة الخلعاء المتشردين.** ثم من جانب آخر ظهرت جماعات **الصعاليك،** أولئك الأفراد الذين بدأوا بدورهم يرفضون المنطق الجديد، ويهجرون قبائلهم. **وأخذ تراكم رأس المال لدى أفراد بذاتهم يفعل فعله فى تحول الولاء عن القبيلة إلى الطبقة، كما أخذت قيم الولاء الجمعى تنداح** مخلفة وراءها شكلاً جديداً من العلاقات الاجتماعية الأكثر تطوراً، تمثلت فى الفردية التى اتضحت **فى إمكان تحدد قيمة الفرد دون جماعة، مع تحول قيمة الشرف عن النسب القبلى وعدد النفر إلى قدر ما يملك من مال،** وهو ما أفصح عن نفسه فى تكوين جيش العبيد والأحلاف والأحابيش. الذى كان مؤشراً بالغ الدلالة على بدء منطق جديد،

يمكن فيه **الاستغناء عن النفورة وعزة النفر القبلى،** بعد أن **بات ممكناً شراء النفر المسلح والمدرب،** أو الحليف بالمصلحة المادية، وهو ما بدأ يخرج بالفرد عن القبيلة إلى التحالف المصلحى مع أفراد من قبائل أخرى، وهو شاهد واضح البرهنة على بدء تفجر الأطر القبلية.

وهكذا أمسى ممكناً أن تجمع المصالح بين أصحاب الثروات على تفرقهم بين قبائل مختلفة وعلى أن يجمع الشقاء بين المستضعفين على تفرقهم بين قبائل مختلفة، وهو ما يشهد عليه **بدء ظهور تجمعات** أكبر من القبيلة، تمثلت فى أحلاف يأتينا خبرها فى أسمائها عبر كتب السير والأخبار، مثل حلف ذى المجاز وتنوخ، وحلف قريش والأحابيش، وحلف الفضول، وحلف المطيبين، وحلف لعقة الدم، وحلف الأحلاف، وحلف الرباب، وحلف الحمس.. إلخ. لتشير الظاهرة إلى توجه اجتماعى جديد ينحو نحو **التوحد على أساس من المصالح المشتركة.**

وإعمالاً لجدل الأحداث اخذ الفارق الطبقى بالاتساع السريع والهائل، ليصبح سواد العرب من الفقراء المستضعفين، يعملون فى رعى الأنعام والفلاحة وتجارات البيع البسيط، يسكنون الخيام والعشش والأكواخ الحقيرة، ويسمعون عن الخبز ولا يأكلونه، حيث كان الخبز من علامات الوجاهة والثراء، ولا يعرفون عن اللحم سوى الصليب، وهو ودك العظام تجمع وتهشم وتغلى على النار طويلاً، ليحصلوا منها على الصليب. وغالباً ما عاشوا على مطاردة ظباء الصحراء وأورالها ويرابيعها. ونقصد بهؤلاء الفقراء، عرب صرحاء من أبناء قبائل متميزة، دفعتهم إلى الأسفل آلة التغير الاقتصادى والمجتمعى.

ويلى تلك الطبقة فى التدنى، طبقة الموالي، وهم من أبناء قبائل أخرى تركوها ولجأوا لقبائل مخالفة، أو كانوا أسرى فك أسيادهم أسرهم، أو أعاجم أرقاء أعتقهم سادتهم بمقابل. وقد شكل هؤلاء طبقة بين أبناء القبيلة الخلص الصرحاء، وبين العبيد.

ثم طبقة أخرى ظهرت بدورها نتيجة التفاوت الطبقى الحاد، وتكونت من أفراد تلبستهم روح التمرد على أوضاع المجتمع الجديد، فتصرفوا بتلك الروح فأضروا بمصالح السادة،

فخلعتهم قبائلهم وتبرأت من فعالهم باعلان مكتوب أو فى الأسواق العامة، وهى الطبقة التى عرفت باسم (الخلعاء).

أما أبرز تلك الطوائف أو الطبقات التى أفرزها المتغير الاقتصادى المجتمعى ، فهى (الصعاليك)، وهم فئة لا تملك شيئاً من وسائل الانتاج، تمردت على الأوضاع الطبقية، بل وشنت عليها الحرب، بخروجهم أفراداً عن قبائلهم باختيارهم، وتجمعهم على اختلاف أصولهم فى عصابات مسلحة. وأبرز الأسماء التى وصلتنا منهم: عروة بن الورد، وتأبط شرا، والسليك ابن السلكة، والشنفرى، وقد أطلق عليهم العرب (الذؤبان)، و(العدائين) لسرعتهم.

وقد روى عن هؤلاء أنهم كانوا ذوى سمات متميزة ، من الشهامة والمروءة والنبالة، واخلاق الفروسية، فكانوا لا يهاجمون إلا البخلاء من الأغنياء، ويوزعون ما ينهبون على الفقراء والمعدمين، بعد أن شكلوا لأنفسهم مجتمعاً فوضوياً، شريعته القوة، وأدواته الغزو والإغارة، وهدفه الأول السلب والنهب **وهدفه الأخير تعديل الموازين المجتمعية**.

وتروى لنا كتب السير والأخبار وطبقات الشعراء، أشعاراً للصعاليك، ينعكس فيها الإحساس المرير بوقع الفقر عليهم وفى نفوسهم، ويضج بشكوى صارخة من الظلم الاجتماعى، وهوان منزلتهم. فهذا (قيس بن الحدادية) يخبرنا أنه لم يكن يساوى عند قومه عنزة جرباء جذماء، أما الأخبار عن الشنفرى فتروى كيف أسلمه قومه هو وأمه وأخوه رهنا لقتيل عن قبيلة أخرى، ولم يفدوهم، وكيف تصعلك الشنفرى ورفع سيف ثورته بعد أن لطمته فتاة سلامية، لأنه ناداها: يا أختى، مستنكرة أن يرتفع إلى مقامها.

ومن مثل تلك الأخبار، نستطيع تكوين فكرة واضحة عن المدى الذى فعله المال داخل القبيلة، مما أدى بالصعاليك إلى فصم علاقتهم بقبائلهم، وتكوين جماعتهم المسلحة ضد الاغنياء، لينزعوا منهم مقومات الحياة الإنسانية التى أهدرها الواقع، وهو المبدأ الذى يتجلى واضحاً فى شعر (عروة بن الورد) وهو يقول:

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يرح عليه ولم تعطف عليه أقاربه
فالموت خير للفتى من حياته فقيراً، ومن موت تدب عقاربه

وفى ضوء الحاجة لليد العاملة فى خدمة آلة الاقتصاد الجديد، بدأت بلاد العرب تعرف النظام العبودى، وكان مصدره السبى والنخاسة وعبودية الدَين، حتى جاء وقت أصبحت تجارة العبيد بمكة تجارة منتظمة، تأتى بهم من سواحل افريقيا الشرقية، وهم الطائفة السوداء، ومنهم من كان يشترى من بلاد فارس والروم وهم الطائفة البيضاء. لاستخدامهم فى حراسة القوافل، وأعمال الرى الصناعى والزراعة والحرب. وليس أدل على كثرة هؤلاء العبيد. من أن (هندا بنت عتبة) أعتقت فى يوم واحد أربعين عبدا من عبيدها، كما أعتق أبو أحيحة سعيد بن العاص مائة عبد. اشتراهم واعتقهم.

ومع النظام العبودى انتشرت عادة التسرى بالإماء، فكان للرجل أن يهب أو يبيع أو ينكح أمته أو يجعلها مادة للكسب بتشغيلها فى البغاء، ثم يأخذ ناتجها المولود ليباع بدوره. وعندما جاء الإسلام حرم البغاء، ولكنه ابقى على نظام ملك اليمين ضمن ما ابقى عليه من أنظمة الجاهلية وقواعدها المجتمعية، لكنه رَغّب فى العتق وحض عليه.

لكن؛ علينا هنا أن نكون حذرين، فالمرحلة كانت مرحلة بدء، وكل تلك التطورات لم تكن تعنى تفجيراً كاملاً ومبرماً للقديم، لأنه بقليل من الجهد، يمكننا- ونحن ندرس مجتمع مكة تحديداً- أن نلحظ المحتوى الطبقى الجديد، وهو يتخفى برداء أو شكل قبلى عصبى عشائرى قديم، بمعنى أن الجديد قد تزيا بالقديم. وسعت كل مجموعة من الأثرياء إلى ربط أفراد قبيلتها بهم وبمصالحهم، بالعطاء والمنح وإشراك صغار تجار القبيلة فى قوافلهم التجارية. مما أسفر فى المجتمع المكي تحديداً عن محتوى طبقي يتخفى داخل نسق عشائرى، تمثل فى انقسام المجتمع القرشى إلى حزبين كبيرين قبليين، بين أبناء العمومة، أو إلى طبقتين ولكن بملامح وقسمات قبلية، يمثلهما البيت الأموى الثرى، والبيت

الهاشمى الذى غلب عليه الفقر، وبخاصة فى بيت عبدالمطلب. وإن كان من العلمية التوضيح أن ذلك الانقسام بدوره لم يكن تام التحديد بفواصل قاطعة مانعة، بل كان يتضمن بعض التداخل الطبقى بين العشيرتين، فضمت الطبقة الثرية أفراداً من هاشم، مثل العباس بن عبد المطلب، وأبو لهب (عبدالعزى)، يشاركون أمية المصلحة الطبقية، ولذلك فإن المحتوى، وإن تغير، فقد ظل يتخفى بأردية عصبية النسق، وظل الشكل القديم محافظاً مع تغير المحتوى. لقد كانت المرحلة مرحلة بدء، بدء تحول، **بدء طور انتقالى.**

ويمكن للمطالع فى تلك المرحلة، أن يلحظ أمراً له مغزاه، فسيجد فقر هاشم وبني عبدالمطلب طارئاً جديداً، وهو ما يدفع إلى افتراضه متصلاً بالمنافسة التجارية التى يقع فيها البعض بالضرورة خاسراً، كما يفترض اتصاله بالصراع بين البيتين الهاشمى والأموى، الذى يضرب بجذوره فى الماضى إلى أيام الجد (قصىّ بن كلاب). وهو الصراع الذى استعر حول حيازة ألوية التشريف السيادية، والتى بلا جدال كانت سلطوية فى بعض مناحيها كما فى لواء (الندوة) ولواء (اللواء). وهى الألوية التى استحر صراع حرور حولها لأنها كانت عاملاً حاسماً فى القسمة الطبقية. وبينما اعتمد الأمويون فى تقوية سلطتهم ونفوذهم على مزيد من التراكم الثروى، وعقد الموادعات والتحالفات التى تضمنها المصالح المادية المشتركة مع قبائل أخرى. فإن الهاشميين لجأوا إلى كسب مزيد من التشريف وألويته بتكتيك آخر، زاد فى فقدهم للأساس المادى باستمرار، لكنه كان منحى يهدف إلى كسب ولاء القبائل بالعطاء وبالبذل، لكسب الشرف الرئاسى بالجود والفضل، فهذا هاشم، يضع ثروته جميعها تقريباً فى قافلة قوامها الزاد، لفقراء مكة والقبائل، فى سنوات المجاعة المسنتة، وقام يهشم الثريد باللحم للجوعى بيديه، لذلك لقب هاشماً، أما اسمه الحقيقى فكان (عمرو)، وفى ذلك يقول (ابن كثير):

> .. هاشم واسمه عمرو، سمى هاشماً لهشمه الثريد مع اللحم لقومه فى سنى المحل، كما قال مطرود بن كعب الخزاعى فى قصيدته..
>
> عمرو الذى هشم الثريد لقومه   ورجال مكة مستنون عجاف

سنت إيه الرحلتـان كلاهمـا سفر الشتاء ورحلة الأصياف[٢٠]

وإشارة (مطرود بن كعب) هنا، لعلاقة هاشم برحلتى الشتاء والصيف، إضافة لما سبق وأشرنا إليه فى أخذه الإيلاف لقريش من الملوك وزعماء القبائل، تلقى ضوءاً على علاقة البيت الهاشمى الوطيدة، القديمة، بالنظام التجارى الملكى، باعتباره أحد المؤسسين لنظام الإيلاف، ودوره فى التجارة العالمية، التى- لاشك- جعلت بيت هاشم أياماً، بيتاً ثرياً ينافس البيت الأموى. وإن أفقره ذلك الأمر غير الواضح بكتبنا التراثية، والذى أرجعناه افتراضاً إلى السقوط فى حلبة المنافسة، وإلى عنصر آخر غير تام الإقناع، وإن كان ذا دورهام، وهو الكرم والعطاء، لإقامة تحالفات مطلوبة فى الصراع، وكسباً للرجال فى حومة مقبلة. وإن كان ذلك العنصر فى منطق الجزيرة وطبعها المجدب الشظف، وخاصة فى تلك المرحلة الطبقية، ربما كان منطقاً مقنعاً للعرب أنفسهم بحق التشريف السيادى لهاشم، فكان للكرم لديهم مغزاه السياسى والاجتماعى، وكان مما يدعم الكريم بالتسييد وما يستتبعه التسييد من سلطة، وهو ما يدل عليه قول (حاتم الطائى) أكرم العرب وأشهرهم فى هذا الضرب السيادى:

يقولون لى: أهلكت مالك فاُقتصد وما كنت- لولا ما يقولون- سيدا[٢١]

ثم يخبرنا التاريخ أن (هاشم) قد دفع بالصراع دفعة كبرى، عندما دعم حلفه ضد (أمية) بزواج شرفى تعاقدى، مع أهل الحرب والدم والحلقة من بنى النجار، خزرج يثرب، وأن أخاه (المطلب) سار على نفس المنحى التكتيكى، وأن (عبدالمطلب بن هاشم) قام بدعم آخر لحلف (هاشم/ يثرب-الخزرج) بزواج آخر واستمر فى البذل حتى لقبته العرب بالفياض لكثرة جوده[٢٢]. فى الوقت الذى حافظ فيه ولده العباس على ماله، فكان كثير المال، وهو

---

(٢٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٢، ص٢٣٦.

(٢١) حاتم الطائي: (ديوانه)، تحقيق وشرح كرم البستانى، مكتبة صادر، د.ت، بيروت، ص٥٨.

(٢٢) السهيلي: سيرة ابن هشام (الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام)، ، ضبط عبد الرءوف، دار المعرفة ١٩٧٨، بيروت، ج٢، ص١٣١، انظر أيضاً: الحلبى سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، دار المعرفة، د.ت، بيروت ج١، ص٢٢, ٢٣.

ما يشير إلى ممكنات الثراء فى البيت الهاشمي، لولا بذل هاشم وعبدالمطلب وآله، وبخل شديد وحرص فى العباس، حدثتنا عنه كتب السيرة فى أكثر من مناسبة.

المستوى الفكرى

ومع مزيد من التراكم على خط التطور، **كان لابد أن يتزايد التناقض بين الشكل والمحتوى،** حتى يبلغ مداه التفجيرى للإطار أو الشكل، لصالح المحتوى الجديد، بعد تراكم الجديد داخل إطار ضاق به ولم يعد يسعه. وقد ساعد على زيادة ذلك التناقض بين الشكل والمحتوى، بقاء الشكل أو الإطار محكوماً بعلاقات استهلكها التطور السريع، فتفسخت القيم القبلية، رغم الإصرار الظاهر على إستدامتها. هذا بالطبع مع الإفراز الفكرى للمرحلة التى اصطبغت بالشكل المادى النفعى، فاستبطن المحتوى الجديد، داخل فكر قديم، لكن فقط للمسامرات الفكرية، والندوات الديوانية، والممارسات الطقسية، والتبريرات النفعية، دون إيمان حقيقى. فعلى المستوى الواقعى، **أمسى ظاهراً رفض العربى وخاصة المكي، لكثير من أشكال المعجزات الميتافيزيقية القديمة،** خاصة إذا ما كان ذلك المكي من الطبقة الثرية الأرستقراطية، **المترفة والمتحققة،** حتى أصبحت تلك الميتافيزيقا القديمة فى مأثوره الجديد، على لسان الصفوة التى أتاحت لها **الثروة التزود بالثقافة الحضارية** فى مدارس الامبراطوريات وجامعاتها، مجرد **أساطير الأولين،** وما كان يتم استدعاؤها عن قناعة، بل من باب التخديم على المصالح المادية. ولم يعد الفكر الدينى ومفاهيمه، سوى أسلوب لتنسيق المكاسب، ومطية لمنافع مادية بحتة.

ومن ثم تخبرنا صدور كتب السير والأخبار، **بتسامح مطاط فى قبول** أى **دين** وأى معتقد، مهما بدا شاذاً وغير مألوف، شرط **أن يكون دافعاً لمزيد من الحضور التجارى،** أو على الأقل شرط ألا يكون متضارباً مع المصلحة التجارية. وكان أمراً مفروغ الحدوث، أن يبلغ ذلك التناقض مداه على كافة المستويات.

فعلى المستوى الاقتصادى: كان تركز الثروة بيد أفراد دون آخرين داخل القبيلة، دافعاً لمزيد من تناقض الشكل القبلي والمحتوى الطبقي، وكان مفترضاً وصول التناقض لمرحلة التفجر لصالح المحتوى الطبقي، لولا **أن الشكل القبلى كان يؤدى للقيادة المكية- ولمصالح الملأ تحديداً- مكسباً أكبر من التحول النهائى نحو الشكل الطبقى،** لأن بقاء القبيلة وإطالة أمدها، كان يعنى مزيداً من التراكم الثروى لأرستقراطية مكة، وهو الأمر الذى يفسره المستوى الفكرى.

وعلى المستوى الفكرى: نحتاج بعض التأنى هنا لنحاول وضع لوحة واضحة للمستوى الفكرى والمحتوى المعرفى لهذه المرحلة.

معلوم أن عجز الإنسان وضعفه أمام ظواهر الطبيعة المتقلبة وقواها، مع قصور تجربته ومعرفته، كان هو الدافع لتصور قوى مفارقة (ميتافيزيقية)، هى التى تقف وراء متغيرات الطبيعة وثوراتها وغضبها وسكونها. ولأن تلك الظواهر لم تكن مفهومة، فقد جاءت تلك القوى أيضا غيبية، ولذلك ارتبطت عقائد الناس فى أربابها بوسطها البيئى، حيث عبرت عن ذلك الوسط وأظهر مظاهره وأكثرها تكرارا وديمومة، ومن هنا قدس العربى أجرام السماء. التى تظهر بكل وضوح فى ليله الصحراوى المنبسط، دون حواجز حتى الأفق بدائرته الكاملة. كما قدس الأحجار بخاصة ذات السمات المتفردة منها، فبيئته رمال وصخور وأحجار، وقد غلب انتشار الصخور البركانية فى جزيرة العرب لانتشار البراكين فيها، وأطلقوا عليها اسم الحرات من الحرارة والانصهار.

لكن اتساع رقعة الجزيرة على خطوط عرض واسعة، أدى إلى تباين ظروف البيئة والمناخ، مما أدى إلى تعدد مماثل فى الظواهر، وبالتالى تعددية فى العبادات، هذا ناهيك عن وعورة المسالك فى الجزيرة، والتى أدت إلى ما يشبه العزلة لمواطن دون مواطن. خاصة تلك التى فى الباطن، مما أدى إلى احتفاظها بألوان من العقائد الموغلة فى قدمها وبدائيتها، نتيجة عدم الاحتكاك بالثقافات الأخرى التى تساعد على تطور الراسب المعرفى، ومن ثم العقائدى.

وهكذا يمكنك أن تجد إضافة لعبادة أجرام السماء وعبادة الأحجار والصخور، بقايا من ديانات بدائية كالفيتشية والطوطمية، وعبادة الأوثان وعبادة الأسلاف.

والفيتشية أكثر ديانات الجزيرة انتشارا بين أهلها، وهى تقدس الأشياء المادية كالأحجار، للاعتقاد بوجود قوى سحرية خفية بداخلها، أو لأنها قادمة من عالم الآلهة فى السماء أو من باطن الأرض حيث عالم الموتى، وقد ظلت تلك العقائد قائمة حتى ظهور الإسلام.

أما الطوطمية، التى تعتقد بوجود صلة لأفراد القبيلة بحيوان ما مقدس، فتظهر فى مسميات قبائل العرب (أسد، فهد، يربوع، ضبة، كلب، ظبيان. . الخ)، لذلك كانوا يحرمون لمس الطوطم أو حتى التلفظ باسمه، لذلك كانوا يكنون عنه، فالملدوغ يقولون عنه السليم، والنعامة يكنى عنها المجلم، والأسد أبى حارث، والثعلب ابن آوى، والضبع أم عامر، هكذا. هذا إضافة إلى تقديس الأشجار، مثل ذات أنواط التى كانوا يعظمونها، ويأتونها كل سنة فيذبحون عندها ويعلقون عليها أسلحتهم وأرديتهم.

كذلك عبد العرب كائنات أسموها (الجن) خوفا ورهبة، ودفعاً لأذاها، وظنوها تقطن الأماكن الموحشة والمواضع المقفرة والمقابر. وكان العربى إذا دخل إلى موطن قفر حيا سكانه من الجن بقوله؛ عموا اظلاما، ويقف قائد الجماعة ينادى: إنا عائذون بسيد هذا الوادى. وتصوروا الجن كحال العرب، فهم قبائل وعشائر تربط بينهم صلات الرحم، يتقاتلون ويغزو بعضهم بعضا، ولهم سادة وشيوخ وعصبيات، ولهم من صفات العربان كثير، فهم يرعون حرمة الجوار ويحفظون الذمم ويعقدون الأحلاف. . وقد يتقاتلون فيثيرون العواصف، ويصيبون البشر بالأوبئة والجنون. وقد نسبوا إلى الجن الهتف قبل الدعوة مباشرة، حيث كثرت الهواتف أى الأصوات التى تنادى بأمور وتنبئ بأخرى بصوت مسموع وجسم غير مرئى. . وقد اعتمد الكهان على تلك الاعتقادات فزعموا أنهم يتلقون وحيهم عن الجن، وأن الجن بإمكانها الصعود إلى السماء والتصنت على مصائر البشر فى

حكايات الملأ الأعلى مع بعضهم عمن فى الأرض، وإن الكاهن بإمكانه معرفة مصائر البشر عبر رفيقه من جواسيسه على السماء من الجان.

أما أشد العبادات انتشارا وأقربها إلى الظرف المكانى والمجتمعى، فهى عبادة الأسلاف الراحلين. ويبدو لنا أن تلك العبادة كانت غاية التطور فى العبادة فى العصر قبل الجاهلى الأخير، حيث كان ظرف القبيلة لا يسمح بأى تفكك نظرا لانتقالها الدائم وحركتها الواسعة وراء الكلأ، وهو التنقل الذى كان يلزمه لزوجة جامعة لأفرادها، تم تمثله فى سلف القبيلة وسيدها الراحل الغابر، فأصبح هو الرب المعبود وهو الكافل لها الحماية والتماسك، بوصفها وحدة عسكرية مقاتلة متحركة دوما. فاستبدلت بمفهوم الوطن مفهوم الحمى، والذى يشرف عليه سيدهم وأبوهم القديم وربهم المعبود، حيث تماهى جميع أفراد القبيلة فيه. ومن هنا كان الرب هو سيد القبيلة الراحل القديم، الذى تمثلوه بطلا مقاتلا أو حكيما لا يضارع، ومن ثم تعددت الأرباب بتعدد القبائل، ونزعت القبائل مع ذلك نحو التوحيد. وهى المعادلة التى تبدو غير مفهومة للوهلة الأولى، لكن بساطة الأمر تكمن فى إن البدوى فى قبيلته كان لا يعبد فى العادة ولا يبجل سوى ربه الذى هو رمز عزته ورابط قبيلته، ولا يعترف بأرباب القبائل الأخرى، وهو الأمر الذى نشهد له نموذجا واضحا فى المدون الإسرائيلى المقدس، حيث عاش بنو إسرائيل ظروف قبلية شبيهة، فيقول سفر الخروج: "من مثلك بين الآلهة يا رب"، أى أن القبلي كان يعرف أربابا أخرى لقبائل أخرى، لكن ربه هو الأعظم من بينها. لذلك كان البدوى فى قبليته يأنف أن يحكمه أحد من خارج نسبه، لأن نسبه هو ربه هو سلفه، هو ذاته، هو كرامته وعزته، لذلك كانت عبادة الأسلاف أحد أهم العوامل فى تفرق العرب القبلي، وعدهم توحدهم فى وحدة مركزية تجمعهم.

ولم يأت الاعتراف بآلهة أخرى لقبائل أخرى إلا فيما بعد، بعد دخول المصالح التجارية للمنطقة، واستعمال النقد، وظهور مصالح لأفراد فى قبيلة ترتبط بمصالح لأفراد فى قبيلة أخرى، مما أدى لاعتراف متبادل بالأرباب. وهو الأمر الذى بدأ يظهر خاصة فى المدن

الكبرى بالجزيرة على خط التجارة، فى العصر الجاهلى الأخير، كما حدث فى مكة والطائف ويثرب وغيرها.

وقد دأب بعض مفكرينا فى شئون الدين-عافاهم الله-على الحط من شأن عرب الجزيرة قبل الإسلام، وتصويرهم فى صورة منكرة وسار على دربهم أصحاب الفنون الحديثة فى القصة والسيناريو والأعمال الفنية السينمائية، بحيث قدموا ذلك العربى عاريا من أية ثقافة أو حتى فهم أو حتى إنسانية. حتى باتت صورته فى ذهن شبيبتنا، إن لم تكن فى أذهان بعض المثقفين بل والكتاب أيضا، أقرب إلى الحيوانية منها إلى البشرية. وقد بدا لهؤلاء أن القدح فى شأن عرب قبل الإسلام، وإبرازهم بتلك الصورة، هو فرش أرضية الصورة بالسواد، لإبراز نور الدعوة الإسلامية بعد ذلك، وكلما زادوا فى تبشيع عرب الجاهلية، كلما كان الإسلام أكثر استضاءة وثقافة وعلما وخلقا وتطورا على كل المستويات. وأن الأمر بهذا الشكل يبعث أولا على الشعور بالفجاجة والسخف، ثم هو يجافى أبسط القواعد المنطقية للإيمان، **فالإيمان يستمد قيمته من دعوته، ومن نصه القدسى، وسيرة نبيه. فقيمته فى ذاته، قيمة داخلية، وليست من مقارنته بآخر**. أما الأنكى فى الأمر، فهو أن تتم مقارنة الإلهى بالإنسانى، لإبراز قيمة الإلهى إزاء نقص الإنسانى، فى تلك الحال ستكون ظالمة لكليهما : الإلهى والإنسانى، فالإلهى لا يقارن بغيره، كما أن مقارنة الإنسان به فداحة فى التجنى على الإنسانى بما لا يقارن مع الإلهى.

وقد فطن (الدكتور طه حسين) إلى ذلك الأمر وعمد إلى إيضاحه فى كتابه (الأدب الجاهلى) مبينا مدى تهافت الفكرة الشائعة حول جاهلية العرب قبل الإسلام، وكيف أن تلك الفكرة أرادت تصوير العرب كالحيوانات المتوحشة. لإبراز دور الإسلام فى نقله الإعجازى لهؤلاء الأقوام المتوحشين، فجأة دون مقدمات موضوعية، إلى مشارف الحضارة، فجمعهم فى أمة واحدة، فتحوا الدنيا وكونوا إمبراطورية كبرى. هذا بينما

القراءة النزيهة لتاريخ عرب الجزيرة فى المرحلة قبل الإسلامية تشير بوضوح، إلى أن العرب لم يكونوا كذلك، أما الركون إلى عقائدهم لتسفيههم، فهو الأمر الأشد فجاجة فى الرؤية، فيكفينا أن نلقى نظرة حولنا، على الإنسان وهو فى مشارف قرنه الحادى والعشرين، لنجده لم يزل بعد يعتقد فى أمور هى من أشد الأمور سخفا ومدعاة للضحك.

والمطالع لأخبار ذلك العصر المنعوت بالجاهلى، فى كتب الأخبار الإسلامية ذاتها، سيجد فى الأخلاق مستوى رفيعا هو النبالة ذاتها، وسيجد المستوى المعرفى هو المستوى المعرفى للأمم من حولهم. وأن معارفهم كانت تجمع إلى معارف تلك الأمم معارفهم الخاصة، فقط كان تشتتهم القبلى وعدم توحدهم فى دولة مركزية، عائقا حقيقيا دون الوصول إلى المستوى الحضارى لما جاورهم من حضارات مركزية مستقرة. وهو الأمر الذى أخذ فى التطور المتسارع فى العصر الجاهلى الأخير نحو التوحد فى أحلاف كبرى، تهيئة للأمر العظيم الآتى فى توحد مركزى ودولة كبرى.

فعلى مستوى المعارف الكونية، كان لدى العرب تصورات واضحة، تضاهى التصورات فى الحضارات حولهم؛ فالأرض كرة مدحاة، والسماء سقف محفوظ تزينه مصابيح هى تلك النجوم، وفيه كواكب سيارة، أطلقوا عليها (الخنس والجوارى الكنس). فهذا (زيد بن عمرو بن نفيل) يحدثنا عن التصور الكوني المعروف فى بلاد الحضارات فى قوله:

دحاها فلما رآها استوت **على الماء** أرسى عليها الجبالا

بينما نجد (أمية بن عبد الله الثقفى)، يصور لنا ما درج عليه العالم القديم من تصور للسماء سقفا بلا عمد، وأنها طبقات سبع، وأن الشهب فيها حماية ورصدا ومنعا للجن من استراق السمع على الملأ الأعلى.

أما على مستوى المعارف الدينية، وكانت سمة عصرها، وهى المنحولة عن عقائد الرافدين القديمة ومصر القديمة وبلاد الشام وفلسطين، وجاء تفصيلها مجملا فى مدونات التوراة، فهو الأمر الذى كانت تعرفه جزيرة العرب. فهذا (الأفوه الأودى) يأبى إلا أن يسجل أسماء أبناء نوح فى قوله:

ولما يعصمها سام وحام ويافث حيثما حلت ولام

أما طول العمر النوحى فكان مضرب المثل، وهو يؤخذ فى مديح الأعشى لإياس:

جزى الله إياساً خير نعمة كما جزى المرء نوحاً بعدما شابا
فى فلكه إذا تبدلها ليصفها وظل يجمع ألواحاً وأبواباً

وهو ما جاء أيضاً فى ضرب الراجز، رافضا عمراً كعمر نوح:

فعلت لو عمرت سن الحل أو عمر نحو زمن الفطحل
والصخر مبتل كطين الوحل صرت رهينة هرم أو قتل

وكان انتشار قصص التوراة فى معارف الأمم يجد صداه فى معارف ذلك العصر، فها هو (أمية بن أبى الصلت) يقدم حواراً شعريا بين موسى وهارون وبين فرعون، يقول فيه:

وأنت الذى من فضل ورحمة بعثت إلى موسى رسولاً منادياً
فقلت له: أذهب وهارون فادعوا إلى الله فرعون الذى كان طاغياً
وقولاً له: أأنت سويت هذه بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له: أأنت رفعت هذه بلا عمد، أرفق إذا بك بانياً

بل وعرف العرب قصة مريم وولدها، وسارت فيهم كقصة معلومة، وهو ما صاغه (أمية) شعرا بدوره، إضافة لما جاءت به المسيحية عن يوم بعث ونشور، مضافا إليه ما سبق إليه المصريون من القول بحساب للموتى أمام موازين العدل فى قاعة الحساب السماوية.

فهذا شعر بقى عن (قس بن ساعدة) بقول:

يا ناعى الموت والأموات فى جدث	عليهم من بقايا برعم خرق
دعهم فإن لهم **يوماً يصاح بهم**	فهم إذا انتبهوا من نومهم فرقوا
حتى يعودوا لحال غير حالهم	**خلقاً جديداً** كما من قبله خلقوا
فيهم **عراة** ومنهم فى ثيابهم	منها الجديد ومنها المبهج الخلق

وهو الأمر الذى يوضحه شعر (زيد بن نفيل) وهو يصور أحوال الحساب ونتائجه فى قوله:

ترى الأبرار دارهم جنان	وللكفار حامية السعير
وخزى فى الحياة وإن يموتوا	يلاقوا ما تضيق به الصدور

وهو ذات الأمر الذى فصّل أمره (أمية الثقفى) فى قوله:

باتت همومى تسرى طوارقها	أكف عينى والدمع سابقها
مما أتانى من اليقين ولم	أوت برأة يقصى ناطقها
أم من تلظى عليه واقدة النار	محيط بها سرادقها؟
أم من أسكن الجنة التى وعد	الأبرار مصفوفة نمارقها؟
لا يستوى المنزلان ولا	الأعمال تستوى طرائقها
وفرقة منها أدخلت	النار فساءت مرافقها

أما (علاف بن شهاب التميمى) فيؤكد :

وعلمت أن الله يجازى عبده يوم الحساب بأحسن الأعمال

كذلك جاء تقرير (زهير بن أبى سلمى واضحاً) فى قوله :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضح فى كتاب فيدخر ليوم الحساب . أو يعجل فينقم

وقد عبرت عن المستوى الفكرى والمعرفى عدة من المعالم أهمها المعلم الأدبى ، فليس جديدا التأكيد على شعرية العربى ، حتى قيل إن كل عربى شاعر ، وحتى أصبح الشعر ديوان العرب ، رواية حالهم وظروفهم وعقائدهم ، وسجل لمعارفهم ومستواهم الثقافى الأخلاقى ، وسجل لحياتهم العملية وطرق عيشهم بل ورؤاهم الفنية والفلسفية .

وإلى جانب الشعر كان معلم الخطابة بما حواه من ذات المحتويات الشعرية ، بنثره المنظوم المسجوع ، إضافة إلى سجع الكهان المرسل منه والمزدوج .

وكان للعرب أسواقهم ، التى عادة ما كانت تفتتح افتتاحا ثقافيا ، بإلقاء الخطب النثرية ، والقصائد الشعرية ، وإجراء المسابقات حول أفضل القصائد ، وهو ما برز فى (المعلقات السبع) . مما يشير إلى ديدن أمة اهتمت بتنمية الثقافة وتشجيعها ، رغم تشتتها شيعا فى قبائل لا تجمعها وحدة مركزية .

وكان العربى حريصا على تقديم معارفه وثقافته شعرا ، وإن نثرها حرصا على الجرس الموسيقي فيها ، مما يشير إلى رهافة فى الحس وارتقاء فى الذوق ، ونماذج من ذلك النثر ، ما جاء قسما بالمظاهر الكونية عند (الزبراء) وهى تقول : «واللوح الخافق ، والليل الغاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادى ليأود ختلا ، ويرق أنيابا عصلا ، وإن صخر الطود لينذر ثقلا ، لا تجدون عنه معلا» .

ومن ألوان هذا السجع سجع دينى ، جاء فى وصف (ربيعة بن ربيعة) ليوم البعث والنشور ، بقوله : «يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه

المسيئون» ، وهو ذات الرجل الذى يقسم بصدق قوله قائلاً : « والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق» . أما (شق بن صعب) فيصف ذات اليوم بقوله : «يوم تجزى فيه الولايات يدعى فيه من السماء بدعوات ، يسمع منها الأحياء والأموات ويجمع فيه الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات» .

ويقسم (ابن صعب) لسائله بأنه يقول الحق : «ورب السماء والأرض ، وما بينهما من رفع وخفض ، أن ما أنبأتك به لحق ، ما فيه أمض» . أما الكاهن الخزاعى الذى احتكم إليه هاشم وأمية فى نزاعهما ، أصدر قراره سجعا يقول : «والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، قد سبق هاشم أمية إلى المفاخر» .

أما (قس بن ساعدة الأيادى) فيرسل سجعه مصورا معارف العصر الكونية فى نثره قائلاً : «ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وأرض **مدحاة** ، وأنهار مجراة ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا» .

والشعر الجاهلى وثيقة هامة فى يد الباحث العلمى ، تأخذ سمت العلم التاريخى ، رغم ما أثير حول الشعر الجاهلى من تشكيك فى صحة انتسابه لعصره فعلا ، وكان أبرز ما قيل بشأنه قضية النحل التى أثارها (الدكتور طه حسين) فى كتابه الشعر الجاهلى ، والمحاكمة المشهورة التى جرت آنذاك بشأن ذلك الكتاب وصاحبه .

لكن ما يدعو إلى الاطمئنان فى الغالبية مما وصلنا من ذلك الشعر ، مدونا بأقلام المسلمين ، هو أن القافية والوزن كانا يضمنان منع حدوث تغيير كبير على ذلك الشعر ، كما أن المحتوى البسيط لذلك الشعر ، وما جاء به من أخبار التخاصم على الإبل والمراعى يضمن عدم التصنع ، وعلى رأى (د. حسين مروة) أننا لو حكمنا على شعر الأخطل وجرير . . . . بشكله ، لتعذر علينا نسبته إلى ما بعد الإسلام .

وكان (ابن سلام) أول من بحث قضية الانتحال، وعزا أسبابها إلى العصبية القبلية، والرواة الوضاعين، مثل حماد الراوية، وخلف الأحمر. وسبق الجميع إلى مسالة الانتحال (المفضل الضبى) الذى نقد خلفا الأحمر، أما (طه حسين) فقد ردد ما سبقه إليه المستشرق (مرجليوث) بشكل مختلف بعض الشيء. وإن كان أهم حيثيات محاكمته هى إنكاره هبوط إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام جزيرة العرب.

وقد قامت جمهرة السلفيين تؤكد قبولها صحة نسب الشعر الجاهلى دون تحفظ أو تشكك؛ وقد ظهر ذلك واضحا فى المؤلفات التى وضعت للرد على (طه حسين). ونموذجا لذلك ما جاء فى كتاب (نقض كتاب فى الشعر الجاهلى) لمحمد أحمد الغمراوى، و(مصادر الشعر الجاهلى) لناصر الدين الأسد، وغيرهم. ونسبة الشعر الجاهلى لعصره، قد اتفق أمرها بين المسلمين السلفيين، وبين كثير من المستشرقين، وهو ما يمثله نموذجا قول المستشرق (ليال): «والواقع أن هذا الشعر الجاهلى، قد أفاد المؤرخ الباحث فى تأريخ الجاهلية، **فائدة لا تقدر بثمن**، وربما زادت فائدة هذا الشعر من الوجهة التاريخية، على فائدته من الوجهة الأدبية لأنه حوى أمورا مهمة عن أحداث العرب الجاهليين، لم يكن فى وسعنا الحصول عليها لولا هذا الشعر».

والخطابة كانت من أبرز الأنشطة الفكرية والثقافية للعرب، وكانوا يلجأون فيها إلى كل الوسائل الإبداعية والجمالية والبلاغية لإقناع المستمع بوجاهة محتوى الخطبة، وعند التعامل مع ملوك الدول كان العرب يختارون أكثرهم تفوها، وقد ذكر (ابن عبد ربه) فى عقده الفريد، أن كسرى تنقص من أمر العرب فى حضور (النعمان بن المنذر) لديه، مما استفز (النعمان) لعروبته فأرسل فى طلب خطباء العرب وأوفدهم إلى كسرى ليعرف مآثر العرب وقدرهم الثقافى.

وكان الخطباء يخطبون فى وفادتهم على الأمراء، فيقف رئيس الوفد بين يدى صاحب السلطان ليتحدث بلسان قومه، ومن هذه الخطب ما قيل بين يدى رسول الله ﷺ عام

الوفود وأوردته كتب السير والأخبار . ومن أشهر الخطباء، أولئك الذين وردت أسمائهم فى الرد على كسرى، وهم (أكثم بن صيفى)، و(حاجب بن زرارة التميمى)، و(الحارث بن عباد)، و(قيس بن مسعود)، و(عمرو بن الشريد السلمى)، و(عمرو بن معد يكرب الزبيدى)، ومن خطباء مكة (عتبة بن ربيعة) و(سهيل بن عمرو)، ومن الخطباء أيضا (هرم بن قطبة)، و(عامر بن الظرب العدوانى)، وهى نماذج تشير إلى خطباء كثر لقبائل العرب، أوردتها كتب الأخبار والسير تفصيلا وحصرا .

مع التطور الرتيب البطىء للقوى المنتجة، نتيجة للتعددية والتشظى القبلى، تواضع العقل العربى على إلقاء تفاسير ميتافيزية، لما يجابهه من ظواهر طبيعية، يحاول بها تبرير ما يحدث حوله، وهو ما اصطلح بعد ذلك على تسميته بالأساطير بين العرب أنفسهم. خاصة بين الطبقة المثقفة من أثرياء تجارهم، وهو ما يعلن عدم قناعة مستبطن بتلك التفاسير، التى أدرجت ضمن أخبار السالفين وأنبياء الأمم وقوادهم تحت عنوان واحد يجمعها هو (الأساطير).

ولما كان المطر أهم الظواهر وأخطرها لحياة البدوى، فقد وضعت بشأن انقطاعه أو تواتره سيولا، تفاسير أسطورية بدائية بسيطة بساطة حياة البداوة، فإذا أمطرت السماء نسبوا المطر إلى فعل النجم أو المجموعة النجمية التى توافقت فى الظهور مع سقوط المطر، فيقولون: أُمطرنا بنوء كذا. وكان لفيض المطر أحيانا ودوره المدمر تفاسير من لون آخر، فيبدو أن الذاكرة العربية احتفظت بأحوال عرب قدماء، دُمرت بلادهم بسبب الأمطار العاصفة. فحكوا عنها روايات تفسيرية، تكمن الأسباب فيها بيد الآلهة الغاضبة البطوش على من خالفوا أوامرها أو نواهيها. وهو ما روته العرب مثيلة عن هلاك عاد وثمود، ويمكن الرجوع بشأنه تفصيلا للفصول الأولى من كتب الأخبار والسير الإسلامية، وعلى سبيل المثال (تاريخ الرسل والملوك) للطبري.

كذلك كان لندرة المطر أساطيرها الخاصة، والتى دفعتهم إلى ابتداع ألوان من الطقوس، قصدوا بها تحريض الطبيعة على العمل، ويبدو أن ملاحظة سكان السواحل للضباب

الصاعد من الماء ليكون سحابا ممطر، أثر فى تصور اصطناع حالة شبيهة، فكانوا يوقدون نارا تخرج مادتها دخانا شبيها بالضباب الصاعد للفضاء، بقصد الاستمطار. ولأن البقر كان رمزا للخصب عند الشعوب القديمة، فقد عقدوا بين النار والبقر فى طقس يجمعون فيه الأبقار ويصعدون بها المرتفعات، ويربطون فى ذيولها موادا قابلة للاشتعال يوقدون فيها النار، فتهرع الأبقار مذعورة تثير الغبار وهى تهبط من الجبل، لتصطنع حالة شبيهة بالعواصف الممطرة، وأثناء ذلك يضجون بالدعاء والتضرع، ويرون ذلك سببا للسقيا، وذلك إعمالا لمبدأ السحر التشاكلى حيث الشبيه ينتج الشبيه.

وفى العصر الجاهلى الأخير، ومع النزوع نحو توحد قومى دينى تحت ظل إله واحد ارتفع العرب بذلك الإله عن المحسوسات، ونظروا إلى **إلههم ساكنا السماء فى قصر عظيم تحفه حاشية من الملائكة ويجلس علي عرش محمول فوق أعناق فريق آخر من الملائكة،** لذلك قدسوا السماء وأجرامها، والقسم بها، وبظواهرها، وحفوا بالقدسية كل ما تساقط من السماء بحسبانه قادما من ذلك المكان المقدس حيث العرش، فكان تقديس الأحجار النيزكية أحد نتائج ذلك الاعتقاد.

وقد نسبوا إلى الأفلاك أثراً عظيما فى حياة البشر والأمراض والأوبئة، وكان تساقط الشهب يعنى وقوع أحداث جلل، كالحروب، أو الكوارث الاقتصادية، أو الطبيعية، أو ولادة رجل عظيم، أو موت لآخر.

ويبدو أن تلك القدسية امتدت عند بعض القبائل إلى تأليه نجوم السماء، بينما اتجه البعض الآخر إلى اعتبارها هى ذات الملائكة، وقالوا إنهن بنات الله، أو لهن علاقة بالله على الجملة فى أكثر من شأن. وتعبر عن ذلك الرواية المشهورة بشأن كوكب الزهرة والملكين هاروت وماروت وكيف أغوت الزهرة الغانية الملكين الورعين فارتكبا الخطيئة وعصيا الله خالق السماوات والأرض، وكيف تحولت تلك المرأة التى أغوت ملائكة السماء بدورها إلى كائن سماوى يتمثل فى ذلك الكوكب الجميل المعروف بكوكب الزهرة.

كذلك لم يجد العرب فى تميز بعض الأشخاص إلا سمات خارقة، نسبوها إليهم أحيانا انبهارا، وأحيانا تمجيدا. فهذا خالد بن سنان يطفئ النار التى خرجت بجزيرة العرب وكانت لها رؤوس تسيح فتهلك البلدان ويبدو أنها كانت ذكرى بركان مدمر، لكنهم جعلوا للنار البركان رؤوسا آكله حاربها ابن سنان حتى أطفأها وردها إلى مقر الأرض.

وهذا الصعلوك القوى النبيل، يشتد الإعجاب به وبقوته حتى يقولون أنه قتل الغول وأتى يحمل رأسه تحت إبطه، فأسموه (تأبط شر). وهذا عنترة بن شداد يشد على الأعادى فيكسر رماح الحديد وينزع النخيل من مواضعه ويحارب الغزاة، حتى يتحول مع النزوع القومي فى الجاهلية الأخيرة إلى بطل عربى قومى يحارب أعداء العرب بقواه الجبارة.

وذلك (سيف بن ذى يزن) يدخل الحلم القومى العروبى بعد تحرير بلاده من الأحباش، **فيتم التعتيم على استعانته بالفرس الذين يحتلون بلاده عوضا عن الأحباش، ليتم تصويره بطلا شعبيا عظيما** يقاتل الجيوش ويهزمها بقوته ومهارته.

وهو ما يشير إلى نزوع جديد نحو أساطير البطولة للجاهلية فى عصرها الأخير، لتصنع رمزها القومى العربى، وهى تنحو نحو التوحد الآتى. وكان الرب يمثل سيد القبيلة وسلفها ومعبودها ورمز عزتها وكبريائها، وكان تجمع تلك الأرباب فى ضيافة الكعبة المكية، يعنى مزيداً من الحضور التجارى لأتباع الأرباب، ومزيداً من المكاسب. **فكان المحتوى الطبقى يسير نحو تفجير الشكل القبلى لصالح توحد القبائل جميعاً، بتقارب مصالح الأثرياء من قبائل مختلفة، بحيث صار ممكناً رفض رب القبيلة وسيدها وسلفها المعبود لدى الفرد عند الشريحتين الاجتماعيتين، الأرستقراطية والمعدمة،** فكانت الشريحة الأرستقراطية تنحو نحو التوحد المصلحى الذى احتاج أدلجة، أفرزت اعتقاداً فى إله واحد يرعى تلك المصالح، ولأنهم السادة والملأ والحكومة، فقد جاء إلههم الجديد فى مرتبة تتفق ومكانتهم، ليصبح فوق آلهة الكعبة جميعاً، وسيداً مطلقاً للكون الذى أمسكوا عنان تجارته بأيديهم، وراعياً غائباً لمصالحهم.

كذلك كانت فئة المضطهدين والمعدمين والعبيد، فى حالة رفض نفسى وعقلى لأرباب لا تعدل فى تقسيم الأرزاق، ومن ثم كان رفض تلك الأرباب لدى المضطهدين، قناعة مهيأة للإعلان العملى السافر. وقد برز الاعتقاد المكى فى إله واحد فوق أرباب القبائل وأسلافها المتعددين، الواقفين فى فناء الكعبة، وأمسى معترفاً به بشكل نهائى فى العصر الجاهلى الأخير، وهو ما قررته بعد ذلك آيات القرآن الكريم فى نصوص كثيرة متعددة، نقتصر منها على أمثلة تقول:

- ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. **سَيَقُولُونَ** لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾. (٨٦-٨٧/ المؤمنون).

- ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ **لَيَقُولُنَّ** اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾. (٦١/ العنكبوت).

لذلك ظل التشرذم القبلى قائماً، وجنين الوحدة المقبلة لعرب الجزيرة فى حالة إرهاص ومخاض، دون ميلاد حقيقى، يجمع العرب جميعاً فى مصلحة واحدة، ووحدة قومية جامعة فى ظل إله واحد. **ولذلك انتشر الاعتقاد فى مهمة باقية لهذه الأرباب القبلية المتفرقة، وهى التشفع لأتباعها لدى الإله الواحد، واتخاذهم إليه زلفى وتقرباً، وهو ما كان- على المستوى النفسى- إخضاعاً داخليا ذاتياً للقبائل، لملأ مكة وسيادة ذلك الملأ، عن طريق الاعتراف بسيادة إله الملأ على أرباب القبائل.** وقد صورت آيات القرآن الكريم، المعنى الذى انتهى إليه أرباب القبائل، بتصوير بليغ، يليق بصدق الوحى الكريم، وتطابقة مع واقع مكة والجزيرة، دون تفاوت ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ (٣/ الملك). بقول يأتى على لسان المشركين:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ **لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ**﴾ (٣/ الزمر).

وعلى المستوى السياسى؛ تجاوزت حكومة الملأ- أصحاب الندوة- الشكل القبلى القديم، لكنها حرصت على استدامة النقيضين حرصاً على المصلحة المادية، فكانت

حكومة الملأ حكومة شبه جمهورية، تتجاوز الشكل المشيخى الرئاسى القبلى القديم. لكنها تستبطنه فى تمثيل رجال الملأ للتعددية القبلية لبطون قريش، بينما صراع النقيضين يفعل فعله التراكمى لصالح توحد كامل لشكل الحكم، بغرض القضاء على التمثيل القبلى والقبلية، لصالح نظام حكم مركزى جامع، يقوم على سلطة واحدة موحدة، لا تضع بحسبانها مصالح الملأ الأنانية الضيقة، بل تتجاوزها بضرب التعدد السلطوى والربوبى. لصالح دولة كبرى، ومصالح أعظم وأعم نفعاً لجميع عرب الجزيرة. حكم يمكنه أن يوحد تلك الشراذم المتأجحة بين الفردية والقبلية، الجديد والقديم، فى مرحلتها الانتقالية، نحو أمة واحدة، وهو ما يخبرنا التاريخ بأنه قد حدث، وذلك مع المرحلة الأولى من المراحل التى مرت بها أطوار الدولة المقبلة.

وقد تمثلت المرحلة الأولى فى تكوين تلك الدولة فى ظهور **سلطتها**. كسلطة نبوية، فى مكة، بنداء النبي ﷺ لعشيرته، بما بين يديه من **سلطة نبوية** (إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد)، تلك السلطة التى استندت إلى **أساسين أولين هما**: السلطة النبوية المستمدة من الأساس الثانى والأعظم، وهى **سلطة الله** الأوحد العليا، الراعى الأقدر للدولة القادمة.

وبالفعل تتجاوز الدعوة الطالعة لمؤسسة الدولة المقبلة، التعدد العشائرى نحو توحد عربى جامع، وذلك بنزوع مبكر، نحو دولة غير اعتيادية، فسوف تكون امبراطورية تسد الفراغ السياسي العالمي، وتقضى على ما تبقى من تفريخات منهارة للامبراطوريات القديمة المتصارعة لصالح التطور الأممي الجديد، وهو ما تأتينا نبوءته الصادقة يتردد صداها فى جنبات جزيرة العرب بلسان النبي الأمين:

اتبعونى أجعلكم أنساباً

والذى نفسى بيده

لتملكن كنوز كسرى وقيصر.

وهو المعنى الذى كان يحمل فى طياته غرض كسب ولاء جماعة تضامنية، تشكل الأساس الثالث للدولة، جماعة تشكل نواة تأسيسية للأمة المقبلة.

ظهور الإسلام

كنا نقول حتى الآن: من الطبيعى ومن الحتمى، ومن الضرورى، فالأمر حسب قوانين التاريخ، لابد أن تؤدى مقدماته إلى نتائجه، متى توافرت الشروط، لكن هنا قد يجوز القول لقائل: ومن الغريب أن ينهض بإتمام التطور إلى نهاية نضجه، لصالح الطبقة التجارية، فرد مكى قرشيّ، هو نبى الإسلام ﷺ محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم. ووجه الغرابة أنه نشأ يتيماً فقيراً كادحاً، ينتمي إلى فرع هاشم، بل إلى الغصن الأفقر فيه، غصن عبدالمطلب وأبى طالب. وأنه لضرورات وظروف نشأته، بدأ حياته العملية من أجل الرزق، وهو لم يتجاوز بعد صباه المبكر، فاشتغل وهو أقرب إلى الطفولة برعى غنم أهله، ورعى غنم أهل مكة، الذين يرفلون فى ثراء النعمة، ثم- مع تجاوز الصبا إلى الرجولة- اشتغل بالتجارة لحساب الأثرياء، وهو ما يصلنا خبره فى رحيله إلى الشام، بتجارة لإحدى شريفات قريش (خديجة بنت خويلد الأسدى).

ومثل ذلك الانتماء كان كفيلاً بجعل أمر قيامه بدفع الأمر نحو غايته ونضوجه لصالح الطبقة التاجرة، أمراً غريباً لأول استطلاع، لكنه **يعود طبيعياً تماماً،** إذا ما تذكرنا أن النبي ﷺ، **كان من مكة، ومن قريش تحديداً،** دون سائر قبائل بلاد العرب. وإذا وضعنا بحسباننا **الظرف الذى كان يدفع الحراك نحو غايته،** تلك الغاية التى لم تعطلها دعوة النبى بل دفعتها حثيثاً نحو نتائجها المنطقية، مع اعتبار الخبرة النبوية فى الطفولة والصبا بالشظف والإملاق، فى وسط طبقى هائل التفاوت، ثم خبرة أخرى بحياة الدعة والطمأنينة بعد الزواج من أم المؤمنين، السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، وكانت إحدى نساء قريش الثريات

المعدودات. **وهو الزواج الذى كان عاملاً ضمن عوامل، لانتقاله إلى انتماء جديد،** لكنه انتماء خبر القديم، وأحس به حرماناً واستضعافاً وهواناً لا ينسى. فكان الدفع نحو **إلغاء تلك القسمة المجتمعة بداية،** والتى بدأت تحنفاً وتقشفاً وتعبداً فى حراء، رغم النعمة. على طريقة طائفة الحنفاء الذين انتشروا فى الجزيرة العربية، وفى مكة خاصة، فى العصر الجاهلى الأخير، يدعون إلى **التوحد** وإلى **التوحيد** وإلى المساواة وإلى العدل الاجتماعى[٢٣]، ويعتقد (حسين مروة) أن النبى ﷺ، لم يكن حنيفاً بالتأثير أو لمجرد التمّاس مع ذلك الفريق أو مع بعضهم. بل يذهب إلى احتسابه واحداً من جماعتهم، وقد اعتمد (مروة) فى مذهبه هذا على تأكيد آيات القرآن الكريم لهذا المعنى، وضرب منها أمثلة من قبيل:

- ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ **حَنِيفًا** وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦١/ الأنعام).

- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾(١٢٥/ النساء)[٢٤].

أما المنهج الأمثل الذى كانت تطلبه الأحناف لتحقيق التوحد ووحدة الأعراب وقبائلها، فهو التوحيد الربوبي، والدعوة بدعوة الإله الواحد، والسبيل إلى تحقيق ذلك، فيما ذهبوا إليه، سبق وقرأناه بلسان الحنفاء وهم يطلبون وسيطاً سماويا أرضياً، يطلبون نبيا(؟!)[٢٥].

ولابد للوحدة السياسية من توحيد علوي يتمثل فى سلطة إلهية واحدة موحدة عبر نبى عربي.

---

(٢٣) حول ظاهرة التحنف والحنفاء، انظر: سيد القمني، الحزب الهاشمي، سبق ذكره، ص٥٧: ٧٤.

(٢٤) د. حسين مروة: سبق ذكره، ج١، ص٣٣١، ٣٣٢.

(٢٥) الشهرستانى: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلانى، نشر البابى الحلبي، ١٩٦١، القاهرة، ج١، ص٢٣١.

وهو الواقع الذى وعى قراءته مبكراً ابن خلدون، عندما عرض فى مقدمته لمسألة الوحدة السياسية للعرب فى مملكة موحدة، وأكد أن الملك لا يحصل لهم إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، وذلك فى تقريره عن العرب:

> أنهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة، والمنافسة فى الرئاسة. فقلّما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان **الدين بالنبوة** أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة، الوازع عن التحاسد والتنافس(٢٦).

أما الأكثر دلالة، ويضاف إلى مجموعة الإفادات السابقة، فى رصيد الإجابة عن السؤال المطروح المستغرب، هو أنه رغم عدم إفادة المصادر الإسلامية بوضع رجال الدين فى مكة، فإن تلك **السدانة** جاءت بدورها غير واضحة كما لو كان الغموض مقصوداً بكتبنا الإخبارية. ولم يبن بتلك الكتب ما إذا كانت السدانة طبقة بالمعنى المفهوم عن رجال الدين؟، وإن كان ما يفسر ذلك الغموض هو ارتباط الدين بالتجارة، مما جعل قريشاً تحوز جميعها قداسة رجال الدين بالنسبة لسائر أعراب شبه الجزيرة، وإن وجدنا وسط تلك الضبابية، مجتهداً معاصراً، يعلمنا أن ذلك **المنصب الدينى كان متوارثاً فى البيت الهاشمى تحديداً.** ثم من بعده فى البيت المطلبى بالذات، وهو ما يصرح به (أحمد عباس صالح) فى قوله:

> . . . وتستمد من هذه السدانة سلطة على سائر أهل **قريش**، وإن كنا نعلم أن النبى ﷺ، **من سلالة هؤلاء السدنة** من قريش(٢٧).

---

(٢٦) ابن خلدون: المقدمة، طبعة دار الشعب، د.ت، القاهرة، ص١٣٦.

(٢٧) أحمد عباس صالح: الصراع.. سبق ذكره، ص٢٦.

وهو الخبر الذى يفسر لنا سر السيادة فى الفرع المطلبى، وشرفه الرئاسى العظيم، رغم رقة حاله المادى. كما يفسر لنا كثيراً من توجهات هاشم من قبله، عندما ترك ولده عبدالمطلب (شيبة ابن هاشم) ينمو ويربو ويرضع الفروسية بين أخواله اليثاربة، **وحيث كان التاريخ الدينى يتواتر هناك فى مقدسات اليهود،** مما يلقى ضواءاً على توجهات عبدالمطلب فى الشئون الدينية، وما دعا إليه إبان حياته بشأن الإله الأوحد وبشأن الملة الإبراهيمية الإسماعيلية، وحديثه المسجوع كسجع كهان عرب الجزيرة المشهور، ونبوءاته التى أثبتت الأيام صدقها[٢٨].

وإعمالاً لكل ذلك، وتأسيساً على انقسام الجزيرة إلى وحدات، يصر الملأ على استدامتها قبلياً وربوبياً، ووقوف ذلك عائقاً دون تحقيق التطور لغايته. جاء الحضور التوحيدى فى الإسلام متحققاً على المستويين: المستوى المادى بسعيه لوحدة مؤسسية جامعة، فى دولة مركزية، وعلى مستوى الوعى بنهوضه على فكرة واعتقاد فى مبدأ أيديولوجى يضع النظرية لمؤسسة الدولة المقبلة.

وهنا يجب ألا يفوتنا انتماء النبي العشائري إلى البيت الهاشمى، وهو ما دعاه إلى دعوة ذلك البيت من البدء إلى الوقوف مع الدعوة ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (٢١٤/ الشعراء). لكنه تجاوز الخلافات بين البيتين الهاشمى والأموى، بتوسيع دائرة الدعوة بين البيتين، لكن تفصيلات الموقف، وما لحقه بعد ذلك من أحداث، فرضت انعطافات كثيرة على طريق الدعوة، فقد نفر منه الأمويون، واعتبروا دعوة الإسلام العظمى، خطوة أخرى من خطوات التكتيك الهاشمى. مما استدعى تحركاً آخر من قبل بني هاشم، بنزوع عشائرى متماسك خلف ولدهم حماية له ووقاء، بفروض المنظومة القبلية

---

(٢٨) بشأن عبدالمطلب وعقيدته انظر: سيد القمنى، الحزب الهاشمى، سبق ذكره، ص٤٥: ٥٤.

وتحزبها. وربما مع وعى يقف فى صف المنظومة الوحدوية التى يدعو إليها، لكن دون الارتقاء إلى البنية العليا. وهو ما اتضح فى رفضهم للجانب الفكرى الدينى فى منظومته، أما الأمويون الذين تصوروا الإسلام الجليل صراعاً قبلياً، فقد لجأوا إلى محاولة رشوة النبى بالمال، ثم إلى محاولة ساذجة، تهدف إلى كشف مقاصد النبي الكريم ودوافعه، التى تصورت لهم رغبة فى الملك الهاشمى عليهم، فنصبوا له الفخاخ بدعوته إلى التملك عليهم. وهى الرشوة والخطة المكشوفة التى ما كان لها رد أبلغ من قول النبي ﷺ:

« والله، لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه، ما تركته».

وهكذا بدا واضحاً أن الملأ لم يعوا المقاصد الكبرى للدعوة، ودورهم الممكن فيها، إزاء رؤية قاصرة، تقف عند حدود المصالح الآنية الأنانية المرحلية. ولم يتجاوزوا المنافع الضيقة لنفر معدود، التى تحققها التعددية الربوبية القبلية، ولم تتسع رؤيتهم لتستطلع الاتجاه التاريخى لمسار حركة التطور العام للحراك الاجتماعى العربى. ولم تع إطلاقاً أن ذلك الحراك هو تطور على درجة أعلى لمستقبلها كطبقة، تشكل نواة لشريحة كبرى، يمكنها أن تلعب دوراً كبيراً فى الفرز المرتقب للتشكيل التاريخى.

نعم لم يدرك الملأ أنهم الطبقة المؤهلة لقيادة الدولة، وأن قريشاً هى الفريق المؤهل لرئاسة حركة كبرى- وهو ما سيحدث بالفعل بعد ذلك- ولم يدركوا أن مصلحة الطبقة جميعاً على المستوى البعيد، مع التوحد فى دولة مركزية، تكون نواتها وعاصمتها مكة. تحت راية إله واحد فرد، يشكل الوحدة الجامعة الأيديولوجية، وتحت زعامة نبي عربى واحد موحد. لكن ذلك لا ينفى إدراك بعض عقلاء القوم- بوعيهم النافذ وحنكتهم وحكمتهم ودربتهم- للأمر العظيم، وهو ما يمثله موقف أكثر رجال الملأ حكمة وجلالاً

(عتبة بن ربيعة). ذلك العجوز الخبير الداهية، بعد أن التقى بالنبى ﷺ وأدرك الأهداف الكبرى للدعوة.

وضاع كلام عتبة، وسط ضجيج الحمية للمصالح الأنانية الضيقة، وتراكم خطأ حسابات الملأ، مما دفع إلى خطوات أخرى، ومتغيرات أخرى، وبالتدقيق، يمكن قراءة دوافع ذلك الخطأ الأساسى وكشفه، والذى يكمن برأينا، فى مجاهرة النبى بضرب المصالح الآنية الأنانية لأطماع الملأ التى لا تتوقف، بدءاً بضرب التعدد الربوبى القبلى. بهدف التوحيد الآتى، وإعلانه كفران قريش، وسلبها لقب (أهل الله)، ومخاطبته إياها بالقول: ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون﴾ (١, ٢/ الكافرون)، ثم تسفيهه لمعتقداتها وعقائد العربان. الذين هم أشد كفراً، باتباعهم أرباباً وأسماء سموها ما أنزل الله بها من سلطان.

ثم ما كان أكثر نكاية للملأ، برفض الدعوة لقواعد التجارة السارية، بعد أن خبر النبي فى تجاربه السابقة وتجارته، ما تؤدى إليه هذه القواعد من تعطيل وتجميد للحركة التجارية، عند حدود المكاسب الأكثر عائدية للأرستقراطية المكية وحدها. فقام يهاجم كنز الذهب والفضة وتعطيلهما عن أداء دورهما فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وتنديده بلا هوادة بالربا والمرابين لدورهما فى سحق صغار التجار، بغرض تركيز الثروة بيد فئة لا تؤدى للمجتمع خدمات منوطة بوضعها السيادى. ثم ما يؤدى إليه الربا فى النهاية من استرقاق المدين، وهو ما يلقى بأيد مسحوقة لعمل غير مأجور. وكان لابد أن يسفر الأمر عن جفوة فعداء جهير، أدى بالنبي ﷺ إلى وجهة أخرى مرحلية، على خطوات الطريق الاستراتيجي الطويل، تحول بموجبها نحو المستضعفين والمعدمين والعبيد، يدعوهم إلى النسب، وامتلاك كنوز كسرى وقيصر، التى تتضاءل أمامها كنوز الملأ، وإلى الشرف والكرامة، لتشكيل نواة أولى لأمة جديدة واحدة من دون الناس **وهم دوما مادة الحروب لمصالح الطبقات المسيطرة ومادة الانتقال الثورى لمصالح طبقة غيرهم** .

وتبع تلك الخطوة متتابعات سريعة، فتم تكثيف الهجوم المباشر على الأثرياء، وتوعدهم بسوء المآل، حتى أسفر الهجوم أحياناً **عن ذم الثروة فى ذاتها**، مع وعيد وإنذار بعذاب مقيم، لمن يمارسون قواعد تجارية يجب تجاوزها، ومن أجل سيولة ونضوج أفضل، يسمحان بإشراك المجتمع كله فى الحركة الاقتصادية. فكان الهجوم على آكلى أموال اليتامى والمساكين، وعلى احتكار مواد المعيشة الأساسية، واستغلال الأرستقراطية لحاجة الناس من أجل ربح أقصى، فسفّه أمر من جمع المال وعدّده متصوراً أن ماله أخلده، غير عالم أن خلوده سيكون بالنبذ فى الحطمة، نار الله الموقدة، مع النذير للمطففين الذين ما أغنى عنهم مالهم وما كسبوا.

وعلى الجانب الآخر، كانت **البشرى للمستضعفين**، بأنهم بانضوائهم فى **الأمة الجديدة**، سيحلون محل الملأ، وذلك باعتصامهم جميعاً بحبل الله، وهو ما سيجعل هناك فرقاً بيناً بين تكوينهم المجتمعى، وتكوين الذين تفرقوا واختلفوا قبائل وعشائر شذراً مذراً بعد ما جاءتهم البينات. وهو ما سيترتب عليه حتماً تنازع هؤلاء وفشلهم وذهاب ريحهم، ومن ثم كان إعلان الوحى بالنتيجة المحتمة، والخطط المعدة للدولة الواحدة، فى قوله:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى **الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا** فِي الأَرْضِ **وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ** الْوَارِثِينَ﴾ (٥/ القصص).

فالمستضعفون، هم من سيشكلون مادة الأمة الطالعة، وهم من سيكونون الأئمة والقادة، وهم من سيرثون سيادة الملأ وحكومته، والسبيل أمة جديدة، تقوم على مبدأ جديد، واحد لا يفرق يجمع أصحاب المصلحة فى التغيير فى مصهر واحد، عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها:

﴿... أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (١٣/ الشورى).

ومع ذلك المنحى المرحلى - وإن كان أساساً جوهرياً فى أسس الدولة - تفتحت الآمال أمام المستضعفين، فبدأوا يتذارفون فرادى إليها، دون قبائلهم وعشائرهم، مما جعل دخول كل منهم فى المنظومة الجديدة، وتركه ولاءه القبلى، سهما يطلق على جسم النظام القبلى. وكان تحول العبد عن سيده إلى جماعة المسلمين، يعنى شراءه من قبل المسلمين لصالح الجماعة وإعتاقه ومنحه حريته. وهى الصورة التى اجتذبت أفئدة العبيد إلى جماعة لا تفرق فى تشكيلها بين سيد وعبد، ولا ابن قبيلة وأخرى، إلا بمدى طاعته لقواعد الجماعة، التى قررها الوحى. **فكان الإضعاف الإسلامى فى تلك المرحلة للقبيلة، بإحلاله الولاء لجماعة الإسلام محل أى ولاء آخر**، وهو ما تم تدعيمه بالانتماء الفردى فى علاقة المسلم بالنبي وبالله، وهو ما ساعد على مزيد من انهيار الولاء للقبيلة، ودعا إليه الوحى بقوله:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ **وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ** مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣/ التوبة).

وكان القرار بأن الدولة ستقوم على نظام اجتماعى جديد، يميزها كأمة أخرى تماماً دون بقية الأعراب، هو ما أفصحت عنه أبلغ إفصاح، الصحيفة التى عقدت بعد ذلك بسنوات، بعد الهجرة إلى يثرب، والتى قررت أول مبدأ للأمة الموحدة، معبرة عن التجمع الحضرى الكيفى، المتجاوز للتجمع القبلي الكمي، فى نص مضيىء فى مبتداها يقول:

هذا كتاب من محمد النبى، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم وجاهد معهم، **إنهم أمة واحدة من دون الناس**[٢٩].

(٢٩) السهيلي: السيرة النبوية بشرح السهيلي فى كتاب (الروض الأنفي. . .) سبف ذكره، مج٢، ص٢٤١.

يثرب قبل الهجرة

خرجت قريش إذن- بعدائها للدعوة- عن قواعدها التى سنها الملأ، وقعّدها الأسلاف منذ (قصىّ)، فى حرية الاعتقاد، التى كانت تكفل سيولة الحركة التجارية، وتضمن اكتظاظ الأسواق بالرواد على مختلف الملل، ومن ثم أفصحوا عن رفض مبرم للدعوة الجديدة ولصاحبها، **واحتسبوها- عن غفلة- حلقة فى تكتيك البيت الهاشمى، لصالح إمساكه بعنان السلطة وإلغاء سلطة الملأ، مما أدى بصاحب الدعوة إلى يأس مطبق من إفهام تلك الرؤوس المكية الصلبة. ولم يبق سوى البحث عن مكان آخر بعيداً عن مكة.**

ولما كانت الأرض قد مهدت سلفاً، ببرمجة هاشم فى تحالفه مع أهل الحرب والدم والحلقة فى (يثرب)، وزواجه من البيت الخزرجى، وما تبعه فيه عبدالمطلب بن هاشم بزواج آخر يصادق على الحلف، فقد كانت الخئولة اليثربية، مدعاة للمراهنة على نواة أخرى للدولة المقبلة خارج مكة فى (يثرب)، المدينة المنافسة الحقيقية لمكة.

ومعلوم أن علاقة مكة بيثرب كانت علاقة تنافسية، لكن مع اختلاف عميق بين كليهما فى التشكيل الاقتصادى والاجتماعى، فبينما كانت التجارة هى عصب الاقتصاد المكي. فإن أعمدة الاقتصاد اليثربي قد أضافت إلى عماد التجارة، زراعة الكروم والحبوب، وكانت حبوب يثرب غذاء استراتيجياً لأهل مكة، هذا مع نشوء الشكل الحرفى حيث تعاظمت **صناعة السلاح** إلى حد كبير، وحققت اكتفاءها الذاتى، مع فائض جيد للتصدير، من سيوف ودروع وجحف ورماح وسهام، ولباس حرب من خوذ للرأس لا تظهر غير عينى المحارب، ودروع ذات سمات رومانية تغطى الجسد كله.

أما الشكل المجتمعى. فرغم أنه كان أميل إلى الاستقرار كنتيجة مباشرة لحرفة الزراعة، فإنه كان أقرب إلى القبلية المضطربة، نتيجة التكوين الهجين لعناصر ذلك المجتمع، لوجود عنصر غير أصيل العروبة والاعتقاد. مثلته ثلاث قبائل يهودية كبرى، هى قينقاع والنضير

وقريظة، بينما مثل العنصر العربى، قبائل نازحه من اليمن، هى قبائل الأوس والخزرج. الذين حلوا على يهود يثرب، ولم يجد اليهود فى وجودهم غضاضة، بل على العكس، وجدوا فيهم تنشيطاً للاقتصاد اليثربى، وكأى تاجر سلاح، كان لابد من دسائس، تؤدى إلى صراعات تورث الضغائن والثارات، بين الأوس والخزرج، لمزيد من التنشيط الاقتصادى.

وقد أدى ذلك الوضع بيثرب قبل الهجرة، إلى صراعات قبلية كادت تمزقها، مما جعلها فراغاً من السلطة السياسية، مقارنة بالملأ المكي، وهو ما كان يزيد فى ترجيح كفة اليهود الأثرياء. أما العداء بين يثرب ومكة، وخاصة بين عرب يثرب وعرب مكة، فقد تأصل بفعل **غياب دور يثرب فى مصالح مكة.** فرغم وقوع يثرب على طريق الإيلاف الشامى، فإن حكومة الملأ القرشى لم تسع إلى عقد أى لون من التحالف المصلحي، الذى يمكن أن يعود على عرب يثرب بفائدة، **اعتماداً على التمزق الداخلي ليثرب،** الذى كان كفيلاً بشغلها عن مكة وتجارتها. بل وساهمت حكومة الملأ القرشية فى **إضرام جذوة النار بين الأوس والخزرج،** فوقفت إلى جوار الأوس يومى معبس ومضرس[٣٠]، حتى أوشكت عرب يثرب على انهيار تام، بحيث أسقطتها قريش، وخاصة كبار تجارها الأمويين، من معادلتها التجارية. هذا ناهيك عن العداء على المستوى النفسي، والذى كان سببه **حرفة الزراعة،** التى كان المكي يعيبها ويحتقرها، ويعتبرها مطعناً فى الرجولة، والرد النفسى الطبيعى على ذلك، من كراهية يثربية، لتلك النزعة المتعالية من عرب مكة، وهو الحال الذى تصوره بليغاً، قولة (أبى الحكم عمرو بن هشام أبو جهل)، ولوعته وعظيم أسفه، عندما شارك اليثاربة فى قتله، فى وقعة بدر الكبرى: «لو غير أكار قتلنى؟!»[٣١]. والأكار هو الزارع.

---

(٣٠) البلاذري: أنساب.. سبق ذكره، ص٦، ٧.

(٣١) الحلبي: السيرة.. سبق ذكره، مج٢، ص٤١٩.

ومن هنا كان التحالف بالمصاهرة بين الخزرج والهاشميين، ثم **استقبال الخزرج لابن أختهم الهاشمى وصحبه، رداً لجرح تؤججه ذكرى معبس ومضرس، واستشفاءً نفسياً، واستجلاباً لوضع أهملته قريش، وأسقطته من حسابات الإيلاف، واستشرافاً لوعد نبوى، استقبله الوعى اليثربى النفاذ، بوحدة تلم الشمل، لتقف يثرب كمنافس له شأن أمام الملأ المكي، وربما كعاصمة لدولة كبرى مع مداولة الأيام.**

ومن جانب آخر، أدت حرفة الزراعة إلى سمة ميزت يثرب، فقد كانت دوماً فى حالة حذر من القبائل الضاربة حولها، خوفاً على المحصول من السلب. ومن هنا كان الإكثار من إقامة الحصون والآطام والصياصى فى كافة نواحيها، وما تبع ذلك بالضرورة من طبع أهل يثرب بالخبرة الحربية والجلد، وهو ما تمرس عليه أهلها لكثرة ما جرى بينهم من حروب داخلية، أو حروب مع جيرانهم، فكانوا بالمقارنة مع أهل مكة أفذاذ حرب وأهل عدة وسلاح، حتى عرفهم التاريخ بأهل الحرب والدم والحلقة. بينما كانت مكة قد استنامت إلى أمنها، واطمأنت بإيلافها، وترهلت بترفها، فى وقت أصبحت فيه يثرب دار سلاح ومنعة، مما جعل اليثاربة رجال بأس يعتدون بأنفسهم إلى حد عدم المبالاة التام بعداوة من يعاديهم، وأمسوا مرهوبى الجانب. ويكفى كى نعرف مدى اهتمام يثرب بالسلاح، أن نقرأ قائمة الأسلحة التى غنمها المسلمون بعد زمان من بني قريظة، وهم بطن يثربية يهودية لم تكن أقوى البطون، فكانت مخلفاتهم ألفا وخمسمائة سيف من نوع سيوف داود المشهورة بقوتها وصرامتها، وألفى رمح من رماح يثرب التى رددت عنها أشعار العرب الكثير، وألف وخمسمائة ترس وجحفة، وثلاثمائة درع ملبّس، أما القسى والسهام فقل فى عددها ما تشاء[٣٢]، وإذا أضفنا إلى ذلك كله ما توفر ليثرب من ماء وغذاء

(٣٢) د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربى، ط٢، القاهرة، ص٣٥٠.

إلى حد الاكتفاء الذاتى، أدركنا ما تملكه يثرب من ممكنات الصمود الحربى، وهى كلها اعتبارات لاشك كانت معلومة لصاحب الدعوة، أما قيمتها الكبرى فكانت تتمثل فى **وقوعها على عصب طريق** الإيلاف الشامى.

المستوى الفكري

أما على المستوي الفكري، فكان واضحاً أن يثرب فى اختلاف كبير عن مكة، حيث أدت عوامل عدة، إلى تكون الفكر اليثربى بألوان جد مخالفة للفكر المكى. فبينما كان الفكر المكى قد تجاوز مجموعة العقائد القديمة **على** مستوى جدية الاعتقاد وصدق الإيمان، وتحولت العقائد عنده إلى أداة يمكن تخديمها لصالح المكاسب التجارية، وتحولت قصص السالفين من أبطال وأنبياء، إلى أساطير الأولين. فإن وجود اليهود فى يثرب، مع كتابهم المقدس، وحكاياتهم عن قدامى أنبيائهم، وسلوكهم وفق شرائع محددة وضعها أولئك الأنبياء، **وضع التاريخ الدينى، والنبوي منه تحديداً،** موضع احترام بين عرب يثرب، ناهيك عن النبوءة التوراتية المتواترة، عن **مجيء نبي آخر الزمان، ليقيم لليهود دولتهم الغابرة،** التى سقطت وانتهى أمر يهودها بالشتات من فلسطين عام ٧٠م على يد الرومان. وهو ما وجد فيه اليثاربة العرب عند ظهور الدعوة الإسلامية إنباءً بالنبي ﷺ كان مخبوءاً فى رحم التوراة القديم، لكن مع تحليل جديد، فى ضوء المعنى الأمى الذى خرج بالنبوة عن دائرة بني إسرائيل الضيقة، وعن العنصرية اليهودية المتزمتة، إلى آفاق رحبة، تستوعب فكرة عدم عنصرة النبوة وتجنيسها، وخروجها عن اليهود إلى الأمم، فكان الرسول أمياً، من الأمم، غير يهودي، عربى، زعيماً للعرب، ومؤسساً لديانة عالمية، وليس حكراً علىَ بنى إسرائيل، ودولتها الغابرة، أو المقبلة فى حلمها التوراتى.

ثم كان التوحيد التوراتى، مدعاة لاختلال عرب يثرب بالوثنية، مما هيأهم لقبول فكرة التوحيد، والإقبال عليها عندما جاءت عربية، يدعو إليها نبي عربى، يفاخرون به اليهود الذين طالما تفاخروا عليهم بتاريخهم النبوي، وكتابهم المقدس، هذا فضلاً عن تواضع النضوج الاقتصادي والاجتماعي فى يثرب، مقارناً بما حدث فى مكة. فبينما أصبحت

الأفكار الدينية فى مكة وسيلة لمزيد من الارتزاق، فإن العكس كان عند عرب يثرب، حيث كانت الحرمات التى فرضها السلوك اليهودى، تمهيداً طيباً لقبول عقيدة إيمانية توحيدية، ليس فقط لتحقيق أهداف بعينها، بل بنفوس تأثرت بالتراث الدينى التوراتى حولها. مما جعلها أكثر قبولاً لتصديق الدعوة وتقديس الإيمان، هذا إضافة إلى الثراء الفكري، الذى صاحب ذلك المناخ، وسببته متاخمة يثرب للمناطق الحضارية العريقة فى الشمال، على حدود الامبراطوريتين الفارسية والرومانية.

الهجـــرة

وإعمالاً لكل تلك الظروف، يمكننا أن نقرأ ببعض الوعى، لقاء العقبة الأول والثاني بين رسول الله ﷺ وبين نقباء يثرب، لنرى فيه وثيقة ميلاد الدولة وهى تدون فى التاريخ. باتفاق بين أخوال النبي اليثاربة، وبين **النبي الأمين**، والتى ظهرت فى البدء كما لو كانت مجرد اتفاق دفاعى عن شخص النبي، حيث كان النبى فى مكة ممتنعاً ببيته الهاشمى ممن عاداه وخالفه، وكان معنى الاتفاق على الهجرة إلى الأخوال، هو الانتقال إلى حمى جديد، يرفع الضغط عن الأعمام، فى شكل يظهر كلون من الحماية، وكان للأحداث دلالتها الصادقة، التى تنطق بمدلولاتها فى ذهاب (العباس بن عبد المطلب) عم النبي، وهو بعد على دين قومه، مع ابن أخيه، للقاء اليثاربة سراً فى العقبة الثانية، وهو لم يذهب- فيما يقول (الطبرى)- «إلا لأنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له».

لكن الواضح بما لا يقبل جدلاً، أن فكرة الحرب والنية عليها، كانت قائمة ومبيتة فى ذلك التحالف، وقد وعاها الأنصار جيداً.

والواضح إذن أن اللقاء التأسيسى **كان حلفاً محارباً وليس حلفاً دفاعياً** عن النبي، وأن الحرب كانت هى القائمة، وكانت هى البند الأساسى، من أجل الهدف الأعظم، قيام الدولة الكبرى.

وبالفعل تمت الهجرة إلى يثرب، ولم يجد العنصر اليهودى فى يثرب أية مشكلة فى استضافة الخزرج لابن أختهم وصحبه، واحتضانهم لدعوته، تأسيساً على موقف عملي

تكسبّى، أدى إليه نجاحهم السابق فى احتواء الهجرة اليمنية (الأوس والخزرج)، وتوظيفها لصالح مزيد من المكاسب، وترويجاً لصناعتهم الحربية، وضعف المهاجرين الظاهر الذى لا يشكل أى خطر. وهى عوامل دعت للاطمئنان، وإمكان احتواء هذا الوافد الجديد، وهو الموقف الذى دفعت إليه وأذكته الآيات الكريمة التى سبقت الهجرة فى الوصول إلى يثرب، تتحدث عن مكان بني إسرائيل فى التاريخ السياسى للمنطقة (مملكة داود وسليمان)، ومكانتهم فى التاريخ الدينى (مجموعة الأنبياء من نوح إلى إبراهيم وإسحق ويوسف وموسى. . . إلخ)، بصياغة تكريمية عظيمة، تقدم احتراماً واضحاً أيضاً للتوراة اليهودية، كما فى قولها:

-﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (٤٤/ المائدة).

-﴿ . . . إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ (٦/ الصف).

هذا مع الاحترام حتى للتفاصيل التوراتية الصغيرة، وأخذها بالاعتبار، والإشارة إليها فى الآيات، كتابوت الإله اليهودى (يهوه)، وكتابة الله لألواح موسى. . إلخ، ثم الموقف العملى للنبى عند وصوله يثرب، حيث استقبل قبلة اليهود فى الصلاة، بل وصام الغفران، ثم عقد الصحيفة مع اليهود، للتعاون والأمن والدفاع المشترك مع كفالة حرية الاعتقاد التامة، مع إعلان عن عدم التناقض الاعتقادى، وهو ما تنطق به آيات كثيرة منها:

- ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ (٩١/ البقرة).

- ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ (١٣٩/ البقرة).

وكان ذلك بالنسبة ليهود يثرب، لوناً من ممكنات مستقبلية، تحول مركز الجزيرة وقلبها عن مكة إلى يثرب، وما سيعود نتيجة ذلك من منافع عظيمة، ومكاسب مادية جمة.

لكن الغنى عن الذكر هنا، أن يهود يثرب وهم يهيئون أنفسهم للكسب، اكتشفوا- خاصة بعد بدر الكبرى- خطأ حساباتهم القاتل، حيث تحدد الموقف تماماً بعدما كسبه

المسلمون فى بدر من قوة مادية ومعنوية، لم تجعلهم فى حاجة إلى مثل ذلك التحالف النفعى، حيث أثبت التجار المهاجرون حذقاً وحنكة بحكم الدربة والخبرة. مما جعلهم منافسين أقوياء ليهود يثرب، وقد دعم ذلك النجاح التجارى، ما لحق بأساليب الملأ المكى، من احتكار للسلع، والمغالاة فى الكسب، مع الكسب الربوي الذى بات محرماً فى قوانين الدولة الجديدة.

وهنا تأتى **المرحلة الثالثة** من مراحل تكون الدولة الإسلامية، بعد المرحلتين: **الأولى بظهور السلطة النبوية فى مكة، والثانية** المتمثلة فى **بيعة العقبة** الثانية، أما **الثالثة** فهى الواقعة بمجمل أحداثها ما بين **الهجرة إلى المدينة وبين غزوة بدر الكبرى،** كما ستبينها الأحداث التالية.

وفى بداية المرحلة الثالثة من مراحل تأسيس الدولة، وحتى يصبح ممكناً حل إشكاليات الفرقة القبلية بين الأوس والخزرج، قام النبي ﷺ بتأمين الحد الأدنى من التآلف الداخلى، بمصالحة الأوس والخزرج، ثم مؤاخاة المهاجرين والأنصار. أما على المستوى الإيمانى فقد صارت الأخوة الإسلامية ضرباً للفرقة التى سببتها العصبية القبلية، بحيث صار خارجاً على جماعة المؤمنين من فضل أخيه فى القبيلة والعشيرة، على أخيه فى الإسلام، وهو ما نشهد له نماذج بالغة القوة، ربما كان أبلغها من أضاء تحت غبار وقعة بدر الكبرى، فبينما كانت قريش تخشى إراقة دم أحد من أبناء العم أو الخال من المهاجرين، كان المسلمون يحاربون غير هيابين ولا مبالين فى هذا السبيل بأحد من الأقارب. وهو ما عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ (٦٣/ الأنفال).

ويحكى ابن هشام فى سيرته «أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى من بدر، فرقهم بين أصحابه... وكان أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير فى الأسارى، فقال أبو

عزيز : مَرَّ بى أخى مصعب بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرنى، فقال شد يدك به، فإن أمه ذات متاع ولعلها تفتديه منك. . . فقال له أبو عزيز : يا أخى هذه وصاتك بى؟! فقال مصعب : إنه أخى دونك»(٣٣).

أما المدى الذى بلغه أمر تلك الأممية والأخوة الدينية، فيظهر واضحاً فى رد (أبى حذيفة بن عتبة) على النبي ﷺ وهو يوصى قبل معركة بدر مباشرة : «من لقى منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله. . . ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله»، فكان رد (أبى حذيفة) الذى لا يستثنى من الأممية أحداً «أنقتل آباءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألحمنه السيف»(٣٤).

والأمثلة كثير، سردها إطالة لا حاجة لها، لكن الدرس المأخوذ هنا، هو أنه بينما كانت مكة تتفكك قبلياً لصالح الشكل الطبقى، كانت يثرب تتوحد إيمانياً وطبقياً، وتذوب فى مستوى مادى متقارب، كناتج للتوزيع العادل للغنائم، لتشكل نواة الدولة المقبلة.

مكة والحصار

تمكن إذن النبي العربى ﷺ من تسكين أوضاع يثرب الداخلية، خاصة بعد إعطائه مركز الزعامة لسعد بن معاذ زعيم الأوس، حتى لا تحتسب عليه مظنة موالاة أخواله من الخزرج، بعد أن تمكن من تحييد زعيم الخزرج (عبدالله بن أبى بن سلول)، مما ربط الأوس بالدعوة وصاحبها، إضافة للارتباط القرابى للخزرج به، وبعد تحييد اليهود بالصحيفة، ومؤاخاة المهاجرين مع الأنصار، بدأ العد التنازلى للاجراء المقبل. وهو ما جاء فى قصة ترويها كتب السير والأخبار، عن هبوط كبير الأنصار (سعد بن معاذ) إلى مكة، فى رحلة تقول كتب السير إنها كانت - فقط - لأداء العمرة، حيث نزل ضيفاً على صديقه (أمية بن خلف)، أحد أشراف قريش وسادتها.

(٣٣) السهيلي : شرح السيرة. . سبق ذكره، مج٣، ص٥٤.
(٣٤) البيهقي : دلائل. . سبق ذكره، ج٣، ص١٤٠، ١٤١.

«فنزل سعد على أمية بمكة، وقال سعد لأمية: انظر لى ساعة خلوة، لعلى أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل: فقال يا أبا صفوان؛ من هذا معك؟ قال: هذا سعد، قال له أبو جهل ألا أراك تطوف بمكة آمناً، وقد آويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم؟ والله لولا أنك مع أبى صفوان، ما رجعت إلى أهلك سالماً. فقال له سعد- ورفع صوته عليه: - **أما والله لئن منعتنى هذا، لأمنعك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة**»[٣٥].

وهكذا كان الاختبار، وهكذا كان الرسوب، ورسب أحد كبار رجالات الملأ بجدارة، لأن تحريم أمن البيت وزواره، كان تأميناً لكل الملل والنحل، من أجل أمن التجارة وسيولتها **وتدفقها** مع زوار مكة، وكان تهديد أبى الحكم لسعد كبير عرب يثرب الجديد، إنما يعنى أن قريشاً قد بدأت **تفقد** أعصابها، ومع فقد الأعصاب تضيع المصالح، فقامت تهدد بموقف أبى الحكم وتهديده لسعد- مصالحها التجارية كبلد اقتصادى مفتوح - بيدها.

أما الأمر الذى لا يفوت على لبيب، فهو الإنذار المتضمن فى رد سعد لملأ مكة بما هو آت، من حصار اقتصادى يقطع عليها الطريق إلى الشام، ولعل تلك العمرة التى أداها (سعد بن معاذ)- **على الطريقة الوثنية، وطقوس الشرك**، والتى لم يكن الإسلام قد أقرها بعد، ولم يكن قد طهرها من أدران الجاهلية وأصنامها- لم تكن مجرد مصادفة، خاصة إذا ما تذكرنا أن قبلة المسلمين كانت آنذاك إلى بيت المقدس.

وهنا نستكشف الأساس الرابع من الأسس التى قامت عليها الدولة، بعد الأسس الثلاثة المتمثلة فى السلطة النبوية والسلطة السيادية الإلهية، وتكوين جماعة تضامنية أولى كنواة تأسيسة للدولة، ويظهر **الأساس الرابع** للدولة فى تحول الجماعة الإسلامية إلى جيش متكامل، أى تجييش مادة الدولة، وتحويلها من مستضعفين مهاجرين- إلى وحدة أو دولة

(٣٥) الحلبي: السيرة.. سبق ذكره، مج١، ص٣٧٨.

عسكرية مقاتلة. والآن، لا يجب أن نفاجأ عندما نجد يثرب ترسل سراياها لقطع طريق الإيلاف. هذا ما يجب تذكره من أمرين كانا بداية الضغط على الملأ المكي، الأول هو منع يثرب قمحها عن مكة، أما الثانى فهو موادعة قبائل الساحل القديمة حول ميناء (الجار) على البحر الأحمر ليثرب، والذى كان يعرف أنه ميناء يثرب على البحر، ومنه تم منع شحنات القمح الوارد من مصر إلى مكة. ولم يبق سوى طريق الإيلاف الشامى خالصاً لمكة، ومن ثم دهمت دوريات المسلمين هذا الطريق دون كلل، تتصدى للقوافل القادمة إلى مكة أو الآيبة منها. وهى الدوريات التى بدأت- محددة أهدافها- مبكراً، وقبل مضى سبعة أشهر على الهجرة، حيث خرجت أولى تلك الدوريات النشطة فى سرية بقيادة (حمزة بن عبدالمطلب)، لاعتراض عير لقريش، فى ثلاثين مهاجراً، لكن السرية فوجئت أن قريشاً كانت يقظة، فأردفت بقافلتها ثلاثمائة محارب بقيادة أبى الحكم نفسه، فتدخل (مجدى بن عمرو الجهنى) ليحجز بينهما وينهى الموقف، واكتفت حراسة القافلة بالانصراف إلى سبيلها، بعد أن أقنعت المهاجرين باقتدارها، وكثرة عددها وعدتها.

ولم يمض شهر على سرية (حمزة)، حتى خرجت سرية بقيادة (عبيدة بن الحارث بن المطلب) إلى (بطن رابغ) بمقاتلين من المهاجرين، فالتقوا بقافلة لقريش، يبدو أنها كانت بدورها فى حراسة جيدة، وهو ما يستنتج من عدم الاشتباك، واكتفاء السرية اليثربية برميها بالنبال عن بعد.

وبعدها بأيام خرجت سرية (سعد بن أبى وقاص) إلى الخرار، ليلحق بقافلة لقريش، ولم يتمكن من اللحوق بها، وكانت بدورها لا تحوى فى مقاتليها سوى رجال من المهاجرين.

ومن ثم خرج المصطفى ﷺ بنفسه غازياً على طريق الإيلاف، بقصد تفكيك الإيلاف والولاء القبلي لقريش، وهناك تمكن من سلخ إيلاف بني مدلج عن قريش، وأخذ عليهم عهود الموادعة بعهد مكتوب. ثم لم يلبث سوى عشر ليال حتى أغار النبى ﷺ يريد (كرز بن جابر الفهرى)، لكنه لم يدركه، وهى الغزوة المعروفة بغزوة (بدر الأولى)، لوقوعها

على طريق وادى سفوان قرب بدر . وفى صفر ، مع نهاية العام الأول للهجرة ، خرج ﷺ فى رجاله من المهاجرين إلى مواضع أخرى على طريق الإيلاف ، ليفكك عقود بني ضمرة بن بكر من كنانة عن قريش ، ويعقد معهم عقود الموادعة والتحالف بعهد مكتوب[٣٦] . وفى ربيع أول أرسل (عبيدة بن الحارث) على رأس سرية من المهاجرين حتى بلغت (ماء إحياء) للاستيلاء على قافلة لقريش ، لكن السرية عادت دون قتال ، بعدما وجدته من حراسة مشددة مع القافلة . ومع بداية العام الثانى للهجرة لأيام خلت منه ، غزا النبي ﷺ يريد عيراً لقريش فيها ألفان وخمسمائة بعير ، ولم يحدث هذه المرة أيضاً أى قتال . وحتى الآن كان واضحاً أن الأنصار كانوا مجرد مضيفين ، لا يخرجون إلى قتال أو قطع طريق[٣٧] .

ثم جاء أخطر إنذار تلقاه ملأ قريش ، عندما قامت سرية من تلك السرايا ، بضرب الإطار التحريمى للأشهر التجارية الحرام ، وهى سرية (عبدالله بن جحش) ، التى لقيت عيراً لقريش فى (نخلة) ، فقتلت (عمرو بن الحضرمى) أحد رجال القافلة ، وأسرت رجلين ، واستولت على القافلة ، وهو ما دفع قريشاً للجأر بالشكوى تصيح : إن محمداً وأصحابه قد استحلوا الأشهر الحرم وسفكوا فيها الدم وسلبوا الأموال وأسروا الرجال[٣٨] .

وهنا جاء رد الآيات الكريمة المفحم ، يحمل أكثر من دلالة ، حول مفهوم الأشهر الحرام ، وقيمة ذلك التحريم أساساً ، ومدى قناعة القوة اليثربية الطالعة بتلك القيمة ، وأخذها على مأخذ الجد من عدمه . خاصة بعد أن أكثر الناس الكلام عن استحلال أصحاب محمد للشهر الحرام ، ثم أن الرد حمل أيضاً تحديداً واضحاً لمن أصبح بيده الأمر ،

---

(٣٦) ابن حبيب : المحبر ، تحقيق د. إيلزة شتير ، دار الآفاق الجديدة ، د.ت ، بيروت ، ص١١٠ .

(٣٧) الطبري : التاريخ . . سبق ذكره ، ج٢ ، ص٤٠٢ : ٤٠٧ .

(٣٨) نفسه : ص٤١٠ : ٤١٣ ، انظر أيضاً : محمد أبو الفضل ومحمد البجاوي : أيام العرب فى الإسلام ، دار أحياء الكتب العربية ، ط٤ ، ١٩٦٨ ، بيروت ، ص٨ .

وبإمكانه التحليل والتحريم، ناهيك عن قيمة قريش ذاتها كراعية للأشهر الحرام، وصاحبة لقب (أهل الله)، وقيمة ذلك اللقب ومدى مصداقيته، لأن الرد كان:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ (٢١٧/ البقرة)

ولم يكن هناك رد على استصراخ قريش العربان لحرمة الأشهر الحرام، أبلغ من ذلك الرد، لتراجع موقفها، وتضع مصالحها وهيبتها ونظامها الاقتصادى والقانونى التحريمى فى الميزان. وهو الموقف الذى بدأت قريش تراجع حساباتها بشأنه، ويأتينا خبره بلسان (صفوان بن أمية) وهو يقول:

> إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا، فما ندرى ماذا نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوا محمداً ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسكن؟ وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا، فلم يكن لنا من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف، وإلى اليمن فى الشتاء(٤٣).

لكن الحال- على أية حال- شهد تلاحقاً فى الأحداث، تجاوز تلك المراجعة، حيث طُير الخبر إلى النبى ﷺ فى يثرب، بخبر قافلة لقريش فى طريقها إلى الشام بقيادة (أبى سفيان)، قوامها ٢٥٠٠ بعير، فيها بضائع يربو ثمنها على ٥٠٠٠٠ دينار، بدنانير ذلك الزمان، والقيمة الشرائية لنقد ذلك الزمان، ساهم فيها البيت الأموى الثرى، المعادى لبيت النبي الهاشمى، بأربعة أخماس القافلة(٤٤).

وكان ذلك الخبر مدعاة لتداعيات أخرى متسارعة، فجّرت صراعاً عسكرياً، كان مبتداه وفيصله، غزوة بدر الكبرى.

---

(٤١) ابكار السقاف: نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، ج٢، ص١٤٥٨.
(٤٢) د. جواد علي: تاريخ العرب فى الإسلام، دار الحرية، ط ١، ١٩٨٣، بيروت، ص ٧٧، ٧٨.



الباب الأول

بدر الكبرى

قراءة أخرى

حروب دولة الرسول

جزء أول



طالوت ومحمد

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾

(٢٤٧/ البقرة)

والمثل المضروب فى الآيات هنا، عن أول ملك لبنى إسرائيل، رفاق الحلف الدفاعى فى جماعة يثرب التضامنية، وهو الملك المعروف فى العهد القديم من الكتاب المقدس باسم (شاؤول)، والوارد فى آيات القرآن الكريم باسم (طالوت)، وقد اختاره لهم فى الآيات (نبيهم) غفلاً من أى تعريف. وهى المعرفة التى يمكن الحصول عليها بالرجوع إلى الكتاب المقدس، حيث يلتقى ذلك النبى تماماً ويتطابق، مع شخصية القاضى الكاهن (صموئيل). وفى سفرين باسم (صموئيل) بالكتاب المقدس، يمكنك العثور على كثير من التفاصيل بهذا الشأن. حيث تعرض الإسرائيليون- تحت حكم نظام القضاة الكهنة، وهو نظام قبلى يجمع الحكم الدنيوى مع الديني- لعدد من الهزائم، أمام سكان الساحل الفلسطينى، وكان مرجع تلك الهزائم كما هو واضح بتلك الأسفار، نتيجة استمرار النظام القبلي، الذى شتت الولاء بين اثنتى عشرة قبيلة (الأسباط)، وأوقف تطور المجتمع القبلى الإسرائيلى نحو حكومة مركزية واحدة قوية، وجعل جيشها مجموعات غير منظمة ولا موحّدة، تعود بولائها إلى متفرقات القبائل، التى ربما تعود- أو لا تعود- إلى صلات قرابية بعيدة، فيما بينها.

هذا بينما كان الفلسطينيون، سكان الساحل شعباً مستقراً، ورغم انقسامه بدوره إلى مجموعة دول مدن، فإن الولاء فى الدولة المدينة كان للدولة المركزية، ومركزية الملك

المنظم. ومن هنا انتهى بنو إسرائيل إلى نتيجة مفادها: أن هزيمتهم تعود بشكل مباشر إلى نظامهم الاجتماعى والسياسي، وبات مطلوباً صهر تلك القبائل تحت حكم ملك واحد، ومن ثم كانت مطالبتهم العاجلة والعنيفة، لكاهنهم وقاضيهم وحاكمهم القبلى (صموئيل)، باختيار ملك لهم جميعاً يوحدهم فى دولة واحدة.

وخضع (صموئيل) لضرورات الظروف، واختار لهم (شاؤول) ملكاً، ليصهر القبائل جميعاً فى وحدة واحدة، وشعب واحد، بقيادة حكومة واحدة، لها جيش واحد. وبالفعل- حسبما تخبرنا رواية التوراة- تمكن (شاؤول) ومن تبعه من ملوك مباشرين (داود وولده سليمان)، من صهر تلك القبائل المتفرقة فى كونفدرالية واحدة، وتمت مركزة الحكم، التى انتهت بتفوقهم على أصحاب الأرض، وإقامة الدولة المركزية[1].

والمثل المضروب فى الآيات القرآنية، يطلب من المسلمين استدعاء الدلالات لقراءة واقع مماثل لقبائل متفرقة تحت حكم بدائي، ممثل فى حكومة الملأ المكية، التى لم تتمكن من مركزة الولاء، كنتيجة حتمية لتفرق التمثيل القبلى بين أعضاء الملأ، الذين كانوا أثرياء البطون القرشية، والذين لم يمثلوا الفئات الموزعة بين القبائل تمثيلاً صادقاً والذين- وهنا المهم- رفضوا الدعوة التوحيدية الطالعة.

لكن الآيات وهى تستدعى واقع مكة، لتلحقه بالتاريخ الإسرائيلى فى المثال المضروب، ترحل بالتساؤل المكى القرشى من رجال الملأ، ليصبح تساؤلاً من بنى إسرائيل لصموئيل: «أنى يكون له الملك علينا؟» وهو التساؤل الاستنكارى الذى يحمل معانى جديدة، ومواصفات جديدة، يجب أن يتصف بها السيد الزعيم. وهى المعانى والصفات التى حملتها رياح التغير الاقتصادى إلى مكة، مع الثراء الفاحش الذى أصاب البعض دون الآخر، وبدأ يفعل فعله فى تفجير الأطر القبلية القديمة. ولم تعد مواصفات الزعيم كما كانت فى الماضى العشائري، من حكمة تؤهله كى يكون رأساً للقبيلة، أو حنكة، أو شجاعة أحياناً أخرى حسب ظروف القبيلة إن سلماً أو حرباً. بل تحول الأمر بعد تشكل الطبقة الأرستقراطية المتميزة، وتغير المعيار، وتبدل أساليب القياس، وهو ما عبر عنه

(١) الكتاب المقدس: العهد القديم: انظر سفري صموئيل الأول والثاني، وملوك الأول والثاني.

استطراد الآيات «أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه» وهى الأحقية التى يأتى معيارها القياسى واضحاً فى الإلحاق التوضيحى «ولم يؤت سعة من المال».

نعم، ربما كان النبي ﷺ قد حاز قدراً من المال؛ توفر له بعد زواجه من أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، لكن ذلك القدر من المال ما كان ليسمح له - فى نظر الملأ ومعاييرهم- بما يدعو إليه، ولا يفى له بما يؤهله لدخول حكومة الملأ الأرستقراطية. فما بالنا وهم يتصورنه يسعى للإمساك بأعنة السلطة جميعاً بيديه؟ حيث المعيار لم يعد مجرد حصول فرد على بعض المال، حتى يذهب به الطموح- كما تصوروا- إلى الجموح- فالمؤهل المطلوب قد أصبح «سعة من المال».

ومن ثم؛ كانت قراءة الواقع تشير إلى سير التطور إلى نتائجه المحتمة والضرورية، والتى ستشكل فى المستقبل المنظور، منظومة سياسية مركزية موحدة، تحت قيادة زعيم أوحد. ولم يكن ثمة توضيح يمكن تقديمه لمفاهيم الأرستقراطية القرشية، ولا للمسلمين الأوائل وهم مادة الدولة الطالعة، سوى إلقاء الحالى فى مرآة الماضي. لكن الآيات هنا- وهى تطابق واقع جزيرة العرب- تختلف عن رواية التوراة، وهى تطابق واقع فلسطين القديم. فبينما التوراة تحكى عن مطالبة الشعب الإسرائيلى نفسه للكاهن (صموئيل) بملك يوحدهم ويقود جيوشهم، فإن الآيات الكريمة تؤكد أن ذلك الملك جاء باصطفاء إلهى، وهو ما يستدعى على الفور اصطفاء المصطفي ﷺ لكن لتفرض ذلك الملك على بنى إسرائيل- فى الآيات القرآنية- فرضاً بقرار إلهي، وهو الأمر الذى يطابق واقع الحال المكى مع الدعوة الإسلامية، ويخالف ما جاء فى التوراة عن حال التاريخ الإسرائيلى القديم، ومن هنا؛ يتم تعشيق الماضى مع الحاضر فى المثال المضروب بقرار علوي: ﴿إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء﴾.

ضرب طريق الإيلاف

وبينما كان قمح يثرب يقطع عن مكة(٢)، وبينما سرايا المسلمين تجوب طريق الإيلاف التجاري لقطعه على مكة، وبينما الخبر عن قافلة أبى سفيان المسافرة إلى الشام، يطير إلى

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، ط٤، ١٩٨٨، بيروت، ج٢، ص١٨٧.

النبى ﷺ فى يثرب، كان الوحى يسترسل شارحاً لوضع الحاضر مقارناً بما حدث فى الماضي، ليحفّز همم المسلمين، فيحكى لهم عن (شاؤول- طالوت)، بعد أن استقر له أمر الملك، وبدأ حملاته على مدن الساحل الفلسطيني، ﴿فلما فصل طالوت بالجنود. . . قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾، جالوت هنا هو (جوليات) الزعيم الفلسطينى فى رواية التوراة، لكن رواية التوراة تختلف مرة أخرى، عن رواية القرآن الكريم حيث كان ائتلاف القبائل الإسرائيلية فى مملكة واحدة، تشكيلاً هائلاً وتجييشاً لعدد ضخم من المقاتلين، ومن ثم يكون تطابق الآيات ليس مع التاريخ التوراتى كما ترويه التوراة، لكن مع واقع المسلمين والمشركين، حيث المشركون هم الأكثرية، والمؤمنون هم الأقلية، لكن الحضور الإلهى إلى جانب الحق كان كفيلاً بحسم الموقف، فالآيات تستطرد ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ (٢٤٩/ البقرة).

وإعمالاً لذلك، وحتى تتطابق الروايتان، ويتطابق الواقعان، ونبوة الحاضر المنتصر بإذن الله، بمُلك الماضي، يحكى (أبو أيوب الأنصاري) عندما خرجوا إلى بدر، فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فأخبرنا النبي ﷺ بعدتنا-، فسر بذلك وحمد الله، وقال: «**عدة أصحاب طالوت**»[٣].

وتحكى كتب السيرة أن النبى- عليه الصلاة والسلام- خرج يريد عير قريش المسافرة إلى الشام، ولما بلغ الموقع الذى تمت حسابات الوصول إليه من يثرب، تقاطعاً مع الحسابات المتوقعة لزمن وصول قافلة أبى سفيان إليه من مكة، وهو (العشيرة)، اكتشف المسلمون خطأ الحسابات، فالحسابات كانت إنسانية صرف، تقبل خطأ الإنسان وصوابه، ووجدو أبا سفيان قد سبقهم بعدة أيام، وعليه تحول الموقف إلى محاولة تعويض ما فات، بالعودة إلى يثرب، وتربص موعد عودة القافلة، قافلة من الشام[٤].

ولم يطل انتظار المترقبين، فيخبرنا (ابن هشام) أن أمر القافلة قد بلغ مسامع النبى ﷺ. «ولما سمع النبى بأبى سفيان مقبلاً من الشام، ندب المسلمين إليه، وقال: هذه **عير قريش**

(٣) البيهقي: سبق ذكره، السفر الثالث، ص٣٧.
(٤) الحلبي: السيرة، سبق ذكره، مج٢، ص٣٧٤.

فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها . . . فانتدب الناس، فخف بعضهم، وثقل بعضهم»[٥].

وكان الرد على تثاقل بعض المسلمين عن الخروج إلى أموال قريش، عودة أخرى للقديم، تذكيراً، وتنبيهاً، وتحفيزاً، بذات المثل الإسرائيلي:

﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى

إذ قالوا لنبى لهم

ابعث لنا ملكاً نقاتل فى سبيل الله﴾

(٢٤٦/ البقرة).

وهنا جماعة إسرائيل لا تعترض على اختيار الملك لعدم سعته من المال، بل هى تطلبه، فتتطابق هنا الروايتان القرآنية والتوراتية، لكن الحكمة تنزع الماضى من سياقه لرسم صورة الحاضر، وإتمام صياغة الرسالة، المطلوب من المسلمين إدراكها، وفهم دلالاتها:

﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال

ألا تقاتلوا

قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله﴾

(٢٤٦/ البقرة).

نعم، القتال فى سبيل الله، وهو قتال - فى التاريخ التوراتى القديم - لهزيمة سكان الساحل الفلسطينى، وهى الآيات التى تستدعى القديم لحاضر يثرب، تأجيجاً لنوازع نفسية فى المهاجرين تحديداً، فتقول:

﴿قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله

وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾

(٢٤٦/ البقرة).

(٥) السهيلى: (السيرة النبوية لابن هشام)، سبق ذكره، مج٣. ص٣٠.

إن التوراة لا تقول بخروج بنى إسرائيل من ديارهم وأبنائهم حينذاك . بل كانوا – حسب روايتها– مهاجمين لا مدافعين ، محتلين وغاضبين ، وهذه روايتها ، وإثمها مردود عليها فى المخالفة . لكن ما نعلمه يقيناً ، أن الذين أخرجوا من ديارهم مهاجرين ، وتركوا أبناءهم واللوعة من أهل مكة تعتمل فى نفوسهم ، هم المسلمون المهاجرون إلى يثرب ، وبالطبع كان لابد أن تفعل تلك الآيات فى نفوسهم فعلها وأثرها .

هيبة المـلأ

يروى (الطبري) خبر قافلة (أبى سفيان) فيقول :

> وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار . . . حتى أصاب خبراً عن بعض الركبان ، أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك . . فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتى قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة[٦] .

وهكذا حقب الأمر ، وبدأت بدايات أفول الأمن القرشى على طريق الإيلاف الشامي ، فالقافلة الآمنة ، المطمئنة بالإيلاف ، تضطر– فى سابقة خطيرة– إلى استنفار أهل مكة ، من أصحاب المال . وبينما كانت الأحوال فى مكة على وتيرتها الرتيبة وهدوئها ، وقبل وصول ضمضم الغفاري ، ألقت (عاتكة بنت عبدالمطلب) عمة النبى ، وسليلة البيت الهاشمي ، بما حرك ذلك السكون الراكد المطمئن ، برواية عن رؤيا رأتها ، حملها أخوها (العباس بن عبدالمطلب) إلى مجلس الملأ ، تقول فيها :

> والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني . . رأيت راكباً أقبل على بعير له ، حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يا آل غدر

---

(٦) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٤٥١ .

لمصارعكم فى ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه. فبينما هم حوله، مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها. ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت، فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار، إلا دخلتها منها فلقة.

وبلغت الرواية أبا الحكم بن هشام، وربما ذهب إلى تصور ترتيب بعينه بين عاتكة وابن أخيها فى يثرب. فى ضوء إيمان عرب زمانه بالرؤيا وذهابهم فى تفسيرها التنبؤى مذاهب وقراءات وعيافة وفألاً. ثم لا جدال أنه عندما تتحدث هاشمية عن قوم بأنهم (آل غدر)، فإنها تقصد لا شك البيت الأموى المعادى، فكان أن قام يخاطب (العباس) بشأن رؤيا شقيقته، قائلاً:

يا بنى عبدالمطلب، متى حدثت فيكم هذه النبية؟ . . . أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم، حتى تتنبأ نساؤكم؟- أو أما رضيتم يا بنى هاشم بكذب الرجال، حتى جئتمونا بكذب النساء- قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال: انفروا فى ثلاث، فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقاً ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء، نكتب عليكم كتاباً، أنكم **أكذب أهل بيت فى العرب**[7].

وبينما لم تكن تموجات رواية عاتكة قد سكنت بعد، على سطح الاستكانة القرشية المترفة الآمنة، وصل (ضمضم الغفاري) بعد الأيام الثلاثة، وهو يصرخ ببطن الوادى، واقفاً على بعير له، وقد حول رحلة، وشق قميصه، وهو يقول:

«يا معشر قريش؛ اللطيمة. أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه، لا أرى أن تدركوها؟ الغوث، الغوث»[8].

(٧) السهيلي: سبق ذكرة، مج٣، ص٣٠، انظر أيضاً: الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٣٧٦.
(٨) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج٣، ص٢٥٧.

وحدث بعدها ما جاء في رواية البيهقي، «فتجهز الناس سراعاً، وقالوا « أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي، **كلا والله ليعلمن** غير ذلك»[٩].

ثم يفيدنا أن (أبا سفيان) تمكن من النجاة بالقافلة، بسلوك درب آخر بقوله: «وخفض أبو سفيان فلصق بساحل البحر، وخاف الرصد، وكتب إلى قريش حين خالف مسير رسول الله ﷺ ورأى أنه أحرز ما معه، ،وأمرهم أن **يرجعوا**»[١٠]. أو بتفصيل (الطبري): «إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم. **فقد نجاها الله، فارجعوا**»[١١].

لكن (أبا الحكم- أبا جهل) الذى أدرك- كواحد من رجال الملأ المقدمين- أن تهديد طريق الإيلاف، إنما يعنى تهاوى الهيبة القرشية، مما قد يدفع القبائل الأخرى إلى ذات المحاولة، وتهون قريش بين العربان. وتضيع المصالح والمكاسب، ثم ما يستتبع ذلك من فقد قريش لثقة الامبراطوريتين الرومانية والفارسية، فى القيام على شأن المواد الطلوبة فى مواقيتها، فى زمن حرب حرج، يكون فيه أى تأخير عاملاً مؤثراً وفاعلاً فى الانتصارات والهزائم. وهو ما قد يدفع إحدى الامبراطوريتين إلى ركوب مغامرة تأمين الطريق باحتلاله، وربما احتلال مكة ذاتها، وهو ما يمكن أن ينقل الصراع الامبراطورى إلى باطن الجزيرة. فما كان من أبى الحكم إلا أن نادى بعدم عودة الرجال إلى مكة، ودعاهم إلى استعراض هيبتهم أمام القبائل، باحتفال كبير، اختار له أحد أسواق العرب الكبرى، فى موقع وادي بدر، حيث الماء والخضرة، لإبلاغ العرب بدلالات الاحتفال، وأن قريشاً لم تزل قادرة على تأمين طريقها، وأنه لم يحدث شيء يعكر صفو الأمان السائد، ومن هنا قام ينادي:

> **والله** لا نرجع حتى نَرِد بدراً. . . فنقيم عليه ثلاثاً، وننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالوا يهابوننا بعدها أبداً[١٢].

---

(٩) البيهقي: سبق ذكره، مج٣، ص٣٢.

(١٠) نفسه: ص١٠٨.

(١١) الطبري: سبق ذكره، ج٢، ص٤٣٨.

(١٢) الموضع نفسه.

أو برواية أخرى:

والله لا نرجع حتى نقدم بدراً، فنقيم بها، ونطعم من حضرنا من العرب، فإن لن يرانا أحد من العرب فيقاتلنا[١٣].

وهكذا عاد الركب موجهاً نحو بدر ليقيم سمره الاحتفالى لليال ثلاث، و«كانوا خمسين وتسعمائة، وقيل كانوا ألفاً، وقادوا مائة فرس... معهم القيان... يضربن بالدفوف ويغنين»[١٤].

ضعف الهيبة

وهناك أحداث صغيرة لا تخطئها العين المدققة، لعبت - بعد ذلك - دوراً فى حسم الأحداث، ربما كان أولاها بالملاحظة، هو قرار بني زهرة الرجوع جميعاً إلى مكة، بعد أن تأكد لديهم سلامة القافلة ومرافقيها، فلم يخرج إلى بدر زهريّ واحد[١٥]، ومعلوم أن بني زهرة هم أهل (آمنة بنت وهب) أخوال النبي - عليه الصلاة والسلام.

والأمر الثانى، هو أن بني هاشم عشيرة النبي، تثاقلوا عن الخروج، وجرت بينهم وبين الأمويين مجادلة، أرادوا معها الرجوع إلى مكة، «فاشتد عليهم أبو جهل بن هشام وقال: والله لا تفارقنا هذه **العصابة** حتى نرجع»[١٦]. ومن ثم كان طبيعياً أن تلتفت إليهم الرؤوس الأموية لتقول محذرة:

يا بني هاشم؛

وإن خرجتم معنا، **فإن هواكم مع محمد!!**[١٧].

---

(١٣) البيهقي: سبق ذكره، ص١٠٨.
(١٤) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٣٧٩.
(١٥) الطبري: سبق ذكره، ج٢، ص٤٣٨.
(١٦) البيهقي: سبق ذكره، مج٣، ص١٠٨.
(١٧) الطبري: سبق ذكره، ج٢، ص٤٣٩.

ويضاف إلى ذلك أن بعض كبار الملأ، مثل (أمية بن خلف)، قرر القعود وعدم الخروج. وهو من تصفه كتب التراث الإسلامية بأنه «كان شيخاً جليلاً وثقيلاً»[١٨]، الذى أراد تجنب المشقة وهو فى هذا السن وذاك الجسم الثقيل. لولا أن أتاه (عقبة بن أبى معيط) «وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى قومه، بمجمرة فيها نار ومجمر، حتى وضعها بين يديه ثم قال:

يا أبا على استجمر، فإنما أنت من النساء، فقال: قبحك الله وقبح ما جئت به، ثم تجهز فخرج مع الناس»[١٩].

ثم أمر آخر يضاف لتلك الأحداث التى تبدو صغيرة هينة، تظهر ضعف تلك الهيبة القرشية المزعومة، ومدى تردد قريش فى الخروج- لمجرد الاحتفال- خشية أن يغشاهم بعض بني كنانة وهم لاهون، لما كان بينهم وبين **بنى بكر** (بيت كنانى) من ثأر. ولم يحسم ذلك التردد سوى مجىء (سراقة بن مالك) أحد أشراف كنانة للركب المكى قائلاً: «أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه». لكن الرؤية الراوية لتراثنا الإسلامي، تنزع ذلك عن شخص (سراقة) وتقول: إنه إبليس قد تلبس هيئة سراقة[٢٠]. ولمزيد من الاطمئنان، خرج معهم (سراقة) ضيفاً على حفلهم، مع وعد بمجيئ كنانة جميعاً إلى الحفل ضيوفاً وحلفاء، لكن ما حدث عند وقوع الوقعة، هو هرب (سراقة) من بين قريش عائداً إلى دياره، وهو ما لم يجد له أبو الحكم تفسيراً مقنعاً، سوى أنها كانت الحيلة والخديعة من بنى بكر، لاستدراج قريش إلى بدر فى ضوء الخلاف الثأري مع ذلك البيت الكناني، وهو ما عبر عنه لسانه وهو يقول:

يا معشر الناس؛ لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك،

فإنه كان على ميعاد مع محمد[٢١].

(١٨) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص٣١.
(١٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج٣، ص٢٥٧.
(٢٠) السهيلى: سبق ذكره، مج٣، ص٣٢.
(٢١) ابن كثير: سبق ذكره، ج٣، ص٢٨٣.

ومثل تلك الأحداث التى أوردتها كتب التراث على سرعة وعجالة، تفصح عن عدد قريش بعد انحزال بنى زهرة عنها بثلث الناس، وعن ذلك الاحتفال المهيب، الذى كان يحمل داخل مهابته ضعفاً وخوفاً، ثم عدم تجانس الفريق المكي، والذى سببه إصرار أبى الحكم على اصطحاب الهاشميين، ليتشفى فيهم لفشل ولدهم فى الاستيلاء على قافلة أبى سفيان، وربما لو علم بما غيبته له الأيام المقبلة، لتركهم بمكة غير آسف. هذا إضافة للتثاقل الواضح الذى ألم بالركب بأكمله، والذى كان لا يجد فى ذلك الخروج إلا عبئاً فى برد يناير وقارص شتائه، وهو ما يشير إليه عزم كبار الملأ على القعود، ثم الخوف القرشى من بيت كناني واحد، لولا إجارة سراقة، أو إبليس، مما يرسم صورة واضحة للحال المتشرذم المتردد، غير المتجانس أو المؤتلف، للركب المكي.

ويبدو أن ثمة أخباراً غير قاطعة، قد وصلت الركب المكي، عن تحرك المسلمين نحو بدر، مما حول أملهم فى سمر طروب، إلى فزع بدد فرحهم، وكانت العودة مستحيلة، بل وكارثة لتلك الهيبة المزعومة. وعندما مر الركب على مضارب (غفار) أرسل لهم زعيم غفار ولده بجزائر أهداها لهم طعاماً، مع رسالة تقول: «إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا، فأرسلوا إليه مع ابنه:

> إن وصلتك رحم، قد قضيت الذى عليك، فلعمرى لئن كنا نقاتل الناس، فما بنا من ضعف عنهم، **ولئن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فما لأحد بالله من طاقة**[22].

هذا بينما كان (جهيم بن الصلت) سليل عبد المطلب الهاشمي، يروى لهم وهم ينيخون بالجحفة رؤيا جديدة، فيقول: «إنى رأيت فيما يرى النائم... إذ نظرت إلى رجل أقبل على فرس، حتى وقف مع بعير له، ثم قال: قتل عتبه بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وفلان، وفلان، فما كان من (أبى الحكم) إلا أن قام

(٢٢) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص٣٦.

يخفف عن الناس الأثر النفسى للرواية، فى وسط عربى ثقافى عادة ما كان يصدق الرؤيا، بقوله الساخر المتحدي:

وهذا **نبي آخر** من بني عبد المطلب، سيعلم غداً

من المقتول **إن نحن التقينا**[٢٢].

وما كان تعبير أبى الحكم «إن نحن التقينا» إلا شكاً فى الأخبار التى وصلت عن النبي وأصحابه، وعدم يقين بوقوع الوقعة المرتقبة.

☆ ☆ ☆

(٢٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر فى فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠، ج١، ص٣٠١.

مشـــورة الأنصـــار

«اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم، لاتعبد بعد في الأرض أبداً»

{ النبي محمد ﷺ }

بقيادة النبى ﷺ خرج المسلمون لضرب الأرستقراطية المكية اقتصادياً، بقطع طريق الإيلاف الشامى، على كبرى القوافل من الشام إلى مكة بقيادة أبى سفيان، والتى أسهم فيها البيت الأموى بما ينوف على الأربعة أخماس.

وحتى وصول المسلمين إلى (الصفراء)، لم يكن النبى قد علم بعد أياً من أخبار القافلة، سوى إجراء حسابات تنبوئية لموعد عودتها من الشام، قياساً على موعد مغادرتها مكة. لهذا، وبالتصرف البشرى والممكنات الإنسانية، أرسل رسول الله ﷺ (بسبس بن عمرو الجهني) ومعه (عدى بن أبى الزغباء الجهني)، يتحسسان له الأخبار ويتسقطان الأنباء عن قافلة أبى سفيان فأتاه الخبر أن أبا سفيان . قد علم بدوره بخروج النبي وأصحابه إليه، وأنه أرسل إلى قريش يستنفرها أموالها[١].

وكان الموقف الجديد دقيقاً، يحتاج إلى حكمة فى المعالجة، فقد تحول الأمر، عن مواجهة ثلاثين فرداً يحرسون القافلة، إلى مواجهة عدد غفير من أهل مكة، خرجوا ليمنعوا أموالهم من النهب. وربما كان موقف المهاجرين محسوماً، بما يتأجج فى صدورهم من ذكرى الهوان فى مكة، وخروجهم من ديارهم وأبنائهم إلى يثرب. إلا أن وضع الأنصار كان يقتصر حتى الآن على حسن الضيافة، وصدق الإيمان، بينما الموقف الجديد يحتاج- ليس فقط- إلى عدد كبير من الرجال، بل وإلى قدر كبير من الفدائية، بينما

---

(١) السهيلى: فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج٢، ص٣٣.

الأنصار- فيما يروى ابن هشام- «عندما بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله: إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا، نمنعك مما نمنع منه أباءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره، إلا ممن دهمه بالمدينه من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو يبعد من بلادهم»(٢).

وهنا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«أشيروا عليّ أيها الناس . . .»

فلما قال ذلك، قال له سعد بن معاذ: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال، : لقد آمنا بك **وصدقناك**، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك. . . فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال:

سيروا وأبشروا، فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين- إما العير وإما قريش- والله، لكأنى الآن أنظر إلى **مصارع القوم**(٣).

وهكذا، تحول اتفاق الأنصار مع النبي فى العقبة الثانية إلى غايته المضمرة، وأدرك الأنصار أنه قد آن أوان الإفصاح عن كامل بنود ذلك الحلف، التى وعوها مبكراً فى قولهم للنبي آنذاك: «إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا»، فأجل النبى الإمالة بالسيف إلى فيما بعد، وقد جاء أوان الما بعد. الذى طور البنود المعلنة، من ميثاق دفاعي لتسفر عن البند المرجأ الذى يجعل الميثاق حلفاً هجومياً محارباً، فتحولت عناصر الجماعة الإسلامية كلها، مهاجرين وأنصار، إلى دولة محاربة هجومية، دولة عسكر ومغانم متكاملة مقاتلة، كالقبيلة تماماً، وبذات منطقها، لكن بعد أن تحول الولاء عن القبيلة وسلفها المعبود إلى الدولة ممثلة فى رجال الحرب والدم والحلقة، الذين تحولوا عن الإجارة إلى الإغارة.

---

(٢) الموضع نفسه.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج٣، ص٢٦١.

وهنا نقطة التحول المادية الخطيرة، التى لعبت دوراً عظيماً فى جذب الأتباع من مستضعفى القبائل ومحاربيهم، بعد أن ظل النبى فى مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو دون إجابة العدد الكافى من المستضعفين إلى دعوته، حيث كانت الدعوة تؤجل الوعد بالنعمة والرفاه إلى الآجل فى رغد جنة الخلد. وهو ما ظهر كما لو كان تأجيلا ميتافيزيقياً لحل قضيتهم، وإرجاء رفع الشقاء المادى عن حياتهم الآنية، فى مجتمع تجارى مادى بحت. ولهذا عندما تم الإعلان عن مغانم أحلها الله لرسوله والمؤمنين من أموال المشركين، أصبح الحل حقيقة مادية دنيوية ملموسة، ومكاسب عينية ماثلة أمام المستضعفين، تدعوهم إلى دخول جيش الدولة الجديدة. وهو الهدف الذى سيفصح عن نفسه عملياً فى المكاسب التى ستحققها الغزوة البدرية لجماعة المسلمين، لتحول حالهم الشظف إلى حال آخر، وفى تحالف القبائل المحطية بالمدينة مع القوة الإسلامية.

خطة المعركة

مع التجوال المتأنى بين دفتى كتابات السير والأخبار الإسلامية، يجد القاريء، نفسه مع النبي ﷺ إزاء قائد عسكرى يبدأ بضمان ولاء رجاله، ثم يخطط للمعركة، فيرسل العيون لتأخذ له بالأخبار عن عدوه، فيعلم بتمكن القافلة من الهرب، وبخروج قريش إلى بدر لتحتفل بنجاة تجارتها، ونشر مهابتها بين العرب، وأن العير وإن ذهبت فقد جاءت قريش، وهى إحدى الطائفتين الموعودتين. فيخرج القائد برجاله من موضع إلى آخر مسرعاً، يختصر طرقاً ويضرب فى أخرى[٤]، عامداً إلى التخفى وستر أمر مسيره وعدم إفشاء خطوه. فيأمر بقطع الأجراس من أعناق الإبل[٥]، والسير الصامت.

ثم يقسم النبي ﷺ رجاله إلى ألوية، لكل لواء رايته التى يعرفه بها أصحابه، فيحمل لواء المهاجرين (على بن أبى طالب)، ويحمل لواء الخزرج (الحباب بن المنذر)، بينما يحمل لواء الأوس (سعد بن معاذ)[٦]، ويجعل لرجاله شعارات شفرية يعرفون بها بعضهم

(٤) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص٣٤.
(٥) الحلبي: السيرة، مج٢، ص٣٨٣.
(٦) نفسه: ص٣٨٢.

بعضاً، وهم تحت الدروع والخوذ. فكان شعار الخزرج: يا بني عبدالله، وشعار الأوس: يا بني عبيدالله، وشعار المهاجرين: يا بني عبدالرحمن، أما شعار الجميع فهو: يا منصور أمت، أما الخيل جميعاً فكانت خيل الله(٧).

وعند التعبئة تقرر أن يحارب المسلمون بنظام الصفوف المتحركة، من (النبّالة) حملة النبال، و(السيّافة) حملة السيوف.. إلخ، وفي ذلك يقول ابن كثير: «وقد صف رسول الله ﷺ أصحابه، وعبأهم أحسن تعبئة... وعن أبي أيوب يقول: صفنا رسول الله يوم بدر، فبدرت مني بادرة أمام الصف، فنظر إليهم وقال: معي معي... وكان في يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية... وهو مستنتل (متقدم) من الصف، فطعن في بطنه بالقدح وقال: استو يا سواد»(٨).

ولم يترك القائد شيئاً للصدفة، فأي خطأ- مع الفارق العددي- يمكن أن يؤدي إلى كارثة. ومن ثم، وقبل أن يصل بدراً، أمر رجاله فتوقفوا صامتين، ثم ركب ومعه أبو بكر ليتسقط بنفسه أخبار عدوه..

> حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه، ما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك، قال أذاك بذاك؟ قال: نعم، قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإذا كان الذي أخبرني صدقني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، المكان الذي به رجال رسول الله ﷺ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي فيه قريش، فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟
>
> فقال رسول الله ﷺ: **نحن من ماء.**

---

(٧) البيهقي: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص٧٠.
(٨) ابن كثير: سبق ذكره، ج٣، ص٢٧٠.

وفى (الإمتاع) أنه قال «نحن من ماء وأشار بيده إلى العراق» ثم يتفق رواة السيرة على رد الشيخ المندهش على نفسه- وهو يغمغم- «ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟!»[٩].

وينزعج (الحلبي) راوي السيرة من رد النبي ﷺ ولا يدرك الحذر المفترض فى قائد عسكري مقبل على معركة، ولا يرى فى ذلك القائد سوى الجانب النبوى المتعالي، وأن للنبوة صفات تتناقض مع رد الرسول على الأعرابى، فيقول فى تساؤل استنكارى، أو فى استنكار متسائل:

وقد تقدم فى أوائل الهجرة، أنه لا ينبغى لنبى أن **يكذب،** ولو صورة، ومنه التورية.

ومن ثم يبحث الحلبي عما يطمئن قلبه، فيكشف أنه لا بأس من كذب النبي، ليس لضرورات يقتضيها الظرف الموضوعى، ولكن لأنه وجد فى كلام القاضى البيضاوى حديثاً عن النبى ﷺ، أن النبى إبراهيم سبق وكذب ثلاث كذبات[١٠]، ويقصد الحلبي هنا الحديث: «كذب إبراهيم ثلاث كذبات كلها فى الله، قوله: إنى سقيم وقوله: فعله كبيرهم هذا، وقوله للرجل الذى عرض لسارة: إنها أختى»، وهنا يطمئن الحلبى ويكتفى بذلك تبريراً لنفسه وتطميناً لها، إزاء رد قول النبي للشيخ الأعرابي، ولم ير إطلاقاً فى ذلك الرد، غرضاً عسكرياً وحذراً مباحاً، يصرف البدوى عن معرفة قائد المسلمين، ويشككه فى معلوماته عن موقع الجيش الإسلامي، ويصرفه عن تقصى أمرهم، احتياطاً لسرية وأمان مسيره.

ولمزيد من التقصى، وتدقيق المعلومات عن العدو، وأحواله، وعدد رجاله، وعدته، يعود القائد لإرسال على بن أبى طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، مع نفر آخر من المسلمين «يلتمسون له الخبر» بتعبير ابن كثير، فيصيبوا غلامين من عبيد قريش كانا قد تطرفا عن ركبها. ويبدأ الحوار بين النبى ﷺ وبين الغلامين:

---

(٩) السهيلى: سبق ذكره، مج٣، ص٣٤، انظر أيضاً: ابن كثير: سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٣، والحلبي: سبق ذكره، م مج٢، ص٣٨٧.

(١٠) الحلبى: سبق ذكره، مج٢، ص٣٨٧.

قال: أخبرانى عن قريش.

قالا: وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى.

قال: كم القوم؟ وما عدتهم؟

قالا: لا ندرى.

قال: كم ينحرون كل يوم؟

قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً.

قال: القوم ما بين التسعمائة إلى الألف، فمن فيهما من أشراف قريش؟

قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم ابن خزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدى، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية ابن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبدود[(١١)].

فأقبل الرسول ﷺ على الناس فقال:

هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها [(١٢)].

وهو التعبير الأمثل عن القوم الواردة أسماؤهم، فهم من قريش القلب والرؤوس والأشراف والسادة، وهم الملأ والأرستقراطية.

ويرتحل المسلمون إلى (عرق الظبية)، وهناك «لقوا رجلاً من الأعراب فسألوه عن الناس، فلم يجدوا عنده خبراً، فقال له الناس: سلم على رسول الله، قال:

- أو فيكم رسول الله؟!

قالوا: نعم.

قال: لئن كنت رسول الله، فأخبرنى عما فى بطن ناقتي تلك؟

---

(١١) ابن كثير: سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٤.

(١٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج١، ص٩٩، ٣٠٠.

فقال له سلمة بن سلامة : لا تسأل رسول الله ، وأقبل عليّ فأنا أخبرك
عن ذلك ، نزوت **عليها ففى بطنها منك سخلة .**
فقال رسول الله : مه ، أفحشت على الرجل[١٣] .

هكذا كان القائد الإنسان ، يخطط كما يخطط البشر ، ويتقصى الأخبار كما يتقصى البشر ، ويرسل الجواسيس والعيون ليأخذ الأخبار عن عدوه . ثم وهو بسبيل ذلك يتعرض لسخرية بدوى أحمق يؤذيه بقارص الكلم ، فلا يرد عليه الإيذاء بإيذاء ، إنما يلوم صاحبه على فحش قوله للرجل ، تحوطاً لخبر يحمله البدوى المرتحل لأعدائه . أما السماء ، فكانت أمراً أكثر منها خبراً ، حيث كان الوحى يتحول بالأمر من الصبر الجميل ، والدفاع الهادىء إلى الهجوم والقتال بعد أن أتى الله بأمره :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥/ الأنفال) . . . عن عبدالله بن عباس قال : لما نزلت هذه الآية اشتد على المسلمين ، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين ، ومائة ألفاً ، فخفف الله عليهم ، فنسخها بالآية الأخرى : ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَ**عَلِمَ** أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٦٦/ الأنفال)[١٤] .

ولو أخذنا الأمر بظاهره ، لكان المعنى أن الله جل وعلا لم يكن يعلم بضعف المسلمين ، ثم علمه متأخراً (الآن . . . علم أن فيكم ضعفاً) ، **وحاشا لله أن يقصر علمه عما يليق بكماله .** ومن ثم لا يكون هناك معنى لنسخ الآية الأولى بالثانية ، سوى تفاعل الوحى الكريم مع ظرف الواقع ، حيث تتناسب الآية الأولى مع خبر أول بعدد أفراد قريش ، وهو ما

(١٣) ابن كثير : سبق ذكره ، مج٣ ، ص٢٦٠ .
(١٤) السهيلى : سبق ذكره ، مج٣ ، ص٧٧ .

كان يعادل عشرة إلى واحد بالنسبة إلى عدد المسلمين، بينما تتناسب الآية الثانية مع الخبر التالى الذى جاء يحمل نسبة أخرى هى اثنين إلى واحد، وهو ما يطابق العدد المقبول لقريش بالنسبة لعدد المسلمين، بعد انحزال بنو زهرة عنها بثلث الناس، وكذب سراقة بن مالك أو إبليس بشأن مجيء كنانة مع قريش. فكان النسخ، وجاء صدق الوحى مطابقاً للواقع، وإعلاماً للمسلمين المحاربين بعدد عدوهم النهائى.

وإعمالاً لكل ما تم الحصول عليه من معلومات استخبارية، تقرر أن يسبق المسلمون قريشاً إلى بدر، فيروى ابن كثير:

> فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء، حتى جاء **أدنى ماء** من بدر فنزل به... فذكروا أن الحباب بن المنذر بن الجموح - محارب أنصارى - قال: يا رسول الله؛ أرأيت هذا المنزل؛ أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: **بل هو الرأى والحرب والمكيدة**، قال يا رسول الله، **فإن هذا ليس بمنزل، فامض** حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه **حوضاً** ونملؤه ماء ثم نقاتل القوم، **فنشرب ولا يشربون**، فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأى (١٥).

وهنا يأتي خبر السماء مصدقاً على الخطة البشرية ومشورة الأنصار، ورجلهم المقاتل (الحباب) المشهود له بالدربة والحنكة والخبرة القتالية، فيأتى جبريل إلى أخيه المصطفي - عليهما السلام - ليقول:

> يا محمد؛
>
> ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك:
>
> إن الرأى ما أشار به الحباب (١٦).

---

(١٥) ابن كثير: سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٦.

(١٦) الموضع نفسه.

والرواية هنا بحاجة إلى بعض التدبر، فإذا كان المسلمون سيبنون حوضاً، حتى يتوفر لهم ماء الشرب، ويغورون بقية الآبار حتى لا تشرب قريش، فلا جدال هنا أن الآبار التى غورت، هى تلك- المفترض أن تكون واقعة- على مسافة متناثرة بين المسلمين وبين الجهة التى ستصل إليها قريش. ويكون تعبير (أدنى ماء) هنا بحاجة إلى إعادة فهم، فالإشارة الأولى عن نزول النبي ﷺ ستعنى بذلك أدنى أى أقرب بئر إلى مدخل الوادي حيث ستصل قريش، وبقية الآبار تكون خلف المسلمين، أما (أدنى ماء من القوم) فى مشورة الحباب، فهى آخر بئر إلى الخلف، بعيداً عن موقع قريش المفترض، مع تغوير بقية الآبار التى ستقع بين المسلمين وبين قريش. ولا شك أن التباس (أدنى ماء) فى المرتين اللتين وردتا بالرواية، هو ما دعا (الحلبي) كثير التساؤل ليقف محاولاً الفهم متسائلاً:

> «إن ذلك القليب إذا كان وراء ظهورهم وسائر القلب خلفه (وهو ما يفهم من: أدنى ماء) فما المعنى فى تغويرها؟ أنها إذا لم تغور يشربون ويشرب القوم - قريش-»[(١٧)].

وهو التساؤل المشروع عقلاً، والذى يجب أن يكون كما انتهينا إليه، إلى فهم مؤداه أنهم بنصيحة (الحباب) نزلوا أبعد بئر عن القوم، وغوروا ما هو فى الطريق بين الجيشين، وبذلك يتم المقصود، فتصل قريش عطشى ولا تجد ماء، إلا ما هو وراء المسلمين وفى حراستهم، أو فى حوضهم الذى منه يشربون وحدهم.

موقع الفريقين

وحتى نتمكن من وضع تصور لخريطة المواقع فى بدر، وموقع كل من الطرفين فيها، نقف مع القائد وموقعه بين أتباعه المسلمين، وهو ما أوضحه قول سعد بن معاذ له:

> يا نبي الله؛ ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه، ونعد عنك ركائبك، حتى نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا. وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من

---

(١٧) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٣٩٤.

قومنا . . فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً ، ودعا له بخير ، ثم بنى للرسول عريشاً كان فيه [١٨] .

وتتفق كل كتب السير على موقع ذلك العريش ، بأنه كان **فوق تل** مشرف على المعركة[١٩] ، وبعد بناء العريش ، دخل إليه النبى ومعه أبو بكر ، واتفق على أن تحيطه حراسة من الأنصار بقيادة سعد بن معاذ .

خوفاً عليه من أن يدهمه العدو من المشركين ، والجنائب النجائب مهيأة لرسول الله ﷺ إن احتاج ركبها ورجع إلى المدينة[٢٠] .

ومرة أخرى وليست أخيرة ، نجد الإعداد الجيد ، والتخطيط البشري ، والحرص على حماية صاحب الدعوة والحفاظ على حياته ، بإيقاف الحراس عليه فى تل بعيد عن متناول المشركين ، تحت حراسة مسلحة من رجال الحرب اليثاربة ، وركائبه معدة للعودة السريعة إلى يثرب إن حدثت الهزيمة ، هذا رغم حراسة السماء لحبيبها ورغم الوعد الإلهي بالمدد العلوى من مقاتلي الملائكة المقدمين .

وقد جاء الوعد بالملائكة ، دافعاً لمزيد من الطمأنينة لصحابة الرسول الأمين ، ومدعاة لهدوئهم النفسى والعصبي ، وإخلادهم للنوم فى ظل تلك الحراسة السماوية ، لأخذ قسط مناسب من الراحة ، انتظاراً لوصول قريش فى الغد عطشى مجهدة متعبة . وهو ما وعته كتب الأخبار والسير ، وساقته على عجالة تقول :

وبشرهم النبي ﷺ بنزول الملائكة ، فحصل لهم الطمأنينة والسكون ، وقد حصل لهم **النعاس الذى هو دليل الطمأنينة**[٢١] .

وفى ذلك المناخ الشتوي ، زخت السماء المنطقة بمطرها ، وهو ما جاء فى قولة الإمام علي – رضى الله عنه : – «أصابنا فى الليل طس من مطر ، فانطلقنا تحت الشجر والحجف ،

---

(١٨) ابن كثير : سبق ذكره ، ج٣ ، ص٢٦٦ .
(١٩) الحلبي : سبق ذكره ، مج٢ ، ص٣٩٤ .
(٢٠) ابن كثير : سبق ذكره ، ج٣ ، ص٢٧١ .
(٢١) الحلبى : السيرة ، مج٢ ، ص٣٩٢ .

نستظل تحتها من المطر»[٢٢]، فى اللحظة التى كانت قريش فيها بالعدوة القصوى من الوادي، بينما كان المسلمون « فى العدوة الدنيا من **بطن التل**»[٢٣]، وهو ما يحدد لنا المواقع بدقة، فالمسلمون يعسكرون فوق التل، انتظاراً لمقدم قريش من مدخل الوادى فى الأسافل، وهو ما يدعمه قول (البيهقي) عن ذلك المطر الليلي:

> وأرسل الله السماء، وكان الوادي دهساً فأصاب رسول الله وأصحابه، ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من السير، وأصاب قريشاً منها ما لم يقدروا أن يرتحلوا معه[٢٤].

وهكذا كان نزول المطر مساعداً على حركة المسلمين فوق التل، عسر المسير ومشقته فى الوادي الموحل، وهو ما يتفق مع حال نزول المطر فى منطقة بها مرتفع يليه واد، حيث لا يثبت الماء على المرتفع، إنما ينزلق إلى المنحدرات، فيترك التلال رطبة يابسة متماسكة، ويحول الوادى إلى مستنقعات موحلة. لذلك أكد (مجاهد) أن فى أعلى التل «أنزل عليهم المطر، فأطفأ به الغبار، وتلبدت الأرض، وطابت به أنفسهم، وثبتت به أقدامهم»[٢٥]. أما الفيصل فى هذا الأمر، فهو تقرير الوحى الصادق لخريطة المعركة زماناً ومكاناً، فى قول الآيات:

> ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى **والركب أسفل منكم** ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد﴾ (٤٢/ الأنفال).

ومن ثم فلا مجال هنا لمجادل، يكابر فى أن موقع المسلمين فى الأعالي، وهبوطهم مع بدء المعركة على من هم فى الأسافل، كان عاملاً هاماً من عوامل حسم المعركة، وتحديد نتائجها.

---

(٢٢) الموضع نفسه.
(٢٣) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٣٤، ٣٥.
(٢٤) نفسه: ص٣٥.
(٢٥) ابن كثير: سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٦.

وعند الصباح، عدل رسول الله ﷺ صفوف رجاله، وألويتهم، ثم دخل عريشه يناجى ربه:

اللهم إن تَهلِك **هذه العصابة** اليوم، لا تعبد بعد فى الأرض أبداً(٢٦).

ثم عاد فخرج إلى رجاله يحرضهم على القتال منادياً:

والذى نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً إلا دخل الجنة..

فقال عوف بن الحارث: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده، قال: غمسة يده فى العدو حاسراً(٢٧).

أما الجزاء الدنيوى لمن سيبقى حياً، فهو ما جاء فى نداء آخر، يمنح المقاتلين ما يحصلون عليه من غنائم، ومن فداء أسراهم:

من قتل قتيلاً فله سلبه، ومن أسر أسيراً فهو له(٢٨).

وفى تلك الهنيهات الفاصلة فى تاريخ الحجاز، بل وفى تاريخ الدنيا، كانت طلائع قريش تهل منحدرة من كثيب العقنقل نحو الوادي، ومن موقعه فوق التل وقف النبي يطالع ذرافاتهم وطبولهم تهبط الوادى من بعيد. وهو يقول:

اللهم هذه قريش، قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتني..(٢٩).

وهكذا، جاء الملأ إلى موعدهم، وأفلاذ كبد مكة إلى قدرهم.

(٢٦) نفسه: ص٢٧٤.
(٢٧) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص٣٩.
(٢٨) الحلبى: سبق ذكره، مج٢، ص٤١٣.
(٢٩) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص٣٦.

أحداث فى بدر الكبرى

«بئس ما أبدأ به إسلامى، أن أخون أمانتى»

(أبو العاص بن الربيع)

بينما كان المسلمون على تل مطل على وادى بدر يترقبون، أقبلت قريش من كثيب العقنقل نحو الوادي، لتحتفل بنجاة أموالها، وتنشر مهابتها، حفاظاً على أمن طريق الإيلاف، وإرهاباً لمن يحاول قطعه من عربان. ويحكى الحلبي فى سيرته عن **الأمين المأمون** إنسان العيون ﷺ لحظة وصول قريش إلى الوادى يفترشونه، وأمامهم القيان تغنى وتضرب الدفوف: « ولما **اطمأن** القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحى فقالوا: احزر لنا أصحاب محمد... فذهب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئاً، ثم رجع إليهم وقال: ما رأيت شيئاً».

واطمأن القوم، وركنوا إلى تكذيب ما وصلهم من خبر عن أصحاب محمد، واستعدوا لسمرهم الاحتفالى، بينما كان المسلمون خلف سواتر التل. ولمزيد من الاطمئنان عاد الجمحى واستجال بفرسه مرة أخرى، فلمح الرجال تحت الخوذ السواتر فرجع يصرخ:

> رأيت يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، ألا ترونهم **خرساً لا يتكلمون؟** يتلمظون تلمظ الأفاعي، لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهلهم؟ زرق العيون كأنهم الحصا تحت الجحف، والله ما أرى أن نقتل رجلاً منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك؟[1].

---

(١) الحلبى: السيرة، سبق ذكره، مج٢، ص٣٩٥.

إنه إذن الكمين، وصدق الخبر، وإنها لوقعة، وإنها لمصرعة. لقد كان محمد ﷺ يريد عيرهم وتجارتهم، لحصار مكة اقتصادياً، وضرب إيلافها، فإذا به يريدهم هم أصحاب المال ورؤوس الأشراف والسادة، بعد أن وصلوا بدراً عطشى متعبين، دون قيادة موحدة، ومن غير تجانس، فجاءوا معهم بالهاشميين إلى جانب الأمويين، ليجدوا الآبار قد غورت، مما كان مدعاة أخرى لطلب حكمة غير حكمة أبى الحكم، التى طوحت بهم إلى ذلك الشرك. بينما نداء الجمحى يشير إلى قوم يتربصون الثأر من السادة، بعد اضطهاد وهجرة، يتلمظون تحت الخوذ كالأفاعى، لا تظهر منهم غير العيون والألسنة اللاهثة، المتلهفة على الانقضاض.

الحكمة والتهور

ومن ثم ؛ كان إعمال العقل والتروى ، والبحث عن رأى سديد ، للخروج من الفخ بأقل قدر من الخسارة . فكانت حكمة (حكيم بن حزام) الذى جاء (عتبة بن ربيعة) أحد كبار أشراف مكة وسادة الملأ المقدمين ، وكان عتبة رجلاً جليلاً عجوزاً ثقيلاً ، ليقول له :

> يا أبا الوليد ؛ إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ . . . هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت ؟ قال: وما ذاك يا حكيم ؟ قال: ترجع بالناس [٢] .

وهكذا سجلت عبارة حكيم لقريش مرة أخرى حبها للسلم ، وسعيها للأمن ، ذلك الحب والسعى الذى فرضه عليها تكوينها النفسى ، وفرضه على نفسها تكوينها الاقتصادى والاجتماعى ، وحرصها على مصالحها . ومن ثم كان من يسعى إلى الحفاظ على تلك المكاسب ، بتحقيق السلم ، يظل مذكوراً فى شرعها بالحكمة والسداد والشرف إلى آخر الدهر . ومن هنا قام (عتبة بن ربيعة) عاملاً بحكمة (حكيم بن حزام) يخطب فى أصحابه :

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ١٩٨٨، ج٣، ص ٢٧٠.

يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموهم لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا ، وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما يريد [٣] .

هكذا كان حال قريش ، وتلك كانت دعوتها وحكمة حكمائها . بينما على الجانب الآخر وراء السواتر وفوق التل ، كان صوت المصطفى ﷺ يجلجل فى أصحابه ، حتى لا يتركوا فرصة قد لا يجود بها الزمان مرة أخرى للقضاء على رؤوس الشرك :

- والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، إلا أدخله الله الجنة .
- وهذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها .
- وأن ما يُضحك الرب من عبده غمسة يده فى العدو حاسراً .
- ومن قتل قتيلاً فله سلبه .
- ومن أسر أسيراً فهو له .
- ويا منصور أمِت .

وفى الوادي ، ذهب (حكيم) بنداء (عتبة) إلى (أبى الحكم) ، فكان رده غير الحكيم :

انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ما قال ، لكنه رأى أن محمداً وأصحابه أكَلَة جزور ، وفيهم ابنه ، فتخوفكم عليه [٤] .

(٣) السهيلي : (فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام)، سبق ذكره، مج٣، ص٣٧.
(٤) ابن كثير : سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٩ ، ٢٧٠ .

وكان أبو الحكم يقصد (أبا حذيفة بن عتبة) . وهو مهاجر مع أصحاب النبى ﷺ بعد أن فرقت الأمية الجديدة بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، فى ولاء جديد ، وإيمان جديد . ويكفى مثالاً لذلك أن نعلم أن (أم أبان بنت عتبة بن ربيعة) ، كان لها أربعة إخوة وعمّان ، كل منهم حضر بدراً ، اثنان من إخوتها مسلمان ، واثنان مشركان ، وواحد من عميها مسلم ، والآخر كافر[٥] .

وفى شروح السيرة ، نعلم أن عبارة (أبى الحكم) بشأن (عتبة) : انتفخ والله سحره ، تقال للجبان[٦] ، وكان الرد الطبيعى من الشيخ الجليل على من اتهمه بالجبن « سيعلم مصفّر إسته من انتفخ سحره ، أنا أم هو »[٧] ، ومصفّر إسته هو من يصبغ مؤخرته بالحناء ، طلباً للرجال ، وقد « قصد المبالغة فى الذم »[٨] ، ومن ثم « رماه بالأبنة ، بأنه كان يزعفر إسته »[٩] .

وقبل الرجل الحكيم أن يُرمى بالجبن حقناً للدماء ، وحرصاً على المصالح القرشية ، واستمر ينادى :

«يا قوم ؛ إنى أرى أقواماً مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير ، يا قوم اعصبوها برأسى وقولوا : جبن عتبة ، وقد تعلمون أنى لست بأجبنكم »[١٠] .

فكان أن قام أبو الحكم يقول : « والله لو غيرك قال هذا لأعضضته »[١١] ، وهو تعبير مخفف ، تحاشى فيه (أبو الحكم) الفحش فى القول ، لرجل فى سن (عتبة) ، وهو ما

---

(٥) الحلبي : السيرة ، مج٢ ، ص٣٩٨ .
(٦) نفسه : ص٩٧ .
(٧) ابن كثير : سبق ذكره ، ج٣ ، ص٢٧٠ .
(٨) الحلبي : السيرة ، مج٢ ، ص٣٩٨ .
(٩) البيهقي : دلائل النبوة ، سبق ذكره ، السفر الثالث ، ص٦٣ .
(١٠) الموضع نفسه .
(١١) الموضع نفسه .

تفسره كتبنا الإخبارية بأن معناه الصريح « أُعضض على بظر أمك »[١٢] أو هو عض فى موضع آخر « أُعضض بإير أبيك »[١٣] .

والحوار أعلاه يكشف بصورة واضحة حال الملأ القرشى من سادة الأشراف ، وخلافاتهم الخطيرة حول مصير نظامهم ، بل مصيرهم هم ، واتهام بعضهم لبعض بالجبن ، وتبخيس بعضهم بعضاً بفاحش القول ، وتفرق كلمتهم بين بطون وولاءات متعددة لسادة متنافرين . هذا بينما تابع (أبو الحكم) الإفصاح عما بصدره ، وعن رأيه فى الدعوة التي فرقت الأرحام والعشيرة ، فى قوله : « اللهم أَقْطَعَنا الرحم ، وآتانا بما لا نعرف ، فاحنه الغداة »[١٤] . هذا مع تصوره غير الحكيم وغير المتطابق مع الظروف والمتغيرات الجديدة ، محتسباً أنه وقومه على الحق وعلى الإيمان الصحيح بالله ، وهو ما يبدو ظاهراً فى ندائه السماء :

> اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم[١٥] .
>
> اللهم انصر أفضل الدينين عندك ، وأرضاهما لك .
>
> اللهم انصر أعلى الجندين ، وأهدى الفئتين ، وأكرم الحزبين ، وأفضل الدينين[١٦] .

وهو الدعاء الذى يعبر عنده ، عن كون قريش هم أهل الله ، كما نعتهم العرب ، لأنهم حماة بيته ورعاة حرماته ، وهو الاعتقاد الذى دفع قريشاً وهى فى طريقها إلى بدر أن تأتى فى رحلها بأكثر الرايات قدسية ؛ أستار الكعبة !! .

---

(١٢) الحلبي : سبق ذكره ، مج ٢ ، ص ٣٩٧ .
(١٣) البيهقي : سبق ذكره، ج٣ ، ص ٦٣ .
(١٤) السهيلي : سبق ذكره، مج٣ ، ص ٩٣ .
(١٥) البيهقي : سبق ذكره، ج٣، ص ٧٥ .
(١٦) الحلبي : سبق ذكره، مج٢، ص ٤١٨ .

الوقعـــة

ولما أخذ العطش بالحلوق ، خرج (الأسود بن عبد الأسد المخزومى) يركض مصعداً نحو حوض المسلمين لا يلوى على شىء ، مقسماً «أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه ، أو لأموت دونه ، فخرج له حمزة بن عبد المطلب ، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، ووقع على ظهره تشخب رجله دماً . . . ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله فى الحوض »[١٧] .

وذاهلة وقفت قريش ، التى تحول حفلها من دفوف وقيان وخمر وسمر ، إلى حرب ودم . فأراد (عتبة) بذات الحكمة ، أن يسلك سلوك العرب ، فيدعو إلى مبارزة تنهى الأمر عند حد ، وتوقف نهر الدم الموشك على التدفق ، بهزيمة أحد الطرفين فى مبارزة عادلة ، تنتهى بانسحاب المهزوم واعترافه بالهزيمة . فيروى ابن هشام «خرج عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد بن شيبة ، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة ، وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث . . . وعبد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار ، قالوا : ما لنا بكم من حاجة ، ثم نادى مناديهم ؛ يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا» .

وبهذا النداء كانت قريشاً لا تزال تحسب العواقب وتتحاشى مخاطرها ، لأن مبارزة بعض أهلهم ، أمر يمكن بعد ذلك علاجه بين الأهل وبعضهم . أما مبارزة الأنصار ، فهى ثأر باق بين مدينتين ، لا يعلم إلا الله منتهاه ، وهو ما قد يقضى تماماً على طريق الإيلاف المار قرب يثرب . واستجاب النبي الكريم لرغبة قريش فقال : « قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا علي ، فلما قاموا دنوا منهم ، قالوا : من أنتم ؟ قال عبيدة : عبيدة ، وقال حمزة : حمزة ، وقال علي : علي ، قالوا : نعم أكفاء كرام ، فبارز عبيدة وكان أسن

---

(١٧) الطبري : سبق ذكره، ج٢ ، ص٤٥٥ .

القوم عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز على الوليد بن عتبة ، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما على فلم يمهل الوليد أن قتله»[١٨] .

وعقب ابن اسحق وابن كثير على التساؤل القرشى « من أنتم؟» ، بأنه «دليل على أنهم كانوا ملبسين لا يعرفون من السلاح»[١٩] ، بالخوذ الحديدية ، التي تخفي بداخلها الرؤوس، والدروع التى تغطى الأجساد .

أما الشيخ ثقيل الجسم كبير السن (عتبة بن ربيعة) فقد صمد لعبيدة ، وأصاب كل منهما الآخر بضربة أثبتته ، فما كان من (حمزة) و (على) إلا أن كسرا قواعد المبارزة وشروطها ، ونزلا على الشيخ العجوز بالأسياف فأجهزا عليه ، ثم احتملا زميلهما (عبيدة) بسرعة ، إلى صفوف أصحابهم .

وهكذا قتل المسلمون صناديد قريش ، أما كسر قواعد المبارزة فقد حكى عنه بعد ذلك (على بن أبى طالب) كرم الله وجهه ، لرفع صفة المعابة عنه ، حيث تغيرت القواعد بتغير المعيار ، وبقيت قاعدة واحدة هى معيار كل المعايير ، وهى الفيصل والفصل ، معلقة برأى النبى الخاتم ﷺ، فقال (على) : « أعنت أنا وحمزة عبيدة بن الحارث على أبى الوليد ، فلم يعب النبى علينا ذلك»[٢٠] .

وقبل أن تفيق قريش من ذهولها أمام قتل صناديدها ، ومن حميتها إزاء كسر قواعد المبارزة ، ومقتل شيخها عتبة بسيوف ثلاثة تكاثرت عليه ، أخذ النبي حفنة من الحصباء استقبل بها قريشاً ، ونفحها بها قائلاً : شاهت الوجوه ، ثم هتف بأصحابه : شدوا[٢١] . بينما ثنى نحو صفوف النبالة التى ثبتت وراء نواتىء التلول لتحمى المسلمين السيافة

---

(١٨) السهيلي : سبق ذكره، مج٣، ص ٣٨ .
(١٩) ابن كثير : سبق ذكره، ج٣، ص٢٧٢ .
(٢٠) الحلبي : سبق ذكره، مج٢، ص٤٠١ .
(٢١) السهيلي : سبق ذكره، مج٣، ص ٣٩ .

المنقضين على قريش ، يقول : « إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل واستبقوا نبلكم . . . ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم»[٢٢] .

وهكذا بدأت وقعة بدر الكبرى ، وهكذا كان التخطيط الجيد والإعداد الدقيق ، الذى تفاعلت فيه خطة القائد وعزمه ، مع خبرة أركان حربه من رجال الدم والحرب والحلقة ، صفوف صفوف ، منها من يشد علي الأعادي ومنها من يحمى بسهامه المتقدمين ، فلم يترك شيئاً للصدفة ، ولا أمراً للهوى ، وهو ما كانت نتيجته المحتمة ، ما سجلته كتب السير والأخبار :

> فكانت الهزيمة ، فقتل الله من قتل من صناديد قريش ، وأسر منهم من أسر[٢٣] .

هذا بينما استكان القائد إلى عريشه ، مع أبى بكر ، وعلى رأس التل وقف سعد بن معاذ يتأمل ما يحدث تحته فى الوادي ، ورأى النبى فى وجهه شيئاً فقال له : « لكأنك يا سعد تكره ما يصنع الناس !!»[٢٤] .

وكان حصاد المعركة ما جاء فى تقرير (الطبرى) « فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً»[٢٥] . بينما كان شهداء المسلمين فى تقرير (البيهقى) « مع قريش - المهاجرين - ستة نفر ومن الأنصار ثمانية نفر»[٢٦] .

وبفرار أهل مكة فراراً بلا كرامة ، وسقوط بعضهم قتلى أو أسرى ، هبط النبى ليأمر بإلقاء الجثث فى القليب ، ليعتمل فى النفس ما كان يجيش بها ، وينطق اللسان النبوي منادياً :

---

(٢٢) الحلبي : سبق ذكره ، مج٢ ، ص ٤٠٣ .
(٢٣) البيهقي : سبق ذكره ، ج٣ ، ص١٢٢ .
(٢٤) الطبري : سبق ذكره ، ص ٤٤٩ .
(٢٥) نفسه : ص٢٩٧ .
(٢٦) البيهقي : سبق ذكره ، ص١٢٢ .

يا أهل القليب ؛ بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً[٢٧] .

وبينما المسلمون يسحبون قتلى المشركين إلي القليب ، وقف (أبو حذيفة بن عتبة) يتطلع إلى أبيه وهم يجرجرونه ، وهو من سبق واحتج قبل الوقعة على أمر النبي بعدم قتل بني هاشم ، حيث قال :

أتقتل آباءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ؟ والله لئن لقيته لألحمنه السيف ، فبلغت مقالته رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب : يا أبا حفص ، أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟ فقال عمر : يا رسول الله ائذن لى فأضرب عنقه ، فوالله لقد نافق ، فكان أبو حذيفة يقول : والله ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت[٢٨] .

ويروى ابن هشام مستكملاً المشهد :

وأخذ عتبة بن ربيعة فسُحب إلى القليب ، فنظر رسول الله ﷺ فى وجه أبى حذيفة بن عتبة ، فإذا هو كئيب قد تغير ، فقال : يا أبا حذيفة ، لعلك قد دخلك فى شأن أبيك شيء؟ فقال : لا والله يارسول الله ، ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكننى كنت أعرف من أبى رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام[٢٩] .

---

(٢٧) السهيلي : سبق ذكره ، ص ٥١ .
(٢٨) ابن سيد الناس : عيون الأثر ، سبق ذكره ، ج١ ، ص٣١٠ .
(٢٩) السهيلي : سبق ذكره ، ص ٥١ , ٥٢ .

وهكذا جاءت قريش إلى بدر لتنشر هيبتها فنثرتها ، وجاء الملأ ليعلنوا للعرب أنهم حماة بيت الله ، وأنهم قادرون على حماية تجارتهم وأمنها ، برعاية رب البيت ، لأنهم كما أسماهم العرب (أهل الله) ، فما عاد الملأ إلى مكة ، وذهبوا تحت رمال القليب . وبدلاً من رسالة أرادوها مُبلغة للامبراطوريتين ، بلغت رسالة أخرى تبرق بخبر آخر ، عبرت عنها أشعار تنسبها كتبنا التراثية إلى الجن ، وهى تقول :

أزار **الحنيفيون** بدراً وقيعة **سينقض منها ركن كسرى وقيصرا**

أبادت رجالاً من لؤى وأبرزت خرائد يضربن الترائب حُسّرا

فياويح من أمسى عدو محمد لقد قار عن قصد الهوى وتحيرا(٣٠)

وانتهى أمر الملأ ، وهى النهاية التى جاء أمرها جلياً فى طريق عودة الركب المنتصر ، حيث جاء الناس يهنئون النبي ﷺ بالنصر ، فما كان من (سلمة بن سلامة) ذرب اللسان المفصح العجول ، إلا أن برز برأسه من بين الناس ليقول :

ما الذى تهنئوننا به ؟ فوالله ما لقينا إلا عجائز صُلعا كالبدن المعقلة ، فنحرناها ، فتبسم رسول الله ثم قال : لكن يا ابن أخى ، أولئك هم الملأ(٣١) .

وهو ذات الإفصاح الذى أفصح عنه لسان (المغيرة بن الحارث) على الجانب القرشى ، عندما عاد المهزومون فراراً إلى مكة ، فالتقاهم (أبو لهب) ينادى (المغيرة) : « هلم إلىّ فعندك لعمرى الخبر اليقين » ، فأجابه (المغيرة) بخبره اليقين ، موجزاً قصة المفاجأة فى بدر بقوله :

---

(٣٠) البيهقي : سبق ذكره ، ص ٣٠٩ .

(٣١) محمد أبو الفضل ومحمد البجاوي : أيام العرب فى الإسلام ، دار الحداثة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٣ ، ص ٢٥ .

والله ما هو إلا أن لقينا القوم ، فمنحناهم أكتافنا ، يقتلوننا كيف شاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا[٣٢] .

وهكذا سقطت الرؤوس الأرستقراطية الصلبة ، وتحقق الوعد الإلهي بإحدى الطائفتين العير أو قريش ، فكانت الثانية : قريشاً .

فداء الأسرى

وكان الأسرى خير عوض عن عير (أبى سفيان) ، بما دفعه أهل مكة فيهم لفك أسرهم ، حتى (العباس) عم النبي ، ورغم حب النبي له ولآل البيت الهاشمى ، فقد دفع (العباس) فديته ، وكان حب النبي ﷺ لبيته الهاشمى مرحمة ملكت عليه فؤاده الرؤوف ، فهو لم ينس أنهم كانوا حماته ودرع دعوته الواقى بمكة ، ثم عيوناً له على المكيين بعد هجرته إلى يثرب ، رغم عدم اتباعهم لدعوته ، فكانت منعتهم له عصبية قبلية ووفاء عشائرياً . مع دافع آخر هام يتمثل فى صراعهم مع الأمويين بني عبد شمس ، وهو موقف وإن تعارض مع الدعوة الأممية الطالعة ، التى تنزع الولاء عن القبيلة وتضعه بيد العقيدة ودولتها الواحدة، فإن تلك النزعة العشائرية كانت ذات أثر ودور عظيم ، فى حماية صاحب الدعوة ، ومن ثم دعوته ، حتى وصل إلى حمى أخواله اليثاربة . الذين زادوا على الأزرة القرابية ، الإيمان بدعوته ، ومن ثم كان الوفاء النبوي واضحاً فى كتب السيرة ، وهى تروى بلسان ابن عباس :

لما أمسى رسول الله يوم بدر ، والأسارى محبوسون بالوثاق ، بات الرسول ساهراً أول الليل ، فقال له أصحابه : يارسول الله مالك لا تنام ؟؟ - وقد أسر العباس رجل من الأنصار - فقال رسول الله ﷺ : سمعت أنين عمى العباس فى وثاقه ، فأطلقوه ، فسكت ، فنام رسول الله .

---

(٣٢) ابن كثير : سبق ذكره ، ص ٣٠٩ .

لكن مثل ذلك الوفاء والحنين ، كان ممكناً أن يثير تساؤلات مشروعة فى نفوس أتباع هجروا العشائرية ، ومنحوا الولاء كله لدعوة ترفض الأطر القبلية بل تحطمها ، ومن ثم كان يمكن لذلك الوفاء النبوي أن يثير اعتراضات ، سبق أن رأينا لها مثيلاً فى موقف (أبى حذيفة بن عتبة) . ومن هنا كان التوازن ، الذى يظهر فى رواية ابن اسحق « وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء ، العباس بن عبد المطلب ، وذلك لأنه كان رجلاً موسراً ، فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهب»[٣٣] . ويقول (ابن كثير) إن ذلك الفداء الضخم « كان عن نفسه ، وعن ابنى أخويه عقيل ونوفل ، وعن حليفة عتبة ابن عمرو » [٣٤] .

ويروى (البيهقي) أن رجالاً ممن أسروا ببدر قالوا للنبي : «إنّا كنا مسلمين ، وإنما أُخرجنا كرهاً ، فعلام يؤخذ منا الفداء ؟! فأنزل الله عز وجل : ﴿ يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ (٧٠/ الأنفال)[٣٥] . ويذهب (ابن كثير) إلى أن تلك الرواية كانت خاصة بالعباس بن عبد المطلب ونفر معه :

حين ادعى أنه كان قد أسلم[٣٦] .

فأصر النبي على دفعه الفدية ، فتقدم آسروه من الأنصار يجاملون النبي برغبتهم فى تركه دون فداء ، فكان رد النبي ﷺ :

لا والله لا تذرون منه درهماً واحداً .

ورغم إعلان العباس إسلامه ، فقد ظل إصرار النبي على دفعه الفداء . وهو أمر يمكن فهمه فى ضوء ما يحقق من أغراض ، فهو التوازن الذى يحفظ المحتوى للدعوة ، أو ما

---

(٣٣) البيهقي : سبق ذكره ، ص ١٤١ .
(٣٤) ابن كثير : سبق ذكره، ص ٣٠٠ .
(٣٥) البيهقي : سبق ذكره، ص١١٩ .
(٣٦) ابن كثير : سبق ذكره، ص ٣٠٠ .

يحفظ المحتوى العشائرى داخل النسق الأممي عند صاحب الدعوة ، أمام أشخاص مثل (أبى حذيفة) . فى مرحلة لم تزل فيها القلاقل قائمة أمام استقرار أمر الدولة الطالعة واستقامته ، ونزولاً بمستوى العباس الطبقى إلى مستوى يقترب فيه مع بقية المسلمين ، فى ضوء زعمه الإسلام ، وهم من تقاربت أوضاعهم الاقتصادية وذابت بينهم الفوارق فى تلك المرحلة ، بتوزيع الأنفال البدرية بينهم بالتساوي .

ولكن عندما تغيرت الأحوال بعد ذلك ، بعد قيام الدولة وصلابة عودها ومنعتها ، تم تعويض العباس خيراً مما أخذ منه فى فداء أسره من بدر ، وصدق الله وعده فى الآيات ، وهو ما جاء فى رواية أنس :

> إن النبى ﷺ أتى بمال من البحرين ، فقال : انثروه فى المسجد ، فكان أكثر مال أتى به رسول الله ، إذ جاءه العباس فقال : يارسول الله اعطني ، فإنى فاديت نفسى وفاديت عقيلاً ، فقال : خذ ، فحثا ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع ، فقال مر بعضهم برفعه إلىّ ، قال : لا ، قال : فارفعه أنت علىّ قال : لا ، فنثر منه ، ثم احتمله على كاهله فانطلق(٣٧) .

ويتضح لنا ذلك الصراع بين الأممية والقبلية ، فى لحظة العودة من بدر ، ومعهم الأسرى ، وفيهم العباس وبعض بنى هاشم ، فاستشار النبى أصحابه بشأنهم . والرواية هنا تبرز بوضوح موقف من بدّل ولاءه تماماً نحو الأممية الجديدة ، وهو الموقف المتناقض مع موقف آخر لا زال يستبطن القبلية وحميتها ، ثم موقف ثالث هو موقف النبى ﷺ واصطراع الأمرين داخل نفسه البشرية ، فهذا (عمر بن الخطاب) يتجاوز كل ألوان الولاء القبلي بأممية صارمة صادقة ، إعمالاً لمبادىء الدعوة وتصديقاً لها ، فيقول :

---

(٣٧) الموضع نفسه .

يا رسول الله ؛ كذبوك ، وأخرجوك ، وقاتلوك . أرى أن تمكننى من فلان فأضرب عنقه (وهو قريب له) ، وتمكن عليا من أخيه عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم أنه **ليست فى قلوبنا مودة للمشركين** .

أما ابن رواحة فكان رأيه أشد صرامة ، وأكثر رغبة فى التشفى ، فقال :

انظروا وادياً كثير الحطب ، فأُضرمه عليهم ناراً ، فقال العباس - وهو يسمع - **ثكلتك رحمك** (٣٨) .

هذا بينما كان أبو بكر فى أقصى اليمين يقول بالأخرى :

يارسول الله ؛ نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء ، **فذهب عن وجه رسول الله ما كان فيه من الغم** (٣٩) .

أو برواية أخرى :

يارسول الله ؛ **أهلك وقومك** . . هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، قد أعطاك الله الظفر ، ونصرك عليهم ، أرى أن تستبقيهم وتأخذ منهم الفداء ، **فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار** (٤٠) .

القبلية والأممية

وكان أبلغ المواقف على استبطان النبى ﷺ للرحم ، والعلاقة العشائرية والأسرية ، رغم المتغير المطلوب ، ورغم أممية الدعوة واستبدالها العلاقات القديمة بعلاقات جديدة

(٣٨) الحلبي : سبق ذكره ، ص ٤٤٧ .
(٣٩) ابن كثير : سبق ذكره ، ص ٢٧٩ .
(٤٠) الحلبي : سبق ذكره ، ص ٤٤٦ .

وبالولاء القديم ولاء جديداً ، بعلاقات إيمانية تحطم القبلية . كان أبلغ هذه المواقف ما جاء في قصة فداء (أبى العاص بن الربيع) ، زوج (زينب) بنت النبى الكريم ﷺ .

يروى الطبري :

كان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله حين أسلمت ، وبين أبى العاص بن الربيع ، إلا أن رسول الله ﷺ كان **لا يقدر على أن يفرق بينهما ، فأقامت معه على إسلامها** ، وهو على شركه، . . فأصيب فى الأسارى يوم بدر [41] .

ويكمل ابن كثير :

عن عائشة قالت : لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله فى فداء أبى العاص بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها ، كانت خديجة قد أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى عليها ، فلما رآها رسول الله ﷺ **رقّ لها رقة شديدة وقال : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها الذى لها** [42] .

ويتابع ابن هشام فيقول : إن النبى ﷺ أخذ على أبى العاص أن يخلي سبيل زينب ، ويرسلها إلى حيث سينتظرها أتباع من يثرب على حدود مكة ، وعن عبد الله بن أبى بكر قال : « حدثت عن زينب أنها قالت : بينما أنا أتجهز بمكة للحوق بأبى، لقيت هنداً بنت عتبة ، فقالت : يا بنت محمد ، ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك ؟ فقالت : **ما أردت ذلك** . . . فلما فرغت بنت رسول الله من جهازها ، قدم لها حموها كنانة بن الربيع أخو زوجها بعيراً فركبته ، وأخذ قوسه وكنانته وخرج بها يقودها نهاراً وهى فى هودج

---

(٤١) الطبري : سبق ذكره، ص ٤٦٨ .

(٤٢) ابن كثير : سبق ذكره، ص ٣١٢ .

لها . وتحدث بذلك رجال من قريش فخرجوا فى طلبها ، حتى أدركوها بذى طوى . . . وبرك حموها كنانة ونثر كنانته ثم قال : والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهماً ، فتكركر الناس عنه ، وأتى أبو سفيان فى جلة من قريش فقال : أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك ، فكف . فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه ، فقال : إنك لم تصب إذ خرجت بابنته علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا ، إن ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا التى كانت ، وإن ذلك منا ضعف ووهن ، ولعمرى ما لنا بها عن أبيها من حاجة ، وما لنا فى ذلك من ثورة ، ولكن رجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات ، وتحدثت الناس أننا قد رددناها ، فسلّها سراً وألحقها بأبيها ، ففعل» .

وفى الروايات ، أن الذين طاردوا زينباً ، كانا هبار بن الأسود ، ونافع بن عبد القيس ، فروعاها فأفرغت بطنها وكانت حاملاً ، ولما رجع الرجلان إلى مكة ، قابلتهما هند تذمهما وتقول :

أفى السلم أعيار جفاء وغلظة وفى الحرب أشباه النساء العوارك[٤٣]

(والنساء العوارك هن الغوانج) . أما النبى فكان له موقف آخر من الرجلين، إذ أمر ببعث سرية، أمر رجالها أن يظفروا بهبار ونافع، وأن يحرقوهما بالنار **جزاء ما قدمت يداهما فى حق ابنته**، لكنه عاد فأرسل لهم قبل خروجهم :

> إنى كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين ، إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغى لأحد أن يعذب بالنار إلا الله، **فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما** .

ويتابع ابن اسحق راوى السيرة فيقول : «وأقام أبو العاص بمكة، وأقامت زينب عند رسول الله ﷺ بالمدينة ، حين فرق الإسلام بينهما، حتى إذا كان قبيل الفتح، خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام -- وكان رجلاً مأموناً - بماله وأموال رجال لقريش أبضعوها معه،

(٤٣) نفسه : ص ٣٣١ .

فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً، لقيته سرية لرسول الله، فأصابوا ما معه، وأعجزهم هارباً. فلما قدمت السرية بما أصابوا من مال، أقبل أبو العاص تحت الليل، حتى دخل على زينب بنت رسول الله، فلما خرج رسول الله إلى الصبح . . . كبر وكبر الناس معه، صرخت زينب من صفة النساء: أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع. فلما سلم رسول الله من الصلاة أقبل على الناس فقال: أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم، قال أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعتم ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم.

ثم انصرف فدخل على ابنته فقال : أى بنية أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له . . ثم بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص فقال: **إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا تردوا عليه الذى له، فإنا نحب ذلك،** وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم، فأنتم أحق به، فقالوا: يارسول الله بل نرده عليه، فردوه عليه . . . ثم احتمله إلى مكة فأدى إلى كل ذى مال ماله من قريش»، وعاد بعد ذلك إلى يثرب مسلماً. ويروى ابن عباس أن النبى قد رد عليه زينب على النكاح الأول. وفى رواية لأبى عبيدة «أن أبا العاص لما قدم من الشام ومعه أموال المشركين:

- قيل له: هل لك أن تُسلم وتأخذ هذه الأموال، فإنها أموال المشركين.

- فقال: **بئس ما أبدأ به إسلامى، أن أخون أمانتى**»[٤٤].

وموقف (أبى العاص) هنا يتفق تماماً ويتطابق مع الإفراز الحتمي للظرف التاريخي والاقتصادي، فأمانة الرجل التى فرضت عليه عدم الاستيلاء على أموال قريش، هى ناتج طبيعي لظرف مكة التجارى، الذى أفرز ثقة متبادلة بين أصحاب المال، وبين القائم على الرحلة المسافرة. باعتباره أيضاً عضواً ضمن الطبقة، ومن ثم فرض ظرف مكة الجغرافى،

(٤٤) السهيلي: سبق ذكره، ص ٥٨ : ٦٠ .

وعدم إمكان خروج كل المسهمين مع القافلة، ثقة وأمانة على درجة عالية، للحفاظ على سيولة التجارة واستمرارها، لأن أى خلاف أو اختلاس أو فقد للثقة، كان كفيلاً بدمار مصلحة الجميع. وهى الأمانة التى لم تكن فى منطقهم تتعارض أبداً مع سلوكيات أخرى، كالربا والاحتكار، فهى ألوان من الكسب المشروع، ولون من التجارة والربح المباح. وقد أشار النبى ﷺ إلى الأمانة القرشية، مع ضيق أفق الرؤوس المكية وقصورها، عن إدراك دور الرأسمالية القرشية فى مشروع الوحدة الكبرى، بقوله لأبى قتادة الأنصارى بعد غزوة أحد، عندما أراد أبو قتادة التمثيل بجثث القرشيين كما مثلوا بحمزة بن عبد المطلب:

> يا أبا قتادة، إن قريشاً أهل أمانة، من بغاهم أكبه الله تعالى إلى فيه، وعسى إن طالت بك مدة أن تحقر عملك مع أعمالهم، وفعالك مع فعالهم، **ولولا أن تَبْطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله**(٤٥).

والقول الشريف هنا يفصح عن خبيئة نفس المصطفى ﷺ لأهله وبلده، وعن التناقض الآتى الذى سيفصح عن نفسه فى أواخر الحياة النبوية المشرفة، فى فتح مكة وتوزيع المكاسب فى هبات وإقطاعات وأعطيات لأهل قريش من الطلقاء والمؤلفة قلوبهم، ثم ما أفصح عنه اجتماع سقيفة بنى ساعدة، وانتهى بصب الأمر فى النهاية بيد قريش. أما الآن وفى ظرف بدر الراهن، فإن قطع المسلمين للطريق التجارى، والاستيلاء على قوافل مكة، وقتل رجال حكومة الملأ الصناديد والرؤوس والأشراف، كان حلقة - فرضها الظرف، وعدم وعى المكيين - فى حلقات التطور الحتمى الآتى، ودفعاً للموقف عبر مسيرته الضرورية، وإبلاغاً للروم والعجم، أن الأمر قد صار إلى مدينة أخرى، وإلى يد أخرى، ونظام آخر.

---

(٤٥) الحلبى: سبق ذكره، ص ٥٢٥.

المزايدات فى قصة بدر

«أمـــــا لـكـم فـى الـلـبن مـن حـــــاجــــــة ؟!»

(نداء قرشى فى وقعة بدر)

عن (على بن أبى طالب) كرم الله وجهه - فى وقعة بدر - قال: «حملني الرسول على فرسة فجمزت بي، فوقعت على عقبي، فدعوت الله، فأمسكت، فلما استويت عليها، طعنت بيدى هذه فى القوم **حتى اختضب هذا، وأشار إلى إبطه**»[1]. محققا لنفسه بذلك ضحك الله من عبد يغمس يده فى العدو.

وهو الأمر الذى يدعو إلى التساؤل حول رواية كتب السير والأخبار، عن كراهة (سعد بن معاذ) لرؤية ما يصنع المسلمون بالمشركين، وعن كون تلك الكراهة ناتجة عن أخذ المكيين أسرى، بدلاً من قتلهم أم العكس؟ والتساؤل مع اختضاب إبط (على) بالدم: هل كان المتفشى فى بدر هو القتل أم الأسر؟ **وأيهما كان غرض المعركة الأساسى**؟.

إن تعادل عدد القتلى والأسرى ربما يغنى عن طرح السؤال. لكن فى واقع ما حدث تحت غبار وقعة بدر، ما يشير إلى رغبة متأججة فى الثأر من صناديد الملأ القرشى، الذين سبق أن أخرجوا المسلمين من ديارهم وأبنائهم، فهناك وقائع لها نفس دلالات قول الإمام على كرم الله وجهه، أعطاها مشروعيتها دعوة الآيات:

﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾(١٢/ الأنفال).

والأمر على الترتيب فى الوحى هو:

---

(١) البيهقي: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص٥٥.

﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء﴾ (٤/ محمد).

فأولاً: ضرب الأعناق، وفصل الرقاب، وكل بنان، ثم بعد ذلك: شد الوثاق طلباً للفداء، دعماً مادياً للمسلمين، أو المن على البعض الآخر، رغم شركهم وعدم إيمانهم، كما سنرى له أمثلة الآن.

وقد أفاضت كتب السيرة بشأن مقتلة عدد من الرؤوس القرشية، منهم (أبو البخترى بن هشام). وكان مفترضاً عدم قتله بأمر من الرسول ﷺ رغم عدم إيمانه بدعوته الدينية، فلم يعقد أمره حول الإيمان من عدمه، إنما لأسباب أخرى تقول:

> نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبى البخترى، لأنه كان أكف القوم عن رسول الله وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة، التى كتبت قريش على بني هاشم وبني عبدالمطلب[٢].

كذلك كان النبي بوفاء رحمى، قد نهى أيضاً عن قتل عمه (العباس بن عبد المطلب)، ومن تواجد من بنى هاشم فى بدر، رغم عدم إيمانهم بدعوته الدينية.

وقرب انتهاء وقعة بدر، بينما الناس يهربون أو يتخفون، لقى (المجذر بن زياد البلوى) أبا البخترى، ومع (أبى البخترى) صديق له خرج معه من مكة، هو (جنادة بن مليحة). فقال له (المجذر)، ورد عليه (أبو البخترى)، فى حوار له أهمية:

> المجذر: إن رسول الله قد نهانا عن قتلك.
>
> أبو البخترى: وزميلى؟
>
> المجذر: **لا والله، ما نحن بتاركى زميلك**، ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك.

---

(٢) السهيلي: (فى شرح السيرة النبوية لابن هشام)، سبق ذكره، مج٣، ص٣٩, ٤٠.

أبو البختري : لا والله إذن، لأموتن أنا وهو جميعاً، ولا تتحدث
عني نساء مكة، أني تركت زميلي .

فقتله المجذر . . ثم أتى رسول الله فقال : والذي بعثك بالحق، لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به، فأبى إلا أن يقاتلني، فقتلته»[٣] .

والشاهد هنا، أن الرجل المسلم طلب من (أبي البختري) الاستسلام للأسر، فأبى (أبو البختري)، إن كان في ذلك إنقاذ حياته وترك زميله يقتل، بإباء عربي يثير الإعجاب وفيه إجابة أولى عن السؤال المطروح .

أما الشاهد الثاني ففي رواية (عبد الرحمن بن عوف) عن مقتل (أمية بن خلف)، حيث قال (عبدالرحمن) : «كان أمية صديقاً لي بمكة، وكان اسمي عبد عمرو فتسميت حين أسلمت عبد الرحمن ونحن بمكة، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول : يا عبد عمرو، أرغبت عن اسم سماكه أبواك؟ فأقول : نعم، فيقول : فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف . قال : فكان إذا دعاني؛ ياعبد عمرو لم أجبه، قال : فقلت له : يا أبا علي اجعل ما شئت، قال : فأنت عبدالإله، فقلت : نعم . فكنت إذا مررت به قال : ياعبد الإله، فأجيبه وأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر مررت به، وهو واقف مع ابنه عليّ بن أمية، آخذ بيده، ومعي أدراع قد استلبتها فأنا أحملها . فلما رآني قال لي : ياعبد عمرو، فلم أجبه، فقال : يا عبد الإله، قلت : نعم، قال : هل لك فيَّ فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك، قلت : نعم، ها لله ذا . فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده ويد ابنه وهو يقول :

ما رأيت كاليوم قط، أما لكم في اللبن من حاجة؟

(٣) الحلبي : السيرة، سبق ذكره، ص ٤١٤ .

ثم خرجت أمشى بهما، قال ابن هشام: يريد باللبن،

أنه من أسرنى افتديت منه بإبل كثيرة اللبن.

فوالله إنى لأقودهما، إذ رآه بلال معى وكان هو الذى يعذب بلالاً بمكة ليترك الإسلام.. فلما رآه قال:

رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا

ثم صرخ بأعلى صوته:

يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا،

فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل المسكة، وأنا أذب عنه»[٤].

فهنا رجل تأبى عليه عزته الهرب مع من هرب، فيقف فى الميدان مستمداً الشجاعة والدفء من الإمساك بيد ولده علي، حتى إذا لقى صديقه المسلم ناداه طالباً منه أسره مع ولده، ليضمن معاملة أفضل وهو فى الأسر، كما يضمن لصديقه أقصى انتفاع متى حان وقت الفداء. ثم هو يبدى دهشته لكثرة القتل، بينما بالعقلية التجارية يكون الأسر أكثر نفعاً لعائديته بإبل ولبن ومال وذهب. واختتم ابن كثير مقتلة أمية وولده عليّ، برواية عبد الرحمن بن عوف: «فلما خشيت أن يلحقونا، خلفت لهم ابنه لأشغلهم، فقتلوه، ثم أتوا حتى تبعونا، وكان رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: إبرك، فبرك فألقيت نفسى عليه لأمنعه، فتخللوه بالسيوف من تحتى»[٥]، أو بتعبير ابن هشام:

هبروه بأسيافهم، من الهبرة، وهى القطعة العظيمة من اللحم،

أى قطّعوه[٦].

---

(٤) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص٤٠.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج٣، ص ٢٨٧.

(٦) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص٤٨.

وعن مقتلة (أبى جهل)، تروى كتب السير «وكان أول من لقى أبا جهل، (معاذ بن عمرو بن الجموح) . . . قال: سمعت القوم وأبو جهل فى مثل الحرجة (الشجر الملتف) وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخلص إليه . . . فصمدت نحوه، فلما أمكننى حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه، . . . وضربنى ابنه عكرمة على عاتقى فطرحت يدى، فتعلقت بجلدة من جنبى، وأجهضنى القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومى، وإنى لأسحبها خلفى، فلما آذتنى وضعت عليها قدمى ثم تمطيت حتى طرحتها»[7].

وهكذا كانت الإصابة الأولى لأبى الحكم بن هشام، فقطع (معاذ بن عمرو بن الجموح) ساقه، وتركه عقيراً بين الأحراش بعد أن قام ابنه (عكرمة) يذب عنه، وظل على حاله بينما انشغل (عكرمة) فى القتال، ثم فى الهرب، حتى مر به (معوذ بن عفراء) فناوشه وهو يدافع عن نفسه، حتى ناله (معوذ) بضربة أخرى أثبتته عن الحركة[8]، حتى مر عليه (عبدالله بن مسعود)، الذى يروى فيقول: «وجدته بآخر رمق، فعرفته، فوضعت رجلى على عنقه . . . فقال لى أبو جهل:

«لقد ارتقيت يا رويعى الغنم مرتقى صعباً»[9].

أما (ابن مسعود) فيسوق لنا تدقيقه فى الرواية، حتى ما مر بذاكرته من ذكرى طافت به وهو يقف على رأس عدوه، إذ يقول:

«وقد كان ضبث بى مرة بمكة، فآذانى ولكزنى»[10].

ثم يسوق ذكرى أخرى فى روايته بدلائل البيهقي:

---

(٧) نفسه: ص٤٢.

(٨) الموضع نفسه.

(٩) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج١، ص٣١٤.

(١٠) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٤٥٥.

وانتهيت إلى أبي جهل وهو صريع ، ومعه سيف جيد ومعي سيف رث ، فجعلت أنقف رأسه بسيفي ، وأذكر نقفاً كان ينقف رأسي بمكة ، حتى ضعفت يدي[11] .

ويستمر (ابن مسعود) لينقل عنه (الحلبي) في سيرته ، قوله :

فبصق في وجهي وقال خذ سيفي واحتز به رأسي من عرشه ، ليكون أنهى للرقبة . . . ففعلت ذلك ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ فقلت هذا رأس عدو الله أبي جهل ، فقال رسول الله : آلله الذي لا إله إلا غيره . ورددها ثلاثاً .

وروى الطبراني : آلله قتلت أبا جهل؟ قلت : نعم ، والله الذي لا إله غيره . **ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله** ، فحمد الله تعالى ، ويقال أنه سجد خمس سجدات شكراً[12] .

أما (نوفل بن خويلد) الذي كان يصيح في بداية الوقعة : «يامعشر قريش؛ إن هذا اليوم يوم العلا والرفعة» . فقد انتهى إلى نداء آخر مرتعش ينادي المسلمين :

ما حاجتكم إلى دمائنا؟ أما ترون ما تقتلون؟

أما لكم في اللبن من حاجة؟

«فأسره جبار بن صخر ، فهو يسوقه أمامه ، فجعل نوفل يقول لجبار ـ وقد رأى علياً مقبلاً نحوه ـ يا أخا الأنصار ؛ من هذا ؟ واللات والعزى إني لأرى الرجل يريدني؟ قال : هذا علي بن أبي طالب ، قال : ما رأيت كاليوم رجلاً أسرع في قومه منه ، فيصمد له عليّ ، فيضربه ، فنشب سيفه في جحفته ساعة ، ثم نزعه ، فضرب ساقيه ودرعه مشمرة فقطعها ،

(11) البيهقي : سبق ذكره ، ج٣ ، ص٨٨ .
(12) الحلبي : سبق ذكره ، مج٢ ، ص ٤٢٠ .

ثم أجهز عليه فقتله»[١٣] . ومهما بُحث عن سر وراء قتل ذلك الأسير ـ غير عدم إيمانه بالدعوة ـ **فلن تجد سوى أنه كان أحد رؤوس قريش** .

الأسـرى

وكان فى الأسرى (النضر بن الحارث) ربيب مدرسة جند يسابور ، الذى تعلم هناك علوم الحضارات ، بما فيها أخبار الأقدمين ، فى بعث أثرياء مكة أبناءهم لمدارس الحضارات . وكان يقعد مع زميله (عقبة بن أبى معيط) للنبى بمكة مقعد رصد ، ليتوجهوا له باستفسارات كثيرة بقصد الإحراج والإيذاء . وعادة ما كانوا يعقبون بقولهم للناس : تعالوا ، نقول لكم أفضل مما قال ، وللصدفة العجيبة أن يقع مع (النضر) فى الأسر ، رفيقه المثقف (عقبة بن أبى معيط) ، ليسيرا فى ركاب الركب المنتصر مقيّدين .

وقد وقع (النضر) أسيراً بيد (المقداد) ، وتم ربطه مع بقية الأسرى الذين أخذوا يمرون أمام رسول الله ﷺ ومن ثم «نظر إلى النضر وهو أسير ، فقال النضر للأسير الذى بجانبه : محمد والله قاتلى ، فإنه نظر إلى بعينين فيهما الموت ، فقال له : والله ما هذا منك إلا رعب . وقال النضر لمصعب بن عمير : يا مصعب أنت أقرب من هذا إلىَّ رحماً ، فكلم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابى ـ يعنى المأسورين ـ هو والله قاتلى ، فقال مصعب : إنك كنت تقول فى كتاب الله كذا وكذا ، وتقول فى نبيه كذا وكذا . . . »[١٤] . وفى أسباب النزول للسيوطى كان المقداد آسر النضر ، وما أن أناخ الركب المنتصر بالصفراء ، **حتى أمر النبى بقتل النضر** ، فقال المقداد : يارسول الله أسيرى ، فقال له رسول الله : **إنه كان يقول فى كتاب الله ما يقول**[١٥] .

---

(١٣) البيهقى : سبق ذكره ، ج٣ ، ص٩٤ .
(١٤) الحلبى : سبق ذكره ، مج٢ ، ص ٤٤١ .
(١٥) الموضع نفسه .

وبعد ذلك بزمن، يوم فتح المسلمين لمكة، أنشدت شقيقة النضر النبى شعراً يقول:

أمحمد لأنت ضنء نجيبة في قومها، والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما مَنّ الفتى وهو المغيظ المحنق

وهنا عقب النبى بحنوه «**لو بلغنى هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه**»[١٦]، أى لأطلقه، رغم ما قال فى كتاب الله وما فعل برسول الله، ومع عدم الإيمان بدعوة الإسلام(؟!).

وبعد مرحلة من الطريق ، أناخ الركب بعرق الظبية، وأمر النبى (عاصم بن ثابت) بقتل رفيق (النضر) وزميل تلمذته (عقبة بن أبى معيط). ولما أقبل إليه (عاصم بن ثابت)، دارت بينهما المحاورة التالية:

عقبة: يا معشر قريش، علام أقتل من بين من هنا؟

عاصم: على عداوتك لله ورسوله..

عقبة: أتقتلنى يامحمد من بين قريش ؟

النبى: نعم، أتدرون ما صنع بى هذا؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقى وغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عينى ستندران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاها على رأسى وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى[١٧] .

وهكذا أدرك (عقبة) مصيره جزاء ما قدمت يداه، حتى لو كان أسيراً، بعد أن كان بمكة سيداً مترفاً، فكان أن تهاوت الكرامة والعزة، وتنازل عن كبريائه وصرخ مسترحماً فى استغاثة أخيرة يُذكّر النبى بما لديه من أطفال منادياً:

---

(١٦) الموضع نفسه.

(١٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج٣، ص ٣٠٦.

فمن للصبية يا محمد؟

فجاءه رد رسول الله ﷺ وهو فى دمائه يتخبط : النار[١٨] .

ووصل المسلمون ببقية الأسرى إلى يثرب، بينما كانت (سودة بنت زمعة) زوج النبى عند آل عفراء، تشاركهم مصابهم فى مناحتهم على ولديهم (عوذ) و (معوذ) اللذين استشهدا ببدر. حيث روت (سودة) - رضى الله عنها - : «والله إنى لعندهم إذ أتينا، فقيل: هؤلاء الأسارى قد أُتى بهم، فرجعت إلى بيتى ورسول الله فيه، وإذا أبو يزيد بن سهيل بن عمرو فى ناحية الحجرة، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلا والله ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد كذلك ، أن قلت :

أى أبا يزيد؛ أعطيتم بأيديكم، ألا مُتم كراماً؟

فوالله ما نبهنى إلا قول رسول الله ﷺ من البيت :

يا سودة ؛ أعلى الله ورسوله تحرضين؟

قلت : يارسول الله؛ والذى بعثك بالحق، **ما ملكت نفسى** حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه، إلا أن قلت ما قلت»[١٩] .

وتروى السير « وجاء مطعم بن مطعم وهو كافر إلى المدينة، يسأل النبى فى أسارى بدر، فقال له النبى ﷺ: لو كان شيخك - أو لو كان الشيخ أبوك - حياً، فأتانا فيهم، لشفعناه، وفى رواية: لو كان مطعم حياً وكلمنى فى هؤلاء النفر، وفى رواية : فى هؤلاء النتنى، لتركتهم له» .

أما تبرير ممكنات إطلاق مشركين لم يؤمنوا ، بشفاعة المطعم، والاستجابة لإجارته، فلأن «المطعم كان **قد أجار النبى لما قدم الطائف وكان ممن سعى فى نقض الصحيفة**»[٢٠] .

---

(١٨) السهيلي : سبق ذكره، مج٣، ص٥٣ .

(١٩) نفسه : ص ٥٤ .

(٢٠) الحلبي : مج٢، ص ٤٥١ .

وفى السيرة أن (أبا عزة بن عبد الله) كان فى الأسر، فقام يتزلف النبى بمديحه شعراً، ثم طلب منه أن يمن عليه ويطلقه، لأنه صاحب حاجة وذو بنات، فأفرج عنه. فلما ذهب إلى مكة قال: سحرت محمداً وعاد يهجوه، حتى وقع بعد ذلك أسيراً يوم أحد، وكان الأسير الوحيد فى تلك الوقعة. فعاد للمديح وطلب العفو والمن، فأجابه النبى «لا أدعك تمسح عارضيك وتقول: خدعت محمداً مرتين، ثم أمر به **فضربت عنقه**، ويقال أن فيه قال رسول الله: **لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**»[٢١].

مزايدات

وعليه، يمكن بالقراءة الموضوعية، أن يستكشف المتابع ظروفاً أدت إلى وقعة بدر، وصاغت دقائق أحداثها، وحتمت نتائجها، وأن يقرأ دور الجهد البشرى فى توجيه مجموعة العناصر المكونة للمقدمات والنتائج، ودورها الجدلى مع قواعد التطور الاقتصادى ومن ثم المجتمعى. كما يمكنه ببساطة وإنصاف، أن يقرأ دور التنظيم والتخطيط الواعى من قبل البشر لدفع ذلك التطور نحو غايته، والوقعة البدرية نحو نتائجها. وأثناء ذلك سيلمح لوناً من المزايدة التى ترقى بالحدث الموضوعى من مستوى الواقع إلى فضاء الأسطورة، أو هى على الأصح تهبط بالأسطورة لتغطية أرض الواقع، أو هى على التدقيق تفلت بحدث الواقع خارج دائرة الفعل الطبيعى والقدرات البشرية. وهى المزايدات التى ربما كانت إسهاماً أسهم به الرواة زمن الحدث، كل حسب ممكناته، **وربما كانت إسهامات إضافية أضيفت زمن تدوين كتب السير والأخبار**، وربما كانت مزايدات من أقوام كالمؤلفة قلوبهم والطلقاء لإثبات خلوص الإيمان. وقد كان الوعد بنزول الملائكة من وراء الكون المنظور إلى بقعة بدر لنصرة المسلمين، أحد أهم العوامل التى ساعدت على إعطاء الخيال الإنسانى مساحة واسعة للمزايدة، **فإن هبطت الملائكة، فلا بأس إذن من حدوث أى خارق آخر**.

(٢١) ابن كثير: سبق ذكره، ج٣، ص ٣١٣.

لقد بدأت الروايات ملتصقة بالمقبول، وبواقع الحدث كما حدث، وهو ما يمكنك تلمسه فى تلك الروايات مع بداية قصها للواقعة البدرية. فهذا - مثلاً - أول شهيد مسلم مهاجر فى بدر (عبيدة بن الحارث)، الذى بارز (عتبة بن ربيعة)، فحمله رفيقاه (حمزة) و (على) إلى رسول الله «وأحتملا صاحبهما عبيدة، فجاءا به إلى أصحابه، وقد قطعت رجله فمخّها يسيل. فلما أتوا بعبيدة إلى رسول الله ﷺ قال: ألست شهيداً، .. قال: بلى، فقال عبيدة: لو كان أبو طالب حياً لعلم أنى أحق منه حيث يقول:

ونسلم حتى نصرع حوله		ونذهل عن أبنائنا والحلائل[٢٢]

وأسلم الرجل روحه شهيداً، ورأسه علي فخذ رسول الله ﷺ والقصة كما هو واضح، تسير سيراً طبيعياً، يذكر فيها (عبيدة) النبى بأهله الهاشميين - الذين منعوه من الأمويين - على رأسهم (أبو طالب) عم النبى، عندما حقب الأمر مع الأمويين وكاد يفضى إلى حرب بين أبناء العمومة. فأرسل (أبو طالب) شعره يؤكد لهم أنهم لن ينالوا من ولده (محمد)، حتى يفنى ويصرع حوله بنو هاشم وهم يدافعون عنه، بعصبية القبيلة ورحم العشيرة. ويتميز هنا (عبيدة) فى قوله: إنه أحق من أبى طالب بذلك الشعر، أنه مات بالفعل دفاعاً عن رسول الله ﷺ ودفاعاً عن دعوته، بل ومؤمناً بهذه الدعوة. وأن أعضاء الجماعة الإسلامية، الذين هجروا القبيلة إلى الأممية، هم الأحق بالشهادة، وأحق بالقول من (أبى طالب).

ثم نرحل إلى القصة التالية، وهى عن (معاذ بن عمرو بن الجموح)، الذى ضرب ساق (أبى الحكم)، فنال منه (عكرمة بن أبى الحكم) بضربة أطاحت ذراعه «وضربنى ابنه عكرمة بن أبى الحكم على عاتقى، فطرح يدى، فتعلقت بجلدة من جنبى ... وإنى لأسحبها

(٢٢) الطبري: سبق ذكره، ج٢، ص ٢٤٥، ٢٤٦.

خلفى، فلما آذتنى وضعت عليها قدمى ثم تمطيت حتى طرحتها»[٢٣]، ومن ثم بدت الرواية قادرة على الإبهار، لمدى الصلابة والجلد عند ذلك البطل اليثربى. ولكن الأمر يبدأ هنا بالانتقال إلى فضاء الأسطورة، بمزايدات لحظنا أنها تبدأ عادة **غير محددة المصدر**، بالقول: «وفى رواية»، وهى بذلك رواية مجهولة السند، وهو ما بدأت به المزايدة فى قصة البطل (معاذ)، فى القول: «**وفى رواية**:

أنه جاء بها إلى الرسول ﷺ فبصق عليها، ولصقها، فلصقت»؟![٢٤].

وهو ما نجد له شبيهاً فى روايات صيغت حول (أبى جهل ـ أبى الحكم)، الذى كان له شأن أجلّ من أن يمر بمقتله فى بدر ببساطة وينتهى الأمر، رغم ميتته البائسة التى سقاه إياها ثلاثة من المسلمين على التوالى، لأنه كان عدو رسول الله الألد. ومن ثم كانت مقتلته غير شافية للنفوس، فيصل الأمر إلى حد قول (الشعبى)، دون سند واضح لروايته عن قائل بعينه محدد الاسم، فيقول:

إن رجلاً قال للنبى ﷺ: إنى مررت ببدر فرأيت رجلاً يخرج من الأرض، فيضربه رجل بمقمعة معه حتى يغيب فى باطن الأرض، ثم يخرج، فيفعل به مثل ذلك، قال ذلك مراراً، فقال رسول الله: ذاك أبو جهل بن هشام، يضرب إلى يوم القيامة[٢٥].

أما النبى الذى أجمعت الروايات الصادقة على أنه كان بعريشه فوق التل طول المعركة، يدعو ربه ويصلى طالباً الأزر والنصرة، **فإن روايات أخرى تضعه فى مقدمة الصفوف محارباً**، فيما نسب إلى (حارثة بن مضرب) وهو يقول:

(٢٣) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص٤٢.
(٢٤) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٤١٩.
(٢٥) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٨٩، ٩٠.

لما كان يوم بدر، اتقينا المشركين برسول الله ﷺ وكان أشد الناس بأساً.

وهو ما أخرجه (الإمام أحمد) في مسنده (١/ ٢١٦)، «وحدثنا إسرائيل بنحوه، وزاد: ما كان أحد أقرب إلى المشركين منه»[٢٦].

وعن (قتادة بن النعمان) يروى «أنه أصيبت عينه يوم بدر، فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعوها، فسألوا رسول الله ﷺ فقال: لا، فدعاه، فغمز حدقته براحته، فكان لا يدرى أى عينيه أصيب، وفى رواية: فكانت أحسن عينيه... وعن رافع بن مالك: رُميت يوم بدر بسهم، ففقئت عينى، فبصق فيها رسول الله ودعا لى، فما آذانى منها شىء»[٢٧].

ويروى أن (خبيب بن عدى) ضرب يوم بدر «فمال شقه، فتفل عليه رسول الله ﷺ ولأَمَه، ورده، فانطبق»، ثم يتقدم صاحب (دلائل النبوة) بمجموعة من الروايات يراها من تلك الدلائل، ومنها «وعكاشة بن محصن قاتل بسيفه يوم بدر حتى انقطع فى يده، فأتى رسول الله فأعطاه جذلاً من حطب وقال: قاتل بها يا عكاشة، فلما أخذه من يد رسول الله هزه فعاد سيفاً، طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على رسول الله. ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد... وكان ذلك السيف يسمى القوى... وانكسر سيف سلمة بن أسلم بن حريش يوم بدر، فبقى أعزل لا سلاح معه، فأعطاه رسول الله قضيباً كان فى يده، من عراجين بن طاب، فقال: اضرب به، فإذا هو سيف جيد، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبى عبيدة»[٢٨].

---

(٢٦) نفسه: ص ٦٩، ٧٠.

(٢٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج٣، ص٢٩١، ٢٩٢.

(٢٨) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٩٨، ٩٩.

وهكذا احتشدت كتب السير والأخبار بالمزايدات، والروايات التى تنزع نحو الأسطورة، بمجرد أن فتح لها الباب، وبات بالإمكان سلخ أى حدث عن واقعه، ونقله إلى مستوى آخر، يكسر الواقع ويدعم الأسطورة بالشهادات. وهو ما تمثل فى قصة حدثت عند بدء وقعة بدر، عندما أمسك النبى عليه الصلاة والسلام بحفنة من الحصباء، ورمى بها قريشاً ثم قال: شُدُّوا.

ولأن إلقاء الحصباء على العدو لا يحمل أية دلالة عسكرية بعينها، ولأن ذلك التصرف النبوى لابد له معنى محدد يؤدى دوره فى المعركة، فقد انتقلت المزايدة بإلقاء الحصباء إلى المستوى السحرى، لتؤدى دوراً عسكرياً كاملاً. وكثيراً ما وردت تلك المزايدات على لسان مشركين أسلموا متأخرين، ومنهم الطلقاء الذين أرادوا التحبب للإسلام والمسلمين ونبى الإسلام، ببعض المجاملات والملاطفات، ومنهم المؤلفة قلوبهم بالطبع الذين أرادوا أن يردوا التحية بأحسن منها. ومن تلك المزايدات رواية تقول: «سمعت نوفل بن معاوية الديلى يقول: انهزمنا يوم بدر، ونحن نسمع صوتاً كوقع الحصى فى الطاس فى أفئدتنا، ومن خلفنا، فكان ذلك من أشد الرعب علينا»[٢٩].

ومثله قول (حكيم بن حزام): «التقينا فاقتتلنا، فسمعت صوتاً وقع من السماء إلى الأرض، مثل وقع الحصى فى الطست، وقبض النبى القبضة فرمى بها، فانهزمنا، . . وسمعنا صوتاً من السماء وقع إلى الأرض كأنه صوت حصاة فى طست، **فرمى رسول الله تلك الحصاة يوم بدر، فما بقى منا أحد**»[٣٠].

الحصوات هنا لم تعد قبضة من حصى تل بدر، إنما حصوات سماوية تقوم بفعل عسكرى، لكنه إعجازى، ما أن رمى بها النبى المشركين حتى قتلهم جميعاً. أما دور تلك

(٢٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج٣، ص٢٨٣.
(٣٠) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٨٠.

الحصى كإحدى أدوات الجيش الإسلامى، بل وأكثر الأدوات فاعلية، فهو ما توضحه رواية لا تخرج عن الاعتقاد فى الأثر السحرى للفعل النبوى، فتقول: «لم يبق من المشركين رجل إلا ملأت عينيه»(٣١).

وإذا كان يوم بدر، هو يوم هبوط الملأ الأعلى من الملائكة على خيولها، تحمل سيوفها، فلا بأس على مؤمن إن زاد فقال: «ويقال: إنه كان مع المسلمين يوم بدر من مؤمنى الجن سبعون»، وحتى يحبك الراوى روايته التى تفرد بها يستدرك قائلاً: «لكن لم يثبت أنهم قاتلوا، فكانوا مجرد مدد»(٣٢).

ملائكة بدر

فى أول مشهد تقدمه كتب السير لمقدم الملأ السماوى إلى بدر، يروى ابن إسحق:

> وقد خفق رسول الله خفقة وهو فى العريش، ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع(٣٣).

وفى رواية أخرى، قال رسول الله ﷺ:

> أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل معتجر بعمامة صفراء، آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض، فلما نزل إلى الأرض تغيب عنى ساعة، ثم طلع على ثناياه النقع يقول: أتاك نصر الله إذ دعوته(٣٤).

ثم تتوالى الروايات، عن **بعض رجال من بنى مازن** لا نعرف من هم تحديداً، عن أبى داود المازنى، أنه قال:

---

(٣١) الحلبي: مج٢، ص٤١٢.
(٣٢) نفسه: ص ٤١٠.
(٣٣) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص ٣٨.
(٣٤) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٥٤.

إنى لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى، فعرفت أنه **قد قتله غيرى**[٣٥].

فهذا رجل يقتل فى المعمعة، وسط سيوف عديدة متشابكة ورماح تطير ونبال تئز وغبار وسنابك خيول، ورؤوس تغطيها الخوذ، وأجساد مدرعة بالدروع، ويقول المازنى أن غيره قد قتل القتيل، لكن هذا الغير (القاتل) بمجهوليته فى المعمعة يتم التقاطه ليصبح أحد الملائكة، ليؤكده قول أبى إمامة لولده:

يابنى لقد رأيتنا يوم بدر، وإن أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف[٣٦].

وتتتالى الروايات التى عادة ما يشار إلى روايتها بالقول: **قال رجل كذا وكذا**، أو عن رجل من بنى كذا، ومثلها قول ابن عباس:

بينما **رجل** من المسلمين يومئذ، يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم (وحيزوم هو فرس الملاك جبريل)، إذ نظر المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظرنا إليه فإذا هو خطم من أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك جميعاً، فجاء الأنصارى فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت، **ذلك مدد من السماء الثالثة**[٣٧].

ويروى **بعض** بنى ساعدة، عن (أسيد مالك بن ربيعة)، **بعد أن ذهب بصره**، «لو كنت اليوم معى ببدر **ومعى بصرى**، لأريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة، لا أشك فيه ولا أتمارى»[٣٨]. وهكذا، **فالرجل الوحيد الذى رأى الملائكة رؤى العين، ورأى الشعب**

(٣٥) الطبري: سبق ذكره، ج٢، ص٤٥٣.
(٣٦) نفسه: ص ٤٥٤.
(٣٧) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٥١، ٥٢.
(٣٨) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص٤١.

الذى انسلت منه صفوفهم إلى جبال بدر وواديه، قد ذهب بصره حتى لا يتمكن من تحديد المكان، ويظل القص هلامياً، وقفاً على رواية عن بعض بنى ساعدة.

ومثل تلك الروايات، روايات أخرى، منها رواية (أبى بردة بن نيار) حيث قال: «جئت يوم بدر بثلاثة رؤوس، فوضعتها بين يدى النبى ﷺ فقلت: يارسول الله: أما رأسان فقتلتهما، أما الثالث فإنى رأيت رجلاً أبيضًا طويلاً ضربه، فأخذت رأسه، فقال رسول الله: **ذاك فلان من الملائكة**»(٣٩). أما عن أبى جهل الذى بات معلوماً عدد من اشتركوا فى قتله بالاسم، فإن هناك من روى عن النبى قوله: «قتله ابنا عفراء **والملائكة**، وابن مسعود قد شرك فى قتله»(٤٠).

هذا ناهيك عن روايات أخرى مجهولة المصدر، مثل رواية ابن عباس إذ قال:

> حدثنى **رجل** من بنى غفار، قال: أقبلت أنا وابن عم لى حتى أصعدنا فى جبل يشرف على بدر، ونحن مشركان ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة، **فننهب مع من ينتهب**. قال: فبينما نحن فى الجبل إذا دنت منا سحابة، فسمعنا فيها حمحمة الخيل، فسمعت قائلا يقول: أقدم حيزوم، قال: فأما ابن عمى فانقشع قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت(٤١).

أما المشركون (والرواة أسلموا بعد ذلك عند الفتح)، فوجد بعضهم - فيما يبدو - فى هبوط الملائكة، تبريراً لهزيمتهم المخجلة أمام المسلمين، فحاك بعضهم على ذات النول. فهذا (المغيرة ابن الحارث) يذكر أنه كان قال زمن بدر، لأبى لهب «وأيم الله ما لمت الناس،

(٣٩) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٥٨.
(٤٠) نفسه: ص٨٧.
(٤١) ابن سيد الناس: سبق ذكره، ج١، ص٣١٢.

لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق، بين السماء والأرض، والله ما تليق شيئاً، ولا يقوم لها شيء»[٤٢].

وهكذا تقدم الطلقاء بدلائهم إلى مائدة المزايدات، ومنها رواية (ابن حجر) فى الإصابة (٢/ ٩)، عن (السائب بن أبى حبيش) الذى أسلم يوم الفتح الإسلامى لمكة، ونال من الرسول نصيبه من الأعطيات، ثلاثين وسقاً فى خيبر، فكان يحدث الناس زمن (عمر بن الخطاب) عندما قرر عمر قطع أنصبة المؤلفة قلوبهم عنهم، بقوله:

والله ما أسرنى أحد من الناس، فيقال: فمن؟ فيقول: لما انهزمت قريش انهزمت معها، فأدركنى رجل طويل على فرس أبيض بين السماء والأرض، فأوثقنى رباطاً، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدنى مربوطاً. وكان عبد الرحمن ينادى فى العسكر: من أسر هذا؟ فليس أحد يزعم أنه أسرنى، حتى انتهى بى إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله: يا ابن أبى حبيش، من أسرك؟ فقلت: لا أعرفه، وكرهت أن أخبره بالذى رأيت، فقال رسول الله: أسرك ملك من الملائكة، اذهب يا ابن عوف بأسيرك فذهب بى عبد الرحمن بن عوف، فقال السائب: مازلت تلك الكلمات أحفظها، وتأخر إسلامى، حتى كان من أمرى ما كان.

أما البيهقى، فيعقب على رواية السائب بقوله الكاشف:

ولا أعلمه روى عن النبى ﷺ شيئاً[٤٣].

---

(٤٢) ابن كثير: سبق ذكره، ج٣، ص٣٠٩.

(٤٣) البيهقى: سبق ذكره، ج٣، ص٦٠.

ثم يجد المطالع لسيرة ابن هشام، كشفاً رصده (ابن هشام) راوى السيرة عبر عدد من الصفحات على استطالتها، بأسماء قتلى قريش فى بدر، وأسماء الذين قتلوهم من المسلمين، كل قتيل، وكل قاتل، دون إسقاط لاسم مقتول أو لاسم قاتل من الطرفين(٤٤).

وربما كانت مثل تلك المزايدات التى أوردناها، مدعاة لتهكم رجل ملحد مثل ابن الراوندى وهو يتساءل:

> من هؤلاء الملائكة الذين أنزلهم الله يوم بدر لنصرة نبيه؟ إنهم كانوا **مفلولى الشوكة قليلى البطش**، فإنهم على كثرتهم واجتماع أيديهم وأيدى المسلمين معهم، لم يقتلوا أكثر من سبعين رجلاً؟! **وأين كانت الملائكة يوم أحد** حين توارى النبى بين القتلى ولم ينصره أحد؟(٤٥).

وإذا كنا نورد كلام ذلك الملحد، فلكى نرى إلى أى حد يمكن أن تبلبل تلك الروايات الفؤاد، **ولا شك أن موقفه كملحد مرفوض بالقطع من جانبنا**، لكننا ربما تساءلنا تساؤلاً مشروعاً من مسلم يريد الاطمئنان لطوية فؤاده، حرصاً على صيانة إيمانه ونقائه، مع تساؤل من سأل (أبى الحسن السبكى)، وهو يقول:

> سئلت عن الحكمة فى قتال الملائكة مع النبى ببدر، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فأجبت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبى وأصحابه.. وكان يكفى ملك واحد، **فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل**، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة(٤٦).

---

(٤٤) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص١٠٢: ١٠٦.
(٤٥) إبراهيم بيومى: فى الفلسفة الإسلامية، ص٨٣.
(٤٦) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٥٨.

أما الأهم برأينا فى خبر الملائكة، فهو أن إعلام النبى للمسلمين قبل القتال بالمدد السماوى، كان كفيلاً بتقوية روحهم المعنوية، وإنزال السكينة على قلوبهم، وهو ما أدى بالفعل إلى نومهم ليلة القتال نوماً أخذوا به راحتهم، استعداداً لاستقبال قريش فى الصباح. كما كان وجود الملائكة - فى حالة أخرى - حلاً مثالياً لمشكلة توزيع الأنفال، عندما اختلف المسلمون حول أنصبتهم فى أنفال بدر، فنزعت من أيديهم ووضعت بيد رسول الله ﷺ ليقرر ما يراه لشأنها، باعتبار الله وملائكته هم أصحاب ذلك النصر، وهو ما قالت بشأنه الآيات:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ (١/ الأنفال).

وهى الآيات التى كان سببها ما يرويه أبو إمامة الباهلى:

سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا أصحاب بدر نزلت، حيت اختلفنا فى النفل **وساءت فيه أخلاقنا**، فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسوله، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء، أى على السواء(٤٧).

والعجيب بشأن ما روى عن الملائكة البدريين، قصصاً أخرى من الواضح أن أصحابها لم يجدوا أية دلائل ظاهرة يمكن تأويلها ونسبتها إلى الملائكة، فالتقطت نمل الوادى الذى ربما سال من جحوره بفعل المعركة، وما سكب من ماء القلب المغورة، لترى فى ذلك النمل ملائكة السماء. وهو ما جاء فى قول جبير بن مطعم، «رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتلون، مثل البجاد الأسود أقبل من السماء مثل النمل الأسود، فلم أشك أنها الملائكة، فلم يكن إلا هزيمة القوم.. وعن حكيم ابن حزام قال: لقد رأيتنا يوم بدر وقد وقع بوادى

(٤٧) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص٥٢، ابن كثير: سبق ذكره، ج٣، ص٣٠٢.

خلص بجاد من السماء قد سد الأفق، وإذا الوادى يسيل نملاً، فوقع فى نفسى أن هذا شىء من السماء أُيدّ به محمد ﷺ فما كانت إلا الهزيمة، وهى الملائكة»(٤٨). لكن الملاحظ هنا أن الرواية خرجت بنمل الوادى إلى فضاء الأسطورة، لتضع جملة تقول: إنه نمل سماوى، سقط من السماء على الأرض.

والحاسم فى أمر تلك الروايات جميعاً، والذى يضع أمر الملائكة فى موضعه الصحيح، **ولا يسمح بسلب الرواة للعقلانية المعهودة عن دين الإسلام**، فهو ما جاء بين الروايات هادئاً رصيناً يقول:

لولا أن الله تعالى حال بيننا وبين الملائكة التى نزلت يوم بدر، لمات أهل الأرض خوفاً من شدة صعقاتهم وارتفاع أصواتهم(٤٩).

أما القاطع فى المسألة فهو:

أن الملائكة كانت تأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه... وكان الملك يتصور فى صورة من يعرفون(٥٠).

---

(٤٨) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٦١.
(٤٩) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٤٠٧.
(٥٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج٣، ص٢٨٠.



قــراءة أخــرى

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾

(٢٦/ آل عمران)

«واللات والعزى لا نرجع، حتى نقرن محمداً وأصحابه فى الحبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً»[١]، كان هذا نداء أبى جهل (أبو الحكم بن هشام) أحد رجالات الملأ القرشى، لما أقبلت قريش إلى بدر تحتفل بنجاة تجارتها، ثم تيقنت أن النبى وأصحابه قد سبقوهم إلى هناك.

والنداء يعكس مدى ثقة (أبى الحكم) فى قوة قريش، كما يعكس الرغبة فى تأديب الخارجين على الملأ، بأسرهم ثم أخذهم إلى مكة لمحاسبتهم، ليكونوا عبرة لمن تساوره أطماعه من الأعراب، بتهديد الطريق التجارى المكى، طريق الإيلاف. **وهو- لا شك- النداء الذى حاول المشركون تنفيذه، بتحاشى القتل طمعاً فى الأسر، بينما كان المسلمون يقتلون غير هيابين بأوامر نبيهم وتوجيهات السماء، وهو عامل آخر يضاف إلى رصيد أسباب النصر البدرى**. فكان نصر الله لجنده مما عكس توقعات (أبى الحكم)، الذى أثبتت وقعة بدر أن حكمته قد تخلت عنه فى قرارات عدة، ساعدت على الهزيمة، فاستحق لقب (أبى جهل) عن جدارة واستحقاق.

وإعمالاً للمادة التى رصدتها كتب السير والأخبار الإسلامية عن موقعة بدر الكبرى، يمكن إعادة قراءة واقع الأحداث قراءة موضوعية، تضع كل حدث فى موضعه الصحيح،

(١) البيهقي: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٥٣.

لمعرفة دور كل عنصر، فى إفراز النتائج التى انتهت إليها الوقعة البدرية، التي شاءت لها الظروف أن تكون ذات دور بارز فى تحديد مسار التاريخ الإنسانى بعدها.

وضع المكيين

بداية يمكننا الوقوف مع ما نبه إليه (أحمد إبراهيم الشريف)، عن وضع المكيين فى مكة قبل الخروج إلى بدر، وكيف كان الهاشميون، آل بيت العشيرة النبوية، عيوناً له على أهل مكة، يرسلون له بأدق التفاصيل، ويحيطونه علماً بأخبار الملأ، وبالأحوال الاقتصادية والاجتماعية كلما جد جديد، وأية تحركات مهما صغر شأنها. مع ما كانوا يذيعونه بين أهل مكة فيما نعرفه بالحرب النفسية، لإضعاف الروح المعنوية لرجال البيت الأموى وأشراف الملأ[٢]، وهو ما رأيناه من جهتنا، فى أمثلة سبق ورصدناها فى موقعها من السياق. كرؤيا (عاتكة بنت عبد المطلب)، ورؤيا (جهيم ابن الصلت بن عبد المطلب)، مع التهديد الواضح والمباشر، الذى حمله (سعد بن معاذ) من يثرب إلى مكة، فى عمرة أعلن أثناءها إمكان يثرب قطع طريق الإيلاف الشامى، وذلك قبل وقعة بدر بقليل.

ثم كان ما كان من تفرق القرار المكى، وفقده الإجماع واتفاق الكلمة، حول الخروج أو القعود. ثم ما كان من شأن بنى هاشم، ويقين الأمويين أن هوى بنى هاشم مع محمد، وما كان من خروجهم مع الخارجين مكرهين، بإصرار غير حكيم من (أبى الحكم). مما جعل الجبهة المكية من البداية، متفرقة وغير متماسكة، تستبطن فى داخلها صفاً معادياً لها.

أما الشعور بالتأثم لدى المكيين، فكان واضحاً فى كثير من المواقف، نتيجة خروج أصحابهم وإخوانهم وبنيهم وبنى عمومتهم فى هجرة لاجئة إلى يثرب، وهذا الشعور بالذنب والإثم، كان عاملاً آخر يضاف إلى **عوامل ضعف الجبهة المكية فى وقعة بدر**، وذلك فيما يؤكده (الدكتور الشريف)[٣].

---

(٢) د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، سبق ذكره، ٤٢٠.
(٣) نفسه: ص ٤٣٠.

ونستعيد مشهد خروج أهل مكة من البداية، فهم يخرجون استجابة لاستغاثة (أبى سفيان)، لنجدة تجارتهم القادمة من الشام والتى عرض لها المسلمون، ليتغير الأمر فجأة، بعد أن خرج المكيون فى طريقهم لإنقاذ القافلة. فتأتيهم رسالة ثانية من (أبى سفيان) «إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا»[٤]. فيزمعون العودة إلى مكة بعد أن هدأ ما بالنفس من حرور واستنفار، بنجاة أموالهم، ورجالهم من حراس القافلة السفيانية. لكن ليهتف (أبو الحكم بن هشام): «والله لا نرجع حتى نقدم بدراً فنقيم بها، ونطعم من حضرنا من العرب، فإن لن يرانا أحد من العرب فيقاتلنا»[٥]. فيعود الركب مرة أخرى موجهاً وجهه نحو بدر، ليستعيد تثبيت الهيبة القرشية، بحفل يسمع به جميع العرب، فيهابون قريشاً بعدها أبداً. وتتأرجح أحوال القرشيين النفسية، مع كل موقف جديد، ليجدّ جديد آخر، وقد وجهوا وجهتهم نحو بدر، فتنحزل عنهم بنو زهرة، أخوال النبى عليه الصلاة والسلام المباشرون، وأهل (آمنة بنت وهب)، التى تركته طفلاً يتيماً، وهم من يمثلون ثلث عدد الخارجين، ويعودون إلى مكة مكتفين من المغنم بنجاة تجارتهم ورجالهم، راغبين عن الحفل السامر الذى دعا إليه (أبو الحكم). والذى تحول مع الأخبار القادمة مع المتجسسين والعيون، إلى أرق وترقب لما ينتظرهم ببدر، وهنا تأتيهم ضربة أخرى بانحزال آخر، كان سببه ثقتهم السريعة فى الشيطان (سراقة بن مالك) الزعيم الكنانى الذى طمأنهم من ناحية بنى بكر بن كنانة، وأن كنانة البكريين لن يأتوهم بشىء يكرهونه رغم ما كان بينهم وبين قريش من ثأر، بل ويخرج معهم (سراقة) إلى حفلهم البدرى، تأكيداً لمقدم كنانة جميعاً خلفه لدعم قريش، ثم يفلت مع الوصول إلى بدر عائداً. ليردد لسان (أبى الحكم) الذى حاز لقب (أبى جهل)، محاولاً تخفيف الأثر النفسى لانحزال سراقة عنهم بقوله: «يا معشر الناس: لا يهولنكم خذلان سراقة بن

(٤) الطبري: التاريخ، سق ذكره، ج٢، ص ٤٣٨.
(٥) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٣٧٩.

مالك، **فإنه كان على ميعاد مع محمد»**[٦]. وهنا لا يغيب على فطن، أن بنى بكر بن كنانة، كان لهم قبل بدر موادعة مع النبى عليه الصلاة والسلام، بعد أن جرَّد عليهم غزوته فى صفر، من آخر أيام العام الهجرى الأول.

وما بدأت المعركة فعلياً، إلا وكانت قريش محطمة معنوياً بالتمام، بعدما رأت ثلاثة من أشرافها وشيوخها ورجال الملأ المقدمين، يتضرجون فى دمائهم فى مبارزة سريعة، فقتل الشيخ الجليل ـ بتعبير كتب السير الإسلامية ـ (عتبة بن ربيعة)، وأخوه (شيبة بن ربيعة)، وابنه (الوليد بن عتبة)، فى لحظات، لتبدأ المعركة الساخنة، مع نداء النبى لرجاله: شدوا.

ويبدو أن الكثرة العددية للقرشيين، مقارنة بعدد المسلمين، كانت مدعاة فى نظر البعض، لعدم البحث عن أى ظرف آخر لهزيمة قريش، فهى المعجزة. **ولا جدال عندنا أنها معجزة انتهت بانتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله**. لكن مع الأخذ فى الحسبان أن تلك الكثرة القرشية، كانت تحتوى على تناقض صارخ فى الأعمار مع القلة الإسلامية. حيث كان الجمع القرشى يحوى الأشراف والأجلة من شيوخ قريش، مقابل جيش إسلامى يضم فى معظمه شباباً كله فتوة، مع رجال يثرب المتمرسين بالحرب المتمترسين بالحلقة.

وهذا بالطبع ما يمكن إضافته جميعاً إلى عدم ثقة قريش فى عدالة موقفها، من حيث قياسه على محك العرب فى العدل، وإن اتفق مع مقاييس المصالح، وتثبيت الهيبة كأغراض أساسية. وهو الأمر الذى كان غير موافق لرغبة جميع القرشيين، فانقسموا حوله فى الرأى بعد نجاة تجارتهم. هذا ناهيك عن الخوف القرشى من إصابة أحد من العشيرة، أو سفك دم أحد من بنى العمومة أو الإخوة.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج٣، ص ٢٨٣.

ولا نزاع فى أن وصول قريش إلى بدر متأخرة عن المسلمين بيوم كامل، لم يعطها فرصة اتخاذ المواقع الملائمة فى الحرب، خاصة أنها ما أن دخلت وادى بدر حتى بدأت المعركة، مع الجهد والعطش الذى أخذ بها وهى تحت الخطى أملاً فى مياه بدر التى وصلتها وقد عُوِّرت. مع تضارب رأى الرؤوس منها نتيجة غياب القائد الواحد، حيث كان (أبو سفيان/ صخر بن حرب) صاحب اللواء متغيباً مع قافلته، مما كان سبباً فى خلف عظيم بين الملأ فى كل شأن منذ خرجوا من مكة، فحاربوا بدون قائد، ولا ترتيب، ولا حتى نفوس مهيأة للمعركة.

وضع المسلمين

وبمقارنة حال المكيين بحال المسلمين، نجد أن رصيداً موضوعياً آخر لانتصار المسلمين فى بدر على أهل الشرك، لعل أهمه هو ثقة شباب الجيش الإسلامى فى **عدل قضيته**، وأن الله يعطى نصره للمظلوم الذى أخرجه الظالمون من أهل بيته وبنيه. إضافة بالطبع إلى الأنصار رجال المجالدة المتمرسين، من حازوا صفة أهل الدم والحرب والحلقة التى ورثوها كابراً عن كابر. وهو ما أجج معنويات المسلمين وأعلاها، لتطلب ثأرها أو موتاً بعده جنات خالدة، كناتج ليقين أنهم يحاربون ومعهم رسول الله. ثم كان أعظم دعم لتلك المعنويات العالية، الوعد بالإمداد السماوى المحارب. هذا بالطبع مع تحول الولاء عن القبيلة إلى الأخوة الإسلامية، عن العشيرة إلى الله ورسوله، وعن البطون والأفخاذ إلى الأممية. مما جعلهم **يحاربون دون أن يبالوا من يصيبون من العشيرة أو الأهل**، وما إن سقط فى المعركة أخ أو ابن أو عم أو ابن عم، **أما الدافع المادى المباشر للمغانم، كان لا شك صاحب دور عظيم**.

ومن ثم؛ حارب المسلمون وهم تحت قيادة موحدة منظمة، لقائد أعلى وهيئة أركان حرب يثربية. قسمهم إلى ألوية ذات علامات مميزة، وصفوف لكل منها دوره فى الرماحة

أو المسايفة أو النبالة، مع سمات الصوف التى علقوها بخوذهم ونواصى خيولهم، بعد أن ناداهم النبى «سوّموا فإن الملائكة قد سوّموا» لمزيد من معرفة بعضهم بعضاً فى المعركة، ثم الشعارات الشفرية ونداءات يعرفون بها بعضهم بعضاً، ويميزون بها أنفسهم مع اختفاء الرؤوس والأجساد تحت الخوذ والدروع الحديدية. وهو لا شك لون عظيم من الاستعداد، لا شك أدى على الجانب الآخر إلى قتل القرشيين بعضهم بعضاً، مع سلامة تامة من هذا الأمر على الجانب الإسلامى. كما كان خبر الملائكة مدعاة للاطمئنان النفسى، جعلهم يأخذون ليلة المعركة قسطاً طيباً من الراحة والنوم.

وكان التبكير فى الوصول إلى بدر، ميزة أخرى مكنت المسلمين من اختيار الأماكن المناسبة سواء للنبالة فى الأعالى، أو للرماحة خلف السواتر الصخرية، أو لبعض من هؤلاء وأولئك فى صفوف خلفية، لحماية هجوم السيَّافة، مع حيازة الماء فى الحوض، ثم كان اختيار وجهة القتال ذاتها، وهو ما أشار إليه الواقدى فى قوله:

> . . . ووقف رسول الله ﷺ ينظر إلى الصفوف، فاستقبل المغرب **وجعل الشمس خلفه، وأقبل المشركون فاستقبلوا الشمس**، فنزل رسول الله بالعدوة الشامية، ونزلوا بالعدوة اليمانية[7].

وهو ما إن حققناه جغرافياً فإنه يعنى أن المعركة بدأت فى الصباح، والمسلمون وجهتهم الجنوب الغربى والشمس خلفهم. بينما كانت وجهة المشركين الشمال الشرقى والشمس فى أعينهم. أما أهل علم النفس فيقولون:

> وفى جميع الأحوال، فإن لذلك النوع من الانتصار، ـ وهو كثير جداً فى التاريخ، ونبه إلى نظرائه القرآن الكريم ـ تفسيراً يرد تحت اسم الاستجابة الحرجة Reaction Critique حيث تبدى القلة استماتة فى

---

(٧) الواقدى: المغازى، تحقيق م. جونز، ج١، ص٥٦.

الدفاع والهجوم، تؤدى إلى النجاح، ثم أن تلك الظاهرة معروفة فى بعض سلوكيات الطفل أمام خصم أكبر منه وفى عالم الحيوان عند الدفاع مثلاً عن مجاله الحيوى . . .[8].

هذا بينما نجد قراءة موضوعية واعية للكاتب والمؤرخ الإسلامى (أحمد شلبى)، تطلعنا على النبى عليه الصلاة والسلام كقائد عسكرى ناجح، يأخذ بأسباب الظرف الواقعى فى كل خطوة. فهو - فيما يقول (الدكتور شلبى) - «إذا أراد خوض معركة، **كتم سر اتجاهه** الذى يسعى إليه، حتى عن أقرب الناس إليه، ليفاجئ الأعداء بهجومه. . . وقد روى عن كعب بن مالك أن النبى عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن **يغزو غزوة ورى بغيرها (أى قال بهدف غيرها)**، وعن أنس أن رسول الله قبيل غزوة بدر هتف بأصحابه قائلا: **إن لنا هدفاً**، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا، وكان إذا عقد اللواء فى سرية من السرايا لأحد أصحابه، يركز اللواء فى فناء المسجد ويختار بعض الأبطال، **ولا يحدد المكان لأمير السرية إلا عند التحرك، وأحياناً كان يكتب له كتاباً ويطويه**، ويأمر بالاتجاه نحو الشمال أو نحو الجنوب مثلاً، **وألا يفتح الكتاب إلا فى مكان يحدده**، وكل ذلك حتى لا يتسرب الخبر للعدو، فيبادر بالهجوم وتفشل الخطة.

ومما عنى به الرسول أنه قبل المعركة، **كان يبذل كل الجهد ليتعرف على أخبار العدو**، حتى يأخذ للأمر عدته. . **وكان جواسيسه بمكة يأتونه بالأخبار**. . . واهتم الرسول اهتماماً بالغاً بتنظيم الجيش تنظيماً شمل مسيرة الجيش، وترتيبه، فهو يسير بجيشه **وتكون مسيرته هو فى آخر الركب. . . وهو يلبس للحرب لباسه وعدته**، ويحمل الجيش الألوية **وتنشد الأناشيد للتشجيع** والحماسة. . ويتخذ للجيش كلمة سر. . . **وكان يضع كل فرد مع أفراد قبيلته**، . . . وقد تأثر القادة المسلمون بأقوال الرسول وفعله تأثراً كبيراً . . . حتى ليروى

---

(٨) د. على زيعور: قطاع البطولة والنرجسية فى الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨٢، ص٥٩.

أن على بن أبى طالب فى غزوة بدر . . . التقى نوفل بن خويلد . . . فصاح نوفل بعلى : أسألك بالله والرحم أن تكف عنى ، أنا أخو خديجة وخال فاطمة (وهى رواية سترد فى غزوة أحد فى الرواية الأرجح ، حيث كف عنه على فأمره النبى بقتله ، والإشارة هنا مضافة من عندنا إلى كلام الدكتور شلبى)، فقال على : لا قرابة بين مشرك ومسلم . . . **وقتل أبو عبيدة بن الجراح أباه** . . . وقال له وهو يطعنه : خذها فى سبيل الله»[9] .

نتائج بدر الكبرى

يقول (البيهقى) معقِّباً على غزوة بدر ، وما أدت إليه من نتائج :

> وأذل الله بوقعة بدر رقاب المشركين ، والمنافقين ، فلم يبق فى المدينة منافق ولا يهودى ، إلا وهو خاضع عنقه لوقعة بدر[10] .

وهكذا؛ وعلى الترتيب ، ترتيب نتائج غزوة بدر الكبرى : أذل الله رقاب المشركين ، ولم يكن ذلهم إلا بهزيمة ماحقة ، قضت على الرؤوس القرشية ، رجال الملأ القرشى ، الأمر الذى كان عسير التصديق عند رجال عرب ذلك الزمان . حتى أن النبى عندما بعث رجاله يسبقونه ببشرى النصر إلى يثرب ، ولإلقاء الرعب فى قلوب المتظاهرين بالطاعة ، وفى أفئدة اليهود ، بهتاف ينادى «قتل فلان وفلان ، وأسر فلان وفلان ، من أشراف قريش» ، كان الرد المتسرع من (كعب ابن الأشرف) وهو غير مصدق للخبر :

> إن كان محمد قد قتل هؤلاء القوم ، فبطن الأرض خير من ظاهرها[11] .

(٩) د. أحمد شلبى : السيرة النبوية العطرة ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ، ط١٢ ، ١٩٨٧ ، ج١ ، ص ٣٧٥ ، ٣٧٧ .

(١٠) البيهقي : سبق ذكره ، ج٣ ، ص١١٧ .

(١١) الحلبي : سبق ذكره ، مج٢ ، ص٤٣٥ .

ولعل مبلغ ذلك الانتصار البدرى، يظهر واضحاً فى المدى الذى وصلت إليه قوة المسلمين وتضاءلت بجانبه قوى يثرب جميعاً. ثم يتضح فى مقتل (كعب بن الأشرف) بعد ذلك، لما ذلف به لسانه، أما مكة فحالها يتضح فى خروج (كنانة بن الربيع) يصحب (زينب) بنت رسول الله رضى الله عنها، نهاراً جهاراً أمام أعين قريش، وما دار من حوار بينه وبين (أبى سفيان)، يبرز مدى هوان قريش وانحطاط هيبتها. ويروى (ابن هشام) أن قريشاً قامت تنوح على قتلاها، «ثم قالوا: لا تفعلوا فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا فى أسراكم حتى تستأنوا بهم، لا يأرب عليكم محمد وأصحابه فى الفداء». وكان الأسود بن عبد المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده: زمعة بن الأسود، وعقيل بن الأسود، والحارث بن زمعة، وكان يحب أن يبكى على بنيه. فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل، فقال لغلام له وقد ذهب بصره: انظر هل أحل النحب؟ هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة - يعنى زمعة - فإن جوفى قد احترق. قال: فلما رجع الغلام إليه قال: إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته، فذاك حين يقول الأسود:

أتبكى أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهود

فلا تبكى على بكر ولكن ... على بدر تقاصرت الجدود

على بدر سراة بنى هصيص ... ومخزوم ورهط أبى الوليد

وبكى إن بكيت على عقيل ... وبكى حارثاً أسد الأسود

وبكيهم ولا تسمى جميعاً ... وما لأبى حكيمة من نديد

ألا قد ساد بعدهم رجال ... ولولا يوم بدر لم يسودوا[١٢]

(١٢) السهيلي: شرح السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج٣، ص٥٥.

وهكذا ذهب سراة الناس وجدودهم فى بدر، وألقيت أجساد رجال الملأ فى القليب، وبقية من كبر وفخر كاذب تمنع قريشاً من النواح على كبارها وأشرافها. بينما لم تجد امرأة أضلت بعيرها الوحيد حرجاً فى العويل والندب، فالفقر له أحكام غير أحكام الغنى والثراء. ومن ثم ومع اللوعة، أخذت قريش تدمر بيدها هيكلها الإنتاجى، المتمثل أهم جوانبه فى أمن كل من دخل مكة، فتضرب فى غضبها أمن كسبها. فى رواية (ابن كثير) عن خروج (سعد بن النعمان) الأنصارى معتمراً إلى مكة، لنرى تلك العمرة ذات غرض واضح للجس والاختبار، ومعرفة مدى ما وصلت إليه أعصاب قريش. ومما ليس له معنى - فى رأينا - أن ينزل أنصارى إلى مكة، وأفلاذ كبد مكة لم تزل دماؤها لينة طرية على أرض بدر، لولا غرض واحد يستحق ذلك. فيقول ابن كثير «خرج سعد بن النعمان بن أكال، أخو بنى عمرو بن عوف معتمراً . . . وكان شيخاً مسلماً فى غنم له بالبقيع، فخرج من هنالك معتمراً، وقد كان عهد قريش **أن قريشاً لا يعرضون لأحد جاء حاجاً أو معتمراً إلا بخير**، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة فحبسه بابنه عمرو، وقال فى ذلك:

أرهط بنى أكال أجيبوا دعاءه		تعاقدتم لا تسلموا السيد الكهلا

فإن بنى عمرو لئام أذلة		لئن يكفوا عن أسيرهم الكبلا

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ فأخبروه خبره، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبى سفيان فيفكوا به صاحبهم، فأعطاهم النبى، فبعثوا به إلى أبى سفيان، فخلى سبيل سعد[١٣].

أما ما تبع ذلك من نتائج متوقعة لبدر الكبرى، فهو أن النبى عليه الصلاة والسلام قد أصبح مرموق الود من القبائل، وخاصة المتاخمة ليثرب. وتدفقت عليه الهدايا لكسب

(١٣) ابن كثير: سبق ذكره، ج٣، ص٣١١، ٣١٢.

رضاه، مما وسع نطاق الدولة الوليدة وحدودها، بحدود القبائل الموادعة لها على كافة الطرق، وهو ما أضعف فى المقابل جبهة مكة، التى لحق تجارتها ضرر جسيم. وهو الموقف الذى أخذ بالتفاقم مع مراجعة القبائل العربية لموقفها، بالنسبة لقريش، إزاء القوة اليثربية الجديدة. هذا بالطبع مع التحسن المطرد لأحوال المسلمين الاقتصادية، بعد أن وضعت بدر بيد المسلمين القوة المادية سلاحاً ومالاً، ومنحتهم الثقة النفسية والقوة المعنوية، التى مكنتهم من السيطرة شبه الكاملة داخل يثرب، فامتلأوا جرأة وأخذوا بتأديب المخالفين فى يثرب، وإلقاء الرعب فى قلوبهم، ثم قتل أى شخص يتجرأ بمعارضة الدولة الطالعة، وذلك فيما روى (الدكتور الشريف)(١٤).

أما المصطفى ﷺ، الذى اصطفاه ربه، فقد جاءت بشأنه الآيات الكريمة - بعد ذهاب الملأ - تقول:

- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ **لِيُطَاعَ**﴾ (٦٤/ النساء).
- ﴿مَن **يُطِعِ** الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (٨٠/ النساء).
- ﴿كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾ (٥١/ النور).

أما الأكثر بلاغة وتبليغاً، وفيصلاً قاطعاً، فهو ما سجلته الآيات الكريمة بقولها:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ (٢٦/ آل عمران).

ولعل العنصر اليهودى فى المدينة، قد أدرك بما عهد به من حصافة، مغزى (الآخرين) فى الآية الكريمة:

---

(١٤) د. أحمد الشريف: سبق ذكره، ص ٤٣٦.

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (٦٠/ الأنفال).

وهو البيان الذى ستنبىء به الأحداث اللاحقة، والمتلاحقة على صفحات تراثنا الإسلامى.

ومن بين أهل يثرب، أمسى أهل بدر ومقاتلوها، هم المقدمين على غيرهم من مسلمين، وهو ما يشير إلى وقع الوقعة وقيمتها ونتائجها. ويظهر فى عدد من الروايات حول ما حازه هؤلاء فى الدولة الجديدة، «وكان النبى ﷺ يكرم أهل بدر ويقدمهم على غيرهم، ومن ثم جاء جماعة من أهل بدر للنبى وهو جالس فى صفة ضيقة، ومعه جماعة من أصحابه، فوقفوا بعد أن سلموا ليفسح لهم القوم فلم يفعلوا، فشق قيامهم على النبي ﷺ فقال لمن لم يكن من أهل بدر من الجالسين: قم يا فلان، قم يافلان، بعدد الواقفين فعرف رسول الله الكراهة فى وجه من أقامه، فقال: رحم الله رجلاً يفسح لأخيه. فنزل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ﴾ (١١/ المجادلة)، فجعلوا يقومون بعد ذلك... وخص أهل بدر بأن يزادوا فى الجنازة على أربع تكبيرات تميز لفضلهم»[١٥].

وعليه، فقد كان لوقع الوقعة البدرية، وما أحدثته من تغيير فى موازيين القوى، واشتداد عود الدولة الإسلامية الطالعة وصلابته، دور أساسى فى ظهور ولاءات جديدة، اعتلى فيها المحاربون الأول والسابقون، سنام الحظوة فى الدولة الإسلامية، حتى تم منحهم الجنة منحاً مطلقاً دون اعتبارات أخرى غير مشاركتهم فى الوقعة البدرية. وهو ما نجد نموذجاً له فى حدث خطير، بعد زمن من بدر، قبل فتح مكة بأيام، عندما أرسل

(١٥) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٤٧٠.

(حاطب بن أبى بلتعة) رسالة تحذير إلى أهل مكة بينما كان الرسول يجهز للفتح سراً، مع امرأة ذهبت تحملها إليهم، فأرسل النبى ﷺ فى إثرها جماعة على رأسها (على بن أبى طالب) الذى يروى قائلاً:

> فأدركناها تسير على بعير لها، فقلنا الكتاب؟ فقالت: ما معى كتاب، فأنخنابها والتمسنا فى رحلها فلم نر كتاباً، فقلنا: ما كذب رسول الله، لتخرجن الكتاب أو لنجردنك، فلما رأت أنى أهويت إلى حجزتها وهى محتجزة بكساء، أخرجته. فانطلقنا به إلى رسول الله ﷺ فقال عمر: يارسول الله **قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعنى أضرب عنقه**، فقال رسول الله: أليس من أهل بدر، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: **اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة وغفرت لكم**، فدمعت عينا عمر رضى الله عنه وقال: الله ورسوله أعلم[١٦].

هذا مع نتائج أخطر على مستوى شكل الدولة الاجتماعى المقبل، كناتج لتعزيز سلطة النبى الحاكمة، وهو الأمر الذى أدى إلى تراجعات عن الأممية المطلقة، والأخوة المطلقة (المؤاخاة) التى كادت تكون مشاعاً، وإلغاء نظام المؤاخاة، بعد ما حاز المهاجرون من نقل طيب، وأموال من فك الأسرى، لتطفر الدعوات الأولى وللامتلاك والتبرجز، والتى بدأت ترغيباً في امتلاك كنوز كسرى وقيصر. كذلك سنرى فيما بعد، أن المشاركة فى بدر كانت أساساً فى الحصول على الهبات، ومقياساً للأعطيات، بعد أن اعتلى المحاربون السابقون مكانهم المتميز فى الدولة. وبينما كان الباقون منهم على قيد الحياة يتحولون نحو الشراء والامتلاك، كان يتم استحضار روح الآيات المكية الأولى، التى كرست الملكيةالفردية، وقدمت عقلنة واضحة للتفاوت الطبقى، من قبيل:

---

(١٦) البخارى: ٧٤ كتاب المغازى، باب فضل من شهد بدراً، انظر أيضاً مسلم فى ٤٤ كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بدر.

- ﴿واللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ (٧١/ النحل).

- ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥/ النحل).

- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ **وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ** لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (١٦٥/ الأنعام).

لتبدأ مرحلة جديدة على الخط الاستراتيجى، متجاوزة المرحلة التكتيكية المتحالفة مع المستضعفين، تستكمل خطها الأصلى. لكنها وهى بسبيل ذلك تشكل تراجعاً محسوباً عن الأممية المطلقة، فتأخذ السمت الوسطى بين الأممية وبين الدعوة إلى الحفاظ على العلاقات العشائرية، والتوصية بذوى الأرحام، فى طور متوازن عبرت عنه الآيات الكريمة بقولها:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (١٤٣/ البقرة).

وهو التوجه الذى يفسر رواية أخرى عن (حاطب بن أبى بلتعة) - يجب قراءتها مقارنة بموقف سابق أُعتق فيه (بلال) بعد شراء (أبى بكر) له لرفع الأذى عنه - والرواية تقول: أن (حاطباً) آذى عبداً مسلماً له، فجاء العبد المسلم يحمل أذاه إلى النبى عليه الصلاة والسلام. موقنا بحقه فى المساواة المطلقة، وبحقه فى ظل المبدأ الأممى الذى دفعه إلى الذهاب للرسول، غير شاكٍّ فيما يلزم عن المبدأ من مقررات حقوقية تستوجب التطبيق، لينهى للرسول النتيجة التى توصل إليها، (غير مدرك ما أدت إليه بدر من نتائج وتحولات) فيقول له:

- ليدخلن (حاطب) النار.

لكن ليرد عليه النبى عليه الصلاة والسلام:

- كذبت، لا يدخلها، فإنه شهد بدراً[17].

ثم لنلحظ أن (حاطباً) نفسه، هو من استمر فى معاملة عبيدة بالقسوة، وشدد عليهم النكير. وضيق عليهم إلى حد المسغبة، مما دفعهم ـ عام الرمادة زمن خلافة عمر بن الخطاب ـ إلى السطو على بعير له والتهامه، وهو ما دفع عمر، صاحب الانتماء القوى إلى المنزع الأممى، إلى تعنيف (حاطب) تعنيفاً شديداً، **مع إيقاف تطبيق حد السرقة على عبيده.**

ومن ثم فإن قراءة نتائج غزوة بدر، تلاحظ بداية الأسلوب الوسطى المتوازن للدولة بين النقائض، فتدعو لتوحد أممى تحت راية واحدة، وسيادة دولة موحدة، وتحت إمرة سلطة نبوية واحدة. لكنها تضم فى شكلها الاقتصادى لوناً طبقياً لا نزاع فيه، وتحوى فى شكلها الاجتماعى قبائل متوحدة، لكنه توحد غير منفرط إلى فردية مطلقة، إنما ترابط لأضمومات قبلية فى هيئة حزم موثقة بوثاق واحد فى إطار الدولة، وهو ما تلحظه القراءة المدققة لنزول المسلمين إلى بدر تحت راية واحدة للرسول، وشعار واحد هو «يا منصور أمت»، لكنها انقسمت إلى رايات ثلاث تسير تحت ظل راية الرسول، وتنادت بثلاثة شعارات، تحت الشعار الموحد، فكان للخزرج رايتهم، وللأوس رايتهم، وللمهاجرين رايتهم، وكان لكل من الحزم الثلاث، نداءات شعارية ثلاث.

هذا بينما تم الإبقاء على الفردية والولاء الفردى، والمسئولية الفردية، ولكن فى عالم الفكرة، عالم السماوات الإلهى، العالم الآخر فى علاقة المسلم بربه، فتم تأجيل الفردية المطلقة بمسئولية الفرد الكاملة والذاتية إلى فيما بعد، لأن تلك المسئولية المطلقة إنما تعنى أيضاً حرية مطلقة. **وهو ما يتصادم مع الصرامة المطلقة المطلوبة للسلطة النبوية لإقامة الدولة دون معوقات**، وهو ما يفسر لنا تجاوز الآيات التى تؤكد مسئولية الفرد عن أفعاله

---

(17) مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل من شهد بدراً.

أمام الله ، والآيات التى تؤكد من جانب آخر الجبرية والحد من تلك الحرية المطلقة، وتقييد تلك الحريات بالمشيئة الإلهية والإرادة القدرية. ومن ثم فقد تأجل تفجير الأطر القبلية تفجيراً كاملاً إلى مرحلة مجتمعية أعلى، لكن مجرد وجود الفكرة عن الفردية المطلقة والمساواة المطلقة والمسئولية الفردية المطلقة أمام الإله فى عالمه السماوى القادم فيما بعد، فى الآخرة بعد البعث. إنما يشير بالتأكيد إلى تواتر الفكرة فى المجتمع المدنى والمكى حينذاك، وربما فى عالم جزيرة العرب، بعد تفكيك الطبقية للشكل الجماعى والمسئولية الجماعية القبلية، وأن الواقع قد أفرز الفكرة، وأنها كانت مطروحة بالفعل فى زمانها.

وعليه؛ فقد ظهرت الفردية ومسئوليتها بالفعل، ولكن كفكرة، فى مجال القوة، وكممكن قادم فى عالم الفعل، لكن فى تطور قادم. وهو ما يظهر المرحلة الآنية كجزء من الحركة الانتقالية وكدرجة أعلى تم ارتقاؤها داخل المرحلة الانتقالية ذاتها، تتلاءم ومعطيات مجمل ظروف الواقع آنذاك. وهو الأمر الذى سيتيح للنبى التحرك داخل ذلك التوازن بين النقائض دون مشاكل، فجاءت التنظيرة لا تصادم الواقع ولا تفرض عليه ما لم يتهيأ له تماماً بعد. مما سيمكن مؤسسة الدولة من **استخدام الأممية دوماً، والعشائرية أحياناً، فى موضعها المناسب من الظروف المتغيرة، لتحقيق أهداف أكثر نفعاً**، حين الحاجة إلى أىّ منهما وحسب الطارئ وظروفه، وما يستدعيه من حاجة إلى أى من الطرفين النقيضين.

وتأسيساً على كل ذلك، فإن غزوة بدر، قد أفضت إلى نتائج هائلة على المستوى النظرى والعملى، وحددت مواقف كثيرة، كان الإفصاح عنها مؤجلاً حتى يأتى الله بأمره. وكان أهم ما حققته هو وضعها بداية النهاية لنظام قريش السياسى ، فى حكومة الملأ شبه الجمهورية البدائية، بالقضاء على سادتها المترفين من الملأ والسادة، المنافس الحقيقى لفكرة الدولة الواحدة، وهو ما سيتم تثبيته بعد زمن، بالاعتماد على ذلك التوازن بين النقائض، فى مملكة وراثية كبرى، ستمسك بأعنتها قبيلة قريش، وقبيلة النبى،

والأرستقراطيون فيها تحديداً من البيت الأموى . وهى العودة التى ما كانت لتتم لولا العودة إلى الرحم وصلات العشيرة ، التي صبت الأمر بيد الطبقة التى سيتطور شأنها ويتم دعمها بالتدريج خلال حياة الرسول نفسه . وهوما أدى إلى وضع الشروط السياسية للسلطة المتوازنة للدولة التى انتهت لمركزية متوارثة صارمة .

وبسبيل حدوث ذلك ، ستبدأ الدولة تفصح تدريجيا عن وجهها الطبقى دون مواربة ، ليهدأ تنديد الآيات بالثروة وأصحابها ، مع خفوت متساوق فى حديثها عن المستضعفين فى الأرض . ولكن ليظل التوازن بين النقيضين وعدم حسمه وسيلة بيد المستضعفين ، عندما يرتدى الصراع الطبقى زيه العشائرى . فى صراع على بن أبي طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، فى عدد آخر من ثورات المستضعفين ضد الدولة ، والذى ارتدى عادة زيه الفاطمى والهاشمى العباسى ، العشائرى أيضاً .

* * *



الباب الثانى

أحـــــد

ثـــأر قـــريـــش

حروب دولة الرسول

جزء أول

السياسة بعد بدر الكبرى

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

ـــــــــــــــــ (٨٥/ آل عمران)

عن ابن اسحاق راوى السيرة النبوية أنه قال:

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة، مرجعه من بدر، . . . لم يقم بالمدينة إلا سبع ليال، حتى غزا بنفسه يريد بنى سليم.

وقال الواقدى:

. . . فلما أتاه وجد الحى خلوفاً، فاستاق النعم، ولم يلق كيدا، فأقام عليه ثلاث ليال، ثم رجع إلى المدينة[1].

وعليه، فإن السياسة العسكرية الواضحة، تشير إلى أنه بعد قطع الرؤوس من شيوخ قريش وسراتها، اتجه الجيش الإسلامى نحو القبائل الكبرى فى باطن الجزيرة لإخضاعها لدولته، وإرهابها لتؤوب إلى حلف يثرب، إمعاناً فى تقطيع أوصال الإيلاف القرشى لصالح الدولة الجديدة. أما حديث (الواقدى) هنا، فيشير إلى الأثر العظيم لوقعة بدر فى نفوس أعراب بنى سليم، تلك القبيلة التى لا يستهان بها، إلى الحد الذى هربوا فيه من مضاربهم لمجرد سماعهم بمقدم المسلمين، وتركوا ديارهم وأنعامهم، ليقيم المسلمون على مياههم وحياضهم ومضاربهم أياماً ثلاثة، يعودون بعدها إلى يثرب بغنيمتهم آمنين.

(١) البيهقي: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ١٦٣.

وتشير الأخبار إلى مسير آخر للنبى ﷺ إلى سليم، بعد أن رنا إلى علمه اجتماع سليم وغطفان بحلف يريد الانتقام، ومرة أخرى تهرب سليم هرباً غير كريم وتترك حيها:

فلما سار إليه لم يجد به أحداً . . . فوجد خمسمائة بعير مع الرعاة . . . فحازوها وانحدروا بها نحو المدينة . . . فأخرج خُمسه، وقسم الأربعة أخماس على أصحابه[٢].

وتخميس الغنائم هنا يعود إلى أمر الوحى:

﴿ واعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ **فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ**﴾ (٤١/ الأنفال).

وهى الحصة التى سبق واشترعها لأول مرة، ابن عمة الرسول (عبدالله بن جحش) فى سريته إلى نخلة، والتى خرق فيها الأشهر الحرم، واستولى على مغانم القافلة، وكانت أول غنم للمسلمين، ثم قال لرفاقه:

إن لرسول الله مما غنمناه الخمس، ثم فرق الباقى بينه وبين أصحابه

وهو ما جاء الوحى بعد ذلك مصدقا عليه فى الآية السالفة[٣].

هذا بينما كان الحال فى مكة غير الحال فى يثرب، فكانت مكة موتورة بقتلاها، حائرة فى أمرها وأمر مهابتها وتجارتها وهو ما يعنى كل مصيرها. ولما وصل (أبو سفيان) بقافلته، التى كانت سبب بدر الكبرى، ورأى قريشاً تعود فلولا منهزمة وهو لا يستطيع شيئاً، وهو صاحب اللواء والعسكر، نذر بيمين مغلظ إزاء ما رأى من هوان، ألا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو يثرب. ومعلوم فى تراثنا، **أن الغسل من الجنابة كان ميراثاً فى تقليد العرب من**

(٢) الحلبي: السيرة. سبق ذكره، مج٢، ص ٤٨٠.

(٣) ابن حبيب: المحبر، ص١١٦.

قديم، مثله مثل الصلاة على الموتى، ومثل الحج وشعائره[٤]، وكذلك القسم باليمين، كان واجب الوفاء.

ولما طال الأمر بالرجل، وهو من السادة المرفهين، وكان غزو يثرب بحاجة إلى زمن وإعداد، لم يحتمل عدم الاغتسال، ولم يكن ممن يحنثون باليمين، وهو حنث عند العرب عظيم. فخرج على رأس مائتى راكب من قريش إلى يثرب متخفياً يريد أن يبر فقط بقسمه حتى يغتسل، فحرقوا بعض النخل المتطرف، وقتلوا رجلين من فلاحى الأنصار كانوا فى حرثهما، ثم عادوا هاربين إلى مكة. فخرج النبى عليه الصلاة والسلام مع رجاله فى إثرهم، مما اضطر رجال أبى سفيان إلى إلقاء ما معهم من قرب السويق للتخفف والسرعة، والسويق هو حنطة تحمص وتطحن وتمزج بالسمن واللبن والعسل، وتتخذ زاداً فى السفر، فغنمها المسلمون، لذلك سميت تلك الغزوة (غزوة السويق)[٥].

ولا يمضى شهر حتى يخرج النبى برجاله لتأديب غطفان على حلفها مع سليم، فى الغزوة المعروفة بغزوة (ذى أمر)، وهنا تحكى كتب السير أن غطفان وجدت السلامة فى تصرف بنى سليم:

> وهربت منه الأعراب فوق ذرى الجبال، ونزل رسول الله ﷺ ذا أمر، وعسكر به، فأصابهم مطر كثير، فذهب رسول الله لحاجته، فأصابه ذلك المطر فبلل ثوبه، فجعل رسول الله وادى ذى أمر بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه فنشرها لتجف، وألقاها على شجرة ثم اضطجع تحتها، والأعراب ينظرون إلى كل ما يفعل رسول الله ﷺ.

---

(٤) نفسه: ص ٤٧٩.

(٥) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج١، ص٣٠٤، ٣٥٥.

ثم عاد - عليه الصلاة والسلام - إلى يثرب، بعد أن أقام هناك شهر صفر كله، **إرهاباً لهم**[٦].

ولم تمض سوى أيام حتى خرج إلى بنى سليم، الطرف الثانى فى حلف (غطفان/ سليم)، فى غزوة ثالثة، حتى بلغ (بحران)، وليقيم هناك شهر ربيع الآخر وشهر جمادى الأولى، **يستعرض قوة المسلمين وينشر هيبتهم**، دون أن يتجرأ عليه أحد، ثم عاد إلى يثرب[٧].

تناقضات يثرب

وهكذا بات غير خاف عن الأعراب، أن أحوال المسلمين قد تبدلت، وصاروا يخرجون ذرافات فى سرايا لا تنقطع لقطع طريق الإيلاف، وطرق التجارة الداخلية، وللإغارة على القبائل فى مواطنها لإرهابها لقطع موالاتها لمكة، وإخضاعها للدولة الإسلامية. لكن رغم كل هذا، فإن يثرب من الداخل لم تكن خالصة تماماً لصاحب الدعوة، وكان كل ما حدث من قبل، وبخاصة الصحيفة، مجرد تسكين مؤقت للأوضاع حتى يأتى الله بأمره. وبعد بدر بدأ الظرف يتغير، وفقدت المصلحة المشتركة بين اليهود والمسلمين، وأخذت السياسة طريقاً جديداً. فالسلاح قد فاض بعد بدر ولم تعد الحاجة ملحة لسلاح اليهود، والمال قد جاء من فداء الأسرى المكيين، والأممية إلى تضخم يضيق بالإطار القديم ويتناقض معه. وتحويل يثرب إلى دولة تناوىء دولة مكة، كان لابد أن يسبقه إزالة التناقضات الداخلية، بجمع شمل المدينة جميعاً، ونقلها من كونفوردالية تحالفية، إلى مؤسسة سياسية مركزية واحدة جامعة، تتجاوز البدائل المتحالفة إلى الدولة الموحدة.

---

(٦) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص١٦٧، ١٦٨.

(٧) نفسه: ص١٧٢.

ولما كان التناقض فى يثرب يتجاوز القبلية إلى العنصرية الدينية، فقد كان لابد من حسم فى الموقف السياسى نحو توحيد لكل العناصر، أو تخليص يثرب من العناصر المناقضة للتطور الجديد. ومن ثم **كان لابد من موقف باتر لكل لون من المعارضة الداخلية** كخطوة إجرائية أساسية، خاصة إذا جاءت تلك المعارضة من الجانب الذى يمثل اختلافاً أيديولوجياً غير مرجو الانضواء للدولة. وهنا نقرأ ما حدث بعد إصابة الملأ المكى فى بدر، والفزع الذى أصاب يهود النضير مصحوباً بالحزن والأسى، ممثلاً فى قول (كعب بن الأشرف):

أترون محمداً قتل هؤلاء؟ . . . فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس!! والله لئن كان محمداً قد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظاهرها.

ثم أخذ يرسل نحيبه الباكى شعراً يرثى صرعى القليب ويقول:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله	ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم	لا تبعدوا؛ إن الملوك تصرع
كم ذا أصيب به من أبيض ماجد	ذى بهجة يأوى إليه الضيع
صدقوا؛ فليت الأرض ساعة قتلوا	ظلت تسوخ بأهلها، وتصدع

وهنا قام شاعر الرسول (حسان بن ثابت) يكيل لكعب بن الأشرف الرد قائلاً:

فابكى، فقد أبكيت عبداً راضعاً	شبه الكليب إلى الكليبة يتبع
ولو شفى الرحمن منّا سيداً	وأهان قوماً قاتلوه وصرعوا

فرد كعب مرة أخرى ينادى المسلمين أن يردوا حساناً عن الشتم والإيذاء بقارص الكلم، وإنه مابكى بشعره القوم إلا لود كان بينهم فى قوله:

ألا فازجروا منكم سفيهاً لتسلموا عن القـول بأنى غـيـر مـقـاربِ

أتشـقنى إن كنت أبكى بعـبـرة لقـوم أتانى ودهم غـيـر كـاذبِ

فـإنى لبـاك مـا بقـيت وذاكـر مـآثر قـوم مـجـدهم بالجـبـاجبِ[٨]

وهنا يروى ابن كثير أن النبى ﷺ قد هتف قائلاً :

من لى بابن الأشرف؟

فنهض محمد بن مسلمة يقول :

أنا لك يارسول الله ، **أنا أقتله**[٩] .

ويحكى البيهقى مفصلاً «إن رسول الله ﷺ قال : اللهم اكفنى ابن الأشرف فقال له محمد بن مسلمة : أنا يا رسول الله أقتله ، فقام محمد بن مسلمة منقلباً إلى أهله ، فلقى سلكان بن سلامة . . . فقال له محمد بن مسلمة : إن رسول الله قد أمرنى بقتل بن الأشرف ، وأنت نديمه فى الجاهلية ، ولم يأمن غيرك ، فأخرجه إلىّ لأقتله . . . فخرج سلكان ومحمد بن مسلمة وعباد بن بشر وسلمة بن ثابت وأبو عيسى بن جبر (ومشى معهم رسول الله إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم) . . . حتى أتوه فى ليلة مقمرة ، فتواروا فى ظلال جذوع النخيل . وخرج سلكان فصرخ : ياكعب ، فقال له كعب : من هذا؟ فقال له سلكان : هذا أبو ليلى يا أبا نائلة ، وكان كعب يكنى أبو نائلة . فقالت امرأته : لاتنزل يا أبا نائلة ، إنه قاتلك ، فقال : ما كان أخى ليأتينى إلا بخير ، **ولو يدعى الفتى لطعنة لأجاب** . . . وأدخل سلكان يده فى رأس كعب وشمها فقال : ما أطيب عبيركم هذا! ! ثم صنع ذلك مرة أو مرتين حتى أمنه ، ثم أخذ سلكان

---

(٨) السهيلي : تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، سبق ذكره ، مج٣ ، ص١٣٩ ، ١٤٠ (الأخطاء العروضية بالأبيات هكذا بالمصادر) .

(٩) ابن كثير : البداية والنهاية ، سبق ذكره ، ج٤ ، ص٨ .

برأسه أخذة نصله منها، فجأر عدو الله جأرة رفيعة، وصاحت امرأته وقالت: يا صاحباه، فعانقه سلكان وقال: اقتلونى واقتلوا عدو الله، فلم يزالوا يتخلصون بأسيافهم حتى طعنه أحدهم فى بطنه طعنة بالسيف، خرج منها مصرانه، وخلصوا إليه فضربوه بأسيافهم . . . **فقتل الله عز وجل ابن الأشرف**»[١٠].

وزعم الواقدى أنهم جاءوا برأس كعب بن الأشرف إلى رسول الله ﷺ. . . وفى ذلك يقول كعب بن مالك:

فغودر منهم كعب صريعاً ... فذلت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثم وقد علته ... بأيدينا مشهرة ذكور
بأمر محمد إذ دس ليلاً ... إلى كعب أخا كعب يسير
فماكره فأنزله بمكر ... ومحمود أخو ثقة جسور[١١]

(ويقول البيهقى إن كعباً فى كلام له كان قد شبب بنساء المسلمين؟!)[١٢]. ولكن شعر (ابن مالك) هنا يصل إلى غاية المراد فى تأكيده (فذلت بعد مصرعه النضير)، أحد أهم قبائل يهود يثرب، بموت سيدها. ومن الجدير بالذكر أنه فى زمن خلافة معاوية بن أبى سفيان، ذكر قتل (كعب بن الأشرف) عنده، فقال (ابن يامين) وكان يهودياً أسلم فى غزو النبى للنضير: **لقد كان قتله غدراً، وسكت معاوية ولم يعقب كما لو كان راضياً عما يقال، أو سامعاً للقصة كما تروى بموضوعية لا مجال فيها للمجاملة**، وكان (محمد بن مسلمة) قاتل (كعب) حاضراً رواية (ابن يامين) لمعاوية، فنهض ثائراً يقول: يا معاوية، أيُغدر عندك رسول الله ثم لا تنكر، والله لا يظلنى وإياك سقف بيت أبداً، **ولا يخلو لى دم هذا إلا قتلته**[١٣].

(١٠) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص١٩١، ١٩٢، انظر أيضاً السهيلى: سبق ذكره، مج٣، ص٢٠٠.
(١١) ابن كثير: سبق ذكره، ج٤، ص٩.
(١٢) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص١٩٠.
(١٣) نفسه: ص١٩٣.

وبعد مقتل (كعب)، وعودة الرجال، قام النبى ينادى ورجع الصدى منه يسرى مجلجلاً :

من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه .

ومن ثم يروى ابن هشام :

«فوثب محيصة بن مسعود من الخزرج، على ابن سنينة، رجل من تجار يهود، كان يلابسهم ويبايعهم، فقتله، كان حويصة بن مسعود (أخو محيصة) إذ ذاك لم يسلم، وكان أسن من محيصة، فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول : **أى عدو الله قتلته، أما والله لرب شحم فى بطنك من ماله**، قال محيصة : والله لقد أمرنى بقتله، من لو أمرنى بقتلك، لضربت عنقك، قال أو الله لو أمرك محمد بقتلى لقتلتنى؟ قال نعم . . فأسلم حويصة»[14] .

وعليه؛ آذن فجر الأيام البدرية، بمغرب مرحلة آن غروبها، وأخذت آيات القرآن تتتالى تحمل روح السياسة الجديدة، تنسخ ما قد سلف من آيات المرحلة السابقة، بآيات تنبىء بما هو آتٍ، توطئة لخلاص يثرب الكامل لسادتها الجدد .

نعم، قالت الآيات فى المرحلة السابقة يقيناً :

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ **وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢/ البقرة) .

- ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (٤٤/ المائدة) .

(١٤) السهيلي : سبق ذكره، مج٣، ص١٦٤ .

- ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ (٤٣/ المائدة).

لكن السياسة الجديدة، جاءت بقرارات جديدة وحاسمة تقول:

- ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ (١٩/ آل عمران).

- ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا **وَكَرْهًا**﴾ (٨٣/ آل عمران).

- ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا **فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ (٨٥/ آل عمران).

وهى السياسة التى ابتغت انضواء اليهود الكامل، السياسى، والعقدى، بحيث لا يكونون أحلافاً على ذات القدر من الندية السياسية والدينية. أو العمل على إجلائهم عن يثرب، أو استئصال شأفتهم. وهو الأمر الذى سيتم تحقيقه بإصرار ودون هوادة، والذى كان سببه الوضع الخاص لليهود كأصحاب كتاب سماوى، ودستور عقدى، وهو ما جعلهم المنكر السماوى الحى لنبوة النبى العربى الذى يعلن انتشاب رسالته لذات المصدر، وهو ما كان يشكل خطراً دائماً وحقيقياً على الدولة وأيديولوجيتها.

وهنا تروى لنا كتب السير قصة غزوة (بنى قينقاع)، تلك القبيلة اليهودية التى يصف المؤرخون المسلمون رجالها بأنهم «كانوا **أشجع** يهود، وكانوا صاغة، وكانوا حلفاء عبادة ابن الصامت، وعبد الله بن أبى بن سلول»(١٥).

غزوة قينقاع

عن ابن عباس قال:

لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر، فقدم المدينة، جمع يهود فى سوق قينقاع فقال: يا معشر اليهود، **أسلموا قبل أن يصيبكم بمثل ما أصاب قريشاً**(١٦).

---

(١٥) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٤٧٤.

(١٦) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص١٧٣.

فكان رد قينقاع المتحدى :

يا محمد إنك ترانا كقومك؟!! لا يغرنك أنك لقيت **قوماً لا علم لهم بالحرب**، فأصبت منهم فرصة. إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس[(١٧)].

وهنا يعلن (الواقدى) ما كان مقدور الحدوث فى باطن الأيام بقوله: فحاصرهم رسول الله خمس عشرة ليلة، لا يطلع فيهم أحد، ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، **فكتفوا وهو يريد قتلهم**»[(١٨)].

ويتقدم رواة السير المسلمون بتقديم التبرير الذى رأوه مناسباً لنقض الصحيفة، والسير إلى قينقاع وأسرهم. بحكاية عن امرأة عربية، ذهبت تبتضع فى سوق قينقاع، فتلاعب بها شباب اليهود، بأن ربطوا ثوبها بظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا منها، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله، فشد اليهود على المسلم فقتلوه[(١٩)].

ومثل تلك القصة التبريرية واضحة الضعف والوهن، فالمرأة العربية التى سببت تلك الوقعة الهامة فى تاريخ الدولة الإسلامية، **لا ذكر لاسمها، ولا لقبيلتها، ولا ما إذا كانت مسلمة أم لا**؟ ولا نعرف اسم الصائغ اليهودى الذى هو عرب بدوره، ولا من هؤلاء الذين تلاعبوا بها، بل والأخطر لا نعلم اسم ذلك المسلم الذى استشهد وهو يدافع عن المرأة، ولا إلى أى قبيلة ينتمى، ولم تزعم قبيلة أنه قد حدث مثل ذلك لأحد من رجالها. وهو الأمر الذى يخالف ما ألفناه مع المتفق عليه بكتب الأخبار والسير من تدقيق وتوثيق، والقصة بكاملها - فى رأينا - مختلقة، صيغت على مثال نموذج قديم حدث زمن حرب

(١٧) الطبري: التاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٤٧٩.
(١٨) نفسه: ص ٤٨٠.
(١٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج٤، ص٤.

الفجار الأولى وكان سبباً لها، روى بنفس الأسلوب ودقائق التفاصيل. وقد لاحظ الحلبى راوى السير ذلك التشابه بين الحادثتين، فتطوع بتذكير القارىء الفطن بقوله: «وقد تقدم وقوع مثل ذلك وأنه كان سبباً لوقوع حرب الفجار الأولى»[٢٠].

وربما وافقنا قارىء حصيف فى رفضنا للقصة أعلاه، إذا ما أحطناه علماً بالتبرير الحقيقى لما حدث، وهو ما جاء مروياً عن (الزهرى) عن (عروة):

> نزل جبريل على رسول الله ﷺ بهذه الآية: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ** عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (٥٨/ الأنفال). فقال رسول الله ﷺ: **أنا أخاف من بنى قينقاع** فسار إليهم، ولواؤه بيد حمزة[٢١].

ولما كان يهود قينقاع، حلفاء للخزرج وسيدهم عبد الله بن أبى بن سلول، فقد قام عبد الله وهو يرى حلفاءه يساقون إلى الذبح مكتفين، بعد أن استسلموا، ليخاطب النبى ويقول: يا محمد أحسن فى مواليّ، فلم يرد عليه النبى. فقام يكرر، يا محمد أحسن فى مواليّ، ومرة أخرى يعرض عنه النبى. فيأخذ الغضب بعبد الله حتى **يدخل يده فى جيب درع الرسول يمسكه من لحمه الشريف** وهو يقول: يا محمد أحسن فى مواليّ، حتى غضب النبى غضباً شديداً، ورؤى لوجهه ظلل وهو يقول لعبد الله: ويحك، أرسلنى، أرسلنى. بينما ابن سلول لازال ممسكاً به ويقول: لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى مواليّ، أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، قد منعونى من الأحمر والأسود من الناس، تحصدهم فى غداة واحدة؟ **إنى والله امرؤ أخشى الدوائر!!** وهنا قال له النبى: هُم لك»[٢٢].

(٢٠) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٤٧٥.
(٢١) ابن سيد الناس: سبق ذكره، ج١، ص٣٥٣، انظر أيضاً الطبرى: سبق ذكره، ج٢، ص٤٨٠.
(٢٢) الطبري: سبق ذكره، ج٢، ص٤٨٠.

وهكذا ألغى الأمر النبوى بقتل بنى قينقاع، لكن شرط جلاءهم من المدينة خلال أيام ثلاثة لا تزيد، وبالفعل لم تمض الأيام الثلاثة حتى كان بنو قينقاع يحملون متاعهم راحلين، تاركين مزارعهم وحصونهم وما لم يقدروا على حمله، متجهين إلى أذرعات ببلاد الشام. وبذلك كان أول صدام بين النبى وبين يهود المدينة، وأول قرار يصدر يؤكد سيادة الرسول ويعنى قيام حاكم واحد لدولة المدينة، وهو القرار الذي أدى دوراً عظيماً فى انكماش بقية المعارضين فى يثرب لسلطان الدولة الجديدة. كما أدى من جانب آخر إلى تقليم أظافر (ابن سلول) وإضعاف مركزه، بهجرة حلفائه الذين كانوا حماية له من الأحمر والأسود من الناس، أى من اليهود والعرب. ويكفى أن نعلم مدى ذلك الأثر على (ابن أبى)، فى فارق الساعات ما بين إمساكه بلحم جنب النبى الشريف، وإصراره على مطلبه، وبين مغادرتهم يثرب بقرار آخر، ما أن سمعه (ابن أبى) حتى عاد مسرعاً إلى النبى ليسأله بقاء قينقاع فى يثرب، فحال بينه وبين الدخول إلى النبى جماعة من الصحابة، فلما حاول الدخول دفعوه إلي الحائط فشج وجهه، بينما قينقاع ينظرون ينتظرون آملين فى نتيجة المحاولة. فلما ضرب (ابن أبى) بالحائط وشج، ذهبت قينقاع فى طريقها وهى تقول: والله لا نمكث فى بلد يفعل فيه ذلك بأبى الحباب، ولا نستطيع أن ننتصر له، وغادروا يثرب، بل والجزيرة جميعاً إلى الشام[٢٣].

وقد عقبت الآيات على موقف (ابن سلول) بقولها: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين. فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة **فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين**﴾ (٥١ , ٥٢/ المائدة).

---

(٢٣) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٤٧٨.

أما (الحلبى) كاتب السيرة، فلم ترض نفسه وتستريح - فيما يبدو- بخروج قينقاع سالمين من يثرب، والرجوع عن قتلهم، فقال إن النبي دعا عليهم بالهلاك، فما بلغوا أذرعات الشام، حتى هلكوا جميعاً بتلك الدعوة(٢٤).

وهكذا ذلت النضير بمقتل (كعب بن الأشرف)، وغادرت قينقاع، وقلمت أظافر (ابن سلول) وشج وجهه أمام حلفائه وأهل. فى الوقت الذى استمرت فيه السياسة العسكرية على طريق الإيلاف، حتى جاءت سرية ذى قرد، لتكشف المدى الذى وصلت إليه قريش من هوان. ويروى لنا الطبرى أنها كانت فى جمادى الآخر عام ثلاثة للهجرة، عند مياه فى نجد تدعى ماء القردة من بطن عالج، والقصة «أن قريشاً خافت طريقها التى كانت تسلك إلى الشام، فسلكوا طريق العراق، فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب ومعه فضة كثيرة . . . وبعث رسول الله ﷺ زيداً بن حارثة، فلقيهم على ذلك الماء، فأصاب تلك العير وما فيها، وأعجزه الرجال، فقدم بها على رسول الله . . . **فكان الخمس عشرين ألفاً، فأخذه رسول الله** ﷺ، وقسم الأربعة أخماس على السرية(٢٥).

وهنا قام حسان بن ثابت ينادى العرب، يخبرهم بشأن قريش وجبنها، ساخراً من خوفها ورعبها قائلاً:

فلجأت الشام قد حال دونها	جلاد كأفواه المخاض الأوارك
بأيدى رجال هاجروا نحو ربهم	وأنصاره حقاً وأيدى الملائك
إذا سلكت الغور من بطن عالج	**فقولا لها ليس الطريق هنا لك**(٢٦)

(٢٤) الموضع نفسه.
(٢٥) الطبري: سبق ذكره، ج٢، ص٤٩٢، ٤٩٣.
(٢٦) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص١٧٠، ١٧١.

وكانت السبة عظيمة ، والخسارة أعظم ، ومجريات الأحداث التى تجرى مع سرايا يثرب تحمل لقريش خراباً تاماً مقبلاً ، وما كان الانتظار بعد ذلك ممكناً ، فقامت قريش تتهيأ لحماية تجارتها ومصيرها ، وتثأر لكرامتها المهدورة ، تريد ضرب المدينة والقضاء على هؤلاء الذين خرجوا منها متسللين ، لتقوى شكوتهم حتى درجة القضاء على السادة ، وطريق التجارة العالمى ، وذلك فى الغزوة الكبرى المعروفة باسم غزوة أحد .

* * *

الهزيمـــة

« فناديت بأعلى صوتى : يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله ، فأشار إلىَّ : أنصت» .

(كعب بن مالك الأنصارى)

وبأحد تبدأ **المرحلة الرابعة** من مراحل تطور الدولة الإسلامية ، التى تنتهى عند صلح الحديبية . ويروى لنا (ابن كثير) كيف بدأت حرب أحد بين المسلمين والمشركين فى قوله : «لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب ، ورجع فلهم إلى مكة . . . مشى . . . رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا ندرك منه ثأراً ، ففعلوا ، قال ابن إسحق : ففيهم . . . أنزل الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٦/ الأنفال) .

. . . فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ ، حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب العير بأحابيشها ، ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالظعن (النساء) التماس الحفيظة ، وألا يفروا»[١] .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، سبق ذكره ، ج٤ ، ص١١ ، ١٢ .

ويستكمل (برهان الدين الحلبى) فى سيرته فيقول : «وبلغ رسول الله عليه الصلاة والسلام ذلك، **أرسل به إليه عمه العباس**، بعد أن راودوه على الخروج معهم، فاعتذر بما لحقه من القوم يوم بدر، ولم يساعدهم بشيء. وذلك فى كتاب جاء إليه ﷺ، وهو بقباء، أرسله العباس مع رجل استأجره من بنى غفار، وشرط عليه أن يأتى المدينة فى ثلاثة أيام بلياليها، ففعل . . . ويقال : أن عمرو بن سالم الخزاعى مع نفر من خزاعة، فارقوا قريشاً من ذى طوى، وجاءوا النبى ﷺ وأخبروه خبرهم، وانصرفوا»[٢].

وعليه، فقد بلغت أخبار مسير قريش رسول الله ﷺ برسالة عاجلة من عمه العباس، الذى كان عيناً له مع بعض بنى هاشم على قريش، إضافة إلى هوى خزاعة مع النبى، التى كانت عضواً بقبائل الإيلاف، وظلت على إيلافها مع قريش لتتسقط أخبار قريش للنبى. وهو ما يفصح به (عبدالله بن أبى بكر) فى قوله : « كانت خزاعة مسلمهم **ومشركهم** عيبة رسول الله، أى موضع سره وعيونه على قريش»، وبخاصة (معبد الخزاعى) الذى لم يكن مؤمناً بدعوة الإسلام، فيما تخبرنا به صدور كتب الأخبار[٣].

ولما بلغت الأنباء رسول الله والمسلمين، فرح المسلمون، ورأى من لم يخرج منهم إلى بدر فلم يصب مغنماً، أن له نفلاً فى وقعة قريبة، فيروى (ابن هشام) «فقال رجال من المسلمين . . . **ممن كان فاته** بدر : يارسول الله؛ اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون إنا جبنا عنهم وضعفنا»[٤]. هذا بينما كان (عبدالله بن أبى بن سلول)، ذلك الذى تصفه كتب السيرة بأنه زعيم المنافقين، يرى غير ذلك. والجهاد عنده هو الجهاد سواء داخل المدينة أم خارجها، ولا يجد - وهو الرجل الموسر - فى المغانم رغبة، قدر ما كانت نظرته تقدم على

---

(٢) الحلبي : السيرة، سبق ذكره، مج٢، ص٤٨٩، ٤٩٠.
(٣) الطبري : التاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٣٥.
(٤) السهيلي : الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج٣، ص١٤٩.

رؤية تعمل الخبرة القتالية، **والحكمة العسكرية**. وكان الخروج من المدينة إلى (أحد) حيث عسكر المشركون على بعد ما لايزيد عن ثلاثة أميال من المدينة، يعنى لابن سلول هزيمة محققة للمسلمين، ومن هنا تقدم بالرأى يقول:

> يا رسول الله؛ أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يارسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا[5].

وقامت الأنصار بدورها تقول:

> يارسول الله؛ ما غَلَبنا أحد أتانا فى دارنا... فكيف وأنت فيها؟[6].

ومع ذلك، ظل الراغبون من المتحفزين للنفل، **أو للقاء الله** على حميتهم للخروج إلى قريش، وظلوا بالنبى يحفزونه حتى قام فلبس لباس الحرب، فوضع البيضة على رأسه وتدرع بدرعين، وكان ذلك يوم الجمعة من شوال، من السنة الثالث للهجرة.

وخرج المسلمون، ولكن على مشارف المدينة، لا أكثر من ميل منها، قرر (ابن أبى) العودة بأتباعه وهو سيد الخزرج، فناداهم بقوله:

> ارجعوا أيها الناس، **عصانى وأطاع الولدان، وما ندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا** أيها الناس؟[7].

---

(٥) نفسه: ص ١٤٩.

(٦) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٤٩١.

(٧) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص١٤٩.

ورجع (ابن سلول) بمن تبعه من قومه «من أهل النفاق والريب، وكانوا ثلث الناس، حوالى ثلثمائة رجل»[٨]، مما يشير إلى أن مجموع المسلمين الذين خرجوا إلى أحد كان تسعمائة مقاتل، مقابل ما تخبرنا به كتب الأخبار عن عدد مقاتلى مكة الذين زادوا عن الثلاثة آلاف. وهو موقف بالمقاييس العسكرية وحدها، كان يفسر بعقلية عسكرية كعقلية (ابن سلول) بأنه لون من الانتحار المؤكد، وأتى واضحاً فى قوله: «علام نقتل أنفسنا ها هنا؟». ومن ثم نستطلع وضع الجيشين فى كتب الأخبار فتقول: «حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالشوط من الجبانة، انحزل عبدالله بن أبى بقريب من ثلث الجيش، ومضى النبى وأصحابه وهم فى سبعمائة، وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائتا فرس، **جنبوها**. وجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل... **فكان أصحاب رسول الله فرقتين فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول، لا نقاتلهم**»[٩].

ومن ثم فكان حال الجيش الإسلامى، كحال قريش فى بدر، منقسم على نفسه، لكنه فى أحد، كان لا يشكل أكثر من ربع جيش قريش. وهى عوامل موضوعية، كانت كفيلة لمن يقرأها أن يتنبأ بهزيمة ماحقة للمسلمين، وهو ما قرأه (ابن أبى) الذى صقلته الحروب بالحنكة العسكرية، فنصح بعدم الخروج، ثم رأى إنقاذ أتباعه فعاد بهم إزاء وقعة هى فى رأيه لون من الانتحار، ولا شك أن عودته كانت من جانب آخر ضغطاً على المسلمين ليتراجعوا إلى المدينة. وكان مثل ذلك الموقف كفيلاً بوضع (ابن سلول) فى التاريخ الإسلامى كرأس للمنافقين، وهو ما عبرت عنه عبارة ابن هشام:

فرجع بمن اتبعه من قومه، من **أهل النفاق والريب**[١٠].

---

(٨) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٤٩٤.

(٩) البيهقي: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص٢٦٣.

(١٠) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص١٤٩.

وهكذا تم وصف ثلث المقاتلين المسلمين أنصار رسول الله وأخواله، بأنهم منافقون، يرتابون فى نصر الله لنبيه، وربما كان ذلك الوصف الذى دمغ به ثلث المسلمين، راجعاً لكون (ابن سلول) وأتباعه لم يأخذوا فى اعتبارهم إلامعطيات الواقع الأرضى فقط، دونما أنزل الله تعالى وتبارك من وعد وبشرى حيث يقول:

- ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ (١٥١/ آل عمران).
- ﴿إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ، وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن **يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ** مُنزَلِينَ. بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ **هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ** مُسَوِّمِينَ﴾ (١٢١ : ١٢٥/ آل عمران).

ومن ثم؛ فإن موقف (ابن سلول) إنما يعنى عدم أخذه الوعد الإلهى مأخذ الجد، واعتماده معطيات الواقع فقط فى اتخاذ القرار، مما يشير إلى عدم إيمان حقيقى. لكن الواجب هنا التنبيه إلى أن (ابن سلول) وهو يدعو إلى عدم الخروج من يثرب، وإشارته إلى أنه ما هاجمها أحد وانتصر، إنما يعنى اعتماداً واثقاً على حصانة يثرب، وما بها من حصون وآطام. كما يعنى **أن الرجل يغامر بمدينته وأهله بالكامل فى حال انتصار المهاجمين**، وهو احتمال وارد أمام العدد الهائل لجيش قريش، وإن كان ضعيفاً. وهى مغامرة قبلها على بلده وأهله، مع خيار النصر المحتمل فى رد المهاجمين، مفضلاً ذلك على أن تنزل بالمسلمين إذا خرجوا هزيمة محققة، قد يفنى فيها الرجال جميعاً. وهو نصح لو أخذناه بإنصاف لأنصفنا الصدق والحق على الأقل، خاصة **أن ما حدث فى وقعة أحد بعد ذلك، كان هزيمة حقيقية للمسلمين على مستويات عدة**.

وكانت تلك الهزيمة النكراء لجيش المسلمين، مدعاة لمحاولة بعض المفسرين القول: إن وعد الآيات بالإمداد بالثلاثة وبالخمسة آلاف ملك، كان يوم النصر البدرى، وليس يوم أحد. بينما وقف آخرون موقفاً صارماً، يلتزم التأريخ وأسباب النزول وسياق الآيات فى السور مقارناً بالحدث، بحجج فقهية تؤكد أن الآيات نزلت فى أحد تحفيزاً للمسلمين. أما السر فى عدم انتصار المسلمين ـ رغم هذا المدد العظيم، وهو ما كان يعنى عدم نزول الملائكة، لأنهم لو جاءوا لحققوا نصراً سهلا دون جهد يذكر للمسلمين ـ فهو أن الإمداد كان معلقاً بشرط، هو التقوى ومصابرة عدوهم. لكن المسلمين لم يصبروا بل فروا، فسقط الشرط، فتوقف الإمداد، ولم يمدوا بملك واحد. أما ذكر بدر فى الآيات السالفة فقد جاء اعتراضاً فى سياق آيات أحد، تذكيراً بنعمة الله على المؤمنين ونصره لهم فى بدر رغم ضعفهم ومذلتهم، ليحفزهم على خوض أحد بذات الثقة فى نصر الله. مع حجة أخيرة تقول: إن القصة الواردة فى سورة آل عمران هى قصة أحد وحدها مستوفاة مطولة، وإن مقارنتها بسورة الأنفال التى تعلقت ببدر، **يقع باليقين أن الآيات نزلت فى أحد وليس فى بدر**[11].

وقائع أحد

وتجمع كل كتب السير والأخبار، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يكره الخروج إلى أحد، لكنه خرج لرغبة أصحابه. ولما لبس لامته، جاءه الذين استكرهوه على الخروج يراجعون موقفهم ويعتذرون، فكان رد النبى: ما كان لنبى إذا لبس لامته، أن يضعها حتى يحارب. وجعل النبى لأصحابه فى ذلك اليوم شعاراً يشبه شعار بدر، مع اختلاف بسيط، فقد أسقط من شعار بدر (يامنصور)، ليصبح بدلاً من (يا منصور أمت) كلمة واحدة تقول: (أمتْ، أمتْ)[12].

---

(١١) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٥٨.

(١٢) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٤٩٩.

وعند خروج النبى إلى أحد قال له الأنصار :

- يا رسول الله ، ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟

- فقال : لا حاجة لنا فيهم [١٣] .

ولما سار بجيشه ووصل رأس الثنية ، «وجد كتيبة كبيرة فقال : ما هذا؟ قالوا : هؤلاء **حلفاء عبدالله بن أبى من يهود** . . . فقال :

إنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك»[١٤] .

ويبدو لنا أن تلك الكتيبة كانت من قبيلة بنى قريظة ، خرجت إعمالاً لبنود الصحيفة ، وانتصاراً لحليفتها الخزرج ، لكن الواضح أن رسول الله ﷺ لم يكن على ثقة كافية بهم . ومرة أخرى عرض الأوس على النبى بعد رجوع (ابن سلول) ، الاستعانة بحلفائهم من يهود بنى النضير ، حلفاء (سعد بن معاذ) ، ومرة أخرى رفض النبى [١٥] . ومع ذلك فقد أصر (مخيريق) اليهودى على الخروج إلى أحد ، وهو على دينه ، وأوصى بماله للنبى إن هو قتل . وبالفعل قاتل الرجل حتى قتل ، وآل ما يملكه إلى رسول الله ، وفيه قال النبى الكريم «مخيريق خير يهود»[١٦] .

ولما كانوا بالقرب من أحد ـ حيث بدت لهم صفوف الثلاثة آلاف مكى تنتشر بدروعها وقضها وقضيضها ، قد اتخذوا مواقعهم حسب خطتهم فى بقاع أحد ـ استرسل الوحى يحمل إلى قريش برقية تقول :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا **إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم** مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا **فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ**﴾ (٣٨/ الأنفال) .

---

(١٣) السهيلي : سبق ذكره ، مج٣ ، ص١٤٩ .
(١٤) الحلبي : سبق ذكره ، مج٢ ، ص٤٩٣ .
(١٥) نفسه : ص ٤٩٥ .
(١٦) ابن كثير : سبق ذكره ، ج٤ ، ص٣٨ .

والبرقية هنا رغبة فى السلم، لكنها رغبة المقتدر، لذلك فهى نصيحة أكثر منها رغبة، فإن تنتهوا وتعودوا إلى مكة، يغفر الله لكم ما قد سلف، وبمعنى موضوعى توقف ما جرته الأحداث الماضية على مكة. لكن النص هنا جاء مصحوباً بذكر الملأ القرشى الذين أهيل عليهم تراب القليب البدرى، «فقد مضت سنة الأولين»، أى مضى الأشياخ ومضت معهم سنتهم ونهجهم، ولا معنى للاعتراك على ثأر لقوم ذهبوا. لكن ذلك التذكير كان كفيلاً بتأجيج لهيب الذكرى وحمية الرغبة فى الثأر، بضرب تلك القوة اليثربية التى إن بقيت فستقضى تماماً على قريش وتجارتها. وحتى يتم تأمين طريق الإيلاف مرة أخرى، بعد أن أشرفت مكة على الهلاك بحصارها الاقتصادى.

ووقف (أبو سفيان / صخر بن حرب) يؤكد أن سنة الأولين باقية، بتصرفه تصرف (عتبة ابن ربيعة) فى بدر، فقام ينادى أهل يثرب بعدم رغبة مكة فى قتال يثرب، ويعلنهم أنهم يريدون فقط غرضاً محدداً، يتضح فى قوله:

> يا معشر الأوس والخزرج، خلوا بيننا وبين بنى عمنا، وننصرف عنكم.

لكن الرجل (بسنة الأولين أيضاً)، وكرأس من رؤوس قريش، لم يع حتى الآن ما تمخضت عنه ظروف التطور، ولم يدرك ما جد فى وجدان الأنصار ووعيهم، وأنهم قد أدركوا ممكناتهم ومستقبلهم، وأنهم قد أصبحوا المنافس الحقيقى لمكة، ليس فقط على الطريق التجارى، إنما أيضا على من بالحجاز جميعاً، فكان ردهم أقبح الشتائم بأقذع اللعنات لأبى سفيان ورهطه[17].

وهنا قامت (هند بنت عتبة) مع نساء مكة وصباياها الغيد، اللائى ترفلن فى النعمة، فمشقوا القد، وحازوا الحسن واللطافة، يضربن الدفوف يحرضن رجال مكة ويغنين، مستخدمين أفصح فحيح أنثوى للإغراء، بنداء الوصال (وى ـ ها):

---

(١٧) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٤٩٧.

ويهـــــا بنى عـــــبـــــد **الـدار** ويهـــــا حـــــمـــــاة الأديـار
ضربـــــاً بكـــــل بتـــــار

إن تـقـــــبلـوا **نعـــــانـق** **ونـفـــــرش الـنـمـــــارق**
إن تـدبـروا نـفـــــارق فـــــراق غـــــيـــــر وامـق[18]

وعلى الجانب الإسلامى، ركز النبى خطته على حماية رجاله السيافة، بالرجال النبّالة، فأنزل الرماة فى مواقع تواجه خيل العدو، وأمّر عليهم نبالاً مشهوداً له، هو (عبدالله بن جبير). وأمرهم بعدم ترك مواقعهم حتى يأتيهم منه الأمر بذلك، مهما حدث، فقط كان مطلبه منهم الذى أكده لهم «إكفونى الخيل»[19].

أما قريش فكانت البادئة بتسخين أحد، فخرج طلحة بن أبى طلحة، وأبو طلحة والده اسمه عبدالله بن عثمان بن عبد الدار . . . وطلب طلحة المبارزة مراراً، **فلم يخرج إليه أحد**، فقال:

> يا أصحاب محمد؛ زعمتم أن قتلاكم فى الجنة، وأن قتلانا إلى النار . . . فهل أحد منكم يعجلنى بسيفه إلى النار، أوأعجله بسيفى إلى الجنة؟

فلما لم يخرج إليه أحد، من بين المسلمين، نادى يقول:

> كذبتم واللات والعزى، **لو تعلمون ذلك حقاً**، لخرج إلىّ بعضكم.

(١٨) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص١٥١، انظر الشرح للألفاظ ص ١٦٠ (والنمارق هى وسائد تفرش على الأسرة، كناية عن النكاح).
(١٩) البيهقي: سبق ذكره ج٣، ص٢٠٩.

فخرج إليه على بن أبى طالب . . فالتقيا بين الصفين، فبدره على فصرعه، أى قطع رجله ووقع على الأرض وبدت عورته، فقال: يا ابن عم، **أنشدك الله والرحم**، فرجع عنه ولم يجهز عليه، . . . فقال له رسول الله ﷺ: ما منعك أن تجهز عليه؟ فقال ناشدنى الله والرحم، فقال: **اقتله، اقتله**»[٢٠].

وهكذا، بدا تردد المسلمين واضحاً لأهل مكة، فخرج رجل ثان من صفوف المشركين يدعو للمبارزة، «**فأحجم عن الناس حتى دعا ثلاثاً**، فقام إليه الزبير بن العوام، فوثب حتى استوى معه على البعير، فعانقه، فاقتتلا فوق البعير. فقال رسول الله ﷺ: الذى يلى حضيض الأرض مقتول، فوقع المشرك فوقع عليه الزبير، فذبحه»[٢١].

وارتفعت معنويات المسلمين بهذين القتيلين، وخرج عبدالرحمن بن أبى بكر من صفوف المشركين، فقال: من يبارز؟ فنهض إليه أبوه أبو بكر شاهراً سيفه، فقال له رسول الله ﷺ: شم سيفك، وارجع إلى مكانك، ومتعنا نفسك»[٢٢]. أما أبو دجانة (سماك بن خرشة) الأنصارى، ذو الخبرة الحربية، والشجاعة المتفردة بين أقرانه، فقد نهض يتناول من يد رسول الله سيفاً، ورجل مثل أبى دجانة إن قام للقتال، كان ذلك تحفيزاً لنفوس من يعرفون قدره، ويقول ابن هشام فى أمر أبي دجانة:

> وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب إذ كانت، وكان إذا أعلم بعصابة حمراء فاعتصب بها، علم الناس أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من رسول الله ﷺ، أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفوف، فقالت الأنصار: أخرج أبو

---

(٢٠) الحلبي: سبق ذكره. مج٢، ص٤٩٧.
(٢١) نفسه: ص ٤٩٩.
(٢٢) نفسه: ص ٤٩٩.

دجانة عصابة الموت، فقال رسول الله حين رأى أبا دجانة يتبختر:
إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن[٢٣].

ثم بدأت الوقعة فعلياً عندما هتف النبى ﷺ برجاله: أمت، أمت، وبدأت وقعة أحد بداية متميزة، فقد صرع المسلمون أصحاب اللواء من بيتَ عبدَ الدار، «ثم انشتر النبى وأصحابه، وصاروا كتائب متفرقة، فجاسوا فى العدو ضرباً حتى أجهضوهم عن أثقالهم، وحملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات، كل ذلك تنضح بالنبل فترجع مغلولة، وحمل المسلمون عليهم فنهكوهم قتلاً»[٢٤].

ولاحت بوادر النصر، وتقهقر المشركون وهم يلقون بدروعهم وجحفهم وتروسهم، تخففاً للهرب، بينما علا صراخ نساء قريش المنعمات وهن يولولن، يبرز صراخهن الخائف مفاتن أنوثتهن، وأخذن يهربن أمام أعين المسلمين.

وقصدن الجبل، **كاشفات عن سيقانهن**، يرفعن الثياب، وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح، **وينتهبون** الغنائم[٢٥].

بينما يصف (عبدالله بن الزبير) الموقف بقوله:

والله لقد رأيتنى أنظر إلى هند بنت عتبة وصواحباتها، **مشمرات** هاربات، ما دون أخذهن قليل ولا كثير[٢٦].

بينما يقول آخر:

والله لقد رأيت النساء يشتددن على الجبل، قد بدت خلاخيلهن وسوقهن، **رافعات ثيابهن**، فقال أصحاب عبدالله بن جبير ـ الرماة ـ **الغنيمة، الغنيمة**[٢٧].

(٢٣) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص١٥٠، ١٥١.
(٢٤) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٣٠٩.
(٢٥) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٥٠٢.
(٢٦) ابن كثير: سبق ذكره، ج٤، ص٢٣.
(٢٧) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٢٢٩.

وهكذا نزل الرماة يلهثون وراء السيقان الغنيمة. وهو ما يصوره أحدهم: «والله ما نجلس هنا لشيء، قد أهلك الله العدو، فتركوا منازلهم التي عهد إليهم النبي ألا يتركوها»[٢٨]. «ونهاهم أميرهم عبدالله ابن جبير، فقالوا له: انهزم المشركون فما مقامنا ها هنا؟ وانطلقوا **ينتهبون** وثبت عبدالله بن جبير، وثبت معه دون العشرة»[٢٩].

لكنها لقاريء مدقق، كانت الخطة والتكتيك. فقد تقهقر قلب جيش المشركين، وشمرت النساء عن سوقهن يصعدن الجبل في المعتليات، وانطلق المسلمون خلفهن وترك الرماة مواقعهم. بينما كانت ميمنة (خالد بن الوليد) في مكانها لا تتزحزج، كذلك ميسرة (عكرمة بن أبي جهل)، ظلت ثابتة دون حراك، حتى إذا ما نزل الرماة، أطبقت الأجنحة على الوسط. وثبت القلب المتقهقر ليعاود الهجوم، في هجمة مرتدة سريعة، ثم ثنى (خالد) و (عكرمة) على الرماة، فحملوا على من بقي منهم فقتلوهم مع أميرهم ابن جبير.

> وأحاطوا بالمسلمين، فبينما المسلمون قد شغلوا **بالنهب والسلب**، إذ دخلت خيول المشركين تنادى فرسانها بشعارها: يا للعزى، يالهبل، ووضعوا السيوف في المسلمين وهم آمنون... واختلط المسلمون، وصار **يضرب بعضهم بعضاً من غير شعار**، وهو أمت، أمت، **مما أصابهم من الدهش والحيرة**[٣٠].

أما الأخطر من نسيان المسلمين لشعارهم، نتيجة الدهشة والذهول، وقتلهم بعضهم بعضاً، هو تمكن المشركين من الانغراس في العمق إلى نهايته، والوصول إلى موقع رسول الله ﷺ، لتأخذ منه ثأرها، وتنال منه فيخمد الجسد الإسلامي ويستسلم. وهو ما خرجت من أجله، لإيقاف نهر الدم، وإنقاذ ما بقي من مصالحها، بقتل النبي ﷺ بالذات وبالتحديد.

(٢٨) نفسه: ص ٢١٠.
(٢٩) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٥٠٢.
(٣٠) نفسه: ص٥٠٢, ٥٠٣.

صرخة الشيطان

وعندما وصل المشركون إلى رسول الله ﷺ، هرب أصحابه من حوله، حتى صار ينادى:

إلىّ يا فلان، إلىّ يا فلان، أنا رسول الله، **فما يعرج إليه أحد،** والنبل يأتى إليه من كل ناحية[٣١].

ويروى (الطبرى) إنه عند الهجوم على النبى، تفرق عنه أصحابه، فهرب بعضهم وعاد إلى المدينة لا يلوى على شىء، بينما صعد البعض الآخر إلى صخرة فوق الجبل، بينما استمر النبى ينادى:

إلىّ عباد الله، إلىّ عباد الله[٣٢].

واستطاع (عتبة بن أبى وقاص) أن يصل إلى النبى، ويهشم بيضته فوق رأسه. بينما تمكن (عبد الله بن شهاب) من أن يشجه فى جبهته، ثم كر عليه (ابن قمئة الحارثى)، فكسر أنفه ورباعيته، وضربه بالمغفر فدخلت حلقتان من حلقات المغفر فى وجنته الشريفة، كل هذا والرسول ينادى أصحابه[٣٣]. ثم وقع رسول الله ﷺ، فى حفرة، عندما هاجمه ابن قمئة فى كره ثانية، فضربه على عاتقه ضربة شديدة، لكن الدرعين كانا وقاء له، لكن عزم الضربة جعل رسول الله يشكو من عاتقه بعدها شهراً أو أكثر[٣٤].

وهنا لمح المحارب الصلب (أبو دجانة) رسول الله وهو على حاله هذا، فانطلق إليه ليرتمى فوقه يحميه، والنبل يتساقط عليه بغزارة حتى ملأ ظهره وهو لا يتحرك، فى الوقت

---

(٣١) نفسه، ص٥٠٥.
(٣٢) الطبري: سبق ذكره، ج٢، ص٥١٩, ٥٢٠.
(٣٣) ابن كثير: سبق ذكره، ج٤، ص٥٦.
(٣٤) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٥١٣.

الذى أخذ فيه المهاجمون دورهم الواسعة فى كرة جديدة ، انطلق أثناءها إلى النبى عدد من أصحابه ، فأنهضوه من الحفرة ، وأسرعوا به يصعدون شعب الجبل نحو صخرة منيعة ، فى اللحظة التى عادت فيها كرة المهاجمين . «فقال النبى ﷺ : ألا أحد لهؤلاء؟ فقال طلحة : أنا لهم يا رسول الله ، فقال : كما أنت يا طلحة ، فقال : **رجل من الأنصار** فأنا يارسول الله ، فقاتل عنه . وصعد رسول الله ومن بقى معه ، فلحقوه ، فقال : ألا أحد لهؤلاء؟ فقال له : طلحة مثل قوله ، فقال رسول الله ﷺ مثل قوله ، فقال **رجل من الأنصار** : أنا يارسول الله ، فأذن له ، فقاتل مثل قتاله وقتال أصحابه ، ورسول الله وأصحابه يصعدون ، ثم قتل ، فلحقوه . فلم يزل رسول الله ﷺ يقول مثل قوله الأول ، ويقول طلحة أنا يارسول الله ، فيحبسه ، فيستأذنه **رجل من الأنصار** للقتال فيأذن له ، حتى لم يبق معه إلا طلحة فقال رسول الله : من لهؤلاء؟ فقال طلحة : أنا»[٣٥] .

وتصف كتب السير أبا طلحة بأنه «كان رجلاً رامياً شديد الرمى» ، فنثر نبله ، وأخذ يرمى والرسول يجلس خلفه محتمياً به[٣٦] ، بينما كان النبى يرسل قوله الآسف على هرب أصحابه المهاجرين عنه : «ما أنصفنا أصحابنا» ، ويشرح البيهقى «معناه ما أنصفت قريش (المهاجرين) الأنصار ، لكون القرشيين **لم يخرجوا للقتال دفاعاً عن النبى ، بل خرجت الأنصار واحداً بعد واحد**»[٣٧] .

وظل (أبو طلحة) يرمى دفاعاً عن النبى يومذاك ، ويترس دونه ، حتى كسر ثلاثة أقواس . وكان المسلم يفل هارباً فيمر عليهما فيناديه رسول الله ﷺ : انثر نبلك لأبى طلحة[٣٨] ، حتى وتره رام أصاب يده فى أوتارها فشلت من فورها فصرح متألماً : حس ،

(٣٥) البيهقي : سبق ذكره ، ج٣ ، ص٢٣٦ .
(٣٦) الحلبي : سبق ذكره ، مج٢ ، ص٥٠٥ .
(٣٧) البيهقي : سبق ذكره ، ج٣ ، ص٢٣٥ .
(٣٨) نفسه : ص ٢٣٩ .

فقال له النبى : **لو قلت باسم الله لرفعتك الملائكة ، والناس ينظرون إليك ، حتى تلج بك فى جو السماء**[٣٩] .

وفى كرة رابعة ، عادت موجة مهاجمة إلى المكان الذى فيه رسول الله ﷺ ، بينما كان النبى قد تقهقر من مكانه مصعداً فى الشعب . وخرج لهم (مصعب بن عمير) دون رسول الله ، فوجد (ابن قمئة) مصعباً فى دروعه وخوذته فى مكان رسول الله ، فشد عليه شدة قتله بها ، وهو يظن أنه محمد ، ثم أكمل دورة فرسه نحو المشركين وهو يصيح مهللاً : **قتلت محمداً**[٤٠] . فى اللحظة التى كان فيها الرسول يتابع صعوده فى شعب الجبل متحاملاً على طلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، الذى هرع إلى طلحة يساعده فى حمل رسول الله[٤١] .

وإذ يقول زعيم طبقة المفسرين ورواة السير والأخبار الحافظ ابن كثير أن صيحة ابن قمئة : قتلت محمداً ، قد أدت إلى بهتة عظيمة بين المسلمين[٤٢] ، فإنها على الفور أوقفت لا جدال يد القتل المكية عن استمرار القتل والقتال ، فهذا ما جاءوا من أجله وقد تحقق ، ولم تعد ثمة ضرورة لاستمرار القتل . وبالفعل هدأ الميدان تماماً بعد صيحة ابن قمئة . تلك الصيحة التى تصر كتبنا التراثية على القول إنها صيحة الشيطان ، لا لشىء إلا أنها قالت مكروها بحق النبى ، رغم أن المتأمل بقليل من النزاهة ، يمكنه أن يراها صيحة جاءت فى موعدها تماماً ، **وكانت صيحة الإنقاذ لرقاب المسلمين ، ولنبيهم** .

هذا بينما يرون آخرون ـ بتغافل حقائق عدة ـ أن تلك الصيحة كانت السبب فى هزيمة المسلمين ، ومن ثم لاشك أنها كانت صيحة الشيطان الذى يعنيه هزيمة حزب الله . وذلك

---

(٣٩) ابن كثير : سبق ذكره ، ج٤ ، ص٢٧ ، ٢٨ .
(٤٠) السهيلي : سبق ذكره ، مج٣ ، ص١٥٣ ، انظر أيضاً البيهقى : ج٣ ، ص٢٣٨ .
(٤١) البيهقي : سبق ذكره ، ج٣ ، ص٢١١ .
(٤٢) ابن كثير : سبق ذكره ، ج٤ ، ص٣٢ .

بالتأثير الذى فعلته الصيحة بنفوس المسلمين، وخوار عزيمتهم وفزعهم لما علموا أن نبيهم قد قتل، وهو المعلق به مصيرهم ومصير دولتهم. ولكن دقائق الحدث لاتترك لأصحاب ذلك الرأى ما يتمحلون به، لأن الهزيمة كانت قد حلّت بالفعل قبل تلك الصيحة، وكانت يد القتل القرشية قد بدأت تفعل فعلها فيمن بقى من المسلمين، ووصل المشركون إلى النبى وفر أصحابه عنه، حتى أصيب إصابات شديدة، وكانت الصيحة متأخرة إلى حد بعيد عن الهزيمة التى تمت قبلها بوقت، عندما ضرب ابن قمئة مصعباً وهو يحسبه محمداً. وما كان ممكناً أن يصل إلى الرسول ﷺ فى مؤخرة جيشه، إلا إذا كان ذلك الجيش قد تهاوى وتشرذم، ولم يعد هناك حائل بين المشركين وبين النبى. لكن هؤلاء يصرون، مستندين إلى رويات مثل رواية (الزبير بن العوام):

وصرخ صارخ:

ألا إن محمداً قد قتل،

فانكفأنا، وانكفأ القوم علينا[43].

هذا بينما أصحاب تلك الرؤية، وفى روايتهم أنفسهم عما حدث، يظهر واضحاً أن (الزبير) كان يصعد مع (طلحة) يساعدان نبيهم الجريح على ارتقاء الشعب، بعد أن خلا الميدان حولهم من أصحابهم، وبقية الصحابة إلى فرار. ومن بقى منهم أخذوا يضربون بعضهم بعضاً من البهتة، أما (البيهقى) فيقول:

وصاح **الشيطان**: قتل محمد[44].

ويقول (ابن هشام):

---

(٤٣) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص١٥٥.

(٤٤) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٢٧٠.

الصارخ : إزب العقبة ، يعنى الشيطان(٤٥) .

أما من هو (إزب العقبة)؟ فهو ما يأتى فى حديث منسوب لعبد الله بن الزبير «أنه رأى رجلاً طوله شبران على رحله ، فقال : من أنت؟ قال : إزب ، قال : ما إزب؟ . قال : رجل من الجن» ، أما (الحلبى) الذى اعتدناه يقف مع ما لايجده متسقاً ومتوافقاً ، يتساءل أحياناً ، ويبرر أخرى ، فقد حاول تقديم تبرير لتضارب الروايات حول صاحب الصرخة ، فقال : «ويجوز أن يكون قد صدر عن الثلاثة : ابن قمئة ، وإبليس ، وإزب العقبة»(٤٦) .

وعليه ، فإن تلك الصرخة المنقذة التى أطلقها (ابن قمئة) ، كانت سبباً فى تراخى أيدى قريش عن القتل ، بينما النبى وطلحة والزبير يتسللون متخفين فى الشعب ، يريدون صخرة عالية ، تصادف أنها كانت الصخرة التى فر إليها بعض المسلمين الفارين ، ولجأوا إليها لمنعتها . فكان أن رآه (كعب بن مالك) من أعلى الشعب وهو قادم مع صاحبيه ، ويروى :

> قد عرفت عينيه الشريفتين تزهران تحت المغفر ، فناديت بأعلى صوتى :
>
> يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله فأشار إلىّ : **أنصت** ، فلما عرف المسلمون رسول الله نهضوا ، ونهض معهم نحو الشعب على بن أبى طالب ، وأبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، . . . فى نفر من المسلمين(٤٧) .

لكن ليلمحهم (أُبّي بن خلف) وهم يخفون إلى النبى يساعدونه على الصعود ، وقد تطرف (أُبّي) عن قومه ، فسمع صيحة (كعب بن مالك) ، فعلم أن الرسول ما زال حياً ،

(٤٥) السهيلي : سبق ذكره ، مج٣ ، ص١٥٥ .
(٤٦) الحلبي : سبق ذكره ، مج٢ ، ص٥٠٣ .
(٤٧) ابن كثير : سبق ذكره ، ج٤ ، ص٣٦ .

وبينما النبى يسند رأسه تعباً فى الشعب، كر (أبى بن خلف) بفرسه وهو يهتف متسائلاً: أى محمد (؟!) لا نجوت إن نجا، فقال القوم: يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله: لا، دعوه فلما دنا تناول رسول الله الحربة من الحارث بن الصمة، . . . وانتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض، . . ثم استقبله فطعنه فى عنقه، طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً[48]، وجعل يخور كما يخور الثور إذا ذبح»[49].

ولمزيد من المنعة، بعيداً عن متنارل قريش «نهض النبى ﷺ إلى صخرة فى الجبل ليعلوها، وقد كان بدن رسول الله بين درعين، فلما ذهب لينهض لم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيدة، فنهض به حتى استوى عليها»[50]. وهكذا نال الإجهاد من النبى كل منال، وأخذ منه الألم كل مأخذ، حتى أنه بعد العودة «ذكر عمرو مولى عفرة أن رسول الله ﷺ، صلى الظهر يوم أحد قاعداً من الجراح التى أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعوداً»[51].

وبعد أن امتنع المسلمون الذين بقوا مع نبيهم على الصخرة المنيعة ـ التى ما كان لأحد أن يصعد عليها إلا ويصاب برماح وسهام الممتنعين فوقها ـ ومعهم سيوفهم، لا مجال لأخذهم. تقدم أبو سفيان حتى اقترب من سفح الصخرة ثم نادى: «أفى القوم محمد؟ أفى القوم محمد؟ ثلاثاً، **فنهاهم رسول الله ﷺ أن يجيبوه**». وهكذا كانت حصافة القائد تملى على رجاله رغم الامتناع فوق الصخرة، **أن يتركوا قريشاً تتوهم قتله**، حتى لا يحاولوا الكر عليهم مرة أخرى، كما سبق وأمر (كعب بن مالك) بعدم الإعلان عنه وأمره

---

(٤٨) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص١٦٦.
(٤٩) الحلبي: مج٢، ص٥١١.
(٥٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج٤، ص٣٧.
(٥١) الموضع نفسه.

بالصمت : «**إنصت**»، لكن (أبو سفيان) استمر ينادى «أفى القوم ابن أبى قحافة؟ أفى القوم ابن أبى قحافة؟ أفى القوم ابن الخطاب؟ أفى القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم، فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله ياعدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقى لك ما يسوؤك»[٥٢]. فكان أن رد عليه (أبو سفيان) ومن معه ينادون شامتين متوعدين:

يوماً بيوم بدر، إن موعدكم بدر للعام القابل.

«فقال رسول الله لرجل من أصحابه: قل: نعم هو بيننا وبينكم موعد . . . ثم بعث رسول الله على بن أبى طالب فقال: اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة. والذى نفسى بيده، لئن أرادوها، لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزهم، قال على: فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون؟ فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة»[٥٣].

وهكذا، انتهت غزوة أحد بثأر قريش، الذى أعملت له حسابات دقيقة، وهم تجار أصحاب حسابات، يدققون فيما لهم وفيما عليهم، تحدوهم المصلحة والمكاسب فى الأول وفى الآخر. فتؤكد كتب الأخبار أنهم قتلوا على التدقيق سبعين مسلماً، بسبعين مشركاً يوم بدر، وأسروا سبعين مسلماً بسبعين مشركاً يوم بدر، وهو ما يردفه المفسرون بالآية الكريمة:

﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا﴾
(١٦٥/ آل عمران)[٥٤].

---

(٥٢) نفسه: ص ٢٧.
(٥٣) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص١٧٠، ١٧١.
(٥٤) ابن كثير: سبق ذكره، ج٤، ص٤٧.

(ومثليها هنا تعنى مثل الأمرين، السبعين قتيلاً، والسبعين أسيراً)، وهو ما عبر عنه منطق التاجر الأموى، أبى سفيان صخر بن حرب، وهو ينادى المعتصمين بالصخرة، مقدماً كشف حساب تجارى دقيق، يقول:

يوماً بيوم بدر، وإن موعدكم بدر العام القابل.

وهو ما عقب عليه الطبرى فى حديثه عن أحد مقارناً ببدر، إذ يقول:

«فلما كان العام القابل فى أحد، **عوقبوا بما صنعوا**، قُتل من أصحاب رسول الله ﷺ سبعون، وأسر سبعون، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، وفر أصحاب النبى وصعدوا الجبل»[٥٥].

* * *

(٥٥) الطبري: سبق ذكره، ج٢، ص٤٧٥.

فـرز أحـد

«لو كـان من الأمـر شيء مـا قُـتـلـنـا هـا هـنـا» .

(عتاب بن قشير الأنصارى)

وكانت أحد ابتلاء فرز واختبار وتمحيص للمؤمنين الصادقين، منهم من أخذهم الرعب فولوا هاربين من حول رسول الله حتى انكشف للمهاجرين، وهو ﷺ يناديهم: أنا رسول الله، إليّ يا فلان، إليّ يا فلان، فلم يثبتوا وفروا عنه ليعتصموا بصخرة فى أعلى الشعب، فأنّبهم الوحى الكريم بقوله:

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ **فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ** . . . ﴾ (١٥٣/ آل عمران).

هذا عمن فروا، ثم هناك ما جاء وحياً يحدث **عمن ظنّوا بالله ظن الجاهلية، وشكّوا فى صدق الرسول بل وفى الدعوة برمتها**، ليرد عليهم قائلاً:

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ **لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا** قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (١٥٤/ آل عمران).

ثم يتوجه الوحى نحو ابن سلول ورجاله، من قالوا: لو سمعوا نصحنا لهم بالتحصن فى يثرب، وعدم الخروج إلى المشركين ما قتلوا، قائلاً:

﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٦٨/ آل عمران).

أما الذين تساءلوا **كيف يهزمون والله معهم ورسوله**؟ فقد جاءهم جواب الوحى مفحماً يذكرهم أنهم وإن أصيبوا فى أحد، فقد سبق وأصابوا فى بدر، ويقول:

- ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٥ . آل عمران).

- ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ (١٤٠/ آل عمران).

ثم يثنى الوحى بصدقه بالقول الفصل، لتأكيد أن ما حدث كان خطة إلهية مقدورة سلفاً، من الله تعالى، لفرز المؤمنين الصادقين عن غيرهم، بقوله:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ، **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا**...﴾ (١٦٦ , ١٦٧/ آل عمران).

مواقف من الهزيمة

ونعود إلى عيون التاريخ نقرأ فيها المفاجأة التى رتبتها قريش للمسلمين، بقرارات مقاتلين من جيل جديد، تلتمع أسماؤهم مع نصال سيوف شرذمت شمل المسلمين وصعقتهم، مثل (خالد بن الوليد) و(عكرمة بن أبى الحكم)، حتى صار المسلمون يضربون بعضهم ويقتلون بعضهم بعضاً على غير هدى، ولا شعار. بعد أن أضاعت البهتة لبهم فنسوا شعارهم، ثم جاءت صيحة (ابن قمئة): إن محمداً قد قتل، لتترك أثراً أعمق فى الفارين يحتمون بالشعاب والصخور، فأصحاب الشعب يقولون:

إن رسول الله ﷺ قد قتل، **فارجعوا إلى قومكم فيؤمنوكم**، قبل أن يأتوكم فيقتلونكم، فإنهم داخلون البيوت[1].

وقد ذهب هؤلاء تحديداً إلى رأى يقول:

نلقى إليهم بأيدينا، **فإنهم قومنا** وبنو عمنا.

ويعقب رواة السيرة بالقول:

وهذا يدل على **أن هذه الفرقة ليست من الأنصار، بل من المهاجرين**[2].

هذا؛ بينما كان بعض المسلمين ينتهز فرصة المعركة، ويحفز الناس للخروج إليها، من أجل أخذ ثأره من مسلم آخر فى حومة الوغى دون عيون تراه، مثل (الحارث بن سويد بن الصامت) ابن صاحب صحيفة لقمان. ذلك المسلم الذى لم تؤثر فيه الأخوة الإسلامية والأممية الجديدة، بل ظل أسير الحمية القبلية الجاهلية، يخضع رغبته الثائرة على مضض ينتهز لها فرصة، يريد بها (المجذر بن زياد) الذى كان قد قتل أباه (سويد) فى حرب الأوس والخزرج. وما أن تبدأ المعركة ويختلط الناس بالناس، حتى يغمد سيفه فى قاتل أبيه ليشفى غليل ثأره[3].

ثم موقف ثالث لأصحاب الصخرة الذين فروا من حول النبى، واعتصموا بها يردون عن أنفسهم فى خفائها، وقد رأى هؤلاء رأياً آخر:

فقال بعض أصحاب الصخرة، ليت لنا رسولاً إلى عبدالله بن أبى فيأخذ لنا أمنة من أبى سفيان، يا قوم، إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى **قومكم**، قبل أن يأتوكم فيقتلونكم[4].

---

(١) البيهقي: دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص ٢١٠.
(٢) الحلبي: السرية، سبق ذكره، مج٢، ص٥٠٤.
(٣) السهيلي: الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج٣، ص١٦٨، انظر أيضاً: ابن سيد الناس؛ عيون الأثر، سبق ذكره، ج٢، ص٢٥.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج٤، ص٢٤.

وقد بلغ الرعب أصحاب الصخرة أنهم كادوا يقتلون نبيهم وهو يخف إليهم متحاملاً على مناكب صاحبيه، وهم لا يميزونه، ورفعوا عليه نبالهم ورماحهم.

فقال رسول الله: أنا رسول الله، ففرحوا بذلك حين وجدوا رسول الله ﷺ، وفرح رسول الله **حين رأى أن فى أصحابه من يمتنع بهم؟!!** . . . فقال الله عز وجل فى الذين قالوا: إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى **قومكم** ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (١٤٤/ آل عمران)(٥).

أما الموقف الرابع، فيمثله من جاء ذكرهم فى الواقدى وهو يقول:

لما صاح إبليس: إن محمداً قد قتل، تفرق الناس، فمنهم من ورد المدينة، حتى دخلوا على نسائهم وجعل النساء يقلن: عن رسول الله تفرون؟!(٦).

وقد عدد (البلاذرى) فى أنساب الأشراف (١/ ٣٢٦) أسماء بعض الفارين من الميدان تماماً - الذين يمثلون موقفاً خامساً - بعد أن تركوا إخوانهم ورسولهم إلى مصيرهم، وهم عثمان بن عفان، وسواد بن غزية، والحارث بن حاطب، وسعد بن عثمان، وعقبة بن عثمان، وخارجة بن عامر، وأوس بن قيظى. حتى أبعدوا عن المدينة إلى موقع باسم الشقرة بما يصل إلى ثلاثين ميلاً(٧)، ولم يعودوا إلى يثرب إلا بعد أن وصلتهم الأخبار بعودة النبى إليها مع من بقى من أصحابه، فعادوا إليها من مهربهم بعد أيام ثلاثة، فقال لهم رسول الله ﷺ: لقد ذهبتم فيها عريضة، ثم جاء الوحى بشأنهم يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا **اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ**﴾ (١٥٥/ آل عمران).

(٥) نفسه: ص٢٤.
(٦) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٣١٠.
(٧) نفسه: ص٣١٠، انظر البلاذرى فى أنساب الأشراف (١/ ٣٢٦).

ويقول (ابن حبيب): «الذين تولوا يوم التقى الجمعان فعفا الله عنهم من المهاجرين عثمان بن عفان بن العاص بن أمية، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسعد بن عثمان من الخزرج وأخوه عقبة بن عثمان»[٨]. وكان هرب (عثمان بن عفان) من أحد، مدعاة بعد ذلك بسنين فى الصراع السافر الذى قام على السلطة فى الدولة الإسلامية، للتدليل على أن الموقف العدائى لبنى أمية من الهاشميين بل من النبى ودعوته، كان متأصلاً فى نفوسهم. فقد حكى البخارى عن عثمان ابن وهب قوله: «جاء رجل حج البيت فرأى قوماً جلوساً، فقال: من هؤلاء القعود؟ قالوا: قريش، قال: من الشيخ؟ قالوا: ابن عمر، فأتاه فقال: إنى سائلك عن شىء، أتحدثنى؟ أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن **عثمان بن عفان فر يوم أحد**؟ قال: نعم، قال: فتعلمه **تغيب عن بدر** فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: فتعلم أنه **تخلف عن بيعة الرضوان** فلم يشهدها؟ قال: نعم، فكبر. فقال ابن عمر: تعال لأخبرك ولأبين لك عما سألتنى عنه، فأما فراره يوم أحد، فأشهد **أن الله عفا عنه**، وأما تغيبه عن بدر، فإنه كان تحته بنت النبى وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه. أما تغيبه عن بيعة الرضوان، فإنه لو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانه، فبعث عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة»[٩].

ثم موقف سادس. أعلن تشككه فى أمر الدعوة بكاملها، وعلاقة الرسول بالسماء، يمثله عتاب ابن قشير الذى وقف يتطلع إلى هزيمة المسلمين وهم يقتلون فى أحد ويقول:

لو كان من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا[١٠].

وجاوبه رجع الصدى ممن هم على مثل رأيه:

(٨) ابن حبيب: المحبر، سبق ذكره، ص٢٨٣، ٢٨٤.
(٩) ابن كثير: سبق ذكره، ج٤، ص٢٩.
(١٠) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص١٩٤.

لو كان نبياً ما قتل، فارجعوا إلى دينكم الأول[11].

وهكذا كان الفرز، وهكذا جاءت أحد لتفصح بوقعتها عما بذات الصدور. وتحدد مواقف، وتصنف الأتباع تصنيفاً كامل التحديد والوضوح. لأنه مقابل كل تلك المواقف المتخاذلة والمؤسفة، كانت هناك مواقف أخرى وإن كانت قليلة نادرة ضعيفة، لكنها دخلت الفرز وبرزت كمواقف مبدئية صارمة لا تقبل المساومة. فهذا (أنس بن النضر) ينادى (عمر بن الخطاب) و(على بن أبى طالب) و(أبا بكر) وصحبهم من أصحاب الصخرة ويقول:

> يا قوم؛ إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد، اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه يقاتل، حتى قتل[12].

وهكذا، وبينما المهاجرون فى فزعهم، والأنصاريقتلون الواحد بعد الآخر دون رسول الله وهو يصعد الشعب، وبينما المهاجرون يفكرون فى اللحاق بقومهم، فإن «رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط فى دمه، فقال له: يافلان، أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال **الأنصارى**: إن كان محمداً قد قتل، فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم»[13].

ثم ذلك الأنصارى المبارز الفارس، (أبو دجانة/ سماك بن خرشة)، الذى ترس عن الرسول يتلقى عنه النبل، وظل محارباً يخوض معه المواقع بعدها بذات البطولة. (وقزمان) الأنصارى، الذى **أبلى فى أحد بلاء يعادل فى ميزان القتال جيش المسلمين جميعاً**، فنزل الحومة لا يكل ولا يهرب ولا يتراجع، يتخطف سيفه رؤوس المشركين رأساً

---

(١١) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٥٠٤.

(١٢) ابن كثير: سبق ذكره، ج٤، ص٢٤.

(١٣) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٢٤٨، ٢٤٩.

فى إثر رأس، ويصول حتى ينغرس فى عمق ثلاثة آلاف مقاتل دون خطوة واحدة للوراء، حتى أعمق بينهم، وحتى **عددت له كتب السير عشرة قتلى، من بين اثنين وعشرين قتيلاً مكياً هم كل من قتل المسلمون من قريش فى أحد**، وبينما يعدد (ابن هشام) أسماء المقتولين من قريش، وقاتليهم من المسلمين، نقتطع ما يخص (قزمان) وحده، حيث يقول ابن هشام:

> . . . وكلاب بن طلحة، والحارث بن طلحة، **قتلهما قزمان** . . .
> وأبو يزيد ابن عمير . . **قتله قزمان**، وصؤاب غلام له حبشى **قتله قزمان**. . . والقاسط ابن شريح . . **قتله قزمان**. . . وهشام بن أبى أمية بن المغيرة **قتله قزمان**، والوليد بن العاص بن هشام بن المغيرة، **قتله قزمان**. . . وعبيدة بن جابر وشيبة بن مالك بن المضرب، **قتلهما قزمان**. . . قال ابن إسحق: **فجميع من قتل الله تبارك وتعالى** من المشركين يوم أحد، **اثنان وعشرون** رجلاً[١٤].

ومع ذلك تصر كتبنا التراثية على وصم قزمان بأنه كان منافقاً، وأنه من أهل النار، وأن الله قد ينصر دينه على الكافر بالفاجر(؟!!)، حتى أن تلك الكتب قدمت روايات تستجهل (قزمان)، وتتجاهل معرفته من بين صحبه وآله من الأنصار، ومن تلك الروايات:

> كان فينا **رجل أتى لا يُدرى من هو**، يقال له: قزمان، فكان رسول الله يقول إذا ذكر: **إنه لمن أهل النار**، فلما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً. . . وكان ذا بأس، وأثبتته الجراح، فاحتمل إلى دار بنى ظفر[١٥].

(١٤) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص١٩٢.
(١٥) ابن كثير: سبق ذكره، ج٤، ص٣٧.

أما لماذا حمل إلى بنى ظفر بالذات، فإن كتب السيرة تروى روايات **بعد أن تتذكر معرفتها بالرجل**، فنعرف عند (ابن هشام) أنه «حليف بنى ظفر»[١٦]، فهو لم يكن مجهولاً، إنما التجهيل جاء عن عمد. **ورغم نسبة قتلاه العشرة من المشركين إلى الله جل وعلا**، «فجميع من قتل الله تبارك وتعالى يوم أحد من المشركين اثنان وعشرون رجلاً»، ضمنهم عشرة قتلهم قزمان وحده. **دون أن يفر إلى شعب، ولا أن يلجأ إلى صخرة، ولا أن يهرب إلى المدينة، ولا أن يوغل ثلاثين ميلاً هرباً بعيداً عن الميدان، لينتظر هناك أياماً يستخبر على من كانت الكرة، ليحدد موقفه**، أما السر وراء كل هذا التجهيل والتبخيس لرجل هذا بلاؤه، فيرجع إلى حديث ترويه كتب السيرة عن قزمان وهو جريح فى دار بنى ظفر:

> فجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم ياقزمان فأبشر، قال: بماذا أبشر؟ **فو الله ما قاتلت إلا عن أحساب قومى**، ولولا ذلك ما قاتلت فلما اشتدت عليه جراحه، أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه[١٧].

وموقف قزمان هنا من المبادئ العربية موقف راق دافع فيه عن أهله وأحسابه، أما قتلة نفسه وهو بجراح الموت يتألم فهو صفة معلومة لدى أصحاب المبادئ والإرادة القوية والشجاعة، فيما يخبرنا به علم النفس الحديث.

وهو موقف يختلف إلى حد ما عن موقف (حاطب بن أمية) الذى أصيب ابنه (يزيد) فى أحد، فحملوه إلى دار قومه واجتمع حوله أهله،

> فجعل المسلمون يقولون له من الرجال والنساء، أبشر يا ابن حاطب بالجنة، وكان حاطب شيخاً قد عسا فى الجاهلية، فنجم يومئذ نفاقه فقال: بأى شيء تبشرونه؟ بجنة من حرمل؟ **غررتم والله هذا الغلام** من نفسه»[١٨]، وفى شرح السهيلى «الجنة من حرمل، يريد

(١٦) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص١٩٢.
(١٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج٤، ص٣٧.
(١٨) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص١٦٨.

الأرض التى دفن فيـهـا وكـانت تنبت الحـرمل، أى ليس له جنة إلا ذاك»[19].

مقتل أسد الله

فى يثرب، وبعد العودة من أحد «مر رسول الله ﷺ، بدار من دور الأنصار من بنى عبد الأشهل **وظفر**، فسمع البكاء والنواح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله فبكى ثم قال: **لكن حمـزة لا بواكى له**. فلما رجع سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير إلى دار بنى عبد الأشهل، **أمر نساءهم أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله**»[20]. وهو ما يظهر مدى اللوعة التى أصابت قلب رسول الله ﷺ، على مصابه فى عمه (حمزة بن عبد المطلب)، الذى قتله أبو دسمة المعروف بلقب (وحشى الحبشى) عبد (جبير بن مطعم)، انتقاماً لمقتل عم جبير (طعيمة بن عدى) الذى سبق وقتله المسلمون فى بدر الكبرى. مع وعد لوحشى الحبشى بالعتق من العبودية إلى الحرية إن فعل، هذا مع وعد آخر تلقاه الحبشى الوحشى من (هند بنت عتبة) إن قتل حمزة انتقاماً لأبيها وأخيها وعمها، وكان المقابل الذى سيناله وحشى من هند، هو ما يعبر عنه نداؤها له كلما مر بها فى أحد، أو مرت به، وهى تردد بغنج وبدلال وترغيب:

ويـــــــهـا أبا دسمة،

اشـــــف

واشـــتف[21].

---

(19) نفسه: ص ١٧٧.

(20) الطبري: التاريخ، سبق ذكره، ج٢، ص٥٣٢.

(21) ابن كثير: سبق ذكره، ج٤، ص١٢.

ويرسم رواة السيرة، صورة حية لمقتل حمزة رضى الله عنه، بلسان قاتله وحشى، الذى يروى، أنه بينما كان حمزة يصول بسيفه «مر به سباع بن عبد العزى الغبشانى، وكان يكنى أبا نيار، فقال له حمزة: **هلم إلىّ يا ابن مقطعة البظور**. وكانت أمه أم إنمار . . . **ختانة بمكة**، فلما التقيا فضربه حمزة فقتله». وهنا عثر حمزة فوقع، فانكشف درعه الحديدى عن بطنه «فهززت حربتى حتى إذا رضيت منها، دفعتها عليه، فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه، فأقبل نحوى، فغلب، فوقع، وأمهلته حتى إذا مات، جئت فأخذت حربتى ثم تنحيت عن العسكر، ولم تكن لى بشيء حاجة غيره»(٢٢).

وهنا هرولت (بنت عتبة) المدللة الثائرة، لتبقر بطن حمزة رضى الله عنه، وتخرج كبده وتلوك منه قطعة تشفياً. حتى إذا انتهت المعركة ورحلت قريش، مر رسول الله بعمه وهو على تلك الحال، فوقف على رأسه وقد أخذ منه الكمد مأخذاً، حتى جعل يقول:

> لولا أن تحزن صفية، ويكون سنة بعدى، لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن، **لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم**(٢٣).

وقد عقب بعض المفسرين بالقول: إن الوحى جاء يرد النبى عن ذلك بقوله: ﴿**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به**﴾(١٢٦/ النحل)، لكن ابن كثير بحصافته، يدرك أمراً فيقول:

> قلت هذه الآية مكية، وقصة أحد بعد الهجرة بثلاث سنين!!
> **فكيف يلتئم هذا؟!**(٢٤).

---

(٢٢) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص١٥٢.

(٢٣) ابن كثير: سبق ذكره، ج٤، ص٤١.

(٢٤) الموضع نفسه.

أما ابن مسعود فيروى القول عن حال النبى يوم مقتل حمزة:

ما رأينا رسول الله ﷺ **باكياً، أشد من بكائه على حمزة** رضى الله عنه، وضعه فى القبلة ثم وقف على جنازته، **وانتحب حتى نشق، وحتى بلغ به الغشى**، وهو يقول: يا حمزة يا فاعل الخيرات، يا حمزة يا كاشف الكربات، يا حمزة يا ذاب[٢٥].

أما الأنصار، ورغم مصابهم فى قتلاهم، فإنهم عندما شاهدوا حزن ابن أختهم على عمه قالوا:

والله لئن ظهرنا عليهم يوماً من الدهر، **لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط**[٢٦].

ومن ثم ـ وعلى شرط مسلم ـ جاءت نساء الأنصار تبكى حمزة وتندبه، لما قال النبى: لكن حمزة لا بواكى له[٢٧].

وهكذا عادت قريش بعد أن أشفت ثأرها، واستشفت لقتلاها، تحمل فى ركابها حبلاً طويلاً تجر فيها الأسرى من المسلمين. تشعر أنها قد أعادت هيبتها فى عيون الأعراب، وردعت من فكر بموادعة يثرب على طرق التجارة الداخلية، وأعادت لطريق الإيلاف أمنه، مع اعتزاز بنجاحها فى **إعادة كنانة إلى إيلافها، بمشاركتها قريشاً فى أحد**، وهو ما عبر عنه شعر هبيرة بن أبى وهب وهو يقول:

سقنا كنانة من أطراف ذى يمن	عرض البلاد على ما كان يزجيها
قالت كنانة: أنى تذهبون بنا؟	قلنا: النخيل، فأموها ومن فيها
نحن الفوارس يوم الجر من أحد	هابت معد، فقلنا نحن نأتيها

(٢٥) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٥٣٤.
(٢٦) الطبري: سبق ذكره، ج٢، ص٥٢٩.
(٢٧) ابن كثير: سبق ذكره، ج٤، ص٤٩.

فأجابه شاعر الرسول حسان بن ثابت يذكره بانتصار المسلمين السابق فى بدر، وهو يقول:

سقتم كنانة جهلاً من سفاهتكم إلى الرسول، فجند الله مخزيها

أوردتموها حياض الموت ضاحية فالنار موعدها والقتل لاقيها

ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت أهل القليب ومن ألقينه فيها

ثم قام (كعب بن مالك) يدعم (ابن ثابت) بالقول:

ونحن أناس لا نرى القتل سبة **على كل من يحم الذمار** ويمنع

جلاد على ريب الحوادث لا نرى على هالك لنا عيناً لنا الدهر تدمع

بنو الحرب لا نعيا بشىء نقوله ولا نحن مما جرّت الحرب نجزع

وهنا قام (عبدالله بن الزبعرى) يرد على (حسان بن ثابت) مؤكداً أن النصر كان حليف قريش، وأنهم مقابل شيوخ الملأ فى بدر، قد قتلوا من سادة يثرب ومحاربيها من لا يقلون شرفاً ومحتداً. بل ويزعم أن قريشاً قد قتلت من اليثارية ضعف ما قتل المسلمون من قريش فى بدر، ويقوم ذلك فى قوله:

ياغراب البين؛ أسمعت فقل إنما تنطق شيئاً قد فعل

أبلغن حسان عنى آية فقريض الشعر يشفى ذا الغلل

كم قتلنا من كريم سيد ما جد الجدين مقدام بطل

ليت **أشياخى** ببدر شهدوا **جزع الخزرج** من وقع الأسل

حين حكت بقباء بركها واستحر القتل فى عبد الأشل

فقتلنا **الضعف** من أشرافهم **وعدّلنا ميل بدر فاعتدل**

فأجابه (حسان) يرد له الصاع صاعين بقوله:

ذهبت يا ابن الزبعـرى وقـعـة   كان من الفضل فيها **لو عدل**

ولقـد نلتم ونلنا منكم   وكذلك الحرب أحياناً دول

نضع الأسياف فى أكتافكم   ـــــــــــــــــــ

نخرج الإصبع من إستاهكم   ـــــــــــــــــــ

وتركنا فى قـريش عـورة   يوم بدر، وأحـاديث المثل

أما (هند بنت عتبة) فقد كانت ترسل شعرها يعلن استشفاءها بعد ثأرها من (حمزة)، وهى تنادى المسلمين بقولها:

نحن جـزيناكم بيـوم بدر   والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان لى عن عتبة من صبر   ولا أخى وعـمـه وبكر

شفيت نفسى وقضيت نذرى   **شفيت وحشى غليل صدرى**

فشكر وحشى علىّ عمرى   حتى ترم أعظمى قبرى[٢٨]

هذا، وإن كانت (هند) ترى فى نفسها بقية من رغبة لم تتحقق، فى القضاء على كل هاشمى وكل أنصارى، فتقول:

رجعت وفى نفسى بلابل رحمة   وقد فاتنى بعض الذى كان مطلبى

من أصحاب بدر من قريش وغيرهم   **بنى هاشم منهم ومن أهل يثرب**

ولكننى قد نلت شيئاً ولم يكن   كما كنت أرجو فى مسيرى ومركبى[٢٩]

---

(٢٨) نفسه: ص٣٩. (الخطأ العروضى فى الشطر الثانى من البيت الثانى من شعر كعب بن مالك هكذا فى الأصل).

(٢٩) السهيلي: سبق ذكره، مج٣، ص٢١٥.

فقامت (هند بنت أثاثة بن عبد المطلب)، سليلة البيت الهاشمى، وقد استنفرها شعر (هند بنت عتبة)، لترد عليها قائلة:

خـزيت فى بدر وبعـد بدر		يا بنت وقـاع عظيم الكفـر

صـبحك الله غـداة الفـجـر		م الهـاشـمـيين الطوال الزهر

بكل قطّاع حـسـام يغـرى		حـمـزة ليـثى وعلىٌّ صـقـرى

إذا رام شـيب وأبوك عـذرى		مـخضبـاً منه ضـواحى النحـر

ونذرك السـوء فـشـر نذر[30]

واستمر (حسان بن ثابت) يتبع قوافى (هند بنت عتبة)، ليقع بها وقعة فاحشة، ويرفع الستر عن سرها، ليقول:

لعن الإله وزوجـهـا مـعـهـا		هند الهنود **عظيـمـة البظر**

أخْـرِجْت **مـرقـصـة** إلى أحـد		فى القـوم، مـقـتـبـة على بكر

بكر ثقـال لا حـراك بـه		لاعن مـعـاتبـة ولا زجـر

وعـصـاك **إستك** تتـقين بهـا		دقى العـجـاية هند بالفـهـر

قـرحت عـجيـزتها ومشـرجـها		من دأبهـا نصـاً على القـتـر

ونسـيت **فـاحـشـة أتيت بهـا**		ياهند ويحك سـبـة الدهر

زعم الـولائد أنـهـا **ولـدت**		**ولداً صـغـيـراً كـان من عـهـر**[31]

---

(٣٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج٤، ص٣٩.
(٣١) الطبري: سبق ذكره، ج٢، ص٥٢٥، ٥٢٦.

نتـائج غـزوة أحـد

« والله مـا أبتـغى أن يسـتـغـفـر لى ، إن قـمت إلا لأشـدد أمـره» .

(عبد الله بن أبى بن سلول)

يقول البيهقى مصوّراً حال يثرب بعد هزيمة المسلمين فى أحد بقوله :

وأخذ المنافقون عند بكاء المسلمين فى المكر . . . وتحزين المؤمنين . . . وفارت المدينة بالنفاق فور المرجل[1] .

ونعت النفاق عند أُحد تحديداً، صار - كما هو واضح فى كتب الأخبار - **يلحق بكل معترض**، أو بكل من عقب على الهزيمة بالتشكيك، وهو ما يظهر واضحاً فى قول ابن كثير :

وقالت اليهود : لو كان نبياً ما ظهروا عليه، ولا أصيب منه ما أصيب، لكنه **طالب ملك** تكون له الدولة وعليه . وقال المنافقون مثل قولهم، وقالوا للمسلمين : لو كنتم أطعتمونا ما أصابكم الذى أصابوا منكم[2] .

والإشارة هنا إلى ثلاثمائة أنصارى، قرروا قبل المعركة البقاء فى المدينة، وعدم الخروج إلى أحد، برأى عسكرى عركته خبرتهم بمناعة مدينتهم . وإزاء ذلك الفوران، الذى بات

---

(١) البيهقي : دلائل النبوة، سبق ذكره، السفر الثالث، ص٢١٦ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، سبق ذكره، ج٤، ص٤٩ .

يهدد هيبة الدولة الناشئة، ويعطى الفرصة للرؤوس المحنية للتعالى والتغامز، وما قد يجره ذلك من تردى هيبة صنعها المجاهدون بدمائهم فى بدر. كان لابد من خطوة أولى لتهدئة روع المسلمين، ومن ثم استرسل الوحى يرد على هؤلاء بالقول الكريم:

- ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١٦٨/ آل عمران).

- ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ..﴾ (١٦٦/ آل عمران).

- ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ (١٤٥/ آل عمران).

- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ (١٤٢/ آل عمران).

أما الذين حزنوا على المغانم الزائلة من عرض الدنيا، فقد توجه إليهم الوحى يقول:

- ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (١٤/ آل عمران).

- ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١٥٧/ آل عمران).

- ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩/ آل عمران).

العلاج النفسى

والدليل أن النبى ﷺ قال: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل

العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقبلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء فى الجنة نرزق. لئلا ينكلوا عند الحرب، ولا يزهدوا فى الجهاد، قال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله . . . ﴾(٣).

ثم يلتفت المصطفى إلى (جابر) رضى الله عنه ويقول له: «يا جابر؛ ألا أبشرك؟ قال: بلى بشرك الله بالخير. قال: شعرت أن الله أحيا أباك فقال: تمن على عبدى ما شئت أعطكه، قال: يارب ما عبدتك حق عبادتك، أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقتل مع نبيك، وأقتل فيك مرة أخرى قال: إنه قد سلف منى القول، لا يرجع إليها»(٤).

وهكذا كان العلاج النفسى، والبلسم الشافى المداوى، ولم شتات الأنفس المبعثرة فرقاً وهلعاً، وتقوية العزائم بتثبيت الإيمان. لكن مؤرخينا لايجدون ـ عافاهم الله ـ **فى تلك الخطة المداوية، والكلام السديد بالرأى الرشيد**، كفاية وشفاء وغناء، إنما يطمحون دوماً كدأبهم إلى حديث الأحاجى والمعجزات. وهو حديث ما كان يشفى أصحاب أحد وهم مهزومين، قدر ما يشفيهم الوحى الصادق، والقيادة الحكيمة. لكن أحاديث الأحاجى كتبت على ما يبدو لأجيال بعد ذلك ستقرأ التاريخ، وربما تتساءل فى ضوء المشروع عقلاً، فكان إلقامهم سلفاً تلك الدلائل على الإعجاز، **رغم تجرع المسلمين مرارة الهزيمة فى هدوء وبطولة**. فجاءتنا الروايات تفقو بعضها، لتعيد حديث الملائكة، وتؤكد أن الملأ الأعلى المحارب قد هبط إلى أحد، وأعمل خبرته القتالية فى المعركة غيرمدركين إلى أى منزلق يذهبون بتلك المزاعم. ومنها ما جاء يحكى عن الوقعة فى حميتها، والرسول يتعرض للهجوم، وأمامه سعد بن أبى وقاص، «فقال عليه الصلاة والسلام لسعد: اردده م، قال: كيف أردهم وحدى؟ فقال له: ارددهم، قال سعد رضى الله عنه: فأخذت سهماً

(٣) انظر الحديث فى مسلم، رواه موقوفاً فى ٣٣ من كتاب الإمارة، بيان أن أرواح الشهداء فى الجنة.
(٤) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٢٩٨.

من كنانتى فرميت به رجلاً منهم فقتلته، ثم أخذت سهماً آخر فإذا هو سهمى الذى رميت به، فرميت به آخر فقتلته، ثم أخذت سهماً فإذا هو الذى رميت به فرميت به آخر فقتلته، فهبطوا من مكانهم، فقلت: هذا سهم مبارك، فكان عندى فى كنانتى لا يفارق كنانتى».

ولا تفطن الروايات إلى أن سعداً لو استمر بسهمه المبروك هذا، لأفنى المشركين، ثم تؤكد أن هذا السهم «كان بعده عند بنيه . . . وروى عنه أنه قال: لقد رأيتنى أرمى بالسهم يوم أحد، فيرده علىّ **رجل أبيض** حسن الوجه لا أعرفه، حتى كان بعد . . . فظننت أنه ملك».

ثم ينسب لسعد حديث آخر يقول فيه:

رأيت يوم أحد عن يمين النبى عليه الصلاة والسلام وعن يساره، رجلين عليهما ثياب بيض، يقاتلان عن رسول الله أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده[٥].

بل وتحدد كتب التراث الرجلين البيض بالثياب البيض بالاسم فقد كانا الملكين (جبريل) و(ميكائيل)[٦].

ورواية أخرى، تضع سعداً مرة أخرى، فى حبكة أخرى، تقول:

لما كان يوم أحد انكشفوا عن رسول الله ﷺ، وسعد يرمى بين يديه، وفتى ينبل له كلما ذهبت نبلة أتاه بها، يقول: ارم أبا إسحق، فلما فرغوا نظروا: من الشاب؟ فلم يروه ولم يُعرف[٧].

---

(٥) البخارى: كتاب المغازى، باب: إذا همت طائفتان منكم أن تفشلا.
(٦) مسلم: كتاب الفضائل، باب قتال جبريل وميكائيل عن النبى يوم أحد.
(٧) البيهقي: سبق ذكره ج٣، ص٢٥٦.

ومثل تلك الروايات التى تصر على نزول الملائكة إلى أحد وحربها مع المسلمين، رواية تحكى عن أمر تعلمه كتب الأخبار. وهو أن (أبا الروم) أخو (مصعب بن عمير)، حمل اللواء من (مصعب) بعد سقوط أخيه شهيداً، وفى زحمة المعركة وهولها، ومع إصابة النبى تلك الإصابات الشديدة، ظن أبا الروم مصعباً، لكن الرواية تتم حياكتها لتخبرنا خبراً آخر يقول:

> ولما قتل مصعب بن عمير رضى الله عنه، وسقط اللواء، أخذه ملك فى صورة مصعب... وجعل رسول الله ﷺ يقول للملك الذى على صورة مصعب: تقدم يا مصعب، فالتفت إليه الملك فقال: لست بمصعب، فعرف عليه الصلاة والسلام أنه ملك أُيّد به.

هذا بينما يعقب الحلبى فى سيرته على الرواية فيقول: «... رأيت فى رواية أنه **لما سقط اللواء، أخذه (أبو الروم) أخو (مصعب)**، ولم يزل فى يده حتى دخل المدينة»[٨].

وفى سياق سوق المعجزات، لا يرضى (الحلبى) فى موضع آخر من سيرته، إلا بموتة قميئة لابن قمئة الذى شج النبى فى وجهه وضربه بالمغفر، فيقول:

> إن هذه الشجة لم تشنه، بل زادته جمالاً... فقال رسول الله ﷺ: أقمأك الله... وقد استجاب فيه دعوة نبيه، فإنه بعد الوقعة خرج إلى غنمه فوافاها على ذروة الجبل، فأخذ يعترضها، فشد عليه كبشها، فنطحه فأرداه من شاهق الجبل فتقطع[٩].

كذلك تثنى الروايات على (أبى بن خلف) الذى قتله النبى بالحربة، حتى يسكته عن إسماع المشركين ندائه وهو يهتف: أى محمد؟ لا نجوت إن نجا، لتقول بلسان عبدالله بن عمر:

---

(٨) الحلبي: السيرة، مج٢، ص٥٤٤، ٥٤٥.

(٩) نفسه: ص٥١٣، ٥١٤.

مات أبى بن خلف ببطن رابغ، فإنى لأسير ببطن رابغ بعد هوى من الليل، إذ نار تتأجج لى فهبتها، وإذا رجل يخرج منها فى سلسلة يجتنبها وهو يصيح: العطش العطش، وإذا رجل يقول: **لا تسقه، فإن هذا قتيل رسول الله**، هذا أبى بن خلف[10].

ثم لا يجد مؤرخونا بأسا هنا من تكرار بعض ما صاغوه لبدر الكبرى، ومنها القول: «أخبرنا أشياخنا أن عبد الله بن جحش جاء إلى النبى يوم أحد وقد ذهب سيفه، فأعطاه النبى ﷺ عسيباً من نخل، فرجع فى يد عبدالله سيفاً... وأصيبت يومئذ عين قتادة بن نعمان حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ فكانت أحسن عينيه وأحدّهما»، بل ويتم سرد تفاصيل هذه العملية الجراحية لإعادة تركيب العين فى موضعها، فى أن النبى «رفع حدقته فوضعها موضعها ثم غمزها براحته، وقال: اللهم اكسه جمالاً، فمات وما يدرى من لقيه أى عينيه أصيبت»[11].

ثم يعرج رواة السير والأخبار على ألوان أخرى من الروايات، قصدوا بها التدليل على صدق نبوة المصطفى ﷺ، وعصمته، وطهارته، وطهارة جسده، وما قد ينال المؤمن الصادق إذا ما نال من ذلك الجسد شيئاً، يرفع من مكانته ويزكيه. لكنها من جانب آخر - إن كانت قد حدثت - فإنها تلقى ضوءاً على المكانة التى وصل إليها رسول الله بين أتباعه. وربما قصد بتلك الروايات وضعها فى مقابلة مع أخبار من شك أو فر وهرب، لإثبات وجود المؤمنين الصادقين الثابتين، الواثقين بنبيهم إلى حد التبتل فيه، حداً لم يصله قبله إنسان ولا بعده، ومن تلك الروايات أن (مالكاً بن سنان الخدرى)، أبا (سعيد الخدرى)، قد امتص دم النبى من جروحه فى أحد، وازدرد تلك الدماء، فقال النبى:

(١٠) البيهقي: سبق ذكره، ج٣، ص٢٥٩.
(١١) نفسه: ص ٢٥١، ٢٥٢، ٣٥٣.

> من سـره أن ينظر إلى رجل لا تمسـه النار، فلينظر إلى مـالك بن سنان، من مس دمى لم تصبه نار.

ويعقب (الحلبى) على ازدراد دم النبى تعقيباً شارحاً مطولاً يقول فيه: «ولم ينقل أنه صلى الله عليه وسلم، أمر هذا الذى امتص دمه بغسل فمه، ولا أنه غسل فمه بعد ذلك كما لم ينقل أنه أمر حاضنته أم أيمن بركة الحبشية رضى الله عنها، بغسل فمها، ولا هى غسلته بعد ذلك لما شربت بوله ﷺ. ففيها رضى الله عنها أنها قالت: قام رسول الله من الليل إلى فخارة تحت سريره، فبال فيها، فقمت وأنا عطشى فشربت ما فى الفخارة، وأنا لا أشعر، فلما أصبح النبى ﷺ، قال: يا أم أيمن، قومي إلى تلك الفخارة فأهريقى ما فيها، فقالت: والله لقد شربت ما فيها، **فضحك** حتى بدت نواجذه، ثم قال: لا يجفر بطنك بعده أبداً... أى لا تشتكى بطنك... وقد شربت بوله أيضا امرأة يقال لها بركة بنت ثعلبة بنت عمرو، وكانت تخدم أم حبيبة رضى الله عنها، جاءت معها من الحبشة،... وفى كلام ابن الجوزى، بركة بنت يسار مولاة أبى سفيان الحبشية، خادمة أم حبيبة زوج النبى ﷺ،... فقال لها حين علم أنها شربت ذلك: **صحة يا أم يوسف**، فما مرضت قط، حتى كان مرضها الذى ماتت فيه»(١٢).

غزوة حمراء الأسد

هكذا كانت البلسمة الشافية لجراح أحد على المستوى النفسى، لإعادة تثبيت المؤمنين حول الإيمان وحول نبيهم ﷺ، وعلاقته الحميمة بمحبيه ومريديه والخلص له، أما على المستوى العسكرى، فإن (ابن هشام) راوى السيرة يحكى:

> فلما كان الغد يوم الأحد، لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مـؤذن الرسـول فى الناس بطلب العـدو،... أنه لا يخـرجن معنا أحد، إلا أحد حضر يومنا بالأمس.

(١٢) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٥١٥، ٥١٦.

ثم يعقب بالقول : «وإنما خرج رسول الله ﷺ، **مرهباً للعدو**، وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم، **ليظنوا به قوة**، وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم»(١٣).

وعليه، فإن قريشاً لم تستمتع بنشوة نصرها سوى ليلة واحدة، أو بضع منها، وخاب فألها فى هيبتها، وسقطت آمالها فى تأمين طريق الإيلاف. فلم تمض شوطاً عن المدينة، حتى خرج المسلمون وهم بعد جرحى، بزعامة قائدهم المقتدر، رغم ما أثقل جسده الشريف من آلام وجراح، إلى حمراء الأسد. ليوهم قريشاً أنه خرج لها مطارداً، وأن المسلمين لم يهنوا أو يتخاذلوا ليسلبهم لذة نصر الأمس، ونشوة عزهم الكاذب، وليثبت لهم أن ما حدث بأحد، كان أمراً اعتراضياً فى مشوار طويل سيطول مداه، وأن النبى لن يتراجع عما أنتواه. وبالفعل خرج المسلمون إلى حمراء الأسد طاعة لنبيهم رغم جراحهم، «فمنهم من كان به تسع جراحات، وهو أسيد بن حضير رضى الله عنه، وعقبة بن عامر رضى الله عنه ومنهم من كان به عشر جراحات وهو خراش بن الصمة رضى الله عنه، ومنهم من كان به بضع عشرة جراحة، وهو كعب بن مالك رضى الله عنه، ومنهم من كان به بضع وسبعون جراحة، وهو طلحة بن عبيد الله... وخرج رسول الله ﷺ وهو مجروح فى وجهه من أثر الحلقتين، ومشجوج فى وجهه، ومكسورة رباعيته، وشفته السفلى قد جرحت من باطنها، وشفته العليا قد كلمت من باطنها، متوهن منكبه لضربة ابن قمئة لعنه الله، وركبتاه مجروحتان من وقعته فى الحفيرة»(١٤).

ثم نعلم أن خزاعة بمشركيها، رغم هزيمة المسلمين، ظلت على عهدها ليثرب وقائدها. وهنا يجب ألا ننسى، أن خزاعة لم تنس أبداً أن قريشا سلبتها سيادتها على مكة وعلى البيت، وطردتها من مكة بعد أن تحالفت مع من والاها من قبائل العرب، بحيلة احتال بها

(١٣) السهيلي : الروض الأنف فى تفسيبر السيرة النبوية لابن هشام، سبق ذكره، مج٣، ص١٧٣.
(١٤) الحلبي : سبق ذكره، مج٢، ص٥٥١، ٥٥٢.

سلف قريش (قصيّ بن كلاب) على (أبى غبشان الخزاعى)، فاشترى منه مفتاح الكعبة بزق من الخمر وقعود[١٥]، لذلك:

كانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة رسول الله ﷺ بتهامة، صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئاً كان بها. ومعبد بن أبى معبد الخزاعى يومئذ مشرك، مر برسول الله ﷺ وهو مقيم بحمراء الأسد، فقال: يا محمد؛ أما والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم. ثم خرج من عند رسول الله بحمراء الأسد، حتى لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله وأصحابه، . . . فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط، قال: ويلك ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصى الخيل. . **فقال النبى وهو بحمراء الأسد حين بلغه أنهم هموا بالرجعة، والذى نفسى بيده، لقد سومت لهم حجارة، لو صبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب**[١٦](؟!!).

وعليه، شدت قريش فى طريق العودة سراعاً نحو مكة، وهى تظن يثرب بجمعها قد خرجت وراءها تطلبها، بينما كان النبى عليه الصلاة والسلام فى طريق عودته من حمراء الأسد إلى يثرب، بعد أن حقق غرض الإرهاب لقريش. ليبدأ بالمرحلة الثالثة من علاج نتائج أحد، بعد العلاج النفسى، والإرهاب العسكرى. فقام يضرب بسرعة وبقوة، كل

(١٥) انظر: سيد القمنى، الحزب الهاشمى، سبق ذكره.
(١٦) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج٤، ص٥٠: ٥٢.

القوى المناوئة والمضادة فى يثرب، وكل من سولت له نفسه التشفى أو التهكم أو ابتهال الفرص، وهو ما بدأه بإصدار الأمر بقتل (الحارث بن سويد بن الصامت)، الذى قتل (المجذر بن زياد) فى أحد، ثأراً لأبيه:

> فأمر رسول الله ﷺ، عويمر بن ساعدة بضرب عنقه، فقال له: قدّم الحارث بن سويد إلى باب المسجد واضرب عنقه. وقيل أمر عثمان بن عفان بذلك (والمرجح أن عثمان هو الذى قتله)، فقدم ليضرب عنقه. فقال الحارث: لم يا رسول الله؟ فقال: بقتلك المجذر بن زياد، . . . فقال الحارث: والله قتلته، **وما كان قتلى إياه رجوعاً عن الإسلام ولا ارتياباً فيه، ولكن حمية من الشيطان، وإنى أتوب إلى الله ورسوله مما عملت، وأصوم شهرين متتابعين، وأعتق رقبة، فلم يقبل منه النبى ﷺ** [١٧].

أما (ابن سلول) الذى عاد بثلث جيش المسلمين من أحد، متشككاً فى النصر الموعود، والملائكة المنزلة، فكان له شأن آخر، نقرأه فى رواية تقول:

> كانت عادة عبدالله ابن أبى بن سلول، إذا جلس النبى ﷺ يوم الجمعة على المنبر، قام فقال: أيها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله تعالى به وأعزكم، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم جلس.

ومثل ذلك القول المعتاد من (ابن سلول)، يشير إلى أمر الرجل كسيد من سادة المدينة، يوجه نصحه وأمره لرجاله وأتباعه وحلفائه، بطاعة النبى، كما يشير لهم أنه بخطابه قد بدأ

(١٧) الحلبي: سبق ذكره، مج٢، ص٥٥٥، ٥٥٦.

هو بالطاعة للنبى وعليهم اتباعه، كما أن تلك المقدمة الدورية منه كل جمعة. كانت تعنى من جانب آخر، تنازلاً مضطراً للسيد الجديد، كما كانت تمسحاً به وتزلفاً لبقية المؤمنين، وهو يعطيها كما لو كان يعطى برضاه، أو كمن تنازل عن السيادة وأمر أتباعه بالطاعة ولولاه ما أطاعوا. إنها المحاولة الدائبة من سيد انحدر أمره يريد التشبث بما بقى له من ظلال السيادة، ولو على من بقى له من أتباع، ليقوم ممثلاً لهم معطياً بيعة دورية للسيد الجديد. لكن بعد أحد، حدث ما جاء فى كتب السير يقول:

> فبعد أحد، أراد أن يفعل ذلك، فلما قام، أخذ المسلمون بثوبه من نواحيه، وقالوا له: اجلس عدو الله، والله لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت. فخرج وهو يتخطى رقاب الناس وهو يقول: كأنى إنما قلت هجراً؟! وقال له بعض الأنصار: ارجع يستغفر لك رسول الله، فقال: **والله ما أبتغى أن يستغفر لى، إن قمت إلا لأشدد أمره**[١٨].

وهكذا سقط ما كان قد تبقى لابن سلول من سيادة وتشريف، كان يلتمسه عبر تقديم سيد المدينة الجديد لأتباعه، وانحدر أمره، وتضاءل حجمه وأمعن بقيّة الأنصار مع المهاجرين فى تصغيره، حتى لا يكون فتنة للمسلمين بعد الهزيمة، وحتى لا يكون ذا أثر محسوس لمعارضة حية أو نشطة فى الدولة الجديدة، زمن حرب ومعركة دائبة.

المعارضون

ثم كان أن سل الإسلام سيفه على الرؤوس الكبيرة داخل المدينة وخارجها، إرهاباً وإنذاراً، لتعود القبائل إلى الانكماش ولا تجد فى أحد فرصة للتطاول على دولة المسلمين

(١٨) نفسه: ص ٥٩٤، انظر أيضاً ابن كثير: سبق ذكره، مج٤، ص٥٣.

الطالعة . وفى ذلك يذكرنا (ابن حبيب) بمقتل الرأس اليهودى (كعب بن الأشرف)، الذى هاله أمر قتلى المشركين فى بدر وأفصح بالعداء للمسلمين، لكن ليضيف إليه رأساً آخر تم اجتثاثه، فيقول: «وفى سنة ثلاث، بعث محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة إلى كعب بن الأشرف فقتلاه . . . وبعث فى النصف من رجب عبدالله بن أنيس إلى سلام بن أبى الحقيق اليهودى فقتله»[19]، ويفصّل لنا (ابن كثير) أمر اغتيال (أبى رافع/ سلام بن أبى الحقيق) بقوله: «وكانت الأوس قبل أحد قد قتلت كعب بن الأشرف، فاستأذن الخزرج رسول الله ﷺ فى قتل سلام بن أبى الحقيق وهو بخيبر، فأذن لهم، قال ابن إسحق: فحدثنى محمد بن مسلم الزهرى عن عبدالله بن كعب بن مالك قال: وكان **مما صنع الله لرسوله** ﷺ، أن هذين الحيين من الأنصار والأوس، كانا يتصاولان مع رسول الله تصاول الفحلين، لا تصنع الأوس شيئاً فيه غناء عن رسول الله إلا وقالت الخزرج والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله، فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك. ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف فى عداوته لرسول الله قالت الخزرج: والله لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً. قال: فتذاكروا من رجل لرسول الله فى العداوة كابن الأشرف، فذكروا ابن أبى الحقيق وهو بخيبر، فاستأذنوا رسول الله فأذن لهم. فخرج من الخزرج من بنى سلمة خمسة نفر: عبد الله بن عتيك، ومسعود بن سنان، وعبدالله بن أنيس وأبو قتادة الحارث بن ربعى، وخزاعى بن أسود حليف لهم. . حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار ابن أبى الحقيق ليلاً . . .»، ثم يروى راويهم «فلما دخلنا عليه، أغلقنا عليه وعلينا الغرفة، فابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا، فو الله ما يدلنا عليه فى سواد الليل إلا بياضه، كأنه قبطية ملقاة . . . وتحامل عليه عبدالله بن أنيس بسيفه فى بطنه حتى أنفذه وهو يقول: قطنى قطنى . .». أما (ابن أنيس) فيؤكد المقتلة حتى الموت بقوله :

---

(١٩) ابن حبيب: المحبر، سبق ذكره، ص١١٧ .

فوضعت السيف فى بطنه، ثم انكفأت عليه، **حتى سمعت صوت العظم.**

وقال (الزهرى): قال (أبى بن كعب): فقدموا على رسول الله ﷺ وهو على المنبر: **فلما رآهم قال: أفلحت الوجوه**... فقال حسان بن ثابت فى ذلك، يعلم الحاضر والبادى أن سيف الإسلام وإن تراجع مهزوماً فى أحد. فلا زال قادراً على قطع الرؤوس:

لله در عـصـابة لاقـيـتـهـم	يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسـرون بالبـيض الخـفـاف إليكم	مرحاً كأسد فى عرين مغرف
حـتى أتوكم فى مـحل بلادكم	فـسقـوكم حـتـفاً ببـيض ذفف
مستبشرين لنصر دين نبيهم	مستصغرين لكل أمر مجحف[٢٠]

وإذ يصر (ابن حبيب) فى كتابه المحبر، على اغتيال أبى رافع سلام بن أبى الحقيق، بعد أحد مباشرة، فإن رواة السيرة فى مواضع مختلفة يحاولون تبرير المقتلة، فيقولون إنها حدثت فيما بعد، بعد وقعة الخندق. والسبب هو أن (سلام بن أبى الحقيق) كان أحد الذين حزبوا الأحزاب ضد دولة الرسول وهو ما يناقض ما جاء فى شعر (حسان بن ثابت)، عندما جمع بين مقتل (كعب ابن الأشرف) ومقتل (أبى رافع سلام بن أبى الحقيق) فى قصيدته التى تستعرض قوة السيف الإسلامى. ومعلوم أن (ابن الأشرف) قد تم قتله بعد أحد مباشرة لقولته التى قالها، هذا بينما نعلم من (ابن سيد الناس) فى مغازيه (عيون الأثر)، أن (أبا رافع سلام بن أبى الحقيق) قد قتل بعد أحد، وتم تسييد سيد بعده على خيبر هو (أسير بن رزام)، وذلك فى قوله: «لما قتل أبو رافع سلام ابن أبى الحقيق، أمرت يهود عليهم أسير بن رزام، فسار فى غطفان وغيرهم فجمعهم لرسول الله»، ومن ثم فإن من

(٢٠) ابن كثير: سبق ذكره، ج٤، ص١٣٩ : ١٤٢.

حزب الأحزاب هنا هو (أسير بن رزام) وليس (أبا رافع)، لأن أبا رافع كان قد قتل بعد أحد، وقد تم خلط بعد ذلك بين كليهما. إذ أن (أسير بن رزام) هو الذى قتل بعد تحزيبه الأحزاب فى سرية إسلامية أخرى، سرت إليه لتقتله بعد غزوة الأحزاب أو الخندق كما سنرى[21]. بل إنه فى رواية ابن هشام ما يؤكد قتل (أبى رافع) بعد أحد مباشرة، فى قوله السالف «وكانت الأوس قبل أحد قد قتلت كعب بن الأشرف، فاستأذن الخزرج رسول الله فى قتل سلام بن أبى الحقيق».

ثم انطلق سيف الإسلام داخل يثرب **يعمل لإسكات أى لون من ألوان الاستهانة بالدولة**، وهى الاستهانة والمعارضة التى يمكن أن تشكل كارثة لدولة عسكرية فى زمن حرب. وهو ما نقرأه فى قصة اغتيال (أبى عفك/ عمرو بن عوف)، ذلك الشيخ الذى تخطى بعمره من الزمان قرناً، فلم تبق لديه قوى تمكنه من إمساك دمعه واستمرار تجلده، وهو يرى مسلماً آخر هو (الحارث بن سويد بن الصامت)، وهو يذبح بباب المسجد النبوى وهو ابن (سويد بن الصامت) الذى عرف بين العرب بالحكمة، وبأنه صاحب صحيفة لقمان التى وافق عليها الوحى القرآنى. فانهمر دمع (أبى عفك) مرسلاً شعره نحيباً باكياً (الحارث) بن صاحب صحيفة لقمان. ورجل فى عمر (أبى عفك) إن أرسل نواحه فى الفيافى بين العربان، الذين يقدسون المسنين، ويعبدون الأسلاف ويحنون الهامة للمعمرين، لا يتركها إلا بقلوب كليمة موجوعة جزعة. وهو الشعر الباكى الذى جاءنا خبر منه فى رواية ابن إسحق عن «غزوة سالم بن عمير لقتل أبى عفك أحد بنى عمرو بنى عوف، ثم بنى عبيدة، وكان **قد نجم نفاقه** حين قتل رسول الله ﷺ الحارث بن سويد بن الصامت». وإشارة ابن إسحق لنفاق الرجل تشير إلى أنه كان حتى قوله ذلك الشعر مسلماً، وما نافق إلا بتلك البكائية التى تقول فى طرف منها:

(٢١) ابن سيد الناس: عيون الأثر، سبق ذكره، ج٢، ص١٤٥.

لقــد عــشت دهراً ومــا إن أرى من الناس داراً ولا مــجــمــعــاً
أبر عــــــهــــــوداً وأوفى لمن يعــاقــد فــيــهم إذا مــا دعــا
من أولاد قـيلة فى جـمـعـهـم يهـد الجـبـال ولـم يخـضـعـا
فـصـدعـهـم راكب جـاءهم حـلال حـرام لشـتى مـعـاً
فلو أن بـالعــز صــدقــتم أو الملك تـابعــتم تبــعــا

فقال رسول الله: من لى بهذا الخبيث؟ فخرج إليه سالم بن عمير، أخو بنى عمرو بن عوف (أى أحد رجال عشيرته) فقتله، وهو ما طربت له (إمامة المزبرية) حتى قالت:

تكذب دين الله والمرء أحــمــداً لعـمـر الذى أمناك أن بئس ما يمنى
حـبــاك حنيف آخـر الليل طعنة **أبا عَـفَكِ خـذها على كـبـر السن**

ولكن لمصرع رجل مثل (الحارث)، ثم مقتل رجل السنين والطوال والحكمة (أبى عفك)، كان لا بد أن يدوّى الصدى ليرجع الأمر ترجيعاً بين النفوس الجازعة. ولم تتمكن (عصماء بنت مروان) من الإمساك على إسلامها، فأرسلت عبراتها شجوناً، تعول تبكى وتهجو وتحرض، ليسرى شعرها بين الناس مرجعاً لوعتها وهى تقول:

باست بنى مــالك والنبــيت وعــوف، وباست بنى الخــزرج
أطعــتم أتاوى من غـــيـــركم فــلا من مــراد ولا مــذحج
ترجــونه بعــد قــتل الرؤوس كــمـــا يرتجى مــرق المنضج
الا أنف يبــتــغى غـــيـــره فــيــقطع من أمل المرتجى؟

ومن ثم لا يجد (ابن هشام) من أمر عبراتها إلا نفاقاً، بقوله:

«فلما قتل أبو عفك **نافقت**».

وهو النفاق الباكي الذى استحقت عليه ما جاء ذكره (عند ابن هشام) فى قول النبى بين أصحابه هاتفاً:

ألا آخذ لى من ابنة مروان؟

فسرى إليها ليلاً واحد من بنى عشيرتها، هو (عمير بن عدى) فكلاهما من بنى خطمة، فأعمل سيفه فى أحشائها وهى مستسلمة لنومها فى فراشها، «ثم أصبح مع رسول الله فقال: يا رسول الله إنى قتلتها، فقال: **نصرت الله ورسوله** يا عمير».

أما النتيجة التى ترتبت على قتل عقيلة بنى خطمة، فهى هرع من لم يسلم منهم إلى إعلان إسلامه، «فذلك اليوم أول ما عز الإسلام فى دار بنى خطمة.. فأسلم، يوم قتلت ابنة مروان، رجال من بنى خطمة لما رأوا من عز الإسلام»[٢٢].

ويستمر راوى السيرة (ابن هشام) فى سرد ما سقط من أحداث فى سيرة (ابن إسحق)، ليضيف إلى مقتل (أبى رافع) و (أبى عفك) و(عصماء بنت مروان)، عدداً من السرايا لعل أهمها سرية (عبد الله بن أنيس) لقتل سيد هذيل (خالد بن سفيان الهذلى) وسرية (زيد بن حارثة) إلى بنى فزارة.

ويروى (الطبرى) قصة سرية (عبدالله بن أنيس) فيقول: إن النبى عليه الصلاة والسلام بعث إلى (عبد الله بن أنيس) وقال له: «بلغنى أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلى يجمع لى الناس ليغزو لى، وهو بنخلة ـ أو بعرنة ـ فأته فاقتله»، وذهب (ابن أنيس) حتى التقى بالرجل، وأخذه فى مسيره شوطاً بعيداً عن أصحابه وهو يحكى له عن رغبته فى الالتحاق به، حتى وجد منه فرصة بعيدة عن الأعين فقتله، وعاد إلى يثرب ليحكى لنا «فلما قدمت على رسول الله وسلمت عليه ورآنى قال: **أفلح الوجه**»[٢٣].

(٢٢) السهيلي: سبق ذكره، مج٤، ص٢٤٤، ٥٤٥.

(٢٣) الطبري: التاريخ، سبق ذكره، ج٣، ص١٥٦.

أما سرية (زيد بن حارثة) إلى بنى فزارة بوادى القرى، فكانت إلى (فاطمة بنت ربيعة) المعروفة بأم قرفة، وكانت عجوزاً كبيرة تجاوزت من عمرها قرناً، وكانت مطاعة فى قومها، ذات منعة وشرف وسيادة، بلغ صيتها كل العربان. وضربوا بعزها الأمثال، وبقى من الأمثال التى تتعلق بأم قرفة مثلان على الأقل، وهما «أمنع من أم قرفة»، و «لو كنت أعز من أم قرفة ما زدت»[٢٤]. وهى كلها أسباب تكشف عن ملامح غزوة (زيد بن حارثة) وغرضها الذى تم بهبوطه عليها على غرة، فأعمل السيوف فى الفزاريين، ثم أسر أم قرفة وابنتها هنداً. وبينما أبقى على (هند) سبية، فقد أمر بقتل أم قرفة قتلاً ذكر (ابن هشام) أنه كان **عنيفاً**[٢٥]، وهو ما جاء تفصيله فى (الطبرى) شارحاً: أنه تم ربط رجليها بحبلين، ثم ربط الحبلان ببعيرين متعاكسين، ثم ضرب البعيران فانطلقا، **فشقاها شقاً**[٢٦].

وهكذا جاء مسلسل الاغتيال والعنف والتصفية الجسدية، لإعادة تثبيت هيبة الدولة التى ترنحت فى أحد، ولإعلان الإصرار الذى لا يتزحزح على استدامة الدولة وسيادتها والحفاظ على مستقبلها، ولو مع التضحية بأرواح كثيرة.

ومن ثم كان ضرورياً أن تهدأ المدينة، بعد قبر الأصوات المعارضة، لكن بعد أن أصلت غزوة أحد الثارات بين اليثارية وبين المكيين ناراً. كما تركت سرايا الاغتيال بدورها أحقاداً ثأرية فى نفوس قبائل، قطع السيف الإسلامى رؤوس سادتها وأشرافها. وهو الأمر الذى ظل قائماً ومحركاً لأحداث سيتناولها الجزء الثانى من القسم الثانى من هذا الكتاب.

---

(٢٤) نفسه: ج٢، ص٦٤٣.
(٢٥) السهيلي: (فى سيرة ابن هشام)، سبق ذكره، ج٤، ص٢٣٧.
(٢٦) الطبري: التاريخ. سبق ذكره، ج٢، ص٦٤٣.

القسم الثانى

حروب دولة الرسول

صلى الله عليه وسلم

الجزء الثانى



مسار التاريخ
والتأسيس التاريخى للأمة

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾

(١٣ الشورى/ قرآن كريم)

كان تراكم الثروات العظيمة لدى الأرستقراطية المكية عشية الإسلام بحاجة إلى وسائل تنموية متعددة، بينما الواقع المتشظى بضآلة وسائل الإنتاج فيه قد جعل تلك التنمية شبه معدومة، فظلت الثروات فى حالة كنز وكمون لا تتحرك إلا مع موسم التجارة، دورة واحدة دون حراك حقيقى يعود بفوائد على المستوى القاعدى الأوسع لأفراد مختلف القبائل.

وللحفاظ على الثروات الكامنة تم كنزها فى شكل معادن ثمينة، وهو ما أدى دوراً معطلا لدورتها الإنتاجية المفترضة، كما أدى بالتجار الوسطيين وبعض أفراد الأرستقراطية الواعية إلى قراءة آفاق المستقبل وممكناته، بينما ظل أغلبية الملأ على حالهم المحافظ الرجعى بالاكتناز حتى موسم التجارة.

ومثل تلك المقدمات تفسر لنا إسلام بعض التجار الوسطيين مثل أبى بكر بن أبى قحافة ومن كان على رأيه وقت كان الإسلام ينادى المستضعفين، حيث كان هؤلاء الوسطيون أقدر على قراءة حركة الواقع قراءة واعية بحكم موقعهم الاجتماعى. تلك القراءة التى أدركت غاية خط سير التطور، حتى يمكن أن يتحول أمن البيت المكى لأهله من الجوع

والخوف إلى أمن لعرب الجزيرة جميعا، بتوحد ينتهى إلى قوة واقتدار، ويؤدى إلى نظرة طموح نحو الامبراطوريتين المتهالكتين.

كذلك تفسر تلك المقدمات، تلك اللغة القوية الجديدة التى أخذت تسرى مع سفى الرياح فى فيافى الجزيرة، وأوردنا لها نماذج فى الجزء الأول من هذا العمل. ونعضده هنا بإضافة ما وجدناه مجدداً عند (الدينورى) فى الأخبار الطوال وهو يحكى عن (النعمان بن المنذر)، ملك الحيرة العربى المسيحى، المنوب عليها من قبل كسرى فارس. ذلك الرجل الذى ظهر شعوره القومى العربى تجاه قومه، فقام يساعد (سيف بن ذى يزن) العربى اليهودى الذى ثار فى اليمن على الاحتلال الحبشى المسيحى لبلاده، فتوسط النعمان لدى كسرى ليمد سيف بن ذى يزن بالسلاح والجند، حتى تحررت اليمن من الحبش، لكن لتسقط فى تبعية الفرس.

ولو تم تفسير موقف النعمان بأنه كان يوطىء لجيوش الفرس فى اليمن لظلمناه ظلما بيناً، لأن ذلك التفسير سيجافى ما حدث بعد ذلك وينافيه تماماً. فقد استمرت سياسة النعمان فى موالاة القبائل العربية، حتى توجس منه كسرى الذى وعى بدوره شكل التحولات التى تجرى فى الجزيرة ونذرها، فتخلص منه. وأوجز سبب قتله فى خلاصة واضحة معبرة تماما عن خط سير الأحداث، حيث قال:

> وأما ما زعمت من قتلى النعمان بن المنذر، وإزالتى الملك عن آل عمرو ابن عدى، إلى إياس بن قبيصة، فإن النعمان وآل بيته قد واطأوا العرب وأعلموهم توكفهم خروج الملك عنا إليهم، وكان لهم فى ذلك كتب، فقتلته، ووليت الأمر أعرابيا لا يعقل من ذلك شيئاً[1].

(١) الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، ط١، القاهرة، ١٩٦٠، ص٦٣، ١٠٩، ١١٠.

وقد تتالت الأحداث إثر ذلك، فأخذت بكر تغير على سواد العراق كراً وفراً[٢]، ثم تصاعدت المناوشات بين قبائل إياد والفرس، ليهزم العرب هزائم متتالية[٣]. حتى تأتى موقعة ذى قار حيث تحقق القبائل العربية أول نصر عظيم لها على جيش الإمبراطورية. ذلك النصر الذى دوى أمره يرجع صداه بين مضارب القبائل الساهرة تسمر حول أخباره. مع فرح عام شمل الجزيرة جميعا، عبر بوضوح عن بدء شعور العرب بوحدة جنسهم، وعن ظهور نزوع قومى واضح لاشية فيه، ليلقى بصداه فى سمع الأجيال وهى تنصت إلى موحد العرب، النبى محمد ﷺ وهو يعقب على نصر ذى قار قائلا: «اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبى نصروا»[٤].

وفى مكة، كان أبرز من وعى ممكنات المستقبل وهى تلقى بمقدماتها أمام سادة مكة، رجل من الملأ حكيم، هو عتبة بن ربيعة، الذى وقف يطلب من قريش الكف عن محمد، لأن ما سيكون له من شأن سيكون شأنهم، وما سيحققه من عز وملك سيكون ملكهم وعزهم. لكن إصرار الملأ على المنافع الضيقة واستدامة الأرباب القبلية جذبا للتجارة، أدى بذلك المتغير الآتى إلى أن يفرض وجوده فرضا، ليصل خط التطور نحو غايته الحتمية.

وعليه فقد نهض بإتمام التطور وأخذه إلى نهايته الناضجة، لصالح الطبقة التاجرة، ذلك الفرد المنتظر، نبى الإسلام الكريم ﷺ الذى نشأ يتيما فقيراً كادحاً، من البيت الهاشمى الذى حاز شرف النسب، لكن مع تواضع مادى. بل كان من الغصن رقيق الحال فى ذلك البيت، غصن عبد المطلب وأبى طالب. ومع تجاوزه الصبا إلى اليفوع والرجولة، تحول محمد إلى التجارة لصالح أثرياء مكة، ثم تزوج من الشريفة الثرية السيدة خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ فخبر الأمرين، وعاش الحالين، وعاين الطبقتين، مما كان كفيلا بوعى نافذ، كان وراء دفع الأمر نحو غايته ونتائجه الحتمية.

(٢) الأصفهانى: الأغانى، المكتبة الحيدرية، ط٢، النجف، ج٢٠، ص١٣٢.
(٣) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩، ج١، ص١٢٩.
(٤) خليفة بن خياط: الطبقات، تحقيق أكرم العمرى، مطبعة العانى، ط١، بغداد، ١٩٦٧، ص٤٣.

وإعمالا لما سبق، وبسبيل الاتساق مع السير الصحيح لوجهة التطور التاريخى، بدأ النبى ﷺ دعوته بالمجاهرة بضرب المصالح الأنانية الضيقة لملأ مكة، ابتداء بضرب التعدد القبلى الربوبى، بهدف التوحد الآتى. ومن ثم كان إعلانه كفران قريش ﴿قل يا أيها الكافرون..﴾، وسلبها لقبها الذى شرفتها به العرب (أهل الله)، وتسفيهه لمعتقداتها وعقائد العربان. مع رفضه الصارم لقواعد التجارة التى قعَّدوها، التى كانت تعطل سيولة رأس المال وتجمد دورته التنموية، فقام يهاجم كنز الذهب والفضة، بأوامر وحى يساير سنن الكون التاريخية ويلتقى معها. حتى وصل فى مغالاته إلى ذم المال فى ذاته، وهو ما جاء فى رواية ابن حنبل: «إن النبى قال: تبا للذهب، تبا للفضة، فشق ذلك على أصحاب النبى ﷺ فقالوا: أى مال نتخذ؟ فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ: أنا أعلم لكم ذلك، فقال: يارسول الله إن أصحابك قد شق عليهم فقالوا: أى مال نتخذ؟ قال: لسانا ذاكراً وقلبا شاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه»[٥].

وتكرر موقفه من المال فى مواقف من أصحابه من التجار الوسطيين، فقال يوما لعبد الرحمن ابن عوف ـ رضى الله عنه ـ: «ما بطأ بك يا عبد الرحمن؟ قال: ماذاك يا رسول الله، قال ﷺ إنك آخر أصحابى لحوقا بى يوم القيامة، فأقول: ما حبسك عنى، فيقول المال: كنت محاسبا محبوسا حتى الآن»[٦].

وكان طبيعيا أن تسفر الدعوة عن عداء جهير بعد الجفوة، أدى بالنبى ﷺ إلى وجهة مرحلية على خطوات الطريق الاستراتيجى الطويل، تحول بموجبها نحو المستضعفين والمعدمين والعبيد، يدعوهم إلى النسب والامتلاك، بل وامتلاك كنوز تتضاءل أمامها كنوز الملأ القرشى، إنها كنوز كسرى وقيصر. بهدف تشكيل نواة جماعة أولى لأمة جديدة

(٥) ابن حنبل: كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص١٩.

(٦) الشيباني: الاكتساب فى الرزق المستطاب، تلخيص محمد بن سماحه، تحقيق محمود عرنوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ١٩٣٨، ص٢٩.

واحدة من دون الناس، وعليه كان إعلان الوحى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾(٥/ القصص).

ويروى البلاذرى: «كان رسول الله ﷺ إذا جلس فى المسجد جلس إليه المستضعفون من أصحابه: عمار بن ياسر وخباب بن الأرت وصهيب بن سنان وبلال بن رباح وأبو فكيهة وعامر بن فهيرة، وأشباههم من المسلمين، فتهزأ قريش بهم ويقول بعضهم لبعض: هؤلاء جلساؤه كما ترون، قد مّن الله عليهم من بيننا»(٧).

وإعمالا لذلك بات واضحا أن المستضعفين هم من سيشكلون مادة الأمة الطالعة، وهم من سيكونون القادة والأئمة، وهم من سيرثون الملأ وحكومته، والسبيل أمة جديدة، تقوم على مبدأ جديد، يوحد ولا يفرق، يجمع أصحاب المصلحة فى التغيير فى مصهر واحد، عبرت عنه الآيات الكريمة بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (١٣/ الشورى). ومن هنا، وفى تلك المرحلة قام الإسلام بضرب القبلية، بإحلال الولاء لجماعة الإسلام محل أى ولاء آخر، وهو ما دعا إليه الوحى فى قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣/ التوبة).

وقد أفصحت الصحيفة التى عقدت بعد ذلك بزمن بعد الهجرة إلى يثرب، عن قرار بقيام الدولة على نظام اجتماعى جديد، يميزها كأمة أخرى تماما دون بقية الأعراب، ووضعت أول مبدأ للأمة الموحدة، معبرة عن التجمع الحضرى الكيفى المتجاوز للتجمع القبلى الكمى. وهو المبدأ الوارد فى نصها المضىء فى مبتداها: «هذا كتاب من محمد النبى، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس»(٨).

(٧) البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ج٢١، ص١٥٦.

(٨) ابن هشام: السيرة النبوية، ضمن كتاب السهيلى: الروض الآنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ضبط طه عبد الرءوف، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، مج٢، ص٢٤١.

وتسارعت الخطوات بعد الهجرة، بادئة بالمهمة الكبرى، وهى إسقاط نظام الملأ المكى، وحكومته شبه الجمهورية، وضرب ذلك النظام فى أساسه الخرسانى، بقطع طريق الإيلاف التجارى المار قرب يثرب، بحروب بدأت رحاها بسرايا وغزوات، كانت الحروب التأسيسية لقيام دولة الرسول فى يثرب.

وهكذا كان الانقلاب العظيم الذى جاءت به الدعوة، يتمثل فى رفض النموذج البدوى للإنسان العربى فى المرحلة القبل إسلامية، ومن ثم جاء الانقلاب ليسارع فى تفجير الأطر القبلية، ويبنى نموذجاً جديداً لإنسان الجزيرة، ويضعه ضمن منظومة اجتماعية جديدة، تنتقل بالفرد من الولاء للقبيلة إلى الولاء للأمة القومية، تلك الأمة التى كان عمادها الرئيس عقيدتها الجديدة.

وإذا كانت ترميزات الوحى المجازية قد جعلت من إبراهيم الخليل أمة وحده، كأب لجميع الأنبياء ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١٢٠/ النحل)، فإنها جعلت من محمد ﷺ آخر الأنبياء وخاتمهم، ومن ثم كان محمد بدوره أمة، وإذا كان هو كل الإيمان وكل الأنبياء فى دين واحد وذات واحدة، فلا شك أن المؤمنين به سيكونون بإيمانهم محمديين، أى سيكونون بدورهم أمة، لذلك جاءت الآيات تقول:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ (١٠٤/ آل عمران).

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (١١٠/ آل عمران).

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (٩٢/ الأنبياء).

وكان الشرط ليكونوا أمة، هو الاعتراف بمحمد رسولا خاتما، وبمن سلف من أنبيائهم، أنبياء وأسلاف الأمة وتاريخها، وبالله الواحد ربا جامعا لوحدتهم فى كيان اجتماعى عقدى واحد.

ومن البداية كان واضحا أن هذه الأمة الجديدة هى الأمة الجامعة لعرب، بدأوا منذ وهلة فقط قريبة جدا يشعرون بوحدة جنسهم وبقوميتهم، إزاء تفجر أطر القبيلة، وهو ما تمثل فى موقفهم من تحرير اليمن، ومن انتصار قبائل الشمال على الفرس فى ذى قار.

ومن هنا أضحى أن مصطلح أمة فى العقيدة الجديدة يعنى كياناً اجتماعياً جديداً، شديد الصلة بمعنى يناقض البداوة والقبلية، ويتماهى مع معنى المدينة والحضارة.

ومنعا لأى التباس فى عروبة تلك الأمة، مع وجود العبيد والموالى الذين دخلوا الإسلام من أصول غير عربية، جاء حديث سيد الخلق ﷺ يقول:

«أيها الناس: إن الرب رب واحد، والأب أب واحد، والدين دين واحد، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، وإنما هى لسان، فمن تكلم العربية فهو عربى»[٩].

كان التوحيد الربوبى ناتجا لتطور ظروف المجتمع، لكنه أيضا كان مؤسسا للدولة الواحدة، وكان لابد أن يرافقه توحد اثنى جنسى يلغى أسلاف القبائل الذين هم أرباب فى الوقت ذاته، لتتحقق الوحدة المرجوة. ومن ثم كان تأكيد النبى على ما سبق وأعلنه جده عبد المطلب بن هاشم، أن جميع قبائل العرب وإن تفرقت قبائلها وتشرذمت، فإنها إلى أب واحد تعود، هو إسماعيل بن إبراهيم أبو جميع الأنبياء، الذين هم بدورهم مسلمون.

وهكذا كان التوحيد الربوبى يتمثل فى الالتفاف حول لواء واحد هو: قول لا إله إلا الله، والقبول بالانضواء تحت سلطة نبوية قائدة واحدة تتمثل فى الشهادة لمحمد بأنه رسول الله، كأساس تنظيمى للحركة التاريخية نحو إقامة دولة مركزية للأمة الطالعة، وبحيث ينتقل العربان من الوضع القبلى إلى الوضع القومى.

---

(٩) نقلاً عن ابن تيمية: اقتضاء السراط المستقيم، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ص١٦٦، ١٦٩.

ولتحقيق الهدف؛ كان لابد من خروج الفرد من منظومته القبلية إلى رحاب القومية الأرحب، مما يعنى انسلاخه الكامل فكريا وسلوكيا عن حالة التبدى والقبلية.

لكن تظهر الإشكالية الكبرى والمستعصية، حيث لم تشعر شراذم العرب القبلية بوحدة جنسها إلا بشكل ابتدائى كلون من العصبية غير الواضحة والضبابية، ناهيك عن انقطاع تلك القبائل عن ماضيها وأحوال من سبقهم. وهو انقطاع تاريخى مع التأريخ لعوامل كثيرة معلومة، ليس هنا مجال عرضها، حتى أنهم ما كانوا يشعرون بوحدة جنسهم، أو أن لهم أية علاقة بالحضارات السامية القديمة. ورغم أن البعض اليوم يقعّد تلك الحضارات فى مجلس التاريخ العربى، مع الإشارات إلى حضارات الجنوب اليمنى. فإن هذا الاعتبار يقوم على الجغرافيا مع إسقاط الجانب اللغوى وخط الكتابة وغيره، وحتى ظهور الخط النبطى الذى تطور عنه الخط العربى بعد ذلك بقرون، فإن عرب الجزيرة أنفسهم ما كانوا يشعرون بوحدة جنسهم. ولم يبدأ ذلك الشعور جليا إلا مع دخول الرسملة وإفصاح المجتمع عن وجهه الطبقى، حيث بدت بوادره بفرح عم جزيرة العرب عندما انتصر حلف قبائل الشمال على جيوش فارس فى وقعة ذى قار، وعندما تمكن ابن ذى يزن من تحرير بلاده من الأحباش.

وهكذا كان لابد للأمة من تاريخ يتصل بها، ويتواصل معها، ويجد لها موطىء قدم راسخ فى عمق الزمان الماضى، فأى أمة لا بد لها من عراقة تاريخية عميقة، وتاريخ يضرب بجذوره فى الماضى البعيد المؤسس للتطور التالى المنشىء للأمم أصلا.

ومن هنا كان الاتجاه نحو العماد التأسيسى العقدى لإلقائه فى رحم التاريخ القديم، بربط النبى محمد بتاريخ النبوة منذ بداياتها المعروفة فى القصص الدينى، **ليصبح تاريخ الأمة الجديدة تاريخا نبويا، ومعرفيا سماويا**، فتتم أسلمة جميع الأنبياء السابقين، كما يتم تقديس لغة قريش تحديداً باعتبارها اللغة العربية الكاملة، ويتم إعادتها إلى الزمن السماوى

القبل خلقى، فتصبح لغة الملأ السماوى، ولغة آدم أبو البشر جميعاً فى الجنة، ثم لغة جميع الأنبياء، ثم ستكون لغة أهل الجنة بعد.

وعليه تم وضع الأنبياء فى سياق تاريخى كان هدفه النهائى هو قيام دولة الإسلام المحمدية، وبحيث يكون النبى ﷺ هو المحور والهدف الأول قبل آدم نفسه، ويظهر كل الأنبياء كخطوات تمهيدية تطورية تاريخية سابقة، كانت مهمتها التوطئة التاريخية لدولة النبى وأمة المسلمين. ويصبح جميع الأنبياء فى بقاع مختلفة من عالم الشرق القديم، سواء من بنى إسرائيل، أو من أنبياء عرب كصالح وهود فى الشام واليمن، أو فى العراق كما فى حالة إبراهيم، أو فى مصر كما فى حالة موسى، يصبح كل هؤلاء بموروثهم النبوى، وجدلهم المعرفى والحضارى مع حضارات المنطقة، هم الامتداد التاريخى للأمة العربية الطالعة. وهو الأمر الذى سيلتقى تماماً مع التوجهات المحمدية والتوجيهات لأتباعه بغزو تلك البلاد، باعتبارها ميراثاً تاريخياً، تقوم شرعيته على فلسفة الإسلام التاريخية، وكما ورث محمد كل النبوات، فإن كل بلدانهم بالتبعية وبالضرورة هى ميراث أتباع محمد، الذين هم أتباع لكل الأنبياء فى جميع الأمم.

ومن هنا تتالت آيات القرآن الكريم لتعزيز تلك (التاريخية) للأمة الطالعة، بما حوته من قصص الأنبياء، لتكون بمثابة إعادة إكتشاف للهوية التاريخية ولتشكيل ماضى الأمة.

ولأن الغرض (توحُد) فى أمة (مُوَحَّدة) فى عقيدتها، فقد أصبح كل الأنبياء السوالف موحدين، ومن ثم كان الهجوم التكفيرى على بعض الآراء والعقائد فى الديانات السابقة والتى دخلتها شبهة عدم التوحيد، كما فى بعض حالات أنبياء اليهودية وفى حالة يسوع المسيح. لتصبح القيم التى مثلوها هى القيم التى تتساوق وتتناغم وتتضافر مع دعوة النبى التوحيدية الموحدة لتوحيد قبائل العرب فى دولة مركزية واحدة.

ومن ثم تتالت الآيات القرآنية تؤكد ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (١٥٩/ الأنعام)، وهى الآيات التى تعنى أن تلك القبائل إنما كانت فى الأصل على

الدين النبوى التوحيدى الذى أسسه سلسال الأنبياء السابقين، وأنهم انقسموا بعد ذلك قبائل وشيعاً، مما يعنى أن الوحدة والتوحيد كانا الأصل. ومن ثم ينقلب منطق التطور على عقبيه لصالح التأسيس التاريخى للأمة، ومن ثم كان نداء الآيات ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا﴾ (١٣/ الشورى).

ومن أجل تحقيق وحدة الجماعة المسلمة التضامنية فى يثرب كان لابد من مركز تأسيسى يمثل المركز الحكومى الإدارى، وفى ذات الوقت يجب أن يكون مركزا مقدسا. ومن هنا أمر الرسول الأتباع عند دخوله يثرب بترك ناقته على حريتها قائلا: «اتركوها فإنها مأمورة». لتبرك الناقة **فيتقدس الموضع** الذى بركت فيه ويبنى فيه المسجد الذى تقدس فى حديث النبى ﷺ بقوله: «لا يشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام والمسجد الأقصى **ومسجدى هذا**»، بل وحرم يثرب جميعا لتعادل بحرمتها مدينة مكة.

وفى المسجد كان المسلمون يلتقون بزعيمهم ومنه يوجههم، وفيه يتم توطيد انتمائهم العام للأمة، بإبعادهم عن المجتمع القديم وعزلهم عنه، كما تأكد المعنى المدنى للدولة بإطلاق اسم المدينة على يثرب، مع هجوم عنيف على النزعة البدوية فى آيات القرآن الكريم، ومن نماذجها:

﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ (٩٧/ التوبة).

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ (٩٨/ التوبة).

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ (١٠١/ التوبة).

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (١٤/ الحجرات).

ومن ثم أصبح التمدن مرادفا للإيمان، حيث المدينة تؤكد الشعور بالانتماء والانتساب والمواطنة وبالهيبة الحضارية. لكن بينما كانت حاضرة مثل مكة قد تخلت عن الإغارات البدوية على القبائل الأخرى نهائيا، لظرفها الاقتصادى والمجتمعى، وتأكيد حرمة مدينتها وحرمها. فإن يثرب على العكس بدأت غاراتها العسكرية من الوهلة الأولى، للحصول على المقومات الاقتصادية لبناء الدولة، حيث قال النبى ﷺ:

«لم تحل الغنائم لأحد قبلنا، وذلك أن الله تعالى رأى عجزنا وضعفنا فوهبها لنا»(١٠).

ومن ثم تقدست أيضا تلك الغارات، وشرعت الغنيمة وأصبحت بدورها حلالا ومقدسا. أما قريش ومشركوها فقد كانوا يشكلون بوجودهم ضرورة لتحقيق الإسلام، حيث يبرز النقيضان ويتضحان، وكانت حربهم إزاء الحملات العسكرية اليثربية عليهم، مع الظفر الذى تحقق ليثرب، مدعاة لأن يرى العرب فيها رعاية غيبية تقف إلى جوار المسلمين وتدعمهم، وهكذا أبرز ذلك التناقض النقيض المهزوم كنموذج منهار فى طريقه إلى زوال.

أما أبو سفيان صخر بن حرب، فقد زلف لسانه بعد ذلك بزمان طويل، يحكى عن حروب النبى ﷺ لقريش وحصارها اقتصاديا فقال: «كنا قوما تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى تهتكت أموالنا»(١١).

---

(١٠) الثعلبى: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت، ص٢٤٩.

(١١) المقدسى: البدء والتاريخ، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩١٦، ج٢، ص٩٤.



الوسطية بين النقائض

﴿ إنَّ الـدِّيــن عِنــد اللّــه الإسْــلامُ ﴾

(١٩ آل عمران/ قرآن كريم)

كان يوم بعاث - وبعاث موضع بالمدينة - كانت فيه وقعة عظيمة، قتل فيه خلق كثير من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم، ولم يبق من شيوخهم إلا القليل. وقد روى البخارى فى صحيحه عن عبيد بن إسماعيل عن أبى أمامة عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: «**كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله، قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد افترق ملأهم وقتل سراتهم**»[1].

هذا نص ابن كثير الواضح اللماح، الذى يعلن فى إيجاز بليغ، بلاغا واضح المعانى، حول الظروف التى انعقدت فيها الاتصالات بين النبى ﷺ وبين أخواله من خزرج يثرب، ومن لحق بهم من بعض الأوس القليل. حيث يشرح ببساطة وضع عرب يثرب - من خزرج وأوس - المنهار والمتفسخ، بعد مقتلة يوم بعاث بين القبيلتين، وقتل الرؤوس منهم والسادة، مما جعلهم فراغا من أصحاب (الكاريزما) الرئاسية والحنكة المشيخية. وهو ما رآه ابن كثير ترتيبا ربانيا قدمه الله هدية لرسوله، بقتل الرؤوس الكبرى من كلتا القبيلتين، مما **هيأهم لقبول السيادة النبوية دون مشاكل كثيرة، ودون منافسين أقوياء**.

وغنى عن البيان أن عاملا آخر أساسياً، هيأ لذلك الحلف ومهد له، هو المصاهرة الوثيقة التى سبق أن تمت بين الخزرج وبين بيت النبى الهاشمى. ناهيك عن كون موقف

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٩٨٨، ج٣، ص١٤٦.

الخزرج ـ تحديداً، إضافة لقرابة الخئولة ـ كان رداً واضحا على قريش وسادة البيت الأموى. إزاء وقفتهم السابقة مع أوس يثرب ضد الخزرج، يومى معبس ومضرس، وهى الوقفة التى عمد إليها ملأ مكة لتفتيت يثرب وتمزيقها شيعا، كى لا تشكل خطورة على تجارة مكة، لوقوعها على عصب طريق الإيلاف الشامى، ولإجهاض قوتها حتى لا تطالب بنصيب من الجعالات التى كان يدفعها ملأ مكة للقبائل القائمة على الطريق التجارى. بحيث أسقطت مكة يثرب من حساباتها تماماً، بعد تلك الوقائع الدامية بين بطونها. وتأسيسا على ذلك استشرف خزرج يثرب الوعد النبوى بوعى نافذ، لوحدة تلم الشمل، تقف بها يثرب كمنافس له شأنه أمام مكة وسادتها، وربما تكون عاصمة للدولة الكبرى الموعودة مع تداول الأيام، عندما يأتى الله بأمره.

ورغم أن كتب الأخبار الإسلامية والسير والتأريخ، وما تقدمه وسائل التربية الإعلامية والدينية، تجعل يثرب جميعاً تستقبل سيدها الجديد المهاجر بالترحاب، وتصدح بنشيد: «طلع البدر علينا» بعد أن امتلأت منهم الجوانح بالإيمان، فمنحوا النبى والمهاجرين بيوتهم ونساءهم وعقولهم وأرزاقهم. فإن العين الحصيفة المدققة، والقراءة المحايدة المتأنية، لا تجد ذلك الزعم أبداً، حيث نجد وفد يثرب الذى التقى بالنبى فى عكاظ، كان من بيت عبد الأشهل الخزرجى وحده وهم أخوال النبى. وأن اللقاء التالى بعد عام كان يضم اثنى عشر، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس. وكان لقاء العقبة الحاسم قبل الهجرة، يضم ثلاثة وسبعين، منهم أحد عشر أوسيا فقط، وستون خزرجيا. وهو ما يشير إلى أن هؤلاء الأوس كانوا من عقلاء قومهم فأدركوا قيمة الدعوة وما سيتحقق بها، أو أنهم أهل سلام ومصالح ترتبط بذلك السلام، جعلهم يقبلون ذلك العقد مع صاحب الدعوة ويحضرونه. وفى مستوى آخر ـ يأخذ بسوء الظن ـ يمكن احتساب أوس العقد دسيسة أوسية على ذلك الاجتماع التاريخى، لتسقط أخباره. وهو أمر وارد فى ذلك الصراع، وتكشف عنه بعد ذلك الأعداد الكبيرة للأوس المنافقين بعد الهجرة ولزمن طويل، ناهيك عن كون وجود

الجواسيس كان أمراً مألوفا، وكان بداخل المهاجرين أنفسهم جواسيس لملأ مكة، وهم من قال الوحى بشأنهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٧/ الأنفال).

ثم هناك مستوى ثالث فى قراءة موقف الأوس، يتمثل فى مباعدة أبى عامر بن عمرو بن صيفى الأوسى مع خمسين من أتباعه ليثرب بعد الهجرة، كارها للنبى والمهاجرين، ومشاركته بعد ذلك فى وقعة أحد ضد النبى. إلا أن الواضح الجلى هو أن النبى قد دخل يثرب فى حمى أخواله الخزرج أساسا، مع تعضيد من بعض عقلاء الأوس، وهو ما يفصح عن قدر شديد من المبالغة فى روايات الإخباريين عن إيمان عرب يثرب جميعا قبل الهجرة مباشرة. ويدلل هذا التحليل ما حدث فى وقعة بدر، حيث لم يتمكن النبى من جمع أكثر من ثلثمائة رجل معه فى الوقعة، مهاجرين وخزرجيين وأوسيين، وهو أمر ذو دلالة إن قارناه بما حدث بعد استتباب الأمر فى المدينة للنبى، وقدرته على حشد قوة تماثل عشرة أضعاف ما جمعه فى بدر، وهو ما يشير إلى انضمام جموع أخرى متأخرة إلى حلف النبى اليثربى.

لكن ذلك لا يعنى سوى أن يثرب قد استقبلت الرسول، متهيأة لذلك بحكم ظروفها وتكوينها، التى أتيحت لها دون أى موقع آخر بالجزيرة. ففيها كان أخوال الرسول وحلفاء البيت الهاشمى، وفيها كان اليهود وحكاياتهم عن أنبيائهم مع كتابهم المقدس، وهو ما كان عاملا جوهريا فى وضع التاريخ الدينى موضع احترام من عرب يثرب، إضافة إلى النبوءة التوراتية التى كانت تتواتر هناك عن مقدم نبى آخر الزمان. كما كان التوحيد اليهودى مدعاة لاختلال علاقة عرب يثرب بالوثنية، وهو ما هيأهم لقبول فكرة التوحيد عندما جاءت عربية. وقد تهيأت يثرب بعد ذلك لأخذ دورها الريادى كعاصمة للدولة المقبلة، فى تحولها التدريجى للتوحد إيمانيا، بل وطبقيا، بذوبانها فى مستوى مادى متقارب، كناتج للتوزيع العادل للغنائم. وتحولت الجماعة الإسلامية إلى جيش متكامل ووحدة عسكرية، مقاتلة، بدأت تداهم بدورياتها طريق الإيلاف الشامى، لتضرب حول مكة حصارها الاقتصادى.

فلم ينسلخ من الأيام سوى أشهر سبعة بعد الهجرة إلى يثرب، حتى خرجت دوريات المسلمين تقطع على قريش طريقها إلى الشام، وكان أولاها سرية حمزة بن عبد المطلب، وبعدها بشهر سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب، وبعدها بأيام سرية سعد بن أبى وقاص. ورغم أن كثيراً من تلك السرايا الأولى لم تحقق غايتها بالاستيلاء على قوافل قريش، فإنها وضعت تجارة قريش على حافة الخطر، وأشعرت الملأ أى أمر ينتظرهم من محمد، خاصة بعدما قام النبى ﷺ بنفسه يغزو الطريق بهدف آخر، هو إرهاب حلفاء قريش على طريق الإيلاف، لتفكيك الإيلاف بين تلك القبائل وبين قريش، وبعد النجاح الذى لاقته تلك الغزوات حيث تمكن النبى من سلخ إيلاف بنى مدلج، وأخذ عليهم عهود الموادعة، كما تمكن من عقد عقود مكتوبة مع بنى ضمرة بن بكر من كنانة.

وجاء أخطر إنذار لقريش، عندما تمكنت سرية عبد الله بن جحش، من الاستيلاء على قافلة لقريش، ضربت أثناءها بالتحريم المكى للأشهر الحرم عرض الحائط، فقتلت، وسلبت، وأسرت، لتعلن القوة الجديدة فى يثرب عن رفضها لقواعد قريش الدينية، واستخفافها بتلك القواعد، بخاصة مع تلازم ذلك باتخاذ النبى للقدس قبلة له وللمسلمين، وصيامه يوم الغفران اليهودى، ذلك الاستخفاف الذى استهجنته قريش تعلن فى العربان أن محمداً قد انتهك حرمة الأشهر الحرم، لكن ليرد النبى عليهم وحيا يقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ (٢١٧/ البقرة).

وبينما ينقطع قمح يثرب عن مكة، وتخرج سرايا يثرب إلى ميناء الجار على البحر الأحمر لتمنع شحنات القمح المصرى من الوصول إلى مكة، ودرويات المسلمين تنقض على طريق الإيلاف كل لحظة، كان صفوان بن أمية يردد لسان حال قريش وهى تقول:

«إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا، فما ندرى ماذا نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعوا

محمداً، ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسكن؟ وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لنا من بقاء، وإنما حياتنا على التجارة إلى الشام فى الصيف وإلى اليمن فى الشتاء»[٢].

ولعل أهم وقعة كبرى حولت بالفعل مسار التاريخ بعدها، كان سببها قافلة كبرى لقريش بقيادة صاحب اللواء أبى سفيان بن حرب، وهى وقعة بدر الكبرى، حين تحول اتفاق الأنصار مع النبى فى العقبة الثانية إلى غايته المضمرة، من ميثاق دفاعى إلى حلف هجومى محارب، تحولت معه عناصر الجماعة الإسلامية كلها - مهاجرون وأنصار - إلى دولة محاربة هجومية، دولة عسكر ومغانم، كالقبيلة تماما، وبذات منطقها. لكن بعد أن تحول الولاء عن القبيلة وسلفها المعبود إلى الدولة، **ممثلة شخصيا فى رسول الله ورمزيا فى ذات الله**، وإلى المصالح المادية المباشرة التى جمعت بالفعل أعضاء الدولة. وكان بدء الغزوات والمغانم نقطة التحول الكبرى التى لعبت دوراً عظيماً فى جذب الأتباع من مستضعفى القبائل ومحاربيهم، بعد أن ظل النبى ﷺ يدعو فى مكة ثلاثة عشر عاما دون إجابة، ولم يتبعه خلال كل تلك السنوات سوى حوالى المائة نفر، حيث كانت الدعوة تؤجل الوعد بالنعمة إلى جنة الخلد. ولكن عندما تم الإعلان عن تحلّة الغنيمة الدنيوية من أموال الآخرين المخالفين للدعوة ودولتها، أصبح حل مشكلة المعدمين حقيقة ملموسة، ومكاسب عينية تدعوهم إلى الانخراط مع العصبية الإسلامية. وبعد فترة من الزمن ستصبح تلك المكاسب كبيرة إلى الحد الذى سيدفع رجالات قريش المميزين إلى الانخراط فى جيش المسلمين، وهو ما يفصح عنه إسلام (عمرو بن العاص) الذى ذهب إلى النبى ﷺ يؤكد أن هجرته ليست للمال بل لله ورسوله، لكن ليجيبه النبى ﷺ بكل صراحة ووضوح: «**نعما بالمال الصالح للرجل الصالح**». ثم أرسله قائداً عسكريا غازياً وهو يقول

(٢) أبكار السقاف: نحو آفاق أوسع، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت، ج٢، ص١٤٥٨.

له : «إنى أريد أن أبعثك وجهـا يسلمك الله فيه ويغنمك ، **وأزغب لك زغبـة من المال**» ، ومن ثم كان إعلان النبى ﷺ تميز عمرو بقوله : «أسلم الناس وآمن عمرو»[٣] .

ومع النصر البدرى الساحق ، أصبح النبى مرموق الود من القبائل ، خاصة المتاخمة ليثرب ، مما وسع نطاق الدولة الوليدة وحدودها ، بحدود القبائل الموادعة لها على كافة الطرق ، دون أن تعلن هذه القبائل ولاءها الدينى لدولة النبى بإشهارها الإسلام . كان الغرض عسكريا وسياسيا فى هذه المرحلة من مراحل بناء الدولة ، بهدف مرحلى تكتيكى على الطريق الاستراتيجى الطويل ، يهدف إلى إضعاف جبهة حكومة الملأ المكية ، وتفكيك إيلافها مع القبائل ، وإسقاط هيبتها أمام العربان . وقد لحق نتيجة ذلك ضرر جسيم بالعمود الخرسانى لمنظومة مكة المتمثل فى ثروتها التجارية ، وهو ما حدا بالقبائل إلى مراجعة موقفها من قريش ، إزاء القوة اليثربية الطالعة ، فى الوقت الذى أخذت فيه أحوال المسلمين الاقتصادية فى التحسن المطّرد ، بعد أن وضعت بدر بيد المسلمين القوة المادية ، سلاحا ، ومالا ، ومنحتهم مزيداً من الثقة النفسية فى أنفسهم وفى مشروعهم وفى قائدهم ، فامتلأوا - بتلك القوة المعنوية - جرأة ، وأخذوا بتأديب المخالفين فى يثرب ، وإلقاء الرعب فى قلوبهم ، بل وقتل أى شخص يتجرأ على معارضة الدولة .

هذا - بالطبع - مع نتائج أخطر على مستوى الشكل الاجتماعى للدولة ، كناتج طبيعى لتعزيز سلطة النبى الحاكمة ، وهى النتائج التى أخذت تتضح فى تراجعات الدولة الوليدة عن الأممية المطلقة والأخوة المطلقة التى كادت فى بدئها أن تكون مشاعا . وذلك بعقد صحيفة المعاقل فى مرحلة تالية ، التى كانت إعلاناً مكتوبا سافراً عن سلطة النبى كسيد مطلق ليثرب جميعا ، ومن ثم بدأت مع صحيفة المعاقل مرحلة جديدة بتكتيك تمثل فى تراجع دقيق ومحسوب عن الأممية المطلقة ، لتأخذ الدولة السمت الوسطى بين الأممية ، وبين الدعوة إلى صلة الأرحام والمحافظة على العلاقات العشائرية .

(٣) السهيلي : الروض الأنف ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ج٣ ، ص١٩٣ .

وقد بدأت تلك السياسة الوسطية تتضح بعد غزوة بدر مباشرة، حيث لحظنا ـ كما شرحنا فى الجزء الأول من هذا العمل ـ بداية توازن الدولة بين النقائض، فكانت دعوتها لتوحد أممى تحت راية واحدة وفى ظل سيادة دولة موحدة وتحت إمرة سلطة نبوية واحدة. وضمت فى شكلها الاقتصادى تقاربا ماديا زاد من ذلك التوحد. لكنها إبان ذلك كانت تضم أيضا الرقيق والعبيد مما حملها من الداخل للون طبقى، ومع التراجع عن التنديد بالثروة والأثرياء، وخفوت صوت المستضعفين فى الوحى والأحاديث، بدأت الدولة تفسح بداخلها فجوات المجتمع الطبقى، ثم فجوات المجتمع القبلى معا. حيث كانت الدعوة للرحم والعشيرة مدعاة لوضوح شكل الدولة فى أضمومات قبلية محزمة وموثقة بوثاق الدولة الواحدة. أما إذا تتبعنا أنساب العشرة المبشرين بالجنة، فسنجدهم تمثيلا قبليا وسياديا لأهم البطون القرشية، فهذا أبو بكر وطلحة يمثلان تيم، وهذا على يمثل هاشما، وهذا عثمان يمثل أمية، وهذا عمر وسعيد بن زيد يمثلان عدى، وهذا عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص يمثلان زهرة وهذا الزبير يمثل أسداً، وهذا أبو عبيدة يمثل فهر بن مالك، وهو التمثيل الذى أصبح يوازى فى يثرب، حكومة الملأ القرشية فى مكة. (وقد لوحظ ذلك بذكاء الباحث الأستاذ خليل عبد الكريم).

وتأسيساً على كل ذلك، فإن غزوة بدر قد أفضت إلى نتائج هائلة على المستوى النظرى والعملى، وحددت مواقف كثيرة كان الإفصاح عنها مؤجلا حتى يأتى الله بأمره. لكن أهم ما حققته هو وضعها بداية النهاية لسيطرة الملأ القرشى، وسيادة حكومته البدائية شبه الجمهورية، بالقضاء على سادتها المترفين، أولئك المنافس الحقيقى لفكرة الدولة الواحدة. وهو ما سيتم تثبيته بعد زمن بالاعتماد على التوازن بين النقائض، فى مملكة وراثية كبرى ستمسك بأعنتها قبيلة النبى: قريش، وهى العودة التى ما كانت لتتم لولا العودة إلى صلات الرحم والعشيرة، التى وضحت فى تحرك رحم النبى لأهله الهاشميين فى وقعة بدر، وأمره لرجاله بعدم قتل أى من بنى هاشم. ليتوازن ذلك مع نقيضه من بعد، فيصب

الأمر كله بيد الطبقة التى سيتم دعمها بالتدريج خلال حياة الرسول نفسه، لتقف على رأسها الطبقى منظومة قريش القبلية. ليظل حال التاريخ العربى والإسلامى بعد ذلك حتى اليوم، إعمالا للمقدس واتباعا له، **يظل واقفا على حافة الوضع الاجتماعى الاقتصادى المعروف بالإقطاع التجارى، ويبقى المأثور مصراً على أن الخلافة من قريش، وليس من الأنصار.**

ويتضح ذلك جليا عندما نقرأ المراحل اللاحقة فى تطور أحوال الأمة الطالعة، بعد أن استقام أمرها، حيث بدأت تفتح صدرها تماما للتجار، خاصة بعد فتح مكة، وحيث احتلت طبقتهم فى الإسلام مكانا، كان مكانهم الطبيعى فى الفرز التطورى. ولا ننسى أن النبى ﷺ كان هو من يحاول دوما جذب تجار مكة وأثريائها لدعوته. وبعد هذه النقلات سنلحظ دون عناء كيف خففت السور اللاحقة والمتأخرة - التى تناغمت بصدقها مع متغيرات الواقع - من حدتها إزاء الأثرياء، وهدأ تنديدها بهم، مع خفوت متساوق فى الاهتمام بقضايا المستضعفين، وبعد أن كان هؤلاء المستضعفون المقاتلون مادة الحركة ووقود حروبها، وتحول من بقى منهم حيا إلى طبقة كبار الملاك. وهو ما يكفى أن نذكر له مثلا واحداً فقط، يتعلق بأكبر الصحابة زهدا وتقشفاً وورعاً، وكان أرق نظرائه حالا وأقلهم مالا.

عن على رضى الله عنه.. «لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ وإنى لأربط الحجر على بطنى من الجوع، **وإن صدقتى اليوم لتبلغ أربعين ألف دينار**»[٤].

ثم يمكننا أن نلحظ المال نفسه الذى كان محل هجوم شرس وضار، وأُحل للمسلمين مصادرته بالغزو، وهو يتحول ليصبح بالإمكان بقاؤه وتناميه، بعد تطهيره بالزكاة والصدقات، ويبيت كسبا حلالا، وتسعة أعشار الرزق فى التجارة، والمال والبنون زينة

(٤) الحلبي: سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨، مج٢، ص٤٧٣. ويشرح الحلبى أن تلك كانت صدقة العام الواحد فقط.

الحياة الدنيا . لقد كانت خطوات التاريخ فى طريقها إلى إنضاج الطبقة التجارية ـ وليس الغاؤها ـ فى سبيل كيان سيادى يسد الفراغ السياسى تحت لواء عقيدة عقدتها حتمية السنن الكونية .

وجولة سريعة للعين فى كتبنا التاريخية ستلحظ دون عناء يذكر كيف أضحت التجارة فى أحاديث النبى هى أطيب مكاسب المؤمن[٥] ، و«أن التاجر الأمين مع الكرام البررة يوم القيامة»[٦] ، ولما كانت الأمانة أساس التجارة القرشية ، فقد طالهم الوعد جميعا ، ثم لابد أن نلحظ أنه لم تفرض ضريبة واضحة خاصة بالتجارة ، أما أبو يوسف فيورد لنا حادثة لها فى سياقنا هذا دلالاتها الواضحة ، حيث يقول :

أن السعر غلا فى زمن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم فقال الناس لرسول الله ﷺ : إن السعر قد غلا ، فوظف وظيفة نقوم عليها ، فقال : إن الرخص والغلاء بيد الله ، وليس لنا أن نجوز أمر الله وقضاءه[٧] .

أما العبيد فقد غامت قضيتهم تماما ، بل ولم يعطهم النبى من أموال الفيىء باعتبارهم فى كفالة غيرهم من الأحرار[٨] ، ثم نجد النبى بعد ذلك يهدى بنفسه أعداداً من العبيد لآخرين ، كما فى أمثلة عديدة ، فقد أهدى العبيد لأخته من الرضاعة (الشيماء) ولغيرها ، وكان يتقبل الهدايا عبيداً أيضا . وهو ما سنجده فى مواضعه من هذا العمل .

ومن ثم خرجت إلى تاريخ العرب تلك الحالة الوسطية التى تتوازن بين النقائض ، على كل المستويات : بين القبلية وبين الطبقية ، بين العشائرية وبين الأممية ، بين الوحدة الشاملة

---

(٥) الشيباني : شرح كتاب السير الكبير ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ج٣ ، ص٢٠١٢ .

(٦) الشيباني : الاكتساب فى الرزق المستطاب ، تلخيص محمد سماحة ، تحقيق محمود عرنوس ، مطبعة الأنوار ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٣٨ ، ص٣٧ .

(٧) أبو يوسف : كتاب الخراج ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص٤٩ .

(٨) ابن سلام : الأموال ، تحقيق محمد حامد الفقى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ ، ص٧٣ .

وبين تضمن تلك الوحدة للقبائل فى شكل حزم وأضمومات، وبين إلغاء الشفعاء واستبدالهم بشفيع واحد هو نبى الإسلام، وبين الوحدانية المطلقة للإله التى لا تقبل شراكة. **ومن ثم كانت التراجعات التى اعترفت بمقدسات القرشيين والتى كانت تعد وثنيات، كالاعتراف بالكعبة، ثم فى فتح مكة يتم تقديس الكعبة ذاتها وحجرها الأسود، وشعائر الوثنيين القديمة كالطواف والسعى، وتكريس المقامات والمواضع كالصفا والمروة وعرفات. لقد باتت الدولة بحاجة إلى معبد مؤسسى له تاريخه، بعد الرجوع عن القدس (أورشليم)، معبد يجتمع عنده جميع العربان، لكنه معبد قريش قبيلة الرسول فى المقام الأول، وسدنته الهاشميون آل البيت.**

كذلك تم الوقوف وسطيا بين نقائض أخرى، وبين البدء بالدعوة إلى عتق الرقيق وجعلهم أنسابا، وبين ما فرضته حروب الدولة من ضرورة استمرار ذلك النظام العبودى، متمثلا فى سبايا تأتى من الحروب وانتصارات الدولة. ثم بين الدعوة إلى عقيدة جديدة تؤسلم جميع الناس تحت رايتها، وبين ضرورات فرضتها الظروف، حيث تم ترك كثير من القبائل على عقائدها فترة من الزمن، لكن مع موادعتها وعقد المحالفات بينها وبين دولة يثرب النبوية، إزاء حرب تلك الدولة مع مكة. مع ما فرضته ظروف أخرى متأخرة فى غزوات النبى علي أصحاب الأراضى الخصبة، وقيمة تلك الأراضى التى كان يمكن أن تبور تماما، مما أدى إلى قرارات باتفاقيات مع أصحابها، تُقرّهم على دينهم وعلى أرضهم، على أن يدفعوا شطر المحصول لحكومة يثرب، وما تطور بعد ذلك فى نظام الجزية.

ثم تطور آخر على ذات الخط بين النقائض، عندما صب الأمر كله بيد دولة يثرب النبوية، وامتلأت خزائنها بالخيرات، ليأتى نداء جديد بأن من يعلن إسلامه معترفا بوحدانية الله وسيادة رسوله، يضمن سلامة حياته وماله، على أن يدفع الضرائب للدولة فى نظامى الزكاة والصدقة. وهى مجموعة الخطوات التى اقتربت مرة وتباعدت مرة من

القرار بأن الدين عند الله هو الإسلام، وهى مجموعة التوازنات الوسطية التى تأرجحت مع المستجدات والتطورات على أرض الواقع، وتركت بصماتها بين نقائض خلقت فجوات دائمة فى تاريخ الإمبراطورية الإسلامية، كانت تختل معها أثقال الميزان فتتأرجح كفتاه إزاء الموقف الوسطى على الخط الفاصل بين توازنات النقائض. مما أعطى الفرصة دوما لأقدار السياسة وبحرفية وسطاء الساسة المحترفين من رجال الدين، لتبرير مواقف تجد لها بين كفتى الميزان أثقالا مناسبة، حسب تغير الأحوال عبر السنين.

* * *

صحيفة المعاقل

«لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»

(نص بصحيفة المعاقل)

بين بدر وأحد تتوقف سرايا المسلمين عن مداهمة طريق الإيلاف، لكن مع شن حملاتها التأديبية على القبائل. مع ظاهرة جديدة تمثلت فى شرع نظام الاغتيال، باغتيال رؤوس القبائل وأشراف الناس وسراتهم وحكمائهم، وبدأ تطبيق ذلك النظام باغتيال كعب بن الأشرف الذى رثى قتلى بدر شعراً. وتبعه قطع عدد من الرؤوس خاصة بعد وقعة أحد.

وعند العودة الظافرة من بدر الكبرى، كان الوحى يسترسل طالبا من المسلمين اليقظة والاستعداد لقتال أعدائهم، وذلك فى النص ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (٦٠/ الأنفال)، فأما عدو الله وعدو المسلمين فمعروف، وهم ملأ مكة. أما من هم أولئك الآخرون غير الملأ المكى الذين يعلمهم الله ولا يعلمهم سواد المسلمين؟ إنه ما أوضحته الأحداث التالية بنداء النبى ﷺ لرجاله: «من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه»، وهوما تم تنفيذه بالفعل فى عدة رؤوس يهودية، وهو المنحى الذى جاءت مفاصله فى آيات تنسخ حرية الاعتقاد، لتنهى العمل بآيات من قبيل ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٦/ الكافرون)، وتلغى الصفح الجميل والصبر الأجمل، لتؤكد معنى جديداً هو ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (١٩/ ال عمران).

وهى السياسة التى ابتغت انضواء اليهود الكامل، السياسى والعقدى، تحت لواء الدولة الجديدة وسيادة مؤسسها، أو استئصال شأفتهم من يثرب. وهو الأمر الذى كان سببه

الوضع الخاص جداً باليهود، كأصحاب كتاب سماوى ودستور عقدى وأيديولوجيا تاريخية موثقة، وهو ما جعلهم المنكر الدينى الحى لنبوة النبى العربى، مما كان يشكل خطراً دائما وحقيقيا على الدولة الوليدة وأيديولوجيتها العربية. وهو ما صب فى إعلان واضح يسفر عن الهدف، فيما جاء مرويا عن الزهرى عن عروة:

> نزل جبريل على رسول الله ﷺ بهذه الآية: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (٥٨/ الأنفال)، فقال رسول الله ﷺ: أنا أخاف من بنى قينقاع، فسار إليهم ولواؤه بيد حمزة[١].

ومن ثم انجلت غزوة قينقاع عن هجرتهم من يثرب كأول قبائل يهود يتم إجلاؤها عن المدينة، مع استيلاء المسلمين على كراعهم وأسلحتهم وأرضهم. ولكن لأن الرياح لا تأتى عادة بما تشتهى السفن، فقد أجمعت قريش أمرها على قتل محمد، بعد أن طال حصاره لها حتى كاد يقضى عليها، وذلك فى الوقعة المعروفة بوقعة أحد، التى انهزم فيها المسلمون هزيمة مريرة، أدت بالبيهقى إلى تصوير حال يثرب بعد الهزيمة بقول واضح يقول: «.. وفارت المدينة بالنفاق فور المرجل»[٢].

وترنحت الدولة (الطالعة)، وكان لابد من اتخاذ عمل سريع وحاسم ودءوب لا يكل ولا يهدأ، لإصلاح ما أفسدته أحد، وذلك بضرب كل من سولت له نفسه الطمع فى النيل من سلطان الدولة. ولما لم يكن ممكنا الخروج فى ذلك الظرف إلى قريش، والجروح لم تزل طازجة، ومعنويات المسلمين فى حضيضها، فقد اتجه السيف الإسلامى إلى اجتثاث الرؤوس التى أخذت ترتفع وتتطاول على **السلطان المحمدى** فى يثرب أو خارجها، ومن

---

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، حقيق لجنة إحياء التراث العربى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠، ج١، ص٣٥٣.

(٢) البيهقي: دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطى قلعجى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨، ج٣، ص٢١٦.

ثم تدحرجت رؤوس عدة، منها رأس (سلام بن أبى الحقيق) المعروف بأبى رافع، و(أبى عفك عمرو بن عوف)، و(عصماء بنت مروان عقيلة ابن خطمة)، و(خالد بن سفيان) سيد هذيل، و(فاطمة بنت ربيعة) زعيمة فزارة ومحل شرفها وفخرها. ليكون هذا المسلسل من العنف والاغتيالات والتصفية الجسدية، إعلانا عن أن السيف المحمدى وإن كسرت منه الذؤابة فى أحد، فإنه مازال قويا مقتدراً بل وعنيفا، إعلانا عن إصرار لا يتزحزح على استدامة الدولة والحفاظ على مستقبلها، ولو مع التضحية بأرواح كثيرة.

بهزيمة أحد كان لابد من وقفة متأنية، تؤجل - مؤقتا - بعض القرارات، حتى يأتى الله بأمره، ويستعيد المسلمون - إبان ذلك التأجيل - قوتهم وتعافيهم المعنوى. كذلك دفعت الهزيمة فى أحد سيد يثرب ليفصح لرؤوس قريش الصلبة عن الأغراض البعيدة للدعوة، كى لا تتكرر مأساة أحد بهذا العنف. فهذا (أبو قتادة الأنصارى) تهزه مناظر أهله مذبوحين فى أحد، ومشهد الحمزة مبقوراً، فيشير بالتمثيل بجثث قتلى قريش فى أحد، لكن ليرد عليه سيد الخلق ﷺ مفصحا برسالة تقول:

يا أبا قتادة:

«إن قريشاً **أهل أمانة**، من بغاهم أكبه الله تعالى إلى فيه، وعسى إن طالت بك مدة، أن تحقر عملك مع أعمالهم، وفعالك مع فعالهم، ولولا أن تبطر قريش، **لأخبرتها بما لها عند الله**»[٣].

ومن هنا نعود إلى ابن سعد نسمعه وهو يقول فى طبقاته الكبرى: «إن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، وكان **يحب أن يُصرف إلى الكعبة**. . فنزلت عليه: قد نرى تقلب وجهك فى السماء، فلنولينك قبلة ترضاها، فوجه إلى الكعبة. . وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى إلى بيت المقدس. . ونزل فرض

(٣) الحلبي: السيرة . . سبق ذكره، ج٢، ص٥٢٥.

شهر رمضان بعدما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر، فى شعبان، على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ وأمر رسول الله ﷺ فى هذه السنة بزكاة الفطر»(٤).

وهو ذات ما أكده ابن الأثير فى سرده لأحداث العام الثانى للهجرة، ولحظة ابن كثير الدمشقى، وهو يسرد أحداث ينسبها للعام الثانى للهجرة(٥)، فى قوله:

> وفيها ـ أى عام ٢هـ ـ حولت القبلة.. وفيها فرض صيام رمضان.. وفيها فرضت زكاة النصب وزكاة الفطر، وفيها خضع المشركون من أهل يثرب واليهود.. صانعوا المسلمين **وأظهر الإسلام** طائفة كثيرة من المشركين واليهود، وهم فى الباطن منافقون.. قال ابن جرير: وفيها **كتب الرسول** ﷺ **صحيفة المعاقل**، وكانت **معلقة بسيفه**(٦).

إن حديث ابن كثير هنا يحسم أموراً كثيرة مختلف عليها بين كتاب السير والأخبار، فهناك من يشير إلى أن صحيفة المعاقل قد كتبت بين أهل يثرب جميعا وبين المسلمين، وأنها كتبت بعد الهجرة مباشرة، بينما يذهب آخرون إلى توقيتها بنهاية العام الثانى للهجرة. وأهمية حديث المعاقل ترجع لارتباطه بأحداث أهم سببته ونتجت عنه، وقد ذهب ابن كثير فى مبتدأ فصله مع الكثرة القائلة بكتابة المعاقل مبكراً وقت الهجرة، بحيث تبدو يثرب جميعا قد عمها الإيمان، وبحيث يظهر النبى ﷺ سيداً يملك كل مقومات السيادة من الوهلة الأولى، فخضع لسيادته الجميع بما فيهم يهود يثرب، فكتبوا معه معاهدة تعاقلية، يردون فيها كل أمر إليه وحده. وقد ذهبنا فى الجزء الأول من هذه الدراسة ذات المذهب، حتى نبهنا إلى ضرورة إعادة النظر فى تزمين صحيفة المعاقل، الدكتور

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ج٢، ص٣، ٥، ٨.
(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥، مج٢، ص١١٥، ١١٦.
(٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٢، ص١٨٧.

عبد الهادى عبد الرحمن[٧]، وكانت إعادة النظر مدعاة لنتيجة مفادها إن القول بعقد المعاقل عند الهجرة مباشرة، أمر يخالف معطيات الواقع، وشروط الفهم السليم، وكان للرجل فى ذلك فضل غير منكور.

الواقع يقول بمهاجرة النبى ضعيفا متخفيا هاربا من مدينته وأهله، إلى حمى أخواله فى يثرب، ولاجئا مع أتباعه إلى مدينة أخرى غريب عليها. وهو ما يحيط الصورة - التى رسمتها كتب الأخبار والسير لذلك الاستقبال الهائل والطاعة العمياء والكاملة من اليثاربة لسيدهم المكى - بكثير من الشك وعدم القبول. حيث تناقض تلك الصورة الإخبارية بشدة بنود الصحيفة التعاقلية، التى وضعت أمر يثرب جميعا بيد النبى ﷺ. فى ذات الوقت الذى تؤكد فيه ذات الكتب أن غالب أهل يثرب كانوا إما يهوداً أو وثنيين، وإن من دخل منهم فى حلف الدعوة كان فى أعمه من المنافقين أو الدسائس على المسلمين. ومن هنا رجع ابن كثير عما قال فى البداية ليؤخر زمن صحيفة المعاقل إلى السنة الثانية للهجرة، بحيث تبدو الأحداث منطقية بشكل أكثر، وبحيث تبدو النتائج متفقة مع مقدماتها من أحداث، فاختار زمنا تحول فيه المسلمون إلى قوة قادرة على فرض هيمنتها.

وللتحديد أو محاولة التدقيق فى الزمن الذى كتبت فيه المعاقل، نجد أن غزوة قينقاع لم يرد فيها - فى أى رواية إخبارية - أية إشارة لتعاقد المسلمين مع اليهود، كما لم نسمع بمنابذة يهود قينقاع للنبى بنقض العهود، كما حدث فى وقائع أخرى تالية مع قبائل يهودية أخرى. وهو ما يشير إلى أنه حتى غزوة قينقاع لم تكن تلك الصحيفة قد كتبت بعد، ومن **هنا نظن أن تلك الصحيفة قد كتبت ضمن مجموعة الإجراءات الحاسمة مع التراجعات المحسوبة، التى تمت بعد هزيمة المسلمين فى أحد.**

(٧) عبد الهادى عبد الرحمن: جذور القوة الإسلامية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨، وقد ذهب الباحث المتميز إلى توقيت المعاقل بعد غزوة بدر مباشرة.

ومعلوم أن هزيمة أحد قد هزت معنويات المسلمين بعنف، ودفعت المناوئين للتطاول عليهم، لكنها لم تقض على القوة العسكرية الإسلامية التى تنامت وتضخمت منذ بدر الكبرى. وكان مقتل ذلك العدد من المسلمين فى أحد غير ذى تأثير حقيقى، وكان الأمر بعدها أمر معنويات تحتاج إلى ترتيق وإصلاح سريعين. ومن ثم نجد الحكاية الإخبارية تأتينا ببعض الروايات التى تؤكد أن حملة النبى على القبيلة الثانية النضير، جاءت بعد وقعة (بئر معونة)[٨]، ونحن نعلم أن بئر معونة قد وقعت بعد أحد بزمن، وبعد وقعة الرجيع التى وقَّتها الواقدى فى صفر سنة أربع للهجرة[٩]. **ونعلم أيضا أن بنى النضير قد نابذوا النبى بنقض العهود والمواثيق فى تلك الغزوة**[١٠]، **مما يشير إلى أن صحيفة المعاقل كانت قد عقدت قبل غزوة النضير، وفى الزمن الواقع بين غزوة أحد وبين غزوة النضير**، وهو ما يمكن الكشف عنه فى قراءة البيهقى:

> اجتمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبى ﷺ: اخرج إلينا فى ثلاثين رجلا من أصحابك، وليخرج منا ثلاثون حبراً، حتى نلتقى بمكان المنصف، فيسمعوا منك، فإن صدقوا وآمنوا بك، آمنا بك. فلما كان الغد، غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم فقال لهم: إنكم والله لا تأمنون عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا على بنى قريظة بالكتائب وترك بنى النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه فانصرف عنهم[١١].

---

(٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٧٦.
(٩) نفسه: ج٤، ص٦٤.
(١٠) نفسه: ج٤، ص٧٧.
(١١) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٣، ص١٧٩.

ويفهم من الحديث هنا أن يهوداً أرادت اختبار نبوة النبى بالحوار المعرفى والفقهى الدينى، لكن النبى رأى أن يتعامل معهم بمنطق آخر فجرد عليهم كتائبه العسكرية، **وقاتل النضير حتى نزلت على عهد مكتوب معه، ثم أن قريظة رضيت بالعهد دون قتال، ولا نعلم عهوداً تمت سوى صحيفة المعاقل**، وهو الأمر الذى يعضد ما ذهبنا إليه فى توقيع المعاقل إبان محنة تطاول الرؤوس بعد هزيمة أحد. وما يبدو لنا أن المعاقل قد تمت ضمن سلسلة الإجراءات السريعة التى حدثت لعلاج آثار أحد، لرفع روح المسلمين المعنوية، بإخضاع قبائل المدينة جميعا للسلطان النبوى، وتأمين الجبهة الداخلية، فى نفس الوقت الذى قدمت فيه دولة الإسلام تنازلا تراجعيا وضح فى النص: «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»[١٢]. وإذا كان الإخباريون يصرون على ربط صحيفة المعاقل زمنيا بمجموعة أخرى من الإجراءات تمت فى ذات الزمن، مثل تحويل القبلة وفرض الزكاة والصوم العربى.. إلخ، **فمن المحتمل أن تكون تلك الإجراءات بدورها قد تمت ضمن مجموعة التراجعات التى أفرزتها أحد.**

لقد كانت الحسابات التى سبقت الهجرة، واستمرت حتى غزوة بدر الكبرى، تعمل حسابا لقوة اليهود بالمدينة، مما جعل النبى يحاول استمالة اليهود والتقرب منهم لتحييدهم على الأقل. ففرض علي أتباعه صوم يوم الغفران اليهودى (يوم كيبور/ عيد الفصح)، وهو اليوم الأهم والأعظم فى تاريخ اليهود، يوم خروجهم من مصر عبر سيناء لاحتلال فلسطين. بل واتجه النبى محمد ﷺ مع أتباعه وجهة اليهود فى الصلاة، نحو أورشليم القدس، وقد سبق ذلك ورافقه آيات تمجد أنبياء بنى إسرائيل، الذين هم أسلاف اليهود الإسرائيليين وأجدادهم، وتمجد التوراة ككتاب سماوى صادق ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾(٤٤/ المائدة) و﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ (٤٣/ المائدة)، بل وتمجد اليهود ذاتهم بتأكيد أن الله قد فضلهم على العالمين.

(١٢) محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط٥، ١٩٨٥، ص٦١.

ومع ذلك ظل اليهود يهوداً، يستمسكون بدينهم ولا يرضون بمحمد سيداً، رغم كل الإشارات والتوضيحات التى كانت تصر على تأكيد أن محمداً من ذات النسل، فهو الحفيد البعيد لإسماعيل شقيق إسحاق بن إبراهيم، وأن القرابة العرقية قائمة. وأن انتظار اليهود لمخلص نبوى مقبل يجد صداه فى النبى العربى الذى يحقق نبوءة التوراة. حتى جاءت وقعة (أحد) لتستدعى تحركا سريعا يكفل انضواء هؤلاء التام لسلطان الدولة لتأمين المدينة داخليا فتمت صحيفة المعاقل كما جاء خبرها السريع عند البيهقى، مع تحرك آخر على مفصل قريش يهدىء من عوارمها ويطمئنها، فكان أن تم إلغاء الصوم اليهودى مع تقرير الصوم العربى الرمضانى، كما تم تحويل القبلة إلى كعبة مكة.

يقول ابن سعد: «نزل فرض شهر رمضان بعدما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر، فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجر رسول الله»(١٣). ويؤكد جميع أهل السير أن وقعة بدر الكبرى كانت فى شهر رمضان من العام الثانى للهجرة، وهو ما يقوله ابن الأثير: «وفى السنة الثانية كانت وقعة بدر الكبرى فى شهر رمضان فى السابع عشر وقيل التاسع عشر وكانت يوم الجمعة»(١٤).

لكن؛ إذا كان الصيام الرمضانى قد فرض فى شعبان من ذلك العام، وكانت وقعة بدر الكبرى قد وقعت فى رمضان من ذات العام، فلا أقل من أن نسمع من كتب الأخبار والسير عن ظروف المسلمين وهم صائمون. ومتى أهلوا بالصيام ومتى أفطروا، وهل قاتلوا صائمين أم مفطرين، وهى العادة مع كتب الأخبار التى تفصل تلك الأمور وتدقق بشأنها فى كل غزوة، مثلما حدث بشأن تأخير الصلاة فى غزوة (قريظة)، وما حدث بشأن الصيام الرمضانى فى فتح مكة، حيث تجد تفاصيل صغيرة ودقيقة. والمعنى المقصود هنا هو أن الصيام الرمضانى لو كان قد فرض قبل بدر الكبرى، بينما بدر قد وقعت فى شهر

---

(١٣) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج١، ج٢، ص٨.
(١٤) ابن الأثير الكامل.. سبق ذكره، ج٢، ص١١٦/ معلومات النشر.

رمضان، لوجدنا لمسألة الصيام مكانها فى سرد الأحداث البدرية وهو ما لم يحدث مما يعنى وجوب تأجيل الصيام الرمضانى والزكاة وتحويل القبلة وصحيفة المعاقل معا إلى الفترة التى افترضناها، خاصة مع ارتباط تلك الأحداث فى سياق واحد يناسب بعضه بعضا، وهو الفرض الذى يقبل الخطأ كما يقبل الصواب.

وإعمالاً لذلك كله، فإن الآيات الكريمة التى تحدثت عن التوراة وهداها ونورها، وعن تفضيل الله لبنى إسرائيل، والقص الطويل عن أنبياء التوراة من إبراهيم إلى إسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط وموسى وداود وسليمان. . إلخ. كل ذلك أفرغ محتواه فى الصحيفة التى عقدت بين جميع أطراف القوى فى يثرب، والتى كانت أولا نتيجة لتحول حال المسلمين بعد بدر من ضعف إلى قوة، ومن لاجئين إلى مواطنين على ذات الدرجة. وكانت ثانيا: محاولة لفرض الهيمنة وإعادة الأمر كله لسيد المدينة الجديد بعد التهاوى المعنوى فى هزيمة أحد، لتأمين الجبهة الداخلية ليثرب مؤقتا. كما كان لوقعة أحد نتيجة أخرى هامة، تمثلت فى تحويل القبلة إلى الكعبة - هذا إن كان فرضنا صادقا - فى رسالة واضحة لكل الأعراب، أن قطع طريق الإيلاف وضرب مصالح الملأ الأنانية، لا يعنى بالضرورة ضرب الرمز الدينى المكى، ورسالة موجزة برقية لأهل مكة أنفسهم تهدىء من روعهم إزاء سيد يثرب. أما أصحاب السير والأخبار فلم يجدوا سببا واضحا يعلل التحول عن أورشليم إلى مكة، سوى ما ردده الإخباريون مع الطبرى أن النبى: «كان يحب أن يصلى قبل الكعبة، فأنزل الله. . قد نرى تقلب وجهك فى السماء»[١٥].

ثم جاء التحول إلى الصيام العربى ليلتقى مع تقديس يوم العروبة (يوم الجمعة وكان يسمى يوم العروبة) فى وقت مبكر، ليعلن فى إشارات واضحة منحى التحول، أما أبرز الشواهد على أن صحيفة المعاقل قد عقدت فى ظرف يستعرض فيه المسلمون قوتهم، أنها

---

(١٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، ذ.ت، ج٢، ص٤١٦.

علقت بسيف رسول الله ﷺ وهو ما لم يكن ممكنا زمن الهجرة عندما كان المسلمون قلة ضعيفة لاجئة إلى يثرب، وكان تعليقها بسيف رسول الله رسالة ذات معنى لجميع سكان يثرب وللمنافقين. ولحق ذلك جميعه تدريب آخر للمسلمين على نظام الدولة المؤسسية، ففرضت الضرائب (الزكاة)، أما أهم بنود الصحيفة التى كانت ترفرف على سيف النبى، فهى تلك التى قالت فى مفتتحها: «هذا كتاب من محمد النبى الأمى» وهو ما يشير إلى المعاقل كفرمان صادر من سلطة النبى السيادية. فرغم أن المعاقل كانت بين أطراف، فإن تلك الأطراف لم تكن متكافئة، لأن صيغتها وأسلوبها وإيحاءاتها، ناهيك عن ذلك الاستهلال فى مفتتحها تشكل قراراً صادراً من سيد قوى فوق بقية الأطراف، فهى بمثابة كتاب أمان من النبى لسكان يثرب. إضافة إلى أن الصياغة لم تقل: (هذا كتاب من محمد بن عبدالله)، إنما فرضت صفة النبوة على جميع الموقعين أدناها، وهو الأمر الذى استثمر رغبة اليهود والمشركين اليثاربة فى الأمان بعد سل سيف الاغتيال وتجريد الكتائب بعد أحد، ليمنحهم سلاما مشروطا بسيادة المسلمين ونبيهم، وهو ما توضحه قراءة بقية بنود صحيفة المعاقل.

وضمن تلك البنود يأتى النص الذى يؤكد أن المعاقل قد تمت..

« .. بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون **معاقلهم الأولى**، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين (ويتم ذكر كل بطن من البطون وكل دار)، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وأنه من **تبعنا من يهود**، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم،.. **وإنكم مهما اختلفتم فى شىء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد** ﷺ وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، **وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين**، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم،.. وإن بطانة اليهود كأنفسهم،

وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد . . وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار ، يخاف فساده ، فإن **مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله**»[١٦] .

والمطالع لهذه البنود سيلمس فوراً أمراً شديد الأهمية ، حيث يتضح حصول المهاجرين على أساس اقتصادى يرفع عبئهم عن إخوانهم اليثاربة ، وإلغاء نظام المؤاخاة نتيجة ذلك . فالنص يؤكد «المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط ، ومن ثم أصبح على الأنصار أن يعودوا إلى معاقلهم الأولى «على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى» . أما البند الذى يؤكد بوضوح أن تلك الصحيفة لم تكن قد عقدت قبل بدر الكبرى ، فهو تلك السلطة الواضحة فى إرجاع كل الأمور بالمدينة إلى النبى ﷺ حتى الخروج من المدينة لليهودى لا يتم إلا بإذن محمد ﷺ . والأكثر بلاغة فى كل هذا ، أن الصحيفة سردت البيوت والأفخاذ اليثربية فى معاقلها ، وسط تلك الأفخاذ والبيوت تم وضع المهاجرين كأحد أبناء البلد وكفخذ من الأفخاذ اليثربية الأصيلة ، بحيث **اكتسب المهاجرون بصحيفة المعاقل وجودهم الشرعى ، ليتحولوا من لاجئين إلى مواطنين** ، بل أفصح الأمر عما هو أشد بيانا ، **فغدا الأنصار تابعين لا مجيرين ومتبوعين** .

وكانت النغمة العروبية الواضحة فى صيام رمضان وتقديس يوم العروبة ، ثم العودة عن اغتراب القبلة الأورشليمية إلى الكعبة العربية المكية ، إشارة واضحة إلى بدء التخلى عن ممالأة يهود المدينة . والإفصاح بتلك الإشارات القوية إلى أن الأمر كله عائد فى النهاية إلى أهل الله القرشيين ، وأن القدس كله فى محل كعبتهم ، وهى الطمأنة لقريش وتأكيد أن الإسلام لا يهدد أبداً مصالح مكة السياسية ولا الدينية المرتبطة دوما بالاقتصادية ، وأن خط سير التاريخ يحث خطاه إلى نتائجه النهائية ، وأن الحروب جميعا ما كانت إلا لتوحيد العرب بزعامة قرشية يمثلها أشرف الخلق وسيدهم المصطفى ﷺ .

---

(١٦) ابن كثير : البداية . . سبق ذكره ، ج٣ ، ص٢٢٣ ، ٢٢٤ .

أما المعجزة القومية الكبرى التى قدمتها الدعوة إلى العرب، فتتمثل فى إعلان أن رب الأديان الكبرى المحيطة بالجزيرة، هو رب واحد، هو رب العالمين، وأن هذا الرب قد اختار محمداً العربى، وأنه تكلم إليه باللغة العربية. ليسحب بذلك الامتياز الذى كان قاصراً حتى ذلك الوقت على اليهود والمسيحيين ليمنحه للعرب المسلمين، الذين وصفهم ذلك الإله العالمى بأنهم خير أمة أخرجت للناس.

* * *

الباب الأول

دية بني عامر

الوقائع من أُحُدٍ إلى الخندق

حروب دولة الرسول

الجزء الثاني



غدر العربان

«ما أنا والله قتلت خبيباً، لكن أبا ميسرة أخا بنى عبد الدار أخذ الحربة فجعلها فى يدى ثم طعنه».

(معاوية بن أبى سفيان)

بينما كانت السرايا والغزوات تضيف باستمرار مزيداً من التراكم المادى والسلاح لدولة النبى اليثربية، فإنها كانت - من جانب آخر - تسهم باستمرار فى ضعضعة الحكومة المكية وسيرها نحو الانهيار. هذا إضافة إلى تعبئة القبائل المجاورة لمكة، والتى آبت - رعبا وخوفا وربما طمعا - إلى حلف يثرب، مثل قبائل مزينة وجهينة، ناهيك عن قبائل أخرى حالفت يثرب طائعة مختارة كراهية فى قريش، مثل خزاعة (الحارس القديم للكعبة المكية)، والتى سبق وخلعتها قريش وأقصتها عن مكة إقصاءً، ومن هنا وجدت خزاعة فى محمد وفى يثرب حليفا تحارب من خلاله قريشا، فلعبت دوراً تجسسيا عظيما على قريش لصالح يثرب، كان له أثر بعيد فى حسم أمور كثيرة لصالح الدولة اليثربية. ومع هذا وذاك، تمت عقود الموادعات بين يثرب وقبائل الساحل التى فضلت الخضوع ليثرب، رغبة فى مغانم قوافل قريش المارة بطريق الساحل، وتجنبا لحرب يؤْذنون بها من الله ورسوله.

وقد ترافقت مع تلك الخطوات الخطوة الضرورية والحاسمة لهيبة الدولة فى يثرب وسيادتها، بضرب المنازع الأعظم داخل يثرب، اليهود. الشاهد الدينى القدسى الحى، صاحب دستور ينتسب للسماء رفض التنازل عنه أمام الدستور القرآنى الذى ينسب ذاته بدوره إلى السماء وإلى ذات الإله. وهو ما كان من غير الممكن استمراره فى ظل دولة توحيدية موحدة تحكم بدستور واحد وتعبد إلها واحداً وتنتظم تحت إمرة قائد واحد، ومن

ثم شكلت كل تلك الخطوات المحسوبة بدقة وإحكام هيبة عظيمة للدولة الطالعة، ساعدت على اتساع سطوتها فى المحيط العربى. حتى جاءت وقعة أحد بضربة موجعة وغير متوقعة على جدول الحسابات، وهو الأمر الذى أدى إلى ترنح هيبتها فى نفوس الأعراب، وهو الأمر الشديد الخطورة آنذاك. ولم يكن مسلسل الاغتيالات الذى طال الرؤوس من القبائل بكاف لإقناع العربان، بالكفاية التسعية للدولة، فكان أن شهدت تلك المرحلة بداية التطاول على الدولة اليثربية الطالعة.

وبينما المسلمون يلمون شعثهم فى خطوات متسارعة وحاسمة، بعقد المعاقل، وتكثيف السرايا المسلحة، للإعلان أن الدولة لم تزل قوية، وأنها وإن انكسرت فى أحد، فإن يراعها لم يزل بإمكانه أن يطول ويضرب ويؤدب لإخضاع القبائل. خرجت بسرعة سرية أبى سلمة إلى بنى أسد فى المحرم من السنة الرابعة للهجرة ـ بحسابات الواقدى ـ وبعد شهر واحد من هزيمة أحد.

لم تكن جراح أبى سلمة قد أبلت بعد، وكان الجرح الذى أصابه فى أحد بعضده لم يزل طازجا، وأمره النبى بالخروج على رأس السرية برجالها المائة والخمسين إلى مضارب بنى أسد. وعند وصوله مضاربهم فزع الأسود من سرية الرجل الجريح وهربوا تاركين نعما كثيرة من الإبل والشياه، غنيمة للمسلمين، وأسر منهم ثلاثة.

ثم يحكى لنا (عمرو بن أبى سلمة) عن أبيه، أنه «لما دخل المدينة انتفض به جرحه فمات، لثلاثة بقين من جمادى الأولى، فاعتدّت أمى حتى خلت أربعة أشهر وعشر، ثم تزوجها رسول الله ﷺ ودخل بها فى ليال بقين من شوال. فكانت أمى تقول ما بأس من النكاح فى شوال والدخول فيه»[1]. والمعلوم أن أم سلمة كانت امرأة شديد الجمال قوية الشخصية ذربة اللسان فصيحته. ثم تأتى سرية عاصم بن ثابت إلى عضل والقارة.

عن أبى هريرة قال:

---

(١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٦٤.

بعث النبى ﷺ **سرية عينا**، وأمر عليهم عاصم بن ثابت . .
فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة، ذُكروا لحى من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، فاقتصوا آثارهم . . حتى لحقوهم . . وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل رجلا منكم، فقال عاصم : أما أنا فلا أنزل فى ذمة كافر، اللهم اخبر عنا رسولك . فقاتلوهم حتى قتلوا عاصما فى سبعة نفر بالنبل، وبقى خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق . فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذى معهما : هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجروه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه . وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قاتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً . . **فخرجوا به من الحرم** ليقتلوه . . »[٢] .

والنص أعلاه أورده ابن كثير نقلا عن الواقدى، لكن ابن كثير لحظ اختلافا بين رواية الواقدى وبين رواية ابن إسحاق، فقال :

ولنذكر كلام ابن إسحاق ليعرف ما بينهما من التفاوت والاختلاف . .

قدم على رسول الله **بعد أحد** رهط من عضل والقارة، وقالوا : يارسول اله، إن فينا إسلاما، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام . فبعث

(٢) نفسه : ص٦٤، ٦٥ .

رسول الله ﷺ معهم نفراً ستة من أصحابه . . فخرجوا حتى إذا كانوا على الرجيع، ماء لهذيل بناحية الحجاز . . غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيل، فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم. فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا: **إنا والله** ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم **عهد الله وميثاقه** ألا نقتلكم. فأما مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت، فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً. . ثم قاتل حتى قتل، وقتل صاحباه . . أما خبيب وزيد بن الدثنة وعبدالله بن طارق، فلانوا ورقوا ورغبوا في الحياة وأعطوا بأيديهم، فأسروهم. ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران نزع عبد الله بن طارق يده من القران، ثم أخذ سيفه واستأخر القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره بالظهران. وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة، فباعوهما قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة . . وذكروا أنهم لما صلبوا زيد بن الدثنة رموه بالنبل ليفتنوه عن دينه، فما زاده إلا إيمانا وتسليما[٣].

والتضارب هنا واضح جلي، في شأن الغرض الذي خرج له المسلمون الستة إلى ماء الرجيع بعضل والقارة، فهناك قول: إنهم كانوا جواسيس لرسول الله (سرية عينا)، يستقصون أخبار هذيل، وهو فيما يبدو ما لم يرتح له الطبري وابن الأثير وابن إسحاق. ربما لوجوب أن تأتي الأخبار المطلوبة من السماء دون عناء، أو بخبر الملاك جبريل، الذي كثيرا ما ذكرت عنه صحف السير أنه كان يقوم بمثل تلك المهام للدولة وزعيمها. ومن هنا قال هؤلاء بخبر آخر، هو أن ما حدث كان كمينا محبوكا، حبكته لحيان ذلك البطن الهذلي،

---

(٣) نفسه: ص٦٦ : ٦٨، انظر أيضاً ابن الأثير: الكامل . . سبق ذكره، ج٢، ص١٦٧.

بغرض النيل من هيبة الدولة التى اهتزت بعد أحد، ويبدو لنا أن ذلك الإجماع يجنح إلى الصواب، إذا ما تذكرنا أن العربان لا تترك ثأرها، وأن محمداً ﷺ سبق وأرسل سرية اغتالت من هذيل رأسها (خالد بن سفيان ابن نبيح الهذلى)، وهو ما يبرر الحدث ويفسره. فما وصل الصحابة الأجلاء إلى ماء الرجيع، حتى برزت لهم هذيل، لتقتل منهم أربعة، وتأسر اثنين تسلمهما لقريش هما خبيب بن عدى وزيد ابن الدثنة.

ويخبرنا ابن هشام أن حجيراً قد ابتاع خبيبا، وأن صفوان بن أمية ابتاع زيداً، وتم قتلهما ثأراً، ويقول ابن هشام: إنهم لم يعجلوا فى قتلهما **تعظيما لحرمة الأشهر الحرم**، فلما انقضت خرجوا بخبيب من جوار الحرم الذى وضعوا قواعد أمنه، حيث صلبوه على خشبة بعيداً عند ثنية التنعيم. وكان قاتله هو معاوية بن أبى سفيان، الذى حاول أن يبرىء نفسه بعد ذلك بزمان، عندما دار الزمن دورته ليملك أعنة دولة الإسلام، فكان يقسم «والله ما أنا قتلت خبيبا، لكن أبا ميسرة أخا بنى عبد الدار أخذ الحربة فجعلها فى يدى ثم طعنه»(٤).

لقد استهانت هذيل بالدولة اليثربية، **وما جاءت استهانتها إلا بعد هزيمة أحد**، وإزاء تلك الاستهانة انطلق لسان شاعر النبى حسان بن ثابت يهجو لحيان الهذلية، معبراً عما آل إليه الأمر فى يثرب يومذاك ليقول:

إن سرك الغدر صرف لا مزاج له ... فأت الرجيع فسل عن دارلحيان

قوم تواصلوا بأكل الجار بينهم ... فالكلب والقرد والإنسان مثلان

لو ينطق التيس يوما قام يخطبهم ... وكان ذا شرف فيهم وشان(٥)

وكالمعتاد فى مثل ذلك الأحوال، كان لابد من شىء يبلسم الجراح، ولو بالجنوح إلى الخيال تستمد منه قوة الاستشفاء النفسى، بأسطورة تأتينا فى شكل خبر يتم تناقله بين كتاب

---

(٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٣، ص٢٢٦.

(٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره. ج٤، ص٧٠.

السيرة عن عاصم بن ثابت، الذى ثبت للهذليين حتى قتل رافضا أن يعطى بيديه. وكانت سلافة بنت سعد بنت سهيل قد نذرت حين أصاب عاصم ولديها فى أحد، لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن فى قحفه الخمر. لكن هذيلا لا تستطيع أن تأتى برأس عاصم، لماذا؟ لأن الله قد علم بنذر سلافة، فأرسل إلى جسد الشهيد جنوداً تحميه من هذيل، فى شكل زنابير تجمعت على الدم المراق، فلم يقدروا منه على شيء[6]. ولا يرضى ابن الأثيربحماية الزنابير وينتهى الأمر، بل يأتينا بخبر أشد أسطرة فيقول إن الوادى قد ابتلعه، لأنه كان قد عاهد الله ألا يمس مشركا ولا يمسه مشرك، فمنعه الله فى مماته كما منع فى حياته[7].

وهو الأمر الذى حدث له نموذج شبيه مع الأسير الثانى خبيب، فهذه ماوية مولاة حجير تحكى بعد ذلك بزمان روايتها العجيبة فتقول: «حبس خبيب بمكة فى بيتى، فطلعت عليه يوما وإن فى يده لقطفا من العنب، أعظم من رأسه، يأكل منه، وما فى الأرض يومئذ حبة عنب». ليردف البيهقى الذى آل على نفسه جمع العجائب، راوياً عن أمية الضمرى الذى حكى لولده وعن ولده الذى حكى لحفيده، أنه تسلل ليلا لإنقاذ خبيب عن الصليب، ويقول: «جئت إلى خشبة خبيب فرقيت فيها، وأنا أتخوف العيون، فأطلقته، فوقع على الأرض، ثم اقتحمت فانتبذت قليلا ثم التفت، فكأنما ابتلعته الأرض، فلم يذكر لخبيب رمة حتى الساعة»[8]. هذا رغم أن رواية ابن كثير توضح لنا دون لبس كيف اختفى جسد خبيب، برواية أمية الضمرى ذاته، الذى أكد هذه المرة أنه حمل جثة خبيب على ظهره وسار به حتى تنبه له الناس، فأسرع برميه على الأرض، ثم يقول ما نصه: «وأهلت عليه التراب برجلى»[9].

---

(٦) نفسه: ص٦٥.

(٧) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج٢، ص١٦٨.

(٨) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٣، ص٣٣١.

(٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره. ج٤، ص٧٢.

ثم يأتى يوم بئر معونة

وهو يوم قبائل سليم، التى تكاثرت عليها سرايا يثرب وغزواتها تقفو بعضها بعضاً، عندما تداعى المسلمون فى أحد لتجدها سليم فرصة الثأر وشفاء الغليل. فيما رواه أنس بن مالك، ويشير إلى أن سليم قد سلكت مسلك هذيل ذاته، فذهب بعضهم إلى المدينة يستمد رسول الله ﷺ مدداً على عدو لهم، معلنين اتباعهم له. فيمدهم النبى بأربعين من خيار المسلمين، ومعهم رسالة يحملها خال النبى حرام بن ملحان الأنصارى، إلى سيد بنى عامر (عامر بن الطفيل)، الذى ما إن يطالع الرسالة حتى يعمل سيفه وسيوف سليم فى الأربعين مسلما عند بئر معونة، ثم يبقى على مسلم واحد هو عمرو بن أمية الضمرى، فقط ليقل له متحديا:

> **ارجع إلى صاحبك فحدثه**، فخرج عمرو
> إلى رسول الله ﷺ فأخبره.

وحديث بئر معونة بدوره - فى كتبنا الإخبارية - يحمل بعض التضارب، فرغم أن البيهقى بحديث أنس بن مالك قد قال: إن سليم استمدت النبى المدد على عدو لها[10]، فإن ابن كثير يروى عن ذات الراوى أنس بن مالك رواية أخرى تقول:

> بعث رسول الله ﷺ سبعين رجلا لحاجة، يقال لهم القراء، فعرض لهم حيان من بنى سليم: رعل وذكوان، عند بئر يقال لها بئر معونة، فقال القوم: والله ما أردنا إياكم، وإنما نحن مجتازون فى حاجة للنبى ﷺ فقتلوهم، فدعا النبى عليهم شهراً فى صلاة الغداة، وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت[11].

(١٠) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٣، ص٣٤٢، ٣٤٨.
(١١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره. ج٤، ص٧٣.

وهنا يختلف السبب، كما يختلف عدد المسلمين، هذا إضافة إلى رواية ثالثة تقول:

قدم أبو براء، عامر بن مالك بن جعفر، ملاعب الأسنة، على رسول الله ﷺ بالمدينة، فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه، فلم يسلم، ولم يبعد. وقال: يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك.. فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة المعنق، ليموت فى أربعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين.. فلما نزلوا بعث حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر فى الكتاب حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا.. فاستصرخ عليهم قبائل من سليم من عصية ورعل وذكوان والقارة، فأجابوه إلى ذلك. حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم حتى قتلوا عن آخرهم.. وكان فى سرح القوم عمرو بن أمية الضمرى.. وأخذ عمرو أسيراً فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه فيما زعم(١٢).

والرواية هنا تلتقى إلى حد كبير برواية عضل والقارة فى أسبابها، وهو الأمر الذى لا يمكن قبوله، **حيث يقع المسلمون فى الخطأ ذاته مرتين**. ومن غير المعقول أيضا تصور النبى ﷺ يرسل ببساطة خيرة رجاله إلى سليم، التى أخذها الرعب من النبى كل مأخذ، بعد السرايا والغزوات المتتالية عليها. كما أنه من غير المستساغ أبداً أن يرسل النبى سبعين رجلا ليعلموا سليم أو عامر القرآن وقواعد الإسلام، بينما كان يكفى شخص واحد أو شخصان لأداء تلك المهمة، بدلا من أن يفقد من رجاله عدداً لم يفقده فى معاركه الكبرى. ثم لا

(١٢) نفسه: ص ٧٤، ٧٥.

يمكن أن نفهم كيف يذهب سيد من بنى عامر هو ملاعب الأسنة، ليأخذ المسلمين إلى سيد آخر من بنى عامر أيضا هو عامر بن الطفيل، ليستصرخ عليهم عامر بن الطفيل العامرى قبائل أخرى هى قبائل سليم؟ إن هذا الإرباك لا ينجلى إلا إذا تصورنا مؤامرة قد عقدتها سليم مع بنى عامر، فما كان ممكنا أن يستجيب النبى لدعوة كتلك من سليم، إنما كان ممكنا أن يستجيب لبنى عامر، خاصة إذا كان الداعى عامرياً فى كرامة وشهرة ملاعب الأسنة، ليأخذ المسلمين لتقتلهم سليم.

كما يجب ألا نذهب مع القول أنه دعاهم ليعلموا العامريين الإسلام فكان يكفى فرد أو اثنان كما قلنا، لذلك يجب قبول الرواية التى تقول أن ملاعب الأسنة قد استمدهم على عدو له، وللتشجيع - ربما - تم تحديد هذا العدو بعدوة النبى سليم تحديداً، لمزيد من حبكة المؤامرة وجعلها قادرة على الإقناع والتمرير.

ومما يعضد ذلك التفسير المفترض لما حدث، هو أمر ذلك الحلف الغريب الذى تتحدث عنه كتب السير والأخبار، والذى تم عقده بين النبى ﷺ وبين بنى عامر، حيث يستمر ابن كثير فى سرد قصة يوم بئر معونة ليقول: إن عمرو بن أمية الضمرى، الذى أطلقه عامر بن الطفيل ليبلغ رسالته المتحدية للنبى ﷺ «خرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة، أقبل رجلان من بنى عامر حتى نزلا فى ظل هو فيه، وكان مع العامريين عهد من رسول الله ﷺ وجواره، ولم يعلمه عمرو بن أمية. وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ قالا: من بنى عامر، فأمهلهما حتى إذا ناما، عدا عليهما وقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثأراً من بنى عامر.. فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ أخبره الخبر، فقال رسول الله ﷺ: لقد قتلت قتيلين لأدينهما»[١٣].

ومرة أخرى لا يترك مأثورنا حديث الأحاجى المعجز، فيقول الإخباريون: «لما قتل الذين ببئر معونة وأُسر عمرو بن أمية الضمرى، قال له عامر بن الطفيل: من هذا؟ وأشار

(١٣) نفسه: ص٧٥.

إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة قال: لقد رأيته بعدما قتل، رفع إلى السماء حتى إنى لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض»(١٤).

وهكذا تروى المعجزة على لسان من لقبته كتبنا التراثية بعدو الله (عامر بن الطفيل)، **ومع ذلك لم يؤمن الرجل رغم ما رأى؟!** وبينما (البيهقى) يزيدنا إعجازاً بقوله: إن النبى دعا على ابن الطفيل فأصابه الطاعون وذلك فى عام الوفود سنة تسع للهجرة. هذا بينما نجد ابن الأثير يورد سبباً آخر لموت ابن الطفيل، هو أن أبا براء ملاعب الأسنة الذى أجار مسلمى بئر معونة قد رأى فى قتل ابن الطفيل لهم تعديا على إجارته، فطعن ابن الطفيل وهو على فرسه، فسقط ابن الطفيل ليموت وهو يقول: «إن مت فدمى لعمى»(١٥).

ومع يقظة سليم وتحفز عامر، ومع ضرورة اتخاذ موقف ردع سريع برزت سياسة الاغتيال مرة أخرى، لتنتقم لشهداء المسلمين، فيرسل النبى يستدعى عمرو بن أمية الضمرى وسلمة بن أسلم بن حريش، ليوجههما وجهة أخرى لقطف رأس كبير بأمره القائل: «اخرجا حتى تأتيا أبا سفيان بن حرب، فإن أصبتم منه غرة فاقتلاه». ويحكى ابن الضمرى فيقول: «فأتينا مكة فطفنا أسبوعا وصلينا ركعتين فلما خرجت لقينى معاوية بن أبى سفيان فعرفنى(١٦)، فصرخ بأعلى صوته: هذا عمرو بن أمية.. فقاموا فى طلبى وطلب صاحبى، فقلت له النجاء، هذا والله الذى كنت أحذر، أما الرجل فلا سبيل إليه فانج بنفسك، فخرجنا نشتد حتى أصعدنا فى الجبل، فدخلنا فى غار فبتنا فيه ليلتنا وأعجزناهم هرباً، فرجعوا وقد استترت دونهم بأحجار..»(١٧).

ويتمكن ابن الضمرى من الوصول إلى منطقة أبعد، عند غليل ضجنان، فيدخل غاراً يبيت فيه ويحكى: «فبينما أنا فيه إذ دخل علىّ رجل من بنى الديل بن بكر، أعور، طويل،

(١٤) الموضع نفسه، انظر أيضاً ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج٢، ص١٧٢.
(١٥) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج٢، ص١٧٢.
(١٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٧٢.
(١٧) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٥١.

يسوق غنما له، فقال: من الرجل؟ فقلت رجل من بنى بكر، قال: وأنا من بنى بكر، . . ثم اضطجع معى فيه، فرفع عقيرته يتغنى ويقول:

ولست بمسلم مادمت حيا	ولست أدين دين المسلمينا

فقلت: «سوف نعلم، فلم يلبث الأعرابى أن نام وغط، فقمت إليه فقتلته أسوأ قتلة قتلها أحدٌ أحداً، **قمت إليه فجعلت سية قوسى فى عينه الصحيحة ثم تحاملت عليها حتى أخرجتها من قفاه**»[١٨] . ويتابع روايته «ثم خرجت حتى هبطت فلما أسهلت فى الطريق، إذا رجلان بعثتهما قريش يتجسسان الأخبار، فقلت: استأسرا، فأبى أحدهما فرميته فقتلته، فلما رأى الآخر ذلك استأسر، فشددت وثاقه ثم أقبلت به إلى النبى ﷺ . . وقد ربطت إبهامه بوتر قوسى، فلقد رأيت النبى يضحك، ثم دعا لى بخير»[١٩] .

ومع فشل بعثة ابن الضمرى لقتل سيد مكة، كان لابد من عمل سريع إزاء قبائل سليم التى باتت ساهرة الأجفان تتوقع الثأر الآتى لا محالة، وبالفعل جاءها الغزو فجأة بقيادة النبى نفسه، لكن لتهرب سليم جميعا ويتركوا منازلهم وأنعامهم فيجمع المسلمون أنعامهم ويعودوا بها إلى يثرب فيما عرف بغزوة (قرقرة الكدر)[٢٠] .

وكان من غير الممكن الاستمرار فى الانتظارطويلا للإيقاع بالناس وقعة كبرى تعيد للدولة هيبتها، وتعيد العربان إلى سابق انكماشهم. ومن ثم كان لابد من تحديد هدف كبير، ولإيجاد سبب مناسب يكون مدخلا إلى ضربة كبرى تعيد إلى المسلمين ثقتهم فى أنفسهم، وتلقى الرعب فى قلوب الذين كفروا.

---

(١٨) الموضع نفسه.

(١٩) ابن كثير: البداية . . سبق ذكره، ج٤، ص٧٣.

(٢٠) الحلبي: سيرة . . سبق ذكره، ج٢، ص٤٨٠.



غزوة النضير

«اخرجوا من بلدى فلا تساكنوننى بها . . وقد أجلتكم عشراً فمن رُئى بعد ذلك ضربت عنقه» .

(رسالة النبى إلى بنى النضير)

مرة أخرى نعود إلى خبر ذلك العهد الغامض والملتبس بكتبنا الإخبارية، والذى عُقد بين النبى ﷺ وبين بنى عامر، ورغم المكيدة التى راح ضحيتها ما بين الخمسين والسبعين من خيار المسلمين فى بئر معونة، والتى دُبرت بشكل غير واضح فى مأثورنا، وقاد المذبحة الزعيم العامرى (عامر بن الطفيل) . **فإن أمية الضمرى عندما قتل عامريين فى طريق عودته، وجد النبى غير راض عما فعل، بل أعلن أن عليه تأدية الدية فى العامريين القتيلين، لأن بينهما عهداً، وهو العهد الذى لم يعلم به الصحابة، وهو ما يوضحه عدم علم ابن الضمرى الذى قتل العامريين .**

والأكثر التباسا أن يقول الطبرى : «إن عامر بن الطفيل كتب إلى رسول الله ﷺ : **إنك قتلت رجلين لهما منك جوار وعهد فابعث بديتهما**»[1] .

الأمر هنا غير مقبول إطلاقاً، فعامر بن الطفيل يكيد للمسلمين، ويقتل بمعاونة قبائل سليم سبعين مسلماً، ثم يرسل للنبى طالباً الدية لعامريين قتلهما الضمرى ثأراً؟! ويصبح موقف النبى ﷺ غير مفهوم فى إصراره ليس على الانتقام وإنما فى أداء الدية لبنى عامر!! كما سبق وحدث بغزوته على أهل الرجيع ودار لحيان **انتقاماً لسبعة فقط من رجاله** فى

(١) الطبري : تاريخ . . سبق ذكره، ج٢، ص٥٥١ .

مؤامرة مثيلة . وعليه فما يبدو لنا أن السبب الواضح فى الإصرار على دفع الدية للمعتدى ، كان إيجاداً لسبب هو أعظم وأجل ، ألا وهو إجلاء بنى النضير ، تلك القبيلة اليهودية الكبرى عن يثرب . وخاصة أن النضير كانوا حلفاء الأوس ، وكان المنافقون من الأوس كثر ، وهم من كانوا وراء غليان المدينة بالنفاق بعد هزيمة أحد . خاصة أن كتب الأخبار التى أفاضت فى أمر دية بنى عامر ، قد توقفت تماماً عن ذكرها بعد غزوة النضير ، **حتى لا نعلم بعدها هل تم أداء تلك الدية فعلاً أم لا؟** كما لو كان أصحاب السير والأخبار يعلمون بدورهم أن دية بنى عامر إنما كانت المدخل لإعلان الحرب على النضير ، لتطهير يثرب ، وتقليم أظافر المنافقين بإبعاد حلفائهم الأقوياء ، ثم ـ من جانب آخر ـ تقوية الروح المعنوية للمسلمين بنصر وغنائم تعوضهم عن هزيمة أحد .

ويتضح دور دية بنى عامر والإصرار عليه فيما أدت إليه من نتائج باهرة ، توضحها رواية الطبرى عن النبى ﷺ عندما ذهب إلى بنى النضير ، يستعين بهم فى أداء دية العامريين ، بما أصبح بينهم وبين الرسول من تحالف فى صحيفة المعاقل ، فتقول الرواية :

> فانطلق رسول الله ﷺ إلى قباء ، ثم مال إلى بنى النضير مستعينا بهم فى ديتهما ، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار ، فيهم أبو بكر وعمر وعلى وأسيد بن حضير ، . . فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى دية ذلك القتيلين ، قالوا : **نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه**(٢) .

إن أى قارىء كان لابد أن يتوقع من بنى النضير تسويفاً أو مماطلة أو رفضاً ، لكن يبدو أن يهود نضير قد قدروا الأمر تقديراً عميقاً ، فمازال خروج يهود قينقاع المهين ماثلاً فى الأذهان ، وهناك صحيفة معاقل تضمن لهم قدراً من السلام لا يرجون غيره . مع مسلسل الاغتيالات الذى نال رجالهم المقدمين ، ناهيك عن معرفتهم أن المسلمين قد صاروا

---

(٢) الموضع نفسه .

مقتدرين مالياً على أداء مثل تلك الديات بعدما حصلوه من مال نتيجة غزوة بدر الكبرى. ومن ثم كانت الحكمة تقتضى إجابة مثالية واضحة، لا تعطى أية فرصة لنقض صحيفة المعاقل ولما يمض عليها من الشهور سوى ستة، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، **رغم ما فى ذلك من نكاية بعهدهم مع بنى عامر وحلفهم معهم**. وهو ما يعلمنا به إبن إسحاق، الذى أكد أن النضير مثلما كانت قبل الهجرة على حلف تآخٍ مع أوس يثرب، كانت على ذات الحلف مع بنى عامر[٣] ومعنى أن يدفعوا الدية عن مسلمين، أنهم اتخذوا جوارهم وفكوا حلفهم مع العامريين.

ويتابع الطبرى روايته فيقول: إن يهود النضير عندما أجابوا النبى ﷺ إلى ما طلب:

> قام وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتى آتيكم، وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبث رسول الله ﷺ أصحابه، قاموا فى طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه.. فقالوا: يارسول الله، انتظرناك ومضيت، فقال: يهود همت بقتلى وأخبرنيه الله عز وجل[٤].

أما كيف همت نضير بقتل النبى ﷺ وهو جالس وسط رجاله، وكيف علم النبى وحده بتلك المؤامرة؟ فهو ما تخبرنا به رواية ابن إسحاق وهو يقول: «فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج عائداً إلى المدينة»[٥]. وقد أخبرته السماء عبر وسيطها جبريل أن يهود نضير قد خلا بعضهم ببعض فقالوا: «إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذا، ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعداً، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه»[٦].

---

(٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٧٦.
(٤) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٥١، ٥٥٢.
(٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٧٦.
(٦) الموضع نفسه.

ومن ثم لم يكن هناك سوى رد واحد على خبر السماء **الصادق** بخيانة بنى نضير **الواضحة**، وهو الجلاء عن يثرب. وزيادة فى النكاية بهم أرسل النبى لهم واحداً من الأوس هو محمد بن مسلمة، يحمل إليهم رسالة النبى ﷺ تنذر وتقول بلا لبس:

> اخرجوا من **بلدى** فلا تساكنوننى بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن رُئى بعد ذلك، ضُربت عنقه(٧).

لقد كانت نضير تظن عبر تاريخها الطويل أن يثرب بلدها هى، لكن ها هى الرسالة واضحة مفصحة تؤكد أنها قد أصبحت بلد الرسول، وأنه سيدها، وأن عليهم مغادرتها فوراً وخلال أيام عشرة، أو يكونوا فى خسر، تقطع بعدها منهم الرقاب إن ظلوا قائمين. ويقول البيهقى: أن النضير لما رأت أن محمد بن مسلمة الأوسى يحمل لها تلك الرسالة القاسية، وهو كشخص بحد ذاته يعد رسالة أخرى من النبى لهم بخذلان الأوس لهم، تساءلت عن حلفها مع الأوس وعقدها قائلة لابن مسلمة «يامحمد؛ ما كنا نرى أن يأتى بهذا رجل من الأوس، فقال محمد بن مسلمة: تغيرت القلوب(٨)، أو بنص الطبرى «تغيرت القلوب **ومحا الإسلام العهود**»(٩).

وهنا يعلمنا ابن سعد عبر طبقاته أن عبد الله بن أبى بن سلول أرسل لهم يقول: «لاتخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصونكم، فإن معى **ألفين** من قومى وغيرهم من العرب، يدخلون معكم حصنكم، فيموتون عن آخرهم، وتمدكم قريظة، وحلفاؤكم من غطفان». ومن ثم كانت إجابة زعيم النضير، الذى لقبته العرب سيد الحاضر والبادى، حيى بن أخطب: «إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك»(١٠).

---

(٧) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٤١.
(٨) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٣، ص٣٦٠.
(٩) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٥٢.
(١٠) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٤١.

وهو أيضا ما أكده ابن كثير وهو يروى «فبعث لهم أهل النفاق يثبتونهم ويحرضونهم على المقام، ويعدونهم بالنصر، فقويت عند ذلك نفوسهم، وحمى حيى بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أنهم لا يخرجون، **ونابذوه بنقض العهود**»[11].

وهنا تسترسل آيات الوحى تنذر وتتوعد وتقول:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ **يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**. لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ **وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ**﴾ (١١ , ١٢/ الحشر).

وكان الإنذار واضحا لا يحمل أى لبس، **وهو ما كان كفيلا بتراجع المنافقين** وحساب مواقفهم بدقة، بحيث لا نرى عند حصار المسلمين للنضير أى تحرك من جانب الأوس، ولا من جانب ابن سلول وأشياعه. أما قريظة فقد فهمت الرسالة، ومن ثم التزمت صحيفة المعاقل وهو ما يقوله ابن سعد فى تقريره:

واعتزلتهم قريظة فلم تعنهم، وخذلهم ابن أبى وحلفاؤهم من غطفان، فأيسوا من نصرهم[12].

أما الطبرى فقد أفصح عن موقف قريظة فى إعلان زعيمها كعب بن أسد:

لا ينقض العهد رجل من بنى قريظة وأنا حى[13].

ويحكى أن سلام بن مشكم قال لرفيقه حيى بن أخطب: «يا حيى اقبل هذا الذى قال محمد، وإنما شرفنا على قومنا بأموالنا، قبل أن تقبل ما هو شر منه، قال: وما هو شر منه؟

(١١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٧٧.
(١٢)الموضع نفسه.
(١٣) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٥٣.

قال: أخذ الأموال، وسبي الذرية، وقتل المقاتلة، فأبى حيي، وأرسل حيي إلى رسول الله ﷺ إنا لانريم دارنا فاصنع ما بدا لك. **فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون معه وقال: حاربت يهود»؟!**[١٤].

ويقول ابن كثير أن النضير لما «نابذوه بنقض العهود، عند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم.. فحاصرهم ست ليال..»[١٥]، لكن يهود لم تستسلم، وهنا أمر النبي بهدم مساكنهم المنتشرة حول حصونهم، كما أمر بالمعاول وتقطيع النخل والأشجار وحرق المزروعات، فنادوه:

> يامحمد؛ قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال تقطيع النخل وتحريقها؟!![١٦].
>
> **ما ذنب شجرة وأنتم تزعمون أنكم مصلحون؟**[١٧].

وقال الحلبي في سيرته:

> لما قطعت العجوة، شق النساء الجيوب، وضربن الخدود، ودعون بالويل. وعند ذلك نادوه.. يا أبا القاسم.. ما هذا الفساد؟.. يا محمد زعمت أنك تريد الصلاح، أفمن الصلاح قطع النخل؟ **وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض؟** وقالوا للمؤمنين: إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون؟![١٨].

قال السهيلي في شروحه:

فوقع في نفوس المسلمين شيء من هذا الكلام[١٩].

---

(١٤) الموضع نفسه.
(١٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٧٧.
(١٦) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٥٢.
(١٧) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٣، ص١٨٢.
(١٨) الحلبي: سيرة.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٦٤.
(١٩) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج٢، ص٢٥٢.

هنا لم يكن الأمر مسألة مبادىء توجه إليها الانتقادات والملامات، أو أفكار تعاب، فالمعركة يجب أن تحسم، ولن تحسمها سوى القوة العسكرية لا الأخلاقيات التى قعدها قوم مزارعون وضعوا لها الأعراف لحماية زروعهم. وعليه فقد جاء الرد وحيا يرفع الملامة عن النبى وصحبه، يؤكد ألا ملامة فى قطع الزرع وحرق النخيل، فكله بأمر الله وحده وإرادته، ليقول الآى الكريم ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾ (٥/ الحشر).

واستمر الحصار يوما وراء آخر حتى بلغ خمسة عشر يوماً، وهنا «صالحوه على أن يحقن دماءهم وله الأموال والحلقة»[٢٠]. ولهم ما حملت الإبل، ووافق النبى الكريم ﷺ لكن حتى لا تحمل الإبل متاعاً، فقد أعطى لكل ثلاثة أفراد بعيراً واحداً يركبون عليه ويحملون عليه ما يمكن حمله.

وجاء وقت توزيع الغنائم، وفى ذلك يقول الحلبى «كان نخل بنى النضير لرسول الله ﷺ خاصة، **أعطاه الله تعالى إياه**.. وأكثر الروايات، أن أموال بنى النضير أى مواشيهم كالخيل ومزارعهم وعقارهم، **حق لرسول الله خاصة له**.. حبساً لنوائبه، وكان ينفق على أهله منها، وكانت صدقاته منها»[٢١]. وفى الحديث عن عمر بن الخطاب أنه قال: «إن **أموال بنى النضير كانت مما أفاء الله على رسوله**، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، **وكانت لرسول الله ﷺ خالصة**»[٢٢]. وهو ماجاءت بشأنه الآيات لتحسم أمره، حيث أوضحت أن المسلمين لم يبذلوا فى سبيله ولم يحاربوا من أجله، ومن ثم فهو أمر قد حدث بتفاوض بين النبى ﷺ وبين بنى النضير، لذلك فهو من حق النبى وحده، حيث تقول الآيات ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾

---

(٢٠) نفسه: ص ٥٥٣.

(٢١) الحلبي: سيرة.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٦٧، ٥٦٨.

(٢٢) أخرجه البخارى فى تفسير سورة الحشر، ومسلم فى ٣٢ من كتاب المغازى ١٥، باب حكم الفيء، الحديث٤.

(٦/ الحشر). أما ما حدث لنضير فهو بأمر الله، حيث تؤكد الآيات ﴿ولَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦/ الحشر).

وخرجت النضير من ديارها ذليلة مهانة، يقودها حُيى بن أخطب الذى عرفت له العرب فضل السيادة والشرف فلقبته سيد الحاضر والبادى، واتخذ المرتحلون طريق الشمال. لكن لينزل بعض سادة النضير على يهود خيبر مثل سلام بن أبى الحقيق، وكنانة بن الربيع، وحيى بن أخطب مع جمهور من يهود النضير. بينما يستمر باقى الركب يقطع الفيافى باتجاه أرض الميعاد ليستقر هناك فى فلسطين.

أما الآيات الكريمة فكانت تختتم الحدث، يتردد صداها بين فيافى الجزيرة ويسرى مع الرياح يسمع مضارب القبائل فى كل مكان، ورجع الصدى منه يرجف قلوب العرب ويصك أسماعهم، حيث تقول:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، **هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ** لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**، وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١ : ٤/ الحشر).

* * *

تأديب العربان

«فأبلغ أبا سفيان عنى رسالة : فإنك من غِر الرجال الصعالك» .

(حسان بن ثابت)

كان خروج النضير وسادتها من أشراف العرب وسراتهم بهذا الشكل المزرى ، وانهيارهم أمام المسلمين رغم حصونهم التى كانت فى نظر العرب معاقل كبرى ، عاملاً عظيم الأثر فى بث الرعب فى قلوب العربان الذين لا يملكون حصوناً ولا صياصى . ورجعت الأصداء أخبار ذلك النصر المبين ، فكانت حكاية العربان الراجفة المزلزلة ، عن تلك القبيلة العربية يهودية الديانة ، التى استقرت فى يثرب قروناً ، وكونت لنفسها بين العرب جليل المكانة ، ليطيح بها السيف المحمدى خارج حدود جزيرة العرب جميعاً . وكان طبيعياً أن ترجف هذيل وتسفى رياح الحدث بأعصاب رجالها وتشتت أمنهم ، فثأر أصحاب الرجيع لم يزل قائماً ، وكان تأديب فخذها اللحيانى أمراً آتياً لا محالة ، لكن لحيان الهذلية كانت قد وعت درس أصحاب (بئر معونة) ، الذين هربوا ما أن حذروا بمقدم جند الله وتركوا الديار وفروا فراراً غير كريم . ومن ثم باتت لحيان ساهرة الأجفان تتشمم الأخبار ، بينما كان النبى يلج برجاله عليهم ، لكن ليسلك طريقاً غير الطريق المضروب لدار لحيان ، ليسقط عليها فجأة ويأخذ منها غرة . فسلك برجاله طريقاً طويلاً وعثا وعراً نحو الشام ، حتى يرى العرب أنه يريد أمراً بعيداً ، لكن ليلتف بجيشه التفافة كبرى لم تغب عن عيون لحيان المرعوبة ، فتركت له الديار ليصلها فيجدها فراغاً ، وأصحابها قد صعدوا رؤوس الجبال وتمنعوا بوعورة بيئتهم ، وأخذوا معهم أموالهم وأنعامهم فى مواضع الأمان . وهنا اتخذ القائد خطاً آخر ليستدير على مواضعهم المنيعة من طريق عسفان ، ذلك الطريق شديد الوعورة قرب مكة ، مما كبد النبى وجيشه مشقة ووعثاء شديدتين . لكن مكة

ظنته قادماً إليها، فخرج إليه خالد بن الوليد على رأس مائتي فارس، وهو أمر لم يستعد له المسلمون، وكانت مواجهته تحتمل هزيمة يقينية، مما اضطر جيش المسلمين إلى إلغاء الحملة التأديبية الثأرية على لحيان الهذلية، بعد كل ما تكبده جيش المسلمين من مشاق، مع الانسحاب الهادىء والمحسوب تجاه يثرب دون إثارة ابن الوليد وجنده. بعد التفاف واسع آخر، والعودة بلا أي مغنم وبدون تحقيق أي هدف للحملة، وهو ما ترك أثره فيما ردده النبي العائد برجاله وهو يقول دون أن يظفر بشيء:

أعوذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال[1].

ولم تنقض أيام بيثرب على الجند المكدود، حتى صدع الناس بأمر نبيهم للخروج على غطفان، التي كانت حليفاً للنضير، والتي وعدت بإمدادهم وتراجعت، لكن معنى ذلك أنها ركبت مركب العداء لحكومة يثرب ولصاحب الدعوة، ومن ثم كان من الضروري إرهابها وتقليم أظافرها بغزوة تأديبية، هي الغزوة المعروفة (بذات الرقاع)، التي أراد بها النبي بني محارب وبني ثعلبة من غطفان. لكن غطفان علمت بمسيره فجمعت حشودها واستعدت استعداداً عسكرياً متميزاً لملاقاة الجيوش ووصل المسلمون ليجدوا أنهم قد فقدوا عنصر المفاجأة، ورأوا أمامهم جيشاً مستعداً متجهزاً. ليروي لنا الطبري ما حدث في قوله: «ولم يكن بينهم حرب، وقد خاف الناس بعضهم بعضاً، حتى صلى رسول الله ﷺ بالمسلمين صلاة الخوف، ثم انصرف بالمسلمين»[2].

ومع الحملات الفاشلة على التوالي، كان لابد أن يجد رواتنا عافاهم الله ما يسدون به الفراغ بين الانتصارات، فالتجأوا كعادتهم إلى حديث المعجزات ففي غزوة ذات الرقاع، يروي لنا الإمام النويري رواية عجيبة تقول: «وفي هذه الغزوة جاءته - أي إلى الرسول - ﷺ امرأة بابن لها، فقالت: يا رسول الله هذا ابني قد غلبني عليه الشيطان، ففتح فاه فبزق فيه

(١) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج٣، ص٢٩٨.
(٢) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٥٦.

وقال : اخسأ عدو الله ، أنا رسول الله ، ثم قال ﷺ : شأنك بابنك ، لن يعود إليه شيء مما كان يصيبه ، فكان ذلك»[3] .

وفي تلك الغزوة التي لم تحقق شيئاً ، نجد حديثاً آخر يملأ الفراغ بالمسليات من معجزات ، حيث لا ملائكة ، ولا دور عسكرى يقوم به جبريل . فتقول إحدى الروايات أن المسلمين عانوا من الجوع إزاء ذلك الالتفاف الطويل ، فنفدت ميرتهم من الطعام ، فعثروا على ثلاث بيضات نعام ، فقال النبى للصحابى جابر : «دونك يا جابر فاعمل هذه البيضات ، قال جابر فعملتهن ثم جئت بهن فى قصعة ، فجعلنا نطلب خبزاً فما نجد ، فجعل النبى وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز ، حتى انتهى كل إلى حاجته ، أى إلى الشبع ، والبيض فى القصعة كما هو»[4] .

ويبدو أن تلك الغزوة التى خاف فيها النبى والمسلمون القتال ، حتى صلوا صلاة الخوف ، كانت مدعاة لكثير من حديث المعجزات ، لملء فراغ كان يجب أن يملأه جند السماء . وهى معجزات شبيهة بالمعجزات اليسوعية ، فطرد الشيطان من الأجساد ، وإطعام الجمع الغفير فى القفر بالقليل من الطعام ، معجزات معلومة للمسيح . فيسوع قد سبق وأخرج الشيطان من جسد ابن المرأة الكنعانية ، كما أطعم جمعاً غفيراً برغيف وسمكتين بعد أن باركها ، وبقيت فضلات تملأ أجولة . ثم تأتى هنا معجزة شبيهة بالمعجزات السليمانية ، يتحول فيها النبى ﷺ إلى قدرة التحادث مع الحيوانات ، وهو ما ورد فى قصة البعير الذى جاء وحدث النبى بشكواه فأنصفه[5] .

ومن خبر ذات الرقاع تنقلنا كتب السير إلى غزوة بدر الآخرة ، حيث كان أبو سفيان قد تنادى بالمسلمين المختبئين فوق الصخرة فى غزوة أحد قائلاً : يوماً بيوم بدر ، وإن بدراً موعدنا العام المقبل . وقد حان موعد اللقاء المضروب ، بمرور عام كامل على وقعة أحد .

---

(٣) الحلبي : سيرة . . سبق ذكره ، ج٢ ، ص٥٧٦ .
(٤) نفسه : ص٥٧٧ .
(٥) نفسه : ص٥٧٨ .

ويحكى لنا ابن هشام خبر غزوة بدر الآخرة بقوله: «ثم خرج فى شعبان إلى بدر لميعاد أبى سفيان، حتى نزله، واستعمل على المدينة عبد الله بن أبى سلول. . فأقام عليه ثمانى ليال ينتظر أبا سفيان[٦]. لكن أبا سفيان لم يأت لموعده بعدما علم بخروج المسلمين مستعدين إلى سوق بدر، حيث نزلوا مسلحين بالعتاد وبالتجارة، متجهزين لكلا الأمرين. ولما كانت بدر سوقاً للأعراب، يطلب فيها التجار الأمن والأمان، فقد جاء مخشى بن عمرو الضمرى إلى النبى، وكان قد كتب عهد موادعة مع النبى عندما غزاهم رسول الله ﷺ غزوة ودان، ليسأل النبى ﷺ:

يامحمد؛ أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟

لقد جاء الرجل يتساءل، وماء بدر فى حمى بنى ضمرة، لا يريدون عليه حرباً، ويطلبون له الأمان والسلام للرواج التجارى، لكن ليجيبه النبى بالقول القاطع والحاسم:

نعم يا أخا بنى ضمرة، **وإن شئت رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، وجالدناك** حتى يحكم الله بيننا وبينك.

لكن ليجيبه الرجل من فوره:

لا والله يامحمد، مالنا بذلك من حاجة!![٧].

ويخبرنا الواقدى أن النبى ﷺ قد خرج إلى بدر الآخرة فى ألف وخمسمائة من الجند المسلحين، وأقام على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده مدة الموسم وهى ثمانية أيام، والسوق قائمة، **والمسلمون يتاجرون وهم يحملون السلاح، فكان لا ينازعهم فى السوق منازع،** فربحوا عن الدرهم درهمين[٨] ليعقب الوحى الكريم على الحدث بقوله:

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤/ آل عمران).

(٦) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى. . سبق ذكره، ج٣، ص٢٤٨.
(٧) ابن كثير: البداية. . سبق ذكره، ج٤، ص٨٩.
(٨) نفسه: ص٩١، انظر أيضاً الحلبى: السيرة. . سبق ذكره، ج٢، ص٥٨٠.

وهكذا أسـفـر أمـر بدر الآخـرة عن إعـلان لجـمـيع العـربان بجبن أهـل الله المكيين عن الخروج لملاقاة جند الله اليثربيين. جبنت قريش وتراجعت وأخذت تخسر أسواقها، بعد أن خسرت طريق الشام المار بالمدينة، وانهارت سمعتها بين الأعـراب. وزيادة فى تمريغ تلك السمعة وإظهار هوان قريش، أرسل كعب بن مالك رسالة شعرية - يرددها العربان - لأبى سفيان، تعيره هو وقريش وتقول:

وعـدنا أبا سـفـيـان بدراً فلم نجـد　　لمـيعـاده صـدقـاً ومـا كـان وافـيـاً
فـاقـسـم لـو وافـيـتنا فلقـيـتنا　　لأبت ذمـيـمـاً وافـتـقـدت المواليـا
تركنا به أوصـــال عـــتـبـــة وابنه　　عـــمـــراً أبا جـــهـل تركناه ثاويا

أما حسان بن ثابت الذى يجبن عند الحرب، ويرسل لسانه سليطاً عند الحاجة، فقد أرسل برقية تقول:

فأبلـغ أبا سفيـان عنى رســـالـة　　فإنك من غر الرجال الصعالك[(٩)]

وهو الأمر الذى آذى قريشاً، حتى جاء صفوان بن أمية إلى أبى سفيان لائماً يقول: «قد والله نهيتك يومئذ أن تعد القوم، وقد اجترأوا علينا، ورأوا أنا أخلفناهم، وإنما أخلفنا الضعف»[(١٠)].

هذا ما كان عليه حال قريش، أما حال يثرب فلم يكن مرضياً لأهلها، فالحملات تفشل، والعربان تتطاول، والدولة بحاجة دائمة إلى أعمال كبرى تعلن دوماً عن حجم القوة الإسلامية. وهنا يحكى لنا ابن كثير أنه قد بلغ النبى أن الدنو من أبواب الشام، أمر سيفزع قيصر الروم فزعاً شديداً، وكان الخبر هاماً، فـ**ليس هناك رسالة للعربان أفصح ولا أقوى من فزع عظيم الروم ذاته**.

(٩) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٣، ص٢٤٩.
(١٠) الحلبي: سيرة.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٨١.

وإعمالا للخبر، «ندب رسول الله ﷺ الناس، فخرجوا فى ألف من المسلمين، فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار، ومعه دليل من بنى عذرة، فلما دنا من دومة الجندل، أخبره دليله بسوائم بنى تميم، فسار حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب فى كل وجه. وجاء الخبر أهل دومة الجندل، فتفرقوا، فنزل رسول الله ﷺ بساحتهم، فلم يجد فيها أحداً، فأقام فيها أياماً، وبث السرايا، ثم رجعوا وأخذ محمد ابن مسلمة رجلاً منهم فأتى به رسول الله، فسأله عن أصحابه، فقال: **هربوا أمس**»[(١١)].

هكذا وصلت أخبار الجيش المحمدى، وهكذا كان أهل الحدود البيزنطية يسمعون بما يحدث فى باطن الجزيرة، لهذا كان تصرفهم عندما سمعوا بمقدمه عليهم. وكانت إجابة أكيدر حاكم دومة الجندل على غزوة النبى بعد عودته إلى يثرب، فهى أن «أرسل إلى رسول الله ﷺ بجبة من ديباج منسوج فيها الذهب»[(١٢)].

وفى طريق العودة من دومة الجندل، رأى النبى أن يمر بمضارب فزارة وهو فى استعداده العسكرى هذا، ولم يجد عيينة بن حصن الفزارى سيد فزارة، سوى موادعة سيد يثرب، وكانت موادعة عيينة مكسباً لو صدق، حيث كان بإمكانه أن يجمع عشرة آلاف فتى من المحاربين عند الحاجة. ومن هنا منحه النبى عهداً يرعى بموجبه سوائمه فى تغلمين عن قرب من يثرب، حيث أجدبت أراضى عيينة، ومر المسلمون بسلام عائدين إلى المدينة[(١٣)]. ولم تمض أسابيع حتى كان عيينه يعدو على سوائم رسول الله ﷺ ويقتل رعاته ويعود إلى أرضه بما غنم من أموال النبى ﷺ.

هذا بينما كانت قريش فى أمر آخر، تحسب حساباتها، وتراجع أمر تجارتها، وما شاع بين العربان عن جبنها.

---

(١١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٩٣، انظر أيضاً البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج٣، ص٣٨٩، ٣٩٠.

(١٢) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص١٣١.

(١٣) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٦٤، انظر أيضاً الحلبى: سيرة.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٨٢.

غزوة الخندق

«كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط».

(معتب بن قشير الأنصارى)

خطوات سريعة، تلك التى اتخذها رسول الله ﷺ من أجل تطهير المدينة وخلاصها للمسلمين، تم بها تصفية كثير من المعارضين من المنافقين والمشركين واليهود. وقبلها كان قد تم طرد يهود قينقاع، ومن بعد أحد تم عقد المعاقل ـ فيما ذهبنا إليه من اجتهاد افتراضى ـ لكن النبى كان يعلم يقينا، أن وجود يهود بكتاب مقدس، ومأثور تاريخى، وسلسلة من النبوات قفت بعضها بعضاً، يعنى وجود منكر دائم لنبوته، وداخل مدينته، وفى عقر دار دولته الصغيرة. ومن ثم كانت تلك الخطوات المتسارعة لتطهير يثرب، بطرد بنى النضير، وسيدهم حيى بن أخطب ذلك الشريف السيد الداهية، الذى ما خرج من يثرب إلى خيبر، حتى أخذ سادة النضير وأشرافهم، سلام بن أبى الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، وانحدر بهم إلى مكة، ليدرك ثأره من محمد.

وكانت سرايا المسلمين وغزوات النبى، قد أرهقت قريشاً وقطعت سبيلهم إلى الشام، ثم جاءت سلسلة سرايا الاغتيال، التى ألقت نتائجها موادعات وتحالفات للقبائل الضاربة على الطريق التجارى، مع محمد ورجاله مما قطع إيلافهم مع قريش. ووصل الأمر بقريش إلى الجبن عن ملاقاة محمد على ماء بدر فى بدر الآخرة، رغم أن أبا سفيان صاحب اللواء القرشى، كان صاحب الموعد التهديدى فى أحد. ومن ثم استجابت قريش من فورها لسعاية يهود نضير، الذين أخذوا على عاتقهم إقامة حلف عظيم بين العرب مع قريش، لضرب العصبة المؤمنة فى يثرب، ضربة قاتلة ونهائية.

وهكذا **أسفرت دية بنى عامر عن طرد يهود النضير، لكنها أفرزت أيضاً أول جمع عظيم لجند قريش، مع أحابيشها** المتحمسين فى الدين، المعظمين للكعبة والأشهر الحرم، وكانوا يرون محمداً قد خرق تلك التحريمات فجازت عليه الحرب، **ثم فرسان كنانة وأهل تهامة وأشاوس غطفان وأشداء نجد، وكان هؤلاء بدورهم قد وتروا فى زعامتهم المغدورة**، ولم ينس الغطفانيون من بنى فزارة، مقتلة عقيلتهم الشريفة أم قرفة، التى مزقها زيد بن حارثة فى غزوة مفاجئة أخذتهم على غر. لكن غطفان لم تكن ذات مصلح مباشرة مادية فى تلك الحرب الشاملة، ولأن اليهود قد أدركوا ذلك، فقد تعاقدوا مع الطماع الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزارى على اتفاق يحصل بموجبه عيينة على تمر خيبر لمدة عام كامل، فوافق من فوره[1].

وتحرك الجيش العظيم، الذى يربو على عشرة آلاف من المقاتلين الأشداء، بين فيافى الحجاز ميمما شطر يثرب، ليكون أول جيش يجمعه العرب بهذا الحجم تعرفه جزيرة العرب تحت قيادة واحدة، وتحت رايات قريش. لينزل الجمع الهائل بمجمع الأسيال من رومة بين الجرف والغابة، قرب جبل أحد، مركز الانتصار الأول لقريش، **ولم تكن المعركة هذه المرة بغرض الانتقام فقط، إنما بغرض التصفية النهائية**، وهو الأمر الذى بلغ يثرب فقامت من فورها بالتعبئة القصوى، لكن لتصل تعبئتها فقط إلى ثلاثة آلاف رجل، إزاء جيش جرار من المحاربين.. ووقع فى أيدى المسلمين!!

ويوجز لنا ابن هشام قصة تحزيب الأحزاب فى قوله:

> كانت غزوة الخندق فى شوال سنة خمس.. كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود، منهم سلام بن أبى الحقيق النضرى، وحيى بن أخطب النضرى، وهوذة بن قيس الوائلى، وأبو عمار الوائلى، فى نفر من النضير ونفر من بنى وائل، هم الذين حزبوا

(١) البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩، ج١، ص٣٤٣.

الأحزاب على رسول الله ﷺ حتى قدموا على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.. ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق: فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن فى بنى فزارة، والحارث بن عوف.. فى بنى مرة، ومسعر بن رخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع[٢].

ويستكمل الطبرى:

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ ضرب الخندق حول المدينة.. وكان الذى أشار على رسول الله ﷺ بالخندق سلمان الفارسى، وقال: يارسول الله **إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا**[٣].

ومعلوم أن الخندق أمر لم تعرفه العرب قبلاً، ووافق الرسول من فوره على الخندق الفارسى واستحسنه، ووجد فيه خلاصاً مفاجئاً، وفكرة لماعة لإيقاف الهدير الآتى. ومن ثم كانت مكافأة صاحب الفكرة المنفذة فى قول الرسول الكريم ﷺ: «سلمان منا آل البيت»، حيث جاء الخندق ليكون إنقاذاً حقيقياً لموقف ميئوس منه، وكان القائد النبيل سيد الخلق أجمعين، قد استفاد من درس أحد وأخطائها، ومشورة عبد الله بن أبى بن سلول، التى كان قد أهملها زمانها وسط حمية رجاله وحماسهم للخروج من يثرب إلى أحد. وأدرك القائد أنه إزاء حشد لن يعود إلا بعد إسقاط دولته، والقضاء عليه وعلى رجاله، ومن ثم كان الخندق إنقاذاً للموقف على عدة مستويات:

(٢) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٣، ص٢٥٨، ٢٥٩.
(٣) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٦٦.

الأول: أن حلف الأحزاب قد قام بغرض خوض معركة خاطفة حاسمة تنهى دولة الرسول فى يثرب وتسقطها، اعتماداً على حشده لقوى بشرية عظيمة، بينما اتجهت خطة النبى ﷺ إلى تحصين المدينة بالخندق لإفقاد الحلف مزية المعركة السريعة الحاسمة، وإجباره على المكوث فى البرد القارس، وهو ما كان كفيلاً بفقد الأحزاب لزخم القتال، وما قد يطرأ من نتائج وخيمة مع طول الانتظار، خاصة مع ما يحمله هذا الحلف من تناقضات بين المتحالفين، وبذلك أفقد الخندق المهاجمين عوامل انتصارهم، وأطاح بالتفوق العددى.

ثانياً: كان الخندق تأمينا عسكرياً لم يسبق للعرب معرفته، حيث يضمن أكبر قدر من الأمان لمن هم فى داخل يثرب، لديهم الغذاء والميرة، بينما يترك المهاجمين فى العراء مع ما جمعوا من ميرة - مهما كان حجمها - فهو حجم ما أمكن للدواب حمله، وهو آيل إلى نفاد إن طال الحصار دون اختراق الخندق.

ثالثاً: أن الخندق قدم حلاً مثالياً لمشكلة كبرى وهو ما أوضحه عبد الهادى عبد الرحمن، فضمن عدم وقوف المسلمين وحدهم لملاقاة الأحزاب، إنما ضمن بقاء بقية سكان يثرب من غير المسلمين بالداخل، وهو الضمان الذى جعل من لم يسلموا بعد، والمنافقين فى محنة كبرى، ففى العراء يمكن للمنافقين ألا يحاربوا، بل أن يجدوا فرصة وغرة من المسلمين وقت هياج المعركة واختلاط الحابل بالنابل، أما وهم بالداخل، وإزاء جيش سيضطر إلى العبور إن استطاع ليستأصل الجميع دون تفرقة، فهو ما يعنى أن يثرب أصبحت تتعرض لغزو حقيقى، ودخول الغزاة على أهلها، وهو ما يعنى أيضاً أن كل فرد بالمدينة قد انخرط راغباً أم غير راغب فى جيش الدفاع عن بلده، وسواء، كان مسلماً أم لا. لقد حول الخندق أمر المدينة إلى وطن، **وأجج الشعور الوطنى**، فلكل رجل زوجة وأطفال ومال وبيت وحقل يدافع عنهم. لقد جعل الخندق من المعركة غزوا لوطن ودفاعاً وطنياً. ومن ثم سيحارب الرجال والبيوت، وسيحارب الشجر، وسيحارب الحجر، وستحارب النساء بل وربما الأطفال، سيحارب المشرك والمنافق. إن الخندق كان دعوة لقريش وأحزابها لغزو حرمة بلد وبيت ودار، فحول المدينة جميعاً إلى رجل واحد، وحول

معادلة الثلاثة آلاف جندى إزاء العشرة آلاف إلى معادلة أخرى. إلى شعب يدافع عن وطنه ضد غزاة، شعب تكتل جميعه مع دروب بلده وحوائطها وزرعها وسوائدها، إزاء جيش وإن كان عظيماً فهو يفترش العراء، بعيداً عن دياره، يأكل ميرته لتنقص كل يوم، ليس بينهم ألفة، فهم أحزاب لا أهل بلد واحد، يأكلون بعضهم بعضاً بتضارب المصالح بينهم، إنه الأمر الذى لا محالة **يستدعى الآن وبقوة نصيحة عبد الله بن أبى بن سلول وهو يقول للنبى فى أحد:**

> **يارسول الله؛ أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا**(٤).

وهكذا؛ ما إن بلغ سيد المدينة ﷺ أمر مسير يهود بين العرب لتحزيبهم حتى ضرب الخندق الفارسى، لأول مرة فى جزيرة العرب، ثم نرى هذا السيد، النبى، الرسول، القائد، فى مرآة قادة التاريخ، وهو يقف نموذجاً بين رجاله، يحمل أتربة الخندق، ويضرب بفأسه مع رجاله كتفا بكتف ويداً بيد.

ولم تتوان قريظة عن الوفاء بمعاقلها مع النبى، فأمدت جيشه بآلات عظيمة للحفر ونقل الأتربة، وهو ما قررته كتبنا الإخبارية وهى تمر على الخبر سريعة دون توقف، فى برقية موجزة مقتضبة تقول: «واستعاروا من بنى قريظة آلة كثيرة، ومساحى وكرازين ومكاتل»(٥).

ونستمع هنيهة للصحابى البراء وهو يروى نتفا من أيام حفر الخندق فيقول:

> لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله ﷺ الخندق، رأيته ينقل التراب من الخندق، حتى وارى عنى التراب جلد بطنه، وكان كثير

(٤) السهيلي: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج٣، ص١٤٩.
(٥) الحلبي: سيرة.. سبق ذكره، ج٢، ص٦٣٢.

الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات عبدالله بن رواحة وهو ينقل التراب ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا، ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغوا علينا
وإن أرادوا فتنة أبينا

ثم يمد صوته بآخرها.. أبينا، أبينا»[٦].

ويستكمل ابن إسحاق قصة الخندق فيقول:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجمع الأسيال من رومة، بين الجرف وذوى غابة، فى عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة. وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذى نقمى إلى جانب أحد. وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، فى ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب عسكره هنالك، والخندق بينه وبين القوم.. حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا:

والله؛ إن هذه لمكيدة
ما كانت لتكيدها العرب[٧].

(٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٩٨.
(٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٣، ص٢٦١، ٢٦٣.

هنا وجدت قريش وأحزابها إزاء تكتيك عسكرى جديد لم تكن تعرفه العرب، ووقع فى أيديها، ومن ثم أرسل سيد الأحزاب إلى سيد المدينة يستفز فيه القتالية العربية، ليخرج إليه من وراء الخندق قائلاً فيما كتب :

باسمك اللهم ؛

فإنى أحلف باللات والعزى، وأساف ونائلة، وهبل، لقد سرت إليك فى جمع وأنا أريد ألا أعود أبداً حتى أستأصلكم، فرأيتك قد كرهت لقاءنا، واعتمصت بالخندق، قد اعتصمت بمكيدة ما كانت العرب لتعرفها، وإنما تعرف ظل رماحها وشبا سيوفها، وما فعلت هذا إلا فراراً من سيوفنا ولقائنا، ولك منى يوم كيوم أحد.

فكان رد سيد الخلق على سيد مكة بقوله ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد،

من محمد رسول الله، إلى صخر بن حرب، قد أتانى كتابك، وقديما غرك بالله الغرور، أما ذكرت أنك سرت إلينا، وأنت لاتريد أن تعود حتى تستأصلنا؟

فذلك أمر يحول الله بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليكم يوم أكسر فيه اللات والعزى وأساف ونائلة وهبل، حتى أُذكّرك ذلك **ياسفيه** بنى غالب[8].

معجزات الخندق :

ثلاثة آلاف كبير وصغير وشاب وحدث، هى أقصى إمكانات التعبئة العسكرية، التى تمكنت يثرب من حشدها، إزاء عشرة آلاف مقاتل يحاصرون مدينتهم. وليس هناك خبر

(٨) الحلبى : سيرة . . سبق ذكره، ج٢، ص٦٥٧ .

عن إمداد سماوى، ولم يأت جبريل وجنده ومن ثم وقف الرواة مع الحديث البديل عن التعبئة السماوية، مع تفاصيل بها عبر ووعود، وهى التفاصيل التى يمكن من خلال بعض الثغرات فيها المرور إلى حديث الأحاجى والمعجزات، ومنها رواية ابن إسحاق التى تقول:

حُدثت عن سلمان الفارسى: أنه قال: ضربت فى ناحية من الخندق، فغلظت علىّ، ورسول الله ﷺ قريب منى. فلما رآنى أضرب، ورأى شدة المكان علىّ، نزل فأخذ المعول من يدى. فضرب ضربة، فلمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ضرب به ثالثة فلمعت تحته برقة أخرى. قلت:

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، ما هذا الذى رأيت يلمع تحت المعول وأنت تضرب؟

قال: أوقد رأيت ذلك ياسلمان؟

قلت: نعم.

قال: أما الأولى فإن الله قد فتح علىّ بها اليمن، أما الثانية فإن الله فتح علىّ بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح علىّ بها المشرق[٩].

حتى الآن والأمر واضح ليس فيه ألغاز، وطبيعى تماماً، فالرسول ﷺ يضرب الصخرة الغليظة بالمعول الحديدى فتقدح شرراً، فيتساءل سلمان، ويرد الرسول بالحكمة النبوية عن فتوحات قادمة. فى وقت يحتاج فيه الجند إلى تقوية الروح المعنوية، وهم فى أسوأ حال، وقد أخذ الرعب بهم، مع ذلك الحصار الهائل الذى تكتل فيه العرب ككتلة رجل واحد ضدهم، وهو الرد الحكيم الكفيل بطمأنة النفوس الجازعة. فالدلالة فيه أن كل ذلك الذى

(٩) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى، سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٢.

يحدث زوبعة طارئة منتهية، ليس ذلك فقط، بل إن الجزيرة جميعاً ستكون ملك أمر المؤمنين، وبعدها الفتوح الكبرى لأقطار الأرض جميعاً. ولكن ذلك الحديث الذى قصد منه النبى بحكمته إذهاب الغم عن المؤمنين والكرب، تلقفته مع ذلك البرق اللامع، روايات تذهب به مع الزيادات التدريجية إلى دائرة الأساطير. وتتحول آمال النبوة المقبلة مع تلك الروايات إلى تجليات كبرى انفلت معها الشرر ليصبح ضوءاً مبهراً معلنا وجود قدرات كبرى إلى جوار النبى ورجاله. حيث يروى النسائى ذات الرواية لكن مع بعض الإضافات فيقول:

فندر ثلث الحجر، وسلمان الفارسى قائم ينظر، فبرق مع ضربة رسول الله برقة، ثم ضرب الثانية وقال: وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً، لا مبدل لكلمات الله، وهو السميع العليم. فندر الثلث الآخر وبرقت برقة، فرآها سلمان، ثم ضرب الثالثة وقال: وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً، لا مبدل لكلمات الله وهو السميع العليم، فندر الثلث الباقى. وخرج رسول الله ﷺ فأخذ رداءه وجلس، فقال سلمان: يارسول الله رأيتك حيت ضربت، لا تضرب ضربة إلا معها برقة، قال رسول الله ﷺ رأيت ذلك ياسلمان؟ قال: أى والذى بعثك بالحق، قال: فإنى حين ضربت الضربة الأولى، رُفعت لى مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة، حتى رأيتها بعينى، قالوا: يارسول الله ادع الله أن يفتحها علينا، **ويغنمنا ذراريها ونخرب بأيدينا بلادهم**، فدعا بذلك.

قال: ثم ضربت الضربة الثانية، فرُفعت لى مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعينى، قالوا: يارسول الله ادع الله أن يفتحها، **ويغنمنا ذراريهم، ونخرب بأيدينا بلادهم، فدعا.**

ثم قال: ثم ضربت الثالثة فرفعت لى مدائن الحبشة وما حولها من القرى، حتى رأيتها بعينى، ثم قال رسول الله: دعوا الحبشة ما وادعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم(١٠).

ولا ينتهى حديث الصخرة والبرقات الثلاث إلى هنا، إنما يتزايد ويتضخم، لتتحول الشرارات الثلاث ـ التى رآها سلمان، لأنه كان بجوار النبى ﷺ والتى استدعت دهشة النبى وهو يسأل سلمان: أو قد رأيت ذلك يا سلمان؟ ـ تتحول إلى برق إعجازى أسطورى يسجل آية عظمى، فيدونها ابن الأثير بعد صياغتها الجديدة، ليس فقط لإبراز المعجزة، إنما أيضا لإبراز قوة النبى الجسدية الهائلة التى صدعت الصخرة فيقول:

فأخذ المعول، وضرب الصخرة ضربة **صدعها**، وبرقت منها برقة **أضاءت ما بين لابتى المدينة فكبر الرسول ﷺ وكبر المسلمون**، ثم الثانية كذلك، ثم الثالثة كذلك، ثم خرج وقد صدعها. فسأله سلمان عما رأى من البرق، فقال رسول الله ﷺ: أضاءت الحيرة وقصور كسرى فى البرقة الأولى، وأخبرنى جبرائيل أن أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثانية القصور الحمر من أرض الشام والروم، وأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثالثة قصور صنعاء. وأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها(١١).

أما البيهقى، باعتباره صاحب كتاب دلائل النبوة: وجامع تلك الدلائل التى رآها جميعاً إعجازية، فقد وجد فى قصة الصخرة مناسبة طيبة ليقدمها بما يليق بها من دلائل النبوة، ليكرر، ولكن ليفصل القول بقوله:

فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان، فضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها (أى لابتى يثرب)،

(١٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص١٠٣.
(١١) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج٢، ص١٧٩.

حتى لكأن مصباحاً فى جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح ، فكبر المسلمون . ثم ضربها رسول الله ﷺ الثانية فصدعها ، وبرق منها برق أضاء ما بن لابتيها ، حتى لكأن مصباحاً فى جوف ليل مظلم ، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح وكبر المسلمون . ثم ضربها رسول الله ﷺ الثالثة **فكسرها** ، وبرق منها برقة أضاءت ما بين لابتيها ، حتى لكأن مصباحاً فى جوف ليل مظلم ، فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون .

فقال سلمان : بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد **رأيت شيئاً ما رأيته قط** ، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال : هل رأيتم ما يقول سلمان ؟ قالوا : نعم يارسول الله بأبينا أنت وأمنا ، قد رأيناك تضرب **فخرج البرق كالموج**، فرأيناك تكبر ولا نرى شيئاً غير ذلك . فقال : صدقتم ، ضربت ضربتى الأولى فبرق الذى رأيتم ، أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى ، **كأنها أنياب الكلاب** ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، ثم ضربت ضربتى الثانية ، فبرق الذى رأيتم ، أضاء لى منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرنى جبريل ـ عليه السلام ـ أن أمتى ظاهرة عليها ، ثم ضربت ضربتى الثالثة فبرق منها الذى رأيتم أضاءت منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل ـ عليه السلام ـ أن أمتى ظاهرة عليها ، فأبشروا .

ويعقب البيهقى تعقيباً واضح المدلول بقوله : إن الرسول أراد بذلك أن «يبلغهم النصر»[١٢] .

---

(١٢) البيهقي : دلائل . . سبق ذكره ، ج٣ ، ص٤١٩ .

وقد استدعى حديث تلك الصخرة تداعيات وأخباراً عن صخور أخرى وصياغات أخرى، وهو ما جاء فى رواية ابن هشام عن ابن إسحاق، تقول:

وكان فى حفر الخندق أحاديث بلغتنى فيها من الله عبرة فى تصديق رسول الله ﷺ وتحقيق نبوته، عاين ذلك المسلمون. فكان مما بلغنى، أن جابر بن عبدالله كان يحدث: أنه اشتدت عليهم فى بعض الخندق كدية، فشكوها إلى رسول الله ﷺ، فدعا بإناء من ماء **فتفل فيه**، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية، فيقول من حضرها: فوالذى بعثه بالحق نبياً، لانهالت حتى عادت كالكثيب[13].

وإذا كانت خاتمة حديث النبى ﷺ فيما رواه البيهقى: فأبشروا، مع الإلحاق التوضيحى: «يبلغهم النصر»، كان القصد منها أن يرفع روحهم المعنوية بالاستبشار، بل ويصبح ذلك النصر سهلاً وبسيطاً هين الشأن إذا قورن بما بيتته الأيام القادمة للمسلمين من فتوحات لأقطار الدنيا. فإن هناك من الصحابة من كان له رأى آخر، إزاء حصار المدينة، وما أخذ المسلمين من رعب وفزع حتى بلغت القلوب الحناجر، فهذا معتب بن قشير يعقب على حديث الصخرة والفتوح المقبلة ساخراً يقول برواية ابن الأثير:

ألا تعجبون؟!

يعدكم الباطل!!

ويخبركم أنه ينظر من يثرب الحيرة، ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم لا تستطيعون أن تبرّزوا؟![14].

أو برواية ابن هشام:

---

(١٣) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٠.
(١٤) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج٢، ص١٧٩.

كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط؟![15].

ولهذا السبب، ولتلك القولة التى كانت تعبر عن مكنون صدر الرجل إزاء حال واقع بصراحة العربى التى لا تعرف التزويق، وبندفاعه الحر، فقد أدرج أهل الأخبار معتب بن قشير فى طائفة المنافقين. لكن نيلاحظ ابن هشام **أن ابن قشير لا يمكن احتسابه منافقا، لأنه كان من مقاتلى النصر البدرى الأكبر، وهم من غفر الله لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر**، وأصبحوا جميعا من أهل الجنة، وفى ذلك يقول: «وأخبرنى من أثق به من أهل العلم، أن معتب بن قشير لم يكن من المنافقين، واحتج بأنه كان من أهل بدر»[16]، ورغم ذلك، فقد جاء الوحى يرد على ابن قشير قائلا: ﴿وَإِذْ يَقُولُ **الْمُنَافِقُونَ** وَالَّذِينَ فِي **قُلُوبِهِم** مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾(١٢/ الأحزاب).

ومع الحصار، واشتداد الأزمة، يستطيب رجالاتنا حديث الأحاجى ليستمرئوا الاستمرار فيه، فيروى ابن إسحاق:

وحدثنى سعيد بن مينا أنه حدث أن ابنة بشير بن سعد أخت النعمان بن بشير، قالت: دعتنى أم عمرة بنت رواحة فأعطتنى حفنة من تمر فى ثوبى، ثم قالت: أى بنية اذهبى إلى أبيك وخالك عبدالله بن رواحة بغذائهما.

قالت: فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبى وخالى، فقال: تعالى يابنية؛ ما هذا معك؟ قالت: قلت: يارسول الله هذا تمر بعثتنى أمى به إلى أبى بشير بن سعد وخالى عبدالله ابن رواحة، يتغذيانه. فأمر بثوب فبسط له ثم دحا

(١٥) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٣، ص٢٦١.
(١٦) الموضع نفسه.

بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: اصرخ فى أهل الخندق أن هلم إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه، **وجعل يزيد**، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه **ليسقط من أطراف الثوب**(١٧).

ومع الجوع إبان العمل الدءوب الذى يسابق الزمن قبل وصول قريش، تتتالى أحاديث الطعام المبارك، فى معجزات شبيهة بالمعجزات اليسوعية المعلومة، ومثله رواية أخرى عن ابن إسحاق عن سعيد بن مينا عن جابر بن عبدالله قال:

عملنا مع رسول الله ﷺ فى الخندق، فكانت عندى شويهة غير جد سمينة، فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله ﷺ فأمرت امرأتى فطحنت لنا شيئاً من شعير فصنعت لنا منه خبزاً، وذبحت تلك الشاه فشويناها لرسول الله ﷺ. فلما أمسينا وأراد رسول الله ﷺ الانصراف من الخندق، وكنا نعمل فيه نهارنا فإذا أمسينا رجعنا إلى أهالينا، قلت: يارسول الله إنى قد صنعت لك شويهة كانت عندنا، وصنعنا معها شيئاً من خبز هذا الشعير، فأحب أن تنصرف معى إلى منزلى، وإنما أريد أن ينصرف معى رسول الله ﷺ وحده.

فلما أن قلت ذلك، قال: نعم، ثم أمر صارخا فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله ﷺ إلى بيت جابر بن عبدالله، قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون. فأقبل رسول الله ﷺ وأقبل الناس معه، فجلس وأخرجناها إليه، فبارك وسمى ثم أكل، وتواردها الناس، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس، حتى صدر أهل الخندق عنها(١٨).

(١٧) المصدر نفسه: ص٢٦٠.
(١٨) الموضع نفسه.

وذات الرواية تروى عن جابر أيضاً، لتفسر السر وراء زيادة ذلك الطعام القليل ليكفى ألف رجل على الأقل ويفيض عنهم، فتقول:

> وجئت امرأتى فقالت: بك وبك.. فأخرجت لنا عجينا **فبسق** فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا **فبسق** وبارك، ثم قال: ادع خبازة فلتخبز معك، واقدحى من برمتك، ولا تنزلوها، **وهم ألف، فأقسم بالله** لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هى، وإن عجيننا كما هو(١٩).

ورغم كل الأحاجى وروايات المعجزات، فإنك تلمس واقع الحال واضحاً، كما جاء فى رواية ابن كثير التى شرحت كيف عظم البلاء على الناس، واشتد الخوف بالمسلمين، لا تغنيهم فيه برمة تفور أو تمر وشويهة مباركات، **حتى ظن المؤمنون كل ظن**. وأخذ كثير منهم يتهرب من العمل فى ذلك البرد القارس، مثل أوس بن قيظى الذى جاء للنبى يتحدث نيابة عن قومه: يارسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نرجع إلى ديارنا فإنها خارج المدينة. بينما طائفة أخرى تهبط المعنويات وتثبط الهمم وتقول للناس: يا أهل يثرب لا مقام لكم هنا فارجعوا، بينما يسترسل الوحى معقبا على تلك المواقف المتخاذلة ليقول:

> **﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾** (١٣/ الأحزاب).

وهو ما يؤكده تقرير الطبرى عن فريق آخر، فقد «أبطأ على رسول الله ﷺ فى عملهم رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعف من العمل، ويتسللون إلى أهاليهم بغير علم الرسول»(٢٠).

(١٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص١٠٠.
(٢٠) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٦٦.

قريظة تنقض العهد:

وحفر أكبر خندق عرفته الجزيرة ، امتنع به أهل يثرب من هجوم الأحزاب، مع محاولات بائسة لعبوره من قبل المهاجمين، انتهت بفشل ذريع مع التراجع، مما أدخل الطمأنينة بعض الشيء فى النفوس الجازعة لحصانة خندقهم، ولم يبق غير الانتظار لنفاد سيرة المهاجمين، ومجالدة كل من يحاول اقتحام الخندق.

وقد أثبتت قريظة حتى حفر الخندق، وعيها الدقيق بموقفها الشديد الحساسية، وحتى لا يكون مصيرها مصير قينقاع ونضير. فالتزمت بنود صحيفة المعاقل، وأمدت المسلمين بالمساحى والمكاتل والكرازين، من أدوات الحفر اللازمة. وكان الموقف الدقيق يحتاج تحوطاً، فقد أحاط الخندق بالمدينة تماماً، اللهم إلا جبل سلع بالخلف، كان بذاته مانعاً طبيعياً قوياً، يكفيه بعض الرماة ليصبح حصنا منيعاً لا يمكن اجتيازه، ثم حصن قريظة القوى المتين على حافة المدينة وبمواجهة الأحزاب، يطل عليهم مباشرة. وهنا كانت نقطة الضعف التى كان يدركها جميع الأطراف: المسلمون، وقريظة، والأحزاب، فكان يكفى أن تفتح أبواب حصن قريظة، ليمر منها جند الأحزاب إلى داخل يثرب لينتهى الأمر فوراً. وقد وعى المهاجمون ذلك وقرروا اللعب عليه، فتحرك محزب الأحزاب (حيى ابن أخطب) زعيم النضير المطرود من يثرب، ليدق أبواب حصن قريظة طالبا لقاء زعيم قريظة (كعب بن أسد). وتدون هنا أقلام كتاب السير والأخبار قصة ما حدث فى ذلك الموقف الدقيق بقولها: «وخرج عدو الله حيى بن أخطب حتى أتى كعب ابن أسد القرظى، صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم، وكان قد وادع الرسول ﷺ على قومه، وعاهده على ذلك وعاقده، فلما سمع كعب حيى بن أخطب، **أغلق دونه حصنه**، فاستأذن عليه **فأبى أن يفتح له**» فناداه ورد عليه فى الحوار التالى، كما أوردته كتبنا الإخبارية:

حيى : ياكعب افتح لى.

كعب: ويحك يا حيى، إنك امرؤ مشئوم، **إنى عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بينى وبينه**، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً.

حيى: ويحك، افتح لى أكلمك.

كعب: **ما أنا بفاعل**.

حيى: والله إن أغلقت دونى إلا جشيشتك أن آكل معك منها.

وهنا، وحيى يستفز كعب، يعيره بمسبة كبرى فى العربان، وينعته بما هو أنكى من البخل **وإغلاق الباب دون جائع**، يفتح له كعب باب الحصن ليغلق خلفه سريعاً، ويستمر الحوار:

حيى: ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها.. قد عاهدونى وعاقدونى ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه.

كعب: جئتنى والله بذل الذهر، بجهام قد هراق ماءه، يرعد ويبرق وليس فيه شيء. **ويحك، دعنى ومحمداً وما أنا عليه**، فلم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء.

وتستمر كتبنا الإخبارية فى الرواية لتقول: «فلم يزل حيى بكعب، يفتله فى الذروة والغارب، حتى سمع له، على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقا، لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً، أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرىء مما كان عليه، فيما بينه وبين رسول ﷺ»[٢١].

---

(٢١) نفسه: ص ٥٧١. انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٣، ص٢٦١، انظر أيضاً ابن الأثير.. سق ذكره، ج٢، ص١٨٠.

وهكذا تقرر كتب السير أن قريظة قد نقضت العهد، لكنها لا توضح علامات ذلك النقض المحورية، والتى كان يمكن أن تكون قاتلة ونهائية لو فتحت أبواب حصونها، لكنها لم تفعل ، ويبدو أن المقصود بالنقض هنا هو مجرد تفكير قريظة ، وإعمالها ذلك التفكير خلال أيام ، تم فيها علاج الموقف ، المتأزم من جانب النبى ، قبل أن تسقط قريظة فعلاً فى خيانة واضحة .

وبلغ النبى بما له من عيون بما يحدث فى حصون بنى قريظة ، وبلغ الأمر كذلك المسلمين المجهدين المكدودين الفزعين ، وأخذ بهم الخوف والرعب . فطلب النبى سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير ، وقال لهم : انطلقوا حتى تنظروا ، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ ثم أضاف القائد الحصيف وهو يرى معنويات رجاله فى التداعى «فإن كان حقا ، فالحنوا لى لحنا أعرفه ، ولا تفتوا فى أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم ، فاجهروا به للناس»(٢٢) .

ووصل الوفد حصن قريظة «ثم ناداهم سعد بن معاذ فقال : إنكم قد علمتم الذى بيننا وبينكم يابنى قريظة ، وأنا خائف عليكم مثل يوم بنى النضير أو أمر منه ، فقالوا : **أكلت بإير أبيك**»(٢٣) .

وهكذا بدأ الحوار بخطاب تهديدى ، كان رده تحديا بجارح الألفاظ وقبيح الشتائم ، وهو يصوره ابن هشام بقوله : «إن رجال وفد النبى خرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم ، نالوا من رسول الله ﷺ **وقالوا : من رسول الله**؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . فشاتمهم سعد بن معاذ ، وشاتموه ، وكان رجلا فيه حدة ، فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم ، **فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة** ، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه وقالوا : **عضل والقارة** (الرجيع) ، أى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع ، خبيب وأصحابه» .

(٢٢) ابن هشام : السيرة فى كتاب السهيلى . . سبق ذكره ، ج٣ ، ص٢٦١ .
(٢٣) البيهقي : دلائل . . سبق ذكره ، ج٣ ، ص٤٠٣ .

وفهم النبى اللحن والرمز الهامس بكلمة السر الشفرية . وكان المسلمون ينتظرون إجابة وقد زاغت منهم الأبصار ، فما كان من القائد الحكيم إلا أن رد بأنه لا شىء إطلاقاً يستدعى كل ذلك الفزع ، وأن كل شىء على ما يرام ، وهو ما تمثل فى صيحته التهليلية «الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين»(٢٤) .

وتأزمت الأزمة فعلاً ، وكان لابد من تحرك سريع وحاسم ، قبل أن تقدم قريظة بالفعل على فتح أبوابها للأحزاب ، وتستجيب لدافع العصبية والثورة لبنى جلدتها نضير وقينقاع ، حيث تفيد مصادر أخرى أنهم **اشترطوا على السعدين لمواصلة الالتزام بالصحيفة ، والاستمرار فى المدد ، إعادة بنى النضير للمدينة** (٢٥) . ومن ثم بدأت دراسة الموقف مرة أخرى على أناة وهدوء وتدبر ، لتصل إلى نتيجة مفادها : أنه إذا كانت نقطة ضعف المدينة هى حصن قريظة ، فإن بين الأحزاب نقطة ضعف أخرى هى غطفان الفزارية ، أتباع الأحمق المطاع الطماع عيينة بن حصن . فهم ليسوا أبداً أصحاب سيادة وثروات مثل المكيين ، كما لم يكونوا أصحاب مصلحة فعلية فى القضاء على محمد ، فلم يدفعهم إليه إلا ثأر أم قرفة ، والحصول على المغانم ، وهو ما يمكن علاجه بالمغريات المالية .

وعند هذه اللحظة من التفكير المتأنى أرسل النبى سراً إلى قائدى غطفان : عيينة بن حصن والحارث بن عوف ، يفاوضهما على الانسحاب من الأحزاب **مقابل ثلث ثمار المدينة** ، وجرت المساومات السرية أخذاً ورداً ، اشترط معها عيينة النهم **نصف تلك الثمار** ، لكن ليشترط عليه النبى فى مقابل ذلك الإيقاع بين الأحزاب وبين قريظة(٢٦) .

وقام النبى يخبر السعدين بما اتفق عليه مع غطفان ، فيحتج السعدان ويقولان : «إنا نرى ألا نعطيهم إلا السيف» ، ليرد النبى على سعد بن معاذ «فأنت وذاك» ، فيتناول ابن معاذ

---

(٢٤) ابن هشام : السيرة فى كتاب السهيلى . . سبق ذكره ، ج٣ ، ٢٦١ .

(٢٥) أبكار السقاف : نحو آفاق أوسع ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، د. ت ، ج٢ ، ص١٥٠٠ .

(٢٦) ابن سعد : الطبقات . . سبق ذكره ، مج٢ ، ج١ ، ص٥٢ ، أنظر أيضاً ابن هشام : السيرة فى كتاب السهيلي . . سبق ذكره ، ج٣ ، ص٢٦٢ .

الصحيفة ويمحو ما بها من تعاهد اتفاقى ويقول : «ليجهدوا علينا»[٢٧] . بينما يأتى من غطفان رجلها الداهية نعيم بن مسعود الأشجعى ليرى النبى ويسمع منه خطته للإيقاع بين الأحزاب ، فيقول له الرسول ﷺ :

خذل عنا إن استطعت ، **فإن الحرب خدعة**[٢٨] .

ويفهم نعيم المقصود ويستوعب الخطاب ويبدأ فى التنفيذ ، ويدرك أن الأمر الآن أمر عسكرية وخدع ، فالعبرة بالنهايات والخواتيم ، وليست العبرة بقواعد قد تؤدى إلى دمار ، وعليه يروى ابن هشام كيف تمت الخدعة وكيف حبكها نعيم بن مسعود ، فيقول :

ثم إن نعيم بن مسعود . . بن غطفان ، أتى رسول الله ﷺ فقال : . . إن قومى لم يعلموا بإسلامى[٢٩] ، فمرنى بما شئت ، فقال رسول الله ﷺ فخذل عنا إن استطعت فالحرب خدعة . فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة ، . . فقال : يابنى قريظة . . إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، **البلد بلدكم** ، فيه أموالكم وأبناؤكم ، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره . وأن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، قد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، **وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم** . فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم ، يكونوا بأيديكم ، ثقة لكم ، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه .

(٢٧) ابن سعد : الطبقات . . سبق ذكره ، مج٢ ، ج١ ، ص٥٣ ، أنظر أيضاً ابن هشام : السيرة فى كتاب السهيلي . . سبق ذكره ، ج٣ ، ص٢٦٢ .
(٢٨) ابن هشام : السيرة فى كتاب السهيلى . . سبق ذكره ، ج٣ ، ص٢٦٥ .
(٢٩) **لم ير كتّاب السير فى فعل نعيم بن مسعود إلا إسلاماً** ، دون أن يقفوا مع اتفاق غطفان مع النبى .

فقالوا له : لقد أشرت بالرأى .

وخرج حتى أتى قريشاً، فقال لأبى سفيان بن حرب، ومن معه من رجال قريش . . إنه قد بلغنى أمر رأيت عليّ حقا أن أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموا عنى، فقالوا : نفعل . قال : تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين : من قريش وغطفان، رجالا من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم : أن نعم .

فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً .

وأخذت الريبة برؤوس قريش، ثم استبطأت فتح قريظة أبواب حصونها للأحزاب، وزاد الأمر توتراً قدوم تلك الليالى الشاتية القارسية على رجالهم فى العراء، مع النفاد المتزايد للميرة، وهنا يقول لنا ابن هشام :

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس . . أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بنى قريظة . . فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام، **قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال كى نناجز محمداً** . . فأرسلوا إليهم : إن اليوم سبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً . . ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً معكم، حتى تعطونا رهنا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال، أن تنشمروا إلى بلادكم، **وتتركونا والرجل فى بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه** . فلما رجعت إليهم الرسل

بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان : والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق. فأرسلوا لبنى قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كانت غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم.

فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا والله لانقاتل محمداً معكم حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم . .

وخذّل الله بينهم . .

وبعثت عليهم الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم . . ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . . أخلفتنا قريظة . . ولقينا من شدة الريح ما ترون . . فارتحلوا فإنى مرتحل . . فانشمروا راجعين إلى بلادهم(٣٠).

ورغم أن ابن هشام يعلم أين كانت الخديعة، وكيف دبرت، ومن دبرها، للإيقاع بين الأحزاب وقريظة، فإنه يقول بهدوء المؤمن الواثق : «**وخذل الله بينهم**». وحتى يتضح ذلك التدخل الإلهى، الذى يجب أن تظهر له مظاهر واضحة، فى أدوات فاعلة تليق بحجم فاعلها فقد ورد القول عند ابن قتيبة :

أما رياح الشمال والجنوب فقد ساءلت بعضها عمن يتوجه لمساعدة رسول الله، عن عكرمة قال : لما كانت ليلة الأحزاب قالت الجنوب للشمال : انطلقى نمد رسول الله ﷺ فقالت الشمال : إن

(٣٠) ابن هشام : السيرة فى كتاب السهيلي . . سبق ذكره، ج٣، ص٢٦٥، ٢٦٦.

الحرة لا تسرى بالليل ، فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصبا[٣١] .

وهو الأمر الذى جاء تأكيده وحيا يقول :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا** وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٩/ الأحزاب) .

وهى الجنود الملائكية التى لم تحارب أبداً فى الخندق ، وهو ما جاء مشروحاً عن مجاهد : «وجنود لم تروها يعنى الملائكة ، ولم تقاتل الملائكة يومئذ»[٣٢] وهو ما يعنى أن الملائكة كانت وراء تلك الريح الصرصر العاتية ، وأنها أخذت تعبث بالمهاجمين وتقلع خيامهم وتكفأ قدورهم وتطفئ نارهم .

وهكذا يعود ابن هشام من قوله : «وخذل الله بينهم إلى القول بقدرات لله أعظم بكثير من أساليب الخداع الإنسانى ، فيتابع القول : «وبعث الله عليهم الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم» ، مصوراً فعل الطبيعة قاصراً فقط على الأحزاب . لكن بعد سنوات من الخندق ، نجد الصحابى أبا حذيفة يحكى لجلسائه مشاهده القتالية مع رسول الله ﷺ فيقول له جلساؤه : والله لو كنا شهدنا ذلك ، لكنا فعلنا وفعلنا ، فيغتاظ أبو حذيفة من سهولة الكلام ، بعيدا عن واقع الفعل ، ليحكى لهم عن تلك الليالى الشاتية قوله :

> لا تمنوا ذلك ؛ لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود ، وأبو سفيان ومن معه فوقنا وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، **وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا منها ، فى أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهى ظلمة ما يرى أحدنا إصبعه** ، فجعل

(٣١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦ ، مج٢ ، ج١ ، ص٢١١ .
(٣٢) البيهقي : دلائل . . سبق ذكره ، ج٣ ، ص٤٤٨ .

المنافقون يستأذنون النبى ﷺ ويقولون: إن بيوتنا عورة وما هى بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم **ويتسللون**، ونحن ثلاثمائة أو نحو ذلك(٣٣).

ويختتم ابن إسحاق وقعة الخندق، ومع آخر القوافل المرتحلة من الأحزاب وغباره يسطع فى الأفق تشيعها كلمات الرسول ﷺ وهو يقول لأصحابه: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، لكنكم تغزونهم». ثم يعقب راوى السير بقوله: «فلم تغزُ قريش بعد ذلك. وكان رسول الله يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح الله عليه مكة.. رواه البخارى»(٣٤) وقولة الرسول هنا تعبر تعبيراً صادقاً عن واقع حال قريش بعد الخندق، فلم تعد ذلك العدو الفتّي المهدد الهادر، إنما شاخت وضاعت هيبتها بين العربان.

وهكذا جاء الحدث الكبير الذى تمثل فى تحزيب أحزاب العرب ضد يثرب، بنتائج أيضا كبيرة لكن بعكس ما توقع الأحزاب وما كانوا يرجونه. فقد تلاحمت يثرب، ورغم جبن بعضهم وهربهم، ونفاق آخرين، ورغم ما مر عليهم من ليالى رعب وفزع شاتية، فإن الحدث أيقظ لدى الناس شعوراً وطنيا جارفا زاد من تلاحم المهاجرين والأنصار. حيث شعر المهاجرون أن الدار قد أصبحت دارهم، وصدق الله وعده لنبيه بانشمار الأحزاب راجعين إلى بلادهم، ناهيك عن النتيجة الأهم والأخطر من كل هذا، وهى تحرير يثرب تماما من العنصر اليهودى. بغزوة قريظة، التى قضت على اليهود، وجعلت المنافقين عرايا من أى حلفاء، مما اضطرهم فى النهاية للخضوع التام لسلطان الدولة.

مذبحة قريظة:

عن عائشة: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من الأحزاب دخل المغتسل ليغتسل وجاءه جبريل فرأيته من خلال الباب قد عصب رأسه الغبار، فقال: يا محمد أوضعتم أسلحتكم؟ فقال:

(٣٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص١١٦.
(٣٤) نفسه: ص١١٧.

ضعنا أسلحتنا، فقال: إنا لم نضع أسلحتنا بعد، أنهد إلى بنى قريظة. ثم قال بخارى . . عن أنس بن مالك قال: كأنى أنظر إلى الغبار ساطعاً فى زقاق بنى غنم، وكب جبريل حين سارع رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة(٣٥).

أو برواية الطبرى:

فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ معتجراً بعمامة من استبرق، على بغلة عليها رحالة، عليه قطيفة من ديباج، فقال: أوقد وضعت السلاح يارسول الله؟ قال: نعم، قال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح، و ما رجعت الآن إلا من طلب القوم. إن الله يأمرك يامحمد بالمسير إلى بنى قريظة، وأنا عامد إلى بنى قريظة، فأمر رسول الله ﷺ منادياً فأذن فى الناس:

من كان سامعاً ومطيعاً، فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة(٣٦).

ولمزيد من التأكيد على أن المسير إلى قريظة كان أمراً إلهياً، حمله جبريل إلى الرسول لأمين، يقدم البيهقى الشواهد الدالة على مقدم مبعوث الإله الأول جبريل، يحمل ذلك لأمر السماوى، فى قوله:

وخرج النبى فمر بمجالس بينه وبين قريظة، فقال: هل مر بكم من أحد؟ قالوا: مر علينا دحية الكلبى على بغلة شهباء، تحته قطيفة من ديباج، فقال النبى ﷺ: ليس ذلك بدحية، ولكنه جبريل عليه السلام، أرسل إلى بنى قريظة ليزلزلهم ويقذف فى قلوبهم الرعب.

هذا؛ ومن المعلوم أن دحية هذا رجل معلوم الشأن لأهل يثرب، فهو دحية بن فروة بن فضالة، من الخزرج، وكان صاحب رسول الله ﷺ(٣٧)

(٣٥) نفسه: ص١١٩.
(٣٦) الطبري: تاريخ . . سبق ذكره، ج٢، ص٥٨١.
(٣٧) البيهقي: دلائل . . سبق ذكره، ج٤، ص٩.

وطاعة لأمر السماء، خرج المسلمون إلى بنى قريظة ليضربوا عليهم الحصار، ولما يهد بعد غبار سوائم وخيول الأحزاب المغادرة. واصطف جنود الرحمن يتحلقون حول الحصون القرظية، ويصل الرسول إلى مقدمة الدوائر المقاتلة مقترباً من الحصون، وبينم يصنع له أصحابه بالحجف ما يشبه البوق ليسمعهم كلامه، كان يهود قريظة يرهفو الأسماع وهم يرجفون لندائه ﷺ:

يا إخوة القردة والخنازير:

لكن ليرد المرتعدون:

يا أبا القاسم ما كنت فحاشاً!![٣٨].

ليعود النبى يناديهم:

يا إخوان القردة:

هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟

وتفهم قريظة الرسالة لترد راعشة:

يا أبا القاسم ما كنت جهولا!![٣٩].

وأمام ما تراه قريظة، أخذت تصرخ طالبة من محمد ﷺ أن يرسل إليهم من حلفائهم أب لبابة بن عبد المنذر الأوسى، وسمح الرسول لأبى لبابة بالمرور إلى حصونهم ليسمع منهم. وننصت مع كتب السير لذلك المسمع يقول:

قالوا: يا أبا لبابة: ماذا ترى وماذا تأمرنا به فإنه لا طاقة لنا بالقتال؟

ولم نجد قولاً لأبى لبابة، بل إشارة وحركة ذات معنى، فيورد ابن كثير رده على التساؤل:

---

(٣٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص١٢٠.
(٣٩) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٨٢.

فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه وأمرَّه عليه، يريهم أنه إنما يريد بهم الذبح[٤٠].

وهو ذات ما يرويه الطبرى فى قوله:

ثم أنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بنى عمرو بن عوف، - وكانوا حلفاء الأوس - نستشيره فى أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه.

قام إليه الرجال

وجهش إليه النساء

والصبيان يبكون فى وجهه

فرقَّ لهم

وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟

قال: نعم

ثم أشاره بيده إلى حلقه

إنه الذبح[٤١].

وندخل مع الطبرى إلى حصن قريظة الكبير، نستمع لما يدور فى الداخل، فى تلك الهنيهات البارقة الراجفة من الزمن، لنسمعه يطالع ما يحدث ويقول:

وقد كان حيى بن أخطب النضرى، قد دخل على بنى قريظة فى حصونهم، حيث رجعت عنهم قريش وغطفان، **وفاء لكعب بن أسد**

(٤٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص١٢١.
(٤١) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٨٤.

بما كان قد عاهده عليه، فلما أيقنوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد لهم :

يامعشر يهود؛ إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنى عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم، قالوا : وما هى؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه. . قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً. . قال : فهلمَّ نقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد . . ولم نترك وراءنا ثقلاً يهمنا، **حتى يحكم الله بيننا وبين محمد**. . قالوا : نقتل هؤلاء المساكين؟! فما خير العيش بعدهم؟ قال : فإن الليلة ليلة سبت، وأنه عسى يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا : نفسد سبتنا؟!. . قال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة حازماً!![٤٢].

وينتهى المشهد داخل الحصن بقرار من قريظة، أنها لن تقاتل، وأنها ستنزل على حكم رسول الله وتستأسر جميعاً. وبالفعل ينزلون فى طابور طويل يكتف فرداً فرداً بالجبال التى تصلهم ببعضهم، لينتظروا مصيرهم، آملين فى موقف أحلافهم الأوسيين لحقن دمائهم، مثلما فعلت الخزرج من قبل مع قبائل يهود التى خرجت بأرواحها، وتركت المال والعقار والعتاد، وبينما هم فى وهمهم هذا، نسمع الطبرى يقول :

ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ فى دار امرأة من بنى النجار (أى من الخزرج وليس من الأوس)، ثم خرج ﷺ إلى سوق المدينة . . **فخندق بها خنادق**[٤٣].

وقد بدا الأمر كما لو كان يسير حسبما توقعت قريظة من الأوس، حيث تواثبت الأوس حول النبى تذكره بأن قريظة مواليها دون الخزرج، وأنه سبق ومنح حياة يهود لمواليهم من

(٤٢) نفسه : ص٥٨٣ .

(٤٣) نفسه : ص ٥٨٨ .

لخزرج، يطلبون كرامتهم إزاء كرامة الخزرج فى المواقف السابقة، وهنا يجيبهم الرسول ﷺ بقوله: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال: ذاك سعد بن معاذ»[٤٤].

فى ذلك الوقت كان سعد يعانى من قطع أصاب أكحله (شريانه) بسهم غارب جاءه من خارج الخندق إبان الحصار، ولم تلجأ كتبنا التراثية هنا إلى حديث الأحاجى والمعجزات التى ينسبونها للنبى ﷺ لأن سعداً لقى نهايته الفاجعة خلال أيام. حيث قام النبى ﷺ يحسم له جرحه بنفسه كياً بالنار، لكن يده انتفخت ثم انفجر الشريان بالنزيف، فعاد النبى إلى كيه مرة أخرى ليسد مخرج الدم بالنار فانتفخت يده مرة أخرى. **أما الرواة فقد رأوا أن المعجزة لم تحدث هنا، لأن الأكحل إن قطع فلا علاج له كما أفادوا، فهناك ما يمكن علاجه بالمعجزات وهناك ما لايمكن علاجه كقطع الأكحل.**

وبينما سعد على حاله هذا، أرسل إليه النبى وجاء به فى مشهد يرويه الطبرى بقوله:

> فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ قال ﷺ: قوموا إلى سيدكم.. فانزلوه، فقال رسول الله ﷺ: أحكم فيهم، قال: فإنى أحكم فيهم **بأن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذرارى والنساء..**
>
> فقال رسول الله ﷺ لسعد:
>
> **حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة**[٤٥].

وهنا يكشف لنا الطبرى سر الخنادق التى أمر النبى بخندقتها، بينما كان القرظيون يكتفون بالحبال، حيث يقول: إن النبى قد «بعث إليهم، فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق، يخرج إليه إرسالاً، وفيهم عدو الله حيى بنى أخطب، وكعب بن أسد

(٤٤) نفسه: ص٥٨٦.
(٤٥) نفسه: ص٥٨٧، ٥٨٨.

رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة، المكثر لهم يقول كانوا نحو الثمانمائة إلى التسعمائة»[٤٦].

ويبدأ مشهد المذبحة كالتالي :

أُتى بعدو الله حيى بن أخطب . . مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال :

أما والله مالمت نفسى فى عدواتك أبداً.

ثم أقبل على الناس فقال :

أيها الناس، إنه لابأس بأمر الله، كتاب الله وقدره، ملحمة قد كُتبت على بنى إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه[٤٧].

ويشرح لنا رجالاتنا من أهل السير كيف كانت المذبحة، فيصور لنا الواقدى أحد المشاهد بقوله :

إن رسول الله ﷺ أمر أن يشق لبنى قريظة فى الأرض أخاديد، ثم جلس، فجعل على والزبير يضربان أعناقهم بين يديه[٤٨].

ويحدد لنا البيهقى مكان المقتلة بدقة فيقول :

قتلوا عند دار أبى جهل التى بالبلاط، ولم تكن يومئذ بلاطاً، فزعموا أن دماءهم بلغت أحجار الزيت التى كانت بالسوق[٤٩].

ويشرح لنا ابن هشام أنه بينما كان الأوس حلفاء قريظة فى الجاهلية، فإن الخزرج لذلك السبب كانوا يحملون لقريظة العدواة، ولما كان الخزرج أخوال النبى، فقد حبس الأسرى

(٤٦) نفسه : ص٥٨٨ .
(٤٧) نفسه : ص٥٨٩ .
(٤٨) نفسه : ص٥٩٣ .
(٤٩) البيهقي : دلائل . . سبق ذكره، ج٤، ص٢٠ .

القرظيين لديهم، ثم عند المذبحة أمرهم هم بإجراء المذبحة، فيقول مصوراً لنا مشهداً أوسع للمذبحة:

فجعلت الخزرج تضرب أعناقهم، **ويسرهم ذلك**، فنظر رسول الله ﷺ إلى الخزرج، **ووجوههم مستبشرة، ونظر إلى الأوس فلم ير ذلك فيـهم**، فظن أن ذلك للحلف الذى بين الأوس وقـريظة، ولم يكن بقى من بنى قريظة إلا اثنا عشر رجلاً، فدفعهم إلى الأوس، فـدفع إلى كل رجلين من الأوس رجـلاً من بنى قـريظة، وقـال: ليضرب فلان، وليذفف فلان[٥٠].

أما شأن سعد بن معاذ فنعرف من خبره أن أكحله الذى حسمه له النبى ﷺ قد عاد وانفجر بعد مذبحة قريظة، ولما كان هو صاحب الحكم الذى هو حكم الله، فقد وجبت مكافأته، فيما يرويه البيهقى:

إن جبريل أتى النبى ﷺ فى جوف الليل، معتجراً بعمامة من استبرق، فقال: يامحمد؛

من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء، واهتز له العرش؟

فقام رسول الله ﷺ يجر ثوبه، مبادراً إلى سعد بن معاذ، فوجده قد قُبض.

ومن ثم وقف النبى يشير إلى سعد وهو يعلن:

إن هذا الذى تحرك له العرش..

وشيع جنازته سبعون ألف ملك[٥١].

---

(٥٠) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٣، ص١٤٧.
(٥١) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٤، ص٢٩، ٢٨.

أما ابن سيد الناس فيؤكد مشاركة الملائكة فى تشييع جسد سعد إلى مثواه الأخير بقوله :

ولما حمل سعد على نعشه، وجدوا له خفة ، فقال رسول الله ﷺ : إن له حَمَلَة غيركم(٥٢) .

وفى مجال الإشادة بسعد بن معاذ وتكريمه، يروى الترمذى والنسائى حكاية البغلة والجبة التى أرسلها أكيدر دومة الجندل إلى النبى هدية ، فى القول : إنها :

جبة من ديباج، منسوج فيها الذهب، فلبسها ﷺ فقام على المنبر وجلس فلم يتكلم، ثم نزل فجعل الناس يلمسون الجبة وينظرون إليها، فقال رسول الله ﷺ :

أتعجبون منها؟!

لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن مما ترون(٥٣) .

ثم نعلم من مأثورنا علماً جديداً بشأن تلك المذبحة، حيث يعلمنا أنها لم تقتصر على الرجال فقط، **بل نالت أيضاً من الصبية**، حيث يقول الطبرى مدعماً من كل رجال السير والأخبار أن رسول الله ﷺ

قد أمر بقتل كل من أنبت منهم(٥٤) .

وهو أيضاً ما يأتينا تأكيده فى حكاية ابن إسحاق عن صبى نجا من المذبحة هو عطية القرظى، حيث يقول :

وكان رسول الله ﷺ قد أمر بكل من أنبت منهم . . عن عطية القرظى قال : كان رسول الله ﷺ قد أمر أن يقتل من بنى قريظة كل

(٥٢) ابن سيد الناس : عيون الأثر . . سبق ذكره، ج٢، ص١٠٤ .
(٥٣) ابن كثير : البداية . . سبق ذكره، ج٤، ص١٣١ .
(٥٤) الطبري : تاريخ . . سبق ذكره، ج٢، ص٥٩١ .

من أنبت منهم، وكنت غلاماً، فوجدونى لم أنبت، فخلوا سبيلى، رواه أهل السنن الأربعة.. وقد استدل به من ذهب من العلماء، إلى أن إنبات الشعر الخشن حول الفرج دليل البلوغ(٥٥).

وعن كثير بن السائب أن بنى قريظة عرضوا على النبى ﷺ فمن كان محتلماً أو نبتت عانته قتل، ومن لم يكن قد احتلم ولا نبتت عانته ترك(٥٦).

وكاد ينجو من المقتلة رجل واحد من أشراف قريظة، لولا رغبته هو فى الموت ذبحاً، هو **أبو عبد الرحمن** الزبير بن باطا القرظى، وكان يوم وقعة بعاث قد من على ثابت بن قيس وخلى سبيله، فلما أصبح ثابت مسلماً، رأى أن يرد الدين إلى أبى عبدالرحمن، فذهب بحكايته القديمة ودينه بالحياة يرويها للنبى ويطلب حياة أبى عبد الرحمن، فمنحه إياها، وذهب ثابت يبشر أبا عبدالرحمن بالحياة، ليدور بينهما الحوار التالى:

أبو عبدالرحمن: أى ثابت، ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحى كعب بن أسد؟

ثـــابت　: قتل.

أبو عبدالرحمن: فما فعل سيد الحاضر والبادى حيى بن أخطب؟

ثـــابت　: قتل.

أبوعبد الرحمن: فماذا فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا كررنا عزال ابن سموأل؟

ثـــابت　: قتل.

أبو عبدالرحمن: فما فعل المجلسان ـ يعنى كعب بن قريظة وبنى عمرو ابن قريظة؟

ثـــابت　: ذهبوا، قتلوا.

---

(٥٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص١٢٧.

(٥٦) البلاذري: فتوح البلدان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦، ج١، ص٢٣.

أبو عبدالرحمن : فإنى أسألك بيدى عندك يا ثابت ، ألا ألحقتنى بالقوم ، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير ، فما أنا بصابر لله قبلة دلو نضح ، حتى ألقى الأحبة .

وهنا أخذه ثابت من يده وأوقفه فى طابور المذبحة ليأخذ دوره ، فضربت عنقه(٥٧) .

وبعد الانتهاء من شأن المذبحة ، أتى دور الغنائم والسبايا ، فأما الغنائم فيحصيها لنا ابن سعد فى قائمة طويلة كالتالى :

ألف وخمسمائة سيف

ثلاثمائة درع

ألفا رمح

ألف وخمسمائة ترس وجحفة

جمال ونواضح كثيرة(٥٨) .

وهى القائمة التى تشى بمدى العدة والعتاد التى كانت فى حوزة قريظة ، وهو أيضا ما يفصح عن رغبة قريظة فى النأى عن الحرب طمعاً فى مصير نضير وقينقاع للخروج بأرواحهم دون عتادهم وأموالهم .

وجاء دور السبايا ليقول ابن سعد :

واصطفى رسول الله ﷺ ريحانة بنت عمرو لنفسه ، وأمر بالغنائم فجمعت ، فأخرج الخمس من المتاع والسبى ، وأمر بالباقى فبيع فى من يزيد ، وقسمه بين المسلمين(٥٩) .

---

(٥٧) الطبري : تاريخ . . سبق ذكره ، ج٢ ، ص٥٨٩ ، ٥٩٠ .

(٥٨) ابن سعد : الطبقات ، مج١ ، ج٢ ، انظر أيضاً : الواقدى : كتاب المغازى ، تحقيق مرسدن جونز ، منشورات جامعة أكسفورد ، لندن ، ١٩٦٦ ، ج٢ ، ص٥١٠ .

(٥٩) الموضع نفسه عند ابن سعد .

أما ريحانة بنت عمرو، التى اختارها النبى، فقد قال بشأنها ابن كثير:

> **عرض عليها النبى ﷺ أن يعتقها ويتزوجها فاختارت أن تستمر على الرق**، ليكون أسهل عليها، فلم تزل عنده حتى توفى عنها عليه الصلاة والسلام[60].

ويؤكد الطبرى موقف ريحانة فى قولها لسيدها الجديد:

> تتركنى فى ملكك، فهو أخف علىّ وعليك، فتركها، وكانت حين سباها رسول الله ﷺ قد تعصت بالإسلام، وأبت إلا اليهودية[61].

وفاضت السبايا حتى بيعت بقيتهم لرجال نجد، وكان عائد البيع عظيماً، وتم شراء خيل وسلاح إضافى بثمنهم، لتتضخم الأعتدة العسكرية الإسلامية وكراعها بمخزون عظيم لما هو آت.

وهكذا جاءت دية بنى عامر بمجموعة من التداعيات أخذ بعضها بعقب بعض، فطردت نضير من يثرب، لكن ليحزب زعماؤها الأحزاب فى غزوة الخندق التى انتهت بدورها لصالح يثرب، بالانسحاب بعد الخدعة. لينتهى الأمر بالقضاء على بنى قريظة، وتطهير المدينة تطهيراً كاملاً، وسيطرة النبى سيطرة تامة على يثرب، مع نمو هائل فى ثروة المسلمين وقوتهم العسكرية. وهو الأمر الذى دفع المنافقين لحسم مواقفهم، حيث لم يعد لهم سند من حلفائهم اليهود، ولم يعد بإمكانهم التطاول على القوة الإسلامية المتعاظمة، وانتهى أمرهم بالخضوع الكامل لسيد المدينة وهى النتائج التى أوجزتها الآيات الكريمة بإيجازها البليغ تبلغ العربان وتذكرهم بقولها:

---

(٦٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص١٢٨.

(٦١) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٩٢.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا . وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾(٢٥/ ٢٦/ ٢٧/ الأحزاب).

* * *

(٦٢) الصياصي : نوع من الحصون.

الباب الثانى

الاعتراف بقيام الدولة



إخضاع القبائل

«يارســـول الله؛ لاتحــرم علينا حــلالاً ولا تحل لناحــرامــاً!!»

(زيد بن رفاعة الجذامى)

بالطبع لم تنفذ يثرب اتفاقها مع غطفان الفزارية، بعد أن مزق السعدان الصحيفة التى كان من المزمع تنفيذها مع عيينة بن حصن الفزارى، للتخذيل بين الأحزاب. لذلك ما أن انصرفت الأحزاب عن يثرب، وعلم القرشيون بحجم المكيدة التى دبرها الغطفانى الداهية نعيم بن مسعود، حتى عاد عيينة بن حصن ببعض خيل غطفان، ليغيروا على لقاح النبى بالغابة. لكن بالجوار كان سلمة بن الأكوع، يراهم، فيركض نحو التلول يرتقيها موجها وجهه شطر يثرب منذراً صائحاً: واصباحاه، عدة مرات، ثم يهرع نازلاً يمنع القوم بنباله ويروى لنا ابن كثير بطولة ذلك المسلم الفرد فى صورة رائعة وهو يقول:

> فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هارباً، ثم عارضهم، فإذا أمكنه الرمى رمى.. وبلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع، فصرخ بالمدينة: الفزع الفزع، فترامت الخيول إلى رسول الله ﷺ فلما اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ أمر عليهم سعيد ابن زيد وقال: اخرج فى طلب القوم حتى ألحقك بالناس.. وأقبل رسول الله ﷺ.. واستنقذ بعض اللقاح، وسار الرسول حتى نزل بالجبل من ذى قرد، وتلاحق به الناس، فأقام عليه يوماً وليلة. وقال سلمة ابن الأكوع يارسول الله لو سرحتنى فى مائة رجل، لاستنقذت بقية السرح، وأخذت بأعناق

القـرم، فقال رسـول الله ﷺ إنهم الآن ليعبـقون فى غطفـان . . ثم رجع قـافـلاً إلى المدينة . . (ويقـول ابن الأكـوع) ثم رجـعنا، وردفنى رسول الله ﷺ على ناقته حتى قدمنا المدينة[1] .

ومرة أخرى تتعرض لقاح الرسول لغدر الأعراب، الذين أطمعتهم سوائمه، فقدم على النبى ثمانية رجال من عرينة، وأظهروا الإسلام، وبعد أيام اشتكوا للنبى سوء حالتهم الصحية بداخل يثرب، وأنهم أهل بوادى لا يطيقون المدن والزروع . فأذن لهم بالخروج لرعاية لقاحه، الذى يرعى بذى الجدر بناحية قباء، فظلوا فيها فترة، ثم عدوا على لقاح رسول الله ﷺ وقتلوا **واحداً من عبيد النبى**[2]، فكان أن أرسل وراءهم سرية كرز بن جابر الفهرى، ليقبض عليهم، ويلقوا جزاء ما قدمت أيديهم بحق النبى وبحق الدولة، وهو الجزاء الذى جاءنا ذكره فى البيهقى وهو يروى :

فلم ترتفع الشمس، حتى أُتى بهم، فأمر بمسامير فـأحـميت ، فكواهم، وقطع أيديهم وأرجلهم ، وألقاهم فى الحرة يُستسقون فلا يُسقون، حتى ماتوا[3] .

ويضيف ابن سيد الناس أنه قد أمر إضافة لذلك بسمل عيونهم[4] .

ومع تلك التحركات الطامعة الغادرة من الأعراب، كان على يثرب أن تكشف مرة أخرى من سراياها المسلحة التأديبية المنذرة، لتؤوب القبائل إلى سابق انكماشها . فكانت سرية عبدالله بن أنيس الجهنى، التى سرت إلى خيبر لتنتقم من مشاركة سادتها فى تحزيب الأحزاب، فيقطع ابن أنيس من خيبر رأسها : أسير بن رزام، جزاء وفاقاً لما قدمت يداه[5] .

---

(١) ابن كثير : البداية . . سبق ذكره، ج٤، ص١٥١ : ١٥٣، انظر أيضاً : ابن سعد : الطبقات . . سبق ذكره، مج٢ ج١، ص٥٨ : ٦١ .

(٢) ابن سعد : الطبقات . . سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٦٧ .

(٣) البيهقي : دلائل . . سبق ذكره، ج٤، ص٨٧ .

(٤) ابن سيد الناس : عيون الأثر . . سبق ذكره، ج٢، ص١١٩ .

(٥) نفسه : ص١٤٦ .

لتتبعها سرية عكاشة بن محصن الأسدى مغيراً على قومه بنى أسد فى الغمر، ويبدو أن الأسود عرفوا رأس الحكمة من الغارة السابقة للنبى عليهم، فهربوا مع نعمهم وشياههم، ويصل عكاشة فيجد الديار فراغاً، لكنه لم يشأ أن يرجع فارغاً، فهجم على بنى عمومة لهم فى الجوار، ليستاق منهم مائتى بعير يعود بها مغنماً إلى يثرب(٦).

وإذا كانت حكمة الأُسود تدعوهم كل مرة إلى الفرار بأموالهم وأرواحهم، فإن الثعالب من بنى ثعلبة كانت لهم حكمة أخرى، فما أن هبطت عليهم سرية محمد بن مسلمة بذى القصة باتجاه الربذة فى عشرة من المسلمين، حتى نذر به الثعالب بدهائهم. وأحدقوا بالسرية وحملوا على رجالها تقتيلاً، ولم ينج سوى مسلم واحد خرج سليماً، ليحمل محمد بن مسلمة جريحاً ويعود به إلى المدينة.

وفوراً يرسل رسول الله ﷺ سرية أبى عبيدة بن الجراح للضرب على يد بنى ثعلبة بقوة، ويمده بأربعين مقاتلاً يهبطون على ذى القصة متسللين متخفين ليفاجئوا الثعالب فى عماية الصبح. ولكن مرة أخرى ينذر به الثعالبة ـ متأخرين بعض الشىء ـ فيهبوا إلى دروبهم وشعابهم بين جبال يعلمون سبلها ولا يتمكن المسلمون منهم، فيكتفوا بحيازة أنعامهم التى تركوها، وينحدروا بها عوداً إلى المدينة.

ووسط تلك الأحداث، يأتينا خبر طلاق زيد بن حارثة من زينب بنت جحش، وتزويج السماء لزينب من النبى، ليخرج من بعدها زيد للاستشفاء النفسى، فى عدد من السرايا المتوالية. أو ليرسله النبى فى عدد من السرايا المتتابعة، لا يهدأ ولا يكل، فينزل بسرية على بنى حارثة من قبائل سليم ليصيب منهم سوائمهم، ثم يردفها بسرية إلى العيص تعترض طريق قافلة تجارية قرشية قادمة من الشام بها فضة عظيمة، فيستولى على ما فيها. ثم يتبعها بسرية ثالثة إلى بنى ثعلبة، فيغنم منهم أنعاماً جزيلة، ثم يخرج بسرية رابعة إلى حسمى من وراء وادى القرى، بأمر من الرسول ﷺ انتقاماً من بنى جذام الذين قطعوا الطريق على

(٦) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٦١.

صديق النبى دحية الكلبى ، الذى كان يتمثل به جبريل الملاك ، فيسلبوه منحة قيصر له . وينزل زيد بساحتهم فيقتل منهم قوماً كثيرين ، ويذبح زعيمهم الهنيد وولده ، ويأخذ نعمهم وماشيتهم ونساءهم ، وما يربو على خمسة آلاف شاة ، وألف بعير ، غير مائة من السبايا وعدد عظيم من الغلمان ، ولا يصاب البطل المسلم المتميز زيد فى كل تلك السرايا إصابة واحدة .

لكن بين جذام والنبى كان كتاب موادعة سابق ، فيهرع أحد الناجين هو زيد بن رفاعة إلى النبى ، فى نفر من قومه فيهم أبو يزيد بن عمرو . ثم نستمع إلى المشهد حال دخوله على رسول الله ﷺ من ابن سعد وهو يحكى :

فدفع إلى رسول الله ﷺ كتابه الذى كان كتب له ولقومه ، وقال :

يارسول الله ؛ لا تحرم علينا حلالاً ولا تحل لنا حراماً .

فقال الرسول :

وكيف أصنع بالقتلى ؟

قال أبو يزيد بن عمرو : أطلق لنا يارسول الله من كان حياً ، ومن قتل فهو تحت قدمى هاتين .

فقال رسول الله ﷺ : صدق أبو يزيد[٨] .

وما أن يرحل الجذاميون ، بما كان لهم عند النبى ، حتى يخرج زيد مرة أخرى بسرية خامسة إلى وادى القرى[٩] . لتعطى تلك السرايا دلالتها حيث بدأت تأخذ وجهة الشمال الرومى والمشرق الكسروى . ويزداد تأكيد المقاصد والدلالات ، بإغارة عبدالرحمن بن عوف مرة أخرى برجاله على قبائل كلب فى دومة الجندل بالشمال ، وهناك يعلن زعيمهم

---

(٧) نفسه : ص٦١ ، ٦٢ .

(٨) نفسه .

(٩) الموضع نفسه .

الأصبغ اتباعه للدولة وللدين ويشهر إسلامه، ويزوج ابنته تماضر لقائد السرية عبد الرحمن بن عوف، ليعود بها وبالعهد إلى المدينة[١٠]. ولكن وجهة الشمال حيث كنوز كسرى وقيصر الهدف الأعظم، لازالت بحاجة إلي تأكيد، فتخرج إليها سرية على بن أبى طالب إلى بنى سعد بن بكر فى فدك، ليغير عليهم على غرة، فيهزمهم، وهم من كانوا من القوة بحيث هزموا قبل البعثة فيالق كسرى، لكن الرعب يأخذهم فيفرون قبل وصول السرية ديارهم، ويتركون له ألفى شاة وخمسمائة بعير يعود بها، أما كلب التى كانت فى الطريق، فقد تركت له طريق العودة وهربت من ديارها بنسائها وأموالها رغم ما تأكد لها من عهود مع دولة النبى ﷺ[١١].

وهكذا أبلغت السرايا وبلغت رسائلها إلى الشمال الرومى، ووصلت برقيات الرعب إلى زعيم نصف العالم آنذاك: قيصر الروم.

* * *

(١٠) نفسه: ص٦٤ ، ٦٥.
(١١) نفسه: ص٦٥.



غزوة المصطلق

«ســــمن كـــلبك يأكـــلك !!»

________________ (عبدالله بن أُبّي بن سلول)

يامنصور: أمت، أمت،

صيحة الفزع المرعبة التى دوت على ماء (المريسيع) فجأة ودون سوابق أو ممهدات، بمضارب (بنى المصطلق)، ليهبط عليهم الرسول ﷺ برجاله فى جمادى الآخرة من عام ستة للهجرة، فتأخذهم الفجأة وتشلهم الصعقة، فما يفيقوا إلا على قتلاهم وأسراهم وسباياهم وأموالهم ونعمهم، تُجمع بيد السيد المنتصر[1].

وبين السبايا وقفت بنت السادة الرافلة فى النعيم، زوجة مسافع بن صفوان المصطلقى، (جويرية بنت الحارث) سيد المصطلق، تنتظر دورها[2]، فتقع فى سهم جندى مسلم هو مجرد نفر اسمه قيس بن الشماس. ومن ثم تحكى لنا جويرية وهى ترى ما آلت إليه، باحثة عن مخرج يلائم مكانتها:

> رأيت قبل قدوم النبى ﷺ بثلاث ليال، كأن القمر يسير من يثرب، حتى وقع فى حجرى، فكرهت أن أخبر بها أحداً من الناس، حتى قدم رسول الله ﷺ فلما سُبينا، **رجوت الرؤيا**[3].

---

(١) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، مج٤، ص٨، ٦.
(٢) نفسه: ص١٩.
(٣) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٤، ص٥٠.

ولتحقيق الرؤيا، ساومت آسرها ثابت بن قيس، على أن تدفع له فداءها عن نفسها ويطلقها حرة، بموجب مكاتبة على العتق بذلك. وهى تعلم يقيناً أنها أسيرة لا تملك مالا تشترى به نفسها، ولا تعلم حتى إن هى اشترت نفسها أين تذهب بعد أن ذهب قومها قتلاً وأسراً. ومن ثم قررت أن تختبر الرؤيا، فذهبت إلى النبى لتطلب منه إعانتها فى مكاتبتها!!

وهنا تقول لنا أم المؤمنين السيدة عائشة الغيور:

فوالله ما أن رأيتها على باب حجرتى، فكرهتها وعرفت أنه ﷺ سيرى منها ما رأيت.

أما ماذا رأت السيدة عائشة - رضى الله عنها - ؟ فهو ما توضحه فى قولها:

كانت امرأة حلوة ملاحة

لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه

ويشرح لنا السهيلى شارح السيرة المعنى لكلمة (ملاحة) فى قول أم المؤمنين بقوله:

الملاح أبلغ من المليح..

والملحة هى البياض..

وملاحة: فى العينين

وقال الأصمعى:...

الملاحة فى الفم..

وقول عائشة.. من الغيرة عليه والعلم بموقع الجمال منه ﷺ

ونتابع الحدث وهو يتحرك، فنرى جويرية الأسيرة تدخل على النبى ﷺ لتقول:

يا رسول الله:

أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار

سيد قومه

وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك

فوقعت فى السهم لثابت بن الشماس

فكاتبته على نفسى

فجئت أستعينك فى كتابتى

وهنا يتطلع سيد الخلق، العارف بمواطن الجمال والملاحة، ويملأ عينيه منها، ليعقب السهيلى على ذلك التطلع الطويل بقوله: «أما نظره عليه السلام لجويرية، **حتى عرف من حسنها ما عرف**، فإنما ذلك لأنها كانت امرأة مملوكة، ولو كانت حرة، **ما ملأ عينه منها**، لأنه لا يكره النظر إلى الإماء. ويجوز أن يكون نظر إليها، لأنه نوى نكاحها، كما نظر إلى المرأة التى قالت له: إنى وهبت نفسى لك.. وقد ثبت عنه عليه السلام. **الرخصة فى النظر إلى المرأة**، عند إرادة نكاحها».

وكان ما توقعته جويرية الحسناء، التى تعرف قدر حسنها، وقدمت لها الأقدار تحقيق رؤياها، حين قال لها النبى **بعد تأمله الطويل**:

فهل لك فى خير من ذلك؟

قالت: وما هو يارسول الله؟

قال: أقضى عنك كتابك وأتزوجك.

قالت: نعم يارسول الله قد فعلت.

وهنا تعقب السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ: «وخرج الخبر إلى الناس، أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ وأرسلوا ما بأيديهم. قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها[٤].

---

(٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، انظر معه شرح السهيلى، مج٤، ص٨، ٩، ١٨، ١٩.

ويقول ابن سيد الناس : «وكان الإبل ألفى بعير، والشاة خمسة آلاف شاه، وكان السبى مائتى بيت»[٥].

وبينما كان حسن جويرية وملاحتها يحل على أهلها بركة وسلاماً، لتزف إلى سيد الخلق فى زيجة جديدة، عكر صفو العرس حدث جديد أحدثه عبدالله بن أبى بن سلول، مع نفر من أتباعه ممن تنعتهم كتب الأخبار بالمنافقين. وهو ما يأتينا خبره فى عدد من الروايات، أولها ما رواه بن هشام فى قوله : إنه بينما المسلمون يتزاحمون على ماء المريسيع «وردت واردة الناس، ومع عمر ابن الخطاب أجير له من غفار يقال له جهجهاه بن مسعود، يقود فرسه، فازدحم جهجهاه، وسنان ابن وبر الجهنى حليف بن عوف من الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهنى : يا معشر الأنصار، وصرخ جهجهاه : يا معشر المهاجرين، فغضب عبدالله بن أبى بن سلول، وعنده رهط من قومه، فقال :

أو قد فعلوها؟

قد نافرونا وكاثرونا

والله ما عدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول :

سمن كلبك يأكلك

أما والله لئن رجعنا المدينة

ليخرجن الأعز منها الأذل

ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم : أحللتموهم بلادكم، قاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم، لتحولوا إلى غير دياركم»[٦].

---

(٥) ابن سيد الناس : عيون .. سبق ذكره، ج٢، ص١٢٤.
(٦) ابن هشام : السيرة فى كتاب السهيلى .. سبق ذكره، ج٤، ص٧.

ويسمع الصبى (زيد بن أرقم) ما بدر من ابن سلول، وما أفصحت عنه شفتاه من مكنون صدره، ليهرع من فوره إلى النبى يهمس له بما قال ابن سلول. ويسمع الأنصار همس الصبى، فينبرون دفاعاً عن رجلهم المقدم: «يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حدبا على ابن سلول ودفعا عنه»[٧].

وتحتد بعمر أعصابه وتأخذه الغضبة أخذاً فيقول للنبى وهو يرعد: مر عباد بن بشر فليقتله، لينافس عمر ولد عبدالله بن سلول الذى يحمل اسم أبيه (عبد الله)، فيهرع إلى مجلس النبى يقول: «إنه بلغنى أنك تريد قتل عبدالله بن أبى فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلاً، فمرنى به، فأنا أحمل إليك رأسه»[٨].

ولكن حكمة سيد الخلق أفصح وأنصع وأكرم، فتنفرج شفتا رسول اللهﷺعن قوله:

فكيف يا عمر إذا تحدث الناس:

أن محمداً يقتل أصحابه؟

ويلتفت إلى (عبدالله بن سلول) الابن ويقول له بكل حب أبوى

ورحمة نبوية:

لا

بل نترفق به

ونحسن صحبته ما بقى معنا[٩].

وهى الحكمة والرحمة البليغة، التى كانت رداً غير منتظر، وضع ابن سلول فى موقف شديد الهزال أمام قومه، ليعقب الشعور بالفزع والرعب شعور المهانة والتدنى والخجل،

---

(٧) الموضع نفسه.

(٨) نفسه: ص٨.

(٩) الموضع نفسه.

وهى المشاعر التى دفعته يسعى للنبى ﷺ ليحلف له بأغلظ الأيمان، بأنه ما قال ما قال ولا تكلم به.

وكى تتم معالجة الأمر على وجه السرعة، لقمع دعوى الجاهلية، وإيقاف أى طارىء جانبى قد يحدث بين انصارى ومهاجر هنا أوهناك، وما قد يجره أى حدث جانبى من تفكك فى الجبهة الإسلامية. أمر النبى القائد الفذ وزيره عمر بن الخطاب أن يوذن فى الناس بالرحيل الفورى على عجل ودون إبطاء، فى ساعة هجير شديد القيظ، ويحكى ابن إسحاق:

> فلما استقل رسول الله ﷺ وسار، لقيه أسد بن حضير، فحياه تحية النبوة وسلم عليه، وقال يانبى الله، والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها، فقال رسول الله ﷺ: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأى صاحب يا رسول الله؟.. يارسول الله أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.
>
> ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مساً من الأرض، فوقعوا نياماً.

ويعقب ابن إسحاق على تلك القسوة من القائد على رجاله، بقوله: «وإنما فعل رسول الله ﷺ ذلك، ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس، من حديث عبدالله ابن سلول»[١٠].

أما إجابة الرسول الحكيمة لعبد الله بن سلول الابن، ولعمر بن الخطاب، فسرعان ما آتت ثمارها، فيما يخبرنا ابن هشام عن ابن سلول: «فجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث،

---

(١٠) نفسه: ص٧، ٨.

كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر، حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ **أما والله لو قتلته يوم قلت لى أقتله، لأرعدت له أنوف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته**»(١١).

ولم يكن حدث ابن سلول المعكر الوحيد لصفو العرس الجديد، فالصبى زيد بن أرقم الذى مدحه النبى وكرمه لما حمل إليه مقالة ابن سلول، وأمسكه من أذنه وقال ﷺ: «هذا الذى أوفى الله بأذنه»، وجد له دوراً. فعاد يهمس للنبى أنه «سمع رجلاً من المنافقين يقول ورسول الله يخطب فيهم: **«لئن كان هذا صادقاً، لنحن شر من الحمير»** فيرد عليه الصبى: «فهو والله صادق، وأنت شر من الحمار»(١٢).

ويتعالى التشكيك فى نبوة النبى من بعض رجاله، فيما يرويه البيهقى:

> وفقدت راحلة رسول الله ﷺ من بين الإبل، فسعى لها الرجال يلتمسونها، فقال رجل من المنافقين كان فى رفقة الأنصار: أين يسعى هؤلاء؟ قال أصحابه: يلتمسون راحلة رسول الله ﷺ ضلت، فقال المنافق: **ألا يخبره الله بمكان راحلته؟** فأنكر عليه أصحابه ما قال، وقالوا: قاتلك الله، نافقت(١٣).

أما أشد المنكرات من أحداث معكرة، صاحبت غزوة المصطلق، وعكرت عرس النبى بجويرية، ما جاء بحدث الإفك عن أم المؤمنين الغيور وهى تصحب زوجها فى زفة عرسه، لتلوك الألسن عنها بالفحشاء وترميها بالشاب صفوان بن المعطل فى القصة المعروفة التى أتى بها عصبة من الأفاكين، حيث حسمت السماء الأمر بتدخلها بالوحى الصادق، الذى برأ أم المؤمنين مما أتى به أهل الإفك والبهتان.

---

(١١) نفسه: ص٧.
(١٢) البيهقي: دلائل .. سبق ذكره، ج٤، ص٥٧.
(١٣) نفسه: ص٥٩.



غــزوة الحـديبية

«أمــا الرحــمن فــلا أدرى والله مــا هو؟!»

(سهيل بن عمرو)

بمجىء شهر ذى القعدة، بداية موسم الحج الجاهلى، وفجأة، ودون أى علامات أو مقدمات منذرة، يتم التحول دورة كبرى، عن السرايا الصغيرة والغزوات المتناثرة، إلى الهدف الأكبر. يوم قام النبى من نومه ليعلن لأصحابه خبر رؤيا رآها فى منامه، أنهم يدخلون معه مكة يطوفون بالبيت آمنين. وهو ما يعقب عليه السهيلى فى شروحه «كان النبى قد رأى ذلك فى منامه، **ورؤيا الأنبياء وحى**»[1].

ومن ثم، نادى المنادى بين مسلمى يثرب، وبين عربان جهينة ومزينة وخزاعة وغيرها من حلفاء يثرب، الذين حالفوها سياسيا بإسلام من البعض وبعدم إسلام من آخرين، ويقول ابن إسحاق:

«واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى والأعراب ليخرجوا معه.. فأبطأ عليه كثير من الأعراب» ويتابع ابن سعد يقول: «واستنفر رسول الله ﷺ أصحابه إلى العمرة، فتهيأوا وأسرعوا، ودخل رسول الله ﷺ بيته فاغتسل ولبس ثوبين، وركب راحلته القصواء.. ثم دعا بالبدن التى ساق فجللت ثم أشعرها فى الشق الأيمن وقلدها، وأشعر أصحابه

(١) السهيلى: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج٤، ص٣٨.

أيضاً . . وهى سبعون بدنة . . وأحرم ولبى . . وخرج معه من المسلمين ألف وستمائة»[٢] .

ولاشك ؛ أنه مثلما كان للنبى عيونه داخل مكة ، فإن مكة ما كان ليفوتها أن تدس عيوناً لها بيثرب ، تلك العيون التى ـ لابد ـ قد أخذتها الدهشة ، وهى ترى النبى يفعل فعل قريش ، فيدعوا إلى عمرة ، ويمارس ذات شعائر قريش . فيسوق أمامه البدن (البعير المساقة هديا للذبح) ، بعد أن جللها وقلّدها ، بل ويسير أمام رجاله يلبى فيلبون ، معلنا أنه قد جاء ساعياً معتمراً لا يريد حرباً[٣] . فى الوقت الذى كانت تأتيه عيونه الخزاعية بخبر يقول : «إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى ، قد جمعوا لك الأحابيش ، وجمعوا لك جموعهم ، وهم قاتلوك أو مقاتلوك»[٤] .

ورغم التظاهرة الدينية الواضحة ، التى أرادها النبى رسالة مبلغة إلى قريش ، لتعلم أنه جاء محترماً مشاعرها وشعائرها وطقوسها ، وهى الطقوس المرتبطة جميعاً بتجارتها ومكاسبها ، وما فى تلك الرسالة من طمأنة ضمنية وإبراق فصيح بالتحولات الآتية . فإن مكة لم تر فى ذلك العدد الهائل من المقاتلين الذين يصل عددهم إلى ألف وستمائة ، سوى محاولة مكشوفة لدخول مكة تحت ستار العمرة ، محتمية بحرمة الأشهر الحرم ، لتعمل سيوفها فى بطن مكة من الداخل بغتة . وهو الدرس الذى لم تنسه قريش منذ سرية عبدالله بن جحش التى انتهكت الأشهر الحرم ، وحللها الكلم القرآنى وصادق عليها . لذلك ما أن بلغت أخبار بدء يثرب بالمسير إلى مكة ، حتى أخذت مكة تهيىء رجالها على الطريق ، لتقف فى وجه الغزو الآتى . وبلغ النبى أن على الطريق قد وقف بنو لؤى بجموعهم وخيلهم ، فتوجه إلى رجاله قائلاً :

---

(٢) ابن كثير : البداية . . سبق ذكره ، ج٤ ، ص١٦٦ . انظر أيضاً ابن سعد : الطبقات . . سبق ذكره ، مج٢ ، ج١ ، ص٦٩ .

(٣) ابن كثير : البداية . . سبق ذكره ، ج٤ ، ص١٦٦ .

(٤) البيهقي : دلائل . . سبق ذكره ، ج٤ ، ص٩٩ ، ١٠٠ .

> أشيروا عليَّ، أترون أن نميل على ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم، فنصيبهم فإن قعدوا موتورين محرومين وإن نجوا **تكن عنقا قطعها الله**؟ أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟[٥].

كان بإمكان المسلمين أن يميلوا على مضارب بنى لؤى الخالية من الرجال، **ليقتلوا ما شاءوا من أطفالهم، وتكون عنقاً قطعها الله**، وكان بإمكانهم أن يتوجهوا عن طريق آخر إلى مكة، فإن اعترضتهم قريش قاتلوها، ورداً على استشارة النبى رجاله جاءه جواب أبى بكر الصديق الحكيم «. . من حال بيننا وبين البيت قاتلناه»[٦].

وإعمالاً للمشورة، يخبرنا ابن سعد بما تلى ذلك من أحداث؛ فيقول:

> سار النبى ﷺ حتى دنا من الحديبية، وهى **طرف الحرم**، على تسعة أميال من مكة، فوقعت يدا راحلته على ثنية، تهبطه على **غائط القوم**، فبركت، فقال المسلمون: حلّ، حلّ، يزجرونها، فأبت أن تنبعث، فقالوا: خلأت القصواء.

وهنا تأتى برقية جديدة لقريش لمزيد من الطمأنة، تحمل فى فحواها معانى لذوى العقول، فى قول المصطفى ﷺ:

> إنها ما خلأت، لكن حبسها حابس الفيل، **أما والله لا يسألونى اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله، إلا أعطيتهم إياها**، ثم زجرها فقامت، فولى راجعا عوده على بدء، حتى نزل بالناس على ثمد من أثماد الحديبية[٧].

---

(٥) نفسه: ص١٠٠.
(٦) الموضع نفسه.
(٧) ابن سعد: الطبقات . . سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٦٦.

وبينما القوم ينيخون رحلهم، حمل بشر بن سفيان الكعبى خبراً آخر عند عسفان، يقول للنبى:

يارسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذى طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم، قد قدموها إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ:

ياويح قريش

لقد أكلتهم الحرب

ماذا لو خلوا بينى وبين سائر العرب؟

فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا،

وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا الإسلام وافرين،

وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة؟!![8].

وتحاشياً للاصطدام بجيش خالد بن الوليد، قال النبى بين رجاله: «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها؟»، فيقوم له دليل يسلك معه النبى وجيشه طريقاً وعراً بين الشعاب، حتى يهبط الوادى. وتعلم قريش بمكانه، فترسل له حليفاً له من خزاعة، هو بديل بن ورقاء، برسالة، ليرده إليهم النبى برسالة أخرى تؤكد أنه جاء معظماً لحرمة بيتهم، رمز تجارتهم وسطوتهم وسلطانهم ومعتقدهم. ويذهب بديل بالرد النبوى ليقول «يامعشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً معظماً لهذا البيت». لكن قريشاً التى تعلم هوى خزاعة مع النبى تتهم بديل وتخّونه، ذلك الهوى الذى كان يعلمه كتاب السير والأخبار وهو ما أفصح عنه ابن كثير فى قوله:

---

(٨) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج٤، ص٢٥.

وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول الله ﷺ مسلمها ومشركها، لا يخفون عنه شيئا كان بمكة(٩).

ولتجب على بديل بردها:

وإن كان جاء لا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تحدث العرب بذلك عنا(١٠).

وتتذاكر قريش ما حدث لقريظة، ذلك الحدث الذى أذهل العرب جميعاً وقريشاً بخاصة، فأى قتال كان فى الجزيرة، كان لا يصل إلى إبادة ذلك العدو جميعاً، وإبادة قوم بكاملهم، وما صحب الحدث من إنذارات تمثلت فى الآى الكريم ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب﴾. ليأخذ الرعب بقلب مكة قابضاً منها على الجوانح والحشايا، وتظن بالنبى الكريم سوء الظن، وتتسارع أنفاسها وهى تتصور دخوله عليها، ومصير كمصير قريظة وفناء من على وجه الأرض إلى آخر الدهر. فقامت تدفع برسلها إليه رسولاً فى عقب رسول، فتبعث بعد بديل مكرز بن حفص، وهو من عامر بن لؤى الذين يحملون للنبى كراهية، فلما رآه النبى مقبلاً، قال «هذا رجل غادر»، ثم قال له ماسبق وقال لبديل ليحمله إلى مكة»(١١).

ثم يردفون وراء مكرز، الحليس بن علقمة سيد الأحابيش، وهم قوم قد تدروشوا فى حب البيت حتى قدسوا أمره جميعاً، وصاروا يمثلون أشد الاتجاهات تعظيماً لحرمة البيت وشعائره. فلما رآه النبى قادماً عن بعد، قال لرجاله: «إن هذا من قوم يتألهون»، ويشرح ابن سيد الناس معقباً شارحاً «يتألهون: يعظمون أمر الإله، قال الخشنى: التأله التعبد، ورأيت عن ابن الكلبى فى نسب الحليس ابن ريان: أنه الحليس بن عمرو بن عامر بن

---

(٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص١٦٨.
(١٠) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص٢٦.
(١١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص١٦٨.

المغفل»[١٢] ومن هنا كان التصرف الذى يمكن أن يقنع الحليس، فقال النبى بسرعة: «ابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه»، أى ارسلوا النوق المشعرة المجللة المهداة للذبح ليراها، وهنا يقول ابن هشام:

> فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك، فقالوا: اجلس، فإنما أنت أعرابى لا علم لك[١٣].

وترسل قريش رسولاً آخر إلى مجلس النبى، من سادة ثقيف، هو (عروة بن مسعود الثقفى)، الذى وصل إلى مجلس النبى وجلس قبالته مباشرة، ليفصح عن رعب قريش وذكرى قريظة فى قوله:

> يامحمد
>
> أرأيت إن **استأصلت قومك**،
>
> فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟
>
> يامحمد
>
> جمعت أوشاب الناس (الأوباش)، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم؟
>
> لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً!!

لكن ليرد عليه أبو بكر على الفور:

> **أمْصُصْ بظر اللات**
>
> أنحن ننكشف عنه؟

(١٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج٢، ص١٦٢.
(١٣) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص٢٦.

فيلتفت عروة ليسأل النبى : من هذا يامحمد؟

ولما لم يكن من المقبول ألا يعرف عروة شخصية أبى بكر ، فإن الاستنتاج هو أن أبا بكر **كان ملبساً بالحديد ، خوذة ودروع** ، ويجيبه النبى : «هذا ابن أبى قحافة» ، فيرد عليه عروة معرضاً عن إهانته «والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بهذا ، ولكن هذه بها» .

ويستمر عروة يحدث النبى ، ويتناول لحية رسول الله ﷺ كلما حدثه ، «والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ **فى الحديد** فجعل يقرع يده إذا تناول لحية الرسول ﷺ ويقول : أُكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك ، فيقول عروة : ويحك ما أفظك ، ما أغلظك» .

ويبتسم رسول الله ، لأن عروة لم يعرف ابن أخيه وهو مدرع بالحديد ، ذلك الحديد الذى كان كافياً لإقناع عروة **أن الأمر ليس أمر عمرة أبداً**، ويتساءل عروة : من هذا يامحمد؟ فيجيبه : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة .

وكان المغيرة قد قتل ثلاثة عشر رجلاً من بنى مالك ، ثم فر إلى النبى مسلماً ، ودفع عنه عمه عروة ديتهم جميعاً ، وهنا يقول عروة للمغيرة : «أى غدر؟ وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس؟» .

ويتطلع عروة حوله ، فيرى بين إبل الهدى جملاً مهدى لأبى جهل ، وهو ما جاء فى قول ابن عباس «أن رسول الله ﷺ أهدى عام الحديبية فى هداياه جملاً لأبى جهل ، فى رأسه برة من فضة» .

ويقلب عروة النظر هنا وهناك فيزداد عجباً ، فالرسول لا يبصق بصاقاً إلا ابتدره أصحابه ، ولا يتنخم نخامة إلا تسابقوا عليها يتلقونها بأكفهم يدلكون بها وجوههم ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، ولا يحدون النظر إليه تعظيماً وإجلالاً ، فينهض الرجل مشدوها مبهوتا ، ويعود إلى قريش يقول :

يامعشر قريش ؛
إنى قد جئت كسرى فى مكله
وقيصر فى ملكه
والنجاشى فى ملكه
وإنى والله ما رأيت **ملكاً** قط فى قومه
مثل محمد فى أصحابه[١٤].

وهنا يخطر للنبى خاطر، قبل أن تعود إليه رسل مكة، فيختار من رجاله رجلاً عزيزاً على ملأ مكة وأشرافهم من الأمويين، هو (عثمان بن عفان) الأموى، فيرسله إلى أهله بمكة يحمل رسالة إليهم. ويتأخر عثمان فى العودة، لأمر كان مقدوراً فى باطن الزمان، حيث تسرى شائعة **لا نعلم من أطلقها**؟ أن عثمان بن عفان قد قتلته قريش، ومن ثم توجب الانتقام. فيدعو النبى المسلمين فجأة ودون مقدمات واضحة، إلى بيعته، تسليما له فى أى قرار ويتخذه دون مناقشة، فكانت بيعة الرضوان على أى أمر يراه النبى حتى لو كان الموت. ومن هنا كانت تلك البيعة تسليما لما هو فى باطن الساعات الآتية، آت. وكوفىء جميع من أعطى التسليم فى قول النبى لهم: «لا يدخل النار إن شاء الله أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها»[١٥].

وبانتهاء البيعة، يظهر عثمان ابن عفان سليماً معافى ليس فيه شىء، وتعلم قريش أنها لن تستطيع أن تزحزح محمداً ورجاله، وأنها لن تنجو من مصير قريظة إلا بالتساهل، خاصة بعدما بلغتها الرسالة «والله لا يسألونى اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله إلا أعطيتهم إياها»، وهى ما تعنى رغبة فى الصلح.

---

(١٤) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج٢، ص٢٠٢، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص٢٦ : ٢٩، انظر أيضاً شرح السهيلى فى الروض الأنف.. سبق ذكره، ج٤، ص٣٥.
(١٥) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٧٣.

وتساهلت قريش فأرسلت سهيل بن عمرو، رجل المفاوضات المحنك إلى النبى، لكنها بدافع من الأنفة والعزة، وضعت للصلح شروطاً تضمن لها كرامتها أمام الأعراب، وهو ما وعاه النبى فور أن رأى سهيل يهل على المسلمين، فالتفت إلى رجاله يقول: «لقد سهل الله لكم أمركم»[(١٦)].

ويجلس سهيل مع النبى، ويعرض عليه عروض مكة، وهى الصلح بهدنة مدتها عشر سنوات، لا يتعرض فيها أحد للآخر، وهو ما يضمن عودة الأمان للطريق التجارى، **ويوافق النبى**.

وأن من أحب أن يحالف قريشاً من العرب حالفها، ومن أحب محالفة محمد حالفه، **ويوافق النبى**.

وترتفع المطالب المكية تدريجياً للاختبار وجس النبض ليقول سهيل:

ومن أتى محمداً بغير إذن وليه رده إليهم، **ويوافق النبى**.

ثم تتعالى نبرة التشدد أكثر فيقول سهيل: وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردوه إليه، **ويوافق النبى**.

ويستمر سهيل: ويعود محمد برجاله عن مكة هذا العام ليعودوا فى العام المقبل دون سلاح أو حديد إلا سلاح الراكب المسافر العادى، حيث يتركها لهم أهلها ثلاثة أيام، يعتمر بها ثم يتركها مغادراً، **ويوافق النبى**.

ويقول ابن كثير: إن المسلمين وهم يرون تشدد سهيل وتساهل النبى أمامه كادوا يهلكون غماً وغيظاً ونكداً. ويزداد الغم عندما تبدأ كتابة كتاب الصلح الرسمى، فعندما بدأ النبى يملى عليا بن أبى طالب الكتاب قائلاً: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم» رد سهيل على الفور:

---

(١٦) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٤، ص١٠٥.

أما الرحمن فوالله ما أدرى ما هو؟!

اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب .

ويهتف المسلمون بالرفض والاستهجان والشجب، يصرون على «بسم الله الرحمن الرحيم»، لكن النبى يقول لعلى «اكتب باسمك اللهم؛ هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو»، لكن ليعترض سهيل مرة أخرى بالقول:

لو كنا نعلم أنك رسول الله

ما قاتلناك . لكن اكتب اسمك

واسم أبيك .

فيأمر النبى عليا أن يمحو «رسول الله»، فيرفض على رفضاً قاطعاً قائلاً: «والله لا أمحاك أبداً»، فيمسك النبى الصحيفة - فيما روى البخارى - ويمحو «رسول الله»، **ويكتب بخط يده** «محمد بن عبدالله»[(١٧)] .

وبينما المسلمون فى غم وشدة وكرب، يأتى ما يزيد الهم هماً والكرب كروباً، فيفاجئهم أبو جندل ابن سهيل بن عمرو قد انفلت من مكة يرسف فى قيوده ليصل فى تلك اللحظة الحرجة إلى النبى جالساً مع أبيه يكتتبون صلحهم ليقفز سهيل بن عمرو قائلاً للنبى ﷺ: «وهذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده»، فيرد النبى: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، لكن ليرد سهيل بعنف، مقسماً إن لم يفعل: «والله لا نصالحك على شىء أبداً»، فيقول النبى ﷺ «إذن فأجره لى»، فيقول أبوه «ما أنا بمجيره لك»، فيعود النبى للقول راجياً: «بلى، فافعل»، لكن ليرد سهيل «ما أنا بفاعل».

ويروى لنا ابن كثير تفاصيل تلك الوقائع فيما يروى:

---

(١٧) ابن سيد الناس: عيون .. سبق ذكره، ج٢، ص١٦٤ .

فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى الحديد، وقد انفلت إلى رسول الله ﷺ **وكان أصحاب رسول الله ﷺ قد خرجوا لا يشكون فى الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ** فلما رأوا من الصلح، **والرجوع**، وما تحمل عليه رسول الله فى نفسه، دخل من ذلك أمر عظيم على الناس حتى كادوا يهلكون. فلما رأى سهيل أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه وقال: يامحمد قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت، فجعل ينتزه بتلبيبه ويجره، يرده إلى قريش؛ وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أُرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى، فزاد ذلك الناس إلى ما بهم. فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، **فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجاً**، إنا عقدنا مع القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهداً، وإنا لا نغدر بهم. فوثب عمر بن الخطاب يمشى مع أبى جندل إلى جنبه، ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، **وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدنى قائم السيف منه، يقول عمر؛ رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه، فضن الرجل بأبيه**(١٨).

وقد لقى عمر بن الخطاب من أمر هذا الصلح رهقاً شديداً استنفره استنفاراً حتى ذهب إلى النبى يقول:

ألم تعدنا أن نأتى البيت ونطوف به؟

---

(١٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص١٠٧، انظر أيضاً البيهقى: دلائل.. سبق ذكره، ج٤، ص١٠٥، ١٠٦، انظر أيضاً: ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٧٠، ٧١، انظر أيضاً ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج٢، ص١٦.

قال : نعم .

وبين الإجابة ، وبين واقع ما يحدث ، أخذت الحيرة والرعدة الغاضبة عمر ليذهب إلى أبى بكر يقول فى حوار متوتر :

عمر : يا أبا بكر ، أليس برسول الله؟

أبو بكر : بلى .

عمر : أولسنا بالمسلمين؟

أبو بكر : بلى .

عمر : أوليسوا بالمشركين؟

أبو بكر : بلى .

عمر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟

أبو بكر : ياعمر الزم غرزه ، فإنى أشهد أنه رسول الله .

عمر : **وما شككت منذ أسلمت إلا الساعة!!**

ويشرح السهيلى معقباً على قولة عمر ، التى لم تحوله إلى منافق كما هى العادة مع المعترضين والشكاكين :

> وفى هذا **أن المؤمن قد يشك** ، ثم يحدد النظر فى دلائل الحق ، فيذهب شكه ، وقد روى عن ابن عباس أنه قال : **هو شيء لا يسلم منه أحد**[19] .

وأمام شك رجل فى وزن عمر ، وهو من هو ، وهو وزير الرسول ، وهو الذى عز به الإسلام ، جاء الوحى ليقطع الشك باليقين الصادق مؤكداً :

---

(١٩) السهيلي : الروض الأنف . . سبق ذكره ، ج٤ ، ص٣٧ ، ٣٨ ، انظر أيضاً بان كثير : البداية . . سبق ذكره ، ج٤ ، ص١٧٠ .

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾(٢٧/ الفتح).

و ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (١/ الفتح).

ومع **تأكيد الوحى أن الرؤيا قد صدقت**، وأن كتاب الصلح كان فتحاً مبيناً، كان يفترض أن يهدأ الأمر ويستكين، لكن بعض صحابة رسول الله ﷺ كان لهم رأى آخر. «فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : **ما هذا بفتح**، لقد صدونا عن البيت، وصُد هدينا، ورد رسول الله رجلين من المسلمين كانا قد خرجا إليه، فبلغ رسول الله ﷺ قول أولئك فقال: «بئس الكلام، بل هو **أعظم الفتح**»[٢٠]. ومن ثم يثنى ابن هشام موضحاً ما حدث من لبس عند الصحابة، فيقول: «إن بعض من كان مع رسول الله ﷺ قال له لما قدم المدينة: ألم تقل يارسول الله أنك تدخل مكة آمنا؟ قال: بلى، **أفقلت لكم من عامى هذا؟** قالوا: لا، قال: فهو كما قال لىْ جبريل عليه السلام»[٢١].

ونعود إلى المسلمين وهم فى كربهم إبان كتابة الصحيفة الرسمية فى اتفاق هدنة ومصالحة، لنرى النبى بعد توقيعات الشهود يقوم ينادى رجاله لاستكمال شعائر العمرة التى لم تتم، قائلا: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». ليقول لنا ابن الأثير أن الناس جميعاً قد تعصبوا على رسول الله، فى قوله: «**فما قام أحد، حتى قال ذلك مراراً، فلم يقم أحد منهم**، فدخل على أم سلمة فذكر لها ذلك، فقالت: يانبى الله اخرج ولا تكلم أحداً منهم، حتى تنحر بدنك وتحلق شعرك، ففعل، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً **غما**»[٢٢].

ويقول ابن هشام: إن النبى «قدم إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق.. فرأى الناس أن رسول الله قد نحر وحلق، فوثبوا ينحرون ويحلقون.. عن ابن عباس قال: حلق رجال

---

(٢٠) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج٢، ص١٦١.
(٢١) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص٣٢.
(٢٢) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج٢، ص٢٠٥.

يوم الحديبية وقصر آخرون، قال رسول الله: يرحم الله المحلقين، قالوا: والمقصرين يارسول الله؟ قال: يرحم الله المحلقين، قالوا والمقصرين يارسول الله؟ قال: والمقصرين، فقالوا: يارسول الله فلم ظاهرت بالترحيم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: **لم يشكّوا**»(٢٣).

أما الرجل الآخر الذى جاء النبى مسلماً فرده إعمالاً لبنود الهدنة، فهو أبو بصير ابن عتبة، حيث هرب إلى يثرب ولحق بالرسول ﷺ فكتب فيه للنبى الأزهر بن عوف والأخنس بن شريق، وبعثا بالكتاب رجلاً من بنى عامر ومعه مولى له، يطلبون رد أبى بصير، فرده معهما. لكن ما أن غادروا يثرب حتى انتهز أبو بصير فرصة أخذ فيها سيف العامرى وقتله، وعاد للنبى يقول: «يارسول الله وفيت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتنى بيد القوم، وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه، أو يعبث بى». وغادر أبو بصير مجلس النبى ميمما خارج يثرب نحو الساحل، على طريق تجارة قريش، ليتبعه النبى بقوله يردد:

ويل أمة محش حرب

لو كان معه رجال؟!

وبلغت كلمات النبى المستضعفين بمكة، «لو كان معه رجال» فخرج إليه نحو سبعين رجلاً من المستضعفين يقطعون تجارة قريش، يقتلون رجالها ويسلبون ما فيها. حتى اضطرت قريش أن تكتب للنبى تسأله فيها بصلة الرحم أن يأوى أبا بصير ورجاله فى يثرب، وأنها لا حاجة لها بهم، **فعادوا إلى يثرب بموافقة مكة، ورغم بنود عهد الهدنة**(٢٤).

ولم يكن ذلك أول كسر لبنود صحيفة الهدنة، وهو وإن تم برضا قريش، فهو رضى المكره، وكان بتحريض من النبى. لكن حدثت كسور أخرى، عندما هربت أم كلثوم بنت

---

(٢٣) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلي.. سبق ذكره، ج٤، ص٢٩.
(٢٤) نفسه: ص٣١.

عقبة إلى النبى، وخرج وراءها أخواها عمارة والوليد يطلبان ردها بموجب شروط عهد الحديبية، وببساطة تامة يقول ابن هشام عن رد النبى ﷺ «فلم يفعل، **أبى الله ذلك**»[٢٥]. فالله هو الذى أبى وليس النبى، بدليل الوحى القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾(١٠/ الممتحنة).

ورغم تأكيد النبى، والله، أن ما حدث يوم الحديبية كان أعظم الفتح، فإن هناك من شك، وهناك من اعترض، ومن جانبهم رأى كتاب السير والأخبار أن يضيفوا للأمر بعض المبهرات من أحاجيهم المعتادة، فيروى البيهقى عن البراء:

> كنا مع النبى أربع عشرة مئة، والحديبية بئر فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبى ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء ماء منها، فتوضأ ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركها غير بعيد، ثم أنها أصدرتنا نحن وركائبنا.

ومعجزة مائية أخرى، يرويها لنا الصحابى جابر فى حوار له مع شعبة إذا يقول:

> أتى رسول الله بماء فى تور، فوضع يده فيه، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون، قال: فشربنا ووسعنا وكفانا، قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا ألفاً وخمسمائة[٢٦].

ثم معجزة ثالثة حول تكثير الطعام عندما جاع الجيش فى قول الصحابة للنبى: «يارسول الله. لو انتحرنا من ظهورنا، فأكلنا من لحومها وشحومها وحسونا من المرق، أصبحنا غداً **إذا غدونا عليهم** وبنا جمام، قال: لا، ولكن ائتونى بما فضل من أزوادكم، فبسطوا أنطاعا ثم صبوا عليها فضول ما فضل من أزوادهم. فدعا عليها رسول الله ﷺ بالبركة، فأكلوا

---

(٢٥) نفسه: ص٣٢.

(٢٦) أخرجه البخارى فى ٦٤ كتاب المغازى ٣٥ باب غزوة الحديبية، الحديث ٤١٥٢.

حتى تضلعوا شبعا، ثم لفلفوا فضول ما فضل من أزوادهم فى جربهم . . عن عبدالله قال . . كنا نأكل مع النبى ونحن نسمع **تسبيح الطعام**»[٢٧] .

نتائج الحديبية:

يقول ابن الأثير عن صلح الحديبية : «فما فتح فى الإسلام قبله فتح أعظم منه، حيث آمن الناس كلهم ، فدخل الإسلام فى تينك السنتين مثلما دخل فيه قبل ذلك وأكثر»[٢٨] . ويقصد ابن الأثير بالسنتين ، السنتين اللتين مرتا ما بين صلح الحديبية وبين عام فتح مكة، وهو الفتح الذى سبق وشك فيه الصحابة، وتساءلوا رغم الوحى الواضح : أو فتح هو؟ حتى اضطر سيد الخلق إلى القسم بالله للناس أنه فتح قائلاً : «أى والذى نفسى بيده إنه لفتح»[٢٩] . فكيف يمكن رؤية ما حدث فى الحديبية باعتباره بالفعل أعظم الفتوح .

إن قليلاً من التمعن فى خط سير الأحداث، سيكشف من فوره عن صلح الحديبية كفتح عظيم بالفعل، وعمل دبلوماسى من أعظم أعمال الدبلوماسية والسياسية، يستحق أن تدرسه بإمعان أكاديميات العالم العسكرية، وأنه كان بمصداقية الرسول الكريم وبلاغة الوحى الصادق، هو الباب إلى فتح الفتوح .

* لو عدنا قليلاً إلى الوراء نطالع تطور الأحداث بعد غزوة الخندق سنلحظ دون جهد يذكر أن خيبر بعد نزول يهود يثرب إليها بقياداتها، ودورها الذى قامت به فى الخندق، قد تحولت إلى مركز قوة طالع، مع النشاط الذى لم يهدأ لليهود بين قبيلتى أسد وغطفان لتجديد الأحلاف القديمة، مع الإغراء بميرة خيبر الزراعية، ناهيك عن مفاوضاتهم لقبائل الشمال من فدك وما وراءها .

وكان وصول المعلومات إلى النبى عن خيبر أولاً بأول قد كونت لديه فكرة واضحة عن تنامى قوة خيبر، بحيث دخلت توازنات القوى فى الجزيرة وأصبحت مركز قوة جديد

---

(٢٧) البيهقي : دلائل . . سبق ذكره، ج٤، ص١١٥، ١٢٠، ١٢٩ .
(٢٨) ابن الأثير : الكامل . . سبق ذكره، ج٢، ص٢٠٥ .
(٢٩) ابن سعد : الطبقات . . سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٧٦ .

أصاب تلك التوازنات باختلال، أزاح قريشا إلى موقع خلفى، وكان معنى أن تترك خيبر تتنامى دون تدخل يحد من ذلك التطور، فهو ما كان يعنى أن المدينة سوف تصبح بين طرفى معادلة شديدة الخطورة، فخيبر فى الشمال مع أحلافها، وقريش فى الجنوب، وأى تحالف ثنائى بين خيبر وقريش كما حدث فى الخندق كان كفيلاً بتهديد حقيقى لدولة يثرب.

ومن ثم كانت **عمرة** الحديبية التى وعى مؤرخونا أهدافها فأسموها غزوة الحديبية، حيث كان النبى قد توجه نحوها بعسكره مسلحين مدرعين ملبسين بالسلاح، لكنه عندما التقى ببديل بن ورقاء الخزاعى حمّله إلى قريش رسالة واضحة تقول:

إننا لم نجىء لقتال أحد
ولكننا جئنا معتمرين
وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأخذت بهم
فإن شاءوا **ماددتهم** مدة ويخلوا بينى وبين الناس
وإن شاءوا **أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس** فعلوا
وإلا فقد حُموا
وإن هم أبوا
فوالذى نفسى بيده **لأقاتلنهم على أمرى هذا** حتى تنفرد سالفتى أو لينفذن الله أمره[٣٠].

وهكذا أعلن النبى لقريش أنه يعلم بحالتها المنهكة والمتردية، وأنه مع ذلك يعرض عليها من الخيارات ثلاثة: أولاها هدنة محددة المدة، وكى يدفعهم لقبول الهدنة، أرفق بخيار الهدنة خيارات أخرى أشد قسوة عليهم، وجاءهم بقوة مسلحة قادرة، ولم يعلن لأصحابه أبدا الرغبة فى الهدنة بل وعدهم بالفتح، حتى يظهروا أمام قريش وسفاراتها إليهم فى

(٣٠) الدياربكرى: تاريخ الخميس، مؤسسة شعبان للنشر، بيروت، د.ت، ج٢، ص١٨.

أكمل استعداد للانقضاض، ولم يظهر لهم إطلاقا ما قر فى ضميره لدفع قريش إلى قبول الهدنة.

وقد وضح لدينا مدى شعور قريش بالضعف، الذى ظهر فى إرسالها السفراء واحداً إثر آخر، أما أبرز الشواهد على أن النية على الهدنة كانت معقودة بداخله وحده، وربما علم بها أبو بكر فقط تتمثل فى أنه سمح بتسرب الأخبار لقريش عن مسيرة إليها، بقصد أن يعلموا بتحركه. ثم إعلانه ذلك صراحة لكن ضمن خيارات أخرى، مع تشديده على رجاله بإظهار القوة، ثم خطوته المحسوبة بدقة بإرسال عثمان بن عفان الأموى تحديداً برسالته إلى أهل مكة. ثم حرصه الواضح بعد ذلك لتذليل كل العقبات التى تقف أمام عقد الهدنة مع سهيل بن عمرو، مع ذلك القدر من المرونة الذى فاجأ رجاله وجعلهم يجأرون بالمعارضة والوجيعة مما يحدث.

* لأول مرة يعترف الملأ المكى سادة الحجاز وأشراف العرب، أصحاب الأشهر الحرم، وأهل الله ورعاة بيته، رجال العرب المقدمون وسراتهم، لأول مرة يعترفون فى عهد مكتوب وكتاب موثق بشهادات الشهود، بدولة يثرب، وبسيدها، أعتراف واضح من سيد لسيد أنه سيد. بل هو اعتراف من سادة العرب للسيد الجديد أنه رئيس دولة مستقلة ذات سيادة، وهو ما يعنى تخلى قريش عن فكرة قيادتها وحدها للعرب، بدليل البند الخاص بترك الحرية لمن أراد أن يدخل فى عقد محمد، واكتفائها بتحصين نفسها ضد مؤثراته. وهو الأمر الذى سمح بعد ذلك بانتشار أتباعه يدعون بين العرب، ودخول العرب فى حلف يثرب بأعداد لم تشهدها الدولة من قبل، أليس ذلك إذن فتحاً حقيقياً من وجهة نظر الديبلوماسية، والتكتيكات العسكرية المرحلية؟.

* ومن بنود الصحيفة أصبح بإمكان النبى مع رجاله أن يزوروا مكة أياماً ثلاثة، وهو أمر شديد الخطورة، حيث سيكون بإمكان أهل مكة أن يروا بنيانه ودولته ورجاله عن قرب مما يتيح لهم المقارنة والفهم.

* كما أدت الحديبية إلى تفكك المجتمع المكى وانهيار مقاومته النفسية بعد تدهور قناعة أهل مكة بإمكان استمرار وضع قريش السيادى، ومن ثم دخل رجالهم المقدمون فى دين الله، وكان أبرزهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة.

* كان اليهود يشكلون فى بداية الأمر مطمحاً لدعوة الإسلام، للانضواء تحت لوائها واتباع صاحبها، لكن بمضى الوقت تكشف لليهود وللنبى ﷺ اختلاف توجهاتهم بل وتضاربها. وكان استمرار وجود اليهود فى يثرب على يهوديتهم يشكل شرخاً عميقاً فى بناء دولة قامت على أيديولوجيا دينية واحدة موحدة، وعليه فقد كانوا عقبة كأداء بحسبانهم أصحاب كتاب من ذات المصدر السماوى الذى يأتى منه الكلم القرآنى. وكان مفترضاً أن يكونوا مصدقين لما آتى محمد من آى الكتاب القرآنى، لكنهم إطلاقاً لم يعترفوا له بهذه الصلة مع السماء، وكان رأيهم باعتبارهم أصحاب الكتاب الأول هو العامل الحاسم لدى العربان فى مدى صدق علاقة الآى القرآنى بالسماء. لكن وجودهم فى يثرب وعدم اتباعهم دعوة النبى الدينية حمل للعربان إشارات واضحة ودلالات بإنكارهم عليه تلك النبوة، فكانوا المنكر السماوى القائم فى الواقع العربى للوحى القرآنى. وهو ما أدى إلى بدء صراع طويل معهم انتهى بطردهم من يثرب، وطردهم من رحمة الإله بعد ما كانوا عنده أفضل العالمين. وتم أثناء ذلك إزاحة رموزهم الدينية إلى الوراء، فحلت الكعبة المكية محل أورشليم، وعاد النبى إلى تمجيد المعبد الذي قدسه الجاهليون طوال عصورهم الجاهلية، وهى العودة التى صحبت باحترام ذلك البناء المكى المتواضع هندسياً ومعمارياً، وإلقائه فى رحم تاريخ أقدم يعود به إلى زمن آدم ثم إبراهيم فإسماعيل. وهو التحول الذى لفت انتباه قريش، حيث بدأت تلحظ ما يمكن أن يتحقق لها مع محمد وبه، وهم يرونه نتيجة الخندق يتخلص من آخر يهودى بيثرب، ليتحول تماماً مع غزوة الحديبية إلى المشاعر العربية القرشية المكية، فيهل بالمناسك الأولى التى هى مناسكهم وأعرافهم التى تواضعوا عليها. ثم لاشك يتذكرون قول عتبة بن ربيعة حكيمها المقدم. وهو يقول لهم منذ زمان قبل أن يواريه ثرى بدر: «أطيعونى وخلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه

فاعتزلوه فوالله ليكونن للذى سمعت منه نبأ، فإن أصابته العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن ظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به».

* والمقصد من هذا كله أن عقلاء مكة، قد أصبحوا الآن يرون ما لم يكن بإمكانهم رؤيته من قبل، خاصة بعد أن وجه أنظارهم لما ينتظرهم من أمجاد، بغزواته على حدود الروم فيما بين ٦٢٦ و٦٢٩. وجلى لديهم أنهم فقط بالاتفاق السلمى والتسليم له ولقيادته، يمكنهم المحافظة على مكانتهم وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، والخروج معه إلى الدنيا الرحبة، خاصة بعد أن رأت النبى ﷺ يفتح لها الأبواب ويعد لها المواقع فى منظومة دولته سياسياً ودينياً واقتصادياً ومجتمعياً.

* وكان اعتراف النبى لقريش بقواعد التعامل مع البيت المكى الحرام، وبالعمرة، **وبالنسق الدينى الجاهلى المتعلق بالكعبة**، بلاغاً واضح المعانى والمعالم بخطواته التوفيقية الجديدة، ومن ثم تصرف النبى فى الحديبية بحنكة ومهارة رجل السياسة وسائس الدولة الدبلوماسى، وهو ما لم يفهمه المسلمون الصحابة لأول وهلة. بينما كان عروة بن مسعود يعود يعلن لقريش قبيلة النبى أن ولدهم قد أصبح ملكاً لا تدانيه ملوك الأرض، وأنه ما رأى ملكاً مثله قط. وهى مجموعة المتوافقات التى أدت خلال الهدنة، بل خلال أشهر قليلة، إلى اندفاع العربان وجند قريش إلى سيد الدولة اليثربية، يعلنون الطاعة والإسلام، وعلى رأسهم خالد بن الوليد، الجندى الحاذق الذى سيصبح سيف الدولة وسيف الله، وعمرو بن العاص داهية العرب ورجل السياسة الذى لا يشق لمكره غبار، وغيرهم ممن شكلوا من بعيد قيادات العسكرتاريا العربية.

* وتأسيساً على ما أدت إليه الحديبية من اعتراف سادة العرب لمحمد بالسيادة، مع الاعتراف الواضح بدولته، صنع الرسول لنفسه وللدولة خاتماً رسمياً، ليصدق به على رسائله الرسمية للعالم، التى بدأت تفد على الملوك والقياصرة ممهورة بخاتمه، يدعوهم

فيها إلى اتباعه، ووصلت تلك البعوث الأولى من العرب إلى الدنيا تعلن النجاشى والمقوقس وعظيم الروم وكسرى فارس بقيام دولة جديدة على خريطة عالم ذلك الزمان.

* أما النتيجة الأهم إطلاقاً وتتشابك مع كل الأسباب والنتائج، فهى أن النبى قد تمكن بصلح الحديبية من تأمين خطوطه الخلفية من أى تحرك معاد تقوم به قريش، ومع انهيار قريش توجه النبى إلى مركز القوة الصاعد، إلى خيبر.

* * *

فتح خيبر

«الله أكبر، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»

(النبى ﷺ)

﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ... وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ (الفتح ١٨ ، ٢١).

وهذا وعد آخر بفتح قريب ، تليه فتوح أخرى مقبلة لم يتمكن المسلمون منها ، لكن الله يمهدها لهم ، فيحيط بها ويجهزها للفتح ، حيث يبدو أن الأتباع لم يعجبهم ما حدث بالحديبية ، ولم يدركوا مرامى العهد البعيدة ، وأفصح بعضهم عن أن النبى لم يحقق لهم فى الحديبية ما وعدهم به سلفاً ، ومع تأكيده لهم أن ما تم من عقد صلح الهدنة كان فتحاً عظيماً . فإن رؤاهم قصرت عن تتبع البصيرة النبوية وهى تعمل فى الآتى ، ومن هنا جاءت تلك الآيات بوعد جديد ، يعوض المسلمين عن فتح مكة ويثيبهم بدلاً عنها بفتح آخر قريب ، إضافة لفتوحات أخرى أعظم حاولوها ولم يقدروا عليها ، ومن ثم عقب الحكم على الآيات بقوله :

> أخبرنى عبد الرحمن بن أبى ليلى فى قوله : وأثابهم فتحاً قريباً ، قال : **خيبر** ، وأخرى لم تقدروا عليها أحاط الله بها ، قال : **فارس والروم**[1] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات . . سبق ذكره ، مج٢ ، ج١ ، ص٨٣ .

وعقب موسى بن عقبة بقوله: «لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية، مكث عشرين يوماً أو قريباً من ذلك، ثم خرج إلى خيبر، وهى التى وعده الله إياها». أما مروان والمسور فقد قالا: «انصرف رسول الله ﷺ عام الحديبية فنزلت عليه سورة الفتح بين مكة والمدينة».(٢) وهو الأمر الذى يفصح عن معرفة القائد بدواخل رجاله، وضرورة الإسراع بما يعوضهم **بغنائم فورية**، عوضاً عن أملهم الطموح فى ثروات مكة العظمى، وهو ما وعاه البيهقى وهو ينقل عن الرواة القول:

انصرف رسول الله ﷺ عام الحديبية، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة، فأعطاه الله عز وجل فيها خيبر.

وعدكم الله **مغانم كثيرة تأخذونها**

فعجل لكم.

هذه خيبر(٣).

وفى الطريق إلى خيبر، كانت غطفان بثقلها، تلك القبيلة الفزارية التى يقودها الطماع الأحمق المطاع، الذى خُذل فى اتفاقه السرى بالخندق، وتم التخذيل بين الأحزاب دون أن يجنى لطمعه مغنماً، وعاد صفر اليدين، فلا هو حارب برجاله مع قريش فغنم، ولا هو عاد من محمد بما اتفقا عليه من مكاسب.

ومن ثم كانت خطة القائد أن ينزل الرجيع ليقطع بين غطفان وخيبر، وكان توقع القائد صائباً، فقد جهزت غطفان رجالها لما سمعت بمسير جند الله لتظاهر خيبراً ضد الجيش الإسلامى. وهنا، وما أن تحرك رجال غطفان نحو الرجيع حتى سمعت مؤخرة جندهم ضجيجاً خلفهم، فى بيوتهم، وجلبة شديدة، فعاد رجال غطفان سراعاً إلى ديارهم،

---

(٢) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص١٨٣.
(٣) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٤، ص١٩٧.

خوفاً على أموالهم ونسائهم وذراريهم، لكن كتبنا الإخبارية لا تحيطنا علماً شافياً وواضحاً بحقيقة ما حدث فى ديار غطفان مما أجبرها على لزوم ديارها(٤).

المهم، وما يجب استنتاجه، أن غطفان لزمت ديارها بعد خطة مقدرة ومحكمة أجبرتها على عدم الحركة، ليستمر الجيش اليثربى فى تقدمه الوئيد الهادئ الكامن، يسير ليلاً ويكمن نهاراً، يستخفى حتى يبغت خيبر فجأة فى حصونها وصياصيها. ويصل جند الله سارين دون صوت عند سدول الليل، يحيطون بالحصون دون أن يصدروا صوتاً أو يشعلوا ناراً، حتى تبدأ خيوط الفجر تضىء المزارع حول الحصون. ويخرج مزارعو خيبر كعادتهم مع إشراقة الصباح، يسحبون ماشية الحرث والسكك والفئوس، لكن ليلمح أحدهم الخوذ والدروع المتحركة، ويلمحهم آخر كامنين بين الزروع، ليكتشف مزارعو خيبر الدوائر المحكمة تحيط بهم من كل جانب، فيرجعون يدفعهم الفزع صارخين نحو حصونهم:

محمد؛ والخميس معه.

ليجاوب صراخهم الفازع هتاف النبى فى رجاله معلناً بدء الهجوم

الله أكبر

خربت خيبر

إنا إذا نزلنا بساحة قوم

فساء صباح المنذرين(٥).

كانت خيبر أرض زرع وسط بدو جياع، خبرت غدر العربان وإغاراتهم المتكررة وقت نضوج المحصول، عندما كانوا يهبطون عليها كالجراد ينهبون عرق الشهور والتعب والجهد. وهو ما دعا الخيابرة إلى إقامة عدد من الحصون القوية والصياصى، لصد تلك

---

(٤) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج٢، ص٢١٦، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى، ج٤، ص٤٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج٢، ص٢١٧، انظر أيضاً ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص٤٠، انظر أيضاً ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص١٨٦.

الغزوات البربرية. لكن التجربة الجديدة مع الجيش الإسلامى المنظم، أثبتت أنهم ليست مانعتهم حصونهم، فتدنى المسلمون يفتتحون الحصون حصناً حصناً، ليسقط حصن ناعم، وعنده يستشهد الصحابى محمود بن مسلمة، عندما ألقت عليه امرأة خيبرية رحاها من على سور الحصن، ثم حصن النطاة ليسقط بعده حصن الشق. ويهرب سكان كل حصن إلى الحصن الذى يليه، حتى يتحصنوا جميعاً فى الحصون الخمسة الباقية: الأخبية والوطيح والسلالم والقموص والكتيبة.

ويظن الخيابرة أنهم باتوا فى أمان، فيرفضون النداء المردد حولهم بالخروج من الحصون مستسلمين، ليمر أربعة عشر يوماً من الحصار، انتهى بعدها النبى إلى قرار يتم تنفيذه لأول مرة فى بلاد العرب، هو الأمر بإقامة المنجنيق لدك الحصون، ذلك السلاح الذى كان قاصراً على جيوش الإمبراطوريات. وأيقن المتحصنون بالهلاك، وأنه لو ضربها بالمنجنيق لدكها دكاً، وآل مصير البقية الباقية إلى مآل قريظة.

وما أن يشاهد المتحصنون فوق أسوارهم شكل العمل الذى يتم تحتهم فى العراء، وطبيعته، حتى يدركون أنها أيام حتى ينتصب السلاح الرهيب. وهنا يخرج من الحصن تحت راية السلام زعيمهم كنانة بن أبى الحقيق، حاملاً للنبى صلحاً على شروط صلح النضير: أن يغادروا بلادهم، ويتركوا للنبى أموالهم وحصونهم وأرضهم، يأخذون معهم لا صفراء ولا بيضاء، اللهم إلا ما يستر العورة من لباس، فقط نظير أن يحقن النبى ﷺ دماءهم، ووافق النبى، وهو ما نقله ابن كثير عن الواقدى وهو يروى:

> فنزل إليه ابن الحقيق، فصالحه على حقن دمائهم ويسيرهم، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من الأرض والأموال والصفراء والبيضاء والكراع والحلقة، على البر، إلا ماكان على ظهر الإنسان، يعنى لباسهم(٦).

---

(٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره. ج٤، ص٢٠٠.

ثم يردف :

فنزلوا من شدة رعبهم منه فصالحوه، وأموال بنى النضير المتقدم ذكرها، مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، **فكانت هذه الأموال لرسول الله خاصة**(٧).

لكن الصلح بهذه الشروط الواضحة لم يسر حتى كمال اكتماله، فقد أضاف النبى ﷺ إلى الشروط شرطاً آخر، حول الأموال حين قال :

وبرئت منكم ذمة الله ورسوله، إن كتمتم شيئاً.

فصالحوه على ذلك(٨).

أو ما جاء عند ابن سعد برواية ابن عباس، فى سؤال النبى ﷺ للزعيم الخيبرى المرعوب كنانة بن أبى الحقيق، وأخيه الربيع :

أين آنيتكما التى كنتما تعيرانها أهل مكة؟

ويرتبك الزعيم المهزوم، ويجف حلقه وهو يقول متلعثماً : «هربنا فلم تزل تضعنا أرض وترفعنا أخرى، فذهبنا، فأنفقنا كل شىء»، فيرد النبى ﷺ :

إنكما إن كنتما تكتمانى شيئاً فاطلعت عليه، استحللت دماءكما وذراريكما.

فقالا : نعم(٩).

وهنا نعلم أنه كان شركاً وقع فيه الزعيمان، حيث نعلم أن النبى كان يعلم سلفاً بأمر كنز عظيم، بل كان يعلم بمكانه، حيث يقول ابن سعد : **إن الله قد دل رسوله على ذلك**

---

(٧) نفسه : ص٢٠٤.

(٨) الموضع نفسه.

(٩) ابن سعد : الطبقات . . سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٨١.

الكنز[١٠]، بينما يوضح لنا ابن هشام في سيرته، سر معرفة الرسول بالكنز المخبوء، في قوله:

أتى رسول الله ﷺ رجل من يهود فقال لرسول الله ﷺ:

إني قد رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة.

وهوما دفع النبي للشرط السابق ذكره، والذي أورده ابن هشام في قوله:

فقال رسول الله ﷺ لكنانة:

أرأيت إن وجدناه عندك؛ أأقتلك؟

قال: نعم[١١].

وهنا نتابع من ابن سعد، الذي لم يعلم بأمر ذلك اليهودي الذي باع قومه وأفشى سر الكنز العظيم، مما دعا ابن سعد لاعتبار معرفة النبي بأمر الكنز خبراً إلهياً، فنجده يقول في روايته متابعاً:

فدعا النبي ﷺ رجلاً من الأنصار فقال: اذهب إلى قراح كذا وكذا، ثم ائت النخل فانظر نخلة عن يمينك أو عن يسارك، فانظر نخلة مرفوعة، فأتني بما فيه. فانطلق، فجاء بالآنية والأموال[١٢].

والآن وقد كُشف خداع الرجلين، وجيء بكنزهم للنبي، توجه النبي إلى كنانة مرة أخرى يسأله ما بقي من كنزه، فأنكره،

فأمر به رسول الله الزبير بن العوام فقال:

عذبه حتى تستأصل ما عنده.

---

(١٠) نفسه: ص٧٧.

(١١) ابن هشام: السيرة في كتاب السهيلي.. سبق ذكره. ج٤، ص٤٣.

(١٢) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٨١.

فكان الزبير يقدح بزند فى صدره، حتى أشرف على نفسه .

ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة ، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة(١٣) .

وانطلق السيف الإسلامى يعمل فى المستسلمين، ليقتل منهم فى قول ابن سعد «ثلاثة وتسعين رجلاً من يهود، منهم الحارث أبو زينب، ومرحب ، وأسير ، وياسر، وعامر، وكنانة بن أبى الحقيق، وأخوه، وإنما ذكرنا هؤلاء وسميناهم لشرفهم»(١٤) .

وكان تبرير تلك المقتلة واضحاً لكل ذى عينين، وهو ما ألح ابن كثير على شرحه وبيانه فى قوله :

قلت : ولهذا، لما كتموا وكذبوا وأخفوا ذلك المسك الذى كان فيه أموال جزيلة،

تبين **أنه لا عهد لهم!!**

فقتل أبى الحقيق ، وطائفة من أهله، بسبب :

نقض العهود والمواثيق!!

. . فقتل رسول الله ابنى أبى الحقيق

وأحدهما زوج صفية بنت حيى بن أخطب

وسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذراريهم وأموالهم

بالنكث الذى نكثوه

وأراد إجلاءهم عنها، فقالوا :

---

(١٣) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى . . سبق ذكره، ج٤، ص٤٣ .
(١٤) ابن سعد: الطبقات . . سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٧٧.

يامحمد دعنا نكون فى هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها . ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلال يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها ، فأعطاهم خيبر ، على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل(١٥) .

وهكذا ، وبعد المقتلة التى نتجت عن نقض العهود من زعماء خيبر ، رأى من بقى منهم أن يقترحوا على النبى أمراً آخر ، هو أن يظلوا فى أرضهم يزرعونها يفلحونها ويستخرجون خيراتها ، بدلاً من مغادرتهم وخراب الأرض وبوارها من بعدهم . على أن يظلوا على دينهم دون تبعية دينية ، لكن مع تبعية خراجية ، يعطون بموجبها ليثرب شطر محصولهم ، مع شرط تنبيهى من النبى ، يقول لهم مردفاً :

على إنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم(١٦) .

وبانتهاء المعركة وبعد هذا الاتفاق ، جاء دور السبايا وتقسيم الأموال . فأما الأموال التى أوجف عليها المسلمون بالخيل والركاب ، فقد قسمت بينهم ، أما التى استسلمت وعقدت الاتفاق ، **فعائدها كان خاصاً لرسول الله** ، أما السبايا فقد تم تقسيمهن بين المقاتلين من جند الله .

ويؤكد لنا رواة السير والأخبار جميعاً ، أن غزوة خيبر قد فشى فيها إتيان المسلمين لنساء يهود على ملأ ، ففشت السبايا الخيبريات فى المسلمين ، إلى الحد الذى دفع النبى لوقف اغتصاب النساء الحبالى ، يناشد رجاله بندائه الراقى الرحيم :

لا يحل لامرىء أن يسقى ماءه زرع غيره(١٧) .

وكان النبى قد قتل كنانة بن أبى الحقيق ، زوج صفية بنت حيى بن أخطب سيد النضير ، وكان قد سبق وقتل أباها حيى فى مذبحة قريظة ، لذلك ، وحتى لا ينصرف ذهن كائد

(١٥) ابن كثير : البداية . . سبق ذكره ، ج٤ ، ص٢٠٠ .
(١٦) ابن سيد الناس : عيون . . سبق ذكره ، ج٢ ، ص١٧٦ .
(١٧) نفسه : ص١٧٣ ، انظر أيضاً ابن هشام : السيرة فى كتاب السهيلى . . سبق ذكره ، ج٤ ، ص٤١ .

للإسلام ونبيه الكريم، إلى أن قتل زوجها كنانة، كان للاستيلاء على صفية، فإن كتب الأخبار تأتى هنا واضحة لا تحمل فى خبرها لبساً، فتعلمنا أن النبى لم يعلم بجمال صفية بنت حيى زوجة كنانة، إلا بعد أن قتل زوجها بالفعل، لنقضه العهود والمواثيق، وتتفق جيمعاً حول رواية أنس بن مالك الذى قال:

قدمنا خيبر، فلما فتح ﷺ الحصن،

ذُكر له جمال صفية بنت حيى بن أخطب

وقد قتل زوجها

وكانت عروساً

فأصطفاها لنفسه(١٨).

وقد قدرت الأقدار، أن تحظى صفية بالإكرام، فتحظى بسيد الخلق أجمعين ﷺ، رغم أنها بنت عدو الله حيى بن أخطب، الذى حزب الأحزاب، وزوج زعيم يهود خيبر كنانة بن أبى الحقيق، الذى نقض العهود والمواثيق، بعد اتفاقه السلمى مع النبى، وهو ما يشرحه أنس فى قوله:

جُمع السبى

فجاء دحية الكلبى فقال: يارسول الله اعطنى جارية من السبى،

قال: اذهب فخذ جارية،

فأخذ صفية بنت حيى،

فجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال:

يانبى الله، أعطيت دحية صفية بنت حيى سيد قريظة والنضير؟ **ما تصلح إلا لك!!**

---

(١٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص١٩٧.

قال: ادعوا بها، فلما نظر إليها ﷺ

قال: خذ جارية من السبى غيرها[١٩].

وفى رواية أخرى أن دحية الكلبى صديق النبى، تم تعويضه عن صفية بسبعة رؤوس دفعة واحدة، وهو ما أخبرنا به ثابت فى قوله: «وقعت صفية فى سهم دحية، وكانت **جارية جميلة**، فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة رؤوس، ودفعها إلى أم سليم **تصنعها وتهيئها**»[٢٠].

وما أن ارتحل الجيش عن خيبر، حتى أناخ فى سد الصهباء فى الطريق إلى يثرب، وضربت للنبى وصفية قبة، ظل فيها النبى معها من الأيام ثلاثة، أو بتعبير ابن كثير:

وأقام ثلاثة أيام يبنى بها..

وكانت التى جمّلتها إلى رسول الله ﷺ ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان، أم أنس بن مالك[٢١].

ويروى البيهقى:

وقد بات أبو أيوب ليلة دخل بها رسول الله ﷺ قائماً قريباً من قبته.

ولما خرج الرسول من القبة سأله عن طوافه حول القبة كل ذلك الوقت، فرد أبو أيوب مفصحاً عن مدى إخلاص الرجال لصاحب الدعوة:

لما دخلت بهذه المرأة،

وذكرت أنك قتلت **أباها وأخاها وزوجها**

وعامة عشيرتها،

(١٩) نفسه: ص١٩٨.
(٢٠) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٨٤.
(٢١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٢١٢، ٢١٣.

فخفت لعمر الله أن **تغتالك**[٢٢].

وهو الأمر الذى يجد صداه فيما أفصح عنه لسان صفية عندما آلت إلى النبى فى قولها : «كان رسول الله **من أبغض الناس إلىّ، قتل زوجى وأبى**، فمازال يعتذر إلىّ ويقول : إن أباك ألّب علىّ العرب . . حتى ذهب ما بنفسى»[٢٣].

أحداث فى خيبر:

وفى خيبر أحداث حدثت، تفصح عن كثير مما فى النفوس من مكامن، وتكشف عما فى العقول من مفاهيم، فهذه صفية تصفو للنبى ويزول ما بنفسها من بغض له، لتخبره وهو يبنى بها داخل القبة برؤيا رأتها، يأتينا خبرها فى قص البيهقى علينا :

> أقام رسول الله ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبنى بصفية . .
> ورأى ﷺ بعين صفية خُضرة، فقال : يا صفية ما هذه الخضرة؟ قالت : كان رأسى فى حجر بن أبى الحقيق وأنا نائمة، فرأيت القمر زال من مكانه فوقع فى حجرى، فأخبرته بذلك، فلطمنى وقال :
>
> تمنين **ملك يثرب؟!**
>
> أو
>
> تمنين **هذا الملك الذى بالمدينة؟!**
>
> **فأعجب الرسول ﷺ برؤياها**[٢٤].

وهو الرد الذى يعبر عن رؤية العرب آنذاك للنبى **كملك** على يثرب، أو رؤيتهم الأوسع لما هو آت، فى صياغة ابن هشام لرد كنانة على زوجته صفية :

---

(٢٢) البيهقي : دلائل . . سبق ذكره، ج٤، ص٢٣٠، ٢٣٢.
(٢٣) ابن كثير : البداية . . سبق ذكره، ج٤، ص٢٠١.
(٢٤) البيهقي : دلائل . . سبق ذكره، ج٤، ص٢٣٠، ٢٣٢.

ما هذا إلا لأنك تمنين **ملك الحجاز** محمداً؟ ![25].

وهو ما أعجب ابن كثير فطرب له وهو يُوَصِّف رؤيا صفية فى قوله : «فسألها ما شأنها؟ فذكرت له ما كانت رأت من تلك **الرؤيا الصالحة** رضى الله عنها وأرضاها»[26].

ومفهوم كنانة بن أبى الحقيق، ومفهوم صفية بنت حيى عن النبوة بحسبانها ملكاً، هو الفهم الطبيعى الناشىء عن تأسيس دولة للعرب فى يثرب، وهى رؤية واضحة من صفية تتفق مع مفاهيم توراتها، قبل أن **تعاشر النبى وتعرف معنى النبوة الحقة**، فهى لا تعلم حسب مأثورها الدينى سوى الملك، كملك داود، وملك سليمان وغيرهما، أما أنبياء التوراة فكانوا مجرد دراويش. وما يفعله محمد هو بالمطابقة فعل داود وسليمان عندما وحدا قبائل البدو فى دولة تأسيسية فى فلسطين، وفى ضوء هذا الفهم يلتقى تجريد الكتائب والجيوش مع أساليب ملوك التوراة. وهو الأمر الذى ترك فى نفسها فى مبدأ الأمر بغضاً شديداً لذلك الملك الذى حلمت به، وزادها بغضاً ما رأته يفعل بقومها إزاء إخفائهم أمر كنزهم عنه، ويروى ابن هشام مشهداً لا شك كان ذا أثر عميق فى نفس صفية، حيث يقول نقلاً عن ابن إسحاق :

> ولما افتتح رسول الله ﷺ القموص، حصن بنى الحقيق، أتى رسول الله ﷺ بصفية بنت حيى بن أخطب وبأخرى معها فمر بهما بلال، وهو الذى جاء بهما، على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التى مع صفية، صاحت، وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ، قال : أغربوا عنى هذه الشيطانة.
>
> وأمر بصفية فحيزت خلفه،
>
> وأبقى عليها رداءه.

---

(٢٥) ابن هشام : السيرة فى كتاب السهيلى .. سبق ذكره، ج٤، ص٤٣.
(٢٦) ابن كثير : البداية .. سبق ذكره، ج٤، ص١٩٧.

فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ قد اصطفاها لنفسه، وقال رسول الله ﷺ لبلال: أنُزعت منك الرحمة يا بلال، حتى تمر بامرأتين على قتلى من رجالهما؟[٢٧].

وهكذا كان الرسول ينبه هذا وينهى ذاك، ويحاول رفع القسوة وانعدام الرحمة، ويمنع نكاح الحبالى من النساء، ومع ذلك ظلت هناك مظاهر للقسوة تنبو هنا وتطفو هناك. مثلما حدث مع محمد بن مسلمة الذى لم يكتف بقتل كنانة أبو صفية ثأراً بأخيه محمود الذى ألقيت عليه الرحى، حيث يقول الواقدى: «إن محمد بن مسلمة ضرب ساقى مرحب فقطعهما، فقال مرحب: أجهز عليَّ يا محمد. فقال محمد: ذق الموت ذق، كما ذاقه أخى محمود»، وظل الرجل على حاله يعانى لولا أن مر عليه الإمام على ففصل رأسه عن جسده رحمة به[٢٨].

ومن الجدير بالذكر أن الرواة اختلفوا فى أمر صفية، هل ظلت محظية ضمن جوارى الرسول أم تزوجها لتصبح من أمهات المؤمنين، خاصة أنه قد **بنى بها ولم تكمل عدتها**، لكن تميل الأغلبية إلى أنه أعتقها وتزوجها، وهو ما جاء فى الشاهد: «قال حماد، قال عبدالعزيز لثابت، يا أبا محمد، أنت قلت لأنس ما أصدقها؟ قال أصدقها نفسها، فحرك ثابت رأسه **كأنه صدقه**»[٢٩]، بمعنى أنه تزوجها بدليل أنه أعطاها صداقاً، وأن هذا الصداق كان عتقها. ولكن . . . «كأنه صدقة»؟!

ولا يمضى من الزمن هنيهات وأيام، حتى يحدث أمر جلل، حيث كانت محاولة اغتيال سيد الخلق بالسم، وهو ما جاء فى رواية تقول:

---

(٢٧) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص٤٣.
(٢٨) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٤، ص٤١٦.
(٢٩) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٨٥.

دخل رسول الله ﷺ على **صفية**، ومعه بشر بن معرور، وهو أحد بني سلمة، فقدمت إليهم الشاة المصلية، فتناول رسول الله الكتف وانتهش منها، وتناول بشر عظماً وانتهش منه»(٣٠).

ويلوك النبى نهشته من لحم الكتف، ليلفظه بسرعة ويهتف بضيوفه «ارفعوا أيدكم فإن كتف هذه الشاة يخبرنى أنه مسموم، فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان»، ويموت بشر من نهشته، ويشعر النبى بآثار السم القاتل تسرى فى بدنه، فيحتجم يومئذ، وقد حجمه مولى بنى بياضة بالقرن والشفرة. وبقى رسول الله بعده ثلاث سنين، حتى كان وجعه الذى توفى فيه، فقال: «مازلت أجد من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم خيبر عدداً، حتى كان هذا أوان انقطاع أبهرى، فتوفى رسول الله شهيداً. قال ابن هشام: الأبهر هو العرق المعلق بالقلب.. فكان المسلمون يرون أن رسول الله ﷺ قد مات شهيداً، مع ما أكرمه به الله من النبوة»(٣١).

ثم نعلم من كتب الأخبار والسير والتأريخ، أن تلك الشاة المسمومة، جاءت صفية هدية من قريبة يهودية لها هى زينب بنت الحارث أهدتها لها لتقدمها إلى سيد الخلق المصطفى، ولما سألها النبى لم اقترفت ذلك العمل الشنيع؟ قالت: «قتلت أبى وعمى وزوجى وأخى.. قال القاضى عياض: واختلفت الآثار والعلماء، هل قتلها النبى ﷺ أم لا؟»(٣٢).

ورغم أن غزوة خيبر كانت ناجحة بكل المقاييس، إلا أن رواتنا لم يعودوا بقادرين على تجاوز منهجهم الإعجازى، فى إلحاق كل حدث بمعجزات مناسبة، ونموذجاً لذلك ما روته الأخبار عما حدث أمام أحد حصون خيبر فى رواية ابن كثير حيث يقول:

---

(٣٠) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ٢١١.
(٣١) الموضع نفسه.
(٣٢) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٤، ص٢٥٧.

فتراموا . . حتى أصاب نبلهم بنان النبى ﷺ ، فأخذ عليه السلام
كفاً من الحصى فرمى حصنهم، فرجف بهم حتى ساخ فى الأرض،
وأخذهم المسلمون أخذاً باليد(٣٣) .

من غير أن يدرك ذلك الراوية أن هذا الحل العملى، كان بديلاً مناسباً عن كل ذلك الحصار الطويل وساعات المعارك وإقامة المنجنيق، وأنه كان بالإمكان فى سويعات أن يرمى النبى تلك الحصى على كل حصن لينتهى الأمر بكل بساطة، ويؤمن الجميع إزاء تلك المعجزة الكبرى، وهو ما يذكرنا بحصى بدر الإعجازية .

وأحاديث أخرى عن معجزات أخرى، تبرز وسطها رواية هى بحق من اللطائف، لتعبر عن الجزاء الفورى للمؤمن بالنكاح حتى للموتى، وهو ما جاء خبره متعدداً فى كتب الأخبار عن الراعى الأسود الذى أسلم يوم خيبر ودخل المعركة، فقتل بحجر، وجاء الرسول ووقف أمام الشهيد الذى أسلم من لحظات، «فالتفت إليه رسول الله ومعه نفر من أصحابه، ثم أعرض عنه، فقالوا: لم أعرضت عنه؟ قال: **إن معه الآن زوجتيه من الحور العين**»(٣٤) .

وبينما الجيش فى الطريق إلى يثرب، يأمر الرسول بالالتفاف دورة كبرى، يهبط بها بغتة على وادى القرى، وفى أربعة أيام أنهى الأمر وقسم غنائم وادى القرى على أصحابه، وعامل يهود الوادى على أرضهم بشروط خيبر، يزرعون أرضهم ويعطون نصف الناتج ليثرب، وبلغ ذلك يهود تيماء وفدك، وبينما يعرج عليهم أتوه هم بالطاعة، يصالحونه على ذات الشروط دون حروب(٣٥) .

وهكذا جاءت حصافة يهود خيبر بمنفذ لقبائل الشمالى، الضاربة على مواطن الخصب، لتنجو من الذبح والدمار، فسارعت القبائل تدفع الجبايات، وتؤوب لسلطان الدولة

(٣٣) ابن كثير: البداية . . سبق ذكره، ج٣، ٢٠٠ .
(٣٤) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى . . سبق ذكره، ج٤، ص٤٦ .
(٣٥) ابن كثير: البداية . . سبق ذكره، ج٤، ٢١٩، انظر أيضاً البيهقى: دلائل . . سبق ذكره ج٤، ص٢٧١ .
انظر أيضا ابن سيد الناس: عيون . . سبق ذكره، ج٢، ص١٨٦، ١٨٨ .

العربية معلنة الخضوع طوعاً، لبرز هيكل الدولة واضحاً فى قواعد زراعية ثابتة، تتجاوز مفهوم الغنيمة البدوى الابتدائى، الذى كان سائداً حتى غزوة خيبر.

ثم يأتينا خبر حادث آخر يحمل أكثر من دلالة، فيعود الركب المنتصر قافلاً نحو يثرب، نسمعه من الواقدى عن أم عمارة عندما قالت:

> سمعت رسول الله ﷺ بالجرف وهو يقول: لا تطرقوا النساء بعد صلاة العشاء، قالت: فذهب رجل من الحى فطرق أهله فوجد ما يكره، فخلى سبيلها ولم يهجر، وضن بزوجته أن يفارقها، وكان له منها أولاد وكان يحبها **فعصى رسول الله ﷺ فرأى ما يكره**[٣٦].

ويتأكد ذات المعنى فى رواية مثيلة عن سعيد بن المسيب قال:

> لما نزل النبى ﷺ المعرس، أمر مناديه فنادى: لا تطرقوا النساء، فتعجل رجلان، **فكلاهما وجد مع امرأته رجلا**[٣٧].

ويبدو أن الأمر كان متكرراً مع خروج المجاهدين، حتى قال رسول الله ﷺ:

> حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين فى أهله، إلا نصب له يوم القيامة فقيل له: هذا خلفك فى أهلك، فخذ من حسناته[٣٨].

ولما أصبح الأمر فيما يبدو شديد الوطأة على المجاهدين، كثير التكرار، قام الرسول هذه المرة خطيباً فى الناس يقول مهدداً متوعداً بالنكير:

> ألا كلما نفرنا غازين فى سبيل الله، خلف أحدهم له **نبيب كنبيب التيس** يمنح أحدهم الكثبة؟

---

(٣٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره. ج٤، ص٢١٩.
(٣٧) ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٦، مج١، ج١، ص٢١٨.
(٣٨) أبو داود: السنن، ج٢، ص٧، ٨.

أما والله إن يمكننى الله من أحدهم، لأنكلنه عنه[٣٩].

كانت تلك الأحداث تجرى بين خيبر ويثرب، بينما مكة تحاول أن تتسمع الأخبار، يهبطها الحجاج بن علاط السلمى قادماً من عند النبى، ولا يعلمون أنه من أتباعه، ليجمع أموالاً له عندهم، ويحكى الحجاج قائلاً:

ولم يكونوا قد علموا بإسلامى، فقالوا: الحجاج بن علاط؟ عنده والله الخبر، أخبرنا عن محمد، فإن قد بلغنا أن **القاطع** قد سار إلى خيبر وهو بلد يهود وريف الحجاز، قلت.. هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط، وأسر محمداً أسراً، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بما كان أصاب من رجالهم.

فقاموا، وصاحوا بمكة وقالوا: قد جاءكم الخبر، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم عليكم فيقتل بين أظهركم، قال: قلت: أعينونى على جمع مالى بمكة، وعلى غرمائى، فإنى أريد أن أقدم خيبر، فأصيب من نفل محمد وأصحابه، قبل أن يسبقنى التجار إلى هناك.

فقاموا فجمعوا لى مالى كأحث جمع سمعت به.

وهنا يسمع العباس عم النبى وعينه على قريش بالخبر الذى أتى به الحجاج بن علاط فيهرول إلى الحجاج فزعاً، لكن ليهمس له الحجاج سراً:

احفظ علىّ حديثى يا أبا الفضل، فإنى أخشى الطلب ثلاثاً، ثم قل ما شئت، فإنى والله تركت ابن أخيك عروساً على **بنت ملكهم**، يعنى صفية بنت حيى، ولقد افتتح خيبر وانتثل ما فيها، وصارت له ولأصحابه.

---

(٣٩) صحيح مسلم: ج٣، ص١٣١٩.

وفى هذه الساعة، رأى العباس أن أمر ابن أخيه قد صار أمراً، وأنه قد بات فى إمكانه أن يعلن اتباعه له جهراً «حتى إذا كان اليوم الثالث، لبس العباس له حلة، وتخلق، وأخذ عصاه وخرج حتى أتى الكعبة فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل، هذا والله التجلد لحر المصيبة، قال: كلا والله الذى حلفتم به، لقد افتتح محمد خيبر، وترك عروساً على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه»[٤٠].

وقد وضع هذا الإعلان القاسى قريشاً ورجالها العقلاء فى موقع الحيرة، فلم يعرفوا هل يحزنون لنصر محمد الذى هو عدوهم الألد، أم يفرحون وهو ولدهم وفخرهم بانتصاراته. لكن المؤكد أن نصر خيبر قد قوبل بحماسة قومية انتشرت فى الفيافى مع أخبار السلطان العظيم لدولة الإسلام. أما الناتج المؤسسى لتلك الغزوة الكبرى فقد تمثل **فى قيام دولة يثرب على هيكل إنتاجى** وفر لها الأسس الزراعية المستقرة فى خيبر.

أما العرب الذين خذلوا النبى من مزينة وجهينة وبكر عندما دعاهم إلى الحديبية[٤١]، فقد أخذوا درساً من نوع يليق بهم، فتم حرمانهم من غنيمة خيبر التى وزعت فقط على من حضر الحديبية[٤٢].

* * *

(٤٠) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص٤٦، ٤٧.
(٤١) الواقدى: المغازى، تحقيق مارسدن جونس، مؤسسة الأعلمى، بيروت، د.ت، ج٢، ص٦٢٠.
(٤٢) ابن آدم: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩، ص٤٢.

الباب الثالث

فتح الفتوح

حروب دولة الرسول

الجزء الثانى



الإسلام وقاء

«الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم، حتى يقوم بلال ينهق فوق الكعبة»

(خالد بن أُسيد)

وهكذا أمنت قريش بالحديبية على تجارتها، وعلى حلفائها، لكن التكوين العسكرى لدولة يثرب، وقيام العسكرية فيها على المغانم، كان يتطلب دوماً إيجاد المنافذ لهؤلاء الجند. ومن ثم استمرت سياسة السرايا العسكرية على قبائل العرب، فخرج أبو بكر على رأس سرية أغار بها فجأة على بنى فزارة، ليقتل الناس على مائهم، ويغنم المال والذرارى والنساء، وينفل أبو بكر فتاة غاية فى الجمال ويمنحها للصحابى سلمة مكافأة له على بلائه، ويحكى سلمة كيف حصل على تلك الغادة الموصوفة بأحسن العرب، فى قوله:

> إنه لما اشتدت المعركة مع فزارة، نظرت إلى عنق من الناس فيه من الذرية والنساء نحو الجبل، وأنا أعدو فى آثارهم، فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل، فرميت بسهم وقع بينهم وبين الجبل، فجئت أسوقهم إلى أبى بكر حتى أتيته على الماء، ومنهم امرأة من فزارة عليها قشع من أدم، ومعها ابنة لها من **أحسن العرب**، فنفلنى أبو بكر بنتها.

فما كشفت لها ثوباً حتى قدمنا المدينة، ثم بت **فلم أكشف لها ثوباً** فلقينى رسول الله ﷺ فى السوق، فقال لى: يا سلمة هب لى المرأة، فقلت: والله يا رسول الله لقد أعجبتنى **وما**

كشفت لها ثوباً. فسكت رسول الله ﷺ وتركنى حتى إذا كان الغد لقينى رسول الله ﷺ فى السوق فقال: يا سلمة هب لى المرأة، فقلت يا رسول الله والله لقد أعجبتنى **وما كشفت لها ثوباً**، فسكت رسول الله ﷺ وتركنى، حتى إذا كان الغد لقينى رسول الله ﷺ فى السوق فقال: يا سلمة هب لى المرأة لله أبوك، قلت: يا رسول الله **ما كشفت لها ثوباً** وهى لك يا رسول الله.

ويشى إصرار الرواية على أن سلمة لم يكشف لها ثوباً، أنها ستنتهى إلى رسول الله، لكن الرواية تستمر لتقول: «بعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة وفى أيديهم أسارى من المسلمين، ففداهم رسول الله ﷺ بتلك المرأة»[١]. وفى هذه الإضافة خلل واضح، حيث لم يكن فى ذلك الوقت تحديداً أى أسارى من المسلمين فى مكة، كما كان العقد قد وقع بالحديبية فى هدنة مدتها من السنوات عشر. وتظل هذه المرأة غير المسماة بكتبنا التراثية لغزاً غامضا رغم إشارة الأحداث إلى بقائها بحوزة النبى.

وبعد سرية أبى بكر إلى فزارة خرج عمر بن الخطاب على رأس سرية إلى تربة من وراء مكة، فهرب الناس وعاد عمر ورجاله إلى يثرب، ثم تلتها سرية ثالثة بقيادة بشير بن سعيد إلى بنى مرة فى فدك، ونزل بلادهم واستاق نعمهم لكن لتكر عليه قبائلها ويقتلون جميع أفرادها ويهرب بشير بن سعيد **إلى بيت يهودى يخفيه ويأويه** ليعود بعد أيام إلى يثرب مستخفياً. فيعود النبى ﷺ ليرسل عليهم غالب بن عبد الله الكلبى وأسامة بن زيد فى سرية تالية، وهناك يدركون فرداس بن نهيك، فيشهر عليه أسامة السيف فيصرخ الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله، ولكن أسامة ورفاقه لا يمهلونه وينزلون عليه بسيوفهم فيقتلونه.

ويحكى أسامة يقول:

> فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه فقال: يا أسامة، من لك بلا إله إلا الله؟ قلت: يا رسول الله إنما قالها تعوذاً من القتل.. فكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت يومئذ[٢].

(١) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٢٢١.
(٢) الموضع نفسه.

وهنا نجد عودة إلى البدء، أيام كانت الدعوة طازجة فى مكة، تحمل للناس بشرى وسلاماً، حيث يعود هنا الأمر يبرز بين العربان، فيستجيب له الرسول الكريم، فيعلن الأعرابى شهادته بوحدانية الإله ليأمن على حياته وماله، ليصبح ذلك الإعلان فى زمن الهدنة إعلاناً صريحاً من سيد الدولة اليثربية، أنه يكفى للعربان الشهادة للإله بالوحدانية، والاعتراف له بأنه رسول هذا الإله، ليصبح للشاهد الجوار والأمان. وتصبح شهادته توقيعاً معلناً عل ميثاق الدولة، وبموجبها يصبح مواطناً يستحق رعاية الدولة وحمايتها، كما يصبح هو فرداً فى جنودها. وهى السياسة التى ستؤتى ثمارها خلال أشهر قليلة، أدت إليها مجموعة **غزوات وسرايا جعلت للأمن سوراً بابه الإيمان**، حيث يجتمع للنبى خلال تلك الأشهر، جيش يربو على عشرة آلاف محارب.

ولم يلحظ الأتباع فى مبدأ الأمر تلك العودة، لإيقاف الأطماع فى الغنائم دون قواعد واضحة، قد تضر بالدولة بعد الاعتراف بها رسمياً ضرراً جسيماً، فتأتى سرية أبى حدرد لتؤكد عزم النبى على التحول إلى شكل الدولة، بالشهادة لأيديولوجيتها، تلك الشهادة التى تعنى توقيع ميثاق الانضمام إليها، وهى السرية التى حكى لنا عنها قائدها، وهو يقول:

> بعثنا رسول الله ﷺ إلى أضم فى نفر من المسلمين منهم أبو قتادة الحارث بن ربعى ومحلم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن أضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعى على قعود له، ومعه متيع له ووطب، فسلمنا عليه بتحية الإسلام فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم ابن جثامة فقتله لشىء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتيعه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه الخبر.

وجاء الجواب وحيا يقرع القاتل، ويؤكد خلل رواية أبى حدرد، حيث توضح الآيات أنه لم يكن بين القاتل والمقتول شىء سوى استلابه متاعه واغتنام ما معه، رغم أن الله قد

منّ على المسلمين بمغانم عظيمة كفتهم الناس، وأن عليهم من الآن اتباع الأمر الجديد، ليتابع أبو حدرد قائلاً:

فنزل فينا القرآن : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(٩٤- النساء)[٣].

عمرة القضاء

وانصرم عام على الحديبية، وجاء الموعد من العام التالى سريعاً يهرع، وآن أوان مغادرة أهل مكة لمكة، ثلاثة أيام، ليدخلها المسلمون يعتمرون، ومن جانب قريش كان عليها أن تفى بعقدها، لتثبت لكل العرب، أنها لا زالت ذلك البلد الآمن المفتوح لمن أراد من العرب. لكنها هذه المرة تحديداً كانت تعلم يقيناً أن تركها ديارها إنما عن ضعف منها، كما لا شك هى تعلم أن جميع العربان بذلك الأمر نفسه تعلم، فلم تكن تلك العمرة لأجل مزيد من الرواج التجارى، إنما كانت تنازلاً واضحاً ونقصاً فى السيادة لسيادة أخرى منافسة على ذات الدار وذات الأيديولوجيا وذات المعبد. فلم يكن المعتمرون أفراداً فرادى، إنما جيش كبير هو فى النهاية ذلك الجيش المعادى الذى بدأ يتحول عن قطع الطريق إلى التطهر؛ نحو السيادة الدينية، حيث يخبرنا ابن سعد أن عدد المعتمرين قد وصل إلى الألفين عدداً[٤]. وكل تلك المعانى تفصح عنها تصرفات سيد الخلق نفسه، فيما رواه ابن عباس، أن بعض أهل مكة بقى فى مكة فضولاً وتطلعاً ورصداً، وأن من بقى منهم فى مكة:

---

(٣) نفسه: ص٢٢٤.

(٤) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٨٧.

صـفـوا عند دار الندوة لينظروا إليـه وإلى أصـحـابه، فلمـا دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه، وأخرج عضده اليمنى ثم قال :

رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة[٥] .

ولتأكيد رسالة القوة أمام عيون العربان، أمر النبى رجاله قائلاً :

اكشفوا عن المناكب واسعوا فى الطواف

وهو ما عقب عليه البيهقى موضحاً الداعى له :

ليُرى المشركين قوتهم وجلدهم . .

فاستكف أهل مكة الرجال والنساء والصبيان، ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يطوفون بالبيت[٦] .

وتصعق قريش مأخوذة، عندما ترى النبى، ذلك الذى حاصرها اقتصادياً وقتل أفلاذ كبدها، وفكك عرى إيلافها، وأعلن كفرانها، يسلك مسالكها وينسك مناسكها ويهل بشعائرها، فيسعى بالبيت، وبالصفا والمروة . وهو ما فاجأ الصحابة المسلمين أنفسهم، **فما كانوا يرون أنهم بعائدين إلى شعائر الجاهلية ومناسكها**، وهو ما جاء واضحاً فى رواية ابن هشام وهو يروى لنا المشهد النبوى داخل مكة بقوله :

ثم استلم الركن؟ !

وخرج يهرول، ويهرول أصحابه معه؟ !

. . واستلم الركن اليمانى؟ ! .

ومشى حتى يستلم الركن الأسود؟ !

ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف

ومشى سائرها فكان ابن عباس يقول :

---

(٥) ابن كثير : البداية . . سبق ذكره، ج٤، ص٢٢٧ .

(٦) البيهقي : دلائل . . سبق ذكره، ج٤، ص٣١٥ .

كان الناس يظنون أنها ليست عليهم، وذلك أن رسول الله إنما صنعها لهذا الحى من قريش . . حتى إذا حج حجة الوداع لزمها فمضت السنة بها(٧) .

ومن ثم لزم النبى شعائر قومه، لكنه توجها بالإعلان الجديد، واحتوائها وتضمنها فى الأداء العلنى لدولته النبوية ممثلاً فى الأذان الإسلامى :

ولما قضى رسول الله ﷺ نسكه فى القضاء، وداخل البيت لم يزل فيه، حتى أذن بلال الظهر من فوق الكعبة .

لم تسجل صحيفة الحديبية فى بنودها ذلك، لكن بلالاً صعد بأمر الرسول فوق كعبة قريش، ومن هناك أعلن بأعلى الصوت أداء دولة النبى العلنى، ليعلم جميع العرب بالصيغة الإسلامية، وأهمها : أن محمداً رسول الله . لكن ليعقب من بين الواقفين بعيداً عكرمة بن أبى الحكم بقوله :

لقد أكرم الله أبا الحكم حين لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول .

ليثنى خالد بن أسيد :

الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم، حتى يقوم بلال **ينهق فوق الكعبة**(٨) .

ولا تمر تلك العمرة دون فرحة كبرى تأخذ بأفئدة الهاشميين، ويتقدم العباس بن عبد المطلب بإجراء يدخل السرور إلى قلب ابن أخيه نكاية فى الملأ الأموى، فيزوجه ميمونة بنت الحارث شقيقة زوجته أم الفضل بنت الحارث، **لينكحها وهو محرم**، وهو ما تأكد فى قول ابن عباس «إن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة بنت الحارث وهو فى سفره ذلك وهو حرام، وكان الذى زوجه إياها العباس بن عبد المطلب . . تزوجها وهو محرم»(٩) .

---

(٧) ابن هشام : السيرة فى كتاب السهيلى . . سبق ذكره، ج٤، ص٦٩ .
(٨) ابن كثير : البداية . . سبق ذكره، ج٤، ص٢٣٢ .
(٩) الموضع نفسه .

ومن تلك النكايات الواخزة، ما كان من أمر عبد الله بن رواحة الذى دخل مكة يحجل أمام رسول الله متوشحاً سيفه يطوحه يميناً ويساراً، يسب قريشاً، وينعتها بالكفر داخل ديارها، مهدداً بالقتل وسفك الدم لمن لا يعترف بسيادة النبى، وهو يرتجز قائلاً:

خلو بنى الكفار عن سبيله
أنا الشــهــيــد أنه رسـوله
قـد أنزل الرحـمن فى تنزيله
فى صـحف تتلى: رســوله
فاليوم نضربكم على تأويله
كـمـا ضـربناكم على تنزيله
ضـرباً يزيل الهام عن مقتله
ويذهل الخليل عن خليله[١٠]

فيأمره النبى زيادة فى النكاية، وللرصانة، أن يقول:

لا إله إلا الله
نصر عبده
وأعز جنده
وهزم الأحزاب وحده[١١]

وهو ما عقب عليه البيهقى: «وكان يكابدهم بكل ما استطاع»[١٢]

وبانتهاء اليوم الثالث، يهبط سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبدالعزى فى نفر من قريش، ليقولوا للنبى:

---

(١٠) البيهقي: دلائل .. سبق ذكره، ج٤، ص٣١٥.
(١١) ابن سعد: الطبقات .. سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٨٧.
(١٢) البيهقي: دلائل .. سبق ذكره، ج٤، ص٣١٥.

إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا

فيرد النبى بلطفه وسماحته:

وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟

فيجيبونه الإجابة المعبرة عن مكنونات الصدور من وجع:

لا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنا(١٣).

لينطلق صوت سعد من بين المسلمين معبراً عن إمكان الاستيلاء على مكة الآن ببساطة، فيقول:

يا عاضا ببظر أمه

أأرضك وأرض أمك هى دونه(١٤)؟

لكن ليتدخل سيد الخلق المطهر، ويُسكت سعداً، ويفى بالعهود والمواثيق، مكتفياً بذلك الإعلان العملى السافر لكل العرب، ويأمر رجاله بالرحيل عن مكة.

استمرار السرايا المسلحة

ويعود جند الله إلى مدينة يثرب بعد الاعتمار المشهود، وتعود السرايا مرة أخرى للخروج على القبائل، فينزل شجاع بن وهب بسرية على جمع من هوازن، فيبغتهم ويصيب أنعامهم وسبياً منهم. لكن هذا الجمع الهوازنى كان قد علم طريق الأمن وبابه، فقدم وفدهم على النبى يعلن إسلام جماعتهم ليرد إليهم النبى كل أملاكهم وسباياهم، فى بلاغ إلى كل العرب واضح المعالم محدد المعانى.

---

(١٣) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص٧٠.
(١٤) السهيلي: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج٤، ص٧٧.

وتخرج سرية كعب بن عمير إلى أطراف الشام لتغير على قضاعة بذات أطلاح، المستندة على أسنة الإمبراطورية، وناداهم كعب بدعوة الإسلام، لكن قضاعة الشامية ما كانت ترى فيهم سوى كرَّة عربية مثل كرَّات عهدتها على حدود الإمبراطورية. بل وتعمل سيوفها في أفراد السرية، ويهرب منها جريح واحد يعود إلى الرسول بالخبر، وهنا يعلن الرسول أنه قد آن الأوان لمهاجمة إمبراطورية الروم، حيث الأرض التى لم يقدروا عليها وأحاط بها الله.

وعلى رأس السرية يوفد النبى زيداً بن حارثة فى ثلاثة آلاف مقاتل، وكان النبى يعلم جيداً ماذا يواجهون، ويعلم سلفاً النتائج، لكنها كانت أول هجمة كبرى مقصودة للإعلان عن الآتى. ولعلمه ﷺ بما هو مقدم عليه قال فى رجاله: إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فإن قتل عبد الله فليرتضى المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم[١٥].

وتخرج سرية الشهداء العظام، تلك السرية الفدائية، ميممة وجهها شطر البلقاء على تخوم جنوبى دمشق، ويبلغ خبرها إلى هرقل عظيم الروم، فينزل بنفسه إلى لقاء هؤلاء الذين تجرأوا على حدود مملكته، فى مائة ألف من الروم، ومائة ألف من القبائل العربية المتاخمة للروم والموالية لها، وهو الهول الذى يصوره أبو هريرة قائلاً:

> شهدت مؤتة، فلما دنا المشركون منا، رأينا ما لا قبل لأحد به[١٦].

وكان طبيعياً أن يقتل الروم الأمراء الثلاثة، وكثيراً من مقاتلى المسلمين المقدمين، حتى تناول خالد بن الوليد الراية، لينسحب بما بقى من الجيش الذى عاد ممزقاً إلى يثرب، ويستقبلهم العامة على أبواب المدينة بالتراب يحثونه فى وجوههم يقولون:

---

(١٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٢٤١.

(١٦) الموضع نفسه.

يا فرار، فررتم في سبيل الله.

لكن ليرد عليهم سيد الخلق بعد أن أبلغ رسالة عملية إلى هرقل بعد رسالته المكتوبة، وإلى قريش، وإلى العالم أجمع، بقوله للناس:

ليسوا بالفرار،

لكنهم الكرار إن شاء الله.

إعلاناً عن أن تلك السرية الفدائية كانت مقدمة، وأن الإصرار على غزو الروم وكسرى قائم لا يلين، وأن هناك كرَّات آتية وكرَّات، وأن الوعد النبوى قائم كعلم يرفرف لا يتراجع، يردد فى مسمع العربان: «والذى نفس محمد بيده، لتملكن كنوز كسرى وقيصر».

أما إذا كان عدد من خيار الصحابة قد قدموا أنفسهم شهداء على مذبح الهدف الأكبر، فقد نالوا كفايتهم من الثواب، إلى الحد الذى ارتفعوا فيه إلى مصاف كبار الأنبياء. بعد أن رآهم النبى فى رحلة سماوية فى رؤياه، حيث اطّلع عليهم فى فردوس الرحمن «فإذا بنفر ثلاثة يشربون من خمر، فقلت من هؤلاء؟ قالوا:

هذا جعفر بن أبى طالب

وزيد بن حارثة

وعبد الله بن رواحة.

ثم أشرفوا شرفاً آخر فإذا بنفر ثلاثة، فقلت من هؤلاء؟ قالوا:

هذا : إبراهيم

وموسى

وعيسى

عليهم السلام، وهم ينتظرونك»[١٧].

---

(١٧) نفسه: ص٢٤٨، ٢٥٣، ٢٦٠.

وإعمالاً للوعد لا ينتظر النبى طويلاً، فقط يغير فى التكتيك، فيرسل على العربان المتحالفين مع الروم من بلى وقضاعة سرية يقودها عمرو بن العاص، فتصل إلى ذات السلاسل، فيخاف عمرو كثرة عدوه، فيمده النبى بأبى بكر بعدد آخر من الجند، لكن ليرى قادة السرية أنه لم يأن الأوان بعد فيعودون دون أية مغانم أو فتوح[١٨].

ولكن ببعض التدقيق والملاحظة، لا يمكن أن تعتبر غزوة مؤتة هزيمة فى نظر عرب الجزيرة، ولا عدّها النبى كذلك، ولا حتى قريش. لأن مجرد خروج العرب لمجابهة الروم، كان أمراً بعيداً حتى عن الأحلام، لقد كان مجرد الخروج إلى الروم والاصطدام بهم فى معركة حقيقية واجهوا فيها فيالقهم المنظمة الهائلة تحت قيادة ملكهم بنفسه، **كان بلا شك انتصاراً وحده وبحد ذاته**.

* * *

(١٨) نفسه: ص٢٧٢.

مكـة : فتـح الفتـوح

«والله يا أبا الفضل :

لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً»

________________ (أبو سفيان)

تعود بنا كتب السير والأخبار القهقرى زمناً إلى ما قبل الدعوة، لتطلعنا على السر وراء نقض معاهدة الحديبية قبل موعدها بزمن طويل، فتحكى لنا عن مخاصمة ثأرية كانت بين قبائل خزاعة وقبائل بكر، كان سببها أن رجلاً من بكر خرج تاجراً، فلما توسط ديار خزاعة، عدوا عليه وقتلوه واستلبوا تجارته، فكان أن ثارت بكر لرجلها وأخذت بثأرها برجل من خزاعة. فترد خزاعة بإطلاق سيفها ليطيح بالرؤوس من أشراف كنانة، فيسقط رأس مالك بن عياد، ثم الديلى، ثم سلمى، ثم كلثوم، ثم ذؤيب[1]، وهنا تأتى الحديبية.

وتنص بنود الحديبية على أن من أراد الدخول فى عقد محمد دخل، وأن من أحب الدخول فى عقد قريش دخل، فتدخل خزاعة فى حلف محمد، وهو الأمر الذى لم يكن جديداً ولا خافياً، فقد كانت خزاعة طوال الوقت مع محمد، مشركها ومسلمها، ترى بذلك أنها تنال من قريش جميعاً، بعدما أقصاهم قصى الجد البعيد لقريش عن مكة، واستلبهم الكعبة ومفاتيحها، وسيادة كانوا يرونها لهم، ومن ثم كان منطقياً تماماً، أن تدخل عدوتها بكر فى حلف قريش.

____

(١) ابكار السقاف : نحو آفاق . . سبق ذكره، ج٢، ص١٥٥٥ .

وإبان هدنة الحديبية، ولم يمض على توقيعها بعد عام عمرة القضاء أسابيع، حدثت مقاتلة بين بكر وخزاعة فجأة، أرجعها رواتنا إلى غدر بكر، حيث انتهز بنو الديل أحد بطونها فرصة من خزاعة، لتثأر لرجلها الديلى. فيطارد بعض رجالهم خزاعياً عليل القلب مفئوداً اسمه منبه، وكان برفقة رفيق له يدعى تميم، ولما ركض الرجلان أمام مطارديهم لم يستطع منبه الاستمرار، فنادى رفيقه تميم قائلاً: «.. يا تميم انج بنفسك، فأنا والله لميت، قتلونى، أو تركونى، لقد أنبت فؤادى». وينطلق تميم، ويموت منبه، وتضيف كتب الأخبار باقتضاب شديد لا يفصح عن أية تفاصيل حول مدى صدق تلك الإضافات، فتقول: إن الأمر قد هاج بين القبيلتين، وأن بعضاً من قريش أمدّوا بكراً بالسلاح، وربما قاتلوا معهم متخفين[٢].

هذا بينما هناك رواية أخرى تؤكد أن من أشعل أوار الحرب بين كنانة وخزاعة هم الخزاعيون وليس الكنانيون، وذلك فيما رواه البلاذرى فى قوله: «سمع رجل من خزاعة، وكانوا مع رسول الله ﷺ فى عهده وعقده، رجلاً من كنانة وكانوا فى عهد قريش وذمتها، يهجو رسول الله ﷺ، فوثب عليه وشجه، فاقتتلت خزاعة وكنانة، وأعانت قريش بنى كنانة وخرج وجوههم يقاتلون متنكرين»[٣].

وسواء كان الأمر هكذا، أو كذلك، ولو سلمنا بأن كنانة كانت البادئة، وأخذنا بقصة الرجل الخزاعى المفئود، فإن الموقف قد تصاعد بموته. فخرجت خزاعة فى أربعين راكباً وراء سيدهم عمرو بن سالم، من فخذ كعب الخزاعى، ليقدموا على النبى فى يثرب، وهو جالس فى مسجده بين أصحابه، ليقف عمرو بن سالم يقص الحدث شعراً تحريضياً طالباً نصرة النبى فى قصيدة طويلة جاء فى بعضها:

---

(٢) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص٨٤، ٨٥.
(٣) البلاذرى: أنساب الأشراف.. سبق ذكره، ج١، ص٣٥٣.

يارب إنى ناشـــد مــحـــمــــداً **حـلـف أبيـــــه وأبينـا** الأتلـدا

قـــــد كنتم ولـداً وكنـا والـداً ثـمـت أسـلـمنـا فـلـم ننـزع يـدا

فـانصـر هداك الله نصـراً أعـتـداً **وادع عــبـــاد الله يأتوا مــــددا**

وينصت سيد الخلق للرجل حتى ينتهى من قصيده الشاكية المستنصرة، ليقف النبى وسط الناس، ويجيبه بهدوء ما قبل العاصفة:

نُصرت يا عمرو بن سالم[٤].

ثم يلتفت إلى الناس، معلناً مناصرته بنى كعب من خزاعة قائلاً:

لا نُصرت إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر به نفسى

ثم يتطلع إلى سحابة مارة، ويشير إليها مردداً:

إن هذا السحاب ليستهل بنصر بنى كعب

ويروى لنا ابن سعد مجرى الحدث وراء الأحداث وهى تتسارع فى قوله:

وبعث رسول الله ﷺ إلى من حوله من العرب، أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع وسليم، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق، **فكان المسلمون فى غزوة الفتح عشرة آلاف**.
ونادى منادى رسول الله: من أحب أن يفطر فليفطر، ومن أحب أن يصوم فليصم[٥].

ومع إفاقتها، تعلم قريش بما يجرى، فتأخذها الرعدة، وترسل زعيمها وحامل لوائها أبا سفيان صخر بن حرب إلى زعيم يثرب، لإيقاف الأمر، وإعلان أن قريشاً لا دخل لها

---

(٤) نفسه: ص٨٦.
(٥) ابن سعد: الطبقات .. سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٩٧.

بثأر كنانة، وأن قريشاً على عهدها باقية، وببنود صحيفة الحديبية مستمسكة. ولا تعلم قريش إلا ما حدث بين كنانة وخزاعة، ولا يعلم أبو سفيان أن وفد خزاعة قد ذهب إلى المدينة يستنصرها، لكنه يلقى ركبهم عائداً من المدينة، وينكرون عليه قدومهم من هناك ويرحلون إلى ديارهم، لكن روث بهائمهم يفضحهم بالحق، بما فيه من نوى بلح يثرب. فيعلم أبو سفيان أن الأمر قد عظم، فيحث خطاه مسرعاً، مقرراً أنه سيمد العهد ويوطد العقد بين محمد وقريش.

ويدخل أبو سفيان يثرب، ويختار بيت ابنته أم حبيبة، التي تزوجها النبي بعد عودتها من مهاجرها بالحبشة، ويذهب ليجلس على فراش النبي فتطويه عنه فيقول: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ فترد على أبيها: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ فيبغت الرجل من رد ابنته عليه ليقول لها: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر.

ويتركها ويخرج إلى مجلس النبي، ويجلس أمامه، ويكلمه، ويكلمه، ويشرح، ويفصل في بنود العقد، ويعتذر، ويعتذر، ويطلب إبقاء الحديبية، بل وتمديدها، ويظل الرجل يتكلم والنبي صامت لا يرد عليه بشيء، ويكتشف الرجل أنه وحده فقط الذي يتكلم والكل ينظر إليه بصمت مخيف ومريب. فيقوم زعيم قريش يجرجر كرامته إلى بيت أبي بكر ينتظره ثم يكلمه، ليتوسط لدى النبي، لكن أبا بكر يرد ببساطة: ما أنا بفاعل. فيتركه ويلهث إلى عمر بن الخطاب، لكن ليرد عليه عمر بحدة وانفعال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به..». ولا يدري الرجل أين يذهب، فيتذكر علياً، فيركض إلى داره ليجد معه فاطمة وولدها الحسن صبي يدب بين يديها، ليقول لعلي:

> يا علي، إنك أمسّ القوم رحماً، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي عند رسول الله. فيقول له:

ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

وهنا يلتفت الزعيم المذعور إلى فاطمة، مشيراً إلى طفلها يائساً:

يا ابنة محمد، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟

ولا تبذل فاطمة جهداً كبيراً لتكتشف **أن الرجل يهذى** فترد عليه:

والله ما بلغ ابنى ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله.

ويسقط فى يد الرجل بعد أن سقط إعياء ليتوجه بالكلام قانطاً إلى على قائلاً: «يا أبا الحسن، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى»، ولا يجد على ما يقول سوى: «والله ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك شيئاً». ثم يذكره بمكانته قائلاً: «إنك سيد بنى كنانة، قم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك»، ويسأله أبو سفيان: «أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً؟»، فيرد على: «لا والله ما أظنه، لكنى لا أجد لك غير ذلك». وينهض أبو سفيان يلملم كرامة كنانة المبعثرة ليدخل المسجد ويقف وسط الناس ينادى والعيون تتشظى لهباً حوله: «أيها الناس، إنى قد أجرت بين الناس»، وحتى لا يسمع ما يكره يخرج مسرعاً إلى بعيره ميمماً شطر مكة[6].

وما أن يغادر أبو سفيان باب المسجد، حتى ينهض الرسول رافعاً يديه إلى السماء مخاطباً ربه والناس تسمع:

اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش **حتى نبغتها** فى بلادها.

---

(٦) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص٨٦، ٨٧.

ويتحول نحو الناس يأمرهم بالجهاز إلى مكة، ويركب على رأس عشرة آلاف مقاتل ينزل بهم مر الظهران، «وقد عميت الأخبار عن قريش، فلم يأتهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل». هذا بينما كان العباس قد أخذ أهله وخرج من مكة متجهاً للمدينة، ليفاجأ بغتة بهذا الجيش الهائل، وعلى رأسه ابن أخيه فيردد قائلاً:

واصباح قريش

والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة

قبل أن يستأمنوه

إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

وينضم العباس إلى ابن أخيه، ويحكى أنه أخذ بغلة النبى البيضاء، وخرج يجوس بها ليلاً حول الجيش قرب مكة، عساه يجد لمكة مخرجاً، فيسمع اثنين يتحاوران، يعرف فى صوتيهما أبا سفيان وبديل بن ورقاء. إذ يقول أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، فيقول بديل: هذه والله خزاعة قد خمشتها الحرب، فيرد أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

وهنا ينادى العباس أبا سفيان، ويلتقى العباس بالزعيم المأخوذ بذعره، ليسرع إليه بالخبر: «ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ فى الناس، واصباح قريش والله» فيرد أبو سفيان: «فما الحيلة فداك أبى وأمى»، فيقول له العباس: «والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله حتى فأستأمنه لك».

ويأخذ العباس أبا سفيان ردفه على بغلة رسول الله وسط نيران الكتائب نحو خيمة النبى ليراه عمر بن الخطاب فيهرع إلى رسول الله ﷺ يقول: «هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعنى لأضرب عنقه» لكن يقتحم العباس الخيمة مسرعاً قائلاً: «يا رسول الله إنى قد أجرته»، وهنا يقول النبى: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتنى به»[٧].

---

(٧) نفسه: ج٤، ص٨٧ : ٩٠.

وهكذا ينزل أبو سفيان فى ضيافة العباس، ضيافة هى إلى الأسر أقرب، وعند الصباح يخرج به العباس، فيرى الناس قد وقفوا صفوفاً منتظمة، فيذعر الرجل ويظنها لحظة الهجوم على بلده، فيقول للعباس: «يا أبا الفضل، ما للناس؟ أأمروا فى شىء؟» فيرد العباس «لا، لكنهم قاموا إلى الصلاة».

وينظر أبو سفيان لذلك الانتظام العظيم، والانضباط الشديد، عشرة آلاف مقاتل خلف الزعيم، يكبر فيكبرون، يركع فيركعون، يتلو فينصتون، يرفع فيرفعون، فيصاب سيد مكة بالبهتة ويقول:

ما رأيت كاليوم طاعة

قوم جمعهم من ههنا وههنا

ولا فارس الأكارم

ولا الروم ذات القرون

بأطوع منهم له[8].

لم يدرك الرجل حتى الآن وهو فى فهمه القبلى يرفل متخلفاً، أن هناك أمراً أعظم من القبيلة قد جمع الناس من ههنا وههنا، وتوجه مع العباس بعد الصلاة ليراه النبى فيفاجئه بالسؤال:

ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟

يقيناً يعلم أبو سفيان ذلك، وكذلك سائر قريش يعلمون يقيناً، أن لا إله إلا الله، وقد شهدت لهم الآيات القرآنية بذلك العلم، فالله لا إله سواه، لكن هناك الأرباب الأدنى درجة من الإله، تلك التى تشفع للناس عند الله، ومن ثم كانت إجابة أبى سفيان:

---

(٨) نفسه: ج٤، ص٩٩.

بأبى أنت وأمى
ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك،
والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره
لقد أغنى عنى شيئاً بعد.

وهنا ينتقل النبى إلى الشق الثانى من السؤال، وهو الشق الذى لا شك سيشق على أبى سفيان، فيقول له:

ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟

فتأخذ الرجل أنفة الصدق العربى فى التعبير عن الدواخل ليرد قائلاً:

بأبى أنت وأمى
ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك
أما هذه
والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً.

لم يكن الرجل بعالم أن إجابته غير موفقة بالمرة، وأن الأمور قد تغيرت، حتى أساليب التعامل العربية، لأن صراحته هنا لن تكون سوى مدخل له إلى المثوى الأخير، فيسرع العباس ينبه الرجل بقوله:

ويحك
أسلم واشهد أن لا إله إلا الله
وأن محمداً رسول الله
قبل أن **تضرب عنقك**

وعلى الفور يقولها زعيم قريش، ويسلم الرجل[٩]، ثم يقول متلعثماً محاولاً إظهار تمسكه بدينه وبهيبته:

---

(٩) الموضع نفسه.

وكيف أفعل بالعزى؟

ليسمعه عمر بن الخطاب بجوار الخيمة فيرد عليه بصوت عال ساخراً ضاحكاً ليسمعه :

نخرا عليها

فيقول أبو سفيان : «ويحك يا عمر **إنك رجل فاحش**، دعنى مع ابن عمى فإياه أكلم»(١٠).

ومرة أخرى يتدخل العباس يقول للنبى ﷺ : «يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً».

كان الأمر إذن مقضياً، **وانتهى أمر زعامة مكة قبل دخولها**، حتى أن العباس رأى أن يجعل لزعيم قريش شيئاً بعدما لم يبق له شيء.

ويرى النبى أنه لا بأس من شيء لأبى سفيان فيقول : «نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

ومن ثم خرج أبو سفيان يحمل عن السيد الجديد رسالة حاسمة قاطعة، هى أوامر **بحظر التجول** عند دخول الجيش الإسلامى مكة، وقبل أن يهبط مكة، همس النبى لعمه العباس : «ياعباس احبسه بمضيق الوادى عن خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها»، ويأمر النبى باستعراض القوة، وبينما العباس مع أبى سفيان عند مضيق الوادى، يروى لنا :

> مرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس من هذه؟ فأقول سليم، فيقول : مالى وسليم، فيقول : يا عباس من هؤلاء؟ فأقول : مزينة، فيقول : مالى ولمزينة، حتى نفدت القبائل . .

(١٠) الموضع نفسه.

ومر رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء، وإنما قيل لها الخضراء، **لكثرة الحديد وظهوره** فيها. . منها المهاجرون والأنصار، **لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد**، فقال : سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قلت : هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار.

قال :

ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة

والله يا أبا الفضل

لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً.

قلت : يا أبا سفيان إنها النبوة، قال : فنعم إذن،

قلت : النجاء إلى قومك[11].

وهنا نجد شباب قريش وقد أخذتهم الحمية، بينما يقسم النبى جيشه أربعة ألويه كبرى ليدخل مكة، ونقرأ الخبر عند أبى هريرة وهو يحكى :

> فبعث رسول الله ﷺ الزبير على إحدى المجنبتين، وبعث خالداً على المجنبة الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الجسر وأخذوا بطن الوادى، ورسول الله ﷺ فى كتيبته، وقد وبشت قريش أوباشها. . فنظر فرآنى، فقال : يا أبا هريرة، فقلت لبيك يا رسول الله، قال : **اهتف بالأنصار ولا يأتينى إلا أنصارى**، فهتفت بهم فجاءوا فأطافوا برسول الله ﷺ، فقال : أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم؟ ثم قال بيديه، إحداهما فوق الأخرى : **احصدوهم حصداً** حتى توافونى بالصفا، فقال أبو هريرة : فانطلقنا فما يشاء واحد منا إلا أن يقتل منهم ما شاء، وما أحد منهم يوجه إلينا منهم شيئاً، فقال أبو سفيان :

---

(١١) نفسه : ص٩٠.

أُبيحت خضراء قريش

ولا قريش بعد اليوم[١٢].

ويهرع أبو سفيان بالفزع إلى مكة يصرخ بأعلى صوته «يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الجميت الدسم الأحمس، قبح من طليعة قوم، قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فقد جاءكم بما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تغنى عنا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه عليه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[١٣].

وبدأ حظر التجول فى أم القرى، بعد أن رأى سيد قريش ما رأى، وأراده النبى أن يرى، ثم كيف جمع الأنصار تحديداً أمامه، أهل الحرب والدم والحلقة، أعداء قريش وفدائيى الإسلام ورجاله، ليستبيح بهم مكة حيث ثروات الملأ التى تربو على مئات الملايين، وفيها كان الغيد الحسان اللائى يرفلن فى النعيم. ومن ثم تصور سعد بن عبادة أن ما صنعه الرسول من استعراض للقوة والعنف أمام أبى سفيان أمر نهايته استباحة مكة فخرج يحمل راية القيادة أمام الجيش، ويحمل معها مشاعر كل يثربى إزاء مكة، هاتفاً: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة.

ويسمعه المهاجرون فيهرعون بالبلاغ إلى النبى، ومعهم ضرار بن الخطاب شاعراً يفصح عن المشاعر قائلاً:

يا نبى الهـــدى إليك لجـــا	حى قريش ولات حين حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأر	ض وعاداهم إله السماء

(١٢) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٣٠٥.

(١٣) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص١٠٧.

والتقت حلقتا البطان على القـ ـوم ونودوا بالصيلم الصلعاء

إن **سعداً يريد قاصمة الظـ ـهر** بأهل الحجون والبطحاء

خزرجى لو يستطيع من الغـ ـيظ رمانا بالنسر والعواء

فلئن اقتحم اللواء ونادى يا حماة اللواء يا أهل اللواء

لتكونن بالبطاح قريش **بقعة فى أكف الإماء**[١٤].

وهنا ينادى رسول الله ﷺ سعداً ليأخذ منه الراية، ويعطيها لأكثر المهاجرين رأفة ورحمة ليدخل بها مكة، لعلى بن أبى طالب، وخلف على دخل الجيش فى رسالة طمأنة واضحة لمن ينظرون من خلف فرج الأبواب يتطلعون ويرجفون. لتتجرأ النساء فقط فيكشفن عن أنفسهن، ويفتحن الأبواب ويقفن فى دلع على شارع الموكب العظيم، يحملن أباريق الخمر يضربن بها وجوه خيل الفتح فى دعوة واضحة تعلن استسلام النساء للفاتحين عن رضى. ويلخص ابن الأثير ما روته كتب الأخبار بشأن ذلك الاستقبال الحريمى فى قوله:

قام نساء مشركات فى وجوههن، يلطمن وجوه الخيل بالخمر،
وقد **نشرن شعورهن**، فرآهن رسول الله ﷺ وإلى جنبه أبو بكر،
فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: يا أبا بكر كيف قال حسان[١٥]؟

لينطلق حسان مستجيباً يصف المشهد شعراً يقول:

تظل جيادنا متمطرات **يلطمهن بالخمر النساء**

فإن تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء

وقال الله لقد سيرت جنداً هم الأنصار عرضتها اللقاء

---

(١٤) نفسه: ص١٠١.

(١٥) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج٢، ص٢٤٧.

ألا أبلغ أبا ســـفـــيـــان عنى مــغلغلة قــد برح بهــا الخـفــاء
بأن سـيــوفنا قــد تركـتك عـبـداً وعـبـد الدار سـادتهــا الإمــاء(١٦)

ولم يعترض الجيش أحد إلا النساء المرحبات، واللهم إلا مجنبة خالد بن الوليد، الذى لقبه بعض المتحمسين من شباب قريش فى جمع عند الخندمة. فقتل منهم ثمانية عشر وفر البقية، وعلم النبى فقال: ألم أنه عن القتال؟ فأجابه مجيب. خالد قوتل فقاتل، فقال: قضاء الله خير. ومن المسلمين لم يقتل غير رجلين خطأ لسريانهما فى أماكن محظورة وقت حظر التجول، هما كرز بن جابر الفهرى، وخالد الأشقر الخزاعى(١٧).

ودلف النبى إلى البيت، وأرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة ليأتيه بمفتاح الكعبة، ذلك المفتاح التاريخى الذى انتقل عبر القرون من أياد إلى أيادى فوق دماء كثيرة، لينتهى إلى سليل البيت الهاشمى. ويمسك النبى بالمفتاح رمز السيادة جميعاً، ويفتح باب الكعبة ليصلى بداخلها ركعتين، ثم يخرج فيقف على الباب آخذاً بعضادتيه وقد لبط الناس حوله، فيخطب فيهم قائلاً:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى، **فهو موضوع تحت قدمى هاتين**، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل، أربعون منها فى بطونها أولادها.

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب.

(١٦) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص١٠٧.
(١٧) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج٢، ج٢، ص٩٨.

﴿يا أيهـا النـاس إنا خلقناكم من ذكـر وأنثى . . .﴾ (وقـرأ الآية كلها) .

يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل فيكم؟

ويأتيه الرد :

خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم .

رد ما كان جوابه إلا :

اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ويدعو النبى عثمان بن طلحة ، فيدفع إليه مفتاح الكعبة وهو يقول : «خذوها يا بنى طلحة **تالدة خالدة** لا ينزعها منكم أحد إلا ظالم» . بينما لا شك كان عثمان بن طلحة يتذكر أيام كان محمد مهيضاً ضعيفاً فى بداية دعوته بمكة ، عندما أراد أن يدخل محمد الكعبة مع الملأ القرشى من السادة ليطالع ما بداخلها ، فمنعه عثمان بن طلحة ورده رداً غليظاً ، ونال منه . ولا شك يتذكر الآن وهو يستلم المفتاح من محمدﷺ بعد أن أصبح سيد السادة ، ما سبق وقاله له محمد يومذاك : **«يا عثمان ، لعلك سترى هذا المفتاح بيدى يوماً ، أضعه حيث شئت» ، ولا شك أيضاً أنه لم يزل ذاكراً بقية الحوار عندما أجابه : «لقد هلكت قريش يومئذ وذلت» فرد عليه النبى : «بل عمرت وعزت يومئذ»**[18] . وقد أثبتت الأيام صدق كل كلمة قالها سيد الخلق .

ثم ينادى النبى عمه العباس بن عبد المطلب ليقيمه كما كان على منصب السقاية قائلاً : «أعطيتكم ما ترزأكم ولا ترزؤنها» ، ثم يبعث إلى تميم بن أسد الخزاعى ويأمره **بتجديد أنصاب الكعبة** ، ثم يأمر بلال بالصعود فوق سطح الكعبة عند الظهر ، ليرفع شعار دولة

---

(١٨) ابن سيد الناس : عيون . . سبق ذكره ، ج٢ ، ص٢٣١ .

الإسلام مؤذناً به. بينما يردد النبى: «لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة»، وكانت بنت أبى الحكم تردد قولاً آخر وهى تسمع الأذان، فتقول: «أما الصلاة فسنؤديها، **ولكن والله ما تحب قلوبنا من قتل الأحبة**»[(١٩)].

وبعدها خرج النبى إلى ساحة الكعبة، يطوف على الأصنام يشير إليها بقضيب فى يده وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، ويؤكد ابن هشام عن ابن إسحاق أنه ما أشار إلى صنم إلا وقع لساعته على وجهه أو قفاه، لكن ابن كثير لم يعجبه ذلك، ورأى فى سقوط الأصنام بمجرد الإشارة تزيّداً ورواية ضعيفة[(٢٠)].

وبعدها يدخل النبى إلى قبة بنوها له، **وهناك يصدر أوامره بقتل نفر سماهم بالاسم، حتى لو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة**، منهم جاريتان كانتا تتغنيان بهجاء النبى، فقتلت واحدة واستؤمن للأخرى من النبى فعفا عنها. وسارة وهى جارية كانت تؤذيه بمكة قبل الهجرة وقد استؤمن لها بدورها، والحويرث بن نقيد وهبار بن الأسود وهما اللذان نخسا بعير زينب بنت الرسول فسقطت عنه وألقت جنينها. وعبدالله بن خطل الذى أسلم فأرسله النبى يجمع الصدقات فقتل عبده وعاد إلى مكة مشركاً، وقد قتله سعيد بن حريث. ومقيس بن صبابة الذى ذهب إلى يثرب مسلماً، ثم قتل أنصارياً ثأراً لأخيه ثم عاد إلى قريش مشركاً، وقد قتله نميلة بن عبد الله، وعكرمة بن أبى جهل، وقد جاءت به امرأته للنبى فاستأمنته له[(٢١)].

كذلك صدر الأمر النبوى بقتل الشاعر عبد الله بن الزبعرى السهمى؛ لأنه كان ممن يهجو النبى بشعره، وقد هرب مع هبيرة المخزومى زوج أم هانىء بنت أبى طالب إلى

---

(١٩) ابن سعد: الطبقات . . سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٩٩، انظر أيضاً السهيلى: الروض الأنف . . سبق ذكره، ج٤، ص١١٤.

(٢٠) ابن كثير: البداية . . سق ذكره، ج٤، ص٣٠٠.

(٢١) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى . . سبق ذكره، ج٤، ص٩٢، ٩٣، انظر أيضاً السهيلى: الروض الأنف، ج٤، ص١٠٤.

نجران، وهناك أقام هبيرة مشركاً حتى مات، وعاد ابن الزبعرى إلى النبى معتذراً متحبباً بقصائد المديح، فعفا عنه. كما صدر الأمر بقتل وحشى الحبشى لقتله حمزة بن عبد المطلب عم النبى فى أحد، لكنه جاء للنبى معتذراً مسلماً فقبل منه، كذلك قبل النبى اعتذار حويطب بن عبد العزى، وهند بنت عتبة زوجة أبى سفيان(٢٢).

ومن صدر بحقهم حكم الموت كان شقيق عثمان بن عفان من الرضاعة، عبد الله بن أبى سرح، لأنه كان قد أسلم، واشتغل بكتابة الوحى للنبى، ثم ارتد إلى مكة مشركاً، وقد جاء به عثمان إلى النبى يستأمنه، وهو ما جاء عند ابن كثير راوياً: «فلما جاء ليستأمن له **صمت عنه الرسول طويلاً**، ثم قال: نعم، فلما انصرف مع عثمان قال الرسول لمن حوله: أما كان فيكم رجل رشيد، يقوم إلى هذا ـ حين رآنى قد صمت ـ فيقتله؟! فقالوا: يارسول الله هلا أومأت إلينا؟ فقال: إن النبى لا يقتل بالإشارة»(٢٣).

وتقول رواية أخرى بذات الخصوص أن واحداً من الأنصار كان قد نذر أن يقتل ابن أبى سرح نقمة عليه، فلما جاء به عثمان وكان الأنصارى حاضراً، وبعد ما خرج عثمان وأخوه قال النبى للأنصارى: «**هلا وفيت بنذرك**؟ فقال: يا رسول الله وضعت يدى على قائم السيف أنتظر منك أن تومىء لى فأقتله، فقال النبى: ليس لنبى أن يومىء»(٢٤).

ووسط زخم الأحداث، وبين الحشد المتجمع حول قبة النبى ﷺ جاء أبو بكر بشقيقته، التى كانت قد خرجت على باب بيتها حين دخول جيش الفتح إلى مكة مع النسوة اللائى خرجن يستقبلن جيش الفتح، فتلقاها رجل وخطف من رقبتها طوقها الذهبى. وأمسك أبو بكر بيد شقيقته ينادى جند الله: «أنشدكم الله والإسلام طوق أختى، فلم يجبه أحد، فقال لأخته: أى أُخية، احتسبى طوقك، **إن الأمانة فى الناس اليوم لقليل**»(٢٥).

---

(٢٢) ابن الأثير: الكامل . . سبق ذكره، ج٢، ص٢٥٠، ٢٥١.
(٢٣) ابن كثير: البداية . . سبق ذكره، ج٤، ص٢٩٦.
(٢٤) ابن سعد: الطبقات . . سبق ذكره، مج٢، ج١، ص١٠٢.
(٢٥) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى . . سبق ذكره، ج٤، ص٩١.

وتنتهز خزاعة الموقف فتعدو على هذيل، فتقتل رجلاً منها بثأر قديم، وهنا يغضب سيد الخلق ويقف ينادى فى الناس:

يا أيها الناس:

> إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهى حرام من حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماء ولا يعضد فيها شجراً، لم تحل لأحد كان قبلى، ولا تحل لأحد يكون بعدى، **ولم تحلل لى إلا هذه الساعة، غضباً على أهلها**، ثم رجعت كحرمتها بالأمس. فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله قاتل فيها فقولوا: **إن الله قد أحلها لرسول الله ولم يحلها لكم**، يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل، **لقد كثر القتل**(٢٦).

وهكذا، وقفت الأنصار دهشة، كما وقفت قريش أيضاً مأخوذة، فالنبى يكف أيدى الأنصار عن مكة، ويكف أيدى الناس عن بعضهم البعض، ويعلن حرمة البيت إلى نهاية الدهور، ويطلق أهل مكة دون شروط، ويمارس طقوس قريش الدينية بتمامها، حتى تجديد الأنصاب، واحترام الحجر الأسود وتقديسه. لتتساءل الأنصار متوجسة بالهواجس عما سيئول إليه الأمر، وهل من الممكن للنبى بعد أن تحرك رحمة لبلده أن يمكث فيها بين أهله؟ لكن ليأتيها الجواب من رسول الله ﷺ: «معاذ الله، إنى عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله **وإليكم**، فالمحيا محياكم والممات مماتكم» فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: «والله ما قلنا الذى قلنا، إلا للضن بالله ورسوله»(٢٧).

---

(٢٦) نفسه: ص٩٤، ٩٥.

(٢٧) نفسه: ص٩٥، انظر أيضاً ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٣٠٦.

وبعدها يصعد النبى إلى الصفا، لتقف مكة فى طابور طويل، رجالها ونساءها، يمرون أمامه ليلقى كل منهم صيغة الاعتراف والرضوخ ومبايعة الرسول عليهم سيد أو رسولاً، بينما يجلس عمر ابن الخطاب أسفل مجلسه «يأخذ على الناس **السمع والطاعة لله ولرسوله**»(٢٨).

☆ ☆ ☆

(٢٨) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج٤، ص٣١٧.

سرايا خالد بن الوليد

«اللـهـم إنـى أبـرأ إلـيـك ممـا صـنـع خـــــالـد بـن الـولـيــــد»

(النبى ﷺ)

بفتح مكة، انتهت الشفاعات، إحدى ركائز العقائد العربية والقرشية، وتم تدمير تماثيل الأرباب الوسيطة جميعاً، تلك التى كانت قائمة فى فناء الكعبة، تتوسط لدى إله السماء لمن هم فى الأرض من عُبّاده. وسقط عمود أساسى من أعمدة الوثنية المكية المرتبطة بالكعبة وبالتجارة، حيث كانت تلك الأرباب أرباباً للقبائل الضاربة فى بطن شبه الجزيرة، استضافتها الكعبة المكية جذباً لأتباعها نحو المركز التجارى المكى، لمزيد من الرواج التجارى، وإثباتاً لسيادة الإله المكى الأعلى السماوى على بقية الأرباب، بما يحمل ضمنياً التسييد القرشى على بقية القبائل. ومن ثم سقطت الوساطات ودمرت الشفاعات بتدمير تلك التماثيل، الذى جاء تدميراً للرموز القبلية المتعددة وصهر تلك القبائل جميعاً فى منظومة الأمة الواحدة، عبر العبادة المباشرة لإله واحد لا يقبل وساطة من أحد إلا بإذنه. وقد أذن بذلك لصفيه النبى القرشى كشفيع أوحد، لتنتقل حالة التشتت القبلى الساعى نحو التوحيد بتماثيل متجاورة فى الكعبة، إلى توحيد كامل بصهر جميع الشفاعات فى شخص سيد أوحد من قريش هو النبى عليه الصلاة والسلام. لتضمن قريش بذلك سيادة أعظم، فينوب عنها جميعاً سيد الخلق سيداً للعرب وشفيعاً أوحد للإله الأوحد فى الدولة المتوحدة الموَحِدة.

وإعمالاً لذلك انطلقت سرايا المسلمين لتدمير هياكل الأرباب الوسيطة فى محيط الجزيرة، وبين تلك السرايا كانت سرية خالد بن الوليد لتدمير العزى وبيتها فى ناحية نخلة، ذلك الصنم الذى اجتمعت حوله قريش وكنانة ومضر، ليفكك بذلك هذا التحالف القبلى السابق بين تلك القبائل ويصهرها فى منظومة الدولة.

وتروى لنا كتبنا الإخبارية أن خالداً انتهى إلى العُزى فهدمها وقطع سمراتها الثلاث وكسر ما لحق بها من رموز مقدسة، ورجع إلى النبى. لكن لتتدخل تلك الروايات مرة أخرى تحاول التأكيد على ما كان وراء العُزى من قوة غيبية، لكنها قوة مخيفة شيطانية. فتسوق رواية تحكى أنه بعد عودة خالد إلى النبى سأله النبى ﷺ: ما رأيت؟ فيرد أنه لم ير شيئاً، فيأمره النبى بالعودة مرة أخرى إلى العزى. ولا نتفهم السبب إلا باستمرار الرواية وهى تؤكد أن النبى كان يعلم أن العزى ليست مجرد حجر وأشجار، حيث يعود خالد إلى المكان فتخرج إليه امرأة سوداء ناشرة شعرها تولول، فيعلوها خالد بالسيف وهو ينادى: يا عزى كفرانك لا سبحانك، إنى رأيت الله قد أهانك، ويقتل خالد تلك الربة أو تلك الشيطانة فينكشف له ما فى البيت المقدس من مال مخبوء، فيعود به إلى النبى، ليعقب الرسول قائلاً: تلك العزى ولا تعبد بعد أبداً[1].

ويعود النبى فيرسل خالداً فى سرية أخرى، ترتبط أحداثها بمبدأ الإسلام وقاء وأهميته والتأكيد عليه، حيث سيعلن النبى تبرؤه من خالد بن الوليد وشكواه إلى الله، لكسره تلك القاعدة الأساس فى بناء الدولة. حيث خرج خالد برجاله المقاتلين، بعضهم من المسلمين الأوائل، وبعضهم من الطلقاء والأعراب اللاحقين بالدولة طمعاً فى المغانم أو الأمن، ليهبط على مياه بنى جذيمة، وإعمالاً لمبدأ الإسلام وقاء يؤكد ابن كثير المعنى ذلك فى قوله: «بعث عليه السلام خالد بن الوليد بعد الفتح إلى بنى جذيمة.. **بعثه داعياً ولم يبعثه مقاتلاً**، ومعه قبائل من العرب»[2].

---

(١) نفسه: ص٣١٤، ٣١٥.
(٢) نفسه: ص٣١١.

ويروى الطبرى أن بنى جذيمة ما أن رأوا خالداً حتى أخذوا السلاح، فناداهم خالد:

ضعوا السلاح

فإن الناس قد أسلموا[٣].

وهو النداء الذى يحمل معنى السلام بالإسلام، وما يستدعى الشعور بالأمان ووضع السلاح. ويعلمنا ابن سيد الناس من جهته أن جذيمة قد أسلمت بالفعل سلفاً قبل أن يصلها خالد برجاله، وهو ما يتضح فى الحوار الذى ساقه بين خالد وبينهم حيث يقول لهم خالد: «ما أنتم؟ قالوا: مسلمين قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد فى ساحاتنا وأذّنا فيها، قال: فما بال السلاح عليكم؟ قالوا: بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح، قال: فضعوا السلاح، فوضعوه، فقال لهم: استأسروا، فاستأسر القوم، فأمر بعضهم فكتف بعضاً وفرقهم فى أصحابه»[٤].

وتطفر هنا إشارة لا تفوت قارىء مدقق، حيث تجمع كتب الأخبار أن بنى جذيمة عندما رأوا خالد بن الوليد، صرخ أحدهم واسمه (جحدم) صرخة الفزع ينادى قومه محذراً الاستجابة لخالد:

يابنى جذيمة **إنه خالد**

والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار

وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق

والله لا أضع سلاحى أبداً.

فأخذه رجال من قومه فقالوا: يا جحدم **إن الناس قد أسلموا، ووُضعت الحرب وأمن الناس**، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم سلاحهم»[٥].

---

(٣) الطبرى: تاريخ .. سبق ذكره، ج٣، ص٦٧.
(٤) ابن سيد الناس: عيون .. سبق ذكره، ج٢، ص٢٣٩.
(٥) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج٤، ص٣١١.

لكن يبدو أن (جحدم) هذا كان ذا وعى نافذ، لا يطمئن ولا ينسى، فهو لم ينس أبداً ذلك الأمر الذى دعاه للفزع عندما رأى خالداً، ويبدو أنه الأمر الذى لم يغرب عن بال خالد لحظة منذ خرج لبنى جذيمة، ذلك الأمر الذى يشرح لنا ابن هشام أمره، عما كان بين بعض قريش وبعض جذيمة قبل الدعوة الإسلامية إذ يقول:

«وكان الفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وعوف بن عبد مناف بن الحارث بن زهرة، وعفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس، قد خرجوا تجاراً إلى اليمن. فلما أقبلوا حملوا مال رجل من بنى جذيمة بن عامر - كان قد هلك باليمن - إلى ورثته، فادعاه رجل منهم يقال له خالد بن هشام، ولقيهم بأرض جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميت، فأبوا عليه، فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذوه، وقاتلوه، فقتل عوف بن عوف، والفاكه ابن المغيرة، فهمت قريش بغزو جذيمة، فقالت بنو جذيمة: ما كان مصاب أصحابكم عن ملأ منا، إنما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم، فنحن نعقل لكم ما كان لكم قبلنا من دم أو مال، فقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب»(٦).

هكذا أدرك جحدم أن لخالد ثأراً عند بنى جذيمة، بعمه الفاكه بن الغيرة، ولم يثق الرجل فى أن الإسلام قد غير شأن خالد، بينما رأت بقية جذيمة أنه يجب الوثوق برسول رسول الله، بعد أن أسلم الناس وأمنوا الحرب، وطرحوا ما كان من شأن الجاهلية وراءهم، فأمنوا لخالد وأطاعوه موقنين من السلامة فى النهاية، لكن ظن جحدم كان هو الظن الصادق، فقد أمر خالد رجاله أن يقتل كل منهم أسيره.

وانقسم الصحابة فريقين حول أمر خالد، حيث رفض المسلمون الأوائل تنفيذ أمر القائد، بل وأطلقوا ما كان بأيديهم من أسرى، أما بقية العربان وطلقاء قريش فقد نفذوا الأمر على الفور، واستحر القتل بليغاً فى الأسرى.

---

(٦) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص١١١.

وفى مقتلة مسلمى جذيمة حادثة أوردتها كتب السير تحمل قصة حب رائعة، رواها الرواة عن عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى إذ يقول: «وأدركنا الظعن ـ النساء ـ فأخذناهن، فإذا فيهم غلام وضيء الوجه به صفرة كالمنهوك، فربطناه بحبل وقدمناه لنقتله، فقال لنا: هل لكم فى خير؟ قلنا: ما هو؟ قال: تدركون بى الظعن فى أسفل الوادى ثم تقتلونى، قلنا: نفعل. فعارضنا الظعن فلما كان بحيث يسمعن الصوت نادى بأعلى صوته: اسلمى حبيش على فقد العيش، فأقبلت جارية بيضاء حسناء وقالت: وأنت فاسلم على كثرة الأعداء وشدة البلاء، قال: سلام عليك دهراً وإن بقيت عصراً، قالت: وأنت سلام عليك عشراً وشفعاً تترى وثلاثاً وتراً، فقال:

إن يقـتلونى يا حـبيش فلم يدع ... هواك لهم منى سوى غلة الصدر
فأنت التى أخليت لحمى من دمى ... وعظمى، وأسلبت الدموع على نحرى

فقالت له:

ونحن بكينا من فـراقك مـرة ... وأخرى، وواسيناك فى العسر واليسر
وأنت فلم تبعد فنعم فتى الهوى ... جميل العفاف والمودة فى ستر

ليجيبها الحبيب المفارق:

فلا ذنب لى قد قلت نحن جيرة ... أثيبى بود قبل إحدى الصفائق
أثيبى بود قبل أن تشحط النوى ... وينأى الأمير بالحبيب المفارق

فقدموه فضربوا عنقه[7].

فجاءت فجعلت ترشفه حتى ماتت عليه»[8].

---

(٧) ابن الأثير: الكامل . . سبق ذكره، ج٢، ص٢٥٧.

(٨) ابن سعد: الطبقات . . سبق ذكره، مج٢، ج١، ص١٠٨.

ونعلم من رواية ابن كثير أن الشاب لم يكن من بنى جذيمة المسلمين، لكنه جار لهم، لحق بهم عشقاً وهياماً فى بنتهم حبيش، ومن ثم ربما كان من المشركين، حيث يقول ابن كثير أن الشاب عندما قبض عليه رجال خالد قال لهم: «**إنى لست منهم**، إنى عشقت امرأة فلحقتها، فدعونى أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بى ما بدا لكم، فإذا امرأة أدماء طويلة، فقال لها: اسلمى حبيش قبل نفاد العيش.. فقالت: نعم فديتك، فقدموه فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه بالخبر، فقال: **أما كان فيكم رجل رحيم؟**»[٩].

وكان أول المحتجين على فعل خالد بمسلمى جذيمة ذلك الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف، وهو ابن عوف بن عوف، الذى عدت عليه جذيمة فى الجاهلية وقتلته مع عم خالد الفاكه بن المغيرة، فقام عبد الرحمن بن عوف ينتهر خالداً يقول له غاضباً: «لقد عملت بأمر الجاهلية فى الإسلام»، فأراد خالد أن يشرك الصحابى الأول فى الجريمة الشنيعة، ويلبسه جميلاً غير جميل بقوله له: «إنما ثأر لأبيك»، لكن ليرد عليه عبدالرحمن بن عوف مكذباً محتجاً فاضحاً:

كذبت

فلقد قتلت قاتل أبى

لكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة[١٠].

وأخذ المسلمون يتلاومون فى أمر قتلى مسلمى جذيمة المستسلمين لأمان الإسلام، حتى بلغ الأمر رسول الله بليغاً فانتفض رافعاً يديه حتى رأى الناس ما تحت إبطيه وهو يهتف بأعلى صوته أمام الكعبة، ليبلغ الجميع أن الإسلام ينبغى أن يكون وقاء لأهله، مردداً من المرات ثلاثاً صارخات:

---

(٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٣١٤.

(١٠) نفسه: ص٣١٢.

اللهم إنى أبرأ إليك

مما صنع خالد بن الوليد(١١) .

ثم أردف هتافه الملتاع الغاضب الحزين بديات القتلى يرسلها إلى جذيمة حتى ترضى، وحتى ترى العرب ذلك واضحاً، لكن ابن كثير يلحظ الموقف بعين فاحصة واعية فيقول: إنه رغم قتل خالد لعدد كبير من مسلمى جذيمة، وأنه «قتل طائفة كثيرة منهم وأسر بقيتهم، **وقتل أكثر الأسرى أيضاً، فمع هذا لم يعزله رسول الله ﷺ بل استمر به أميراً**. لهذا لم يعزله أبو بكر فى خلافته حين قتل مالك بن نويرة أيام الردة، وتأول عليه ما تأول حين ضرب عنقه واصطفى امرأته أم تميم، فقال له عمر بن الخطاب: اعزله فإن فى سيفه رهقاً، فقال له الصّدّيق: **لا أغمد سيفاً سلّه الله على المشركين**»(١٢) .

وبالطبع - وفى المعنى المضمر - حتى لو ذبح حسب مزاجه وثاراته الكثير من المسلمين الأبرياء(؟!) .

* * *

(١١) الطبرى: تاريخ . . سبق ذكره، ج٣، ص٦٧ .
(١٢) ابن كثير: البداية . . سبق ذكره، ج٤، ص٣١٣ .



غـــزوة هـــوازن

«يغــفـر الله لـرسـول الله، يعطى قـــريشاً ويتـركنـــا، وسـيـوفـــنا تقـــطر من دمائهم»

(الأنصار)

لم تدرك هوازن تلك القبيلة الكبرى، ولا ثقيف التى لا تقل عنها شأناً، أن الأمر يسير إلى نتائجه التاريخية، ولا أدركت كلتاهما أن وحدة العرب فى جزيرتهم قد انعقدت فى صفحات الزمن بعد فتح الفتوح، والاستيلاء على أم القرى، ولم تدرك القبيلتان أن غزوات الجاهلية فى سبيلها إلى زوال. حيث يحكى لنا ابن الأثير ذكر غزوة هوازن فى وادى أوطاس بجبال حنين، فيقول: «وكانت فى شوال، وسببها أنه لما سمعت هوازن بما فتح الله على رسوله من مكة، جمعها مالك ابن عوف النصرى، من بنى نصر بن معاوية بن بكر، **وكانوا مشفقين من أن يغزوهم رسول الله ﷺ بعد فتح مكة، وقالوا: لا مانع له من غزونا**، والرأى أن نغزوه قبل أن يغزونا، واجتمع إليه أهل ثقيف»[1]. أما الطبرى فيعلمنا أن هوازن وثقيف قد جمعوا جموعهم عندما سمعوا بمسير جيش يثرب نحو مكة، ظناً منهم أنه يريدهم هم[2]. وقد ذهب البلاذرى مذهب ابن الأثير فى قوله: «وكانت أشراف هوازن بن منصور وغيرهم من قيس قد تجمعوا **مشفقين من أن يغزوهم** رسول الله ﷺ، وقالوا: **قد فرغ لنا فلا ناهية له دوننا** والرأى أن نغزوه»[3].

---

(١) ابن الأثير: الكامل .. سبق ذكره، ج٢، ص٢٦١.
(٢) الطبرى: تاريخ .. سبق ذكره، ج٣، ص٧٠.
(٣) البلاذرى: أنساب الأشراف .. سبق ذكره، ج١، ص٣٦٤.

وعلم رسول الله ﷺ بالرعب الذى أخذ هوازن، ودفعها دفعاً لتخرج فى حلف مع ثقيف، يتقدمها رجالها، قد أخذوا معهم نساءهم وأموالهم وأطفالهم، بتقرير فدائى من مالك بن عوف ملكهم وسيدهم. حتى يجد كل رجل منهم فى نفسه الغيرة والحمية للقتال دون عرضه وماله، فكان وجود المال والنساء والعيال وراء الرجال دافعاً للاستماتة القتالية من وجهة نظر قائدهم مالك بن عوف، طالباً بذلك روحاً فدائية ونصراً لا يشك فيه.

وخرج النبى برجاله من مكة غازياً لهوازن، لكنه ترك لأهل مكة، ولفرعها الأموى تحديداً طمأنة واضحة، تبليغاً بمكانتهم ودورهم فى الدولة، فاستخلف على مكة عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس الأموى، وكان عمره إذ ذاك قريباً من عشرين سنة[4]، منبهاً بذلك إلى دور الجيل القرشى المقبل. ومطمئناً لتجار مكة وسادتها على نظامها الاقتصادى والتجارى، بل والدينى الذى أفرزه ظرفها التاريخى، وهو ما تؤكده رواية ابن الأثير حيث يقول: إن عتاب الأموى قد حج بالناس هذا العام، «**وحج الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج**»[5].

وبينما تتحرك كتائب الإيمان نحو أوطاس حنين فى اثنى عشر ألف مقاتل، منهم جيش الفتح وكان عشرة آلاف، وقد انضم إليه ألفان من الطلقاء، يقول النبى وهو على رأس ركبه العظيم، تهتز تحته أرض البوادى تُسمع العربان:

لن نُغلب اليوم من قلة!![6].

وكانت كلمة الرسول ﷺ معبرة تماماً عن واقع موضوعى واضح فصيح، فمهما كانت قوة هوازن وثقيف، فلن تقاس عداً على جند الله الذين يمثلون أكبر جيش عرفته الجزيرة من عربها، ولم يعد الأمر بحاجة فى تلك الجولة لاستدعاء ملأ السماء المقاتل ولا تعبئة للملائكة، ونادى النبى فى رجاله هاتفاً:

---

(٤) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٣١٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج٢، ص٢٧٢.

(٦) ابن هشام: السيرة فى كتاب السهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص١٢٤.

من قتل قتيلاً فله سلبه(٧) .

وجاءه رجل من عيونه المتقدمين يحمل أخبار العدو يقول : «يارسول الله ، إنى انطلقت من بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا بهوازن عن بكرة أبيها بظعنهم وبنعمهم وشائهم قد اجتمعوا إلى حنين ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال :

تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله(٨) .

لكن على طريق هوازن ، يظهر بين ذلك الجمع من جند الإيمان كثير من سوء الفهم للإسلام وأهدافه ، خاصة بين أولئك الذين احتشدوا معه على حداثة عهد بالإسلام من العربان والطلقاء . حيث يمرون بشجرة مقدسة لعرب الجاهلية اسمها ذات أنواط ، وعندما يرونها يقولون للنبى ﷺ «يارسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط» ، وكانت ذات أنواط قد بلغت رتبة الربوبية فى الجاهلية ، ومن ثم لم يدرك هؤلاء مغزى التوحيد القومى والتوحيد الألوهى الذى لا يقبل شراكة ، وهم من لا شك ينطبق عليهم قول الآيات الكريمة ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ (١٤/ الحجرات) ، لذلك كان رد رسول الله عليهم المستنكر : «الله أكبر ، هذا كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة ، لتركبن سنن من كان قبلكم»(٩) .

هذا بينما كان مالك بن عوف قد عزم من جانبه على نصر إن حدث غير تاريخ الجزيرة والعالم ، فاستفاد من دروس غزوة بدر الكبرى ، حين كان المسلمون قلة أمام كثرة ، وعلم الأسباب ودرس الخطط ، ليفعل ما سبق وفعله المسلمون أوانها . فسبق جيش المسلمين برجاله إلى مواقع متميزة اختارها بجبال حنين المرتفعة والتى تنحدر إلى قعر فسيح يسمى أوطاس ، ووزع رجاله فى مواقع مختارة بعناية ، وهيأه ما بين رام وفارس وراجل ودارع ،

(٧) ابن سعد : الطبقات . . سبق ذكره ، مج٢ ، ج١ ، ص١٠٩ .
(٨) ابن كثير : البداية . . سبق ذكره ، ج٤ ، ص٣٢٤ .
(٩) أخرجه الترمذى فى كتاب الفتن ١٨ باب لتركبن سنن الحديث ٢١٨٠ .

ووضع خلفهم نساءهم وأطفالهم وبعيرهم وشياههم وأموالهم. وهو يعلم من جانب آخر حال ذلك الجيش الهائل وما فيه من ثغرات، أهمها أولئك الذين دخلوا الإسلام كرها، وأطلق عليهم المسلمون الأوائل اسما يليق بهم، أسموهم الطلقاء.

ونسمع من الصحابى جابر تصوير المشهد الأول للغزوة وهو يقول:

> فلما استقبلنا وادى حنين، انحدرنا فى واد أجوف حطوط، إنما ننحدر فيه انحداراً، فى عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى فكمنوا لنا فى شعابه ومضايقه، قد تهيأوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد، **فانهزم الناس أجمعون** لا يلوى أحد على أحد[10].

الآن ينهزم جيش دولة النبى وهو الكثير أمام فئة قليلة؟! الآن وبعد ذلك المشوار الطويل الكبير العظيم، وبعد أن قاربت الدولة الكبرى على القيام فى جبين التاريخ، وبعد كل تلك المعاناة والتجارب والهزائم والانتصارات. وبعد كل تلك الدماء وذلك العمر الذى انقضى، والدولة الكبرى من التحقيق قاب قوسين أو أدنى، وبعد كل ذلك التواصل بين الأرض والسماء، وكل الآيات التى تتحدث عن الاستشهاد وعن الجنة وعن النار، تفر الكثرة أمام القلة. ويتبعثر الاثنى عشر ألف مقاتل منهزمين يحاولون الصعود من أوطاس إلى حنين، والصعود ليس كالهبوط، فيه الذعر وفيه الكبوات، فيه سهام تئز ورماح تطارد، لا أحد يلتفت إلى أحد. ولا حتى إلى رسول الله ﷺ وهو يرى المشروع برمته يتزلزل زلزالاً عنيفاً، ليقف مكانه ثابتاً، فالآن بعد كل تلك الحياة الحافلة بزخم الأحداث الكبرى، إما حياة تصل إلى مبتغاها أو لا حياة. ويصمد القائد العظيم وحده ويهرب المؤمنون فراراً من الموت، ولا يبقى من القضية كلها والشعارات جميعاً عن جنة الشهداء

(١٠) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج٢، ص٢٦٢، ٢٦٣.

ونار الكافرين، سوى **رابطة الدم وحدها**، فيجتمع حول بغلة الرسول أهل بيته فقط من بنى عبد المطلب وأبى طالب، **ثمانية فقط من الاثنى عشر ألفاً** وقفوا ترساً واحداً فى حلقة حول ابن أخيهم، بينما النبى يهتف فى رجاله المؤمنين[11]:

أين أيها الناس؟!

هلم إلىّ

أنا رسول الله

أنا رسول الله

أنا محمد بن عبدالله

ويعقب ابن كثير على النداء النبوى:

ولا شىء!!

وركبت الإبل بعضها بعضاً.

أو

وانكفأ الناس منهزمين

لا يقبل أحد على أحد[12].

ووسط الغبار الثائر تحت خطو الهاربين وسنابك خيولهم، يلمح أحد الفارين عمر بن الخطاب فيسأله: ما شأن الناس؟ ليجيبه عمر معبراً عن مدى اللوعة واليأس: أمر الله!![13].

---

(١١) السهيلي: الروض الأنف.. سبق ذكره، ج٤، ص١٤١.
(١٢) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ص٣٢٥، ٣٢٦.
(١٣) نفسه: ص٣٢٩.

وانتحى أبو سفيان مع رفقة له من رجال مكة الطلقاء، مكانا آمنا يطالعون مشهد الارتداد والنكوص لجند المسلمين الفزعين، ليفصح لسانه عن مكنون صدره، فيهتف معبراً عن فرحه العظيم:

لا تنتهي هزيمتهم دون البحر.

أما كلدة بن الحنبل، الذي خرج من مكة مع النبي وهو على شركه، وكان يظن أن ما حققه محمد إنما بفضل السحر، فقد علا صوته وهو يعلن سعادته جهيرة بما يرى ويصرخ:

ألا بطُل السحر اليوم!!

لكن ليرد عليه أخوه لأمه صفوان بن أمية، أحد كبار أشراف مكة، معبراً عن قبليته العميقة وعصبيته المتجذرة لأهله، يقول: «اسكت فض الله فاك، فوالله لئن يربني رجل من قريش، أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن»[١٤].

ويقول ابن كثير: «اعتزل أبو سفيان وصفوان وحكيم بن حزام وراءهم ينظرون لمن تكون الدائرة»[١٥]، فيمر عليهم رجل من قريش ينادي صفوان بن أمية: «أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فوالله لا يجتبرونها أبداً». ليرد صفوان مكرراً معبراً عن أسفه مما يسمع من بني قريش: «تبشرني بظهور الأعراب؟ فوالله لرب من قريش أحب إلي من رب من الأعراب». وهي ذات المشاعر العشائرية التي عبر عنها لسان مصعب بن شيبة، عندما سئل بعدها عن خروجه مع رسول الله إلى هوازن، حيث يقول: «**والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به، ولكني أبيت أن تظهر هوازن على قريش**»[١٦].

أما النبي الذي وقف يشاهد هذا الانهيار، فقد نظر إلى السماء وهو يهتف بربها:

اللهم إنك إن تشاء

---

(١٤) نفسه: ص٣٢٥.
(١٥) نفسه: ص٣٢٨.
(١٦) نفسه: ص٣٢٩، ٣٣١.

لا تعبد فى الأرض بعد اليوم[١٧] .

وكان لابد من عمل سريع ، وتصرف حاسم ، فينظر الرسول إلى حامل راية هوازن ، يرفع الراية ويمسك برمح طويل لا يحمله إلا رجل شديد المراس ، يقتحم الناس بفرسه ووراءه رجال هوازن وثقيف . وهنا يرفع النبى إصبعه مشيراً إلى حامل الراية ، ويتبع على بن أبى طالب الإشارة ليهوى بسيفه على عقب الفرس ، فيسقط فيقتله فتسقط الراية ، . . . . وترتبك هوازن .

ثم يجول المصطفى بعينيه يبحث بين الهاربين عن خئولته من أهل الدم والحرب والحلقة اليثاربة ، ثم يهتف بعمه العباس فجأة ، بينما هو واقف يمسك بزمام بغلة الرسول دلدل .

ياعباس ؛

نادِ : يا معشر الأنصار

يا أصحاب الشجرة

كان النداء نداء رحم وخئولة ، وتذكيراً بعهد البيعة حتى الموت تحت الشجرة ، وتنبيها إلى عقد العربى وجواره المعقود بين الأنصار والنبى فى العقبة ، واستشرافا لشهامة النجدة والمروءة ، واستنفاراً للنخوة العربية ، ويستمر العباس ينادى والنبى يلقنه :

يا أصحاب البيعة يوم الحديبية

الله ، الله

الكرة على نبيكم

يا أنصار الله

يا أنصار رسول الله

---

(١٧) نفسه : ص٣٢٦ .

يا بنى الخزرج

يا أصحاب سورة البقرة

يا أصحاب السمرة[١٨].

نداء لمس الحواشى وهز ما بين الجوانح وجّت به الخئولة فى تعبير العباس بن عبد المطلب وهو يقول:

فوالله لكأنما عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها، فقالوا:

ياالبيكاه

ياالبيكاه[١٩].

ويمضى العباس، الشاهد على عقد العقبة مع الأنصار، الذين تكفلوا بحماية النبى بعهد وعقد عربى، ليصف لنا المشهد الثانى للمعركة الكبرى، لينظر إلى الأنصار ويقول شاهداً على التزامهم عهدهم ووفائهم رحمهم:

فيذهب الرجل منهم يريد أن يثنى بعيره فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ثم يقتحم عن بعيره، فيخلى سبيله فى الناس، ثم يؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة رجل استقبلوا الناس فاقتتلوا، فكانت الدعوى أول ما كانت: يا للأنصار ثم جُعلت أخيراً **ياللخزرج**[٢٠].

---

(١٨) نفسه: ص٣٢٨، ٣٢٩.

(١٩) نفسه: ص٣٢٩.

(٢٠) الطبرى: تاريخ .. سبق ذكره، ج٣، ص٧٤.

وصمد المسلمون، وبدأ الفارون فى العودة والتكاثر، وعاد السيف الإسلامى يشتد مرة أخرى ليعمل عمله فى هوازن وثقيف لينتحى النبى يمينا وحوله آل بيته الهاشمى، ويقول من معتلاه: الآن حمى الوطيس.

وبلاغة المصطفى هنا ظاهرة فى تعقيبه على دورة الدائرة على هوازن فى وادى أوطاس، وقوله: الآن حمى الوطيس، والوطيس فى شرح السهيلى هى نقرة فى **حجر توقد حوله النار فيطبخ به اللحم**، ويعقب بأنها من الكلم التى لم يسبق النبى إليها أحد[٢١].

ومع صمود الأنصار عاد الجيش المنهزم ليحط على عدوه ليستحر القتل حتى قال ابن سعد: «فأمر رسول الله أن **يقتل من قدر عليه**، فحنق المسلمون عليهم يقتلونهم **حتى قتلوا الذرية**، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك، فنهى عن قتل الذرية».[٢٢] وما هى إلا سويعات حتى جمع المسلمون من الأسرى ما يربو على ستة آلاف نسمة أعمهم نساء وأطفال تركهم رجالهم وهربوا أو قتلوا[٢٣]، ووقف المسلمون يحصون غنائمهم التى وصلت أربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة[٢٤]. أمر رسول الله ﷺ أن يتم حبسها فى الجعرانة حتى ينظر فى أمر توزيعها على أفراد الجيش المنتصر.

هذا بينما كانت أم سليم تعبر عن مشاعر السخط على الخونة فى الجيش والطلقاء من قريش، الذين فروا والذين شمتوا والذين فرحوا والذين وقفوا ينتظرون تحديد موقفهم بتحديد العلامات المبشرة لمن ستكون الكرة، فتقول للنبى: «يارسول الله اقتل من بعدها **الطلقاء الذين انهزموا بك**، فقال: إن الله قد كفى وأحسن يا أم سليم»[٢٥]. وفاضت

---

(٢١) السهيلي: الروض الأنف.. سبق ذكره، ص١٣٨.
(٢٢) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره مج٢، ج١، ص١٠٩.
(٢٣) الطبري: تاريخ.. سبق ذكره، ج٣، ص٨٢.
(٢٤) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج٢، ج١، ص١١٠.
(٢٥) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٣٢٦.

مشاعر حسان بن ثابت الأنصارى ضد الطلقاء، فقال فى كلدة بن الحنبل الذى كان يهتف: «ألا بطل السحر اليوم»:

رأيت ســواداً من بعــيـد فــراعنى أبـو حـنبـل ينزو عـلـى أم حـنبـل

كـــأن الذى ينزو به فـــوق بطنهـــا ذراع قلـوص من نتـاج ابن عـزهل[٢٦]

* * *

(٢٦) ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض. سبق ذكره، ج٤، ص١٢٤.

حصار الطائف

«والله لنحن أذلّ من العبيد»

(عيينة بن حصن)

الطائف، مدينة الثقفيين الكبرى التى بلغت شوطاً عظيماً فى التمدين، كانت المدينة التى لا تقل شأناً عن مكة، ونافست يثرب طويلاً على صدارة الموقع الثانى بعد مكة، وربما سعت مثلما سعت يثرب لتحوز المركز الأول. مستمدة ذلك من قوة أدت إليها عوامل عدة، فهى من أعدل مناطق الجزيرة مناخاً وأكثرها خصوبة وزرعاً، إضافة إلى موقعها الذى يقف على طريق التجارة بين مكة واليمن، طريق رحلة الشتاء. وهو الأمر الذى جعلها فى حسابات الرسول ﷺ عندما كان بمكة يبحث عن مدينة تحقق مشروعه العظيم، تقع فى الموقع الأول فزارها داعياً لكنهم ردوه رداً سفيها، فيمم وجهه بعد ذلك نحو الأخوال فى يثرب، بعد أن فقد الأمل فى فهم سراة ثقيف وأشرافها لأبعاد ذلك المشروع الهائل.

وعندما نتذكر عدد رجالها المقاتلين، يجب أن نوقن من وجود صراع على النفوذ بينها وبين قريش، التى كانت تتطلع إلى مد نفوذها إلى الطائف لحل مشكلة وضعها فى المعادلة التجارية، لوجودها على الخط التجارى لرحلة الشتاء. وقد تمكن بعض أثرياء قريش بالفعل من شراء بعض الأماكن الخصبة بين الثقفيين، وتتابعوا يستحوذون على أراضيها الخصبة، وهو ما نجده واضحاً عند ابن حبيب[1].

(١) ابن حبيب: المنمق فى أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، الهند، ١٩٦٤، ص٢٨٠، ٢٨١.

وطبيعى أن تحاول ثقيف الاستقلال الاقتصادى، وهو ما أدى إلى تنافس جعل أهل الطائف يستجلبون قوافل التجارة إليهم، بجعل مدينتهم ذات المناخ المتميز، مركزاً للتجارة والتجار. ووصل الأمر إلى حد وقوع الحرب بين الفريقين فيما يعرف بحرب الفجار، وغنى عن الذكر أنها سميت كذلك لأنها نشبت إبان الأشهر الحرم، والتى **أرادت ثقيف ضرب حرمتها لضرب التجارة القرشية**[٢].

ويبدو أن قريشاً قد اضطرت إلى لون من المصالحة باقتسام المنافع المشتركة، بعدما جد ظرف جديد لصالح الطائف، تمثل فى استيلاء الفرس على اليمن، وهو ما أدى بإرسال كسرى وملوك الحيرة قوافلهم التجارية إلى اليمن عبر الطائف دون المرور على مكة. ويمكن للعين الفاحصة أن تتلمس أسباب حرب الفجار، حيث شجعت قريش عن عمد حليفا قبلياً لها ليهاجم قافلة للنعمان ملك الحيرة، ويغلق طريق الحيرة إلى اليمن عبر الطائف.

ومن جانبها وجدت الطائف نفسها مضطرة إلى السلام مع قريش، بالنظر إلى ظرفها الداخلى، حيث نشب الصراع بين عشائرها، وهو المعلوم بشأن بنى عوف مقابل بنى مالك. بينما اتجهت قريش إلى مد نفوذها الاقتصادى داخل الطائف بشراء أراضيها، وإقراض رؤسائها ما يريدون من أموال، لينتهى القريشيون إلى السيطرة على السوق الداخلية للطائف، بل وحولوا مدينة الطائف إلى سوق الحجاز المركزى. وبالمقابل كانت ثقيف بحاجة لتصريف منتجاتها الزراعية فى مكة، فاعترفت بالأمر الواقع، وبصدارة مكة وبالتحالف مع قريش لعدم إهدار المصالح، فكانا يقتسمان النفوذ تقريباً عند ظهور الإسلام. حيث سيطرت قريش على طريق الإيلاف الشامى، وتركت للطائف طريق الشتاء، وانتقل الصراع إلى تحالف واختلاط ومصاهرات ومشاركة فى رؤوس الأموال.

---

(٢) نفسه: ص٢٠٩.

وعندما نتذكر أن ثقيف هى التى كانت دليل جيش أبرهة الحبشى نحو مكة عام الفيل[٣]، يمكن أن نفهم فوراً موقف ثقيف المتصلب عندما ذهبها محمد داعياً، ثم موقفها المتصلب من النبى ومن قريش بعد سقوط مكة واستسلام سادتها للنبى. حيث اكتشفت أن مصيرها الخضوع التام لسيادة قريش إن غزاها النبى، ومن ثم قامت تحالف هوازن لتكوين جبهة تحاول إنقاذ مصالحها من ذلك التهديد الهائل، وخاضت حربها اليائسة ضد جيش المسلمين. بينما كان النبى على الطرف الآخر يسعى إلى هذه المعركة سعياً، حيث كان قراره بحفظ مكة قريته وأهله من السبى، ومن ثم لم يغنم جنده شيئاً يعوضهم عن فتحها، حيث لم يغنموا شيئاً على الإطلاق[٤]، ومن ثم كان توجيه المسلمين نحو هوازن وثقيف اللتين كانتا قد تهيأتا بدورهما للمعركة الانتحارية[٥].

وبالهزيمة، تراجعت ثقيف إلى الطائف، ومعها من انضم إليها من هوازن، حيث حصونهم القوية وميرتهم وزادهم الكثير[٦]، وهنا أمر النبى بالمسير فوراً إلى الطائف ليضرب الحصار على حصونها.

ولما كانت ثقيف قد ترفلت فى النعيم، ولا تقل ثرواتها عن ثروات المكيين، واقتنى سادتها الثمين من مقتنيات الذهب والفضة، وحلوا نساءهم بالجوهر على أنواعه فقد انسلت خوله بنت حكيم بن أمية زوجة عثمان لتقترب من النبى وهم يوجهون نحو الطائف تقول له:

> يارسول الله، أعطنى إن فتح الله عليكم الطائف، حُلى بادية بنت غيلان، أو حلى الفارعة بنت عقيل[٧].

---

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ص٢، ١٩٥٥، ج١، ص٤٧.

(٤) الماوردى: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص١٦٤.

(٥) اليعقوبى: التاريخ، المكتبة الحيدرية، النجف، ط٤، ١٩٧٤، ج٢، ص٥٣.

(٦) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج٢، ج١، ص٢٦٦.

(٧) ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج٤، ص١٥٠.

هذا بينما كان المخنث (هيت) مولى فاختة بنت عمرو خالة النبى، يقول لعبد الله بن أمية:

> إن فتح الله عليكم الطائف، فسل رسول الله أن ينفلك بادية بنت غيلان فإنها هيفاء شموع نجلاء، إن تكلمت تغنت، وإن قامت تثنت، وإن مشت ارتجت، وإن قعدت تبنت، تقبل بأربع وتدبر بثمان، بثغر كالأقحوان، **بين رجليها كالقعب المكفأ**[٨].

وكان (هيت) يدخل على نساء النبى ويذهب إلى بيوته، والرسول لا يظن أن له شيئاً مما للرجال، وأنه لا يفطن إلى شيء من أمر النساء مما يفطن إليه الرجال، ولا يرى أن له فى ذلك إربا. فلما سمعه يقول ما قال لعبد الله بن أمية قال: «لا أرى هذا الخبيث يفطن لما أسمع، ثم قال لنسائه: لا يدخلن عليكن، فحجب عن بيت الرسول»[٩] لكنه فى رواية السهيلى قال لهيت: «قاتلك الله، **لقد أمعنت النظر**، ثم قال: لا يدخلن هؤلاء عليكن، ثم نفاه إلى روضة خاخ، فقيل إنه يموت جوعاً، فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة يسأل الناس»[١٠].

وصيغة الجمع فى قول رسول الله: «لايدخلن هؤلاء عليكن»، تشير إلى آخرين مخنثين عاشوا فى مدينة الرسول مثلما كان حال (هيت) وهو ما يفيدنا به السهيلى فى شرحه لأمر مخنثى المدينة حيث يقول: إن المخنثين المعلومين كانوا أربعة يحملون أسماء تليق بهم، فهم (هيت) و (هرم) و(ماتع) و (أنّه)، ووصفهم بقوله: «كان تأنيثهم لينافى القول وخضابا فى الأيدى والأرجل كخضاب النساء، ولعبا كلعبهن، وربما لعب بعضهم بالكرج، وفى مراسيل أبى داود أن عمرو رضى الله عنه رأى لاعباً يلعب بالكرج، فقال: لولا أنى رأيت هذا يلعب به على عهد النبى ﷺ لنفيته من المدينة»[١١].

(٨) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٥، ص٢٦٨.
(٩) نفسه: ص٢٦١.
(١٠) السهيلي: الروض.. سبق ذكره، ج٤، ص١٦٣.
(١١) نفسه: ص١٦٤.

وبالوصول إلى الطائف أمر النبى بقصر مالك بن عوف المتطرف فأحرق[١٢]، ويقول البيهقى أنه نصب عليهم المنجنيق أربعين يوماً، فكان أول من رمى بالمنجنيق والدبابات والضبور فى الإسلام. لكن ثقيف المستمية تمكنت من صد دبابات المسلمين، بإلقاء الحديد المحمى بالنار عليها وعلى من فيها من فوق الأسوار، وهنا أمر النبى بقطع كرومهم الهائلة الموجودة خارج حصونهم لتدميرهم معنوياً[١٣]. فنادوه من على الأسوار «**لاتفسدوا الأموال فإنها لنا أو لكم**»[١٤]، فرد عليهم بنداء آخر يسمع عبيدهم أن من خرج إليه من عبيد ثقيف فهو حر، فخرج إليه هربا بعضهم على رأسهم من أصبح بعد ذلك الصحابى الجليل أبو بكرة[١٥].

ولما طال الحصار جاء الأحمق الذى لم يعد مطاعا (عيينة بن حصن) زعيم غطفان الفزارية إلى النبى، والمفترض أنه قد أصبح مسلما، فطلب منه الإذن ليذهب إلى ثقيف فى حصونها، يدعوهم إلى الاستسلام والإسلام، لكنه عندما وصلهم أفصح عن لسان حال الزعماء الذين خضعوا راغمين، فقال لهم:

> بأبى أنتم، تمسكوا بمكانكم، **والله لنحن أذل من العبيد**، وأقسم بالله لئن حدث به حدث لتملكن العرب عزة ومنعة، فتمسكوا بحصونكم، وإياكم أن تعطوا بأيديكم، ولا يتكاثرن عليكم قطع الشجر[١٦].

وطال الحصار، وعلم النبى أن الأمر سيطول أكثر، وأن ثقيفاً تمتنع فى حصونها ولديها من الزاد وفرة، فاستشار نوفل بن معاوية الدؤلى، فقال له: يا رسول الله ثعلب فى جحر،

---

(١٢) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٥، ص١٥٧.
(١٣) ابن سيد الناس: عيون.. سبق ذكره، ج٢، ص٢٥٩.
(١٤) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٣٤٦، ٣٤٧.
(١٥) نفسه: ص٣٤٧.
(١٦) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٥، ص١٦٣.

أن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك»(١٧)، فاستدعى النبى أبا بكر وقال له: «يا أبا بكر إنى رأيت أنى أهديت لى قعبة مملوءة زبداً، فنقرها ديك، فهراق ما فيها، فقال أبو بكر: ما أظن أنك تدرك منهم يومك هذا ما تريد، فقال رسول الله: وأنا أرى ذلك»(١٨). ومن ثم أذن فى الناس برفع الحصار والعودة إلى الجعرانة، حيث أسرى وسبايا وغنائم حنين.

وعندما سمع الزعيم الغطفانى عيينة بن حصن الفزارى نداء رفع الحصار عن ثقيف، هتف لفوره معبراً عن عظيم فرحه: «أجل والله مجدة كراماً، فقال له رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عيينة، أتمدح المشركين بالامتناع عن رسول الله ﷺ وقد جئت تنصره؟ فقال: **والله إنى ما جئت لأقاتل ثقيفاً معكم، ولكنى أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أطؤها**»(١٩).

أما ابن كثير فقد التمس تفسيراً تبريرياً لرفع الحصار عن الطائف وذلك فى قوله الباحث عن الحكمة وراء الحدث:

> قلت: وكانت الحكمة الإلهية تقتضى أن يؤخر الفتح عامئذ، **لئلا يستأصلوا قتلا**، لأنه قد تقدم أنه عليه السلام لما كان خرج إلى الطائف فدعاهم إلى الله تعالى، وإلى أن يؤوه حتى يبلغ رسالة ربه عز وجل، وذلك بعد موت عمه أبى طالب. فردوا عليه قوله، وكذبوه، فرجع مهموماً، فلم يستفق إلا عند قرن الثعالب، فإذا هو بغمامة فيها جبريل، فناداه ملك الجبال، فقال: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام، وقد سمع قول قومك لك وماردوا عليك، فإن شئت أن

(١٧) ابن الأثير: الكامل.. سبق ذكره، ج٢، ص٢٦٧.
(١٨) ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج٤، ص١٥٠.
(١٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٣٥٠.

أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال رسول الله ﷺ بل أستأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئا. فناسب قول: بل أستأنى بهم، ألا يفتح حصنهم لئلا يقتلوا عن آخرهم، وأن يؤخر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين فى رمضان من العام المقبل(٢٠).

وعاد النبى برجاله إلى الجعرانة، لتأتيه هناك امرأة من سبى هوازن، تزعم أنها أخته من الرضاعة، وأن اسمها الشيماء، فيسألها عن مؤيدات صدقها، فتكشف له بجسدها عن عضة كان قد عضها لها. فيتعرف الرسول ﷺ على العلامة، فيبسط لها رداءه ويجلسها عليه، ويخيرها بين البقاء عنده محببة مكرمة، أو أن يعيدها إلى قومها ممتعة، فتقول له: «بل تمتعنى وتردنى إلى قومى. . فأسلمت، فأعطاها رسول الله ﷺ **ثلاثة أعبد وجارية**، ونعما وشاء، وسماها حذافة، وقال: الشيماء لقب»(٢١).

وتعلم هوازن بعودة النبى، وتدرك أن الإسلام هو الوقاء الأمثل فتختار له تسعة ممن بقى من أشرافهم، ليعلنوا أمامه إسلام هوازن ويبايعوه على السمع والطاعة، ثم يفاتحوه فى مصابهم قائلين: «يا رسول الله، إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والخالات وهن مخازى الأقوام، ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله، وكان رحيما جواداً كريماً، فقال سأطلب لكم ذلك». أما كيف؟ فقد سألهم رسول الله ﷺ: «أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا، فقال: إذا أنا صليت بالناس الظهر، قوموا وقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم».

---

(٢٠) نفسه: ص٣٥١.

(٢١) ابن سيد الناس: عيون . . سبق ذكره، ج٢، ص٢٥٢.

وفعل الهوازنيون بتوجيهات الرسول ﷺ، ووافق جميع المسلمين اللهم إلا عيينة بن حصن مع غطفان وفزارة، والأقرع بن حابس التميمى ومعه تميم، وعباس بن مرداس زعيم سليم، إلا أنهم وافقوا جميعا فى نهاية الأمر[٢٢]، وعادت هوازن برجالها ونسائها وأطفالها مؤمنة مسلمة بعد كفران، لكن بعد أن ركبت رأسها فخسرت أموالها وشرف الكثير من نسائها.

ورغم نصر هوازن فإن الرسول القائد ﷺ ما كان ليغفل عن نقطة ضعف قد تكون قاتلة فى صفوف رجاله، حيث بينهم من دخل تحت سيادة الدولة وسيدها، من سادة ورؤوس وأشراف كبار، كان أحدهم لا يقبل برأس يعلو رأسه، فدخلوا على مضض مرغمين، يتحينون فرص النكوص، وعبروا فى أكثر من موقف عن مكنون صدورهم. أما الأخطر فهو ما يمكن أن يسببوه للدولة من مشاكل، ربما أدت لنكسات وهزائم، وهو الأمر الذى يمكن استنتاجه ببعض الظن. فمن المحتمل أن يكون ما حدث فى المشهد الأول لوقعة حنين ترتيباً مقصوداً من الطلقاء، من قريش ومن القبائل الكبرى كفزارة وسليم وتميم، **فيهرب فرسانهم أمام هوازن، لإيقاع الارتباك بين جنود المسلمين وصفوفه، الذى يمكن لأفراده أن يهربوا بدورهم بغريزة القطيع**. وهو أمر محتمل تماماً إذا أخذنا بالاعتبار حجم الجيش الإسلامى وعدد أفراد هوازن المقاتلين **وهو ما يزداد تأكيداً إذا تذكرنا أن الكرة عادت على هوازن فقط بمئة أنصارى من بين الاثنى عشر ألفا**، أخوال الرسول وناصروه فى كل موقع بخئولة حقة وإيمان صادق، ولولا صمود الأنصار فى الوقعة لكانت النتائج مختلفة تماماً، ولربما تغير وجه التاريخ برمته. كان وعى القائد النفاذ يستدعى حلا سريعا لرتق تلك الثغرات فى الولاء للدولة، فقام يوزع الأعطيات الهائلة من مغانم الهوازنيين الذين أسلموا على كبار الرؤوس والهامات الصلبة الثرية أصلا، ليفتح عيونهم على ما ينتظرهم

---

(٢٢) البيهقي: دلائل .. سبق ذكره. ج٥، ص١٩٢، انظر أيضاً ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض .. سبق ذكره، ج٤، ص١٥٢.

وإشعارهم أن الإسلام لا ينتقص منهم ومن مكانتهم، بل يزيدهم ثراء على ثراء، ويفتح أمامهم أبواب الغنى الهائل على مصراعيه، إزاء الطموحات المتوثبة فى الوعد النبوى بكنوز كسرى وقيصر . فأعطى أبا سفيان صخر بن حرب أربعين أوقية من الفضة، ومائة من الإبل، فلم يقنع السيد القرشى وطلب لابنه يزيد، فأعطاه مثلما أعطى أباه، فطلب لابنه معاوية فأعطاه مثلهما . كما أعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل فسأله مثلها فأعطاه، وأعطى الحارث بن كلدة مائة من الإبل كذلك لأسيد بن جارية والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وقيس بن عدى وسهيل ابن عمرو وحويطب بن عبد العزى والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ومالك بن عوف، وكلهم سادة قومهم وأشرافهم وأثرياؤهم، لكل منهم مائة من الإبل . وأعطى لسيد من السادة هو عباس بن مرداس زعيم سليم أربعين من الإبل، فسخط سخطاً شديداً وقام يعبر عن واقع ما يحدث من سيادة وتسييد بقوله :

فـأصـبـح نهـبـى ونهب العـبـ ــيـد بين عـيـينة والأقـرع
ومـا كنت دون امـرىء منهـمـا ومـن تـضـع اليـــوم لا يـرفـع

فقال النبى : اذهبوا فاقطعوا عنى لسانه، فظلوا يعطونه حتى رضى، ثم وزع الإبل خمسين خمسين على من هم أدنى فى السيادة درجة، (٢٣) كل ذلك والأنصار تقف مشدوهة تتطلع .

ولا شك أنها تذكرت وتذاكرت مواقفها من البدء حتى المنتهى، ودماء بعضهم لم تجف بعد على ثرى أوطاس بحنين، ثم تتذكر خروجها مع النبى فى غزواته وطلوعها على العرب فى سرايا، وقتل من يأمر الرسول بقتله من بينهم أو من بين أحلافهم. ثم لا شك يتذكرون يوم أحد، عندما فر الناس من حوله بخاصة المهاجرين، وكيف صمدوا للمشركين يصدونهم عن رسول الله، وكيف ضن النبى بطلحة عندما كان يهرب إلى

---

(٢٣) ابن سعد : الطبقات . . سبق ذكره، مج٢، ج١، ص١١٠، انظر أيضاً ابن هشام فى كتاب السهيلى : الروض . . سبق ذكره، ج٤، ص١٥٥ .

معتلى الصخرة، ويقول: ألا أحد لهؤلاء فيكر أنصارى عليهم يمنعهم عن النبى فيموت شهيداً، ثم يصعد النبى ومعه طلحة، فيقول النبى ألا أحد لهؤلاء، فيقول طلحة: أنا لهم يا رسول الله، فيقول كما أنت يا طلحة، فينزل لهم رجل من الأنصار حتى يموت شهيداً.

لا شك أيضاً يذكر الأنصار بيعة العقبة وعقدها، ويوم الهجرة عندما أتاهم النبى مهيضاً لاجئاً مع رجاله، فأعطوهم دورهم وشاركوهم قوتهم بل ونساءهم.

ولا شك أيضاً أن الحاضر قائم بكل تفاصيله، وأنه لولاهم عندما عطفوا عطفتهم على هوازن، ما بقى من الأمر شيء . وهنا تعلوا الأصوات، ويكثر اللغط، ويقول قائلهم:

نحن أصحاب كل مواطن وكل شدة ثم آثر قوماً علينا وقسم فيهم قسماً لم يقسمه لنا، وما نراه فعل ذلك إلا وهو يريد الإقامة بين ظهرانيهم.

ويقول آخر:

يغفر الله لرسول الله، يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

ويزيد ثالث:

أما من قاتله فيعطيه، وأما من لا يقاتله فلا يعطيه.

هذا بينما بدأ الاحتجاج، وأخذ الناس يكثرون فى الكلام، حتى قيل للرسول ما لا يصح من كلمات شديدة الاحتجاج، فهذا أبو موسى يروى: «كنت عند النبى ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى رسول الله أعرابى فقال: ألا تنجزلى ما وعدتنى؟ فقال له: أبشر، فقال الأعرابى:

لقد أكثرت علىَّ من أبشر؟

بينما يقف رجل آخر على رأسه ويقول له:

يا محمد اعدل.

ليرد النبى : ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟

فيجاوبه ذو الخويصرة من بنى تميم غاضباً :

لقد رأيت يا محمد ما صنعت .

فيسأله : وكيف رأيت؟

فيرد بصراحة العربى :

لم أرك عدلت .

فهم به عمر يقول : يا رسول الله ألا أقوم إليه فأضرب عنقه؟ لكن ليرد عليه النبى ﷺ «دعه ، **إن له أصحابا**» .

بينما كان آخر يردد بين القوم "

إن هذه القسمة ما عدل فيها

وما أريد بها وجه الله .

فيذهب رجل بالكلام إلى النبى ، فيتغير وجهه حتى يصير شديد الحمرة ، ليهتف بالناس : فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟[(٢٤)] .

وينتحى الأنصار جانباً وهم يرون أوباش القبائل يحيطون بالنبى فى جمهرة عظيمة ، تطالبه بوقف الأعطيات ، يقولون له : يا رسول الله أقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم ، والنبى يتراجع بين الأصوات الغاضبة ، حتى يلجئوه إلى شجرة يعلق بها رداءه ويتراجع فتخلع الشجرة عنه رداءه فيصيح بهم : أيها الناس ردوا على ردائى ، أيها الناس والله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم[(٢٥)] . ثم يأمر زيد بن ثابت بإحصاء ما تبقى ثم توزيعها على الناس بالعدل ، فكانت سهامهم لكل رجل أربعة من الإبل وأربعون من

(٢٤) البيهقي : دلائل . . سبق ذكره ، ج٥ ، ص١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، انظر أيضاً الواقدى : المغازى . . سبق ذكره ، ج٣ ، ص٩٤٨ .

(٢٥) ابن هشام فى كتاب السهيلى : الروض . . سبق ذكره . ج٤ ، ص٤٥٩ .

الشياة[٢٦]. هذا بينما وقف حسان بن ثابت أمام الأنصار ينشد عتابه على رسول الله ﷺ قائلاً برقة مشاعر الخئولة:

زادت هموم فماء العين منحدر	سحا إذا حفلته عبرة درر
وإت الرسول فقل **يا خير مؤتمن**	للمؤمنين إذا ما عدد البشر
علام تدعى سليم وهى نازحة	قدام قوم **هم آووا وهم نصروا**
سماهم الله أنصاراً بنصرهم	دين الهدى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا	للنائبات وما خاموا وما ضجروا
والناس ألب علينا منك ليس لنا	إلا السيوف وأطراف القنا وزر
فما ونينا وما خمنا **وما خبروا**	**منا عثاراً وكل الناس قد عثروا**[٢٧]

وهنا ينادى المنادى بالأنصار وحدهم ليجتمعوا فى قبة رسول الله ﷺ ليقف فيهم خطيبا يقول:

يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتنى عنكم؟ وجدة وجدتموها على أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟

قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل.

قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصُدقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فىّ لعاعة من الدنيا، تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟

(٢٦) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج٢، ج١، ص١١٠.
(٢٧) ابن هشام فى كتاب السهيلى: الروض.. سبق ذكره، ج٤، ص٣٢٢.

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن تذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟

فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسمة وحظا[(٢٨)].

ثم يختتم الوحى أحداث حنين بقوله الصادق:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٥ : ٢٧ التوبة).

أحداث ومعجزات

مع الكثرة العددية لجيش المسلمين إزاء هوازن وثقيف، عَبّر لسان النبى ﷺ عن واقع الحال عندما قال: «لن نغلب اليوم من قلة»، وصادق عليه قول الوحى «إذ أعجبتكم كثرتكم». وهو الإعجاب الذى ما كان ممكنا أن يحدث لولا مقارنة المسلمين عددهم بعدد عدوهم، وهو ما يجافى تمام المجافاة روايات جاءت بكتبنا الإخبارية تؤكد أن عدد مقاتلى هوازن بلغ عشرين ألف مقاتل، وهو الأمر الذى يتناقض تناقضاً صارخاً مع عودة الكرة عليهم بمئة مقاتل أنصارى، ثم انكسارهم بعد ذلك أمام جيش المسلمين. ويبدو لنا أن قصة

(٢٨) نفسه: ص١٥٧.

العشرين ألف هوازنى كانت لونا من المبالغة، لجأت إليه كتبنا الإخبارية فى محاولة لتبرير الهزيمة التى لحقت بالمسلمين فى بداية المعركة، ناهيك عن كوننا نعلم أن أقصى تعبئة تمكنت القبائل من حشدها فى الخندق لم تتجاوز العشرة آلاف مقاتل. ولا ننسى بالطبع أن جيش دولة يثرب الإسلامية الذى ضم معظم محاربى القبائل الكبرى بما فيها قريش، لم يبلغ - رغم عمر الدعوة الطويل حتى هوازن - سوى اثنى عشر ألف مقاتل. وإن كان يمكن بحسبة بسيطة تقدير عدد رجال هوازن قياساً على عدد أسراهم من نساء وأطفال وبعض القلة من الرجال، حيث بلغ عددهم ستة آلاف، وبفرض هرب بعض النساء والأطفال دون الألفين، فإن عدد الرجال المقاتلين لا يمكن أن يتجاوز الأربعة أو الخمسة آلاف بأى حال من الأحوال.

ولم يكن ثمة حديث عن تدخل الملأ السماوى إزاء تلك الكثرة المزعومة فى جند هوازن، ولم يبدأ حديث الملائكة إلا بعد انهزام المسلمين الذين ولوا الأدبار، ثم عادوا بنصرة الأنصار أخوال رسول الله ﷺ إلى القتال حتى حققوا نصرهم العظيم، فقط عند هذه الفجوة يبدأ حديث الملأ السماوى وروايات المعجزات الملغزة.

ومع ما جاءت به الآيات الكريمة ﴿وأنزل جنودا لم تروها﴾ فتح الباب لحديث المعجزات، ورغم القرار الواضح فى الآيات عن رب العالمين الصادق صدق كماله بأنهم لم يروها، فقد قرر البعض التطوع بالشهادة أنهم رأوها، لتأكيد وجود الملأ الأعلى منذ بدء المعركة وقبل هزيمة المسلمين، ومن تلك الشهادات رواية تقول:

> أن مالك بن عوف النصرى بعث عيونا من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم، فقال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا رأينا رجالا بيضاً على خيل بلق، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى(٢٩).

(٢٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٤، ص٣٢٢.

ثم نموذج آخـر مُـجـهَّل المصـدر بدوره، لا نعـرف أصـحـابه فى رواية تقـول عند هزيمة المسلمين وثبات الرسول وآل بيته المطلبى والطالبى :

عمن شهد حنيناً كافراً قال : لما التقينا نحن ورسول الله ﷺ، لم يقوموا لنا حلب شاة، فجئنا نهش سيوفنا بين يدى رسول الله ﷺ، حتى إذا غشيناه فإذا بيننا وبينه رجال حسان الوجوه، فقالوا : شاهت الوجوه فارجعوا فهزمنا من ذلك الكلام(٣٠).

ومثيل تلك المحاولة لقتل رسول الله يأتى الحديث منسوباً إلى شيبة بن عثمان العبدرى، الذى خرج من قريش مع رسول الله إلى هوازن يريد أن يغتاله فى زحمة القتال، فيقول ابن كثير راوياً على لسان شيبة :

لما رأيت رسـول الله ﷺ يوم حنين قـد عُـرى، ذكـرت أبى وعـمى وقتل حمزة إياهما، فقلت اليوم أدرك ثأرى من رسول الله ﷺ . . ثم جئته من خلفه فلم يبق إلا أن أساوره سورة بالسيف، **إذ رفع شواظ من نار بينى وبينه كأنه برق**، فخفت أن يمحشنى(٣١).

هذا بينما يروى البلاذرى الرواية ذاتها، لكن من منطق آخر، حيث يقول :

وكـان شيبة بن عـثمـان العبـدرى شديداً على المسلمين، وكـان ممن أومن فـســار إلى هوازن طمـعـاً فى أن يصـيـب من النبى ﷺ، قـال : فـدنوت منه، **فـإذا أهله مـحـيطون به**، ورآنى فـقـال : يا شـيب إلىّ فدنوت منه فمسح على صدرى ودعا لى فـأذهب الله كل غل فـيه، وملأه إيماناً وصار أحب الناس إلىّ(٣٢).

---

(٣٠) نفسه : ص٣٣١.
(٣١) الموضع نفسه.
(٣٢) البلاذرى : أنساب . . سبق ذكره، ج١، ص٣٦٦.

أما ذلك الراوى الذى كان طوال الوقت مغرماً بالنمل، يرى فيه صورة الملائكة، فيروى لنا على لسان جبير بن مطعم قوله :

> إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين، والناس يقتتلون، إذا نظرت مثل البُجاد الأسود يهوى من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور وقد ملأ الوادى، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة[٣٣] .

أما السهيلى فيشرح لنا اختيار النمل تحديداً لتلبسه الملائكة فيقول :

> ورآهم جبير على صورة النمل المبثوث، إشعاراً بكثرة عددها، إذ النمل لا يُستطاع عدها، مع أن النملة يضرب بها المثل فى القوة، فيقال : أقوى من نملة، أنها تحمل ما هو أكبر من جرمها بأضعاف، وقد قال رجل لبعض الملوك : قوتك قوة نملة، فأنكر عليه، فقال : ليس فى الحيوان ما يحمل ما هو أكبر منه إلا النملة[٣٤] .

أما ابن سعد فيخالف الآيات وعلم الله الصادق فيؤكد رؤية الملائكة، وأن سيماءهم يوم حنين كانت عمائم حمر قد أرخوها بين أكتافهم[٣٥]؟!

ويعود هنا حديث الحصيات المباركات مرة أخرى فى رواية يوردها ابن كثير تقول :

> فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال : الآن حمى الوطيس، ثم أخذ حصيات فرمى بهن فى وجوه الكفار ثم قال : انهزموا ورب محمد . . ما بقى أحد إلا امتلأت عيناه وفمه بالتراب، وسمعنا صلصلة من السماء كمر الحديد على الطست

---

(٣٣) ابن كثير : البداية . . سبق ذكره، ج٤، ص٣٣٢ .
(٣٤) السهيلي : الروض . . سبق ذكره، ج٤، ص١٤٢ .
(٣٥) ابن سعد : الطبقات . . سبق ذكره، مج٢، ج١، ص١٠٩ .

الحديد، **فهزمهم الله عز وجل**، ثم أقبل علي المشركين فرمى بها فى وجوههم وقال: ارجعوا، شاهت الوجوه، فما أحد يلقى أخاه إلا وهو يشكو قذى فى عينيه[٣٦].

وبين حديث المعجزات يأتى حديث آخر عن أحداث وقعت بعد هزيمة هوازن، وأسر رجالها وسبى نسائها، وفيهن أخوات النبى وعماته وخالاته وأمهاته من الرضاع، وذلك قبل إعادتهن إلى ذويهن بعد صلح هوازن وإسلامها، فيروى أبو سعيد الخدرى قوله:

أصبنا نساء من سبى أوطاس، **ولهن أزواج**، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبى ﷺ، فنزلت الآية هذه: والمحصنات من النساء إلا **ما ملكت أيمانكم، فاستحللنا بها فروجهن**. . وقد استدل جماعة من السلف على إباحة الأمة المشركة بهذا الحدث فى سبايا أوطاس[٣٧].

وبالفعل استحر إتيان نساء هوازن حروراً، ثم أعيدت النساء إلى أهلهن بعد أن أسلمت هوازن بنسائها، ليروى البيهقى واقعة طريفة تحكى:

إن عثمان كان قد **أصاب جارية**، خطبت إلى ابن عم لها كان زوجها، **وكان ساقطاً لا خير فيه**، فلما ردت السبايا، ساقها فقدم بها المدينة فى زمان عمر أو عثمان، فلقيها عثمان، **فأعطاها شيئاً بما كان أصاب منها**، فلما رأى عثمان زوجها قال لها: ويحك، هذا كان أحب إليك منى؟ قالت: نعم، زوجى وابن عمى[٣٨].

حكاية تحاول تبخيس شأن رجال هوازن «ساقطاً لا خير فيه»، الذين كانوا أزواجاً لنساء أتاهن المسلمون فى غزوة حنين، ونكحوهن بقوانين السبى العربية التليدة.

---

(٣٦) ابن كثير: البداية . . سبق ذكره، ج٤، ص٣٣٠، ٣٣١.
(٣٧) نفسه: ص٣٣٨.
(٣٨) البيهقي: دلائل . . سبق ذكره، ج٥، ص١٩٨.

الباب الرابع

قيام دولة العرب الموحدة

حروب دولة الرسول

الجزء الثانى



البـــــراءة

«إنما محـــمد أذن
من حدثه شيئاً صدقه»

(نبتل بن الحارث)

الآن وقد تم إخضاع خيبر تماماً لسلطان الدولة وتحجيمها إلى الأبد، وبعد فتح أم القرى وخضوع سادة العرب أهل الله القرشيين لدولة يثرب، وبعدما أصبحت هوازن مثلاً، فسلبت أموالها، ونُكحت نساءها، وأسلمت جميعاً راغمة لسلطان الدولة، وبعد أن كمنت ثقيف كثعلب فى حجر، وبعد ما خرج عليها سيدها مالك بعد ما تألفه الرسول بالعطايا، فأحكم عليها الحصار، يقطع عليها الطريق ويستولى على قوافلها. وبعدما تضخم حجم الجيش الإسلامى وضم أشاوس القبائل الحجازية جميعاً، عادت كنوز قيصر تنادى العرب. ففى صبيحة يوم من أيام رجب من سنة تسع، أعلن منادى النبى فى الناس التجهز لغزو الروم.

ويحكى راوى السيرة ابن هشام فيقول:

> ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ما بين ذى الحجة إلى رجب، ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم. . وذلك فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه. وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج فى غزوة إلا

كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس، لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم[1].

ورغم كل تلك الانتصارات الساحقة، ورغم تفكيك الروابط القديمة بين القبائل المتحالفة وإدخالها جميعاً فى حلف الدولة، وما أدى إليه ذلك من إضعاف شديد لصوت المعارضة التى أطلق عليها اصطلاح (النفاق)، بعدما تقلمت أظافرهم تماماً. تعود الأخبار تخبرنا بأن النفاق قد عاد إلى الظهور عندما دعا النبى إلى غزو الروم، فقام المنافقون يثبطون همم الناس، ويجتمعون فى بيت سويلم عند جاسوم يقولون بعضهم لبعض: «لا تنفروا فى الحر».

ويقول ابن هشام إن هذا التباطؤ والتراجع عن الخروج إلى الروم كان «شكاً فى الحق وإرجافاً برسول الله ﷺ»، ولكن لأن الظروف قد تغيرت، ولم يعد بإمكان أحد أن يتطاول مرة أخرى على الرسول، فقد أخذوا بالاجتماع سراً لبحث شئونهم. فكان أن أرسل النبى ﷺ إليهم طلحة بن عبد الله فى نفر من أصحابه، فحرق عليهم البيت وهم فيه[2]، ثم جاء الوحى يقول: ﴿وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون، فيضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون﴾(٨١، ٨٢ التوبة)، أما النبى فقد كان يحدث أصحابه بينما البيت يحرق على المجتمعين فيه: «فى أصحابى اثنا عشر منافقاً، منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط»[3].

وأحياناً ما كان المسلمون يأتون النبى يستأذنونه فى عدم الخروج إلى وقعة، لظروف خاصة ببعضهم فيأذن لهم، فلما جاءه بعضهم هذه المرة، تدخل الله بنفسه ولم يقبل

(١) ابن هشام: فى الروض الأنف للسهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص١٧٣.
(٢) نفسه: ص١٧٤.
(٣) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٥، ص٢٦١.

عذرهم بل وجه لهم اتهامات مباشرة بالكذب، ثم نصح رسوله بألا يعذرهم ولا يقبلهم فى جيشه حتى لا يؤثروا فى جنده الذين يميلون إليهم ويستمعون لرأيهم، فقال تعالى عز من قائل:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ . لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٤٢ : ٤٧/ التوبة).

وهكذا، وبينما ينفق أصحاب اليقين أموالهم لتأمين ميرة المجاهدين لذلك الطريق الطويل، مثل عثمان بن عفان الذى تبرع بألف دينار.[٤] كان هناك آخرون يشكون فى جدوى تلك الغزوة، ويشكون فى نصر العرب على جيوش قيصر، فشكوا فى الحق بتعبير ابن هشام، ويشرح ابن إسحاق الآيات السوالف فيقول:

وكان الذين استأذنوه من ذوى الشرف، فيما بلغنى منهم: عبد الله بن أبى ابن سلول، والجد بن قيس، وكانوا أشرافاً فى قومهم، فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده، وكان فى جنده أهل محبة لهم، وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم[٥].

(٤) ابن هشام: فى الروض الأنف للسهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص١٧٤.
(٥) نفسه: ص١٨٩، ١٩٠.

أما الوحى فقد استمر شارحاً لموقف هؤلاء فاضحاً لهم، حيث أبان بصدق الله تعالى أنهم ما تراجعوا إلا نقمة لأنهم لم يحصلوا على أموال وعطايا كالتى أعطاها النبى للمؤلفة قلوبهم، حيث يقول:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (٥٨/ التوبة).

وقد وضح موقف هؤلاء المنافقين، فيما ورد عنهم من أخبار تشير إلى جبنهم عن ملاقاة الروم بنى الأصفر وتخوفهم ذلك، عندما رأوا النبى يقود جنده ميمماً شطر الروم فوقفوا يقولون لبعضهم: «أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال إرجافاً وترهيباً للمؤمنين»، فلما علموا أن قالتهم قد بلغت النبى هرع وديعة بن ثابت بهم يمسك بناقة الرسول يعتذر قائلاً: «يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب». فأنزل الله: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾[٦]. وهو الأمر الذى يشير إلى تضاؤل شأن المعارضة إلى حد الرهبة والرعب والاعتذار بما لا يليق برجال الحرب وأسنان الشرف.

وخرجت جحافل المسلمين فى ثلاثين ألف مقاتل وعشرة آلاف فرس حتى وصلت مشارف بادية الشام لتحاصر تبوك، فيخرج يوحنا بن رؤبة المنوب على أيله من القيصر ليصالح الرسول على دفع الجزية، ويتبعه أهل جرباء وأذرح، ويكتب لهم النبى كتاباً بذلك. ثم أرسل خالد بن الوليد إلى دومة فأتاه بأكيدر الكندى فصالحه بدوره على الجزية، واكتفى من سفره الشاق بذلك وأخذ قراره بالعودة إلى يثرب، حيث تأكد أن هرقل عظيم الروم قد جمع جموعه فى حمص[٧].

---

(٦) نفسه: ص١٧٨.
(٧) الموضع نفسه، انظر أيضاً ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج٢، ص٢٧٧.

ونعلم مع ذلك أنه مع ترك المنافقين المعلومين بيثرب، فقد وجد بين من خرجوا للجهاد منافقين جداً، حيث يروى ابن إسحق عن محمود بن لبيد أنه أصابهم عطش فى الحجر، فدعا النبى ربه فأرسل سحابة أمطرتهم ماء، وهنا يقول محمود بن لبيد:

> لقد أخبرنى رجال من قومى عن رجل من المنافقين معروف نفاقه كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويحك؛ هل بعد هذا شيء؟ **قال: سحابة مارة**[٨].

لكن ليجد المنافقون فى عودة النبى دون لقاء الروم، أو حتى تجاوز تبوك نحو الشمال، مجالاً للخوض. وهنا يعلمنا البيهقى السبب وراء خروج النبى إلى الروم، وأنها كانت مؤامرة يهودية لا يشير إلى أطرافها ولا أسمائهم ولا من هم؟ وأن الله قد أنقذه من تلك المؤامرة، وذلك فى قوله: «ما روى فى سبب خروج النبى ﷺ إلي تبوك وسبب رجوعه إن صح الخبر فيه.. أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوماً، فقالوا: يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنك نبى، فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء، فصدق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عز وجل آيات من سورة بنى إسرائيل بعدما ختمت السورة: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً [إلى قوله:] تَحْوِيلاً﴾ (٧٦-٧٧/ الإسراء)، فأمره الله عز وجل بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث»[٩].

ومن هنا يمكن فهم الحقيقة وراء مسجد ضرار وما دار حوله من أحداث، كانت مساجد رسول الله ﷺ فيما بين المدينة إلى تبوك معلومة مسماة، ويعددها ابن هشام فيقول إنها

(٨) نفسه: ص١٧٦.
(٩) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٥، ص٢٤٥.

كانت كالتالي: «مسجد بتبوك ومسجد بذات الخطمى ومسجد بألاء ومسجد بطرف البطراء من ذنب كواكب ومسجد بالشق - شق تارا - ومسجد بثنية حدران ومسجد بذات الزراب ومسجد بالأخضر ومسجد بذى الحيفة ومسجد بصدر حوحنى ومسجد بالحجر ومسجد بالصعيد ومسجد بالوادى - اليوم وادى القرى - ومسجد الرقعة من الشقة - شقة بنى غدرة - ومسجد بذى المروة ومسجد بالفيفا ومسجد بذى خشب»[١٠].

وبالمثل، لكن داخل يثرب، أقام بعض المسلمين مسجداً وجاءوا النبى عندما كان يتجهز لغزو الروم كما سلف، فقالوا: «يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه»، وكان جواب النبى وعداً جميلاً يقول: «إنى على جناح سفر وحال شغل. ولو قدمنا **إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه**»[١١].

لكن مع تواتر النفاق فى هذه المرحلة جاء النبى الخبر أن أصحاب ذلك المسجد هم من المنافقين، ونفهم من الروايات أنهم **من الأوس تحديداً**، حيث يفيدنا الثعلبى النيسابورى أنهم بنوه ليستقبلوا فيه أخطر زعمائهم الذى غادر المدينة مخاصماً للرسول (أبو عامر بن النعمان بن صيفى) المعروف باسم الراهب، لكن النبى أسماه بالفاسق. حيث كان أبو عامر قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح واعتنق الحنيفية، ولما التقى بالنبى اختلف معه حول صحيح الحنيفية، فغادر المدينة مغاضباً له. ثم تفيدنا المصادر أنه قبل غزو النبى للروم بقليل أرسل أبو عامر لأهله وهو أوسى، وقال لهم: «أعدوا العدة والسلاح وابنوا لى مسجداً، فإنى ذاهب إلى قيصر وآتى بجند لنخرج محمداً وأصحابه من المدينة»، ويزعم الثعلبى أنه كانت قد نزلت فيه آيات تقول: ﴿واتل عليهم **نبأ الذى آتيناه آياتنا**﴾[١٢].

(١٠) ابن هشام: فى الروض الأنف للسهيلى.. سبق ذكره، ج٤، ص١٨٠.
(١١) الموضع نفسه.
(١٢) الثعلبى: عرائس المجالس.. سبق ذكره، ص١٤٠.

ويحكى لنا البيهقى ما حدث بشأن ذلك المسجد **الذى وعد النبى أصحابه بافتتاحه لإيواء المحتاجين**، فيقول: «إن النبى ﷺ أقبل من تبوك حتى نزل بذى أوان بينه وبين المدينة ساعة من نهار.. فدعا مالك بن الدخشم ومعن بن عدى.. فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه، واحرقاه، فخرجا سريعاً حتى دخلاه وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه»[١٣]. لقد باتت السياسة إزاء المنافقين قد أخذت شكلها العنيف الرادع كما هو واضح.

وقد جاء الوحى يعقب على إحراق المسجد فى آيات كريمة صريحة تقول:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ. أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠٧ : ١١٠/ التوبة).

وبحرق مسجد ضرار يعود النفاق إلى الانكماش مرة أخرى، ولا يجد المنافقون كل مرة سوى أن يتجهوا إلى سيد المدينة وسيد الخلق يحلفون بالله أنهم ما أرادوا ما وصله من حديث لكنهم أرادوا خيراً وحسناً، أو أنهم ما قالوا ما سمع، أو يقسمون بأغلظ الأيمان أنهم إنما كانوا هازلين. وأدركوا **أن جهاز الدولة الرقابى** قد دخل بيوتهم وتصنت أحاديثهم وعلم أسرارهم، حتى قال نبتل بن الحارث أخو بنى عمرو بن عوف:

(١٣) البيهقي: دلائل.. سبق ذكره، ج٥، ص٢٥٩، ٢٦٠.

إنما محمد أُذُنْ

من حدثه شيئاً صدقه(١٤).

لكن ليتدخل الوحى مرة أخرى شارحاً موضحاً مبيناً :

﴿ومِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ويَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ويُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ورَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ والَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٦١/ التوبة).

ولكن، ووسط تلك الأحداث التى كدرت صفو الرسول ومدينته، يأتى حدث جديد، يضيف للدولة رصيداً، يفرح له الرسول والمؤمنون، حيث يحكى ابن كثير :

أن رسول الله ﷺ لما ارتحل عن ثقيف، سُئل أن يدعو عليهم، فدعا لهم بالهداية، وقد تقدم أن رسول الله ﷺ حين أسلم مالك بن عوف النصرى، أنعم عليه وأعطاه وجعله أميراً على من أسلم من قومه، فكان يغزو بلاد ثقيف ويضيق عليهم حتى ألجأهم إلى الدخول فى الإسلام. وتقدم أيضاً فيما رواه أبو داود عن صخر بن العيلة الأحمس، أنه لم يزل بثقيف حتى أنزلهم من حصونهم على حكم رسول الله ﷺ، فأقبل بهم إلى المدينة النبوية.. ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا.. ثم أجمعوا أن يرسلوا رجلاً منهم هو عبد ياليل بن عمرو بن عمير.. ومعه بضعة عشر رجلاً(١٥).

وكان فرح المغيرة بن شعبة الثقفى عظيماً لما التقى وفدهم على أبواب المدينة، فأخذهم ليعلمهم بروتوكول الدولة، وكيف يدخلون على رسول الله ﷺ، وكيف يؤدون له

(١٤) ابن هشام : فى الروض.. سبق ذكره، ٤، ص١٩٠.

(١٥) ابن كثير : البداية.. سبق ذكره، ج٥، ص٢٦، ٢٧.

التحية. لكنهم عندما دخلوا على الرسول لم يفعلوا سوى فعل العربان، وحيوه تحيتهم الجاهلية الاعتيادية، وأمر النبى فضربت لهم قبة فى مسجده تكريماً لهم، وجلس النبى فى مجلسه على مسافة يسمع منهم ويقولون له، وكان يسعى بينهم خالد بن سعيد بن العاص، ولما قدم لهم طعاماً رفضوا تناوله توجساً وخيفة، إلا بعد أن أكل منه خالد بن سعيد، ولما انتهت المفاوضات كتب خالد بينهم الكتاب.

وإبان المفاوضات حاولوا تأجيل هدم اللات فلم يرض الرسول إطلاقاً، بل أعلمهم أنه سيرسل معهم أبا سفيان صخر بن حرب، وولدهم المغيرة بن شعبة ليهدماها، ثم سألوه أن يسقط عنهم الصلاة.

لم يدرك الثقفيون أن واجبات الصلاة الخمس تمرين سريع للتأمل، تتضمن ترديداً لآيات القرآن حتى تعتاده آذانهم، ثم إنها تحوى الشهادة للرسول بالنبوة فى كل مرة، وتعود الملتزم بها الانتظام فى نظام صفوف صارم. كل ما رأوه فيها إرغاماً لأنفهم العربية المتأبية المتكبرة على السجود، ولم يدركوا أنا كانت إخضاعاً لسلوكهم اليومى لمؤسسة دقيقة مرتبة تخرج بهم عن عشوائية القبلية وتشظيها، إلى المنظومة الموحدة، ولم يقبل النبى أى تفاوض بشأن الصلاة، وأجاب بحسم «لا خير فى دين لا صلاة فيه»، فكان ردهم المختزل الذى يبدو على مضض: «سنؤتيكها». أبداً لم يقولوا سنؤتيها لله تعالى، بل استمروا ليقولوا بجرأة شديدة «سنؤتيكها وإن كانت **دناءة**». ثم أصروا ألا يكونوا كبقية الأعراب، فهم أهل مدن وحضارة وأنفة وكبرياء، واشترطوا على النبى أنهم لن يدفعوا الضرائب (الصدقة)، ولن يشتركوا فى معاركه (الجهاد)، فوافقهم، ثم قال بعد ذلك للمسلمين: «سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»[١٦].

واستأذن الثقفيون النبى أن يسبقوا رسله المزمع ذهابهم معهم لهدم اللات، «فلما جاءوا قومهم تلقوهم، فسألوهم ما وراءكم؟ فأظهروا الحزن، وأنهم إنما جاءوا من عند **رجل فظ**

(١٦) نفسه: ج٥، ص٢٧.

غليظ قد ظهر بالسيف، يحكم بما يريد وقد دوخ العرب.. فألقى الله فى قلوبهم الرعب فرجعوا وأنابوا»[17].

ولحق بهم ولدهم المغيرة ومعه أبو سفيان وهدموا اللات وأخذوا ما بها من جوهر وحلى وذهب وفضة[18]. بينما كان النبى قد أمر على ثقيف عثمان بن أبى العاص أميراً منوباً من قبله، وكان أحدثهم سناً[19].

ويمر من الشهور ثلاثة، رمضان وشوال وذو القعدة، ويأتى موسم الحج، لكن الموسم هذه المرة لم يكن كالمرات السوالف، حيث كان لابد أن تشرف الدولة بنفسها عليه، فبعث رسول الله أبا بكر أميراً منوباً من قبله على حج سنة تسع للهجرة ليقيم للناس حجهم.

ويفاجئ الأمر قريشاً، فحتى سيادة الحج والكعبة قد ذهبت إلى دولة يثرب، نعم إن أبا بكر قرشى، لكن معنى أن يأتيها من يثرب أميراً على الحج، هو معنى يسلب قريشاً وضعها السيادى الباقى فى إقامة الشعائر الدينية للعربان، وهنا تعترض قريش هاتفة: «إنا أهل الحرم وسقاة الحاج وعمار هذا البيت، فلا أحد أفضل منا»، لكن ليأتيهم الرد ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾[20].

لقد بات المطلب الآن بعد انصرام عام على فتح مكة، إسلام الجميع دون مواربة، حيث أكدت كتب السير أن «الناس من أهل الشرك كانوا على منازلهم من حجهم».

ثم تأتى الضربة القاصمة فى نقض النبى ﷺ لما كان بينه وبين المشركين من عهد ينص على «ألا يُصد عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد فى الشهر الحرام، وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك»، لضمان استمرار التجارة وسيولتها، وقد جاء ذلك

---

(١٧) نفسه: ج٥، ص٣٠.

(١٨) ابن سيد الناس: عيون الأثر.. سبق ذكره، ج٢، ص٢٩٣.

(١٩) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٥، ص٢٨.

(٢٠) ابن هشام: فى الروض.. سق ذكره، ج٤، ص١٨٦.

النقض عندما أرسل النبى ﷺ، علياً بن أبى طالب ليلحق بأبى بكر، ومعه أوامر الوحى فى الآيات المعروفة باسم (براءة) وقال له: «اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته.. وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أُذن فيهم، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة»(٢١). وكان أبرز نصوص وثيقة براءة يقول:

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ (٢٨/ التوبة).

كان معنى ذلك خراب ديار قريش إلى آخر الدهر، فمعنى ذلك توقف التجارة ودمار الأسواق، وزاد الأمر نكاية ما جاء مع سورة براءة من أمر إلهى بإلغاء العمل بنظام النسىء، وكان النسىء تحريكاً للأشهر الحرم القمرية، لتدور مع الأشهر الشمسية، حتى تتوافق رحلتا التجارة مع موعد المحاصيل والرياح الموسمية فى بحر الهند، وهى الرياح والمحاصيل التى تسير وفق المجريات الشمسية (الزمن الميلادى)، وجاءت الآيات تؤكد:

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾(٣٧/ التوبة).

وهكذا تم تثبيت الأشهر القمرية جميعاً، وهو ما قال المسعودى بشأنه شارحاً: «عندما ظهر الإسلام، كانت الأشهر الحرام قد عادت إلى بدئها على ماكانت عليه فى أصلها، وذلك قول النبى ﷺ: ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»(٢٢).

---

(٢١) نفسه: ص١٨٧، ١٨٨.

(٢٢) نفسه: ص١٨٩.

نعم، كان تثبيت الأشهر الحرم وسلخها عن المصالح المادية ارتفاعاً بها وتكريماً لها وتوقيراً، لجعلها رمزاً لوحدة البيت الجامع للعرب المتوحدين فى الدولة الواحدة، لكنه كان ضرباً واضحاً للتجارة والأسواق، بل وتراجعاً بالعرب جميعاً عن مركز دولى متميز حققوه من ذلك النظام التجارى الدينى، فأمسكوا بعنان تجارة العالم. وبدأت قريش تشك فعلاً فى أهداف الدولة الجديدة، وصورت لها أحلامها المريضة أن المقصود دمار فعلى، وانتقام مما سبق وقدمت أيديها، وتقف تقول:

> لتقطعن عنا الأسواق، فلتهلكن التجارة، وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق[٢٣].

لكن لتفاجأ بسوء ظنها، وتبدأ فى رؤية ما ينتظرها حقاً، عندما يرد عليها الوحى الكريم:

> ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً **فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ** مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨/ التوبة).

أما كيف سيتحقق ذلك وهم يريدونه مكاسب عينية ملموسة، تعوضهم عن خراب تجارتهم وبوار أموالهم؟ فهو ما يشرحه ابن هشام مويداً بآى الله الكريم، فى قوله: ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾، أى من وجه غير ذلك.. ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.. من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾، أى ففى هذا عوض عما تخوفتم من قطع الأسواق، فعوضهم الله بما قطع عنهم من **أعناق** أهل الكتاب من **الجزية**»[٢٤].

ماذا تقصد الآيات؟ إن أهل الكتاب فى الجزيرة قد انتهى أمرهم إلى الذبح أو الجلاء أو الجزية، فأى أهل كتاب؟!! وهنا توجهت الأنظار بعيداً، إن الآيات تطلب منهم تعويض

---

(٢٣) الموضع نفسه.
(٢٤) المسعودى: مروج الذهب.. سبق ذكره، ج٢، ص٥٧.

خسائرهم هناك، فعند الإمبراطوريتين كنوز عظيمة. وهنا تفهم قريش سر كل ذلك التضيق، لقد بات عليهم التحول عن التجارة إلى القتال. لقد بدأ المستقبل الجديد يفرش ظله على الواقع فيزيح القديم، وجاءت الآيات تؤكد الجهاد كبديل أفضل من التجارة، وتوجه أنظارهم نحو الشمال.

لقد جاءت القرارات الأخيرة لتخل تماماً بنظام التجارة العظمى التى كانت قريش تشرف على إدارتها، ومع إسلام العرب وتتالى ذلك الإسلام بعد أشهر فى وفود تشهر إسلامها، جعل هناك استحالة فى تقديم آفاق غنائم جديدة داخل جزيرة العرب، لقد آن أوان تحقق الوعد المغلظ بالأيمان الذى أطلقه النبى فى مكة عندما كان مهيضاً:

والذى نفسى بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر

وجانب آخر، يدركه الوعى النفاذ، أن الطريقة الوحيدة التى كان يمكن بها الحفاظ على وحدة القبائل، هى تقديم هدف مألوف لها، البحث الدائم عن الغنائم، وهو ما قامت عليه الدولة النبوية ذاتها حتى الآن، الهدف أصبح ذلك العالم المفتوح أمامهم على مصراعيه. **لقد أصبح مطلوباً من العرب أن يتحولوا عن مجرد سادة تجارة العالم، ليصبحوا سادة هذا العالم نفسه**، أما بقية العربان الذين ارتبطوا بأسواق مكة، فقد باتوا يعانون من الخراب نفسه، لم يعد أمامهم سوى الانخراط فى الدولة للحصول على نصيب من الغنائم المنتظرة. لقد جاءت وثيقة الوحى براءة، لتدفع الجميع دفعاً إلى اعتناق الإسلام وإلى التوحد **وإلى التوجه خارج الجزيرة**.

أما ختام المسك فكان موت رأس المعارضة والنفاق، عبدالله بن أُبى بن سلول، الذى خفتت بعده أصوات المعارضة تماماً.

☆ ☆ ☆



عـــام الوفــــود

« واللـــه ؛ لقـــد دعـانـــا إلى عـبـادة شـــىء لـــوددت لـــو أنه عنـــدى الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله »

(إربد بن مقيس)

قال محمد بن إسحاق :

لما افـتـتـح رسـول الله ﷺ مكة وفـرغ من تبـوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه .

قال ابن هشام :

حدثنى أبو عبيـدة أن ذلك فى سنة تسع ، وأنها كانت تسمى سنة الوفود .

قال ابن إسحاق :

وإنما كانت العرب تربص بإسلامها أمر هذا الحى من قريش ، **لأن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديتهم وأهل البيت والحرم** ، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم ، وقادة العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هى التى نصبت الحرب لرسول الله ﷺ وخلافه ، فلما افتتحت مكة **ودانت له قريش ، ودوخها الإسلام** ، عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته ، فدخلوا فى دين الله كما قال عز وجل أفواجاً ، يضربون إليه من كل وجه ،

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ :

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (سورة النصر)(١) .

هكذا ارتأت كتب السير الإسلامية والأخبار الأسباب الواضحة لقدوم الوفود العربية من بلاقع الجزيرة وفيافيها لتعلن لسيد العرب خضوعها . وكان الإعلان عن إغلاق مكة دون المشركين ، وتوجيه العسكرية العربية نحو الباب المفتوح شمالاً ، مدعاة أخرى واضحة أوضحناها لقدوم تلك الوفود الكبرى . أما النبى بكرمه الذى يليق به ، وعطاياه للوفود ما أفاء الله عليه ، ومن خمسه المقرر وحيا ، فكانت عاملاً آخر ودافعاً غير منكور فى كتبنا الإخبارية لقدوم الوفود تعلن انضمامها لدولة الإسلام . وبين كل وفد كان ينتقى رجلا يتوسم فيه الشخصية القيادية والقادرة على فهم الأوضاع والمتسمة بالطاعة للسلطة النبوية ، فيجعله أميراً من قبله على قومه . وللقرار بمنح الأعطيات وقطع الإقطاعات رواية أولى دفعت إلى سلوك ذلك الخط فى تألف العربان . فيقول محمد بن إسحاق صاحب السيرة التأسيسية ، أن أول الوفود جاء بشموخ الأنف العربية وكان وفد القبيلة الكبرى تميم ، وعلى رأسها عطارد بن حاجب بن زرارة ، والأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر ، والحتحات بن يزيد ، أسماء جميعها ذات شرف ومنعة وسيادة فى قومهم ، وبصلف العربان دخلوا يثرب إلى مركزها الإدارى مباشرة ، إلى المسجد ، فلم يجدوا سيد المدينة ، فكان أن وقفوا ينادون الرسول من وراء حجراته :

اخرج إلينا يا محمد .

لم يتحضر بعد الفكر ولا اللسان ، ولا أدرك العربان أن خطابهم مع السيد يجب ألا يكون كخطابهم لبعضهم البعض ، وهو ما جاء من بعد تنبيها للوفود وتقريعاً لأجلاف تميم فى وحى يقول :

(١) ابن كثير : البداية . . سبق ذكره ، ج٥ ، ص٣٧ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٤ , ٥/ الحجرات).

لكن تميما ما كانت لتفهم لغة التمدين بسرعة، وظل غرورها الأجلف يركب حسها الغليظ، وأنفتها تمنعها من إعلان الطاعة بهدوء ومباشرة، إنما جاءت تؤجل ذلك الإعلان ما أمكن، وتعلنه وهى عزيزة متعالية فى وهمها، ويتمثل ذلك فى قول الوفد التميمى لسيد الخلق: «يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا».

لم تفهم تلك العقول مدى التحولات الكبرى، وأدرك النبى مغزى كل تلك المناورة، إنها لا تريد الخضوع دون إثبات عزتها، وتبسم سيد الخلق، فرد بهدوء الواثق المطمئن: «لقد أذنت لخطيبكم فليقل»، ليقوم عطارد بن حاجب يعدد ممكنات تميم وعظمها يقول:

الحمد لله الذى له علينا الفضل والمن، وهو أهله، الذى **جعلنا ملوكا، ووهب لنا أموالا عظاماً** نفعل فيها المعروف، وجعلنا **أعزة أهل المشرق وأكثره عدداً** وأيسره عدة، فمن مثلنا فى الناس؟ **ألسنا برؤوس الناس** وأولى فضلهم؟

فمن فاخرنا فليعدد مثلما عددنا، وإننا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكن نخشى من الإكثار فيما أعطانا وإنا نُعرف بذلك.

أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا

وأمر أفضل من أمرنا.

ويجلس عطارد يلبس أثواب التكبر الأنف، ويصبح المطلوب رداً مناسباً يكسر ذلك الكبرياء ويرغم تلك الأنوف، فلا يرد عليه النبى بنفسه، حتى لا يكسبه قيمة لا تليق به، إنما يشير إلى ثابت بن قيس بن الشماس الخزرجى، ويقول له: «قم يا ثابت فأجب الرجل»، ويقوم ثابت ليقول بهدوء هادر المعانى:

الحمد لله الذى السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شىء قط إلا من فضله.

ثم كان من قدرته أن جعلنا **ملوكا**

واصطفى من خيرته رسولا

أكرمه نسبا، وأصدقه حديثا، وأفضله حسبا،

فأنزل عليه كتابا وائتمنه عى خلقه،

فكان خيرة الله من العالمين،

ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه. وذوى رحمه أكرم الناس أحسابا وأحسن وجوها وخير الناس فعالا.

وينتقل ثابت بن الخزرج، أصحاب الحرب والحلقة إلى موجة أعلى فى خطابه ليردف مهدداً منذراً متوعداً:

ثم كان أول الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله ﷺ **نحن!!**

فنحن أنصار الله ووزراء رسوله،

نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه،

ومن كفر جاهدناه فى الله أبدا، وكان قتله علينا يسيراً، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وللمؤمنين والمؤمنات.

والسلام عليكم(٢).

وتفهم تميم الرسالة، وتتهاوى العزة، لكن ليرأف بهم النبى الكريم ﷺ فيقول ناقلا الحديث إلى مستوى آخر، تخفيفا عنهم وتهدئة لروعهم: «اقبلوا البشرى يا بنى تميم»،

---

(٢) نفسه: ص٣٨، ٣٩.

لكن ليرد الذين تفاخروا منذ قليل بمالهم وعددهم : «يا رسول الله لقد بشرتنا، فاعطنا» . وهكذا انتكس الرجال وارتكسوا عما قالوا، ووجدوا أنه إذا لم يكن من الطاعة بد، فليعودوا بمكاسب، ويستجيب الرسول، «فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم»[٣] .

أما بنو عبد القيس فأرسلوا وفداً عارفا أقدار الناس، ومن أعلى من النبى قدراً؟ لذلك ما أن هبطوا عن ركائبهم حتى **هرعوا يتسابقون إلى الرسول ليأخذوا بيده يقبلوها**، فاستحقوا أن يصفهم النبى بقوله : **«هم خير أهل المشرق»**[٤] .

وتتوالى الوفود

ويقدم وفد أسد للمدينة ويقف حضرمى بن عامر رأس الوفد ليقول للنبى :

أتيناك نتدرع الليل البهيم

فى سنة شهباء

ولم تبعث إلينا بعثا

يريد أن يقول أنهم أتوه طوعا لاكرها، لترد عليهم الآيات ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ (١٧/ الحجرات) .

ثم وفد عبس، ووفد فزارة، ووفد مرة «فأجازهم بعشر أواق، عشر أواق فضة»، ثم وفد ثعلبة وقد أجاز كل منهم بخمس أواق فضة ثم وفد محارب فأجازهم بدورهم بالعطايا، ثم وفد كلب، ووفد عقيل بن كعب الذين أقطعهم النبى أرض عقيق بنى عقيل وفيها عيون ونخل وكتب لهم بذلك كتب فى أديم أحمر، ثم وفد جعده، وأقطعهم الرسول ﷺ ضيعة بالفلج وكتب لهم بذلك كتابا، ثم وفد قشير بن كعب «فأقطعه الرسول ﷺ قطيعة

---

(٣) نفسه : ص٣٥، ٤١ .

(٤) نفسه : ص٤٤ .

وكتب له كتابا»، ثم وفد بنى البكاء وقد أجازهم بدورهم فأحسن جوائزهم، ثم وفد كنانة ووفد أشجع ووفد باهلة ووفد هلال بن عامر. وربيعة عبد القيس وتغلب. **وكانت تغلب نصارى جاءوا النبى يلبسون صلبان الذهب، فصالحوه، على أن يقرهم على دينهم فأقرهم، وأعطى المسلمين منهم عطايا**(٥). أما وفد عامر بن صعصعة فقد جاء على رأسه عامر بن الطفيل **وإربد بن مقيس. وعامر** من القبائل الكبرى الشامخة، وما أن وقف عامر ابن الطفيل أمام الرسول حتى دخل فى المفاوضة مباشرة وبسرعة قائلا: «يا محمد؛ مالى إن أسلمت؟ فقال لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين، قال: **أتجعل لى الأمر من بعدك؟ قال: ليس ذاك ولا لقومك**، قال: أفتجعل لى الوبر ولك المدر؟ قال: لا، ولكنى أجعل لك أعنة الخيل، فإنك امرؤ فارس» وهو من رد على العربان الذين دعوه للإسلام:

والله لقد كنت آليت ألا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى، أفأتبع أنا عقب هذا الفتى من قريش؟(٦).

فيغضب عامر بن الطفيل، ويخرجه الغضب عن جادة الصواب، فيهدر صارخا:

أوليست لى؟ (أى الخيل)

إذن

لأملأنها عليكم خيلا ورجالا(٧).

وخرج مع رفيقه إربد ليتبعهم النبى بدعوته: «اللهم اكفنيهما»، وتحكى كتب السير أن الدعوة لحقتهم فمات عامر فى الطريق، أما إربد فوصل قومه، فاستقبلوه يسألونه عما عند محمد وما انتهت إليه المحادثات، ليرد عليهم:

---

(٥) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج١، ج٢، من ص٤٠ : ٥٦.
(٦) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٥، ص٥١، ٥٢.
(٧) ابن سعد: الطبقات.. سبق ذكره، مج١، ج٢، ص٥١.

والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت لو أنه عندى الآن فأرميه
بالنبل حتى أقتله، فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل ليبيعه
فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما[(٨)].

وتتابع الوفود فتأتى شيبان وطى ونجيب وخولان وجعفى وصداء ومراد وزبيد وكنده والصدف وخشين وسعد هزيم وبلى وبهراء وعذره وسلامان وجهينة وجرم والأزد والحارث بن كعب وحمدان وسعد العشيرة وعبس والداربين والرهاويين وغامد والنخع وبجيلة وخثعم وحضرموت وأزد عمان وغافق وبارق ودوس وثمالة والحدان وأسلم وجذام ومهرة وحمير ونجران وجيشان والسباع.

وهكذا استتمت جزيرة الجزيرة جميعاً وأوعبت طاعتها أمام النبى الكريم، تؤكد أن التاريخ على وشك استكمال حلقته الانتقالية الكبرى، أن الوحدة العربية للجزيرة قد صارت واقعا وحقيقة، وأن الدولة المركزية قد تسنمت أمر العرب وحشدتهم على أيديولوجية واحدة موحدة.

لكن لم يمر عام الوفود دون مكدرات عكرت صفوه ونصره، فبين تلك الوفود جاء ذلك الوفد الغريب الشأن العجيب الأمر، وفد بنى حنيفة من أهل اليمامة، وبين رجالهم رجل يبدو له شأن اسمه مسيلمة بن ثمامة. نزلوا دار بنت الحارث من الخزرج، واستلفت النظر وأوجست منه المدينة، وهم يرون وفده يحيط به، يسترونه بالبرد والثياب، وهو يسير إلى المسجد، ليقف أمام النبى وبيد النبى قضيب من عسيب النخل، ليقول للنبى رسالة برقية موجزة:

إن شئت
خليت بينك وبين الأمر
ثم جعلته لنا بعدك

---

(٨) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٥، ص٥٣.

لكن ليرد سيد الخلق هادئاً مستصغراً شأن ذلك المتكبر الكبير في قومه: «لو سألتني هذا القضيب ما أعطيتكه»[٩]. فينصرف مسيلمة مع قومه، لتعلم المدينة أن الرجل كان في قومه نبياً، وأنه أعلن فيهم نبوته، وهذا سر سيرهم به متحوفاً بالاحترام مستوراً بالثياب، وإنه ما جاء يعلن ولاءً بل جاء يتفاوض على تقسيم الأمر دولا بين محمد وبينه، حيث أعلن في أهله من حنيفة اليمامة: إنه قد أشرك مع محمد في النبوة والحكم (الأمر). وأخذ يرسل لهم آيات مسجوعة يزعمها وحيا، وشهد للنبي بالرسالة، لكنه أراد منه شهادة مماثلة، وقد وقفت وراءه حنيفة جميعا، وأرسل بعد عودته بلاده للنبي الصادق رسالة تقول:

من مسيلمة رسول الله
إلى محمد رسول الله
سلام عليك؛ أما بعد؛
فإني قد أُشركت في الأمر معك
فإن لنا نصف الأرض
ولقريش نصف الأرض
ولكن قريشا قوم يعتدون.

وتصل الرسالة الآبقة بإفكها إلى رسول الله الأمين، فيرد عليه من فوره ببرقية موجزة صارمة المعاني هادئة الكلم تقول:

بسم الله الرحمن الرحيم:
من محمد رسول الله
إلى مسيلمة **الكذاب**(!)
السلام على من اتبع الهدى(!)

---

(٩) نفسه: ص٤٦.

أما بعد

فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده

والعاقبة للمتقين[١٠].

وتسلم بلاد العرب وتدخل فى طاعة الدولة الواحدة، ويرغب بعضها الآخر من الكتابيين فى البقاء على دينهم على أن يخضعوا للدولة ويدفعوا الجزية، فيقبل النبى ﷺ ذلك منهم، لتظل حنيفة وبلاد اليمامة وسط ذلك المحيط العربى المتوحد ترفض الانضواء، بل ويتضخم أمرها تحت زعامة سيدها المتنبىء مسيلمة الكذاب.

كانت سنة الوفود هى السنة التاسعة للهجرة، وكانت سنة قحط شديد، وهو دافع يضاف إلى مجموع الدوافع التى حثت الوفود تدفعها دفعاً إلى يثرب، تطمع فى حكمة قيادة يثرب إزاء الأزمة القاحطة النازلة بهم، لكن ذلك الظرف ذاته كان بدوره وراء الحركات الانشقاقية التى نشطت فى ذات العام، يمثلها مسيلمة فى اليمامة، والأسود العنسى فى اليمن.

وقد وضح أن مسيلمة بن حبيب كان يطمح إلى مشروع اتحادى وليس وحدويا، فهو يطلب مشاركة حنيفة فى أمر السيطرة على قبائل العرب، فلم يدرك مسيلمة أنه يسير عكس اتجاه السير الصحيح لخط التاريخ نحو توحد الجزيرة جميعا، كلا ولا فهم كيف يمكن أن تتوارى القبيلة داخل إطار الدولة، ومن هنا قام يطرح رؤية إقليمية ضيقة محدودة، معبرة عن موقف قبلى يعاكس الحتمية وضرورتها، ومفصحة عن موقف قبلى إقليمى تجزيئى يريد أن يقلب وجهة التاريخ إلى القديم، وهنا بالتحديد كان مقتل الحركة جميعا بعد ذلك.

أما اليمن التى كانت تعانى بشدة من التسلط الفارسى على مقدراتها، فقد كانت إبان تطور أطوار الدعوة الإسلامية فى واد آخر، كانت تخوض ثورة كبرى ضد باذان الفرس،

(١٠) نفسه: ص٤٧.

ويظهر بين ثوار ضد الفرس ذلك الفارس الأسطورى (الأسود العنسى) الذى قاد تحالفات قبائل اليمن ليكتسح بهم نفوذ الفرس، ويتمكن من تصفية بيت باذان ودخول صنعاء والاستيلاء على اليمن، بل وطرد الفرس من اليمن وتطهيرها من العسكر الكسروى. وفى تلك اللحظة الحاسمة وصلت رسل النبى ﷺ إلى اليمن مع عماله عليها، لكن الثوار يتمسكون بإقليمية اليمن باعتبارها دولة قديمة عريقة، ذات تاريخ مستقل إقليمى له خصوصية، ليقول عبهلة بن كعب الذى لقب بالأسود العنسى لوفود يثرب وعمال الرسول المنويين من قبله:

أيها المتوردون علينا، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه[11].

وقام عبهلة يدفع المأزق الإقليمى نحو مزيد من التعميق والجفاء، ليعود باليمن إلى عبادة الرحمن القديمة، رب السماء[12] العريق فى حضارات الجنوب الحضرمى القحطانى، رافعا إياها كأيديولوجيا وطنية خالصة من فرز مجتمع اليمن وتاريخه، معارضاً بها (الله) رب الشمال العدنانى.

أما النبى ﷺ فقد وقف من تلك الحركات موقفا متأنيا يعتمد الصبر الهادىء، فاليمن قبائل كبرى عسكرية منظمة، كذلك اليمامة لم يكن أمرها بأقل شأنا، والإسلام بحاجة إلى قواته ورجاله من أجل الهدف الأعظم، من أجل ميراث الأنبياء السوالف فى امتداد بوادى الجزيرة نحو الشمال. ومن هنا نفهم السر وراء استخدامه سياسة الإلهاء بالمراسلات مع تلك الزعامات القوية، لإطالة زمن حالة اللاحسم، ليتيح لعماله هناك فرصة الانقضاض من الداخل على تلك الزعامات مع من تابعهم من مسلمى تلك المناطق، وطال أمر تلك السياسة، ولم يتم القضاء على تلك الانشقاقات إلا بعد وفاة الرسول ولحوقه بالرفيق الأعلى، بعد أن أدى حجة الوداع، وترك الناس على الواضحة غير الملتبسة.

---

(١١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ص١٢٦.

(١٢) ارجع فى ذلك إلى كتابنا الحزب الهاشمى.. سبق ذكره.

وفى تلك الحجة بدرت من النبى أقوال إلى شعوره بدنو أجله، «عن أبى الزبير عن جابر: أن رسول الله ﷺ وقف عند جمرة العقبة وقال لنا: خذوا عنى مناسككم **فلعلى لا أحج بعد عامى هذا**»(١٣)، ثم ما كان من آيات تحمل روح الختام، من قبيل ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾(سورة النصر).

الأيام الأخيرة للرسول العظيم

عن ابن طاووس عن أبيه أن الرسول ﷺ قال:

نُصرت بالرعب، وأُعطيت الخزائن وخُيِّرت بين أن أبقى حتى أرى
ما يفتح على أمتى، وبين التعجيل،
فاخترت التعجيل(١٤).

كان الشعور بدنو الأجل يتصاعد ويعلو، والرسول الكريم تزيد به أوجاعه، لكن سيد الخلق يقاوم الأوجاع، ويستمر فى سياسة الدولة، وفى صفر بعد حجة الوداع بشهرين، يؤذن فى الناس بغزو القياصرة فى بلاد الشام، ويؤمر على الناس أسامة بن زيد بن حارثة. ويأمر جميع المهاجرين الأوائل بأن يوعبوا مع أسامة باتجاه فلسطين، بما فيهم وزيريه أبو بكر وعمر، ويتجهز الناس صدعا بأمر رسولهم ونبيهم وقائدهم. لكن ليقف التاريخ فى مواقفه الناقلة المحولة، لترهف السمع إلى الصحابة يسجلون فى مسامع الرواة، أنه فى أول شهر ربيع الأول يطلب النبى عبده أبا مويهبة، ليتحامل عليه ويأمره باصطحابه إلى مقابر أصحابه، الذين ماتوا فى حروب إنشاء الدولة، ويذهب معه إلى البقيع متحاملاً على نفسه، ليقف وسط المقابر يقول للموتى:

---

(١٣) ابن كثير: البداية.. سبق ذكره، ج٥، ص١٨٩.
(١٤) نفسه: ص١٩٧.

السلام عليكم يا أهل المقابر

ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى(؟!).

ويلتفت إلي أبى مويهبة يقول له:

إنى قد أوتيت خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة.

ليقاطعه عبده المخلص

بأبى أنت وأمى، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلافة

لكن ليرد عليه المصطفى - لهفى عليه:

لا والله يا أبا مويهبة

لقد اخترت لقاء ربى والجنة

ثم يروى أبو مويهبة أنه وقف يستغفر لأهل المقابر، ثم عاد أدراجه ليبتدأ وجعه يظهر عليه ويلحظه الناس[(١٥)].

وهنا ننصت إلى أم المؤمنين الحميراء سيدة النساء عائشة بنت أبى بكر تقول:

رجع رسول الله ﷺ من البقيع، فوجدنى وأنا أجد صداعاً فى رأسى، وأنا أقول: وارأساه، فقال: بل أنا والله يا عائشة؛ وارأساه. قالت: ثم قال: ما ضرك لو مُت قبلى، فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟! قالت: قلت والله لكأنى بك **لو فعلت ذلك، لرجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك**، قالت: فتبسم رسول الله ﷺ وتتام به وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استعز به

(١٥) ابن هشام: فى الروض.. سبق ذكره، ج٤، ص٢٤٦، ٢٤٧.

وهو فى بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن فى أن يمرض فى بيتى، فأذن له.. فخرج رسول الله ﷺ يمشى بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر (تؤكد الروايات أن ذلك الرجل الذى أغفلت عائشة اسمه كان عليا بن أبى طالب)، عاصبا رأسه، تخط قدماه، حتى دخل بيتى[١٦].

ورغم اشتداد الوجع، فقد لحظ سيد الخلق ﷺ أن الناس يتلكأون فى طاعة أوامره، فى بعثة أسامة على رأس الجيش إلى الروم، فخرج من بيت عائشة إلى المسجد عاصبا رأسه، وصعد حتى جلس على المنبر ثم قال:

إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله.

وفهم أبو بكر المقصود فنشج بالبكاء يقول: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فيسكته الرسول، ثم يقول مناديا:

أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمرى لئن قلتم فى إمارته، لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبل، وإنه لخليق للإمارة، كما كان أبوه خليقاً بها.

وعاد إلى بيت عائشة، وخرج أسامة بالجيش حتى نزل بالجرف على بعد فرسخ واحد من المدينة، فضرب هناك عسكره، ليبلغهم أن الوجع قد اشتد بنبيهم، فتوقفوا هناك ينتظرون ما يسفر عنه الأمر[١٧].

وهنا ننقل، فقط مجرد نقل دون أى انحياز، من الشيخ شرف الدين الموسوى رؤيته لما يحدث فى تلك الساعات الفاصلة من الزمان، فيقول بشأن أبى بكر وعمر وسائر القوم

(١٦) نفسه: ص٢٤٦، ٢٥٩.
(١٧) نفسه: ص٢٦٠.

«وقد تعلم أنهم إنما تثاقلوا عن السير أولا، وتخلفوا عن الجيش أخيراً، ليحكموا قواعد ساستهم، ويقيموا عمدها ترجيحا منهم لذلك على التعبد بالنص، حيث رأوه أولى بالمحافظة وأحق بالرعاية، إذ لا يفوت البعث بتثاقلهم عن السير، ولا بتخلف من تخلف منهم عن الجيش. **أما الخلافة فإنها تنصرف عنهم لا محالة إذا انصرفو إلى الغزوة قبل وفاته** ﷺ وكان - بأبى وأمى - أراد **أن تخلو منهم العاصمة**، فيصفو الأمر من بعده لأمير المؤمنين على بن أبى طالب على سكن وطمأنينة، فإذا رجعوا وقد أبرم عهد الخلافة وأحكم لعلى عقدها، كانوا عن المنازعة والخلاف أبعد. وإنما أمر عليهم أسامة وهو ابن سبع عشرة سنة لياً لأعنة البعض، ورداً لجماح أهل الجماح منهم، واحتياطا من الأمن فى المستقبل من نزاع أهل التنافس، لو أمر أحدهم كما لا يخفى. لكنهم فطنوا إلى ما دبر ﷺ فطعنوا فى تأمير أسامة، وتثاقلوا عن السير معه فلم يبرحوا من الجرف حتى لحق النبى بربه، فهموا حينئذ بإلغاء البعث وحل اللواء تارة، وبعزل أسامة تارة أخرى، ثم تخلف منهم عن الجيش **وفى أولهم أبو بكر وعمر**».

ويحكى لنا ذلك الشيخ ما حدث والرسول بين الحياة والموت، عن عبدالله بن عبد الرحمن «فتثاقل أسامة وتثاقل الجيش بتثاقله، وجعل رسول الله ﷺ فى مرضه يثقل ويخف، ويؤكد القول فى تنفيذ ذلك البعث، حتى قال له أسامة: بأبى أنت وأمى؛ اتأذن لى أن أمكث أياما حتى يشفيك الله تعالى، فقال: اخرج وسر على بركة الله. فقال: يا رسول الله إن أنا خرجت وأنت على هذه الحال، خرجت وفى قلبى قرحة، فقال: سر على النصر والعافية، فقال: يا رسول الله إنى أكره أن أسائل عنك الركبان، فقال: نفذ ما أمرتك به، ثم أغمى على رسول الله ﷺ وقام أسامة فتجهز للخروج. فلما أفاق رسول الله ﷺ سأل عن أسامة والبعث، فأخبر أنهم يتجهزون، فجعل يقول: أنفذوا بعث أسامة، **لعن الله من تخلف عنه**، وكرر ذلك، فخرج أسامة واللواء على رأسه والصحابة بين يديه، حتى إذا كان بالجرف نزل ومعه أبو بكر وعمر وأكثر المهاجرين، ومن الأنصار أسيد

بن حضير وبشير بن سعد وغيرهم من الوجوه. فجاءه رسول أم أيمن يقول له: ادخل فإن رسول الله يموت، فقام من فوره فدخل المدينة واللواء معه، فجاء به حتى ركزه بباب رسول الله ورسول الله قد مات فى تلك الساعة»[١٨].

ويستمر الشيخ شرف الدين فى قراءته لتلك السويعات الفاصلة فى تاريخ الدنيا، ليرى أن استبعاد أبى بكر وعمر لم يفلح، وعادا للمدينة والرسول فى النزع الأخير ومعه على بن أبى طالب، ليورد لنا ما أخرجه البخارى بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله بن مسعود عن ابن عباس قال:

> لما حُضر رسول الله ﷺ وفى البيت رجال فيهم عمر ابن الخطاب، قال النبى: **هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده**، فقال عمر: إن النبى قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا. منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبى كتابا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبى قال لهم ﷺ قوموا - قال عبدالله بن مسعود - فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم.

لكن الشيخ يؤكد أن أصحاب السنن والأخبار، قد تصرفوا فى قول عمر: «إن النبى قد غلب عليه الوجع» فنقلوه بالمعنى لأن لفظه الثابت: «**إن النبى يهجر**»، لكنهم هيئوا العبارة اتقاء لفظاعتها فى حق رسول الله[١٩].

وبعد . . . .

---

(١٨) عبد الحسين شرف الدين الموسوى: النص والاجتهاد، مؤسسة الأعلمى، كربلاء، ١٩٦١، ص٩٠، ٩٣.
(١٩) نفسه: ص١٥٥، ١٥٨.

فقد حاولنا السعى وراء أعتاب سيد الخلق المصطفى ﷺ وسيرته كما أخبرنا بها الواقع المدون فى مصادره الموثوقة، نصطفى أهم الأحداث المتعلقة بحروب دولته التى أنشأها وأقامها لعرب الجزيرة، ليتغير بها وجه العالم، وتتسق وجهة التاريخ مع خط سيرها المنطقى. وجعلنا مادة الوثائق مادة للعلم بقواعده الصارمة دون تدخل عاطفى أو وجدانى، بغرض القراءة الأقرب إلى واقع الأحداث. ولا نزعم أننا فعلنا سوى المحاولة القابلة للصواب لنحوز الأجرين، والقابلة أيضا للسقوط فى خطأ الإنسان بكل ماله وما عليه، وهو الخطأ الذى سنحوز به على ثواب الأجر الواحد. لكن الذى لا مشاحة فيه أنه لا يصح أبداً أن نضع ذلك العبد الإنسان العظيم المصطفى ضمن عظماء العالم، كما يفعل البعض، فأين هؤلاء من ذلك الإنسان المتميز على العالمين. ولا جدال أنه بعدما سردناه وقرأناه فى عملنا هذا يجب أن نخفف من غلوائنا، ونتحفظ قليلا فى إطلاق الصفات على قادة ورجال لم يصلوا أبداً إلى قامة ذلك السيد الرائع. الذى توافقت خطواته مع خطوات التاريخ، واتسقت رائعته العظمى عبر سيرها التطورى الهادىء لإقامة الدولة وتأسيس أيديولوجيتها، مع السنن الكونية. فكان عكس كل السابقين الذين حُكى لنا عن كسرهم لقواعد الكون ونواميسه بالمعجزات والملغزات، ليثبتوا نبوتهم. لقد اتسق نبى الإسلام مع كل السنن الكونية دون خلل، فكان مؤسسا للعقل فى النبوة وللنبوة فى العقل، وخاتما للنبوات، وبادئا لدور الإنسان على الأرض، وصانعا لكرامة عربية جديدة.

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، فداك أولادى وأموالى ونفسى.

صلى الله عليك وسلم، وعليك صلاتى وسلامى، وتسليمى، ولك ولرب العالمين إسلامى.

* * *

القسم الثالث

النسخ فى الوحى

مُحاولة فهم



تــأسيـس

١- قال الأئمة لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله تعالى، إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ، وقد قال على (رضى الله عنه) لقاضٍ: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت.

جلال الدين السيوطى[(١)]

٢- عن ابن عباس فى قول الله عز وجل (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً)، قال المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه...

٣- .. فمن المتأخرين من قال: ليس فى كتاب الله عز وجل ناسخ ولا منسوخ.. وهذا القول عظيم جداً، يئول إلى الكفر.

أبو جعفر النحاس[(٢)]

٤- .. وأهمية معرفة النسخ تتضح مما يأتى:

أولاً: أن أعداء الإسلام من ملاحدة ومبشرين ومستشرقين.. جحدوا وقوع النسخ وهو واقع.

ثانياً: إن الإلمام بالناسخ والمنسوخ يكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامى، ويطلع الإنسان على حكمة الله فى تربيته للخلق، وسياسته للبشرية.

ثالثاً: إن معرفة الناسخ والمنسوخ ركن عظيم فى فهم الإسلام، وفى الاهتداء إلى صحيح الأحكام.. فالمنكرون لوقوع النسخ فى القرآن الكريم.. يخالفون صريح النص القرآنى، والسنة النبوية الصحيحة وإجماع المسلمين.

د. شعبان محمد إسماعيل، وكيل الأزهر[(٣)]

---

(١) السيوطى (جلال الدين): الإتقان فى علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣، ج٢، ص٢٠.

(٢) النحاس (أبو جعفر): الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم، تحقيق د. شعبان محمد إسماعيل، مكتبة عالم الفكر، القاهرة، ١٩٨٦، ص١، ٣.

(٣) د. شعبان محمد إسماعيل: مقدمته لكتاب النحاس (الناسخ والمنسوخ)، ص ٥، ٩.

٥- لم تعد قضيتنا اليوم هى حماية تراثنا من الضياع . . إنها ليست القضية الأولى فى هذه المرحلة التى وصل فيها التهديد إلى الوجود ذاته . . حيث أصبح موقفنا اليوم هو الدفاع عن وجودنا ذاته، بعد أن أفلح العدو أو كاد فى اختراق الصفوف، فى محاولة نهائية لإعادة تشكيل وعينا، أو بالأحرى فى محاولة لسلبنا وعينا الحقيقى، ليزودنا عبر مؤسساته الثقافية والإعلامية بوعى زائف، يضمن استسلامنا النهائى لخططه، وتبعيتنا المطلقة له على جميع المستويات .

د. نصر حامد أبو زيد(٤)

* * *

(٤) د. نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص، دراسة فى علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠، ص١٦ .

ظاهرة النسخ فى الوحى

تروى كتب التاريخ الإسلامية وكتب السير والأخبار، أن النبى - ﷺ - فى المراحل الأولى من دعوته فى مكة، وبعد أن هاجر بعض أتباعه إلى الحبشة، ورأى تجنب قريش له، وأنه فى نفر قليل من أصحابه - استشعر الوحشة فتمنى قائلا: «ليته لا ينزل علىَّ شىء ينفرهم منى». كما يروى أنه قرأ سورة النجم فى المسجد الحرام أمام سادات قريش، ومعه بعض أتباعه يصلون معه، ولما وصل إلى الآيات «أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى» ١٩ , ٢٠ - النجم، يروى أنه استمر يقول: «تلك الغرانيق العلا، إن شفاعتهن لترتجى». مما أدى إلى صدى واسع النطاق، حيث أعلنت قريش رضاها عن محمد ﷺ وعما تلى من آيات، وقالت: «بلى؛ لقد عرفنا أن الله يحيى ويميت، ويخلق ويرزق، لكن هذه تشفع لنا عنده، وإذا جعلت لها نصيبا، فنحن معك». ويذكر (الطبرى) أن «المؤمنين صدقوا نبيهم فيما جاءهم عن ربهم(؟!).. فلما انتهى إلى السجدة، سجد المسلمون بسجود نبيهم، تصديقا لما جاء به واتباعا لأمره، وسجد من سجد من المشركين وغيرهم، لما سمعوا من ذكر آلهتهم، فلم يبق فى المسجد مؤمن ولا كافر إلا وسجد»[1]. وروى البخارى عن ابن عباس قوله: إن رجلا واحداً لم يسجد لكبر سنه ووهن عظمه، «إلا رجلا رأيته يأخذ كفا من تراب فيسجد عليه»[2]، وقد سمى الواقدى هذا الرجل بالاسم فى قوله «فسجد المشركون كلهم إلا الوليد بن المغيرة، فإنه أخذ ترابا من الأرض فرفعه إلى وجهه»[3]، ومعلوم أن (الوليد) كان من أشد الناس على النبى ﷺ، كما كان من ذوى الثراء بين وجهاء مكة وأشرافهما، ولا شك أن موقفه هنا بحاجة إلى بعض التأمل.

---

(١) الطبرى (ابن جرير): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ط٢, ١٩٦٠، ج٢، ص٣٣٧: ٣٤٠.

(٢) النحاس: الناسخ.. سبق ذكره، ص ١٢.

(٣) نفسه: ص ٢٢٥.

وتتابع الروايات حكايتها، فتقول: إنه كان لتلك القصة المعروفة فى التراث الإسلامى بحديث الغرانيق، صدى واسع، حتى أنه وصل إلى مسامع المسلمين المهاجرين لدى نجاشى الحبشة، فقفلوا من مهجرهم راجعين بعد أن انتفى سبب اغترابهم. لكن هؤلاء التقوا فى طريق عودتهم بركب من كنانة، أخبروهم أن النبى ﷺ ذكر شفعاء، قريش بخير فتابعوه، لدرجة أنهم صلوا صلاته، ثم ارتد عنها فعادوا لمعاداته، فبعد أن قال «أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلا، إن شفاعتهن لترتجى»، عاد يقول: إن جبريل جاءه وعاتبه قائلا: «ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به من الله عز وجل، وقلت ما لم يقل» ثم تلى «أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذن قسمة ضيزى١٩ : ٢٢- النجم»[٤].

وقد عقب القدامى والمحدثون على حديث الغرانيق لنفيه، واستهجاناً له، وللإيجاز يقول (د. شعبان محمد إسماعيل) من المحدثين: «وهذه القصة غير ثابتة لا من جهة النقل، ولا من جهة العقل»[٥]. ومن القدامى (أبو جعفر النحاس) الذى هاله أمرها، فقام يعلن: أن «هذا حديث مفظع وفيه هذا الأمر العظيم»[٦]. وقدم محقق كتابه لذلك بحجة منطقية تماما، وهى «أنه لو جوزنا ذلك، لذهبت الثقة بالأنبياء، ولوجد المارقون سبيلا للتشكيك فى الدين»[٧]، ثم أردف بما جاء عند (الواقدى) وهو يقول: «.. حتى نزل جبريل فقرأ عليه النبى هذا، فقال له: ماجئتك به!، وأنزل الله: لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا -٧٤- الإسراء»[٨].

والآية المشار إليها، «لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا» جاءت فى عتب الله تعالى على نبيه الكريم ﷺ، فى الآيات ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ **لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ**

---

(٤) الطبرى: الموضع السابق ذكره.

(٥) د. شعبان محمد إسماعيل: سبق ذكره، ص ١١.

(٦) النحاس: الناسخ.. سبق ذكره، ص ٢٢٥.

(٧) د. شعبان محمد إسماعيل: سبق ذكره، ص ١٣.

(٨) النحاس: الناسخ.. سبق ذكره، ص ٢٢٥.

وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ، وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ ٧٣ ، ٧٤- الإسراء ، ثم نجد تبريرا قرآنيا لما حدث ، لا مجال فيه لخلط أو لبس ، يوضح أن الشيطان لعنه الله ، انتهز فرصة تمنى النبى القرب من قومه ، فتدخل فى الوحى إبان تلقيه ، وألقى إليه بتلك الآيات الفظيعة ، فنسخها تعالى بالآيات الصادقة . ويعلمنا الله تعالى أن ذلك ليس أمراً جديداً ولا غريباً ، فقد كان الشيطان يفعلها مع أى نبى من الأنبياء والرسل (المكرمين) إذا تمنى أحدهم ذات الأمنية أو مثلها ، وقد جاء هذا الإيضاح المبين فى قوله جل وعلا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ ٥٢ - الحج .

ويعقب أبو جعفر النحاس الذى استفظع الأمر على تلك الأيات ، فيؤكد أنه حتى لو كان حديث الغرانيق قد حدث ، وأن الشيطان وجد الفرصة فى التمنى ، فإن النبى لم ينطق بما ألقى الشيطان ، أو كما قال : « . . فيكون التقدير على هذا : ألقى الشيطان فى تلاوة النبى ﷺ إما شيطان من الجن ، ومعروف فى الآثار أن الشيطان كان يظهر فى كثير وقت النبى ﷺ ، فألقى هذا فى تلاوة النبى ﷺ من غير أن ينطق به النبى ﷺ »[(٩)] ، ومن هنا يحتمل أن يكون مناط احتجاجه ما جاء فى آيات أخرى تقول : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ ٩٨ : ١٠٠- النحل .

هذا ما كان من أمر حديث الغرانيق ، وما كان من إيضاحات القرآن الكريم لما حدث ، ولكن ما يعنينا ونهتم به ويدخل فى إطار بحوثنا ، بعيداً عن بحوث المغيبات الدينية ذاتها ، التى لها ميدانها وفرسانها ، هو قراءة الواقع الذى حدثت فيه الحادثة ، ومعرفة الظروف التى لابستها . لنفهم كيف كان القصد من الأمر فتنة قوم فى قلوبهم مرض ، وكيف قست قلوب آخرين فتم اختبارهم وفرزهم . ، وبالإطلال على تلك الفترة الزمكانية نرى الواقع

(٩) المرجع السابق ، ص ٢٢٦ .

لم يفرز بعد عددا من الحواجز بين النبى وقومه، لكن كانت هناك حواجر قد قامت بالفعل، كانت من وجهة نظر المشركين هى الحواجز الأساسية والحاسمة. والمعلوم أن قريشا لم تكن تختلف مع المصطفى ﷺ حول المسألة العقدية الأولى لدعوته، وهى الإيمان بإله واحد يحيى ويميت يخلق ويرزق، ومصدر علمنا بذلك من القرآن الكريم ذاته، والذى شهد لهم بذلك فى عدد من الآيات المكرمة، ومن تلك الآيات ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر **ليقولن الله** فأنى يؤفكون﴾٦١-العنكبوت، ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . **سيقولون لله** قل أفلا تتقون﴾٨٦-٨٧-المؤمنون، وغير تلك الآيات بذات المعنى كثير. لكن وجه الخلاف، والحاجز الكبير، كان يتمثل فى دعوة النبى ﷺ لإسقاط شفاعة الشفعاء من أرباب العرب.

وهكذا، كان معنى أن يلغى محمد ﷺ الشفعاء، هو إلغاء الحاجز الأخير بين القبائل وبعضها، وإسقاط الرمز القوى السيادى المتماهى مع السيد الأرستقراطى هذا ناهيك عن نظرتهم إلى النبى ﷺ بحسبانه يسعى إلى إلغاء سادة القبائل من شفعاء، ليصبح هو السيد الأوحد لكل القبائل، لتنتقل له وحده الشفاعة، من حيث كونه صاحب العلاقة مع الله وليس الشفعاء ولا الكهان ولا التجار. أى صاحب القرار القاطع والنهائى الناطق باسم الله، وذلك عبر الشهادة له بأنه رسول الله، هو ما يتهدد مصالحهم التجارية جميعا بالدمار.

وفى ظل ذلك الوضع يمكن قراءة حديث الغرانيق مرة أخرى، ففى تلك الظروف، ومع مهاجرة الأتباع للحبشة، ومع قسوة الواقع ومرارته، ومع الغربة وسط الأهل، ومع الظرف النفسى الذى لابد تركته تلك الأوضاع فى النبى ﷺ، تمنى، فتدخل الشيطان، فقال ما قال، فتبعته قريش وخاصة سادتها الذين تواجدوا تلك اللحظة بالحرم. لأنه هكذا لن يمس الأمر مصالحهم، فسجدوا بسجود النبى ﷺ، وصلوا معه صلاته. وهنا كانت الفتنة المقصودة بقول الآيات ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم﴾٥٣-الحج. والقلوب كانت آنذاك بمعنى العقول، أى الذين لا يفقهون ولا

يدركون المرامى البعيدة لدعوة النبى ﷺ، تلك المرامى التى سبق أن أدركها العقلاء منهم رغم عدم إيمانهم، وأفادوهم بها، وشرحوها لهم، وهو ما لمسناه فى قول (عتبة بن ربيعة) لهم بعد أن التقى النبى ﷺ، وأدرك الأهداف الكبرى للدعوة، ولا شك أن (عتبة بن ربيعة)، وهو أحد الأرستقراطيين الكبار، قد أدرك الأبعاد الكبرى للدعوة والتى كانت تبغى توحيدهم جميعا فى دولة كبرى تناجز الروم والعجم، دون إضرار بمصالحهم التجارية، وهو ما حدث بعد ذلك بالفعل. بل، وبعد انتصار الدعوة تم تمكين هذه المصالح وتقويتها ودعمها، فالنبى بعد فتح مكه لم يضمن للمكيين مكانتهم بين العرب فقط، بل ضمن لقريش ولزعامتها مركزهما فى الإسلام. والناظر لفتح مكة بقليل من وضوح الرؤية، يكتشف أن فتح مكة لم يكن هزيمة لقريش، وهو الأمر الذى نلحظه فى تذمر الأنصار، ثم بعد ذلك عمل النبى ﷺ بنفسه على تكريس الوضع الاجتماعى القائم، عن طريق الأعطيات والإقطاعات. ثم دعم الوحى ذلك بتكريس الملكية الفردية «والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق» بل قدم عقلنة واضحة للتفاوت الطبقى كما فى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ ٧٥- النحل، ناهيك عن إعادة سر التفاوت الطبقى إلى التقدير الإلهى فى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ ١٦٥ - الأنعام.

لكن كان واضحا أن الأمر بهذا المعنى لم يصل إلى أذهان الأرستقراطيين المكيين فى ظل دعوة الإسلام الأولى للمستضعفين، فكانت فتنتهم بحديث الغرانيق، لكن توتر بعض المسلمين نتيجة ما ألقى الشيطان، وتضعضع أحوالهم المعنوية، كان لابد أن تتبعه العودة السريعة بإيضاح دور الشيطان فيما حدث. والذى كان أيضا اختباراً للمسلمين المستضعفين لإظهار مقدار الطاعة، ومدى مسارعتهم إليها، مسارعة إسماعيل إلى الذبح طاعة للأمر الإلهى. وعليه فقد جاء النسخ لما ألقى الشيطان فى الوحى، عملا إجرائيا كانت أطرافه الاعتبارية: القبلية فى جانب والوحدة المرتقبة فى جانب آخر، وأطرافه

الشخوصية هى: أهل مكة فى جانب، والنبى ﷺ فى جانب، بينما كانت أدوات هذا الجدل هى الشفعاء، والشيطان، وكلمات الله التى تمثلت فى وحى لا كالإلهام، ولا كالخاطر، ولا كالهاجس، لكنه الوحى الصادق الذى أدى دورا غنى الدلالة، ويشير بدون إبهام إلى صدوره عن فاعل واع مريد. كان الوحى هنا فعلا شعوريا يتسم بالإدارك والوعى التامين لما يحدث، ولشكل الاستجابة المطلوبة بحسب شروط الواقع وضرواته. كان وعيا بطبيعة المرحلة الآنية آنذاك، وبطبيعة المرحلة المقبلة وما سيلحقها من تحولات. لكن يثور هنا السؤال: **كيف يتحول الوحى ويتبدل، وهل يمس ذلك قدسية كلمة الله الثابتة؟** وهذا ما دعى بعد ذلك إلى نشوء مبحث هام وكبير من مباحث علوم القرآن، هو (الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم)، وهو الظاهرة التى لحظها القرشيون حتى قالوا: «ألا ترون إلى محمد، يأتى أصحابه بأمر ثم ينهاهم ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولا يرجع عنه غداً؟»، وهى ذات المقالة التى قالها اليهود اليثاربة بعد الهجرة، عندما تحول النبى ﷺ بالمسلمين فى الصلاة - عن بيت المقدس - إلى كعبة مكة[١٠]. وكان ذلك التحول والتبدل مدعاة لرد الآيات الكريمة: ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ١٠١- النحل. والمعنى أن هناك آيات تم استبدالها بأخرى، مع إشارة واضحة إلى احتساب المشركين لذلك التبديل افتراء من النبى ﷺ على الله جل وعلا، والله منه برئ. إلا أن الآيات أوضحت بلا إبهام أن من يرفضون منطق الاستبدال والتحول (أكثرهم لا يعلمون)، وهو ما دعمته الآيات بقولها: ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ ٣٩- الرعد. وهو ما يشير ليس فقط إلى الاستبدال، بل إلى محو آيات بعينها، ثم بقولها ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ ١٠٦ - البقرة.

وقد جاء عن ابن عباس من تفسير الآية «يمحو الله ما يشاء ويثبت أن الله يبدل ما يشاء من القرآن فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، وما يبدل وما يثبت إلا فى كتاب» وعن

(١٠) على حسن العريض: فتح المنان فى تفسير القرآن، مطبعة الخانجى، القاهرة، د ت، ص ٨٥، ٨٦، انظر أيضاً: القرطبى: الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، د ت، ج٢، ص ٦١.

(قتادة) عن عكرمة قال: «إن الله ينسخ الآية بالآية فترفع وعنده أم الكتاب- أى أصل الكتاب» وعن (قتادة) أيضا فى شرح الآية ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾٧- آل عمران، قال: «المحكمات هى الآيات الناسخة التى يعمل بها»[١١]، مما يشير إلى غير المحكمات التى لا يعمل بها، على ذمة (قتادة). وإزاء القول بأن الآيات، المنسوخ منها والناسخ، المعلوم لدينا أو المجهول- لنسخه أو محوه - إنما فى كتاب أزلى محفوظ هو أم الكتاب، يقول د. نصر أبو زيد: «النسخ هو إبطال الحكم وإلغائه، سواء ارتبط الإلغاء بمحو النص الدال على الحكم ورفعه من التلاوة، أو ظل النص موجودا دالا على الحكم المنسوخ، لكن ظاهرة النسخ تثير فى وجه الفكر الدينى السائد المستقر إشكاليتين يتحاشى مناقشتهما، الإشكالية الأولى: كيف يمكن التوفيق بين هذه الظاهرة بما يترتب عليها من تعديل للنص بالنسخ والإلغاء، وبين الإيمان الذى شاع واستقر بوجود أزلى للنص فى اللوح المحفوظ. والإشكالية الثانية.. هى إشكالية جمع القرآن.. ومشكلة الجمع ما يورده علماء القرآن من أمثلة قد توهم أن بعض أجزاء النص قد نسيت من الذاكرة الإنسانية.. ولم يناقش العلماء ما تؤدى إليه ظاهرة نسخ التلاوة، أو حذف النصوص سواء بقى حكمها أم نسخ أيضا، من قضاء كامل على تصورهم الذى سبقت الإشارة إليه لأزلية الوجود الكتابى للنص فى اللوح المحفوظ.. فإن نزول الآيات المثبتة فى اللوح المحفوظ ثم نسخها وإزالتها من القرآن المتلو، ينفى هذه الأبدية المفترضة الموهومة.. فإذا أضفنا إلى ذلك المرويات الكثيرة عن سقوط أجزاء من القرآن ونسيانها من ذاكرة المسلمين، ازدادت حدة المشكلة.. والذى لاشك فيه أيضا، أن فهم قضية النسخ عن القدماء لا يؤدى فقط إلى معارضة تصورهم الأسطورى للوجود الأزلى للنص، بل يؤدى أيضا إلى القضاء على مفهوم النص ذاته»[١٢].

---

(١١) ابن الجوزى (جمال الدين): نواسخ القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥، ص١٣، ١٤.
(١٢) د. نصر أبو زيد: المصدر السابق، ص١٣١, ١٤٨, ١٥٢.

لكن رغم أهمية هذه الرؤية وعلميتها، التى تحرص على الالتزام بمنهج الدراسة العلمية وشروطه، كما تحرص فى ذات الوقت على النص ومفهومه، فقد كان واضحا أنها سقطت فى شراك المنظومات القديمة وقوالبها الجاهزة، فتشابكت معها. رغم ما أبداه الأستاذ الدكتور من حذر وتحذير من سيطرة مثل تلك المنظومات والقوالب على الباحث، فى مقدمة كتابه المذكور، ورغم حرصه الشديد على التعامل مع النص القرآنى كنص أدبى، ورغم إشارته إلى ارتباط هذا النص بواقع جزيرة العرب زمن تواتر ذلك النص وحيا. إلا أن تلك الإشارة لم تفصح عمليا عن ذاتها بشكل واضح وجلى فى موضوعه عن النسخ. وإزاء تشابك تلك الرؤية مع القوالب القديمة، فإن الأستاذ الدكتور لم يمد الخيط إلى طرفه الأخير، أو بالأحرى إلى الحدود الممكنة وكانت متاحة، لولا أنه سلم مقدما بالتقسيم التقليدى لظاهرة النسخ فى القرآن الكريم. أقصد اللوحة الثلاثية التى تقول: إن هناك **(أولا) ما نسخ حكمه وبقيت تلاوته**، بمعنى أن هناك آيات فى الكتاب الكريم قائمة بلفظها، وإن بطل العمل بحكمها، بموجب آيات أخرى جاءت بحكم جديد نسخ الآيات القديمة. **و(ثانيا) ما نسخت تلاوته وبقى حكمه**، بمعنى أن هناك آيات كانت معروفة فى حياة النبى ﷺ ويعمل بحكمها، لكن فى ظروف بعينها تم نسخ تلاوتها أى لفظها أو نصها، بينما بقى حكمها معمولا به بعد وفاة النبى ﷺ، وهى الحالة التى تجد نموذجها الأمثل فى حكم الرجم على الزانى والزانية إذا ما أحصن (أى إذا كان متزوجا). أما الحالة **(الثالثة) فهى ما نسخ حكمه وتلاوته معا**، فلم يعد له وجود بين آيات القرآن الكريم، ولم يعد يعمل بحكمه أيضا. هذا بينما نجد - بنظرة مدققة - فيما جاء من أخبار، ما يفيد أن هناك أحداثا وظروفا جدت، فتفاعل معها الوحى، إضافة إلى أحداث جدت **بعد الوحى**، وذلك إبان عملية جمع القرآن، بحيث أدى هذا كله فى النهاية إلى القرآن النهائى الموجود بين أيدينا الآن (المصحف العثمانى نسبة إلى عثمان بن عفان)، ولم يأخذ المجتهدون فى التعامل مع ظاهرة النسخ تلك الأحداث والظروف بحساباتهم، رغم إشارتهم لها، وذلك نتيجة الإصرار على التعامل مع القرآن الكريم كنص أزلى الوجود، مما انتهى بهم إلى

اختراع اللوحة الثلاثية. ومن هنا سنحاول فهم واقع الحال مرة أخرى، مرتبطا بمراحل تواتر الوحى، ومن خلال الإشارات والشذرات والشهادات التى قدمها علماؤنا القدامى، والتى تشير إلى ما حدث خلال ثلاثة وعشرين عاما، استغرقها تواتر الوحى القرآنى، وكانت كفيلة بالتعامل معه كنص تاريخى، إضافة لكونه نصا عقديا وأدبيا.

ولقد كان تواتر الوحى خلال تلك الفترة الزمنية، مفرقا ومنجما، تواصلا مستمراً مع الواقع آنذاك، وتفاعلا مع المستحدثات الظروفية، وهو ما كان معترض المشركين الأساس، والذى سجلته الآيات الكريمة فى قولها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ ٣٢- الفرقان، وهى حجة تتسق مع الرؤية المثالية لمفهوم الألوهية ومفهوم النبوة، حيث يتسم فيها الله بالثبات المطلق، وبحيث تثبت كلماته دفعه واحدة، فلا تتبدل ولا تتغير، بحسبان كلام الله ثابتاً ثبات ذاته. وهى ذات الرؤية التى استندت إليها قراءة السالفين من علماء المسلمين فى الكتاب الكريم، دون أن يلتفتوا إلى أن ذلك يمكن- بالفعل- أن يدمر مفهوم النص ذاته، بحسب ما نبه إليه (د. نصر أبو زيد). هذا بينما، كانت سيولة القرآن الكريم، وتدفقه على مراحل حسب المناسبة والظروف، مطابقة مستمرة ودائمة بالمتغير الموضوعى، بحيث لم يُترك النبى وبين يديه نص أولى أزلى واحد، يواجه به الواقع الذى لا يتوقف عن التغاير، ومن هنا استكملت الآيات إيضاحها فى قولها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ ٣٢- الفرقان.

لقد تحولت النبوة عن نهج الإبهار بالإعجاز الساحر، فلم تأخذ بعصا سحرية تفعل الأعاجيب، ولا بتمتمات تحيى الموتى، وإنما أصبحت فرزاً صادقا يتطابق مع واقعها الزمكانى، وهو ما جعل الوحى بالنسبة للنبى محمد ﷺ يختلف عن الوحى الإيهامى والإلهامى. لقد تحول باليقين إلى الواقع ليتفاعل معه، يقرأ الواقع، ويجيب على أسئلته، ويساهم فى حل إشكالياته، يرتبط بالأرض ومصالح ناسها ومطالبهم، بحسبان الناس

وليس السماء هم هدفه الرئيسى، بحيث أصبح الناس المتغيرون بتغير أحداث الواقع عنصراً أساسيا فى مجيئ الوحى مفرقا ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ ١٠٦- الإسراء.

وإعمالا لما سبق، ولأن عمل (د. نصر) - بحساباتنا- عمل رائد لإعادة فتح البحث حول هذا الأمر، فقد رأينا دفع الموقف حول اللوحة الثلاثية، ليس تسليما بها ولا بمنهج الدكتور نصر فى تعامله معها واعترافه بها، إنما لبيان الأسباب التى أدت إلى كل حالة من حالات تلك القسمة الثلاثية، أو بالأحرى: **اختراعها اختراعا**.

ما نسخت تلاوته وبقى حكمه

عن مالك بن أنس عن شهاب عن عبيد الله بن عبدالله بن عباس، عما حدث فى خلافة عمر، قال: «جلس عمر على المنبر، فلما سكت المؤذن، قام فأثنى على الله بما هو أهل له، ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإنى قائل مقالة قد قدر لى أن أقولها، ولا أدرى لعلها بين يدى أجلى، فمن وعاها وعقلها فليحدث بها حيث انتهت راحلته، ومن لم يعها فلا أحل له أن يكذب على الله عز وجل: بعث الله محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها وعقلناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان، أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم فى كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، **فالرجم فى كتاب الله حق**، على من زنى إذا أحصن، من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف، ألا إنا كنا نقرأ: **لا ترغبوا عن آبائكم، فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم**»(١٤).

وفى رواية عُيينة عن الزهرى: «وأيم الله لولا أن يقول قائل: زاد عمر فى كتاب الله، لكتبتها»، وعن يحيى عن سعيد ابن المسيب، أن عمر بن الخطاب قال: «أيها الناس، قد

سنت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتكم على الواضحة، ألا تضلوا بالناس، يمينا أو شمالا، وآية الرجم لا تضلوا عنها، فإن رسول الله ﷺ قد رجم ورجمنا، وإنها نزلت وقرأناها: **الشيخ والشيخة إذا زنيا، فارجموهما البتة**، ولولا أن يقال: زاد عمر فى كتاب الله، لكتبتها بيدى». وفى رواية (زر) أن الآية كانت «**إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة، نكالا من الله والله عزيز حكيم** »[١٤]، وعن أبى إمامة بن سهل، أن خالته قالت: «لقد أقرأنا رسول الله آية الرجم: **الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا اللذة**»[١٥]. وروى الزهرى عن عبدالله بن عباس قال: «خطبنا عمر بن الخطاب قال: كنا نقرأ الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة.. قال: ولولا أنى أكره أن يقال: زاد عمر فى القرآن لزدته»[١٦].

لدينا هنا حالة واضحة جلية، لإحدى الحالات التى تم تصنيفها ضمن المنسوخ فى القرآن الكريم، وتحديداً ضمن (ما نسخ تلاوته وبقى حكمه)، وقد أخذ (جلال الدين السيوطى) بتبرير لذلك الأمر يقول: «أجاب صاحب الفنون، أن ذلك ليظهر **مقدار طاعة هذه الأمة** فى المسارعة إلى بذل النفوس، بطريق الظن من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به، فيسرعون بأيسر شىء **كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام**»[١٧]. وربما ذهب الفقهاء إلى أن الحالة الموجودة هنا «الشيخ والشيخة.. إلخ» من نوع (ما نسخ تلاوته وبقى حكمه)، استناداً إلى مقالة عمر بن الخطاب، وتواتر معنى الآية المنسوخة بين الرواة (وإن تبدل لفظها لقدم العهد، ولعدم تدوينها فى القرآن المجموع) وإلى كون حكم الرجم قد عمل به أيام الرسول ﷺ ومن بعده.

لكن لدينا بالقرآن الكريم بشأن حكم الزنى الآيات ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ

(١٤) ابن الجوزى: المصدر السابق، ص ٣٥.
(١٥) السيوطى: سبق ذكره، ج٢، ص٢٥.
(١٦) النحاس: سبق ذكره، ص ٨.
(١٧) السيوطى: سبق ذكره، ج٢، ص ٢٤، ٢٥.

يجعل الله لهن سبيلا، واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما﴾١٥، ١٦- النساء، هذا إضافة لآية الجلد ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾٢- النور، ومع ذلك، فقد ذهب العلماء إلى الاتفاق على نسخ حكم الآيات «واللاتى يأتين الفاحشة . . » ، رغم تدوينها فى القرآن الكريم، واحتسبوها مما نسخ حكمه وبقيت تلاوته، بينما أبقوا على حكم آيات غير موجودة فى كتاب الله المجموع بين أيدينا (الشيخ والشيخة . .) باحتسابها مما نسخت تلاوته وبقى حكمه. فأثبتوا حكم الرجم - استنادا إلى أحاديث نبوية، تدخل فى أصول الفقه فيما يذهبون- وذلك بالنسبة لمن يحصن، مع إثبات حكم الجلد لمن لم يحصن. ويجمل أبو جعفر النحاس موقف العلماء بهذا الشأن فى قوله: «فمنهم من قال: كان حكم الزانى والزانية إذا زنيا وكان ثيبين أو بكرين، أن يحبس كل واحد منهما فى بيت حتى يموت، ثم نسخ هذا بالآية الأخرى وهى: واللذان يأتيانها منكم فآذوهما، فصار حكمها أن يؤذيا بالسب والتعيير، ثم نسخ ذلك فصار حكم البكر من الرجال والنساء أن يجلد مائة ويرجم حتى يموت . . والقول الثانى: إنه إذا كان حكم الزانى والزانية إذا زنيا أن يحبسا حتى يموتا، وحكم البكرين يؤذيا . . والقول الثالث، أن يكون عز وجل قال: واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم، عاماً لكل من زنت من ثيب وبكر، وهذا قول مجاهد، وهو مروى عن ابن عباس، وهو أصح الأقوال»[١٨] ، وإذا كان القول الثالث عند النحاس هو أصح الأقوال، وهو بالفعل الأرجح فى منطوق الآيات «واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم»، «واللذان يأتيانها منكم»، فقد كان يعنى أن الآيات جعلت للزناه من الرجال حكما يختلف عن حكم الزناة من النساء. ثم لما كانت آية الرجم، انتهى الأمر فى بعض الأحيان إلى محاولة تطبيق الحدود على اختلافها، فى محاولة لتحاشى الإثم فى التطبيق. وربما كان ذلك ما دفع (على بن أبى طالب- رضى الله عنه) لجلد (سراحة) مائة، ثم رجمها بعد جلدها، وتعقيبه

(١٨) أبو جعفر النحاس: سبق ذكره، ص١١٧، ١١٨.

التبريرى «جلدتها بكتاب الله عز وجل، ورجمتها بسنة رسوله ﷺ»[١٩]. هذا بينما ذهب جماعة العلماء إلى أن حكم الثيب الزانية الرجم بلا جلد، واحتجوا بأن الجلد منسوخ عن المحصن بالرجم[٢٠]، وهذا بدوره يستند إلى السنة فى قول ابن عباس: «قال رسول الله ﷺ لماعز بن مالك: أحق ما بلغنى أنك وقعت على جارية بنى فلان؟ قال: نعم، فشهد أربع شهادات، ثم أمر به فرجم»[٢١]. كذلك قوله ﷺ: «أُغد يا أنيس على امرأة هذا، فإن اعترفت بالزنا فارجمها»، ولم يذكر الجلد، فدل ذلك على نسخه، فيما يذهب إليه قول أبى جعفر النحاس[٢٢].

وتبقى محاولة فهم ما فرضه واقع الحال بشأن نسخ تلاوة «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة.. إلخ»، لكن مع بقاء حكم الرجم قائما، دون سند فى آيات القرآن المجموع بين أيدينا، والأسباب التى دعت إلى وضع باب للنسخ عرف بـ(ما نسخ تلاوته وبقى حكمه)، لإدراجها ضمنه. والمعلوم أنه إذا نسخت آية من الآيات الكريمة، كان لابد من آية أخرى بديلة تحل محلها، تحمل الحكم الجديد، وذلك حسب نص الآيات «وما نسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها». والمعلوم أيضا أن لدينا فى آيات القرآن الكريم الحكم المذكور فى الآيات «واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم..» وحكمها الحبس للنساء حتى الموت، أو حتى يجعل الله للمحكوم عليه فرجا، والإيذاء بالسب والتعيير للرجال، وذلك حسب التقديرات المرجحة لقراءة الآيات. ثم لدينا الآية «الزانية والزانى..»، وحكمها الجلد مائة جلدة، لكن وضع باب (ما نسخ تلاوته وبقى حكمه) أبقى آية الرجم قائمة بحكمها، بحيث أصبحت ناسخة لحكم الحبس والإيذاء، واستمرت إلى جوار حكم الجلد، وانتهى الأمر إلى تصنيف آية الرجم للمحصن، وآية الجلد لغير المحصن.

---

(١٩) نفسه: ص١١٩.

(٢٠) نفسه: ص١٢٠.

(٢١) البخارى وأبو داود: كتاب الحدود، باب رجم ماعز.

(٢٢) النحاس: سبق ذكره، ص ١٢٠.

وقد قدم السيوطى تفسيراً لنسخ تلاوة آية الرجم بقوله: «.. إن سبب التخفيف على الأمة بعدم اشتهار تلاوتها وكتابتها فى المصحف- وإن كان حكمها باقيا- **لأنه أثقل الأحكام وأشدها، وأغلظ الحدود**»[٢٣]، وعليه فالسيوطى يطرح تأويله لنسخ التلاوة لأن الحكم فى الآية هو أشد الأحكام وحكمها أغلظ الحدود، لكن الغريب أنه يقول ما قال سلفه من العلماء وهو (أن حكمها باق)؟ **فإذا كانت العبرة من النسخ هى غلظ الحد وقسوته أفلا يكون نسخ الحكم بدوره هو الأكثر منطقية؟**

ثم شذرة أخرى تشير إلى دور الواقع فيما حدث بشأن آية الرجم، تقول إن (أُبى بن كعب) وقف يُذكّر (عمر بن الخطاب) بما حدث بشأن آية الرجم، التى أصر عمر على استمرار العمل بحكمها بعد رسول الله ﷺ، فيقول له: «أليس أتيتنى وأنا أستقرئها رسول الله ﷺ (أى أستأذنه فى كتابتها)، فدفعت فى صدرى وقلت: تستقرئه آيه الرجم، **وهم يتسافدون تسافد الحمر**»[٢٤]. هذا بينما أوضح (ابن حجر) ما ليس فيه لبس بقوله: «وفيه إشارة إلى بيان **السبب فى رفع تلاوتها، وهو الاختلاف**». مع ملاحظة استخدام (ابن حجر) اصطلاح (رفع) بدلا من (نسخ)، مما يشير إلى حيرته بشأن القول الدقيق فى شأنها، ومدى دقة تطابقها مع اصطلاح (نسخ). أما (ابن الحصار) فقد وقف يتساءل دهشا إزاء القول بنسخها مع الاستمرار فى العمل بحكمها، مع وجود آيات أخرى يمكن احتسابها ناسخة لها، لكنها لم تحتسب كذلك، فيقول: «**كيف يقع النسخ إلى غير بدل**، وقد قال تعالى: ما ننسخ من آية أو ننسها، نأت بخير منها أو مثلها؟!»[٢٥].

والغريب أن (عمر بن الخطاب) ذاته، قد قال بشأن آية الرجم: «لما نزلت أتيت النبى ﷺ فقلت: أكتبها؟ فكأنه كره ذلك!! فقال عمر: ألا ترى أن الشيخ إذا زنى ولم يحصن جلد، وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم؟!». وهى ذات الحجة التى ساقها بعد ذلك

(٢٣) السيوطى: سبق ذكره، ج٢، ص ٢٦.
(٢٤) نفسه: ص ٢٦، ٢٧.
(٢٥) نفسه: ص ٢٧.

(زيد بن ثابت)، الذى كتب المصحف المجموع بأمر الخليفة (عثمان بن عفان)، عندما سأله (مروان ابن الحكم): «ألا تكتبها فى المصحف ؟ قال: ألا ترى أن الشابين الثيبين لا يرجمان»[26].

ومن هذه الإشارات، نرى (ابن حجر) عندما يستخدم اصطلاح (رفع) بدلا من (نسخ)، يشير إلى عدم قناعته، بأن اختفاء آية الرجم من القرآن الكريم، لا يعنى تصنيفها ضمن المنسوخ. فاستخدم اصطلاح (رفع)، إزاء وقائع تقول إنها لم تكتب أصلا حتى فى زمن المصطفى ﷺ، فقد كره أن يسمح لعمر بكتابتها، كما فى قول (عمر)، وأن (عمر) كان من أول المعترضين على تدوينها، فدفع فى صدر (أبى ابن كعب) مشيراً إلى تفشى التسافد بين الناس كتسافد الحمر، والمرجح أن كتابتها كانت تعنى ابتعاد الناس وهم على تلك الحال عن الإسلام، لشدة الحكم وغلظته. ومن ثم كان لتلك الظروف والحجج دور واضح لعدم وجود أى تدوين لآية «الشيخ والشيخة إذا زنيا» فى أى من الرقاع والصحف، بحيث ظلت غير مدونة حتى زمن التدوين العثمانى، حيث استبعدها (زيد بن ثابت) بدوره كما فى روايته مع (مروان بن الحكم)، فجاء المصحف العثمانى خلواً منها. لكن الإصرار على العمل بحكمها، كان فيما يبدو، مدعاة لنشوء باب (ما نسخ تلاوته وبقى حكمه)، لتندرج ضمنه، وبذلك لم يعد حكم الجلد بديلا لحكمها، وبحيث بدا الأمر غير منطقى فى رأى (ابن الحصار). هذا بينما وقف (د. نصر أبو زيد) يلح فى التنبيه، على أن «المهم فى تحديد الناسخ من المنسوخ، هو ترتيب النزول لا ترتيب التلاوة فى المصحف. ومعنى ذلك أن تحديد الناسخ من المنسوخ فى آيات القرآن يعتمد أساسا على معرفة تاريخية دقيقة بأسباب النزول، وبترتيب نزول الآيات»[27]، **أى أن المعتبر هو تاريخية النص فى علاقته الزمنية المتحركة، بحركة الواقع المتحول دوما.**

---

(٢٦) المرجع السابق: ص ٢٦.

(٢٧) د. نصر أبو زيد: سبق ذكره، ص ١٣٥.

وللمطالع أن يلحظ أن (عمر بن الخطاب)، صاحب الخطاب الأشهر فى الإصرار على العمل بحكم آية غير موجودة فى المصحف، ولم تُكتب أصلا، كان هو صاحب حجتين فى عدم كتابتها: الحجة الأولى واقع الناس وهم يتسافدون تسافد الحمر، والثانية موقف الشاب المحصن والشيخ غير المحصن من تطبيق حد الزنا. أما الأمر الأوضح دلالة فهو فيما ورد بلفظ القاضى (أحمد) الشهير بابن خلكان، فى كتابه وفيات الأعيان، وهى رواية هامة توضح موقف عمر بن الخطاب بعد أن أصبح خليفة، من تطبيق حد الرجم على (المغيرة بن شعبة). فى رواية القاضى أحمد، التى يلخصها لنا الإمام شرف الدين الموسوى تحت عنوان: درؤه الحد عن المغيرة بن شعبة «وذلك حيث فعل المغيرة مع الإحصان، ما فعل مع أم جميل بنت عمرو، إمرأة من قيس، فى قضية من أشهر الوقائع التاريخية فى تاريخ العرب، كانت سنة ١٧ للهجرة. لا يخلو منها كتاب اشتمل على حوادث تلك السنة، وقد شهد عليه بذلك كل من أبى بكرة وهو معدود من فضلاء الصحابة وحملة الآثار النبوية، ونافع ابن الحارث وهو صحابى أيضا، وشبل بن معبد. وكانت شهادة هؤلاء الثلاثة صريحة، بأنهم رأوا **المغيرة بن شعبة يولجه فى أم جميل إيلاج الميل فى المكحلة**، لا يكنون ولا يحتشمون، ولما جاء الرابع وهو زياد بن سميلة يشهد أفهمه الخليفة رغبته فى ألا يخزى المغيرة، ثم سأله عما رآه فقال: رأيت مجلسا، **وسمعت نفسا حثيثا وانتهازاً ورأيته مستبطنها**، فقال عمر: أرأيته يدخله ويخرجه كالميل فى المكحلة؟ فقال: لا، لكنى **رأيته رافعا رجليها فرأيت خصيتيه تتردد إلى ما بين فخديها، ورأيت حفزاً شديداً وسمعت نفسا عاليا**، فقال عمر: أرأيته يدخله ويخرجه كالميل فى المكحلة؟ فقال: لا، فقال عمر: **الله أكبر**، قم يا مغيرة إليهم فاضربهم، فقام يقيم الحدود على الثلاثة»[(٢٨)] (؟!)

وهناك مرويات أخرى، بخصوص آيات أخرى، وموضوع آخر، تجد نفسك فى حيرة من أمر تصنيفها، حسب اللوحة الثلاثية، فإن اعتمدت روايات بعينها صنفتها ضمن ما

---

(٢٨) عبد الحسين شرف الدين الموسوى: النص والاجتهاد، مؤسسة الأعلمى، كربلاء، ط٤، ١٩٦٦، ص ٢٥٩، انظر أيضا ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج٧، ص٨٣، ٨٤.

نسخ تلاوته وحكمه، وإن اعتمدت روايات أخرى صنفتها ضمن ما نسخ تلاوته وبقى حكمه، وهو ما يؤدى بالضرورة إلى الخبط وسوء التقدير. وهو ما يتمثل فى رواية السيدة (عائشة- رضى الله عنها) حيث تقول: «كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات، فنسخن بخمس معلومات، **فتوفى الرسول ﷺ وهى مما يقرأ فى القرآن**»(٢٩). والأمر يعنى تحديداً التحريم القائم على الرضاعة بعدد الرضعات، وهو من اللون الذى يصنفه السيوطى فى باب (ما نسخ حكمه وتلاوته معا). رغم أنه لو أخذنا بحديث السيدة (عائشة)، وبالتصنيفات على اللوحة الثلاثية، لأدرجناه ضمن باب (ما نسخ تلاوته وبقى حكمه). ووجه الإشكال فى تصنيفه أصلا ضمن (المنسوخ) أيا كان نوعه، **أن النسخ كان لابد من وقوعه فى عهد الرسول ﷺ نفسه، بينما السيدة (عائشة رضى الله عنها) تؤكد أن الرسول قد توفى وتلك الآية مما يقرأ فى القرآن**، وهو ما دفع أبا موسى الأشعرى إلى اللجوء لاصطلاح (رفعت) فى قوله التأويلى إنها **نزلت ثم رفعت**(٣٠). أما حال بقية العلماء فيصوره لنا أبو جعفر النحاس بقوله: «فتنازع العلماء هذا الحديث.. فمنهم من تركه، وهو مالك بن أنس.. وقال رضعة واحدة تحرم،.. وممن تركه أحمد ابن حنبل وأبو ثور، قالا يحرم ثلاث رضعات، لقول النبى ﷺ: لا تحرم المصة ولا المصتان»(٣١)، بينما أعلن (مكى) دهشته الكاملة فى قوله: «**هذا المقال فيه غير المنسوخ غير متلو، والناسخ أيضا غير متلو، ولا أعلم له نظيراً**»(٣٢).

ويؤكد العلماء أن السيدة (عائشة - رضى الله عنها) ظلت على موقفها «.. فقالوا: لم تزل عائشة تقول برضاع الكبير»(٣٣)، وهو ما يتعلق بما جاء فى صحيح مسلم بشرح

---

(٢٩) أخرجه مسلم فى صحيحه بشرح النووى، طبعة دار الشعب، ٤/ ١٦٧.
(٣٠) السيوطى: سبق ذكره، ج٢، ص ٢٥.
(٣١) النحاس: سبق ذكره، ص ١٠.
(٣٢) د. شعبان محمد إسماعيل: سبق ذكره، ص ٤١.
(٣٣) النحاس: سبق ذكره، ص ١٢٥.

النووى (١/ ٢٩) وأورده ابن الجوزى، عن (عائشة رضى الله عنها) قالت: «لقد نزلت آية الرجم ورضعات الكبير عشر، وكانت فى ورقة تحت سرير بيتى، فلما اشتكى رسول الله ﷺ (مرض) تشاغلنا بأمره، **فأكلتها ربيبة لنا** (تعنى الشاة) فتوفى رسول الله ﷺ وهى مما يقرأ فى القرآن»[٣٤]. وهكذا فقد ساوت تلك الآية فى التحريم من الرضاعة، بين الكبير والصغير، على أنها حددت بعدد معلوم من الرضعات. وممن أخذ بإصرار السيدة عائشة (أبو موسى الأشعرى) و(الليث بن سعد)[٣٥]. وهو ما إن أخذناه على ظاهره، لأدرج ضمن (ما نسخ تلاوته وبقى حكمه)، أما لو نظرنا إلى ما حدث فى الواقع، فيفسره قول السيدة (عائشة رضى الله عنها): «فأكلتها ربيبة كانت لنا». أما لو ذهبنا إلى ترك حديثها، مع تصنيف الآية ضمن (ما نسخ حكمه وتلاوته) لبقيت أسئلة حيرى: **هل تم ذلك النسخ قبل أن تأكلها الشاة؟ أم بعد أن أكلتها؟ أم أنها احتسبت منسوخه لأنها لم تكن فى صحف القرآن المجموع، لأن الشاة أكلتها؟**.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد ظرف الواقع يجعل تلك الآية مستمرة فى العمل بحكمها، رغم ما لحق بها من ظروف أدت لعدم وجودها بالمصحف المجموع، فقد كانت هناك إشكاليات تحتاج إلى حل تشريعى. وهو ما جاء نموذجا فى قول السيدة (عائشة رضى الله عنها): «جاءت سهلة ابنة سهيل إلى رسول الله ﷺ - فقالت: إنى أجد فى وجه أبى حذيفة (زوجها، أى تجده مستاء) إذا دخل علىّ سالم، قال النبى ﷺ: فأرضعيه، قالت: وكيف أرضعه وهو رجل كبير؟ قال: ألست أعلم أنه رجل كبير؟ ثم جاءت بعد ثم قالت: والله يا رسول الله ما عدت أرى فى وجه أبى حذيفة بعد شيئا أكرهه» رواه مسلم وأبو داود[٣٦]. وعليه فقد عملت السيدة عائشة بذات السبيل، فقال عروة: «إن عائشة كانت تأمر أختها أم كلثوم، وبنات أخيها، أن يرضعن من أحبت أن يدخل عليها من الرجال»،

---

(٣٤) ابن الجوزى: سبق ذكره، ص ٣٧.
(٣٥) النحاس: سبق ذكره، ص ١٢٣.
(٣٦) نفسه: ص ١٢٤.

رواه مالك. ويقول (د. شعبان محمد إسماعيل) : «وحجتهم حديث سهلة هذا، **وهو حديث صحيح لاشك فى صحته**، ويدل عليه أيضا قوله تعالى : وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة. فإنه غير مقيد بوقت»[٣٧]. والأمر بذلك يدل على ضرورة، فرضها استفتاء المؤمنين لأم المؤمنين فى شئون دينهم، فكان لقاءها بالرجال مشروطا بذى محرم، وهى الإشكالية الموضوعية التى وجدت حلها فى القول برضاع الكبير، والاستمرار فى العمل به، وإصرار السيدة (عائشة رضى الله عنها) عليه. وهكذا يكون **وضع آية رضاع الكبير هو ذات وضع آية رجم الشيخ ولا وجود لهما فى كتاب الله الكريم، ليس لأنهما نسختا، وإنما لأن الأولى أكلتها الشاة بينما الثانية، لم تكتب أصلا، والظرف الموضوعى شاهد**، ويشير إلى أن وضع باب فى النسخ بعنوان (ما نسخ تلاوته وبقى حكمه) من باب التأول بغير سند، اللهم إلا الخلط مرة مع السنة باحتسابها من عوامل النسخ، ومرة للعمل ببعض عمل (عمر) وليس كله، ومرة للأخذ بحديث زوجات دون زوجات من أمهات المؤمنين. أما الأساس فهو العمل وفق حوار النص ونفسه وليس حواره مع الواقع، بينما يمكن للواقع أن يكون فاصلا تماما فى هذا الشأن، وهو ما نسعى إلى التنبيه إليه، ونلح فى طلبه. والملاحظ فى الحالتين المعروضتين هنا تعلقهما بشرائع، وبشأن الشرائع ونسخها فى كتاب الله العزيز بوجه عام لحظ الإمام الزمخشرى أمراً له قيمته حيث يقول : «والله تعالى **ينسخ الشرائع لأنها مصالح، وما كان مصلحة أمس، يجوز أن يكون مفسدة اليوم، وخلافه مصالح**. . وكانوا يقولون : إن محمدا يسخر من أصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً، فيأتيهم بما هو أهون، ولقد افتروا. فقد كان ينسخ الأشق بالأهون، والأهون بالأشق والأشق بالأشق والأهون بالأهون، لأن الغرض المصلحة، لا الهوان والمشقة. . **إن التبديل من باب المصالح كالتنزيل، وإن ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة فى خروجه عن الحكمة**»[٣٨]. وقد ذهب ذات المذهب فى التأكيد على عامل

(٣٧) د. شعبان محمد إسماعيل : سبق ذكره، (فى الحاشية)، ص ١٢٤.

(٣٨) الزمخشرى : الكشاف، ٢/٤٢٨.

(المصلحة) فى النسخ، الإمام الألوسى، لكنه مال إلى رأى من قالوا : إن التبديل يأتى بالأهون، بعد أن قدم له المبررات، وذلك من قوله: إن الناسخ فى تلك الحال « . . لابد أن يكون مشتملا على مصلحة خلا منها الحكم السابق، **لما أن الأحكام إنما تنوعت للمصالح، وتبدلها منوط بتبديلها حسب الأوقات، فيكون الناسخ خيرا منه فى النفع، سواء كان خيرا منه فى الثواب أو مثلا له، أو لاثواب فيه أصلا** . . والحاصل أن المماثلة فى النفع لا تتصور، لأنه على تبديل الحكم تبتدل المصلحة، فيكون خيراً منه، وعلى تقدير عدم تبدله، فالمصلحة الأولى باقية على حالها»(٣٩) .

وإذا كنا قد قلنا من قبل إن الآيتين (الرجم ، ورضاعة الكبير) ، ربما لم تكونا من قبيل المنسوخ، فإنما نقصد بالمنسوخ المتعارف عليه اصطلاحا بشروط بعينها، وإن كان ينسحب عليها اجتهاد الزمخشرى والألوسى، فالأولى لم تكتب والثانية أكلتها الشاة، بتقدير حساب المصالح، والمنافع، والزمن (حسب الأوقات). وإن كان ذلك لا يعنى رفضنا للقول بالنسخ فى القرآن الكريم، لأن مثل ذلك القول يئول إلى الكفر والعياذ بالله، ونحن على نعمة الإيمان حريصون، ولا يمكننا أن نفرط فيها. فقط نضع اجتهاداً من باب محاولة الفهم، ربما أصاب وربما أخطأ، والمنوط فى الأمر جميعه صدق النوايا وسلامة الإيمان وهو ما نحمد الله عليه حمداً كثيراً .

ما نسخ حكمه وبقيت تلاوته

يقول (د. محمد على الصغير): إن الوحى قام يجابه الفضوليين على الرسول ﷺ «الذين كانوا يأخذون عليه راحته، ويزاحمونه وهو فى رحاب بيته بين أفراد عائلته وزوجاته، فينادونه باسمه المجرد، ويطلبون لقاءه دون موعد مسبق . . إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون». وهو بذلك إنما يشير إلى تغير الواقع وتبدله، بعد

(٣٩) الألوسى : روح المعانى : ١٢/ ٣٥٣ .

أن هاجر المصطفى ﷺ من مكة إلى المدينة، وبعد أن مر زمان استتبت فيه الأركان للدعوة وصاحبها، وأصبح هناك أصول وبروتوكول يجب اتباعه فى التعامل مع النبى ﷺ، ولم يعقلها ويعها أولئك الذين ظلوا يتصورون بالإمكان مناداته من خارج بيته (يا محمد).
ويتابع (د. الصغير) القول: «واستأثر البعض . . بوقت القائد، فكانت الثرثرة والهذر وكان التساؤل والتنطع، دون تقدير لملكية هذا الوقت، وعائدية هذه الشخصية، فحد القرآن من هذه الظاهرة . . وعالجها بوجوب دفع ضريبة مالية تسبق هذا التساؤل أو ذلك الخطاب، فكانت آية النجوى - يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة، ذلك خير لكم وأطهر، فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم - ١٢ - المجادلة» . . فأمتنع الأكثرون عن النجوى، وتصدق من تصدق، فسأل ووعى وعلم وانتظم المناخ العقلى . . ولما وعت الجماعة الإسلامية مغزى الآية . . نسخ حكمها ورفع، وخفف الله عن المسلمين بعد شدة . . فى آية النسخ : أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات، فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأطيعوا الله ورسوله، والله خبير بما تعملون -١٣ - المجادلة»(٤٠).

والحالة التى بين أيدينا هنا واقع حى يتحدث ويفعل، فيتفاعل معه الوحى منفعلا وفاعلا، ويتهرب المتسائلون من لقاء النبى إشفاقا من نفقات يدفعونها ضرائب للسؤال والتعلم، فيعود الوحى يجمعهم مرة أخرى، مسقطا عنهم ضريبة العلم، مبقيا على الصلاة والزكاة، مع شرط طاعة الرسول ﷺ . وهكذا نجد آية النجوى وقد نسخ حكمها بآية ناسخة، بينما بقيت التلاوة قائمة فى القرآن الكريم غير منسوخة. وفى تفسير الخازن أمثلة أخرى لهذا الوجه من وجوه النسخ حيث يقول : «وهو كثير فى القرآن، مثل آية الوصية للأقربين نسخت بآية الميراث عند الشافعى، وبالسنة عند غيره. وآية عدة الوفاة بالحول نسخت بآية (أربعة أشهراً وعشرا). وآية القتال : إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، نسخت بقوله تعالى : الآن خفف الله عليكم وعلم أن فيكم ضعفا، ومثل

(٤٠) د. محمد حسين الصغير : تاريخ القرآن، الدار العلمية، بيروت، ١٩٨٣ .

هذا كثير»[41]. وقال ابن العربى «كل ما فى القرآن من الصفح عن الكفار والتولى والإعراض والكف عنهم منسوخ بآية السيف، وهى : إذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين، الآية نسخت مائة وأربعا وعشرين آية».[42] لكن السيوطى يشير إلى إشكالية ضمن إشكاليات تثور فى نسخ آية السيف لآيات الصفح والتولى والإعراض فى قوله «قال تعالى : أليس الله بأحكم الحاكمين، قيل إنها مما نسخ بآية السيف وليس كذلك، لأنه تعالى أحكم الحاكمين أبدا، لا يقبل هذا الكلام النسخ، وإن كان معناه الأمر بالتفويض وترك المعاقبة»[43].

والمعلوم أنه عندما جمع المصحف زمن (عثمان بن عفان - رضى الله عنه)، **تم جمع كثير من الآيات المنسوخة إلى جوار الآيات الناسخة**، وهذا هو الواقع الذى فرض إنشاء باب فى النسخ بعنوان (ما نسخ حكمه وبقيت تلاوته)، وهو الواقع الذى أدى إلى ظهور كثير من الآيات بمظهر التضارب والتناقض، وليس الأمر كذلك، إنما الأمر يعود إلى واقع حدث الجمع، فالقرآن الكريم لا يحمل تناقضا ولا تضاربا، ومثالا لحالات التناقض الظاهرى أمثلة نسوقها فى عدة نماذج :

النموذج الأول : الآيات المتعلقة بالكتب السماوية السابقة على كتاب الله العزيز :

﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ﴾	٤٣ - المائدة
﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾	٤٤ - المائدة
﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾	٤٧ - المائدة
﴿ الإنجيل فيه هدى ونور ﴾	٤٦ - المائدة
﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ﴾	٤٨ - المائدة

(٤١) الخازن : لباب التأويل فى معانى التنزيل، ١/ ٩٤.
(٤٢) السيوطى : سبق ذكره، ج٢، ص٢٤.
(٤٣) نفسه : ص ٢٢.

وهى الآيات التى يقابلها آيات أخرى تقول :

﴿ من الَّذين هادوا يحرِّفون الكلم عن مواضعه ﴾ ٤٦- النساء

﴿ يحرِّفون الكلم عن مواضعه ﴾ ١٣ - المائدة

﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ﴾ ٧٥ - البقرة

النموذج الثانى : الآيات المتعلقة بأصحاب الديانات الكتابية :

﴿ إنَّ الَّذين آمنوا والَّذين هادوا والنَّصارىٰ والصَّابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ٦٢- البقرة

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاَّ بالَّتي هي أحسن ﴾ ٤٦ - العنكبوت

﴿ وقفَّينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الَّذين اتَّبعوه رأفة ورحمة ﴾ ٢٧ - الحديد

﴿ وجاعل الَّذين اتَّبعوك فوق الَّذين كفروا إلىٰ يوم القيامة ﴾ ٥٥ - آل عمران

وهى الآيات التى يقابلها آيات تقول :

﴿ إنَّ الدِّين عند الله الإسلام ﴾ ١٩ - آل عمران

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ ٨٥ - آل عمران

النموذج الثالث : الآيات المتعلقة بالمدى المسموح به من الحرية الدينية :

﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ ٦ - الكافرون

﴿ أفأنت تكره النَّاس حتَّىٰ يكونوا مؤمنين ﴾ ٩٩ - يونس

﴿ لا إكراه في الدِّين ﴾ ٢٥٦ - البقرة

وهى الآيات التى يقابلها :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ ٨٣ – آل عمران

النموذج الرابع : الآيات المتعلقة بالموقف من المشركين :

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ ﴾	٢٠ – آل عمران
﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾	٢٣ – فاطر
﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾	١٢ – هود
﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ﴾	٦٣ – النساء
﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾	٨١ – النساء
﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ﴾	١٣ – المائدة
﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾	١٠٥ – المائدة
﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾	١٠٧ – الأنعام
﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾	٢٢ – الغاشية
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾	٥٤ – الإسراء
﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾	١٠ – المزمل
﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾	٥ – المعارج
﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾	١٣٠ – طه
﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾	٨٥ – الحجر
﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾	١٩٩ – الأعراف
﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾	٣٤ – فصلت
﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾	٤٠ – الرعد

هذا بينما نجد آيات لا ترجئ الحساب ليوم القيامة، إنما تضعه بيد الجيش الإسلامى، وتأمر بقتال من لم يسلم، ونموذجا لهذه الآيات :

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ﴾	٢٩- التوبة
﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾	٩١- النساء
﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ﴾	٤ - محمد
﴿ فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ﴾	٨٩- النساء
﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾	١٢ - الأنفال
﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾	٣٩ - الأنفال

وهكذا نجد على الطرفين آيات مثل :

﴿ وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾	٢٠- آل عمران
﴿ فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ﴾	٨٦- النساء
﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾	٦١- الأنفال
﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ﴾	٣٥- محمد
﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ﴾	١٩١ - البقرة
﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾	٥- التوبة

ومن ثم بات واضحا أن جمع الآيات المنسوخة إلى جوار الآيات الناسخة، أنشأ نوعا من التضارب الظاهرى فى الآيات، جل الله تعالى عن ذلك. وقد ذهب العلماء فى تعليل ذلك إلى القول بأن بقاء المنسوخ هو من قسم المنسأ، وهو ما يقول فيه السيوطى : « **فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفى حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر**

على الأذى . . بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله فى وقت ما لعلة تقتضى ذلك الحكم، بل ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله، وقال مكى : ذكر جماعة : أن ماورد من الخطاب مشعراً بالتوقيت والغاية، مثل قوله فى البقرة : فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأسره، محكم غير منسوخ لأنه مؤجل بأجل »[٤٤].

وهكذا ، وتأسيسا على الأخذ بمبدأ أزلية الوحى، أرجع الأمر لباب جديد هو باب المنسأ، بينما الآية التى يوردها السيوطى « فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره» تشير إلى الظرف الموضوعى الذى تجادل معه الوحى وتفاعل . مما أدى لتغير موقف الوحى وتبدله مع تغير وتبدل ذلك الظرف وما يطرأ فيه من تحولات . فالمعلوم أن موقف الإسلام من المسيحية، كان فى البداية موقفا مهادنا متسامحاً يؤكد حرية الاعتقاد، وأن فى الإنجيل هدى ونور، وأن القرآن جاء يصادق على ما سبق وورد فيه، وأن الله رفع أصحابه فوق الكافرين إلى يوم القيامة . لأسباب ظرفية واضحة فى حاجة المسلمين إلى دار هجرة لدى نجاشى الحبشة المسيحية، وحيث رددت شفاه المسلمين هناك الآيات عن المسيح وأمه، فكان أن أحسن استقبالهم ووصلهم بالود والرحمة .

كذلك الحال فى الموقف من اليهودية واليهود، فقد كانت يثرب دار هجرة للمسلمين، بينما كانت معقلا كبيرا ليهود الجزيرة، وكانت (المصلحة) والحكمة تستدعى أن تسبق المسلمين، المهاجرين إلى يثرب، آيات تردد ذكر أنبياء بنى إسرائيل، وقصص العهد القديم، والقرار بأن الله فضلهم على العالمين، وأن توراتهم فيها هدى ونور، وعليهم الحكم بما جاء فيها . وكان أول عمل سياسى هام قام به المصطفى ﷺ عند وصوله يثرب هو عقد الصحيفة التى كفلت حرية الاعتقاد لأهل المدينة جميعا .

---

(٤٤) المرجع السابق : ص ٢١ .

ولكن الظرف لم يستمر على حاله، مما أدى إلى إلغاء الصوم العبرى واستبداله بصوم رمضان العربى، كما ألغيت قبلة بيت المقدس واستبدلت بكعبة مكة، ثم أخذ كل من النبى ﷺ واليهود يكتشفون اختلاف توجهاتهم، ثم يكتشفون اختلافات عميقة، بين ما بين يدى اليهود من التوراة، وبين ما يتلوه رسول الله ﷺ . وهنا اتخذ الأمر وجهة أخرى، خاصة بعد غزوة بدر الكبرى، التى مكنت المسلمين من العتاد والسلاح والقوة المادية والمعنوية. حيث يكشف لنا الوحى أن سبب اختلاف القرآن عن التوراة فى كثير من التفاصيل، إنما يرجع إلى قيام اليهود بتحريف التوراة الأصلية ومن هنا حق قتالهم لتبديلهم آيات الله، ومن ثم نقض الصحيفة وإبطال الحرية الدينية، وجاء الأمر «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله»، بعد أن أصبح «الدين عند الله الإسلام».

وكان الموقف نفس الموقف من المسيحية اليعقوبية بعد انتفاء الحاجة للحبشة ونجاشيها، وكان لابد أن يقول الوحى كلمته إزاء العقائد المسيحية. وهو الأمر الذى ينطبق على الموقف من أهل مكة، حيث بدأت الآيات الحكيمة فى مكة زاخرة بما يلائم حال الضعف التى كان عليها المسلمون وسط أكثرية معادية، فقررت حرية الاعتقاد وأنه لا إكراه فى الدين، والأمر موكول إلى الله يوم القيامة. أما بعد الهجرة من مكة إلى المدينة، وبعد وقعة بدر الكبرى، والتحول من حال الضعف إلى حال القوة، أتت الآيات الناسخة تبطل حرية الاعتقاد، وتأمر بقتال غير المسلمين وقتلهم. وهو الأمر الذى لحظه الإمام السيوطى وجلة الأجلاء من العلماء، لكنهم أدرجوه فى باب المنسأ وهو ما عبرت عنه الآيات بجلاء «فاعفوا واصحفوا **حتى يأتى الله بأمره**».

ما نسخ تلاوته وحكمه

عن (الزهرى) قال: «أخبرنى أبو إمامة .. أن رهطا من أصحاب النبى ﷺ قد أخبروه أن رجلا منهم قام فى جوف الليل، يريد أن يفتتح سورة كان قد وعاها، فلم يقدر على

شيء منهـا إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فأتى النبى ﷺ حين أصبح ، يسأل النبى عن ذلك . وجاء آخر وآخر حتى اجتمعوا ، فسأل بعضهم بعضا ما جمعهم ، فأخبر بعضهم بعضا بشأن تلك السورة ، ثم أذن لهم النبى ﷺ فأخبروه خبرهم وسألوه عن السورة ، **فسكت ساعة لا يرجع إليهم شيئا ، ثم قال : نسخت البارحة**»(٤٥) .

وقد عقب أبو بكر الرازى على باب (ما نسخ تلاوته وحكمه) بالقول : «إنما يكون بأن ينسيهم الله إياه ويرفعه من أوهامهم ويأمرهم بالإعراض عن تلاوته وكتابته فى المصحف ، فيندرس مع الأيام»(٤٦) .

وقد وضع ضمن هذا الباب عددا من الروايات حول عدد من الآيات التى كانت معروفة زمن النبى ، لكنها لم توجد بالقرآن الكريم ، لكن مع تعللات أخرى تشير إلى أحداث فى الواقع ، أدت إلى اختفاء مثل تلك الآيات . ومن تلك الروايات ما جاء عن (شريك بن عاصم) عن (زر) فمن قوله : «قال لى أبى بن كعب : كيف تقرأ سورة الأحزاب؟ قلت : سبعين أو إحدى وسبعين آية ، قال : **والذى أحلف به ، لقد نزلت على محمد ﷺ وأنها لتعادل البقرة أو تزيد عليها** – انظر التهذيب ١٠/ ٤٢ : ٤٤»(٤٧) ، وعن عمر قال : «ليقولن أحدكم : قد أخذت القرآن كله ، وما يدريه ما كله ، **قد ذهب منه قرآن كثير** ، ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر . . وعن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تقرأ فى زمن النبى حتى مائتى آية ، فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا على ما هو الآن . . وعن أبى أمامة ابن سهل أن خالته ، قالت : لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة . وقال حدثنا حجاج ابن جريح ، أخبرنى ابن أبى حميدة عن حميدة بنت يونس قالت : قرأ على أبى وهو ابن ثمانين سنة فى مصحف عائشة : إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا

---

(٤٥) ابن الجوزى : سبق ذكره ، ص ٣٣ .
(٤٦) السيوطى : سبق ذكره ، ج٢ ، ص ٢٦ .
(٤٧) انظر أيضاً : ابن الجوزى : سبق ذكره ، ص ٣٤ .

تسليما، وعلى الذين يصلون فى الصفوف الأولى، قالت: **قبل أن يغير عثمان المصحف**.. وعن أبى سفيان الكلاعى أن مسلمة بن مخلد قال لهم ذات يوم: أخبرونى بآيتين من القرآن لم تكتبا فى المصحف فلم يخبروه، وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك، فقال ابن مسلمة: إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ألا أبشروا أنتم المفلحون، والذين آووه ونصروه وجادلوا عنه القوم الذين غضب عليهم، أولئك لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعلمون»(٤٨). هذا ويورد السيوطى «عن عدى بن عدى قال عمر: كنا نقرأ ألا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم، ثم قال لزيد بن ثابت: أكذلك؟ قال: نعم.. وقال عمر لعبد الرحمن بن عوف ألم تجد فيما أنزل علينا: أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة فإنا لا نجدها، قال: **أسقطت فيما أسقط من القرآن**»(٤٩)، كما روى (مسلم) فى إفراده عن (عائشة) رضى الله عنها أنها أملت على كاتبها: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين (بشرح النووى ٥/ ١٢٩، ١٣٠).

والإشارات من جانب السيدة عائشة إلى دور الجمع فى عهد الخليفة (عثمان) فيما حدث تعود بلاشك إلى كون (عثمان) قد حمل الناس على مصحف واحد، ثم حظر ماعداه، بل وحسم الأمر فحرق ما عداه من صحف قرآنية. وقد عقب (د. طه حسين) على ذلك بقوله: إن النبى ﷺ قال: نزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف، وعثمان حين حظر ما حظر من القرآن، وحرق ما حرق من الصحف، إنما حظر نصوصا أنزلها الله وحرق صحفا كانت تشتمل على قرآن أخذه المسلمون عن رسول الله ﷺ، وما كان ينبغى للإمام أن يلغى من القرآن حرفا أو يحذف نصا من نصوصه. وقد كلف كتابة المصحف نفرا قليلا من أصحاب النبى، وترك جماعة القراء الذين سمعوا من النبى وحفظوا عنه، وجعل إليهم كتابة المصحف، ومن هنا نفهم سر غضب ابن مسعود، فقد

---

(٤٨) السيوطى: سبق ذكره، ج٢، ص ٢٥، ٢٦.
(٤٩) نفسه، ص ٢٥.

كان ابن مسعود من أحفظ الناس للقرآن، وهو فيما يقول قد أخذ من فم النبى ﷺ سبعين سورة من القرآن، ولم يكن زيد بن ثابت قد بلغ الحلم بعد. ولما قام ابن مسعود يعترض الأمر، رافضا تحريق صحف القرآن أخرجه عثمان من المسجد إخراجا عنيفا، وضربت به الأرض فدقت ضلعه(٥٠).

وبعد، فإن ما قدمناه هنا على عجالة، ليس دفاعا عن كتاب الله الكريم، فالكتاب متكامل بذاته، مستغن عن مثل ذلك الدفاع، وليس دفاعا عن عقيدة أو دعوة، فقد بلغ الإسلام تكامله واستقراره فى حياة صاحب الدعوة ﷺ، وهو الأمر الذى لا يخشى معه عرض مسألة من المسائل التى تشغل بال المسلم. ومن ثم فقد حاولنا إبراز شذرات قليلة فى الروايات، تشير إلى ارتباط الوحى بواقعه أثبتها الكتابان السالفان فى هذا المجلد، اللذان ربطا الوحى بكل حادثة موضوعية كانت تحدث فى واقع زمن الدعوة. وكانت محاولتنا بالأساس محاولة لفهم ظاهرة النسخ، **مستندة إلى اعتبار الواقع مقياسا لفهم حركة النص المرتبط به، فينفعل به، ويفعل فيه، من أجل مصالح ومنافع وغايات أعم فى فضلها**، وحسبى هنا إخلاصى النية فى الجهد للفهم. وهو الجهد الذى ربما أصاب وذلك غاية المراد، وربما أخطأ ولا جناح هنا من الطموح إلى ثواب الأجر الواحد، وربما كان جهد المحاولة بين الصواب والخطأ، وربما ألمح إلى طريق حان ولوجه، بكفاءة المقتدرين عنا من متخصصين، وربما كان كل الجهد بلا طائل لسقوطه فى أخطاء غابت عنا. لكن اليقين الذى نعيه تماما ونعتقده ولا نحيد عنه، هو تكامل الوحى وتفاعله التاريخى العظيم مع واقعه، فلم يدخله باطل ولا زيف، ذلك الوحى الكريم الذى جمعته صفحات القرآن الكريم، ووصفه الله عز وجل بأنه ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ١- هود.

* * *

(٥٠) انظر: الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين، دار المعارف، ط١، ج١، صفحات ١٦٠، ١٦١، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣.

المصـادر

١ - القرآن الكريم .
٢ - الكتاب المقدس .
} الكتب المقدسة

٣ - القاموس المحيط .
٤ - لسان العرب .
٥ - المنجد .
} المعاجم

٦ - البخارى
٧ - أبو داود
٨ - الترمذى
٩ - مسلم
} كتب الحديث الشريف

- أ -

١ - ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ليدن، بريل، ١٨٨٦ .
٢ - ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥ .
٣ - ابن آدم : كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩، ص٤٢ .
٤ - الأصفهانى : الأغانى ، دار الكتب المصرية، القاهة، د.ت .
٥ - الأصفهانى : الأغانى ، المكتبة الحيدرية، النجف، ط٢، د.ت* .
٦ - الألوسى : روح المعانى ، ١٢/ ٣٥٣ .
٧ - أمين (أحمد) : فجر الإسلام، مكتبة النهضة العربية، ط١٤، القاهرة، ١٩٨٧ .

- ب -

٨ - (البجاوى) محمد، ومحمد أبو الفضل : أيام العرب فى الإسلام، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٣ .

* تكرار المصدر لأنه أحياناً تكون لدينا نسختين فى طبعتين مختلفتين من ذات الكتاب ، لكن يختلف فيهما وضع الموضوعات بالنسبة للصفحات . وكنا أثناء الكتابة نرجع إلى ما تطوله اليد من المكتبة، لكنا فى كل مرة كنا نُحيل إلى الدار الناشرة .

٩ - البغدادى : خزانة الأدب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٧ .

١٠ -البلاذرى : أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف ، القاهرة ، د . ت .

١١ - البيهقى : دلائل النبوة ، تحقيق عبدالمعطى قلعجى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٨ .

١٢ - البيهقى : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، توثيق د . عبد المعطى قلعجى ، دار الريان للتراث ، القاهر ، ط١ ، ١٩٨٨ .

- ت -

١٣ - ابن تيمية : اقتضاء السراط المستقيم ، دار المعرفة ، بيروت . د . ت .

- ث -

١٤ - ثعلب : شرح ديوان زهير ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

١٥ - الثعلبى النيسابورى : قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، د . ت .

- ج -

١٦- الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

١٧- الجاحظ : الرسائل : جمع ونشر حسن السندوبى ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٣٣ .

١٨ - ابن الجوزى : تلبس ابليس ، تصحيح محمد منير الدمشقى المطبعة المنيرية .

١٩ - ابن الجوزى (جمال الدين) : نواسخ القرآن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٥ .

- ح -

٢٠ - ابن حبيب : المحبر ، تحقيق د . إيلزة شتينر ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، د . ت .

٢١ - ابن حبيب : المحبر ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، د . ت .

٢٢ - ابن حبيب : المنمق فى أخبار قريش ، تحقيق خورشد أحمد فاروق ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الهند ، ط ، ١٩٦٤ .

٢٣ - حسين (د . طه) : الفتنة الكبرى ، دار المعارف ، ط١ .

٢٤ - الحلبى : السيرة الحلبية فى سيرة الأمين الأمون إنسان العيون ، دار المعرفة .

٢٥ - حميد الله (محمد) : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ، دار النفائس ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٥ .

٢٦ - ابن حنبل : كتاب الزهد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨ .

٢٧ - الحوت (محمود سليم) فى طريق الميثولوجيا عند العرب ، دار النهار ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٩ .

- خ -

٢٨ - الخازن : لباب التأويل فى معانى التنزيل ، ١/ ٩٤ .

٢٩ - ابن خلدون : المقدمة ، دار الشعب ، القاهرة ، د . ت .

٣٠ - خليل (خليل أحمد) مضمون الأسطورة فى الفكر العربى ، دار الطيعة ، بيروت ، ١٩٧٧ .

٣١ - ابن خياط (خليفة) : الطبقات ، تحقيق أكرم العمرى ، مطبعة العانى ، بغداد ، ط١ ، ١٩٦٧ .

- د -

٣٢ - دلو (برهان الدين) : مساهمة فى إعادة كتابة التاريخ العربى الإسلامى ، الفارابى ، بيروت ، ١٩٨٥ .

٣٣ - الدياربكرى : تاريخ الخميس، مؤسسة شعبان للنشر، بيروت، د.ت .

٣٤ - الدينورى : الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة، ط١، ١٩٦٠ .

- ز -

٣٥ - الزبيدى : تاج العروس، القاهرة، ١٣٠٦هـ.

٣٦ - زيعود (د. على) : قطاع البطولة والنرجسية فى الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨٢ .

- س -

٣٧ - سالم (د. سالم عبد العزيز) : دراسات فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٠ .

٣٨ - ابن سعد : الطبقات الكبرى، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت .

٣٩ - ابن سعد : الطبقات الكبير، طبعة لندن، ١٩٣٢ .

٤٠ - السقاف (أبكار) : نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت .

٤١ - ابن سلام : الأموال، تحقيق محمد حامد الفقى، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٥٣هـ.

٤٢ - السهيلى : الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨ .

٤٣ - السهيلى : الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ضبط طه عبد الرؤوف، دار المعرفة، ١٩٧٨ .

٤٤ - ابن سيد الناس : عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠ .

- ش -

٤٥ - الشريف (أحمد إبراهيم) : مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربى، القاهرة، ط٢، د.ت .

٤٦ - د. شعبان محمد إسماعيل : مقدمة لكتاب النحاس (الناسخ والمنسوخ) .

٤٧ - شلبى (أحمد) : السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٢، ١٩٨٧ .

٤٨ - الشهرستانى : الملل والنحل : طبعة البابى الحلبى، تحقيق محمد سيد كيلانى، القاهرة، ١٩٦١، والمطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٩٥١ . .

٤٩ - الشيبانى : الاكتساب فى الرزق المستطاب، تلخيص محمد بن سماحة، تحقيق محمد عرنوس، مطبعة الأنوار، القاهرة، ١٩٣٨ .

٥٠ - الشيبانى : شرح كتاب السير الكبير، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٢ .

٥١ - شيخو (الأب لويس) شعراء النصرانية، فى الجاهلية، مكتبة الآداب - الحلمية الجديدة، القاهرة، ١٩٨٢ .

- ص -

٥٢ - صالح (أحمد عباس) : الصراع بين اليمين واليسار فى الإسلام، مجلة الكاتب، القاهرة، ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤ .

- ط -

٥٣ - الطائى (حاتم) : ديوانه، تحقيق وشرح كرم البستانى، مكتبة صادر، بيروت، د.ت .

٥٤ - الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، دارالمعارف، القاهرة، ط٢، د.ت .

٥٥ - الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، د.ت .

- ع -

٥٦ - ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، مكتبة المثنى ، بغداد ، د . ت .

٥٧ - عبد الرحمن (عبدالهادى) : جذور القوة الإسلامية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٨ .

٥٨ - العسقلانى : الإصابة فى تمييز الصحابة ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٣هـ .

٥٩ - العقاد (عباس محمود) إبراهيم أبو الأنبياء ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٦٧ .

٦٠ - العقاد (عباس محمود) طوالع البعثة المحمدية ، دار نهضة مصر . القاهرة ، ١٩٧٧ .

٦١ - على (جواد) : تاريخ العرب فى الإسلام ، دار الحرية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٣ .

٦٢ - على (جواد) : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار الحرية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٣ .

٦٣ - على (جواد) : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، المجمع العلمى العراقى . بغداد ، د . ت .

٦٤ - على حسن العريض : فتح المنان فى تفسير القرآن ، مطبعة الخانجى ، القاهرة ، د . ت .

٦٥ - العمرى (أحمد جمال) الشعراء الحنفاء ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨١ .

- ق -

٦٦ - ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٩ .

٦٧ - ابن قتيبة : عيون الأخبار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ، ١٩٨٦ .

٦٨ - القزوينى (أحمد) : فاجعة الطف ، مطبعة الأهرام ، كربلاء ، ط٩ .

- ك -

٦٩ - ابن كثير : البداية والنهاية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٨٨ .

٧٠ - الكلبى : الأصنام ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٢٤ .

- م -

٧١ - الماوردى : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨ .

٧٢ - د . محمد حسين الصغير : تاريخ القرآن ، الدار العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣ .

٧٣- مدكور (د . إبراهيم بيومى) : فى الفلسفة الإسلامية .

٧٤ - مروة (حسين) : النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية ، دار الفارابى ، بيروت ، ط٦ ، ١٩٨٨ .

٧٥ - المسعودى : مروج الذهب ، تحقيق محيى عبدالحميد ، المكتبة الإسلامية ، بيروت ، د . ت .

٧٦- المقدسى : البدء والتاريخ ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩١٦ .

٧٧- منقوش (ثريا) التوحيد يمان : التوحيد فى تطوره التاريخى ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٧ .

٧٨ - الموسوى (عبد الحسين شرف الدين) : النص والاجتهاد ، مؤسسة الأعلمى ، كربلاء ، العراق ، ١٩٦٦ .

- ن -

٧٩ - النحاس (أبوجعفر) : الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم ، تحقيق د . شعبان محمد إسماعيل ، مكتبة عالم الفكر ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

٨٠ - د . نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص ، دراسة فى علوم القرآن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠ .

- هـ -

٨١ - ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق طه عبد الرؤوف ومحمد محيى ، شركة الطباعة الفنية المتحدة ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

٨٢ - ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٥٥ .

٨٣ - الهمدانى : الأكليل ، بغداد ، ١٩٣١ .

- و -

٨٤ - الواقدى : كتاب المغازى ، تحقيق مرسدن جونز ، منشورات جامعة أكسفورد ، لندن ، ١٩٦٦ ، وأيضاً نشر مؤسسة الأعلامى ، بيروت ، د.ت .

- ى -

٨٥ - اليعقوبى : التاريخ ، المكتبة الحيدرية ، النجف ، ط٤ ، ١٩٧٤ .

٨٦ - أبو يوسف : الخراج ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٩ .

* * *

من أعمال المؤلف

١ - **الموجز الفلسفى** : دار السياسة ، الكويت ، د . ت ، نفذ .

٢ - **مشكلات فلسفية** : بالمشاركة مع آخرين ، التربية الكويتية .

٣ - **رب الثورة** : أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة ، طبعتان : الأولى دار فكر ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، الثانية المركز المصرى لبحوث الحضارة . القاهرة ، ١٩٩٩ .

٤ - **الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية** : ثلاث طبعات ، الأولى دار سينا ، الثانية دار مدبولى الصغير ، الثالثة ضمن الأعمال : الإسلاميات ، المركز المصرى لبحوث الحضارة ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .

٥ - **النبى إبراهيم والتاريخ المجهول** : طبعتان ، دار سينا ، دار مدبولى الصغير ، القاهرة .

٦ - **الأسطورة والتراث** : ثلاث طبعات : الأولى دار سينا ، القاهرة ، والثانية بنفس الدار ، ١٩٩٣ ، الثالثة : المركز المصرى لبحوث الحضارة ، القاهرة ، ١٩٩٩ .

٧ - **حروب دولة الرسول** : ثلاث طبعات : طبعة دار سينا بالقاهرة ، والثانى طبعة مدبولى الصغير ، القاهرة ، الثالثة ضمن الأعمال : الإسلاميات . المركز المصرى لبحوث الحضارة ، القاهرة . ٢٠٠٠ .

٨ - **قصة الخلق ، منابع سفر التكوين** : طبعتان : الأولى دار عيبال ، قبرص ، الثانية بالمركز المصرى لبحوث الحضارة ، القاهرة ، ١٩٩٩ .

٩ - **إسرائيل : التوراة والتاريخ والتضليل** : ثلاث طبعات : الأولى دار عيبال ، قبرص ، والثانية دار قباء ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، الثالثة المركز المصرى لبحوث الحضارة ، القاهرة ، ضمن الأعمال : الإسرائيليات ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .

١٠ - **رب الزمان**: ثلاث طبعات: الأولى لدى دار مدبولى الصغير، القاهرة، وطبعة ثانية لدى دار قباء بالقاهرة ١٩٩٧، والثالثة المركز المصرى لبحوث الحضارة ضمن الأعمال (دراسات)، القاهرة، ٢٠٠٠.

١١ - **السؤال الآخر**: طبعتان: الأولى سلسلة الكتاب الذهبى، مؤسسة روز اليوسف ١٩٩٧، الثانية المركز المصرى لبحوث الحضارة ضمن الأعمال (دراسات)، القاهرة، ٢٠٠٠.

١٢ - **النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة**: أربعة أجزاء، المركز المصرى لبحوث الحضارة، القاهرة ١٩٩٩، طبعة أولى.

١٣ - **الفاشيون والوطن**: المركز المصرى لبحوث الحضارة، القاهرة، ١٩٩٩، طبعة أولى.

* * *

فهرس محتويات الكتاب